المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم الدراسات العليا
قسم العقيدة

الفارق بين الخالق والمخلوق وأثره على توحيد العبادة

رسالة مقدّمة لنيل درجة الماجستير في العقيدة

اعداد الطالبة :

نوال بنت أحمد بن فرحان الغامدي.

الرقم الجامعي: 43180168

إشراف / الدكتورة ابتسام جمال.

1435هـ/1436هـ

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص الرسالة

الحمد لله الهادي المنّان، والصلاة والسلام علىٰ نبينا محمّد خير الأنام، وعلىٰ آله وصحبه، وبعد:

عنوان الرسالة: الفارق بين الخالق والمخلوق وأثره علىٰ توحيد العبادة.

الدرجة العلميّة: ماجستير في العقيدة.

الجهة المقدم إليها: قسم العقيدة، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرىٰ.

يهدف البحث إلىٰ بيان الفارق بين الخالق والمخلوق من أجل تحقيق كمال المطلب الأسمىٰ من العبد والغاية العظمىٰ التي لأجلها كان الخلق وهو توحيد الألوهية، فإنّ منشأ الوقوع في الشّرك وحقيقته هو عدم تحقيق هذا الفرق، ثم إنّ بيان هذا الفارق فيه بيان لوسطية أهل السنة والجماعة؛ ففيه إثبات الصفات له سبحانه كما يليق بعظمته، مع عدم تشبيهها بالمخلوق، فكانت هذه الأهمية للبحث سببًا في اختياره، وكذلك عدم وجود دراسة أو مُؤلّف يعتني ببيانه.

ومن أبرز الموضوعات التي تناولها البحث أنه اشتمل علىٰ تمهيد وبابين، الباب الأول وفيه ثلاثة فصول: الفصل الأول: أنواع الفروق بين الخالق والمخلوق، والثاني: أنواع الأدلة علىٰ الفارق بين الخالق والمخلوق، والثالث: أنواع الأسماء والصفات باعتبار إضافتها إلىٰ الخالق والمخلوق. أما الباب الثاني ففيه ثلاثة فصول: الفصل الأول: الفارق بين الخالق والمخلوق في ثلاث صفات ثلاث ذاتية وهي العلم والقوة والملك، والفصل الثاني: الفارق في ثلاث صفات فعلية وهي المحبة والرحمة والغضب، وأمّا الفصل الثالث: فيحتوي علىٰ أثر العلم بالفارق بين الخالق والمخلوق علىٰ استحقاق الخالق للعبادة وبطلان استحقاق المخلوق لها.

ومن أبرز النتائج والتوصيات التي توصل الباحث إليها:

أولًا: إنّ كثيرًا من الضلالات والانحرافات جاءت من جهة الخلل في تحقيق الفارق بين الخالق والمخلوق، كالشرك في العبادة، وتعطيل صفات الخالق، وتشبيه الخالق بالمخلوق، والقول بالحلول والاتحاد، والاستهانة بالمعاصي، فكلّ هذه الانحرافات كان عدم تحقيق الفارق سببًا رئيسيًا فيها.

ثانيًا: إنّ الاستدلال علىٰ توحيد العبادة تنوعت أساليبه وطرائقه، ومن بينها الاستدلال بالفارق بين الخالق والمخلوق في الصفات، ومن البحوث المقترحة إتمام بقية الصفات وبيان الفارق فيها بين الخالق والمخلوق.

وختامًا: فأسأل الله أن يجعل هذا البحث بحثًا نافعًا مباركًا، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل.

المشرفة: الدكتورة ابتسام جمال. **الطالبة**: نوال بنت أحمد بن فرحان الغامدي.

Thesis Abstract

Thesis Title:

"The Distinction Between the Creator and the Creation and its Implications in maintaining the Oneness of Allah in acts of Worship"

The Academic Degree:

Masters in *Aqidah* (theology), from the Department of Aqidah, College of Da'wah and Usool al-Deen, Umm al-Qura University.

The thesis aims to highlight the differences between the Creator and the creation in order to fully accomplish the purpose of mankind's creation i.e. to worship Allah alone, for one of the main causes of *Shirk* (polytheism) is the blurriness of this distinction. Moreover the correct understanding of this distinction helps in the elucidation of the middle path of the *Ahl us-Sunnah* with regards to the names and attributes of Allah; they affirm the attributes of Allah as befits His majesty but without ascribing any similarity between His traits and those of His creation.

The thesis is made up of two sections:

The First Section: It has three chapters:

1. The types of differences between the Creator and the creation:
2. The types of evidences which prove the distinction
3. The types of names and attributes with regards to their ascription to the Creator and the creation.

The Second Section: It comprises three chapters:

1. The distinction between the Creator and the creation in three attributes of Allah pertaining to His Essence: Knowledge, Power, and Dominion.
2. The distinction between the Creator and the creation in three attributes pertaining to His Actions: Love, Mercy, and Wrath.
3. The implication of the knowledge of the differences between the Creator and the creation in affirming the right of the Creator to be worshiped and nullifying the creation's right to it.

Important inferences and results drawn from the research:

1. Many of the deviances arose because of improper distinction between the Creator and the creation; among them being *Shirk (associating partners)* in acts of worship, denying the attributes of Allah, likening Allah to His creation, and the belief that Allah is omnipresent, etc.
2. There are many evidences for establishing the oneness of Allah in matters of worship; among them being the proper understanding of the distinction between Allah and his creation. The researcher recommends that further research be done on the differences between the Creator and the creation in the rest of the attributes.

At the end I implore Allah to grant us sincerity in our words and deeds.

The Advisor: D. Ibtisām Jamāl

The Researcher: Nawāl bint Ahmed ibn Farhān al-Ghāmdi.

المقدمة

إنّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله، وبعد:

فإن الله خلق الخلق ليعبدوه وحده لا شريك له، وأرسل الرّسل وأنزل الكتب لأجل هذا التوحيد، وجعل أدلة يستدلّ بها العباد علىٰ ذلك، من بينها بيان كمال صفاته سبحانه وبيان نقص المخلوق، والفارق العظيم بينهما، فمِن نِعَم الخالق علينا أن عرّفنا بنفسه وبصفاته وكماله وعرّفنا كذلك بأنفسنا وبصفاتنا ونقصنا، فأظهر لنا الفارق بينه وبين خلقه، وبيّنه أتمّ بيان حسًّا وعقلًا وشرعًا؛ حتىٰ يستدلّ الخلق ويتيقّنوا أنّ من له صفات الكمال هو المستحق للعبادة علىٰ الحقيقة وهو المستحق للتعظيم، وأنّ من له صفات النقص لا يستحق شيئًا من العبادة أو التعظيم.

وحيث إنّ الاشتراك في اطلاق بعض الصفات علىٰ الخالق والمخلوق أدّىٰ عند بعض الطوائف إلىٰ خَللٍ عظيم، كالشرك في الألوهية، وكالتشبيه بين صفات الخالق والمخلوق، وكتعطيل صفات الخالق، وكذلك أدّىٰ عند بعض العِباد إلىٰ أن يتكبر علىٰ خالقه وتتعاظم نفسه عنده فيتعدىٰ حدوده ويتطاول علىٰ ربّه= كان لزامًا أن يبيَّن الفارق بين الخالق والمخلوق في هذه الصفات المشتركة، وأنّها وإن اشتركت في الاطلاق إلا أن بينها فارقًا عظيمًا كما بين ذات الخالق وذات المخلوق، فالربّ ربّ والعبد عبد، وللخالق ما يليق بكماله وعظمته وللمخلوق ما يليق بنقصه وضعفه، فهذا البحث وإن لم يعتن بالردّ المباشر علىٰ هذه الطوائف، إلا أنه تضمّن ذلك، فكلّ من ظهر له الفارق بين الخالق والمخلوق وتيقّن به، زالت عنه جميع تلك الشّبه والضلالات، وتحقق له التوحيد الخالص.

أهمية البحث:

١ ـ من أجل تحقيق كمال المطلب الأسمىٰ من العبد والغاية العظمىٰ التي لأجلها كان الخلق وهو توحيد الألوهية لابد من بيان هذا الفارق.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما إبراهيم وآل إبراهيم الحنفاء من الأنبياء والمؤمنين بهم فهم يعلمون أنه لا بد من الفرق بين الخالق والمخلوق ولا بد من الفرق بين الطاعة والمعصية، وأن العبد كلما ازداد تحقيقًا لهذا الفرق ازدادت محبته لله وعبوديته له وطاعته له وإعراضه عن عبادة غيره ومحبة غيره وطاعة غيره»(١).

٢ ـ العلم بالفارق بين الخالق والمخلوق من العلوم التي تحصّل كمال القوة العلمية، فكلما ازداد العبد علمًا بفقره وعجزه وضعفه وجهله ازداد معرفة بغنىٰ الرب وقدرته وقوته وعلمه، وكلما وجد في نفسه شيئًا من صفات المدح علم أن مُعطيها وواهبها هو الله سبحانه وتعالىٰ فهو بالمدح والكمال أولىٰ، والحاجة لهذا العلم في هذا الزمان أشدّ، حيث تعاظم أمر الإنسان واغترّ بقدراته التي هي في الأصل هبة من المنّان.

٣ ـ كما هو معلوم فإن منشأ الوقوع في الشرك وحقيقته هو عدم تحقيق الفرق بين الخالق والمخلوق.

يقول الإمام ابن القيم: «حقيقة الشرك: هو التشبه بالخالق والتشبيه للمخلوق به، هذا هو التشبيه في الحقيقة، لا إثبات صفات الكمال التي وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسوله، فعكس الأمر من نكس الله قلبه وأعمىٰ عين بصيرته وأركسه بكسبه، وجعل التوحيد تشبيهًا والتشبيه تعظيمًا وطاعة، فالمشرك مشبه للمخلوق بالخالق في خصائص الإلهية»(٢).

٤ ـ فيه بيان لوسطية أهل السنة والجماعة، فلم يعطّلوا صفات الخالق ولم يشبهوها بصفات المخلوق، بل أثبتوا الصفات التي أثبتها سبحانه لنفسه مع اعتقاد الفارق العظيم بينها وبين صفات المخلوق، وقد أظهر البحث جزءًا يسيرًا من هذا الفارق.

سبب اختيار موضوع البحث:

١ ـ ما سبق من الإشارة إلىٰ شيء من أهميته، دفعني للبحث فيه.

(١) العبودية، لابن تيمية، ج١، ص١٢٦.

(٢) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، لابن القيم، ص٢٠٢.

٢ ـ عدم وجود دراسة أو مؤلّف يعتني ببيانه، مع أهميته ومكانته.

٣ ـ رغبتي الشّديدة في أن يكون موضوع البحث متعلقـًا بقسمي التوحيد العلمي والعملي اللَّذين هما أشرف العلوم وأجلّها، فأتىٰ هذا البحث الذي يجمع بينهما في موضوع واحد.

٤ ـ الحاجة الماسّة في هذا العصر لمثل هذا التأصيل، حيث بلغ حال بعض الخلق في تعظيم ذاته مبلغًا خطيرًا، تحت مسميات جذّابة.

الدراسات السابقة:

لم أجد أحدًا قد كتب في هذا الموضوع ـ حسب ما ظهر لي ـ بصورة مستقلة، سواء كان بحثًا أكاديميًا أو غيره.

– للدكتور سعود العريفي ـ حفظه الله ـ بحث في مجلة «الأصول والنوازل»(١) تكلّم فيه عن الفرق بين الخالق والمخلوق في صفة الملك وعلاقته بالعقيدة، وكما هو واضح فقد تكلم عن الفرق في صفة واحدة وهي صفة الملك بينما بحثي تكلمت فيه عن ستّ صفات منها صفة الملك، وكذلك تكلم عن علاقته بالعقيدة وصفائها، وفي هذا البحث بيان أثره علىٰ توحيد العبادة.

– وكذلك يوجد كتاب بعنوان "الفارق بين الخالق والمخلوق" لعبد الرحمن الباجه، وهومتعلق بالردّ علىٰ النصارىٰ وكونهم لم يفرقوا بين عيسىٰ عليه السلام وبين الله، فموضوعي بعيد عنه وإن كان الاسم قريبًا منه.

خطة البحث:

أولا: المقدمة، واشتملت علىٰ ما يلي:

١ ـ أهمية البحث.

---

(١) العدد الثامن، رجب ١٤٣٣هـ.

٢ ـ سبب اختيار موضوع البحث.

٣ ـ الدراسات السابقة.

٤ ـ خطة البحث.

٥ ـ منهج البحث.

٦ ـ الشكر والتقدير.

ثانيًا: التمهيد، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: أهمية معرفة الفروق في المسائل العلمية.

المبحث الثاني: المراد بالفارق بين الخالق والمخلوق وأهمية العلم به، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: المراد بالفارق بين الخالق والمخلوق، وفيه ثلاث مسائل:

المسألة الأولىٰ: المراد بالفارق.

المسألة الثانية: المراد بالخالق والمخلوق.

المسألة الثالثة: المراد بالفارق بين الخالق والمخلوق.

المطلب الثاني: أهمية العلم بالفارق بين الخالق والمخلوق.

المبحث الثالث: المراد بتوحيد العبادة وأهميته، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: المراد بتوحيد العبادة، وفيه ثلاث مسائل:

المسألة الأولىٰ: المراد بالتوحيد.

المسألة الثانية: المراد بالعبادة.

المسألة الثالثة: المراد بتوحيد العبادة.

المطلب الثاني: أهمية توحيد العبادة.

الباب الأول: مفاهيم متعلقة بالفارق بين الخالق والمخلوق، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: أنواع الفروق بين الخالق والمخلوق، وفيه تمهيد وثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الفرق في الذات، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: معنىٰ الذات، وثبوت اللفظ في حق الخالق والمخلوق، وفيه مسألتان:

المسألة الأولىٰ: معنىٰ "الذات".

المسألة الثانية: ثبوت لفظ "الذات" في حق الخالق والمخلوق.

المطلب الثاني: الفرق بين ذات الخالق وذات المخلوق.

المبحث الثاني: الفرق في الاسم، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: معنىٰ الاسم، وثبوت اللفظ في حق الخالق والمخلوق، وفيه مسألتان:

المسألة الأولىٰ: معنىٰ "الاسم".

المسألة الثانية: ثبوت لفظ "الاسم" في حق الخالق والمخلوق.

المطلب الثاني: الفرق بين اسم الخالق واسم المخلوق.

المبحث الثالث: الفرق في الوصف، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: معنىٰ الصفة، وثبوت اللفظ في حق الخالق والمخلوق، وفيه مسألتان:

المسألة الأولىٰ: معنىٰ "الصفة".

المسألة الثانية: ثبوت لفظ "الصفة" في حق الخالق والمخلوق.

المطلب الثاني: الفرق بين صفات الخالق وصفات المخلوق.

الفصل الثاني: أنواع الأدلة علىٰ الفارق بين الخالق والمخلوق، وفيه تمهيد ومبحثان:

المبحث الأول: الأدلة النقلية علىٰ الفارق بين الخالق والمخلوق.

المبحث الثاني: الأدلة العقلية علىٰ الفارق بين الخالق والمخلوق.

الفصل الثالث: أنواع الأسماء والصفات باعتبار إضافتها إلىٰ الخالق والمخلوق، وفيه

تمهيد ومبحثان:

المبحث الأول: الأسماء والصفات المختصة.

المبحث الثاني: الأسماء والصفات المشتركة بين الخالق والمخلوق، وفيه مطلبان:

المطلب الأولىٰ: اعتبارها من حيث هي مطلقًا.

المطلب الثاني: اعتبارها مضافة، وفيه مسألتان:

المسألة الأولىٰ: مضافة للخالق مختصة به.

المسألة الثانية: مضافة للمخلوق مختصة به.

الباب الثاني: الفارق بين الخالق والمخلوق وأثره علىٰ توحيد العبادة، وفيه تمهيد وثلاثة فصول:

التمهيد: المراد بالصفات الذاتية والفعلية.

الفصل الأول: الفارق بين الخالق والمخلوق في الصفات الذاتية، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الفارق بين الخالق والمخلوق في صفة العلم، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: معنىٰ صفة العلم والأدلة علىٰ ثبوتها في حق الخالق والمخلوق، وفيه أربع مسائل:

المسألة الأولىٰ: معنىٰ صفة العلم في اللغة.

المسألة الثانية: معنىٰ صفة العلم في حق الخالق.

المسألة الثالثة: معنىٰ صفة العلم في حق المخلوق.

المسألة الرابعة: الأدلة علىٰ ثبوت صفة العلم في حق الخالق والمخلوق.

المطلب الثاني: الفارق بين الخالق والمخلوق في صفة العلم.

المبحث الثاني: الفارق بين الخالق والمخلوق في صفة القوة، وفيه مطلبان:

الخالق للعبادة وبطلان استحقاق المخلوق لها، وفيه تمهيد ومبحثان:

المبحث الأول: أثر العلم بالفارق بين الخالق والمخلوق في الصفات المتعلقة بتوحيد الربوبية، وفيه تمهيد وخمسة مطالب:

المطلب الأول: صفة الخلق.

المطلب الثاني: صفة الملك.

المطلب الثالث: صفة الرزق.

المطلب الرابع: صفة النفع والضر.

المطلب الخامس: صفة الهداية والنصرة.

المبحث الثاني: أثر العلم بالفارق بين الخالق والمخلوق في صفات الكمال المطلق، وفيه تمهيد وخمسة مطالب:

المطلب الأول: صفة الحياة.

المطلب الثاني: صفة العلم.

المطلب الثالث: صفة الغنىٰ.

المطلب الرابع: صفتي السمع والبصر.

المطلب الخامس: صفة القوة والقدرة.

الخاتمة وتحتوي علىٰ أهم النتائج والتوصيات، ثم الكشّافات.

منهج البحث وعملي فيه:

منهج البحث هو المنهج الاستقرائي والمنهج الاستنباطي، حيث يتم استقراء النصوص من القرآن والسنة النبوية، ثم استنباط الفارق بين الخالق والمخلوق في الصفات وأثره علىٰ توحيد العبادة، مدعّمة ذلك بكلام السلف رحمهم الله.

وأما عملي في البحث فهو كما يلي:

- قمت بجمع المادة العلمية المتعلقة بصفات الخالق والمخلوق من الآيات القرآنية ابتداءً، ثم جمعت ما تيسر لي من تفسير هذه الآيات من كتب التفسير إلا أن اعتمادي على تفسير الطبري وابن كثير والسعدي ـ رحمهم الله ـ هو الغالب، حيث إنها من الكتب التي سار مؤلفوها على منهج أهل السنة الجماعة في تقرير الصفات، وقد لاحظت مزيدًا من العناية فيها على الكلام حول الصفات، فكثيرًا ما أجد بغيتي فيها، وإذا لم أجد المعنى المراد عندهم رجعت لغيرهم.

- جمعت أيضًا ما تيسر لي من الأحاديث النبوية وشروحاتها عند المتقدمين والمتأخرين.

- بحثت كذلك في كتب العقيدة، والمعاجم، وغيرها من المراجع.

- بعد هذا الجمع للمادة العلمية أحاول استنباط الفروقات والمعاني حسب ما يظهر لي وقد أجد بعض الإشارات لهذه الفروقات، لكنها قليلة جدًا.

- عند ذكر الفارق في الصفة أبدأ بالمعنى في اللّغة ثم معناه في حق الخالق والمخلوق، ثم أذكر الأدلّة على ثبوت المعنى في حق الخالق والمخلوق، وبعدها أذكرالقدر المشترك والقدر الفارق.

- اعتمدت في الغالب على النصوص القرآنية، مع عدم إهمال النصوص من السنّة النبوية.

- لم أتعرض لكلام المخالفين وآرائهم إلا إذا دعت الحاجة لذلك، كما في الصفات الفعلية التي تظهر فيها المخالفة جليّة.

- قد تتكرر الأدلةإلا أن وجه الدلالة يختلف.

- لم أتمكن من البحث في جميع الصفات حيث إن جمع المادة العلمية لإبراز الفارق يتطلب جهدًا كبيرًا ووقتًا طويلًا، فصفة الرحمة على سبيل المثال بحثت فيها في قرابة ٥٠٠ دليل.

- لم أحاول استقصاء جميع الفوارق في كلّ صفة، فالأمر خارج عن إحاطة البشر، وإنما ذكرت أمثلة ودللت عليها.

الآيات القرآنية:

عزوت الآيات القرآنية إلىٰ مواضعها في القرآن الكريم مع ذكر اسم السورة ورقم الآية.

الأحاديث النبوية:

- إذا كان الحديث في الصحيحين أو في أحدهما فإني أكتفي بالعَزو إليه، أما إن كان في غير الصحيحين أو أحدهما فإني أخرجه من بقية كتب السنّة، مع العناية ــ قدر المستطاع ــ بنقل كلام المتقدمين والمتأخرين في الحكم علىٰ الحديث تصحيحًا وتضعيفًا.

- أذكر في تخريج الحديث اسم الصحابي الراوي للحديث لو أغفلته في النص.

- أنص في تخريج الحديث علىٰ اسم المؤَلّف الحديثي المخرج منه، مع ذكر اسم الكتاب والباب ورقم الحديث والصفحة.

- أخرّج الحديث في أول موطن يرد، وإذا تكرر في مواطن أخرىٰ فأكتفي بالإشارة لتقدمه، مع الاستغناء عن الإشارة لموضع تخريجه بفهرس الأحاديث الشريفة.

الآثار:

- خرّجت الآثار من مظانها قدر المستطاع.

- أخرّج الأثر في أول موطن يرد، وإذا تكرر في مواطن أخرىٰ فأكتفي بالإشارة لتقدمه، مع الاستغناء عن الإشارة لموضع تخريجه بفهرس الآثار.

الأعلام:

- ترجمت لكافة الأعلام الوارد ذكرهم عدا مشاهير الأعلام، كالأنبياء والصحابة والتابعين وأئمة المذاهب الفقهية وأصحاب المصنفات الحديثية، ومشاهير المفسرين، وغيرهم ممن اشتهر وعرف كشيخ الإسلام ابن تيمية والإمام ابن القيم والشيخ السعدي

والشيخ ابن عثيمين، رحمهم الله أجمعين.

- أترجم للأعلام في أول موطن يرد ذكره ولا أشير إلىٰ ذلك عندما يتكرر اكتفاء بفهرس الأعلام.

الفرق والأديان:

- عرفت بالفرق والأديان الوارد ذكرها.

الأبيات الشعرية:

- اجتهدت في نسبة الأبيات لقائليها، مع إحالتها إلىٰ مصادرها.

الفهارس العامة:

وضعت فهارس لما يلي:

- فهرس الآيات القرآنية.
- فهرس الأحاديث النبوية.
- فهرس الآثار.
- فهرس الأعلام.
- فهرس المراجع.
- فهرس الموضوعات.

تبعت هذا المنهج في جميع أجزاء البحث، إلا لسبب يقتضيه المقام، أو ما كان من سهو أو نسيان، فهو طبيعة العمل البشري الذي لا بدّ أن يعتريه النقص والخلل، فقد أبىٰ الله الكمال إلا له، فما كان من صواب من الله وحده فله الحمد أولاً وآخراً وما كان من خطأ فمن نفسي والشيطان، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

شكر وتقدير

أثني علىٰ ربي وخالقي وأحمده أن أكرمني بهذا الأمر، وأعانني علىٰ إتمامه من غير حول منّي ولا قوة، وسخّر لي خلقه، فما بي من نعمة فمنه وحده لا شريك له، لا أحصي ثناء عليه هو أهل الثناء والمجد، له الحمد والشكر أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا.

ثم إنّ من لا يشكر الناس لا يشكر الله، فأشكر أولًا الدكتورة ابتسام جمال المشرفة علىٰ الرسالة، جزاها الله خيرًا علىٰ توجيهاتها المباركة والنافعة.

والشكر كذلك لكل من سخره الله وجعله عونًا لي علىٰ انجاز هذا البحث، وممن كان لهم اليد والفضل علي بعد الله دكتورنا الفاضل، عبد الله الدميجي، فقد كان موجهًا لي من أول أمري إلىٰ آخره، لم يثنه كثرة أسئلتي وكثرة مشاغله عن توجيهي ونصحي، فليس لي حيلة في ردّ جميله إلا أن أتوجه للخالق وأدعوه أن يكافئه ويجزيه خير الجزاء، وأن يجعل الجنّة مثواه.

ومن أولاهم حقًا علي شيختي وأستاذتي الفاضلة أناهيد السميري، فقد جعلها الله سببًا في سلوكي طريق الطلب وترغيبي فيه، وتدريبي علىٰ البحث في كتب المتقدمين من أهل العلم والنّهل منها، فإن هذا البحث هو ثمرة لما تعلمته علىٰ يديها، فأسأل الله أن يجزيها عنّي خير الجزاء وأتمّه وأوفاه.

والشكر كذلك لزوجي وأبنائي علىٰ كلّ ما قدموه لي من دعم معنوي أو حسّي، فأسأل الله أن يكتب لهم الأجر والمثوبة، وأن يقرّ عيني بصلاحهم.

ومن قبل هؤلاء كلّهم أقدّم كلّ الشكر والعرفان لوالدتي الحبيبة، حفظها الله لنا وأطال في عمرها علىٰ حسن طاعة، فقد كانت دعواتها وتشجيعها الدائم لي باعثًا لهمتي ودافعًا لعزيمتي، فجزاها الله كل خير، وجمعني بها في جنّة الخلد مع والدي رحمه الله وغفر له.

وأخص بالشكر كذلك أخواتي العزيزات، سميرة باخشوين وعواطف باطرفي فقد مدّا لي يد العون والمساعدة، طوال مشوار البحث، فكتب الله أجرهما وأحسن إليهما.

كما أتوجه بالشكر والتقدير لفضيلة الأساتذة المناقشين علىٰ تفضلهم بقبول مناقشة هذه الرسالة، وأسأل الله تعالىٰ أن يجعلهم مباركين وأن يهدينا جميعًا ويسددنا لما فيه الخير والصلاح.

والشكر موصول لجامعة أم القرىٰ ممثلة في كلية الدعوة وأصول الدين، وفي قسم العقيدة، علىٰ ما بذلوه من جهد لتيسير العلم الشرعي لطلابها.

وأخيرًا، فأسأل الله بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ وباسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يكون حجة لي لا عليّ، وأن يكون عملي مباركًا نافعًا.

وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبيّنا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

التمهيد

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: أهمية معرفة الفروق في المسائل العلمية.

المبحث الثاني: المراد بالفارق بين الخالق والمخلوق وأهمية العلم به.

المبحث الثالث المراد بتوحيد العبادة وأهميته.

المبحث الأول

أهمية معرفة الفروق في المسائل العلمية

الفروق في العلوم الشرعية أنواع: فمنها ما هو متصل بالمسائل العقدية، ومنها ما هو متصل بالمسائل الفقهية، ومنها ما هو متصل بالمسائل الأصولية، وعلىٰ اختلاف مشاربها وأنواعها إلا أنّ هذا العلم له أهمية بالغة ومن ذلك علىٰ سبيل المثال لا الحصر:

١ ـ إنّ الدين في أساسه جاء ليفرّق بين الحق والباطل، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الله سبحانه وتعالىٰ بعث محمدًا بالهدىٰ ودين الحق؛ ليخرج الناس من الظلمات إلىٰ النور، ففرق به بين الحق والباطل، والهدىٰ والضلال، والرشاد والغي، والصدق والكذب، والعلم والجهل، والمعروف والمنكر، وطريق أولياء الله السعداء وأعداء الله الأشقياء»(١)، وقال الإمام ابن القيم: «والدين كله فرق، وكتاب الله فرقان، ومحمد ﷺ فرّق بين الناس، ومن اتقىٰ الله جعل له فرقانًا ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٩]، وسمىٰ يوم بدر يوم الفرقان؛ لأنه فرّق بين أولياء الله وأعدائه»(٢)، ومن ذلك ما جاء من بيان الفارق بين الخالق والمخلوق في نصوص كثيرة، كقوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

٢ ـ معرفة الفروق في العلوم الشرعية بها « يُطّلع علىٰ حقائق المصطلحات وأسرارها، ومدارك المسائل ومآخذها وأحكامها. فلا غرو أن كان من مهمات العلوم ومن عمد الفهوم»(٣)، فالكفر مصطلح شرعي، لكن لا يمكن الاطّلاع علىٰ حقيقته وأحكامه ومراد الشارع منه إلا بمعرفة الفرق بين أنواعه وصوره.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج١٣، ص٦.

(٢) الروح، لابن القيم، ص ٥٧٤.

(٣) مقدمة كتاب الفروق في مباحث الكتاب والسنة عند الأصوليين، لهشام بن محمد السعيد، ص١.

٣ ـ إنّ تقارب المعاني يؤدي إلىٰ حصول إشكالات، ومعرفة الفروقات يزيل هذا التشابه والتقارب في المعاني[(١)]، قال الإمام ابن القيم: «فالشيء الواحد تكون صورتُه واحدةً، وهو منقسم إلىٰ محمود ومذموم»[(٢)].

يقول أبو هلال العسكري[(٣)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثم إني ما رأيت نوعًا من العلوم، وفنًا من الآداب إلا وقد صنّف فيه كتب تجمع أطرافه، وتَنْظِم أصنافه، إلا الكلام في الفرق بين معان تقاربت حتىٰ أشكل الفرق بينها»[(٤)].

٤ ــ إنّ عدم ملاحظة الفروق بين بعض المسائل سبب للزيغ والضلال، والتنبّه لها ومعرفتها سبب للهدىٰ والفلاح، فمن أمكنه تمييز هذه الفروق، فقد سلك طريق أهل الحق، ومن لم يفرّق، فقد جانب الحق وضلّ الطريق؛ ذلك أن الحقّ والباطل لابدّ أن يشتركا في بعض الوجوه، لكن لكلّ منهما خصائص تميّزه، قال الإمام ابن القيم: «فالهدىٰ كله فرقان، والضلال أصله الجمع»[(٥)]، وقال: «ما من حق وباطل إلا وبينهما اشتراك من بعض الوجوه، ولو في أصل الوجود، أو في أصل الإخبار، أو في مجرد المعلومية، بأن يكون هذا معلومًا مذكورًا، وهذا معلومًا مذكورًا، ولكل واحد منهما خصائص يتميز بها عن الآخر، فأحظىٰ الناس بالحق وأسعدهم به الذي يقع علىٰ الخصائص المميزة الفارقة، ويلغي القدر المشترك فيحكم بالقدر الفارق علىٰ القدر المشترك ويفصله به وأبعدهم عن الحق والهدىٰ من عكس

(١) انظر: القواعد المثلىٰ، لابن عثيمين، ص ١٣١.

(٢) الروح، لابن القيم، ص ٥١٥.

(٣) أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العَسْكَري، عالم بالأدب، قال ياقوت: أما وفاته فلم يبلغني فيها شيء غير أني وجدت في آخر كتاب (الأوائل) من تصنيفه: (وفرغنا من إملاء هذا الكتاب يوم الأربعاء لعشر خلت من شعبان سنة خمس وتسعين وثلاثمائة) من كتبه (التلخيص) في اللغة، و(جمهرة الأمثال) و (الفروق) في اللغة. المرجع: الأعلام للزركلي، ج٢، ص١٩٦.

(٤) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص ٢١.

(٥) الروح، ابن قيم الجوزية ، ص ٥٧٤.

هذا السير، وسلك ضدّ هذه الطريق، فألغىٰ الخصائص الفارقة، وأخذ القدر المشترك وحكم به علىٰ القدر الفارق وأضل منه من أخذ خصائص كل من النوعين فأعطاها للنوع الآخر، فهذان طريقا أهل الضلالة اللتان يرجع إليهما جميع شعب ضلالهم وباطلهم»[1]، وانظر إلىٰ الذين لم يَفْطنوا للفروق بين عبادة الله وعبادة الشيطان، وبين آيات الأنبياء والسحرة والمشعوذين، وبين الخالق والمخلوق، كيف ضلّوا وزاغوا[2].

٥ ـ إنّ المعرفة بالفروق: هي طريق الفهم للنّصوص الشّرعية فلا فهم لمن لا يفقه الفرق[3]، ذلك أنّ فهم النصوص الشرعية قائم علىٰ معرفة الفروق بين الأمور المشتركة والنظائر المتشابهة، فمن أمكنه معرفتها استطاع أن ينزّل القضايا علىٰ ما يناسبها فيكون عنده من البصيرة ما ليس عند غيره، قال الإمام ابن القيم: «والمقصود أنّ أرباب البصائر هم أصحاب الفرقان، فأعظم الناس فرقاناً بين المشتبهات أعظم الناس بصيرة.والتشابه يقع في الأقوال والأعمال والأحوال والأموال والرجال، وإنما أتىٰ أكثر أهل العلم من المتشابهات في ذلك كلّه»[4].

٦ ـ إنّ معرفة الفروق بين المسائل العلميّة سبب لتقليل الخلاف في المسائل الخلافية؛ حيث يكون منشأ الخلاف هو عدم التفريق بين أمرين، فالفِرق المخالفة لأهل السنة في مسألة القدر مثلًا، لو أنهم فرقوا بين قدرة المخلوق وقدرة الخالق، وفسروا قدرة الله بالخلق، وقدرة العبد بالسبب، لأمكنهم أن يجمعوا بينهما، ويثبتوا للخالق قدرة، وللمخلوق قدرة، لكنهم لم يفرّقوا بينهما وجعلوا القدرة هي الخلق في حقّ الخالق والمخلوق، فلم يمكنهم الجمع بينهما، فإمّا أن يثبتوها للخالق وينفوها عن المخلوق، أو يثبتوها للمخلوق وينفوها عن الخالق.

---

(١) الصواعق المرسلة، لابن القيم، ج٤، ص ١٢١٦.

(٢) انظر: مجموع الفتاوىٰ، ابن تيمية، ج١٣، ص٦.

(٣) انظر: مقدمة كتاب الفروق في مباحث الكتاب والسنة عند الأصوليين، لهشام بن محمد السعيد، ص١.

(٤) الروح، ابن قيم الجوزية، ص ٥٧٥.

٧ ـ علم الفروق يجعل العبد مميزًا بين الحق والباطل، والخير والشرّ، والصالح والفاسد، قال الإمام ابن القيم: «والفرقان أعزّ ما في هذا العالم، وهو نور يقذفه الله في القلب، يفرق به بين الحق والباطل، ويزن به حقائق الأمور خيرها وشرّها، وصالحها وفاسدها، فمن عدم الفرقان وقع ولا بدّ في إشراك الشيطان، فالله المستعان وعليه التكلان»[١].

٨ ـ المعرفة بالفروق تبعث على إثارة الأفكار وتمييز أقدار العلماء، قال الإسنوي[٢] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن المطارحة بالمسائل ذوات المآخذ المؤتلفة المتفقة، والأجوبة المختلفة المفترقة، مما يثير أفكار الحاضرين في المسالك، ويبعثها على اقتناص أبكار المدارك، ويميز مواقع أقدار الفضلاء، ومواضع مجال العلماء»[٣].

(١) الروح، ابن قيم الجوزية، ص ٥٨٧.

(٢) هو أبو محمد عبد الرحيم بن الحسن الإسنوي، الشافعي، منقح الألفاظ ومحقّق المعاني. من تصانيفه: «كافي المحتاج في شرح المنهاج»، ومطالع الدقائق، وغير ذلك. توفي سنة ٧٧٢هـ. المرجع: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٨، ص٣٨٣، والأعلام للزركلي، ج٣، ص٣٤٤.

(٣) مقدمة كتاب الفروق في مباحث الكتاب والسنة عند الأصوليين، لهشام بن محمد السعيد، ص١.

المبحث الثاني

المراد بالفارق بين الخالق والمخلوق وأهمية العلم به

وفيه مطلبان:

المطلـــــب الأول: المراد بالفارق بين الخالق والمخلوق.

وفيه ثلاث مسائل:

المسألة الأولىٰ: المراد بالفارق.

المسألة الثانية: المراد بالخالق والمخلوق.

المسألة الثالثة: المراد بالفارق بين الخالق والمخلوق.

المطلــب الثـــاني: أهمية العلم بالفارق بين الخالق والمخلوق.

المطلب الأول

المراد بالفارق بين الخالق والمخلوق

المسألة الأولى: المراد بالفارق:

- **معنىٰ الفارق لغة:**

فارق: اسم فاعل من فرَقَ وجمعها فوارق، وفرَقَ مصدرها فرْق[(١)].

والفرق بين الشيئين: مأخوذ من التمييز والتزييل والفصل بين الشيئين، سواء كان مما يدرك بالبصر أو بالبصيرة، وسمّي القرآن فرقانًا؛ لأنه يفصل بين الحق والباطل[(٢)]، قال الإمام ابن كثير في قوله تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، «ولهذا سمّاه هاهنا الفرقان لأنّه يفرق بين الحق والباطل والهدىٰ والضلال، والغي والرشاد والحلال والحرام»[(٣)]، وسمّي يوم بدر بيوم الفرقان؛قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١]؛ لأنه يوم فرّق بين الحقّ والباطل[(٤)]، وسمّيت الملائكة فارقات قال تعالىٰ: ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا﴾ [المرسلات: ٤]؛ لأنّها تُزِيل بين الحلال والحرام[(٥)]، وتفصل بين الأشياء علىٰ ما أمرها الله[(٦)].

---

(١) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لأحمد مختار عمر، ج٣، ص ١٦٩٩، لم أجدها في المعاجم.

(٢) انظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، ج٤، ص٤٩٣، والمفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، ج٢، ص٤٨٨، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج ١، ص٤٢٩، ولسان العرب، لابن منظور، ج ١٠، ص٢٤٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج ٣، ص ٣٣٩.

(٤) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري، ج٦، ص ٢٥٥.

(٥) لأنها تنزل بالفرق بين الحق والباطل.

(٦) انظر: المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، ج ٢، ص ٤٨٨، ولسان العرب، لابن منظور، ج ١٠، ص ٢٤٤.

وفارق الشيء الشيء أي: باينه[1]، وفرّق بين المتشابهين يعني بيّن أوجه الخلاف بينهما[2].

- **الفرق بين "فرق" المخففة والمشددة:**

أهل اللغة على قولين في المسألة:

١ ـ إنّه لا فرق بينهما، وأنّ التثقيل للمبالغة[3].

٢ ـ إنّ بينهما فرقًا وهم على قولين:

أ ـ إنّ المخففة تستعمل في المعاني، والمشددّة في الأعيان.

يُقال: «فَرَقْتُ بين الكلامين فافترقا مخفف وَفَرَّقْتُ بين العبدين فتفرّقا مثقّل فجعل المخفف في المعاني والمثقّل في الأعيان»[4].

ويُؤخذ على هذا التفريق أنّه قد وقع في كتاب الله تعالى خلاف ذلك، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ ﴾ [البقرة: ٥٠]، فخفّف في البحر مع أنّه جسم وإن كان قد جاء على القاعدة في قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٣٠][5].

ب ـ وقيل: إنّ المخفّفة تستعمل في الصّلاح والمشدّدة في الإفساد[6].

والظاهر والله أعلم صحة القول الأول، وهو أنّها للمبالغة؛ لعدم الاضطراد في القول الثاني.

---

(١) انظر: لسان العرب، لابن منظور، ج ١٠، ص ٢٤٣.

(٢) انظر: المعجم الوسيط، لإبراهيم مصطفى وآخرون، ص ٦٨٥.

(٣) انظر: المصباح المنير، للحموي، ص ٢٧٢.

(٤) المرجع السابق.

(٥) انظر: الفروق، للقرافي، ج١، ص١٢.

(٦) انظر: لسان العرب، لابن منظور، ج ١٠، ص ٢٩٩.

- **تعريف علم الفروق:**

هو «العلم الذي يعنىٰ ببيان أوجه الاختلاف بين شيئين متشابهين في المبنىٰ أو المعنىٰ الأعم[1]، مختلفين في الحكم والمعنىٰ الأخص»[2].

المسألة الثانية: المراد بالخالق والمخلوق.

- **معنىٰ الخَلْق في اللغة:**

الخلق في كلام العرب علىٰ وجهين:

أحدهما: الإنشاء والإبداع علىٰ غير مثال سابق.

ومنه قوله عز وجل: ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖ﴾ [الزمر: ٦]، فيخلق الإنسان نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظامًا ثم يكسو هذه العظام لحمًا ثم يصوّره وينفخ فيه الروح، فالخالق هو المُوجد للمخلوق، والذي أنشأه علىٰ غير مثال سابق[3]، وهذا المعنىٰ قد اُختص الخالق به فلا يخلق إلا هو.

الثاني: التقدير.

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، أي أحسن المقدّرين.

قال الشاعر[4]:

ولأنت تفري ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفري

والمعنىٰ: أنك تنفّذ ما قدّرت، وبعض القوم يقدّر إلا أنّه لا ينفّذ[5]، وهذا المعنىٰ يُطلق

(١) وسيأتي بيان أن صفات الخالق والمخلوق بينهما قدر مشترك، وهو لا يلغي القدر الفارق.

(٢) الُفروق الأصولية عند الإمام الطُّوفي، لماجد بن عجلان، ص٣٣.

(٣) انظر: تهذيب اللغة، للأزهري، ج٧، ص٢٥، ولسان العرب، لابن منظور، ج ٤، ص ١٩٢، ١٩٤.

(٤) القائل: زهير بن أبي سلمىٰ، المرجع: جمهرة الأمثال، للعسكري، ج٢، ص٥٠.

(٥) انظر: تهذيب اللغة، للأزهري، ج٧، ص٢٥،، ولسان العرب، لابن منظور، ج ٤، ص ١٩٢، ١٩٤.

على الخالق والمخلوق، إلا أنه ينبغي ترك وصف المخلوق به، حتى لا يتوهم أحد التشبيه بالخالق(١).

- **معنى الخالق:**

الخالق: اسم من أسماء الله مختص به لا يجوز أن يتسمى به المخلوق(٢).

ومعناه كما قال الخطابي(٣) رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المبدع للخلق المخترع له على غير مثال سابق، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣]»(٤).

(١) قال الشيخ عبد الرحمن البراك في جوابه على حكم اطلاق فعل "الخلق" على المخلوق: «صار لفظ (الخلق) في عرف المسلمين مختصاً بالله، فهو الخالق والخلاّق، وهو خالق كل شيء، فلا تكاد تجد في كلام العلماء أو كلام عوام المسلمين استعمال هذا اللفظ إلا مضافاً إلى الله تعالى، وإضافة الخلق إلى بعض الأسباب هو مما فشا في هذا العصر على ألسنة بعض الكتّاب والصحفيين ومقليدهم. وعلى هذا فاستعمال لفظ (الخلق) في حق غير الله أقل أحواله أن يكون مكروهاً، فينبغي اجتنابه واستبداله بألفاظ لا توهم تشبيه المخلوق بالخالق كالسبب والتسبب، كأن تقول: هذا سبب وجد به كذا وكذا، وفلان تسبب في وجود كذا، ومن عقيدة أهل السنة والجماعة أن الأسباب مؤثرة في حصول مسبباتها بإذن الله تعالى، فإنه سبحانه خالق الأسباب والمسببات، والله أعلم»، من موقع الشيخ حفظه الله على الشبكة العنكبوتية، ٢٥/ ٣/ ١٤٣٣هـ، ١٧/ ٢/ ٢٠١٢م.

(٢) انظر: تحفة المودود بأحكام المولود، لابن القيم، ص ١٢٠، ١٢١.

(٣) هو أبو سليمان حمد بن خطاب البستي، الشافعي، الحافظ، اللغوي، من مصنفاته «معالم السنن» و «غريب الحديث» وغيرها، توفي ببست في شهر ربيع الآخر، سنة ثمان وثمانين وثلاث مائة. المرجع: سير أعلام النبلاء، ج١٧، ص٢٣، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٤، ص٤٧٢، والأعلام للزركلي، ج٢، ص٢٧٣.

(٤) شأن الدعاء، للخطابي، ص ٤٩.

- **معنىٰ المخلوق:**

المخلوق: هو من وُجِد بفعل الخالق وأَمْره وتخليقه، أوجده بعد العدم، وأنشأه واخترعه علىٰ غير مثال سابق فهو موجود مخترع(1)، وبعبارة أخرىٰ فالمخلوق هو كل ما سوىٰ الخالق، قال الشيخ الحكمي(2): «فالله تبارك وتعالىٰ الخالق وكل ما سواه مخلوق له مربوب له لا خالق غيره، فجميع السموات والأرض ومن فيهن وما بينهما وحركات أهلها وسكناتهم وأرزاقهم وآجالهم وأقوالهم وأعمالهم كلها مخلوقات له محدثة كائنة بعد أن لم تكن، وهو خالق ذلك كله وموجده ومبدئه ومعيده، فمنه مبدؤها وإليه منتهاها ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [الشورىٰ: ٥٣]»(3).

المسألة الثالثة: المراد بالفارق بين الخالق والمخلوق.

المراد بالفارق بين الخالق والمخلوق: هو التمييز، والمباينة، والفصل، بين الخالق الذي أوجد المخلوقات وأنشأها من العدم وقدّرها وهو كامل الصفات، وبين المخلوق المُحْدث بعد العدم ناقص الصفات، وذلك ببيان أوجه الاختلاف بينهما، وما يختص به كلّ من الخالق والمخلوق في الذّات، أو الأسماء، أو الصّفات، أو الأفعال، وكذلك ما يختص به الخالق من الحقوق(4).

---

(١) انظر: صحيح البخاري، ص١٤٢٢، ومجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج٦، ص ١٤٩،، وبدائع الفوائد، لابن القيم، ج٤، ص ١٥٤٣.

(٢) حافظ بن أحمد بن علي الحكمي: فقيه أديب، نشأ بدويا يرعىٰ الغنم ثم قرأ القرآن. ولما بلغ السادسة عشرة بدأ بطلب العلم وهو يواصل رعي غنمه. عيّن مديرا للمعهد العلمي بسامطة. من كتبه المطبوعة، وكلها رسائل: (سلم الوصول إلىٰ علم الأصول) ارجوزة، و (معارج القبول) شرح لها، و (أعلام السنة المنشورة)، توفي بمكة سنة ١٣٧٧ هـ. المرجع: الأعلام للزركلي، ج٢، ص١٥٩.

(٣) معارج القبول بشرح سلم الوصول، للحكمي، ج١، ص ١٣١.

(٤) انظر: النفي في باب صفات الله عز وجل بين أهل السنة والجماعة والمعطلة، لأرزقي سعيداني، ص٢٠٥، وإغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لابن القيم، ج٢، ص ٣٢٨، ٣٢٩.

المطلب الثاني

أهمية العلم بالفارق بين الخالق والمخلوق

١ ـ العلم بالفارق بين الخالق والمخلوق، والتمييز بين ما يستحقه كل منهما «واجب في علم القلب، وشهادته، وذكره، ومعرفته؛ وفي حال القلب، أيضًا، وعبادته، وقصده، وإرادته، ومحبته، وموالاته، وطاعته»(١).

٢ ـ تحقيق الفرق بين الخالق والمخلوق يزيد من عبودية العبد لله وطاعته له، وإعراضه عن عبودية وطاعة غير الله(٢).

٣ ـ إنّ هذا من تحقيق شهادة أنّ «لا إله إلا الله» فإن هذه الكلمة قد جمعت بين نفي استحقاق العبادة لغير الله وإثباتها لله وحده، ولن يَتَأَتّىٰ تحقيق هذه الكلمة إلا بتحقيق الفرق بين الخالق والمخلوق في الصفات، فإذا عُلِم بمباينة الخالق عن المخلوق في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، عُلم أنه لا يستحق العبادة والتذلل والطاعة إلا الخالق، وأن المخلوق غير مستحق لهذه الأمور بحال من الأحوال.

٤ ـ إنّ هذا هو تحقيق مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فتحقيق الاستعانة بالخالق لا يكون إلا بمعرفة الفرق بين صفات الخالق وصفات المخلوق، فمن ظنّ في نفسه أو في غيره شيئًا من الكمال كالقدرة أو العلم، لم يلتفت إلىٰ الاستعانة بالخالق، أو ربما يستعين لكن علىٰ ضعف؛ ولذا تجد كثيرًا من الأحوال تمرّ علىٰ المخلوق دون أن يلجأ إلىٰ خالقه لوجود مشاعر القدرة، والقوة، والملك لديه، ولكن بمجرد أن تستبين الحقائق ويظهر العجز والضعف تجده يلهج بالدعاء والتضرع لمن يعتقد فيه القوة والقدرة فلا تأتي قوة الاستعانة إلا بتحقيق الفرق.

---

(١) مجموعة من علماء نجد، الدرر السنية في الأجوبة النجدية، ج٢، ص١٧٩.

(٢) انظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج٦، ص٢١٨.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وإلا فإذا شهدت أنه المستحق للعبادة مع رؤيتك نفسك لم تشهد حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وإذا شهدت حقيقته أنه الفاعل لكل شيء ولم تشهد أنه المستحق للعبادة دون ما سواه وأن عبادته إنما تكون بطاعة رسوله لم تشهد حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾»(١).

٥ ـ المعرفة بالفرق بين الخالق والمخلوق تنتج فقرًا هو عين غنىٰ المخلوق وعنوان فلاحه وسعادته، والناس يتفاوتون في فقرهم إلىٰ الله وفاقتهم إليه علىٰ قدر تفاوتهم في هذه المعرفة، فمعرفة المخلوق بغنىٰ خالقه المطلق توجب معرفته بفقره المطلق، ومعرفته بقدرة خالقه التّامة توجب معرفته بعجز نفسه، ومعرفته بعلم خالقه التّام وحكمته توجب معرفته بجهل نفسه، ومن كمّل مقام العبودية وأظهر فقره وحاجته إلىٰ خالقه وأنه لا يستغني عنه طرفة عين كان أقرب إلىٰ الله وأعظم منزلة عنده، ولذلك قال ﷺ: «**دعوات المكروب: اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلني إلىٰ نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت**»(٢)، فكان ﷺ أقرب الخلق لخالقهم وسيلة وأرفعهم منزلة وجاهًا(٣).

ومتىٰ ما تيقّن المخلوق من فقره إلىٰ خالقه ـ الناتج عن معرفة العبد بكمال خالقه ونقص نفسه ـ وأظهر ذلك، وتذلّل لخالقه حصلت له أنواع الفتوح، وفرّجت عنه أنواع الكروب؛ وحال الأنبياء شاهد بذلك، فهذا موسىٰ يُظهِر فقره لخالقه قال تعالىٰ: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]، فيأتيه الخير، قال تعالىٰ: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥]، وهذا يونس ينادي في

(١) الرد علىٰ المنطقيين، لابن تيمية، ص٤٤٣.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب من حديث أبي بكرة، باب ما يقول إذا أصبح، رقم الحديث٥٠٩٠، ص٩٢١، صححه ابن حبان والسيوطي، وقال الهيثمي: إسناده حسن، وحسنه الألباني.

(٣) انظر: طريق الهجرتين وباب السعادتين، لابن القيم، ص٢٩-٣١.

الظلمات: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فيأتيه الفرج قال تعالىٰ: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨـجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨]، فافتقار المخلوق إلىٰ خالقه سبب سعادة العبد وعنوان فلاحه.

٦ ـ إنّه سبب لتعظيم جناية مخالفة الله والتوبة من الذنوب إذا وقع فيها، قال الإمام ابن القيم: «مَنْ كملت عظمة الحق تعالىٰ في قلبه عظمت عنده مخالفته. لأن مخالفة العظيم ليست كمخالفة مَنْ هو دونه. ومَنْ عرف قدر نفسه وحقيقتها، وفقرها الذاتي إلىٰ مولاها الحق في كل لحظة ونَفَس، وشدة حاجتها إليه، عظمت عنده جناية المخالفة لمن هو شديد الضرورة إليه في كل لحظة ونَفَس.

وأيضـًا فإذا عرف حقارتها ـ مع عظم قدر من خالفه ـ عظمت الجناية عنده؛ فشمَّر في التخلص منها. وبحسب تصديقه بالوعيد ويقينه به، يكون تشميره في التخلص من الجناية التي تلحق به»(١).

فلو تصور الظالم عجزه وفقره وضعفه، وقوة الخالق وقدرته علىٰ الانتقام منه، لما تمادىٰ في ظلمه، ولو تصور المُرائي أن النّفع والضرّ والخير والفلاح إنّما هو بيد الخالق وأنّ المخلوق ليس له من الأمر شيء، وأنّ من مدحه زين وذمّه شين هو الخالق، وأنّ المخلوق لا ينفعه بمدح ولا ثناء، لما التفت قلبه لغير خالقه حال عبادته، ولو تصور آكل الربا أن المعطي المانع الرازق علىٰ الحقيقة هو الخالق، ولو شاء لمحق بركة ماله وأذهبه بين عشية وضحاها، وأنّ غيره من الخلق لا عطاء بيده ولا رزق عنده، ولا يمكنه دفع شيء من الضرّ لو نزل به، لما اطمأن وأسرف علىٰ نفسه في هذه الكبيرة، وهكذا في كل الذنوب لو تصور قدر الفارق بينه وبين خالقه لم يعصه لحظة واحدة.

٦ ـ عدم العلم بالفرق سبب للوقوع في أنواع من الضّلالات، منها علىٰ سبيل المثال لا الحصر:

---

(١) مدارج السالكين، لابن القيم، ج١، ص ٢٧٨.

أ ـ القول بالحلول والاتحاد[1]:

فالذين قالوا بأنّ الخالق يَحِلّ في بعض مخلوقاته أو كلّها، أو قالوا بأنّ الخالق والمخلوق قد اتحدا وتمازجا فالخالق عين المخلوق، قد ضلّوا من وجوه من بينها أنّهم لم يفرقوا بين الخالق والمخلوق[2].

فهم إمّا أن يشبّهوا الخالق بالمخلوق، أو يشبّهوا المخلوق بالخالق، فإمّا أن ينقصوا من قدر الخالق وينزلوا من كماله وجلاله فيوصلوه لمرتبة المخلوق الضعيف الفقير، بل ويجعلوه يحلّ أو يتّحد بأحقر المخلوقات وأسوئها، تعالىٰ الله عن ذلك علوًا كبيرًا، وإمّا أن يرفعوا المخلوق فوق مرتبته، وينزعوا عنه بشريته ونقصه، ويوصلوه إلىٰ مرتبة الألوهية والكمال[3].

ب ـ تشبيه صفات الخالق بصفات المخلوق:

وممن شبّه الخالق بالمخلوق «البيانيّة»[4] الذين زعموا أنّ الخالق علىٰ صورة الإنسان

---

(١) والحلول نوعان:

١ ـ حلول خاص، مثل: اعتقاد غلاة الروافض الذين يقولون بحلول الخالق في علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أو في بعض أئمة أهل البيت، وكذلك غلاة الصوفية القائلون بحلول الخالق في الأولياء.

٢ ـ حلول عام، مثل: اعتقاد الجهمية القائلين بحلول الخالق بذاته في كل مكان.

والاتحاد نوعان:

١ ـ اتحاد خاص، مثل: اعتقاد النصارىٰ باتحاد اللاهوت في الناسوت، (اللاهوت: هو الجزء الإلهي من طبيعة المسيح، والناسوت: الجانب الإنساني).

٢ ـ اتحاد عام، مثل: الاعتقاد باتحاد الخالق بالمخلوقات فالخالق عندهم هو عين وجود المخلوقات، وهو ما يعبر عنه بوحدة الوجود، المرجع: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج٢، ص١٧١، ١٧٢.

(٢) انظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج٨، ص٣٠٨.

(٣) انظر: مقالة التشبيه وموقف أهل السنة منها، لجابر بن إدريس أمير، ج١، ص ٢٨٤، ٢٨٥.

(٤) نسبة إلىٰ بيان بن سمعان التميمي، وهم من غالية الشيعة، المرجع: مقالات الإسلاميين، للأشعري، ص٥.

وأعضائه، وأنّه يفنىٰ إلا وجهه[(١)].

وممن شبّه صفات الخالق بالمخلوق «الكرّامية»[(٢)]، فقد أثبتوا الصفات للخالق، لكنّهم غلوا حتىٰ شبّهوها بصفات المخلوق.

ولو حققّوا الفرق بين الخالق والمخلوق، وتدبّروا ذلك لما تجرؤوا علىٰ هذه المقولة الشنعاء، يقول الأصبهاني[(٣)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإنما ينفي التمثيل والتشبيه النية والعلم بمباينة الصفات والمعاني، والفرق بين الخالق والمخلوق في جميع الأشياء فيما يؤدي إلىٰ التمثيل والتشبيه عند أهل الجهل والزيغ ووجوب الإيمان بالله وبأسمائه وصفاته التي وصف بها نفسه وأخبر عنه رسول الله ﷺ وأنّ أسامي الخلق وصفاتهم وافقتها في الاسم وباينتها في جميع المعاني لحدوث خلقه وفنائهم، وأزلية الخالق وبقائه، وبما أظهر من صفاته ومنع استدراك كيفيتها فقال: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]»[(٤)].

ج ـ وصف الخالق بصفات النقص الموجودة في المخلوق:

ومن هؤلاء اليهود الذين وصفوا الخالق بصفات يَأْنف منها المخلوق كما أخبر الله عنهم في كتابه حيث قال: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟

---

(١) انظر: الفرق بين الفرق، للبغدادي، ص ١٦٨.

(٢) أتباع محمد بن كرام السجستاني (ت ٢٥٥ هـ)، وهم طوائف متعددة، من أهل الإثبات يغلب عليهم الارجاء في الإيمان، والتشبيه في الصفات، ولديهم انحرافات أخرىٰ، المرجع: مقالات الإسلاميين، للأشعري، ص١٤١.

(٣) أبو القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل الأصبهاني، الشافعي. الملقب: بقوام السنة، من أعلام الحفاظ، كان إمامًا في التفسير والحديث واللغة، من كتبه (الجامع) في التفسير، والحجة في بيان المحجة. وتوفي سنة خمس وثلاثين وخمسمائة. المرجع: سير أعلام النبلاء، ج٢٠، ص٨٠، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٦، ص١٧٤، والأعلام للزركلي، ج١، ص٣٢٣.

(٤) الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، الأصبهاني، ج١، ص ٩٤، ٩٥.

﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

وذكروا عن الخالق أنّه لمّا خلق السموات والأرض تعب واستراح، وأنّه قد أصابه الرمد من البكاء علىٰ الطوفان، وأنّه ناح علىٰ من أهلكه من عباده، وغير ذلك مما يتنزه ويتقدس الخالق عنه(١)، ويتنزه قلب المؤمن من اعتقاده، وفي هذا تعدّ وعدم تفريق بين مقام الخالق ومقام المخلوق، تعالىٰ عمّا يقوله الظالمون علوّا كبيرًا.

د ـ وصف المخلوق بما يختص به الخالق من صفات الكمال:

فالنصارىٰ قد رفعوا المخلوق عن منزلته، ووصفوه ببعض مااختص الخالق به من الربوبية والخلق والملك، وأنّه علىٰ كل شيء قدير، وبكلّ شيء عليم، وممن نال مثل هذا الوصف عندهم، المسيح ـ عليه السلام ـ والأحبار والرهبان الذين جعلوهم أربابًا من دون الله(٢)، ولو فرّقوا بين ما يستحقه الخالق من الصفات وما يستحقه المخلوق، لما وقعوا فيما وقعوا فيه من أنواع الضلال.

ومن هؤلاء الصوفية(٣) الذين يغلون في أوليائهم؛ حيث يُضفون عليهم صفات الخالق ونعوته، ويسوّون بين الخالق والمخلوق، فهذا التيجاني(٤) يَصِف المخلوق بصفات الخالق

(١) انظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لابن تيمية، ج٢، ص ١٤٠.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص ١٤١، ١٤٢.

(٣) الصوفية فرقة مجانبة لمنهج أهل السنة والجماعة، أخذت أسمها العام من الصوف، ذلك أنهم يعتقدون أن لبس الصوف مما يقرب إلىٰ الله تعالىٰ، لأن فيه نوع تعذيب للنفس، وقد ذكر بعض العلماء أن كلمة (صوفي) أصلها من (صوفيا) أي الحكمة وهي كلمة يونانية، وقيل غير ذلك، وهم أي الصوفية أقسام كثيرة جدًا، وطوائف لا حصر لها، كل طائفة تطلق علىٰ نفسها طريقة، وكل طائفة تبتدع بدعًا، تخالف الأخرىٰ، ولكنها تجتمع في أصول مبتدعة عامة، المرجع: موسوعة الردّ علىٰ الصوفية، مجموعة من العلماء، ص٢.

(٤) هو أبو العباس أحمد بن محمد التجاني، شيخ الطريقة التجانية ومؤسسها، وفي سنة (١١٩٦هـ) بدأ في تأسيس طريقته بتلمسان وتلقين المريدين أوراده، ولما استفحل أمره وكثر الإنكار علىٰ تعاليمه من قبل =

التي اُختصّ بها، فيقول: «اتساع دائرة العارف اذا رفع إلىٰ محل القرب إن الله صفة السمع والبصر والكلام والقدرة والإرادة كلّ صفة من هذه تحيط بجميع الوجود في آن واحد، لا يختلف عليها اختلاط الوجود بذواته أو بألفاظه أو بحركاته فإنّه يميّز كلّ فرد من ذلك علىٰ حدته تميّزا لا يختلط بغيره لا في سمعه ولا في بصره ولا في صفة من باقي صفاته وهكذا العارف إذا رفعه إلىٰ محلّ القرب يصير سمعه يسمع كسماع الحقّباتّساع دائرته.... فلا تختلط عليه أصوات الوجود في الآن الواحد، ولا تختلط عليه ذوات الوجود في الآن الواحد، ولا تختلط عليه حركات الوجود في الآن الواحد سمعا وبصراَ»(١).

وادّعوا أيضًا لأوليائهم معرفة الغيب، وأنّهم يعلمون ما يكون في السماء والأرض، واللوح المحفوظ، والعرش، وكذلك يعلمون ما يدور في ضمائر الناس، وما كان ويكون، ويزعمون أن لأوليائهم حق التصرف في الكون، وأنّ أمرهم يكون بكلمة "كن"، وأنّهم ينزّلون المطر، ويشفون المرضىٰ، ولهم حق هداية الناس، ويضمنون لأتباعهم الجنّة بلا حساب ولا عذاب(٢)، ونحو ذلك من أنواع الضلال والكذب ورفع المخلوق فوق منزلته، حتىٰ يصل لمنزلة الخالق.

هـ ـ نفي صفات الخالق:

فالجهمية والمعتزلة والأشاعرة(٣)، وغيرهم من معطّلة الصفات، شبّهوا أولًا وعطّلوا

=

العلماء طرده السلطان محمد بن عثمان، واستقر به الأمر في فاس، فصار له أتباع كثيرون يتغالون فيه إلىٰ حد يفوق الوصف، ويعظمونه تعظيمـًا بليغـًا، فبقىٰ ينشر طريقته فيهم حتىٰ توفي في (١٧) شوال سنة (١٢٣٠هـ)، المرجع: تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي، لمحمد لوح، ج١، ص٥٤٩.

(١) ذكره تلميذه علي حرازم في جواهر المعاني، ج٢، ص٧٨، "بتصرّف".

(٢) انظر: جامع كرامات الأولياء، للنبهاني، ج١، ص٢٦١، ٢٦٨، وجواهر المعاني، ج١، ص٢٤، ٦٣، وج٢، ص٨٨، ٨٩.

(٣) الجهمية: إحدىٰ الفرق الكلامية التي تنتسب إلي الإسلام، وترجع في نسبتها إلي مؤسسها الجهم بن صفوان، وهو من الجبرية الخالصة، وأول من ابتدع القول بخلق القرآن وتعطيل الله عن صفاته.

=

ثانيًا، كما يذكر أهل العلم(١)، فنفوا صفات الخالق لظنّهم أنّ إثباتها يقتضي التشبيه، ولم يفرّقوا بين ما هو لازم لوصف الخالق وما هو لازم لوصف المخلوق، فوقعوا في محاذير عديدة.

ومثال ذلك: من ينفي استواء الله على العرش معتقدًا أنّ إثباته يؤدي إلى القول بتشبيه الخالق بالمخلوق، فيكون الله مستويًا كاستواء المخلوق على دابته، ويكون محتاجًا إلى العرش كما يحتاج المخلوق إلى دابته.

فسبب النّفي لهذه الصفة هو عدم التفريق بين استواء الخالق واستواء المخلوق، وكان من الأجدر أن يقال: كما أنّ له ذاتًا لا تشابه ذوات المخلوقين، فكذلك له استواء لا يشابه استواء المخلوقين(٢)، وأن يفرّق بين ما هو لازم لاستواء الخالق وما هو لازم لاستواء المخلوق.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «كثيرًا من الناس يتوهم في بعض الصفات، أو كثير منها، أو أكثرها، أو كلها، أنها تماثل صفات المخلوقين؛ ثم يريد أن ينفي ذلك الذي فهمه فيقع في أربعة أنواع من المحاذير:

أحدها ـ كونه مثَّل ما فهمه من النصوص بصفات المخلوقين وظن أن مدلول النصوص هو التمثيل.

= والمعتزلة: تنتسب لواصل بن عطاء، أصولهم الخمسة هي: التوحيد على طريقة الجهمية والعدل على طريقة القدرية، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على طريقة الخوارج، والأشاعرة: فرقة كلامية إسلامية، تنسب لأبي الحسن الأشعري الذي خرج على المعتزلة، وسار على طريقة ابن كلاب في إثبات الصفات السبع لله، ثم عاد في آخر حياته لمذهب أهل السنة والجماعة، المرجع: فرق معاصرة، للعواجي، ج٣، ص١٧٩، ٢٠٠، ٢٢٤.

(١) انظر: الصفات الإلهية، للجامي، ص١٧٧.

(٢) انظر: الرسالة التدمرية، لابن تيمية، ص٨١، ٨٢.

الثاني ـ أنه إذا جعل ذلك هو مفهومها وعطّله بقيت النصوص معطلة عما دلت عليه من إثبات الصفات اللائقة بالله، فيبقىٰ مع جنايته علىٰ النصوص، وظنّه السيء الذي ظنّه بالله ورسوله ـ حيث ظنّ أنّ الذي يفهم من كلامهما هو التمثيل الباطل ـ قد عطل ما أودع الله ورسوله في كلامهما من إثبات الصفات لله، والمعاني الإلهية اللائقة بجلال الله سبحانه.

الثالث ـ أنه ينفي تلك الصفات عن الله بغير علم، فيكون معطلًا لما يستحقه الرب تعالىٰ.

الرابع ـ أنه يصف الرب بنقيض تلك الصفات من صفات الموات والجمادات، أو صفات المعدومات.

فيكون قد عطَّل صفات الكمال التي يستحقها الرب تعالىٰ، ومثَّله بالمنقوصات والمعدومات، وعطَّل النصوص عما دلت عليه من الصفات، وجعل مدلولها هو التمثيل بالمخلوقات، فيجمع في الله وفي كلام الله بين التعطيل[1] والتمثيل فيكون ملحدًا في أسمائه وآياته»[2]، والموحّد الذي لم يتأثر قلبه بشبه التمثيل والتعطيل حينما يقرأ في كتاب الله عن صفة اليد، أو الوجه أو النزول للسماء الدنيا، ونحوها من الصفات، لا يتبادر إلىٰ ذهنه إلا التّنزيه عن صفات المخلوق، وأنّ الفارق كبير بين صفات الخالق وصفات المخلوق؛ فمتىٰ أضيفت إلىٰ الخالق، فهي صفة مباينة مفارقة لما عليه في المخلوق، لكنّ هؤلاء المعطّلة لمّا تنجست قلوبهم بِشُبَه التمثيل بين الخالق والمخلوق، زعموا أنّ هذا هو المتبادر والظاهر من النصوص؛ وبناءً علىٰ ذلك لم يمكنهم الإيمان بهذه الصفات وإثباتها فشبّهوا أولًا ثم عطّلوا ثانيًا، ولو كانت قلوبهم من مبدأ الأمر سليمة معظمة للخالق عالمة بما يستحقه مفرقة بين صفات الخالق وصفات المخلوق لآمنوا بالصفات علىٰ ظاهرها، ولكان قلبه مستعدًا

---

(١) التعطيل: هو إنكار ما يجب لله تعالىٰ من الصفات أو إنكار بعضه، والتمثيل: هو إعتقاد أن صفات الله أو ذاته مثل صفات المخلوقين أو ذواتهم، المرجع: مصطلحات في كتب العقائد، لمحمد الحمد، ص٩.

(٢) الرسالة التدمرية، لابن تيمية، ص ٧٩، ٨٠، ٨١.

لإثبات هذه الصفات كما يليق به سبحانه مع اعتقاد نفي مشابهتها للمخلوق علىٰ ماجاء به الأمر الإلهي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١][١].

و ـ إيجاب وتحريم أمور علىٰ الخالق وتجويز أخرىٰ لا تليق به:

فالقدرية قالوا: الحُسن والقُبح يعرف بالعقل، فالعقل يمكنه إدراك الحسن والقبح في الأشياء؛ ولذا فيمكنهم إدراك ما يحسن من الخالق وما يقبح، فكل ما هو حسن من المخلوق فهو حسن من الخالق، وكل ما هو قبيح من المخلوق فهو قبيح من الخالق، فهؤلاء هم مشبّهة الأفعال وقد أدىٰ بهم هذا إلىٰ إيجاب أمور علىٰ الخالق لكونها حسنة في حقّه، وتحريم أمور لكونها قبيحة في حقّه قياسًا علىٰ المخلوق، فأوجبوا علىٰ الخالق من جنس ما أوجبوا علىٰ المخلوق وحرّموا علىٰ الخالق من جنس ما حرّموا علىٰ المخلوق، وهذا الإيجاب والتحريم إنّما هو بمحض عقولهم حتىٰ لو لم يَرِد الشرع بذلك، بل قد يخالف نصوصًا شرعية أحيانًا[٢].

يقول عبد الجبّار الهمذاني[٣]: «ولا يجوز أن يكون الموجب لقبحه أحوال الفاعل منا، نحو كون الواحد منّا محدثا مربوبًا مملوكًا مقهورًا مغلوبًا. ولا يجوز أن يكون ماله يقبح القبيح منا النهي، ولا أنا نتجاوز به ما حد به ورسم لنا، ولا يجوز أن يكون ما له حَسنَ الحسن الأمر، وأنا لم نتجاوز به ما حدّ ورسم لنا. ولا يجوز أن يكون الموجب لحسن أفعاله جل وعز أنه رب مالك ناه آمر، ناصب للدليل، متفضل. ونحن نبين القول في ذلك مفصلًا،

(١) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي، ج٢، ص٢٣٩، ٢٤٠.

(٢) انظر: موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة، لسليمان الغصن، ج ١، ص٢٩٧، ٢٩٨، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٢٤، ٣٢٥.

(٣) هو القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، معتزلي الاعتقاد، شافعي المذهب، ومن مصنفاته المغنىٰ في أبواب العدل والتوحيد، ودلائل النبوّة، مات في ذي القعدة سنة خمس عشرة وأربع مائة. المرجع: سير أعلام النبلاء، ج١٧، ص٢٤٤، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٥، ص٧٨، والأعلام للزركلي، ج٣، ص٢٧٣.

ونبين أن ما أوجب قبح القبيح متىٰ حصل يجب كونه قبيحا. وكذلك ما أوجب حسن الحسن، ووجوب الواجب؛ ونبين أن هذه القضية لا تختلف باختلاف الفاعلين؛ وأن حكم أفعال القديم في ذلك حكم أفعالنا»(١).

فيظهر من هذا النقل عنهم عدم التفريق بين الخالق والمخلوق، وتشبيه أفعال الخالق بأفعال المخلوقين والتصريح بذلك، والحقيقة أن الخالق سبحانه لا يقاس بخلقه لا في ذاته، ولا صفاته، ولا أفعاله، فنحن نرىٰ أفعالًا لله حسنة لو اتصف بها المخلوق لكانت قبيحة فمن ذلك: إيلام الأطفال والحيوانات، وإهلاك بعض الأنفس والثمرات، ولو فعلها المخلوق لكان قبيحًا منه هذا الفعل(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما الإيجاب عليه سبحانه وتعالىٰ، والتحريم بالقياس علىٰ خلقه، فهذا قول القدرية، وهو قول مبتدع مخالف لصحيح المنقول وصريح المعقول»(٣).

ويقول الإمام ابن القيم: «وأوجبوا علىٰ الرب تعالىٰ بها وحرموا، وشبهوه بخلقه في أفعاله، بحيث ما حسن منهم حسن منه، وما قبح منهم قبح منه»(٤).

ح ـ الوقوع في الشرك في العبادة:

فالمشركون في عبادة غير الله الذين يغلون في المخلوق ويرفعونه فوق منزلته، ويعتقدون فيه التّفرد بجلب نفع أو دفع ضرّ، وعطاء أو منع، ويعظّمونه ويحبّونه، حتىٰ جعلوا له حظًا من الإلهية لم يفرّقوا بين الخالق والمخلوق، مما أدّىٰ بهم إلىٰ عبادة غير الله، بل والتصريح أحيانًا أنه إله قال تعالىٰ: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ﴾

---

(١) المغنىٰ في أبواب العدل والتوحيد، للقاضي عبد الجبار، ج٦، ص٥٩، ٦٠.

(٢) انظر: موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة، لسليمان الغصن، ج ١، ص ٣٢٥.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم، لابن تيمية، ج٢، ص٣١٠.

(٤) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة، لابن القيم، ج٢، ص ٤٤٣، ٤٤٤.

[ص: ٦]، فيدعون هذا المخلوق، ويرجونه ويخافونه، ويسجدون له ويقدمون له القرابين، ونحو ذلك من خصائص العبادة التي لا تكون إلا للخالق، فكل شخص وقع في الشرك قد وقع في عدم التفريق بين الخالق والمخلوق، وسوّىٰ بين التراب وربّ الأرباب(١).

ولذلك سدّ الله علىٰ المشركين السبب الموصل إلىٰ الشرك فقال: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾ [سبأ: ٢٢]، فالعابد إنما يتعلق بمعبوده ويصرف له أنواع العبادة لما يرجو فيه من المنفعة، ولو كان لا يعتقد ولا يرجو فيه نفعًا لم يتوجه إليه ولم يتعلق به(٢).

والمعطّلة أوّل ضلالهم عدم تحقيق الفارق بين الخالق والمخلوق، ثمّ تعطيل الصفات عن الخالق، ثمّ إضفاء صفات الكمال للمخلوق، وبعد ذلك عبادته، وهذا ما بيّنه الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نونيته حيث قال:

«فصل في تلازم التعطيل والشرك

واعلم بأن الشرك والتعطيل مذ ... كانا هما لا شك مصطحبان
أبدا فكل معطل هو مشرك ... حتما وهذا واضح التبيان
فالعبد مضطر إلىٰ من يكشف ... البلوىٰ ويغني فاقة الانسان
واليه يصمد في الحوائج كلها ... واليه يفزع طالب لأمان
فاذا انتفت أوصافه وفعاله ... وعلوه من فوق كل مكان
فزع العباد إلىٰ سواه وكان ذا ... من جانب التعطيل والنكران
فمعطل الأوصاف ذاك معطل ... التوحيد حقا ذان تعطيلان

(١) انظر: إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لابن القيم، ج٢، ص٣٢٢، ٣٢٣، وتجريد التوحيد المفيد، للمقريزي، ص٦٣.

(٢) انظر: كشف ما ألقاه إبليس من البهرج والتدليس علىٰ قلب داود بن جرجيس، لعبد الرحمن آل الشيخ، ص ١٤٩.

قد عطلا بلسان كل الرسل من نوح إلىٰ المبعوث بالقرآن[1]

فكان أول الأمر عدم التفريق بين الخالق والمخلوق في الصفات، وآخره عدم التفريق بين الخالق والمخلوق في العبادة والوقوع في الشرك.

وقال: «وهذا التشبيه الذي أبطله الله سبحانه نفيًا ونهيًا: هو أصل شرك العالم، وعبادة الأصنام. ولهذا نهىٰ النبي ﷺ أن يسجد أحد لمخلوق مثله: أو يحلف بمخلوق، أو يصلي إلىٰ قبر، أو يتخذ عليه مسجدًا، أو يعلق عليه قنديلًا، أو يقول القائل: ما شاء الله وشاء فلان ونحو ذلك، حذرًا من هذا التشبيه الذي هو أصل الشرك.وأما إثبات صفات الكمال فهو أصل التوحيد. فتبين أن المشبهة هم الذين يشبهون المخلوق بالخالق في العبادة والتعظيم والخضوع، والحلف به، والنّذر له، والسجود له، والعكوف عند بيته، وحلق الرأس له، والاستغاثة به، والتشريك بينه وبين الله، في قولهم: ليس لي إلا الله وأنت، وأنا متكل علىٰ الله وعليك. وهذا من الله ومنك. وأنا في حسب الله وحسبك، وما شاء الله وشئت. وهذا لله ولك. وأمثال ذلك»[2]؛ ولهذا كان الشرك وعبادة غير الله في القرامطة الباطنية[3] أكثر من غيرهم؛ ذلك أنّهم كانوا لا يفرّقون بين الخالق والمخلوق، بل ويصفونه بأردأ خلقه فلا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم شيئًا[4].

فظهر مما سبق أن عدم التفريق بين الخالق والمخلوق عند المشرك جاء من جهتين:

(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، لابن القيم، ج٣، ص ٨٩٥، ٨٩٦.

(٢) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لابن القيم، ج٢، ص ٣٣٠ – ٣٤١.

(٣) القرامطة حركة باطنية هدامة تنتسب إلىٰ شخص اسمه حمدان بن الأشعث ويلقب بقرمط لقصر قامته وساقيه وهو من خوزستان في الأهواز ثم رحل إلىٰ الكوفة. وقد اعتمدت هذه الحركة التنظيم، السري العسكري، وكان ظاهرها التشيع لآل البيت والانتساب إلىٰ محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق وحقيقتها الإلحاد، والإباحية وهدم الأخلاق، والقضاء علىٰ الدولة الإسلامية، الموسوعة الميسرة، مانع الجهني، ج١، ص٨٧.

(٤) انظر: قاعدة في المعجزات والكرامات وأنواع خوارق العادات، لابن تيمية، ج٥، ص٤٩.

من جهة إضفائه صفات الخالق الكامل علىٰ المخلوق الناقص، واعتقاده فيه ما يجب اعتقاده في خالقه من جلب النفع ودفع الضّر والقدرة علىٰ تصريف الكون ونحو ذلك مما اتصف به الخالق واختص به، والجهة الأخرىٰ أنّه صرف له أنواع العبادة التي لا يستحقها إلا الخالق ـ عز وجل ـ من الدّعاء والذبح والنّذر والحلف ونحو ذلك، فسوّىٰ أولًا في الصفات ولم يفرق فيها، ثمّ سوّىٰ ثانيًا في الحقوق ولم يفرق فيها.

وخلاصة القول: أنّ العلم بالفارق بين الخالق والمخلوق من العلوم المهمّة والضّرورية لتوحيد العبد وصحّة عقيدته.

المبحث الثالث

المراد بتوحيد العبادة وأهميته

وفيه مطلبان:

المطلـــــب الأول: المراد بتوحيد العبادة.

وفيه ثلاث مسائل:

المسألة الأولىٰ: المراد بالتوحيد.

المسألة الثانية: المراد بالعبادة.

المسألة الثالثة: المراد بتوحيد العبادة.

المطلــب الثــاني: أهمية توحيد العبادة.

المطلب الأول

المراد بتوحيد العبادة

المسألة الأولى: المراد بالتوحيد.

- **معنى التوحيد لغة:**

التوحيد: مصدر من وحدته توحيداً[١].

قال ابن فارس[٢]: «(وحد) الواو والحاء والدال: أصل واحد يدل على الانفراد، من ذلك الوحدة»[٣]، وهو واحد في قبيلته، إذا لم يكن له مثيل فيهم، قال الشاعر[٤]:

يــا واحــد العــرب الــذي مــا في الأنــام لــه نظيــر[٥]

«ومعنى وحدته: جعلته منفرداً عما يشاركه أو يشبهه في ذاته وصفاته، والتشديد فيه للمبالغة أي: بالغت في وصفه بذلك»[٦]، وقيل: «التوحيد تفعيل للنسبة كالتصديق والتكذيب لا للجعل فمعنى وحدت الله نسبت إليه الوحدانية لا جعلته واحدا فإن وحدانية الله تعالى ذاتية له ليست بجعل جاعل»[٧].

---

(١) انظر: الحجة في بيان المحجة، للأصبهاني، ج١، ص٣٠٥.

(٢) هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، اللغوي، المحدث، من تصانيفه (مقاييس اللغة)، مات بالري في صفر سنة خمس وتسعين وثلاث مائة. المرجع: سير أعلام النبلاء، ج١٧، ص١٠٣، والأعلام للزركلي، ج١، ص١٩٣.

(٣) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، ج٢، ص ٦٢٣.

(٤) القائل هو: أبو معاذ، بشار بن برد بن يرجوخ العقيلي، توفي عام ١٦٧هـ، المرجع: المستطرف، للأبشيهي، ج١، ص٣٦٧.

(٥) انظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، ج٢، ص ٦٢٣.

(٦) الحجة في بيان المحجة، للأصبهاني، ج١، ص٣٠٥.

(٧) لوامع الأنوار البهية، للسفاريني، ج١، ص٥٦، ٥٧.

فظهر مما سبق أن التوحيد يدور حول معنىٰ الانفراد ونفي المثيل والنظير، هذا من جهة اللغة، وأمّا من جهة الشرع فالتوحيد له معنىٰ مرتبط بالمعنىٰ اللغوي.

- **معنىٰ التوحيد شرعًا:**

قال الإمام أبو جعفر الطحاوي[1]: «نقول في توحيد الله معتقدين بتوفيق الله: إن الله واحد لا شريك له، ولا شيء مثله، ولا شيء يعجزه، ولا إله غيره»[2].

فالتوحيد معناه: إفراد الخالق بالربوبية والألوهية والأسماء والصفات[3]، حيث ينبني علىٰ «أنّ الله واحد في ملكه وأفعاله لا شريك له، وواحد في ذاته وصفاته لا نظير له، وواحد في إلهيته وعبادته لا ند له، وإلىٰ هذه الأنواع الثلاثة ينقسم توحيد الأنبياء والمرسلين الذين جاؤوا به من عند الله وهي متلازمة، كل نوع منها لا ينفك عن الآخر، فمن أتىٰ بنوع منها ولم يأت بالآخر، فما ذاك إلا أنه لم يأت به علىٰ وجه الكمال المطلوب»[4].

والنصوص شاهدة بذلك، ففي إفراده بالربوبية يقول تعالىٰ: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ

(١) هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي، الحنفي، انتهت إليه رياسة الحنفية بمصر، برز في علم الحديث وفي الفقه، من تصانيفه (شرح معاني الآثار) في الحديث، وكتابه في العقيدة الطحاوية. مات سنة إحدىٰ وعشرين وثلاث مائة في ذي القعدة. المرجع: سير أعلام النبلاء، ج١٥، ص٢٧، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٤، ص١٠٥، والأعلام للزركلي، ج١، ص٢٠٦.

(٢) متن العقيدة الطحاوية، للطحاوي، ص٨.

(٣) انظر: شرح الطحاوية، لابن أبي العز، ص ٢٤.

(٤) تيسير العزيز الحميد، لسليمان بن عبد الوهاب، ج١، ص ١٢٠.

ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ﴾ [الرعد: ١٦]، وفي إفراده بالألوهية يقول تعالىٰ: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]، وفي إفراده بالأسماء والصفات يقول تعالىٰ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [سورة الإخلاص]، وقد اجتمعت الأنواع الثلاثة في قوله تعالىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥].

المسألة الثانية: المراد بالعبادة.

- **معنىٰ العبادة لغة:**

يقول ابن سيده(١): «أصل العبادة في اللغة التّذليلُ من قولهم: طريق مُعَبَّد: أي مُذَّلَّل، بكثرة الوطء عليه...ومنه أُخِذ العبد لذلته لمولاه والعبادة والخضوع والتّذلل والاستكانة قرائب في المعاني يقال تَعبد فلان لفلان إذا تذلل له»(٢).

- **معنىٰ العبادة شرعًا:**

ذكر أهل العلم تعريفات عديدة ومتنوعة لمعنىٰ العبادة في الشرع، فمنها:

قول الإمام الطبري في العبادة: «الخضوعُ لله بالطاعة، والتذلل له بالاستكانة»(٣).

---

(١) هو أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسي، صاحب كتاب "المحكم في لسان العرب"، وأحد من يضرب بذكائه المثل، وكان أعمىٰ ابن أعمىٰ، وكان أبوه أيضا لغويًا، من مصنفاته "المحكم " في اللغة، وله كتاب "المخصص "، وتوفي سنة ثمان وخمسين وأربعمائة. المراجع: سير اعلام النبلاء، ج١٨،ص١٤٤، والاعلام للزركلي، ج٤، ص٢٦٣، وفيات الأعيان، ج٣، ص٣٣٠.

(٢) المخصص، لابن سيده، ج٤، ص ٦٢.

(٣) جامع البيان، للطبري، ج١، ص٣٨٥.

وقول الإمام ابن كثير: «عبارة عمّا يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف»(١).

وعرّفها الإمام ابن القيم بأنّها: كمال المحبّة مع كمال الذّل.

قال في نونيته:

وعبــادة الــرحمن غايــة حبّــه ... مــع ذلّ عابــده همــا قطبــان(٢)

فالعبادة تجمع أمرين: حبّ مع ذلّ، وقد يعبّر عنها بتعبيرات مختلفة فيقال: تعلّق وتعظيم، ويقال: حبّ وخضوع، والمعنىٰ واحد، لكن لا بدّ من اجتماع الأمرين فلا يكون العبد عبدًا علىٰ الحقيقة حتىٰ يكون الخالق أحب إليه من كل مخلوق، وأعظم عنده من أي مخلوق، قال الشيخ السعدي: «العبادة روحها وحقيقتها تحقيق الحب والخضوع لله، فالحب التام والخضوع الكامل لله هو حقيقة العبادة، فمتىٰ خلت العبادة من هذين الأمرين أو من أحدهما فليست عبادة، فإن حقيقتها الذل والانكسار لله، ولا يكون ذلك إلا مع محبته المحبة التامة التي تتبعها المحاب كلها»(٣)، وعلامة الصدق في ذلك تقديم طاعة الخالق علىٰ كل طاعة، ولذا عبّر عنها البعض بأنها الطّاعة.

هذا إذا أردنا بالعبادة الفعل وهو التّعبّد، وأمّا إذا أردنا المفعول وهو المتعبد به: فهي كما عرّفها الأصوليون بقولهم: «ما أمر به شرعًا من غير اطراد عرفي ولا اقتضاء عقلي»(٤)، «أي ليست العبادة ما درج عليه عرف الناس. وما اقتضته مقاييسهم وعقولهم»(٥)، وإنّما ما أمر به الشرع.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج١، ص٢٨.

(٢) الكافية الشافية، لابن القيم، ص٤٣.

(٣) الحق الواضح المبين، السعدي، ص ١١٦.

(٤) حاشية الروض المربع، لابن قاسم، ج١، ص٤٢.

(٥) المرجع السابق.

وكما عرّفها شيخ الإسلام ابن تيمية: «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة»(١)، فشملت كل قول ظاهر وباطن، وكل عمل ظاهر وباطن، وقيّدته بأن يكون محبوبًا من الله، راضيًا عنه، ولن يكون كذلك إلا لو كان موافقًا للسنة خالصًا لله، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١](٢).

المسألة الثالثة: المراد بتوحيد العبادة:

عرفنا معنى التوحيد ومعنى العبادة كمصطلح لغوي وشرعي، وأما معنى "توحيد العبادة" باعتباره مصطلحًا شرعيًا، فله معنى جلّي وواضح عند أهل العلم حيث يعرّفه شيخ الإسلام ابن تيمية أنّه: «إثبات الإلهية لله وحده، بأن يشهد أن لا إله إلا هو، ولا يعبد إلا إياه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يوالي إلا له، ولا يعادي إلا فيه، ولا يعمل إلا لأجله»(٣).

ويقول الإمام ابن القيم: «وتوحيد الإلهية المتضمن أنه وحده الإله المعبود المحبوب، الذي لا تصلح العبادة والذل والخضوع والحبّ إلا له»(٤).

وقال الشيخ السعدي: «وسمي توحيداً فعلياً لأنه متضمن لأفعال القلوب والجوارح، فهو توحيد الله بأفعال العبيد»(٥).

أو يُعرّف بأنه: إفراد الخالق بأفعال العباد(٦)، فتكون كل عباداتهم خالصة لله وحده دون

(١) العبودية، لابن تيمية، ص١٩.

(٢) انظر: جهود شيخ الاسلام ابن تيمية في توضيح العبادة، لأحمد الغنيمان، ص٣٧١، ٣٧٢.

(٣) درء التعارض، لابن تيمية، ج١، ص٢٢٤.

(٤) بدائع الفوائد، لابن القيم، ج٤، ص١٥٤٢.

(٥) الحق الواضح المبين، للسعدي، ص٦، ٧.

(٦) وليست كل أفعال العباد داخلة في توحيد العبادة كالنوم والأكل ونحو ذلك، وإنما المقصود أفعال العباد =

سواه لا شريك له، فلا يجعل معه إلهًا يدعوه أو يرجوه أو يتقرب له بشيء من العبادات(١).

فتوحيد العبادة يعني إفراد الخالق بجميع أنواع العبادات، سواء كانت ظاهرة كالدعاء والنذر والذبح، أو كانت باطنة كالرجاء والخوف والتوكل والحبّ.

وسمّي توحيد العبادة بذلك باعتبار إضافته إلىٰ المخلوق، لكونه مبنيًا علىٰ الإخلاص في جميع العبادات، وسمّي توحيد الألوهية أيضًا باعتبار إضافته إلىٰ الخالق لكونه مبنيًا علىٰ إخلاص التأليه لله(٢).

والارتباط وثيق بين لفظة التوحيد والعبادة، فقد تُعرّف العبادة بالتوحيد؛ لأن العبادة لا تكون عبادة حتىٰ يكون صاحبُها موحدًا، جاء عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ قال: «إياك نوحد ونخاف ونرجو يا ربنا لا غيرك»(٣).

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُٱللَّهُ: «اعلم أرشدك الله لطاعته: أن الحنيفيّة ملّة إبراهيم أن تعبد الله مخلصًا له الدين، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فإذا عرفت أنّ الله خلقك لعبادته فاعلم أنّ العبادة لا تسمّىٰ عبادة إلا مع التوحيد، كما أنّ الصلاة لا تسمّىٰ صلاة إلا مع الطهارة، فإذا دخل الشرك في العبادة فسدتْ، كالحدَث إذا دخل في الطهارة»(٤).

= التعبدية كالصلاة والصيام والتوكل ونحوه، ولهذا فإن التعريف الأول أدقّ.

(١) انظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج١٠، ٦٦٩، وتطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد من الجامع الفريد، للصنعاني، ص ٤٩٦، والتوحيد وقرة عيون الموحدين، لعبد الرحمن آل الشيخ، ص١٠، وعقيدة التوحيد، لصالح الفوزان، ص٤٦.

(٢) انظر: تيسير العزيز الحميد، لسليمان آل الشيخ، ج١، ص١٢٧.

(٣) جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج١، ص١٥٩.

(٤) القواعد الأربعة، مجموعة مؤلفات محمد بن عبد الوهاب، ج١، ص١٩٩.

المطلب الثاني

أهمية توحيد العبادة

توحيد العبادة له أهمية كبيرة جدًا في الدّين، ومكانة عظيمة أيضًا، ونحن سنذكر بعضًا منها اختصارًا، وإلا فقد أُلّفت كتب خاصة عن فضل هذا التوحيد وأهمّيته، وفيما يلي بيان ذلك:

١ ـ إنّه الغاية من خلق الجنّ والإنس:

توحيد العبادة: هو الغاية التي خلق الله الخلق لأجله، والحكمة التي أوجدهم لتحقيقها؛ فما خلقهم إلا لعبادته وحده لا شريك له، ففعل الأول وهو خَلْقهم ليفعلوا الثاني وهو توحيده في العبادة، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦ – ٥٧]، ومعنىٰ يعبدون أي: يوحدوني في العبادة، فمن أطاعه ووحده جازاه علىٰ ذلك، ومن عصاه وأشرك في عبادته عذّبه أشد العذاب، وأخبر تعالىٰ أنّه حين أمرهم بعبادته وحده لا شريك له لم يكن محتاجًا إليهم، بل هو الغني عنهم وعن عبادتهم، والعباد هم الفقراء له، المحتاجون إليه في كل حوائجهم ومطالبهم، وهو مَن خلقهم ورزقهم(١).

فعبادتهم له وحده لا شريك له، وتذلّلهم له، ومحبّتهم له وحده، وخوفهم منه وحده، ورجاؤهم له وحده، وغير ذلك من إفراده بأنواع العبادات القلبية والجارحيّة هي الحكمة من خلق الجنّ والإنس.

٢ ـ إنّه الغاية من إرسال الرسل:

قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾

---

(١) انظر: تفسير القران العظيم، لابن كثير، ج٤، ص٢٥١، والتوحيد وقرة عيون الموحدين، لعبد الرحمن آل الشيخ، ص٣، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٨١٣، ومعارج القبول، للحكمي، ج١، ص٨٢، ٨٣.

[النحل: ٣٦]، فأخبر الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ أنه ما من أمّة سبقت إلا وأُرسل فيهم رسولًا يدعوهم إلىٰ التوحيد فيأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له وإفراده بالطاعة، وينهاهم عن الشرك وعن عبادة كل ما سوىٰ الله من شيطان، أو كاهن، أو صنم، أو غيره(١)، قال الإمام ابن كثير في هذه الآية: «أي: في كل قرن من الناس وطائفة رسولًا وكلهم يدعو إلىٰ عبادة الله، وينهىٰ عن عبادة ما سواه: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ فلم يزل تعالىٰ يرسل إلىٰ الناس الرسل بذلك، منذ حدث الشرك في بني آدم، في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح، وكان أول رسول بعثه الله إلىٰ أهل الأرض إلىٰ أن ختمهم بمحمد ﷺ الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغارب، وكلهم كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]»(٢).

والأدلة متكاثرة علىٰ هذا الأصل وأن توحيد العبادة هو أساس دعوة الرسل ـ عليهم السلام ـ قال الإمام ابن أبي العز(٣): «اعلم أن التوحيد أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلىٰ الله عز وجل. قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩] وقال هود عليه السلام لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥] وقال صالح عليه السلام لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٧٣] وقال شعيب عليه السلام لقومه:

(١) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج١٤، ص٢١٦، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج١٠، ص ٩٤.

(٢) تفسير القران العظيم، لابن كثير، ج٢، ص٦٢٦.

(٣) علي بن علي بن أبي العز، الحنفي الدمشقيّ: فقيه. كان قاضي القضاة بدمشق، وقال ابن كثير في "البداية والنهاية": هو أحد الثقات الأثبات والحفاظ الجهابذة، له كتب، منها " التنبيه علىٰ مشكلات الهداية "، و"النور اللامع فيما يعمل به في الجامع "، توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة إحدىٰ وعشرين وثلاثمائة بمصر. المرجع: الأعلام للزركلي، ج٤، ص٣١٣، ومعجم المؤلفين، ج٧، ص١٥٦، شرح الطحاوية، ص١٣.

﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٨٥]

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦]

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]

وقال ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله**»(١) ومثل هذا كثير في القرآن"(٢).

٣ ـ إنّه الغاية من إنزال الكتب السماوية:

قال تعالىٰ: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢].

فالتوحيد، كما سبق، ثلاثة أقسام: توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات ويسمّيها بعض أهل العلم التوحيد العلمي الخبري، وتوحيد العبادة ويسمّونه التوحيد الإرادي الطلبي، وغالب سور القرآن، بل كل القرآن لا يخلو من أحدهما.

قال ابن أبي العز: «فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التوحيد العلمي الخبري. وإما دعوة إلىٰ عبادته وحده لا شريك له، وخلع ما يعبد من دونه، فهو

(١) رواه البخاري من حديث أبو هريرة، كتاب الإيمان، باب: (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم)، رقم الحديث٢٥، ص٢٨.

(٢) شرح الطحاوية، لابن أبي العز، ص ٢١، ٢٢، ٢٨، ٢٩.

التوحيد الإرادي الطلبي. وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته، فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته. وإما خبر عن إكرامه لأهل توحيده، وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده. وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبىٰ من العذاب، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد. فالقران كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم»(1)، فإذا كان القرآن كلّه توحيد فمعنىٰ ذلك أنه ما أنزل إلا لأجله؛ ولذا وجب الاعتناء بالتوحيد عمومًا، وبتوحيد العبادة خصوصًا، فهمًا وعلمًا وعملًا؛ لأنه ما كُرّر إلا ليتقرّر.

٤ ـ إن توحيد العبادة أول الأوامر وأحبها إلىٰ الله:

قال تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ﴾ [الإسراء: ٢٣]، ومعنىٰ قضىٰ ربك أي: أمر ربك، وأول أمر ابتدأ به وأمر به ـ وهو أصل الشّريعة كلّها ـ هو توحيد العبادة ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، ولذا ابتدأ به، ثم ذكر بعده بقية الأحكام الأخرىٰ(2)، وبما أنّه أول الأوامر فهو أحبّها إلىٰ الخالق، وأولىٰ ما يَعْتني به المخلوق، ويجتهد في تحصيله.

٥ ـ إنّ ضدّه وهو الشرك أول النواهي، وأبغضها إلىٰ الله:

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ﴾ [الأنعام: ١٥١]، فأول المحرمات التي بيّنتها الآية هي الشرك بالله، فأمر الله نبيه ﷺ أن يدعو الناس لسماع ما حُرّم عليهم تحريمًا يشمل كل أحد، وأهمها وأولها هو الشرك بالله؛ وذلك بأن

(١) شرح الطحاوية، لابن أبي العز، ص ٢٤، ٢٤.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٣، ص٣٩، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج١٠، ص٢٠٨، وتفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج١٥، ص ٦٧.

يُعبد المخلوق كما يعبد الخالق، أو يُعظّم كما يُعظّم الخالق، أو يُصرف للمخلوق شيء من خصائص الخالق في ربوبيته وألوهيته؛ ولذا كان لزامًا علىٰ أهل العلم أن يبينوا للناس حرمة هذا الشرك وعظيم خطره[1]، ووجوب التوحيد وبيان أهميته.

فهذه الآية من الآيات المُحْكمات كما ذكر أهل العلم، أجمعت عليها الشرائع ولم يدخلها النسخ، جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: في الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب، ثم قرأ: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾.

٦ ـ إنّه حقّ الله علىٰ العباد ولأجله قام سوق الجنّة والنّار:

عن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنت ردف النبي ﷺ علىٰ حمار يقال له عفير، فقال: «**يا معاذ هل تدري ما حق الله علىٰ عباده، وما حق العباد علىٰ الله**». قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**فإن حق الله علىٰ العباد أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد علىٰ الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا**». فقلت: يا رسول الله، أفلا أبشر به الناس؟ قال: «**لا تبشرهم فيتكلوا**»[2].

قوله: «**فإن حق الله علىٰ العباد أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئًا**» دليل واضح علىٰ أهمية التوحيد، فلم يقتصر علىٰ الأمر بالعبادة بل عطف عليه النهي عن الشرك؛ لأن العبد قد يعبد الله، ويعبد معه غيره، فاشترط التوحيد في العبادة لبيان حق الله الذي من أتىٰ به فقد وُعِد بالنجاة من النار، ووجبت له الجنة[3]، ومن أخلّ به فقد حرّم الله عليه الجنة ومصيره النار، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، وروىٰ أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**أتاني جبريل فبشرني: أنه من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة**». قلت: وإن سرق وإن زنىٰ؟ قال: «**وإن سرق وإن**

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج٧، ص١١٧، وتفسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٢٧٩.

(٢) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب: اسم الفرس والحمار، رقم الحديث ٢٨٥٦، ص٥٥٠.

(٣) انظر: فتح الباري، لابن حجر، ج١١، ص ٤١٢.

زنىٰ»(١).

٧ ـ التوحيد شرط في قبول الأعمال:

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، قال الإمام الطبري: «يا محمد قل لهؤلاء المشركين: إنما أنا إنسان مثلكم، من بني آدم لا علم لي إلا ما علمني الله، وإن الله يوحي إلي أن معبودكم الذي يجب عليكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، معبود واحد لا ثاني له ولا شريك، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾. يقول: فمن كان يخاف ربه يوم لقائه، ويراقبه علىٰ معاصيه، ويرجو ثوابه علىٰ طاعته، ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ يقول: فليخلص له العبادة، وليفرد له الربوبية»(٢).

وعن أبي سعد بن أبي فضالة الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان من الصحابة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا جمع الله الناس يوم القيامة ليوم لا ريب فيه، نادىٰ مناد: من كان أشرك في عمل عمله لله أحدًا فليطلب ثوابه من عند غير الله فإن الله أغنىٰ الشركاء عن الشرك**»(٣).

فدلت هذه النصوص علىٰ أن العبادة لا يثاب عليها صاحبها ولا تقبل منه إلا لو كان موحدًا فيها، فهو أساس صلاح العمل؛ فإصلاح العقائد مقدم علىٰ إصلاح الأعمال، كما قال ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»(٤).

---

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب: كلام الرب مع جبريل ونداء الله الملائكة، رقم الحديث ٧٤٨٧، ص١٤٢٨.

(٢) جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج١٥، ص٤٣٩.

(٣) سنن الترمذي كتاب التفسير، باب ومن سورة الكهف، رقم الحديث ٣١٥٤، ص٧٠٩، قال الترمذي: هذا حديث حسن.

(٤) رواه البخاري من حديث النعمان بن بشير، كتاب الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه، رقم الحديث ٥٢، ص٣٤.

٨ ـ إنّ توحيد العبادة غاية الجهاد فهو أول ما يدخل به الإسلام وآخر ما يخرج به من الدنيا:

قال ابن أبي العز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالتوحيد أول ما يدخل به في الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا»(١)، ودليل ذلك ما جاء عن النبي ﷺ في الحديث الذي رواه أبو ذرّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «**ما من عبد قال: لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة**»(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: لما توفي النبي ﷺ واستخلف أبو بكر وكفر من كفر من العرب قال عمر: يا أبا بكر كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال: لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله**»(٣).

فتوحيد العبادة هو الغاية من الجهاد، حيث أمر الرسول ﷺ بمقاتلة الناس لغاية واحدة، وهي قول لا إله إلا الله، وهي الكلمة المعبّرة عن توحيد العبادة فمعناها: لا معبود بحق إلا الله، فإذا أتوا بها دخلوا في الإسلام وحقنت دماؤهم، وإن لم يأتوا بها فلا حرمة لدمائهم ولا لأموالهم.

فصار توحيد العبادة أول واجب وآخر واجب، فالتوحيد أول الأمر وآخره(٤).

---

(١) شرح الطحاوية، لابن أبي العز، ص٢٣، ٢٤.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة ومن مات مشركا دخل النار، رقم الحديث٢٧٣، ص٥٥.

(٣) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْۚ﴾ [التوبة: ٥]، رقم الحديث٢٥، ص٢٨.

(٤) انظر: شرح الطحاوية، لابن أبي العز، ص٢٣، ٢٤.

٩ ـ من فضائل التوحيد أيضًا أنه لا يقتسمه الغرماء بمظالمهم بل يبقىٰ علىٰ صاحبه، وإنّما يقتسمون أعمال الجوارح:

قال ابن رجب[(١)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإيمان القولي ـ أعني: كلمة التوحيد ـ والإيمان القلبي ـ وهو التصديق ـ لا تقتسمه الغرماء بمظالمهم، بل يبقىٰ علىٰ صاحبه؛ لأن الغرماء لو اقتسموا ذلك لخلد بعض أهل التوحيد، وصار مسلوبًا ما في قلبه من التصديق، وما قاله بلسانه من الشهادة. وإنما يخرج عصاة الموحدين من النار بهذين الشيئين، فدل علىٰ بقائهما علىٰ جميع من دخل النار منهم وأن الغرماء إنما يقتسمون الإيمان العملي بالجوارح»[(٢)].

فتبيّن بالنصوص من الكتاب والسّنة وكلام السلف أهمية معرفة الفارق بين الخالق والمخلوق وأهمية توحيد العبادة، فظهرت أهمية هذه الرسالة.

---

(١) أبو الفرج عبد الرحمن أحمد بن رجب البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي، قال ابن حجي: أتقن الفنّ ـ أي فنّ الحديث ـ وصار أعرف أهل عصره بالعلل، وتتبع الطرق، وتخرّج به غالب أصحابنا الحنابلة بدمشق. توفي سنة خمس وتسعين وسبعمائة، من كتبه (شرح جامع الترمذي) و (جامع العلوم والحكم) في الحديث، و(فضائل الشام)، المرجع: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٨، ص٥٧٨، والأعلام للزركلي، ج٣، ص٢٩٥، ومعجم المؤلفين، ج٥، ص١١٨.

(٢) فتح الباري، لابن رجب، ج١، ص٨٨.

البَابُ الأَوَّلُ

مفاهيم متعلقة بالفارق بين الخالق والمخلوق

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: **أنواع الفروق بين الخالق والمخلوق.**

الفصل الثاني: **أنواع الأدلة على الفارق بين الخالق والمخلوق.**

الفصل الثالث **أنواع الأسماء والصفات باعتبار إضافتها إلى الخالق والمخلوق.**

الفصل الأول

أنواع الفروق بين الخالق والمخلوق

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث:

التمهيـــــــد:

المبحـــث الأول: الفرق في الذات.

المبحــث الثـــاني: الفرق في الاسم.

المبحــث الثالــث: الفرق في الوصف.

التمهيد

قبل أن نذكر الفارق بين الخالق والمخلوق في الذات والأسماء والصفات، يحسُن بنا أن نذكر الفرق والعلاقة بين هذه المصطلحات، في حقّ الخالق ـ تعالىٰ ـ فنقول مستعينين بالله:

- **أولًا: الفرق بين الاسم والصفة:**

١ ـ الاسم عَلَمٌ علىٰ الخالق عز وجل، قال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الحشر: ٢٣، ٢٤]، والصفة تضاف إلىٰ الخالق كحياة الله، وقدرة الله، وعِلْم الله،[١] فهي تَصِف هذا العلم.

٢ ـ الأسماء تدلّ علىٰ الذات، وعلىٰ صفات الكمال القائمة بالذات. فاسم العليم الحكيم دلّت علىٰ الذّات الإلهية وعلىٰ صفتي العلم والحكمة، أما الصفات فتدلّ علىٰ نعوت الكمال القائمة بالذات كالعلم والحكمة.

فصارت الأسماء تدلّ علىٰ أمرين العلمية والوصفية، ولا تنافي بينهما، والصفات تدلّ علىٰ أمر واحد وهو الوصفية[٢].

بمعنىٰ آخر: فإن الأسماء تدلّ علىٰ الذّات وعلىٰ معنىٰ، والصفات تدلّ علىٰ معنىٰ فقط[٣].

٣ ـ كلّ الأسماء يشتقّ منها صفات، لكن ليس كلّ الصفات يشتقّ منها أسماء.

---

(١) انظر: دفع إيهام التشبيه عن أحاديث الصفات، لمحمد السمهري، ص ٣٧، ٣٨.

(٢) انظر: فتاوىٰ اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، ج١، ص١٦٠.

(٣) انظر: شرح العقيدة السفارينية، لابن عثيمين، ص ١٦٩.

بمعنىٰ أن كل الأسماء قد تضمنت صفات؛ فاسم الرحمن يتضمن صفة الرحمة، والعزيز يتضمن صفة العزة، والقدير يتضمن صفة القدرة(١)، فيلزم من إثبات الاسم لله أن نثبت له الصفة المتضمنة له، ولكن لا يلزم من إثباتنا للصفة أن نثبت له الاسم من هذه الصفة، فالكلام صفة لله ـ عز وجل ـ لكن لا يلزم أن يكون من أسمائه المتكلم؛ لأنّ باب الصفات أوسع من باب الأسماء، إذ كل اسم متضمن لصفة، وليس كل صفة متضمنة لاسم(٢).

٤ ـ أسماء الخالق يدعىٰ بها فيقال: يا رحيم! ارحمنا، ويا كريم! أكرمنا، أما الصفات فلا يدعىٰ بها، فلا يقال: يا رحمة الله! ارحمينا، ويا كرم الله! أكرمنا، ونحو ذلك؛ لأنّ الصفة ليست هي الله بل هي صفة له، ونحن مأمورون بأن ندعو الله، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠](٣).

٥ ـ ومن الفروق أيضًا أنّه يُتعبد لله بأسمائه ولا يُتعبد بصفاته، فيقال: عبد الكريم وعبد الرحمن وعبد العزيز، ولا يقال: عبد الكرم وعبد الرحمة وعبد العزة(٤).

ومع هذه الفوارق إلا أنّ أسماء الخالق وصفاته تشترك في جواز الاستعاذة والحلف بهما(٥).

---

(١) انظر: دفع إيهام التشبيه عن أحاديث الصفات، لمحمد السمهري، ص ٣٨، أسماء الله الحسنىٰ، لعبد الله الغصن، ص ١٣٩.

(٢) انظر: مجموع فتاوىٰ ورسائل الشيخ محمد بن صالح العثيمين، ج١، ص١٢٢، وفتاوىٰ اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، ج٣، ص١٦٠.

(٣) انظر: صفات الله الواردة في الكتاب والسنة، للسقاف، ص٢١.

(٤) انظر: المرجع السابق، ص٢١، ٢٢.

(٥) انظر: المرجع السابق، ص٢١.

• ثانيًا: علاقة الذات بالأسماء والصفات:

العلاقة بين الذات والصفات علاقة متلازمة، حيث إن اسم الله إذا أطلق فإنه يتناول الذات وما قام بها من الصفات، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إذا قيل الحمد لله أو قيل بسم الله يتناول ذاته وصفاته، لا يتناول ذاتًا مجردة عن الصفات، ولا صفات مجردة عن الذات»(١).

ويمتنع وجود ذات بلا صفات قائمة بها، أو صفات بلا ذات تقوم بها هذه الصفات، قال الإمام البيهقي(٢): «ونعتقد في صفاته ذاته أنها لم تزل موجودة بذاته، ولا تزال موجودة به»(٣).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «بل لا يمكن وجود الذات إلا بما به تصير ذاتًا من الصفات، ولا يمكن وجود الصفات إلا بما به تصير صفات من الذات»(٤)، وقال الإمام ابن القيم: «وإن كانت الذات لا تخلو عن الصفات؛ فهي قائمة بها»(٥).

وبعد أن ظهر لنا الفرق بين الذّات والأسماء والصفات، والعلاقة بينها، فلنفصّل القول في مسألة الفارق بين الخالق والمخلوق في الذّات والأسماء والصفات.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج٦، ص٢٠٦.

(٢) أبو بكر أحمد بن الحسين بن موسىٰ الخراساني. الشافعي الحافظ، قال ابن خلّكان وهو أول من جمع نصوص الشافعي في عشر مجلدات، لزم الحاكم مدة، وبلغت تصانيفه ألف جزء منها «السنن الكبرىٰ» و«الصغرىٰ» وكتاب «الأسماء والصفات» وغير ذلك. المرجع: سير أعلام النبلاء، ج١٨، ص١٦٣، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٥، ص٢٤٩، والأعلام للزركلي، ج١، ص١١٦.

(٣) الأسماء والصفات، للبيهقي، ج١، ص٢٧٦، ٢٧٧.

(٤) مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج٦، ص٢٠٦.

(٥) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيم، ج٤، ص ٢٩٩.

المبحث الأول

الفرق في الـــذات

وفيه مطلبان:

المطلـــــب الأول: معنى «الذات»، وثبوته في حق الخالق والمخلوق.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولىٰ: معنىٰ "الذات".

المسألة الثانية: ثبوت لفظ "الذات" في حق الخالق والمخلوق.

المطلــب الثـــاني: الفرق بين ذات الخالق وذات المخلوق.

المطلب الأول

معنى «الذات»، وثبوته في حق الخالق والمخلوق

عندما نتكلم عن الفارق بين الخالق والمخلوق عمومًا فإن هذا سيشمل الفارق في الذات والفارق في الأسماء والفارق في الصفات، والمراد في هذا الفصل هو الكلام عليها بصورة إجمالية دون اختصاص باسم أو صفة بعينها، وأول ما يذكر هو الفرق في الذات؛ لأنها الأصل، فنقول مستعينين بخالقنا:

المسألة الأولى: معنى «الذات»:

- **معنىٰ "الذات" لغة:**

أصل هذه اللفظة " ذو" بمعنىٰ صاحب وتأنيثها " ذات" أي صاحبة، وهي لفظة يتوصل بها إلىٰ الوصف بالأجناس، ولا تأتي إلا مضافة؛ ولذا فهي لا تطلق إلا لمن له صفات مضافة إليه[1].

قال الحافظ ابن حجر: «ذات بمعنىٰ صاحبة تأنيث ذو وليس لها في اللغة مدلول غير ذلك»[2].

وقال الإمام ابن القيم: «وأصل لفظة ذات أصل هذه اللفظة هو تأنيث "ذو" بمعنىٰ صاحب، فذات صاحبة كذا في الأصل، ولهذا لا يقال: ذات الشيء، إلا لما له صفات ونعوت تضاف إليه، فكأنه يقول: صاحبة هذه الصفات والنعوت»[3].

قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [البقرة: ١٠٥]، أي: صاحب الفضل العظيم[4].

---

(١) انظر: لسان العرب، لابن منظور، ج٥، ص ١١، ١٢.

(٢) فتح الباري، لابن حجر، ج١٣، ص ٤٦٧.

(٣) بدائع الفوائد، لابن القيم، ج٢، ص ٤٠٢.

(٤) انظر: فتح القدير، للشوكاني، ج١، ص ١٧٠.

وقال: ﴿وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ﴾ [الرحمن: ١١]، أي: صاحبة الأكمام(١).

• معنىٰ الذات في حق الخالق:

ظهر لنا مما سبق أنّ "ذات" في اللغة تعني صاحبة، ولم يأت في القرآن ولا لغة العرب إلا مضافًا، لكن "الذات" عند المتأخرين تطلق علىٰ حقيقة الشيء وعَيْنه ونَفْسه، وقد استعملوها مفردة ومضافة وأدخلوا عليها " ال"، ووجه ذلك أنّ الصفات إنّما هي مضافة إلىٰ النفس، فيقال فيها: ذات علم، وذات قدرة، ونحو ذلك، فحذفوا الإضافة وأدخلوا "ال" التعريف فقالوا: الذات، ومرادهم النفس الحقيقية الموصوفة بالصفات(٢).

ولأهل العلم من هذا الاستعمال مواقف، قال الإمام ابن القيم: «وقد تنازع فيها أهل العربية فكثير منهم يغلط أصحاب هذا الاستعمال، ويقول هو خلاف لغة العرب وبعضهم يجعله قياس اللغة وإن لم ينطقوا به، والصواب أنه من العربية المولدة كما قالوا: الكل والبعض والكافة والعرب لا تستعملها إلا مضافة»(٣)، وعلىٰ ذلك فهم ثلاثة أصناف:

١ ـ هناك من قَبِل بهذا الاستعمال، ورأىٰ أنّه لا بأس به، وأنّه مستعمل في القرآن والسنة، ومنهم القاضي عياض(٤)، والنووي، ودلّلوا علىٰ ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ١]، وأن «ذات» هنا بمعنىٰ النفس، فذكر الزّجاج(٥) أن معناها في الآية

---

(١) انظر: نظم الدرر، للبقاعي، ج٨، ص٤١٦.

(٢) انظر: المفردات في غريب القران، الراغب الأصفهاني، ج١، ص ٢٤٢، ومجموع الفتاوىٰ، ابن تيمية، ج٣، ص ٣٣٤، ٣٣٥، ومجموع الفتاوىٰ، ابن تيمية، ج٦، ص٩٨، ٩٩.

(٣) الصواعق المرسلة، ابن القيم، ج٤، ص ١٣٨٤.

(٤) أبو الفضل عياض بن موسىٰ بن عياض اليحصبي، المالكي، إمام أهل الحديث في وقته، كان من أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم، من مصنفاته " الإكمال في شرح كتاب مسلم " كمل به " المعلم في شرح مسلم " للمازري، ومنها " مشارق الأنوار "، وتوفي سنة أربع وأربعين وخمسمائة، المرجع: الأعلام للزركلي، ج٥، ص٩٩، وسير اعلام النبلاء، ج٢٠، ص٢١٣، وفيات الاعيان، ج٣، ص٤٨٥.

(٥) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن السري الزجاج، الحنبلي، واخذ الأدب عن المبرد، وثعلب، من كتبه =

حقيقة وصلكم فالبين هو الوصل،[1] وقال الواحدي[2] في أحد معانى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الأنفال: ٤٣]: إن المراد بذات، أي: نفس الصدور؛ لأن ذات الشيء نفسه، فمعنى الآية تأكيد علم الله بالصدور[3].

ومما يستدلون به قول خبيب كذلك ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ:

«وذلك في ذات الإله وإن يشأ   يبارك على أوصال شلو ممزع»[4]

ونحو هذه النصوص[5].

=

(معاني القرآن) و(الاشتقاق) و(خلق الإنسان). ولد ومات في بغداد وتوفي سنة إحدى عشرة وثلاث مائة. المرجع: سير أعلام النبلاء، ج١٤، ص٣٦٠، وفيات الاعيان، ج١، ص٤٩، والأعلام للزركلي، ج١، ص٤٠، ومعجم الأدباء، ج١، ص١٣٠.

(١) انظر: تهذيب الأسماء واللغات، النووي، ج٣، ص١١٣، و مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ج٦، ص٩٩.

(٢) أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، النيسابوري، الشافعي، صاحب (التفسير)، لزم أبا إسحاق الثعلبي، وأكثر عنه، تصانيفه: «البسيط " في تفسير القرآن الكريم، وكذلك " الوسيط"، ومولده ووفاته بنيسابور في جمادى الآخرة، سنة ثمان وستين وأربع مائة. المرجع: سير أعلام النبلاء، ج١٨، ص٣٣٩، والأعلام للزركلي، ج٤، ص٢٥٥.

(٣) انظر: الصواعق المرسلة، ابن القيم، ج ٤، ص ١٣٨٣.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب التوحيد، باب ما يذكر في الذات والنعوت وأسامي الله،رقم الحديث٧٤٠٢، ص١٤١٠.

(٥) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم، ج٣، ص ٤٠٣.

٢ ـ وهناك من أنكر استعمال هذه اللفظة ـ بمعنىٰ حقيقة الشيء ـ ومنع من ذلك، فقالوا: لا يُعرف بهذا الاستعمال في لغة العرب، وإنّما المعروف في اللغة أنّ ذات بمعنىٰ (صاحبة)، منهم أبو الفتح ابن برهان[(١)]، والسهيلي[(٢)] وغيرهم[(٣)]، قال السهيلي: «وليست هذه اللفظة إذا استقريتها في اللغة والشريعة كما زعموا، ولو كان كذلك لجاز أن يقال: «عبدت ذات الله سبحانه»، «واحذر ذاته» كما قال تعالىٰ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وذلك غير مسموع»[(٤)].

٣ ـ وهناك من أقرّ بأنّ استعمال الذات بمعنىٰ الحقيقة لم يكن معروفًا في اللغة، ولم يأت في القرآن ولا لغة العرب إلا مضافًا إلىٰ غيره، ولم يأت مطلقًا، لكنّه لم ينكر استعماله بهذا المعنىٰ عند المتأخرين كقولهم: استوىٰ علىٰ عرشه بذاته، ومن هؤلاء شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن القيم، حيث اعتبروا أن هذا لفظ اصطلاحي لا لغوي، وأن الخطأ هو تفسير بعض النصوص الوارد فيها ذكر الذات مضافة بمعنىٰ الحقيقة والنفس، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الأنفال: ٤٣] فإنّ ذات هنا ليس المراد أنّه سبحانه عليم بمجرد الصدور بل هذا ليس فيه معنىٰ كبير، كما لو قال عليم بالرؤوس والظهور والأيدي، ولكن المراد أنّه عليم بجميع ما يدور في هذه الصدور من خير أو شر، فهذه الأسرار هي

(١) أبو الفتح أحمد بن علي بن البغدادي، الشافعي، غلب عليه علم الأصول، كان خارق الذكاء، لا يكاد يسمع شيئا إلا حفظه، من تصانيفه (البسيط) و (الوسيط) و (الوجيز) في الفقه والأصول، مات في جمادىٰ الأولىٰ سنة ثمان عشرة وخمسمائة، المرجع: سير اعلام النبلاء م١٩، ص٤٥٦، والأعلام للزركلي، ج١، ص١٧٣.

(٢) هو عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمي السّهيلي، المالكي النحوي المؤرّخ، صاحب «الروض الأنف»، و«التعريف والإعلام بما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام»، نحويا متقدما لغويًا. توفي سنة ٥٨١هـ. المرجع: شذرات الذهب في اخبار من ذهب، ج١، ص٤٦، والأعلام للزركلي، ج٣، ص٣١٣، ومعجم المؤلفين، ج٥، ص١٤٧.

(٣) انظر: مجموع الفتاوىٰ، ابن تيمية، ج٦، ص ٩٩.

(٤) نتائج الفكر في النحو، عبد الرحمن السهيلي، ص ٢٣١، ٢٣٢.

صاحبة الصدور[(١)].

وقد يعترض معترض علىٰ هذه الأدلة بأن "الذات" هنا لم يرد بها المعنىٰ الاصطلاحي، وهو "الحقيقة والنفس"، وإنما المراد بها هو المعنىٰ اللغوي وهو "الصاحبة".

ومن ذلك ما اعترض به البعض علىٰ قول البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ترجمة الباب، «باب ما يذكر في الذات والنعوت وأسامي الله عز وجل» مع أن الأحاديث التي أوردها تحت الترجمة لم يُرَد بها الذات الحقيقية، فقال الكرماني[(٢)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قيل ليس فيه - يعني قوله ذات الإله - دلالة علىٰ الترجمة لأنه لم يرد بالذات الحقيقة التي هي مراد البخاري وإنما مراده وذلك في طاعة الله أو في سبيل الله، وقد يجاب بأن غرضه جواز إطلاق الذات في الجملة»[(٣)].

فاعتبروا النصوص التي ورد فيها لفظ الذات مضافًا للخالق دليلًا علىٰ جواز استعمالها في حق الخالق في الجملة، وإن لم يكن بمعنىٰ النفس والحقيقة، كما في قصة مقتل خبيب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ حيث إنّه «أضاف لفظ الذات إلىٰ اسم الله - تعالىٰ - وسمعه النبي ﷺ فلم ينكره فكان جائزًا»[(٤)].

ومما يذكر في هذا الباب ما روي عن عبد الله بن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «تفكروا في كل شيء، ولا تفكروا في ذات الله»[(٥)]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإن كان هذا اللفظ أو

---

(١) انظر: مجموع الفتاوىٰ، ابن تيمية، ج ٣، ص ٣٣٤، ج ٦، ص٩٨، ٩٩، و بدائع الفوائد، ابن القيم، ج٢، ص ٤٠٣.

(٢) محمد بن يوسف بن علي الكرماني الشافعي، عالم بالحديث، واشتغل بالعلم، مات راجعًا من الحج في طريقه إلىٰ بغداد، ودفن فيها في المحرم سنة ست وثمانين وسبعمائة، من كتبه (الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري)، المرجع: شذرات الذهب ج٨، ص٥٠٥، والأعلام للزركلي، ج٧، ص١٥٣.

(٣) فتح الباري، ابن حجر، ج١٣، ص ٤٦٨.

(٤) المرجع السابق.

(٥) رواه البيهقي في الأسماء والصفات، ج٢، ص ٤٦، قال الحافظ ابن حجر في الفتح: سنده جيد، وحسنه الألباني بمجموع طرقه.

نظيره ثابتًا عن النبي ﷺ وأصحابه: فقد وجد في كلامهم إطلاق اسم "الذات" على النفس، كما يطلقه المتأخرون»[1]، وهذا الأثر منهم من جعله مرفوعًا، ومنهم من جعله موقوفًا على ابن عباس، ومنهم من ضعفه، ومنهم من قال في إسناده: إنه جيد[2].

ومما ينبغي التنبيه عليه أن هذا اللفظ يطلق على الخالق على سبيل الخبر وليس الوصف، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ويفرق بين دعائه والإخبار عنه، فلا يدعى إلا بالأسماء الحسنى؛ وأما الاخبار عنه: فلا يكون باسم سيء؛ لكن قد يكون باسم حسن، أو باسم ليس بسيء، وان لم يحكم بحسنه. مثل اسم: شيء، وذات، وموجود إذا أريد بها الثابت»[3].

وعلى كل حال فالذي يظهر ـ والله أعلم ـ أن هذا اللفظ قد استخدم في اللغة، وفي كتاب الله، وفي الثابت من سنة نبيه ﷺ، ولكنّه لم يرد بمعنى النفس والحقيقة، إلا أنّه لما اصطلح المتأخرون على إطلاقه على الله بمعنى النفس والحقيقة من باب الإخبار وليس الوصف جاز هذا، ومما يقوي هذا الرأي حديث ابن عباس السابق والذي أشار إليه شيخ الإسلام ابن تيمية أنّه لو صح كان فصلًا في المسألة، وقد ذكرنا أن الحافظ ابن حجر قال عن سنده: إنه جيد.

وخلاصة القول أن معنى "الذات" في حقّ الخالق: أي: نفسه سبحانه الموصوفة بصفات الكمال، كما في قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وقال:

---

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ج ٦، ص ٣٤٢.

(٢) رواه البيهقي في الأسماء والصفات، ج٢، ص ٤٦، قال الحافظ ابن حجر في الفتح: سنده جيد، وقال الألباني في " السلسلة الصحيحة " ٤ / ٣٩٥: «وهذا إسناد ضعيف، عطاء كان اختلط. و عاصم بن علي و أبوه فيهما ضعف، و ابنه خير منه. و عزاه السيوطي لأبي الشيخ أيضا في " العظمة "، فالظاهر أنه مرفوع عنده، فإن كان كذلك، فما أظن إسناده خيرا من هذا. و بالجملة فالحديث بمجموع طرقه حسن عندي" انتهى كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج٦، ص١٤٢.

﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾ [طه: ٤١].

معنىٰ "الذات" في حقّ المخلوق: حقيقة المخلوق وعينه ونفسه، والموصوفة بالصفات اللائقة به، قال تعالىٰ: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦]، «فكل موصوف قائم بنفسه فهو ذات»(١)، ولكن شتّان بين ذات الخالق وذات المخلوق.

المسألة الثانية: ثبوت لفظ «الذات» في حق الخالق والمخلوق:

- **ثبوت لفظ "الذات" في حق الخالق:**

لم ترد كلمة " ذات" مضافة إلىٰ الخالق في كتاب الله، لكن وردت في السنّة أكثر من مرة، وقد ذكرنا طرفًا من هذه الأدلة، ومن ذلك:

١ ـ ما رواه البخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قصة مقتل خبيب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله:

ولَسْتُ أبالي حَيْنَ أُقْتَلُ مسلمًا ... علىٰ أي شِقٍّ كان لله مصْرِعِي
وذلكَ في ذاتِ الإلهِ وإنْ يَشأْ ... يُبَارِكْ علىٰ أوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ(٢)

ووردت هذه اللفظة أيضا عن الصحابة ـ رضوان الله عليهم:

---

(١) شرح العقيدة السفارينية، لابن عثيمين، ص١٥٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب التوحيد، باب ما يذكر في الذات والنعوت وأسامي الله، رقم الحديث٧٤٠٢، ص١٤١٠.

٢ ـ قال حذيفة بن اليمان لعمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَ: «إن جمعت في الله وقسمته في ذات الله فأنت أنت وإلا فلا»(١).

٣ ـ قال أبو الدرداء: «ولن تفقه كل الفقه حتىٰ تمقت الناس في ذات الله»(٢).

٤ ـ ما روي عن عبد الله بن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «تفكروا في كل شيء، ولا تفكروا في ذات الله»(٣).

وقد أطلق السلف لفظ الذات علىٰ الخالق ـ بمعنىٰ النفس والحقيقة:

قال أبو نصر السجزي(٤)، المتوفىٰ سنة ٤٤٤ هـ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ عن أهل الحديث: «وأئمتنا كالثوري(٥)، ومالك، وابن عيينة(٦)،...

(١) الحجة في بيان المحجة، الأصبهاني، ج١، ص١٧٢.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، باب العلم، رقم الحديث ٢٠٤٧٣، ج١١، ص ٢٥٥، قال الحافظ: «ورجاله ثقات إلا أنه منقطع»، وأخرجه ابن عبد البر من حديث شداد بن أوس وقال: لا يصح مرفوعًا.

(٣) سبق تخريجه، ص٦٩.

(٤) أبو نصر عبيد الله بن سعيد بن حاتم بن أحمد الوائلي، السجستاني، الحنفي، وله مصنف (الإبانة الكبرىٰ) في أن القرآن غير مخلوق، وهو مجلد كبير، دال علىٰ سعة علم الرجل بفن الأثر، توفي أبو نصر: بمكة، في المحرم، سنة أربع وأربعين وأربع مائة. المرجع: سير الاعلام، ج١٧، ص٦٥٤، والجواهر المضية في طبقات الحنفية، ج١، ص٣٣٨، والأعلام للزركلي، ج٤، ص١٩٤.

(٥) أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري هو سيد العلماء في زمانه، قال ابن المبارك: كتبت عن ألف شيخ ومائة شيخ ما فيهم أفضل من سفيان. وقال أحمد بن حنبل: لا يتقدم علىٰ سفيان في قلبي أحد، له من الكتب (الجامع الكبير) و(الجامع الصغير) كلاهما في الحديث. مات: احدىٰ وستين ومائة. المرجع: سير أعلام النبلاء، ج٧، ص٢٢٩، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٢، ص٢٧٤، والأعلام للزركلي، ج٣، ص١٠٤.

(٦) أبو محمد سفيان بن عيينة بن أبي عمران بن مزاحم، صاحب سنة واتباع. كان حافظا ثقة، قال الشّافعيّ: لولا مالك، وابن عيينة لذهب علم الحجاز، له (الجامع) في الحديث، وكتاب في (التفسير)، توفي سنة ثمان وتسعين ومائة بمكة. المرجع: سير اعلام النبلاء، ج٨، ص٤٥٤، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب، =

وحماد بن زيد(١)، والفضيل(٢)، وأحمد(٣)، وإسحاق(٤)، متفقون علىٰ أن الله فوق العرش بذاته وأن علمه بكل مكان»(٥).

وكذلك أبو إسماعيل الهروي(٦) ـ رحمه الله تعالىٰ ـ المتوفىٰ سنة (٤٨١ هـ)، صاحب كتاب "منازل السائرين" صرّح في كتابه بلفظ "الذات" وقال: «ولم تزل أئمة السلف تُصرح بذلك»(٧).

ومن السلف الذين صرّحوا بذلك:

=

ج٢، ص٤٦٦، والأعلام للزركلي، ج٣، ص١٠٥، ووفيات الأعيان، ج٢، ص٣٩٣.

(١) أبو إسماعيل حماد بن زيد بن درهم الأزدي العلامة، وحماد بن زيد من أئمة السلف، ومن أتقن الحفاظ وأعدلهم. مات في سنة تسع وسبعين ومائة. المرجع: سير أعلام النبلاء، ج٧، ص٤٥٦، والأعلام للزركلي، ج٢، ص٢٧١.

(٢) أبو علي الفضيل بن عياض بن بشر التميمي الخراساني، وكان إمامًا: ربّانيًا، كبير الشأن، ثقة، نبيلًا، عابدًا، زاهدًا، جليلًا. وانتقل إلىٰ مكة، ونزلها، إلىٰ أن مات بها في أول سنة سبع وثمانين ومائة، المرجع: سير أعلام النبلاء، ج٨، ص٤٢١، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٢، ص٣٩٩، والأعلام للزركلي، ج٥، ص١٥٣.

(٣) يعني أحمد بن حنبل رحمه الله.

(٤) أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي المروزي ثم النيسابوري الحافظ صاحب التصانيف، وهو الإمام عالم المشرق، قال أحمد بن حنبل: لا أعلم بالعراق له نظيرًا وما عبر الجسر مثل إسحاق.توفي سنة ثمان وثلاثين ومائتين بنيسابور، شذرات الذهب، ج٢، ص٨٩.

(٥) اجتماع الجيوش الاسلامية، لابن القيم، ص٢٤٦.

(٦) هو أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي، الحنبلي، وشيخ خراسان، كان قذىٰ في أعين المبتدعة، وسيفا علىٰ الجهمية، وقد امتحن مرات، وصنّف عدة مصنفات (الأربعين) في التوحيد، و (أربعين) في السنة، توفي في ذي الحجة سنة إحدىٰ وثمانين وأربعمائة. المرجع: سير أعلام النبلاء، ج١٨، ص٥٠٩، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٥، ص٣٤٩، والأعلام للزركلي، ج٤، ص١٢٢.

(٧) اجتماع الجيوش الاسلامية، لابن القيم، ص٢٧٩.

١. ابن أبي شيبة[1]: أبو جعفر محمد بن عثمان الكوفي المتوفى سنة (٢٩٧ هـ).

٢. أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، المتوفى سنة (٣١٠ هـ).

٣. أبو سليمان الخطابي، المتوفى سنة (٣٨٨ هـ)[2].

- **ثبوت لفظ "الذات" في حق المخلوق:**

إطلاق لفظة "الذات" على المخلوق ورد في نصوص كثيرة، ومرّ معنا شيء من ذلك، ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١]، وقوله: ﴿وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ [الرحمن: ١١]، وقوله: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ [الفجر: ٧]، وغيرها من النصوص الدالة على ثبوت هذه اللفظة في حق المخلوق، لكن وكما ذكرنا سابقًا يبقى الاشكال في أن استعمالها لم يرد بمعنى الحقيقة والنفس، والذي يظهر ـ والله أعلم ـ أنّه يصحّ استعمالها بهذا المعنى ولو لم يرد في اللغة، طالما استعملها أهل العلم وشاع استعمالها بينهم بهذا المعنى ولم تخالف الشرع، فلا مشاحة في الاصطلاح.

وبهذا يظهر ثبوت لفظ "الذات" في حقّ الخالق والمخلوق، وأنّ بينهما قدرًا مشتركًا وهو بمعنى النفس والحقيقة، إلا أنّ الفارق بين ذات الخالق وذات المخلوق عظيم، وهذا ما سنوضّحه ـ بإذن الله ـ فيما سيأتي.

---

(١) هو أبو الحسن محمد بن عثمان بن أبي شيبة العبسي، الكوفي، محدث، حافظ، فقيه، مفسر. مختلف في توثيقه، له تآليف مفيدة، منها تاريخ كبير، والسنن في الفقه، والعرش وصفته. مات ابن أبي شيبة ببغداد في جمادى الأولى، سنة سبع وتسعين ومائتين. المرجع: سير أعلام النبلاء، ج١٤، ص٢١، والأعلام للزركلي، ج٦، ص٢٦٠، ومعجم المؤلفين، ج٦، ص٢٦٨.

(٢) انظر: معجم المناهي اللفظية، أبو زيد، ص ٦١٧.

المطلب الثاني

الفرق بين ذات الخالق وذات المخلوق

الفرق الأول: الفرق في الوجود:

الخالق ذاته واجبة الوجود(١)، والمخلوق ذاته ممكنة (جائزة) الوجود.

مع أنّ لفظ "الوجود" يشترك فيه الخالق والمخلوق إلا أنّ بينهما فرقًا شاسعًا؛ فوجود الخالق غير مكتسب بل هو ذاتيّ، وأما وجود المخلوق فهو مكتسب إذ هو محتاج إلىٰ من يهبه الوجود بل ويحفظه عليه، فالواجب من الوجود خاص بالخالق، والجائز خاص بالمخلوق(٢)، ومعنىٰ أنّ الخالق ذاته واجبة الوجود أي أنّ وجوده بنفسه وأنّه مستغني عن موجد(٣).

والمقصود بأنّ المخلوق ذاته ممكنة (جائزة) الوجود أي: أنّه الذي يقبل الوجود والعدم، ولا يكون وجوده بنفسه بل يفتقر في وجوده إلىٰ غيره(٤).

وعلىٰ هذا فلا يوجد ذات واجبة الوجود إلا ذات الخالق، إذ لا يشاركه أحد في هذا

---

(١) لفظ واجب الوجود غير وارد في كلام الله تعالىٰ ولا في كلام رسوله ﷺ وقد استحدثه الفلاسفة المتأخرون، يقول شيخ الإسلام: «وأما الكلام بلفظ الواجب الوجود، وممكن الوجود، فهذا من كلام ابن سينا وأمثاله، الذين اشتقوه من كلام المتكلمين المعتزلة ونحوهم، وإلا فكلام سلفهم، إنما يوجد فيه لفظ العلة والمعلول» وأهل السنة قد يطلقون واجب الوجود علىٰ الله، من باب الإخبار عن الله، وذلك في المناظرات، والمناقشات، مع من يستخدم هذا اللفظ. كما أنهم يرون أن الوجوب الذي دل عليه الدليل هو وجوده سبحانه بنفسه، واستغناؤه عن موجد. بينما يضيف الفلاسفة إلىٰ هذا اللفظ معاني أخرىٰ غير صحيحة، وهنا استخدمناه للرد علىٰ من لم يفرق بين الخالق والمخلوق، المرجع: الألفاظ المتعلقة بتوحيد الربوبية، لآمال عمرو، ص٢٨٢.

(٢) انظر: فتاوىٰ ورسائل الشيخ عبد الرزاق عفيفي، ج٢، ص ٤١.

(٣) انظر: الرسالة الصفدية، ابن تيمية، ص ٢٧٣.

(٤) انظر: شرح العقيدة الأصبهانية، ابن تيمية، ص٥٤.

الأمر، وهو الذي أوجد المخلوقات جميعها، وكلها تعتمد عليه في بقائها ووجودها(١).

وقد دلّ السمع والعقل علىٰ أن الخالق واجب الوجود: فمن السمع قوله تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة: ٥٨ - ٧٣] فإذا كانت هذه المخلوقات مفتقرة في حدوثها إلىٰ الخالق، فلابد أن يكون هذا الخالق واجب الوجود(٢).

وأما العقل فإنه يدلّ أيضًا علىٰ ذلك، فأقسام الحكم العقلي ثلاثة:

١ ـ مستحيل الوجود.

٢ ـ ممكن (جائز) الوجود.

٣ ـ واجب الوجود.

فأما الأول فباطل؛ لأنّه لو كان مستحيل الوجود ـ وهو ما لا يتصور العقل وجوده ـ لم يمكن أن يعتمد عليه ممكن الوجود في حدوثه، وأما الثاني فباطل كذلك؛ لأن ممكن الوجود يحتاج إلىٰ من يرجح وجوده علىٰ عدمه؛ فإذا استمرت هذه الحاجة واستند ممكن الوجود

---

(١) انظر: توضيح الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، السعدي، ص١٨١.

(٢) انظر: فتاوىٰ ورسائل الشيخ عبد الرزاق عفيفي، اعداد: وليد بن إدريس بن منسي، ص ٤٣.

إلىٰ نظيره من الممكنات في وجوده لزم من ذلك إما الدور القبلي[١] وإما التسلسل[٢]، وكلاهما محال، فإذا انتفىٰ الأول والثاني في حق الخالق تعين الثالث، وهو أن الخالق واجب الوجود[٣].

وأمّا المخلوق فهو جائز الوجود، وقد دلّ السمع والعقل علىٰ ذلك أيضًا:

- أمّا السّمع فكل الأدلة الدالة علىٰ خلق المخلوقات هي دالّةأيضًا علىٰ أنّه غير واجب الوجود؛ لأنّه مخلوق.

- وأمّا العقل فإنه دالّ كذلك علىٰ أنّ المخلوق جائز الوجود: فأقسام الحكم العقلي ثلاثة كما ذكرنا:

١ ـ مستحيل الوجود.

٢ ـ ممكن (جائز) الوجود.

٣ ـ واجب الوجود.

أما الاحتمالُ الأول: فباطل؛ لأنّا نرىٰ ونعقل وجود الكون، ولو كان مستحيل الوجود لما أمكن وجوده؛ لأن المستحيل لذاته لا يوجد.

---

(١) الدور القبلي: هو توقف الشيء علىٰ ما يتوقف عليه وهو ممتنع باتفاق العقلاء، مثل أن يقال: لا يكون هذا إلا بعد ذاك ولا يكون ذاك إلا بعد هذا، المرجع: الألفاظ المتعلقة بتوحيد الربوبية، لآمال عمرو، ص٢٦٤.

(٢) والتسلسل: هو ترتيب أمور غير متناهية، المرجع: التعريفات، للجرجاني، ص٨٠.

(٣) انظر: فتاوىٰ ورسائل الشيخ عبد الرزاق عفيفي، إعداد: وليد بن إدريس بن منسي، ص ٤١، ٤٢.

وأما الاحتمال الثالث: فهو باطل أيضًا؛ لأنا نراه يسبقه العدم ويلحقه الفناء، وإذا كان كذلك بطل كونه واجب الوجود.

فإذا بطل الأول والثالث تعيّن الثاني، وهو أنّ هذه المخلوقات جائزة الوجود، فنراها تكون موجودة ثم تنعدم وتكون معدومة ثم توجد(١).

والمقصود أن المخلوق ذاته جائزة الوجود والخالق ذاته واجبة الوجود، وهذا فرق كبير بين ذات الخالق وذات المخلوق.

الفرق الثاني: الفرق في الأولية والآخرية:

الخالق ذاته أولية وهي آخرية، والمخلوق ذاته مسبوقة بعدم ويلحقها الفناء.

ومن الأدلة الدالة علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]، وقد فسرها النبي ﷺ بقوله: «**اللهم! أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء**»(٢)، قال الإمام الطبري في تفسير الآية: «هو الأول قبل كل شيء بغير حد، ﴿وَٱلْءَاخِرُ﴾. يقول: والآخر بعد كل شيء بغير نهاية. وإنما قيل ذلك كذلك؛ لأنه كان ولا شيء موجود سواه، وهو كائن بعد فناء الأشياء كلها، كما قال جل ثناؤه: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]»(٣).

(١) انظر: المرجع السابق، ص٣٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب ما يقول عند النوم، رقم الحديث٦٨٨٩، ص١١٧٩.

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، ج٢٢، ص ٣٨٥.

فأوّليته لا مبدأ لها ولا يتصور وجود شيء قبله ــ سبحانه ــ وكل غاية يقدرها العقل ويتصورها فأزليته قبلها، ومعنىٰ الأزل: ما لا بداية له فهو غير محدود، ومهما يقدّر الإنسان ويفرضه من الأوقات السابقة المتسلسلة فالخالق قبلها[1]، جاء في صحيح البخاري، عن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبيّ ﷺ قال: «**كان اللهَ ولم يكن شيء قبلهُ، وكان عرشه علىٰ الماء، ثم خلقَ السّمواتِ والأرضَ، وكتب في الذكر كل شيء**»[2].

وأما آخريته ـ سبحانه وتعالىٰ ـ فهي تعني بقاءه وأبديته[3]، قال تعالىٰ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾، وقال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧].

وقال الإمام ابن القيم في معنىٰ اسم الأول والآخر: «فمعرفة هذه الأسماء الأربعة: الأول، والآخر، والظاهر، والباطن، من أركان العلم والمعرفة، فحقيق بالعبد أن يبلغ في معرفتها إلىٰ حيث تنتهي به قواه وفهمه. واعلم أن لك أنت أولًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا، بل كل شيء فله أول وآخر، وظاهر وباطن، حتىٰ الخطرة واللحظة والنفس وأدنىٰ من ذلك وأكثر. فأولية الله ـ عز وجل ـ سابقة علىٰ أولية كل ما سواه؛ وآخريته ثابتة بعد آخرية كل ما سواه، فأوليته سبقه بكل شيء، وآخريته بقاؤه بعد كل شيء، وظاهريته ــ سبحانه ــ فوقيته وعلوه علىٰ كل شيء... فمدار هذه الأسماء الأربعة أوليته وآخريته بالقبل والبعد، فكل سابق انتهىٰ إلىٰ أوليته، وكل آخر انتهىٰ إلىٰ آخريته، فأحاطت أوليته وآخريته بالأوائل والأواخر، وأحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن، فما من ظاهر إلا والله فوقه وما من باطن إلا والله بعده: فالأول قدمه، والآخر دوامه وبقاؤه، والظاهر علوه وعظمته، والباطن

(١) انظر: شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، عبد الله الغنيمان، ج١، ص٢٨٣، ٢٨٤، السعدي، توضيح الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، ص١٨١.

(٢) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧] رقم الحديث ٧٤١٨، ص ١٤١٣.

(٣) انظر: شرح العقيدة الواسطية، محمد خليل هراس، ص ٨٩.

قربه ودنوه. فسبق كل شيء بأوليته، وبقىٰ كل شيء بآخريته، وعلا كل شيء بظهوره، ودنا من كل شيء ببطونه، ولا يحجب عنه ظاهر باطنًا بل الباطن له ظاهر، والغيب عنده شهادة، والبعيد منه قريب، والسر عنده علانية. فهذه الأسماء الأربعة تشتمل علىٰ أركان التوحيد، فهو الأول في آخريته، والآخر في أوليته، والظاهر في بطونه، والباطن في ظهوره، لم يزل أولًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا»(١).

والمخلوق وإن كان له أولية وآخرية ويوصف بها كما في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ﴾ [المرسلات: ١٦، ١٧]، إلا أن أولية الخالق وآخريته لائقة بعظمته وبكماله، وأولية المخلوق وآخريته لائقة بضعفه وعجزه(٢)؛ ولهذا نجد النبي ﷺ لما فسّر الأولية فسرها بالنفي قال: «ليس قبلك شيء» لكي يبيّن أنّها مفارقة لأولية المخلوق؛ فهي أولية مطلقة دالّة علىٰ التقدم في الزمن قبل كل شيء، وأمّا المخلوق فهو أول باعتبار ما بعده، وإلا فهناك ما هو قبله(٣)، فوصفه بالأولية وصف مقيد فمن كان مخلوقًا لا يمكن أن يكون مطلق الأولية، بل خلقه هو بدايته قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [يونس: ٣٤]، وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩، ٢٠].

وأمّا آخريته فالمخلوق فانٍ وزائل، قال تعالىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [العنكبوت: ٥٧]، وقال: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨]، وقال تعالىٰ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم، ص٥٤.

(٢) انظر: منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات، الشنقيطي، ص١٩.

(٣) انظر: شرح العقيدة الواسطية، ابن عثيمين، ج١، ص١٨١.

[الرحمن: ٢٦، ٢٧]، فلابدّ لكل مخلوق أن يأتي عليه يوم ويفنىٰ ويموت.

ولا يتعارض هذا مع بقاء الجنة والنار وأهلها فيها، فإنّ هذه المخلوقات إنّما بقيت بإبقاء الله لها، فما شاء أبقاه، وما لم يشأ لم يبقه؛ فخلودها بمشيئة الله، وليس من خصائصها الذاتية، بل من صفاتها الذاتية الفناء والزوال، وأما الخالق فمن صفاته الذاتية الأزلية(١)، قال ابن أبي العز رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرحه للطحاوية: «وبقاء الجنة والنار ليس لذاتهما، بل بإبقاء الله لهما»(٢).

وبهذا يظهر الفرق في الأولية والآخرية بين الخالق والمخلوق فالخالق لم يسبقه عدم ولا يلحقه فناء، والمخلوق له بداية وقد سبقها العدم، وله نهاية حيث يلحقها الفناء(٣).

الفرق الثالث: الفرق في الكِبَر:

الخالق ذاته أكبر من كل مخلوق:

ومما يدل علىٰ هذا قوله تعالىٰ ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ [الرعد: ٩]، وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَـٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [الحج: ٦٢]، قال الإمام ابن كثير: «فكلّ شيء تحت قهره وسلطانه وعظمته، لا إله إلا هو، ولا ربّ سواه؛ لأنه العظيم الذي لا أعظم منه، العلي الذي لا أعلىٰ منه، الكبير الذي لا أكبر منه، تعالىٰ وتقدس وتنزه وعزّ وجلّ عما يقول الظالمون المعتدون علوًا كبيرًا»(٤).

فهذه الآيات وغيرها دالة علىٰ أن الخالق أكبر من كل المخلوقات، ولو عظمت، سواء

(١) انظر: قطف الجنىٰ الداني شرح مقدمة رسالة القيرواني، عبد المحسن العباد البدر، ص ٦٥.

(٢) شرح الطحاوية، ابن أبي العز، ص ٦٢٩.

(٣) انظر: قطف الجنىٰ الداني شرح مقدمة رسالة القيرواني، عبد المحسن العباد البدر، ص٦٥.

(٤) تفسير القران العظيم، ابن كثير، ج٣، ص ٢٥٧.

في ذاته أو أسمائه أو صفاته ومن كبريائه وعظمته أنّ الأرض قبضته يوم القيامة وأنّ السموات مطويات بيمينه[(١)]، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]، ومما يتضمنه وصفه الكبير، أنّ كرسيّه تعالىٰ قد وسع السموات والأرض، كما قال تعالىٰ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فإذا كان هذا المخلوق فكيف بالخالق؟ !

ومما يدل علىٰ أنّه الكبير الذي لا أكبر منه ما جاء عن عدي بن حاتم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا عدي بن حاتم! ما أفرّك أن يقال: لا إله الا الله؟ فهل من إله إلا الله؟! ما أفرّك أن يقال: الله أكبر؟ فهل شيء هو أكبر من الله عز وجل؟!**»[(٢)]، فوصف الخالق بأنه أكبر من كل مخلوق.

وجاء في صحيح البخاري عن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: جاء حبر من الأحبار إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إنا نجد: أن الله يجعل السموات علىٰ إصبع والأرضين علىٰ إصبع، والشجر علىٰ إصبع، والماء والثرىٰ علىٰ إصبع، وسائر الخلائق علىٰ إصبع، فيقول أنا الملك، فضحك النبي ﷺ حتىٰ بدت نواجذه تصديقًا لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧][(٣)]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ففي هذه الآية والأحاديث الصحيحة ـ المفسرة لها المستفيضة التي اتفق أهل العلم علىٰ صحتها وتلقيها بالقبول ــ ما يبين أن السموات والأرض وما بينهما بالنسبة إلىٰ عظمة الله تعالىٰ أصغر من أن تكون مع قبضه لها إلا كالشيء الصغير في يد أحدنا، حتىٰ يدحوها كما تدحىٰ

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٥٤٤.

(٢) مسند أحمد بن حنبل، رقم الحديث ١٩٣٨١، ج٣٢، ص١٢٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾. رقم الحديث ٤٨١١، ص٤٨١٦.

الكرة»[1]، وهذه الأرض علىٰ ضخامتها وكبرها، إلا أنّ الخالق يجعلها علىٰ أصبع من أصابعه سبحانه وهذه السّموات علىٰ عظمها وكبرها إلا أنّ الخالق يجعلها علىٰ إصبع، وهذه الجبال التي نرىٰ ضخامتها وكبرها إلا أنّ الخالق يجعلها مع غيرها من الخلق علىٰ إصبع، فسبحانه ما قدرناه حقّ قدره.

ومن الأدلة الدالة علىٰ أنّ الخالق أكبر ذاتًا من كل مخلوق، وأنّه لا أحد أكبر منه ما جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (السّموات السبع، والأرضون السبع وما فيهن في يد الرحمن كخردلة في يد أحدكم)[2].

فمن تأمل هذه النصوص وغيرها عجز عن تصور حقيقة الفارق في معنىٰ "الكبير" وأن ما يقرره من الفارق هو جزء يسير، وامتلأ قلبه تعظيمًا لخالقه وإجلالًا، ولا يمكن لأحد أن يسوي بين الخالق والمخلوق إلا لو طمست فطرته والعياذ بالله، تعالىٰ الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

الفرق الرابع: الفرق في العلو:

ذات الخالق عالية علىٰ ذات المخلوق مستوية علىٰ العرش.

والمقصود هنا هو علو الذات وهو أنّه سبحانه بذاته فوق الخلائق كلهم مستو علىٰ العرش بائن منهم وهذا لا يمنعه من اطلاعه علىٰ أحوالهم، ومراقبته وتدبيره لأمورهم[3]، والخلق كلّهم دونه فلا ذات تعلو علىٰ ذاته ـ سبحانه، قال الإمام الطبري في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]، «يعني بقوله: ﴿العلي﴾. أنه ذو العلو علىٰ

(١) مجموع الفتاوىٰ، ابن تيمية، ج٦، ص ٥٦٢.

(٢) أخرجه ابن بطة في الإبانة، ج٣، ص٣٠٨، وصححه ابن تيمية في مجموع الفتاوىٰ ج ١٦، ص٤٣٩.

(٣) انظر: توضيح الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، عبد الرحمن السعدي، ص ١٨٠، والحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية، عبد الرحمن السعدي، ص٢٢.

كل شيء، هو فوق كل شيء، وكل شيء دونه»[1].

والأدلة الدالة علىٰ علو الخالق علىٰ المخلوق كثيرة جدًا ومتنوعة أيضًا، وقد ذكر الإمام ابن القيم في إعلام الموقعين ثمانية عشر نوعًا من الأدلة، وكلّ نوع تحته أفراد من الأدلة كثيرة، ومما ذكره:

«أحدها: التصريح بالفوقية مقرونة بأداة "من" المعيّنة لفوقية الذات نحو: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠].

الثاني: ذكرها مجردة عن الأداة كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨].

الثالث: التصريح بالعروج إليه نحو: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤] وقول النبي ﷺ: «**ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم ربهم**»[2].

الرابع: التصريح بالصعود إليه كقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠].

الخامس: التصريح برفعه بعض المخلوقات إليه كقوله: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨]، وقوله ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: ٥٥].

السادس: التصريح بالعلو المطلق الدال علىٰ جميع مراتب العلو ذاتًا وقدرًا وشرفًا، كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، ﴿إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورىٰ: ٥١].

السابع: التصريح بتنزيل الكتاب منه كقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ [الزمر: ١]، ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، ابن جرير الطبري، ج١٦، ص ٦٢٢.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، رقم الحديث ١٤٣٢، ص٢٥٥.

بِٱلْحَقِّ ﴾ [النحل: ١٠٢]، وهذا يدّل علىٰ شيئين:

الأول: علىٰ أن القرآن ظهر منه لا من غيره وأنّه الذي تكلم به لا غيره.

الثاني: علىٰ علوه علىٰ خلقه وأنّ كلامه نزل به الروح الأمين من عنده من أعلا مكان إلىٰ رسوله»(١).

وقد دلت الأحاديث كذلك علىٰ علو الخالق علىٰ خلقه ذاتًا، وكلام السلف في ذلك كثير.

وأما العقل فهو دالّ أيضًا علىٰ علوّ الخالق بذاته علىٰ المخلوق، ذلك «أن الله سبحانه لما خلق الخلق، لم يخلقهم في ذاته المقدسة، تعالىٰ الله عن ذلك، فإنه الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، فتعين أنه خلقهم خارجًا عن ذاته، ولو لم يتصف سبحانه بفوقية الذات، مع أنه قائم بنفسه غير مخالط للعالم، لكان متصفًا بضد ذلك؛ لأن القابل للشيء لا يخلو منه، أو من ضده، وضد الفوقية: السفول، وهو مذموم علىٰ الإطلاق، لأنه مستقر إبليس وأتباعه وجنوده.

فإن قيل: لا نسلم أنه قابل للفوقية حتىٰ يلزم من نفيها ثبوت ضدها. قيل: لو لم يكن قابلا للعلو والفوقية لم يكن له حقيقة قائمة بنفسها، فمتىٰ أقررتم بأنه ذات قائم بنفسه، غير مخالط للعالم، وأنه موجود في الخارج، ليس وجوده ذهنيًا فقط، بل وجوده خارج الأذهان قطعًا، وقد علم العقلاء كلهم بالضرورة أن ما كان وجوده كذلك، فهو إما داخل العالم وإما خارج عنه، وإنكار ذلك إنكار ما هو أجل وأظهر من الأمور البديهيات الضرورية بلا ريب، فلا يستدل علىٰ ذلك بدليل إلا كان العلم بالمباينة أظهر منه، وأوضح وأبين، وإذا كان صفة العلو والفوقية صفة كمال، لا نقص فيه، ولا يستلزم نقصًا، ولا يوجب محذورًا، ولا يخالف كتابًا، ولا سنة، ولا إجماعًا، فنفي حقيقته يكون عين الباطل والمحال الذي لا تأتي به شريعة أصلا. فكيف إذا كان لا يمكن الإقرار بوجوده وتصديق رسله، والإيمان بكتابه وبما جاء به

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، ص٦٧، ٦٨.

رسوله إلا بذلك؟ فكيف إذا انضم إلىٰ ذلك شهادة العقول السليمة، والفطر المستقيمة، والنصوص الواردة المتنوعة المحكمة علىٰ علو الله علىٰ خلقه، وكونه فوق عباده»[(١)].

وصفة العلو من الصفات الثابتة للمخلوق أيضًا، إلا أنّ هناك فارقًا عظيمًا، فيبقىٰ المخلوق دون الخالق ولو علا، ولا نسبة بين علوّ المخلوق وعلوّ الخالق، ومن ذلك ما أخبر الله به عن الجنّة أنّها عالية فقال: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الحاقة: ٢١، ٢٢]، لكن هذا العلو ليس علوًا مطلقًا، بل علو مناسب للمخلوق ولنقصه، وأخبرنا عن السماء أنها عالية فقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢]، قال الإمام ابن كثير: «يخبر الله تعالىٰ عن كمال قدرته وعظيم سلطانه أنه الذي بإذنه وأمره رَفَع السّموات بغير عمَد، بل بإذنه وأمره وتسخيره رفعها عن الأرض بُعدًا لا تنال ولا يدرك مداها، فالسماء الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها، مرتفعة عليها من كل جانب علىٰ السواء، وبعد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام، وسمكها في نفسها مسيرة خمسمائة عام، ثم السماء الثانية محيطة بالسماء الدنيا وما حوت، وبينها وبينها من البعد مسيرة خمسمائة عام، وسمكها خمسمائة عام، ثم السماء الثالثة محيطة بالثانية، بما فيها، وبينها وبينها خمسمائة عام، وسمكها خمسمائة عام، وكذا الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة، كما قال الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]»[(٢)].

فإذا تأملنا هذا العلو الموصوف لهذه السّموات السبع، وأنّ الجنّة أعلىٰ منها، وأنّ العرش أعلىٰ من الجنّة فهو سقفها، ومن المعلوم أن السقف يعلو علىٰ ما تحته، ومع هذا العلو لهذه المخلوقات إلا أن الخالق قد علا عليها كلّها، فلا أحد يعلو عليه البتة، فهو قد

(١) شرح الطحاوية، ابن أبي العز، ص ٣٧٩، ٣٨٠.

(٢) تفسير القران العظيم، ابن كثير، ج٢، ص٥٤٧.

استوىٰ علىٰ العرش استواء يليق به ـ سبحانه[1].

فظهر بالدليل السمعي والعقلي علو الخالق علىٰ المخلوق، وكل المخلوقات دونه لا يعلو عليه أحد منهم مهما بلغ شأنه.

الفرق الخامس: الفرق في الصمديّة:

الخالق ذاته صمديّة لا جوف له ولا يأكل ولا يشرب، والمخلوق ذاته جوفاء ويأكل ويشرب.

ومما يدل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [سورة الإخلاص]، فأخبر سبحانه وتعالىٰ أنّه الصّمد، أي: هو وحده المستحق لوصف الصمديّة، وحقيقة الصمديّة منتفية عن غيره، وكمالها خاصّ بالخالق وحده[2].

وذكر الإمام الطبري لتفسير "الصمد" في حق الخالق عدّة معاني: ومن معناه: المصمت الذي لا جوف له، ومن معناه: الذي لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب[3]، وقال المناوي[4] رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فيض القدير في معنىٰ الصمد: «يقال شيء مُصْمد لا جوف له»[5].

ودلّ كونه صمدًا لا يأكل ولا يشرب ولا جوف له علىٰ كماله سبحانه واستغنائه بنفسه وعدم افتقاره لغيره؛ ولذا فإنّه قد قال في حق عيسىٰ عليه السلام وأمّه: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ

(١) انظر: الجامع لأحكام القران، القرطبي، ج٤، ص٢٠٢.

(٢) انظر: مجموع الفتاوىٰ، ابن تيمية، ج١٧، ص ٢٣٨.

(٣) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، ابن جرير الطبري، ج٢٤، ص ٧٣١، ٧٣٢.

(٤) أبو محمد محمد عبد الرؤوف بن علي المناوي القاهري، الشافعي. من كبار العلماء بالدين والفنون، من كتبه (كنوز الحقائق) (فيض القدير) و(شرح الشمائل للترمذي)، عاش في القاهرة، وتوفي بها سنة ١٠٣١هـ، المرجع: الأعلام للزركلي، ج٦، ص٢٠٤، ومعجم المؤلفين، ج٤، ص١٩٦.

(٥) فيض القدير، المناوي، ج٤، ص٣١٨.

مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة: ٧٥]، فجعل من الأدلة على نفي الألوهية عنهما أنّهما يأكلان الطعام، وهو دليل أيضًا على صمدية الخالق(١).

قال الإمام الطبري: «خبر من الله ـ تعالىٰ ذكره ـ عن المسيح وأمه، أنهما كانا أهل حاجة إلىٰ ما يغذوهما وتقوم به أبدانهما، من المطاعم والمشارب، كسائر البشر من بني آدم، فإن من كان كذلك فغير كائن إلهًا؛ لأن المحتاج إلىٰ الغذاء قوامه بغيره، وفي قوامه بغيره وحاجته إلىٰ ما يقيمه دليل واضح علىٰ عجزه، والعاجز لا يكون إلا مربوبًا لا ربًا»(٢)، فقوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ فيه دلالة أيضًا علىٰ خروج البول والغائط، فهو دليل علىٰ أنهما مخلوقان لا خالقان(٣).

وهذا ينطبق علىٰ المخلوقات جميعها، فالمخلوقات غير صمدية تحمل وتلد وتأكل وتشرب وتتغوط، وهذه أمور تحتاج إلىٰ جوف تمّر منه فيدخل في جوفها أشياء، ويخرج منها أشياء، وهذا نقص في المخلوق ينزّه الخالق عنها(٤)، وقد جاء في صحيح مسلم، عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**لما صور الله آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه، فجعل إبليس يطيف به، ينظر ما هو؟، فلما رآه أجوف عرف أنه خُلِقَ خلقًا لا يتمالك**»(٥)، فاستدل إبليس علىٰ نقص آدم بكونه أجوف، ولهذا فالخالق ينزّه عن هذا النقص الذي اتصف به المخلوق.

---

(١) انظر: العقيدة التدمرية، ابن تيمية، ص ١٤١-١٤٣.

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، ابن جرير الطبري، ج٨، ص٥٨٢، ٥٨٣.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القران، القرطبي، ج٦، ص ٢٣٥.

(٤) انظر: اللآلئ البهية شرح العقيدة الواسطية، صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، ج١، ص٢٢٠.

(٥) أخرجه مسلم، كتاب الأدب، باب خلق الإنسان خلقًا لا يتمالك، رقم الحديث٦٦٤٩، ص١١٤٠.

وأما ما ورد من كون الملائكة صُمد، لا تأكل ولا تشرب، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠]، قال الإمام الطبري: «كفّوا عن أكله؛ لأنهم لم يكونوا ممن يأكله»(١)، وقال الإمام ابن كثير: «الملائكة لا همة لهم إلىٰ الطعام ولا يشتهونه ولا يأكلونه»(٢)، فإن هذا وصف ثابت للملائكة إلا أنّه يفارق وصف الخالق؛ ولهذا لم يقل الله (الله صمد) بل قال (الله الصمد)، أي هو المستحق لكمال هذا الوصف دون غيره، والمخلوق وإن كان صمدًا من وجه فإن حقيقة هذا الوصف منتفية عنه، فالمخلوق يحتاج لخالقه مهما بلغ وصفه، والخالق لا يحتاج لأحد أبدًا، يصمد إليه كلّ الخلق ولا يصمد لغيره، والمخلوق وإن كان صمدًا إلا أنه يقبل التجزئة والتفرق وينفصل بعضه عن بعض، والخالق لا يجوز عليه من ذلك شيء، فحقيقة الصمدية منتفية عن الملائكة ولو وصفت بها(٣).

الفرق السادس: الفرق في الجمال:

ذات الخالق لها من الجمال ما يفوق جمال كل مخلوق.

ومما يدل علىٰ ذلك ما جاء في صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**» قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا، ونعله حسنة. قال: «**إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس**»(٤).

ومن الأدلة العقلية علىٰ ذلك أيضًا أنّ المخلوقات فيها من الجمال ما يحار العقل في وصفه، وخاصة أهل الجنة فقد أعطاهم الله من الجمال ما يفوق الوصف، فإذا كان الخالق

(١) جامع البيان، للطبري، ج١٢، ص٤٧١.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٤، ص٣٣٣.

(٣) انظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج١٧، ص٢٣٨.

(٤) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم الحديث ٢٦٥، ص٥٤.

هو من أعطاهم هذا الجمال لا شك أن له من الجمال ما يفوقهم، فهذه الحور العين مثلًا لو بدا منها كفّها لطمس ضوؤه الشمس كما الشمس تطمس ضوء كل النجوم، فكيف بخالقها؟! والمقصود أن معطي هذا الجمال لخلقه لا نسبة بين جماله وجمالهم كما لا نسبة بين ذاته إلىٰ ذاتهم(١).

قال الإمام ابن القيم في النونية:

«وَهُوَ الجَمِيلُ عَلَىٰ الحَقِيقَةِ كَيْفَ لا ... وجمَالُ سَائِرِ هذِهِ الأكْوَانِ
مِنْ بَعْض آثَارِ الجَمِيلِ فَرَبُّهَا ... أوْلَىٰ وَأجْدرُ ياذوي العِرْفَانِ
فَجَمَالُهُ بِالذَّاتِ والأوصَافِ ... وَالأفعَالِ وَالأسْمَاءِ بالبُرهَانِ
لا شَيءَ يُشْبِهُ ذَاتَهُ وصِفَاتِهِ ... سبحانه عَنْ إفْكِ ذِي البُهْتَانِ»(٢)

وجمال الخالق هو وصفه بالحسن والإحسان، سواء في ذاته، أو أسمائه، أو صفاته، أو أفعاله، والعبد يترقىٰ في معرفته بربه فيترقىٰ من معرفة الأفعال لمعرفة الصفات، ومن معرفة الصفات لمعرفة الذات؛ فإذا ما شاهد جمال أفعال الخالق استدل به علىٰ جمال صفاته، وجمال صفاته يدلّه علىٰ جمال ذاته، ومقصودنا هنا جمال الذات وهو أمر لا يمكن لمخلوق أن يعبّر عنه أو يصفه، ويكفي أن نعلم أنّ النّعيم الذي يحصّله أهل الجنة، واللذات المتعاقبة التي يجدونها لا تساوي شيئًا بجانب رؤية الخالق فتنسيهم رؤيته كل نعيم، فلذّة النّظر إلىٰ وجهه وجماله هي أعظم لذّة يجدونها في الجنّة، ويبقون في شوق وانتظار لهذا اليوم الذي يتمتعون فيه بلذة النظر إلىٰ وجهه ـ سبحانه(٣) ـ كما جاء في صحيح مسلم عن صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال يقول الله تبارك وتعالىٰ: تريدون شيئا أزيدكم؟**» فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟

(١) انظر: الحق الواضح المبين، عبد الرحمن السعدي، ص٣١، ٣٢.
(٢) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، ابن القيم، ص ٧٠٦، ٧٠٧.
(٣) انظر: الفوائد، ابن القيم، ص ٢٥٦، ٢٦٦، والحق الواضح المبين، للسعدي، ص٢٩، ٣٠.

قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحبّ إليهم من النظر إلىٰ ربهم عزّ وجلّ[1]، نسأل الله من فضله.

وجماله سبحانه لا يمكن لمخلوق أن يحيط به، وكيف يحيط بجمال من وصفه ﷺ بقوله: «**حجابه النور** ـ وفي رواية أبي بكر: **النار ـ لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه**»[2]، وكيف يمكن لمخلوق أن يصف من قال ﷺ في حقه ـ وهو أعلم الخلق بخالقهم ـ: «**لا أحصىٰ ثناء عليك، أنت كما أثنيت علىٰ نفسك**»؟![3].

قال الإمام ابن القيم: «سبحانه ليس كمثله شيء في سائر صفاته. ولو فرضت الخلق كلهم علىٰ أجملهم صورة، وكلهم علىٰ تلك الصورة، ونسبت جمالهم الظاهر والباطن إلىٰ جمال الرب سبحانه؛ لكان أقل من نسبة سراج ضعيف إلىٰ قرص الشمس»[4].

وأما الخلق فمنهم من يكون قبيحًا لا جمال فيه البتة، ومنهم من يكون جميلًا في شيء من خَلْقه لا كلّه، ولو حاز أوصاف الجمال كلّها فهو جمال ناقص يعتريه المرض فيتغير ويذبل، ويعتريه الهرم فينطفئ ذاك الجمال، وهو في نهاية الأمر إلىٰ زوال وفناء، بعكس الخالق الذي جماله ثابت لا يتغير مع طول الزمان، ودائم فلا يفنىٰ ولو فني الخلق قال تعالىٰ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]، وقد يكون جمال المخلوق ابتلاء عليه كما هي الحال في يوسف ـ عليه السلام ـ فقد كان جماله سببًا في

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالىٰ، رقم الحديث ٤٤٩، ص٩٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي موسىٰ، كتاب الإيمان، باب في قوله عليه السلام «إن الله لا ينام». وفي قوله «حجابه النور لو كشفه لأحرق سبحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه»، رقم الحديث ٤٤٥، ص٩١.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث عائشة، في كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم الحديث ١٠٩٠، ص٢٠٢.

(٤) الفوائد، ابن القيم، ص ٢٦٤.

افتتان امرأة العزيز به، ومن ثم وقع في البلاء والمحنة، والمقصود بيان الفارق العظيم بين جمال الخالق وجمال المخلوق.

الفرق السابع: الفرق في العدد:

الخالق وتر، بينما المخلوق شفع(١).

وبيان هذا الفرق أن الرسول ﷺ ذكر في الحديث الذي رواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في صحيح مسلم عن النبي ﷺ: «**إنه وتر، يحب الوتر**»(٢)، قال الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقوله: إنه وتر يحب الوتر. فإن الوتر: الفرد. ومعنىٰ الوتر في صفة الله ــ جل وعلا ــ الواحد الذي لا شريك له، ولا نظير له المتفرد عن خلقه، البائن منهم بصفاته، فهو ـ سبحانه ـ وتر.

وجميع خلقه شفع، خلقوا أزواجًا. فقال سبحانه: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩]»(٣)

وقال القرطبي(٤) رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ قال: «أي صنفين ونوعين مختلفين. قال ابن زيد: أي ذكرًا وأنثىٰ وحلوًا وحامضًا ونحو ذلك. مجاهد: يعني الذكر والأنثىٰ، والسماء والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، والنور والظلام، والسهل والجبل، والجن والإنس، والخير والشر، والبكرة والعشي، وكالأشياء المختلفة

(١) انظر: الأسماء الحسنىٰ، معانيها وآثارها والرد علىٰ المبتدعة فيها، رفيع الأجيبويّ، ص٣٦٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب في أسماء الله تعالىٰ وفضل من أحصاها، رقم الحديث ٦٨٠٩، ص١١٦٦.

(٣) شأن الدعاء، الخطابي، ص٢٩، ٣٠.

(٤) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن فرح الأنصاري القرطبي المالكي. وكان إمامًا علمًا، من الغوّاصين علىٰ معاني الحديث، حسن التصنيف، جيد النقل. توفي سنة إحدىٰ وسبعين وستمائة. من كتبه " الجامع لأحكام القرآن – ط " من كتبه " الجامع لأحكام القرآن" المرجع: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٧، ص٥٨٤، والأعلام للزركلي، ج٥، ص٣٢٢، ومعجم المؤلفين، ج٨، ص٢٣٩.

الألوان من الطعوم والأراييح والأصوات [1]..... لتعلموا أن خالق الأزواج فرد، فلا يقدّر في صفته حركة ولا سكون، ولا ضياء ولا ظلام، ولا قعود ولا قيام، ولا ابتداء ولا انتهاء؛ إذ هو عز وجل وتر ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]»[2].

فظهر لنا أن الخالق قد فارق المخلوق في ذاته من عدّة جهات: من جهة الوجود فذاته واجبة الوجود والمخلوق ذاته جائزة الوجود، ومن جهة الأولية والآخرية فالخالق هو الأول ليس قبله شيء والآخر ليس بعده شيء، والمخلوق مسبوق بعدم ويلحقه الفناء، ومن جهة كون الخالق أكبر من المخلوق وأعلىٰ منه ذاتًا، ومن جهة كونه سبحانه صمد لا يأكل ولا يشرب والمخلوق أجوف ناقص محتاج للأكل والشرب، وجمال الخالق لا يقاربه فضلًا عن أن يماثله جمال مخلوق، وهو وتر سبحانه والمخلوق شفع.

(١) لم أقف عليه.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج١٧، ص ٤٨، ٤٩، "بتصرّف".

المبحث الثاني

الفــرق في الاسم

وفيه مطلبان:

المطلـــــب الأول: معنى «الاسم»، وثبوته في حق الخالق والمخلوق.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولىٰ: معنىٰ "الاسم".

المسألة الثانية: ثبوت لفظ "الاسم" في حق الخالق والمخلوق.

المطلــب الثــاني: الفرق بين اسم الخالق واسم المخلوق.

المطلب الأول

معنى الاسم، وثبوته في حق الخالق والمخلوق

المسألة الأولى: معنى «الاسم»:

- **معنى "الاسم" لغة:**

الاسم في اللغة: ما يعرف به ذات الشيء، ويستدّل به عليه(١)، وهو اللّفظ الدالّ على المسمّى(٢).

اشتقاق "الاسم":

الاسم مشتق من " السّمو" على الصحيح من أقوال أهل العلم. وأصله سِمْوٌ مثلُ قِنْوٍ وأَقْنَاءٍ، وهو الرفعة والعلو، وهما يقترنان بالظهور، قال تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٧]، أي: يعلوا عليه، وإنّما سمي الاسم اسمًا؛ لأنه يُظهر المسمى ويعليه فيُعرف ويظهر ذكره، سواء كان ظهوره محمودًا أو مذمومًا، أما مالا اسم له فإنّه يكون خفيـًا لا يُعرف؛ فالاسم دليل على المسمّى وعَلَم عليه، وقيل غير ذلك(٣).

- **المراد بأسماء الخالق:**

أسماء الخالق هي: «كل ما دلّ على ذات الله مع صفات الكمال القائمة به، مثل: القادر، العليم، الحكيم، السميع، البصير، فإن هذه الأسماء دلت على ذات الله، وعلى ما قام بها من

---

(١) انظر: مفردات القرآن، للراغب، ج١، ص٣٢١، والمعجم الوسيط، لإبراهيم مصطفى وآخرون، ص٤٥٢.

(٢) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم، ج١، ص٢٨.

(٣) انظر: معاني القران واعرابه، للزجاج، ج ١، ص ٤٠، ٤١، والصحاح، للجوهري، ج ٥، ص ١٩٠٠، ١٩٠١، ومعجم مقاييس اللغة، لابن فارس، ج ١، ص ٥٦٩، ولسان العرب، لابن منظور، ج٦، ص٣٨١، ٣٨٢، ومجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج٦، ص ٢٠٧-٢١٠، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج ١، ص ١٣٧، ١٣٨.

العلم والحكمة والسمع والبصر»[1].

- **المراد بأسماء المخلوق:**

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأسماء الأشياء هي الألفاظ الدالة عليها»[2]، سواء كان المسمّىٰ من المحسوسات التي تقوم بذاتها كزيد وعمرو، أو من المعقولات التي لا تقوم بذاتها كالعلم والإرادة[3].

المسألة الثانية: ثبوت لفظ «الاسم» في حق الخالق والمخلوق:

- **ثبوت لفظ "الاسم" في حقّ الخالق:**

ولفظ " الاسم" ثابت لله ـ عز وجل ـ بأدلة الكتاب والسنة:

فمنها قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ [الأعلىٰ: ١].

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: أن رسول الله ﷺ قال: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة**»[4].

هذا من جهة ثبوت لفظ " الاسم"، أما من جهة ثبوت الأسماء للخالق فقد ثبت له سبحانه أسماء كثيرة، منها ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

---

(١) فتاوىٰ اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، جمع أحمد بن عبد الرزاق الدّويش، ج ٣، ص١٦٠.

(٢) مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج٦، ص١٩٥.

(٣) انظر: معجم التعريفات، للجرجاني، ص٢٣، ونتائج الفكر في النحو، للسهيلي، ص ٣٠، والكليات في معجم المصطلحات والفروق اللغوية، للكفوي، ص٨٣.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب: إن لله مائة اسم إلا واحدا، رقم الحديث٧٣٩٢، ص١٤٠٩.

[الحشر: ٢٣، ٢٤].

فالخالق ـ عزّ وجلّ ـ ثبتت له الأسماء بالأدلة الصحيحة من حيث ثبوت لفظ "الاسم" أو من حيث ثبوت أسماء معيّنة له ـ سبحانه[(١)].

• ثبوت لفظ "الاسم" في حق المخلوق:

من المعلوم والظاهر أن اللفظ ثابت في حق المخلوق، فإثباته تحصيل حاصل، قال تعالىٰ: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ٣١]، وقال: ﴿ يَـٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٧].

وبهذا يظهر ثبوت "الاسم" في حق الخالق والمخلوق، وأنّ بينهما قدرًا مشتركًا، وهو أنّه دالّ على المسمّىٰ، إلا أنّ الفارق أعظم بكثير من هذا المشترك، وهذا ماسيتضح ـ بإذن الله ـ فيما سيأتي:

(١) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي، ج٢، ص ٢٢٨ -٢٣٥، وأسماء الله الحسنىٰ، لعبد الله الغصن، ص ٢٠- ٢٥.

المطلب الثاني

الفرق بين اسم الخالق واسم المخلوق

الفرق الأول: الفرق في حدوث الأسماء:

أسماء الخالق غير مخلوقة، بينما أسماء المخلوق مخلوقة.

وقد دلّ على ذلك عدة أمور:

١ - إنّ الخالق ـ عز وجل ـ صفاته أزليّة غير مخلوقة، فهي ليست من المخلوقات التي خلقها الله وقدرها، وإذا كانت صفاته غير مخلوقة فأسماؤه كذلك غير مخلوقة؛ لأنّ كل اسم متضمن لصفة وقد مرّ معنا بيان ذلك، قال الإمام ابن القيّم: «فإن أسماءه مشتقة من صفاته وصفاته قديمة به. فأسماؤه غير مخلوقة»(١)، فهو سبحانه خالق غير مخلوق، ربّ غير مربوب، مالك غير مملوك، لم يزل بصفاته قبل أن يخلق الخلق(٢).

٢ ـ إنّ أسماء الله من كلامه، وكلامه غير مخلوق، فتكون أسماؤه غير مخلوقة.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّه لمّا سُئل، عن قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨]، ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٢٣] قال: «سمى نفسه ذلك»(٣)،؟؟ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «أسماء الله من كلامه وكلام الله غير مخلوق؛ بل هو المتكلم به، وهو المسمي لنفسه بما فيه من الأسماء»(٤).

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال ﷺ: «**أسألك بكل اسم هو لك، سميت به**

---

(١) شفاء العليل، لابن القيم، ص ٥٩٢.

(٢) انظر: القواعد الكلية للأسماء والصفات عند السلف، لإبراهيم البريكان، ص١٢٠، ١٢١.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب تفسير سورة حم السجدة (فصلت)، رقم الباب٤١، ص٩٤٣.

(٤) مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج٦، ص١٨٦.

نفسك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك»[1]، قال الإمام ابن القيم: «وقد دل الحديث على أن أسماء الله غير مخلوقة، بل هو الذي تكلم بها وسمى بها نفسه. ولهذا لم يقل: بكل اسم خلقته لنفسك.ولو كانت مخلوقة لم يسأله بها. فإن الله لا يقسم عليه بشيء من خلقه. فالحديث صريح في أن أسماءه ليست من فعل الآدميين وتسمياتهم»[2].

وبهذا ظهر أنّ الخالق ـ عز وجل ـ أسماؤه غير مخلوقة، وصفاته غير محدثة، وهي ليست من فعل الآدميين، ولا من تسمياتهم بل هو سبحانه من سمّى نفسه، أما المخلوق فأسماؤه وصفاته مخلوقة وليست أزليّة، والعقل والحسّ شاهد بذلك؛ لأنّها من فعل الآدميين وتسمياتهم، ونحن نشاهد هذا فحين يولد الشخص يولد بلا اسم ويسميه أهله، فهو مخلوق وأسماؤه مخلوقة، وهذا فرق جليّ بين أسماء الخالق وأسماء المخلوق.

الفرق الثاني: الفرق في الحُسْن:

أسماء الله كلّها حسنى، بينما أسماء المخلوقين منها الحسن ومنها غير ذلك.

وبيان هذا الفرق أن أسماء الخالق ـ عزّ وجلّ ـ قد تجلّى الحسن فيها فلا أحسن منها، وتجلّى الكمال فيها فلا أكمل منها، ولا يوجد في الأسماء ما يمكن أن يستبدل بها، أو يكون أحسن منها[3].

فأسماء الله حسنى، أي: بالغة في الحسن غايته[4]، فـ«لا أحسن منها بوجه من الوجوه بل

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب الرقائق، باب الأدعية، ذكر الأمر لمن أصابه حزن أن يسأل الله ذهابه عنه وإبداله إياه فرحًا، رقم الحديث٩٧٢، ج٣، ص٩٧٢، ورواه أحمد وأبو يعلى والبزار إلا أنه قال: «وذهاب غمّي». مكان "همّي". والطبراني ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني وقد وثقه ابن حبان.

(٢) شفاء العليل، لابن القيم، ص ٥٩٢.

(٣) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم، ج١، ص ٢٩٥.

(٤) انظر: القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، لابن عثيمين، ص ٢١.

لها الحسن الكامل التام المطلق»(١).

ذلك أن " الحسنىٰ" جمع الأحسن وليس الحسن، وتحت هذا سرّ نفيس كما ذكر ابن الوزير(٢) رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: «وذلك أن الحسن من صفات الألفاظ ومن صفات المعاني فكل لفظ له معنيان حسن وأحسن فالمراد الأحسن منهما حتىٰ يصح جمعه علىٰ حسنىٰ ولا يفسر بالحسن منهما إلا الأحسن لهذا الوجه»(٣).

ويشبه هذا قوله تعالىٰ: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الروم: ٢٧]، وهو الكمال الأعظم في الذات والأسماء والصفات؛ ولهذا كانت أسماؤه أحسن الأسماء وليست حسنة، وشتّان مابين الأحسن والحسن في الشرع والعقل واللغة والعرف(٤).

وقد جاء في أربعة مواضع وصف أسمائه ـ تعالىٰ ـ بأنها «حسنىٰ»(٥):

فقال ـ عزّ وجلّ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨].

وقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وقال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [الإسراء: ١١٠].

---

(١) الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة، لابن القيم، ج ٤، ص ١٤٤٣.

(٢) ابن الوزير محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضىٰ القاسمي، من آل الوزير: مجتهد باحث، من أعيان اليمن، له كتب نفائس، منها " إيثار الحق علىٰ الخلق" و " تنقيح الأنظار في علوم الآثار" في مصطلح الحديث، و " العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم. توفي سنة ٨٤٠هـ. الأعلام للزركلي، ج٥، ص٣٠٠.

(٣) إيثار الحق علىٰ الخلق، لمحمد بن المرتضىٰ اليماني، ص ١٦٦.

(٤) انظر: العواصم والقواصم، لمحمد بن الوزير اليماني، ج٧، ص ٢٢٨.

(٥) انظر: معارج القبول، للحكمي، ج١، ص١١٢، ١١٣.

وقال: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ ﴾ [الحشر: ٢٤].

ومعنى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠] أي أنّ الله ليس له من الأسماء إلا الحسنىٰ، فلا شريك له فيما استحقه من كمال الأسماء، فقصر كمال الحسن في الأسماء عليه ـ سبحانه وتعالىٰ؛ لأن لفظ "له" أو "لله" يفيد الحصر(١).

قال الشيخ السعدي في قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٠]: «هذا بيان لعظيم جلاله وسعة أوصافه، بأن له الأسماء الحسنىٰ، أي: له كل اسم حسن، وضابطه: أنه كل اسم دال علىٰ صفة كمال عظيمة، وبذلك كانت حسنىٰ، فإنها لو دلت علىٰ غير صفة، بل كانت علمًا محضًا لم تكن حسنىٰ، وكذلك لو دلت علىٰ صفة ليست بصفة كمال، بل إما صفة نقص أو صفة منقسمة إلىٰ المدح والقدح، لم تكن حسنىٰ، فكل اسم من أسمائه دال علىٰ جميع الصفة التي اشتق منها، مستغرق لجميع معناها.

وذلك نحو ﴿العليم﴾ الدال علىٰ أن له علمًا محيطًا عاما لجميع الأشياء، فلا يخرج عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

و ﴿كالرحيم﴾ الدال علىٰ أن له رحمة عظيمة، واسعة لكل شيء.

و ﴿كالقدير﴾ الدال علىٰ أن له قدرة عامة، لا يعجزها شيء، ونحو ذلك.»(٢)

فظهر أنّ وجه كونها حسنىٰ جاء من جهتين:

أولاً: أنّها دالّة علىٰ وصف.

ثانيـًا: أنّها دالّة علىٰ كمال هذا الوصف.

---

(١) انظر: فتاوىٰ اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (المجموعة الثانية)، ج ٢، ص ٣٦٩، الأسماء الحسنىٰ معانيها وآثارها والرد علىٰ المبتدعة فيها، لرفيع الأجيبويّ، ص ١١٥.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٣٠٩، ٣١٠.

فأمّا كونها دالّة علىٰ وصف، فلأنّه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ قد تمدّح بها، وهذا دليل علىٰ تضمّنها معنىٰ، وإلا فالجامد لا ثناء فيه ولا مدح، ولأنّها لو كانت جامدة لدلّت علىٰ معانٍ مترادفة، فيكون معنىٰ القدير والسميع والبصير سواء، ومعنىٰ المعطي والمانع سواء، وهذا مخالف للفطرة والعقل واللغة[1]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفرق بين الاسم الحسن والسيئ: «فلو كانت الأسماء كلها بمنزلة الأعلام الجامدات ـ التي لا تدل علىٰ معنىٰ ـ لم تنقسم إلىٰ حسنىٰ وسوآىٰ»[2].

وقال الإمام ابن القيم: «أسماء الرب تبارك وتعالىٰ دالة علىٰ صفات كماله. فهي مشتقة من الصفات. فهي أسماء وهي أوصاف. وبذلك كانت حسنىٰ إذ لو كانت ألفاظًا لا معانىٰ فيها لم تكن حسنىٰ، ولا كانت دالة علىٰ مدح ولا كمال ولساغ وقوع أسماء الانتقام والغضب في مقام الرحمة والإحسان وبالعكس فيقال اللهم إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت المنتقم واللهم أعطني فإنك أنت الضار المانع ونحو ذلك»[3].

وأما كونها دالة علىٰ كمال الصفات فهو أيضًا من أوجه كونها حسنىٰ، ذلك «أنها متضمنة لصفات كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه لا احتمالًا ولا تقديرًا»[4].

ويفهم هذا المعنىٰ إذا علمنا أن ما يضاف إلىٰ الله أنواع أربعة:

الأول: ما دل علىٰ الحسن الكامل المطلق فهذا يسمّىٰ به الله.

الثاني: ما دل علىٰ الحسن من وجه دون وجه فهذا لا يسمّىٰ به الله، ولكن يُخبر به.

الثالث: ما دل علىٰ الحسن في حال دون حال فهذا لا يسمّىٰ به الله أيضًا ولكن يوصف

(١) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم، ج ١، ص ٨٥، والقواعد الكلية للأسماء والصفات عند السلف، للبريكان، ص٢٣١.

(٢) شرح العقيدة الأصبهانية، لابن تيمية، ص٥١٦.

(٣) مدارج السالكين، لابن القيم، ج ١، ص ٨٢.

(٤) القواعد المثلىٰ في صفات الله وأسمائه الحسنىٰ، لابن عثيمين، ص٢١.

به في الحال التي يكون فيها حسنًا.

الرابع: ما دل على قبح ونقص مطلق فهذا لا يسمّى به الله، ولا يخبر عنه، ولا يوصف به، ولا يضاف إليه ـ سبحانه وتعالى ـ مطلقًا(١).

فأسماء الله دالّة على المدح والثناء ليس فيها اسم سيئ، أو به عيب ونقص(٢)، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في أسماء الله كالحي والعليم والرحيم والحكيم والأول والآخر وغيرها: «وهذه الأسماء كلها أسماء مدح وحمد تدل على ما يحمد به، ولا يكون معناها مذمومًا»(٣).

وكذلك ليس فيها اسم من الأسماء يحتوي على الشّر، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ليس من أسماء الله الحسنى اسم يتضمن الشر، وإنما يذكر الشر في مفعولاته»(٤)، والمعنى: أنه ـ سبحانه وتعالى ـ لا يفعل الشر ولا ينسب إليه، قال ﷺ: «**والشر ليس إليك**»(٥)، لكن يمكن أن يكون المخلوق نفسه فيه شرّ.

فلو كانت في بعض أفعال الله شرّ، للزم من ذلك أن تكون بعض أسمائه شرًّا؛ ذلك أنّ بعض الأسماء تطلق عليه سبحانه باعتبار الفعل، كالخالق والرزّاق، وعلى هذا فلا تكون أسماؤه كلها حسنى ـ تعالى الله عن ذلك؛ لهذا وغيره انتفت نسبة الشر إلى أفعاله جلّ وعلا، فأفعاله كلها خير، وأسماؤه كلها حسنى(٦).

---

(١) انظر: المجلى في شرح القواعد المثلى، كاملة الكواري، ص٥١، ٥٢.

(٢) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم، ج١، ص ٢٤٥ والصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، لابن القيم،، ج٤، ص ١٤٤٣.

(٣) بيان تلبيس الجهمية، لابن تيمية، ج ٣، ص٢٩٨.

(٤) مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج٨، ص ٩٦.

(٥) صحيح مسلم من حديث علي بن أبي طالب، كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم الحديث ١٨١٢، ص٣١٥.

(٦) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم، ج١، ٢٨٧، ٢٨٨.

أمّا أسماء المخلوقين فهي مخالفة لأسماء الخالق مباينة لها في الحسن من جهات:

أولًا: إنّ أسماء المخلوق قد تكون حسنة لكنّها لا تتضمن أوصافًا، بل هي أعلام محضة لا معنىٰ لها، فيسمىٰ بالحكيم من هو جاهل، ويسمىٰ بالعزيز من هو حقير، ويسمىٰ بالكريم من هو لئيم، والحكم وهو ظالم، والصالح وهو طالح، والسعيد وهو شقي، والمحمود وهو مذموم، والحبيب وهو بغيض، والعكس كذلك[١].

فالمخلوق تطلق عليه الأسماء من أجل التعريف به، والتمييز بينه وبين غيره[٢]، بغض النظر عن وجود الوصف فيه، فهي أعلام محضة، أمّا الخالق فقد تضمنت أسماؤه معاني، فهي أعلام وأوصاف، وفرق في حسن الاسم بين هذا وهذا.

ثانيًا: إنّ أسماء المخلوق قد يكون فيها معنىٰ من اسمه، فله نصيب وحظّ منه بعد أن سمّي به، كما لو سمي كريمًا، فلما كبر كانت فيه صفة الكرم، وسمي حليمًا، فاتصف بالحلم، وسمي حكيمًا فاتصف بالحكمة، لكن مع ذلك تبقىٰ المباينة في الحسن بين أسماء الخالق وأسماء المخلوق، فللمخلوق من هذا الوصف معنىٰ يليق به فلا يدل علىٰ الكمال المطلق، وإنّما يكون كرمه محدودًا، وفي وقت دون وقت، ولأشخاص دون آخرين، ونحو ذلك من النقص اللاحق به، وهناك أمر آخر هنا، وهو أنّه في حال التسمية كان علمًا مجردًا، فحين سُمّي كريم لم يكن يحمل هذا الوصف، بعكس الخالق الذي تضمنت أسماؤه صفات من الأزل؛ ولهذا فحين يتصف المخلوق بصفة كمال ثم يسمىٰ باسم دال علىٰ هذه الصفة فإنه يمنع من ذلك؛ لأنّ هذا تشبه باسم الخالق، كما غيّر النبي ﷺ اسم الحكم؛ لأنّه حين سُمّي به قُصِد المعنىٰ فقد كان يحكم بين قومه، جاء عن شريح، عن أبيه هانئ، أنّه لمّا وَفِد إلىٰ رسول الله ﷺ مع قومه سمعهم يكنّونه بأبي الحكم، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: «**إن الله هو الحكم، وإليه الحكم، فلم تكنىٰ أبا الحكم؟**» فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتونىٰ

(١) انظر: رد الدارمي عثمان بن سعيد علىٰ بشر المريسي، ص ٩.

(٢) انظر: تحفة المودود بأحكام المولود، لابن القيم، ص ١٣٤.

فحكمت بينهم، فرضىٰ كلا الفريقين، فقال رسول الله ﷺ: «**ما أحسن هذا، فما لك من الولد؟**» قال: لي شريح ومسلم وعبد الله، قال: «**فمن أكبرهم؟**» قال: قلت: شريح، قال: «**فأنت أبو شريح**»(١).

ثالثًا: إنّ أسماء المخلوق قد تكون دالّة علىٰ النقص والسوء والشّر فيسمىٰ ظالمًا، وسارقًا، وحزنًا، ومرة، وحربًا، وحمارًا، ونحو ذلك، والخالق ليس له من الأسماء إلا مادلّ علىٰ الحُسن، وأما ما دلّ علىٰ الشّر فلا يُنسب له منها اسم.

والفرق في الحُسن يتضمن أمورًا أخرىٰ غير ما ذُكر، فالخالق أسماءه لا يماثلها فضلًا عن أن يقاربها اسم.

الفرق الثالث: الفرق في مطابقة العلمية للوصفية:

أسماء الخالق لا تنافي العلمية فيها الوصفية، بينما أسماء المخلوقين تنافي العلمية فيها الوصفية(٢).

وبيان هذا الفرق، كما يقول الإمام ابن القيم: «أسماءه الحسنىٰ هي أعلام وأوصاف، والوصف بها لا ينافي العلمية، بخلاف أوصاف العباد فإنها تنافي علميتهم؛ لأن أوصافهم مشتركة فنافتها العلمية المختصة، بخلاف أوصافه ـ تعالىٰ»(٣).

والمراد: أن أسماء الله حسنىٰ، ومن مقتضىٰ كونها حسنىٰ دلالتها علىٰ الوصفية؛ فلو لم تدل علىٰ معنىٰ لم تكن حسنىٰ، وقد سبق تقرير هذا.

وهي مع ذلك تدل علىٰ العلمية المعيّنة للذّات الإلهية، كما تدل الأعلام علىٰ المسمىٰ بها، فالعلمية لا تنافي الوصفية فيها، وهذا يعني أن أسماء الله لها دلالتان:

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في تغيير الاسم القبيح، رقم الحديث٤٩٥٥، ص٨٩٦، صححه ابن حبان وابن الملقن في تحفة المحتاج، وصححه الألباني كذلك.

(٢) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم، ج١، ص٢٨٥.

(٣) المرجع السابق.

١ ـ دلالة علىٰ العلمية.

٢ ـ دلالة علىٰ الوصفية.

وهاتان الدلالتان في حق الله تعالىٰ لا تنافي بينهما، والعلّة من ذلك أمران:

١ ـ إنّ أسماءه دالة علىٰ صفات، وبين الاسم والوصف موافقة فاسمه الحكيم وقد اتصف بالحكمة، واسمه العليم وقد اتصف بالعلم، واسمه الرحيم وقد اتصف بالرحمة،.... وهكذا.

٢ ـ إنّ أوصافه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ خاصّة به لا يشركه فيها أحد، ولا يماثله فيها شيء، قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١] فلمّا كانت مختصّة به دلّت علىٰ ذاته دلالة تعيين[(١)]، «فحصل التعيين له بأعلامه وأوصافه فاستحق كمالًا من أعلامه وكمالًا من صفاته وكمالًا من جلاله وجماله»[(٢)].

أمّا أسماء المخلوق فهي تفارق أسماء الخالق هنا من جهة أنّ لها دلالة واحدة وهي العلمية فقط، ومن جهة أنّ العلمية فيها تنافي الوصفية.

وإنّما حصل التنافي بين العلمية والوصفية لأمرين:

١ ـ عدم الموافقة بين الاسم والوصف في حق المخلوق، فيسمىٰ بالأمين من هو خائن، ويسمىٰ بالحكيم من هو جاهل، وبالعزيز من هو ذليل، وهكذا.

فالاسم لا يدل علىٰ الوصف وليس بلازم له؛ لأنّها وضعت للدلالة علىٰ المسمّىٰ وتعيينه دون النظر إلىٰ صفته، فهي مجردة عن الوصف غير مشتقة، بل هي من الجوامد.

٢ ـ إنّ أوصافهم مشتركة، والتماثل بينهم وارد، وهذا يجعل التعيين منتفيًا عند إرادة التسمّي بما دلّ عليه الوصف، فالأعلام إنّما وضعت لأجل التعيين فإذا دلت علىٰ صفات

(١) انظر: القواعد الكلية للأسماء والصفات عند السلف، للبريكان، ص ٢٢٧، ٢٢٨.

(٢) المرجع السابق، ص٢٢٨.

مشتركة زال التعيين الذي وضعت لأجله[(١)].

فالمقصود: أن أسماء المخلوق إنّما وضعت للدلالة عليه والتعريف به وتمييزه عن غيره، وأمّا الوصف فليس بلازم للاسم فقد يدل على الوصف مستقبلًا، وقد لا يدل عليه.

فالمقصود من الاسم الدلالة على الذات فقط، فيسمى محمد وهو مذموم، ويسمى عبد الله وهو فاجر[(٢)]، وقد يُقصد مع هذا تحقّق الصفة التي دلّ عليها الاسم، فيسمى شجاعًا رجاء أن يكون فيه صفة القوة والشجاعة، ولكن قد يوجد هذا الوصف، وقد يكون أجبن الناس وأضعفهم، ويُسمى حربًا رجاء أن يكون فيه صفة الفروسية ونحو ذلك[(٣)].

وبهذا تظهر المفارقة بين اسم الخالق واسم المخلوق من جهة عدم التنافي بين العلمية والوصفية في أسماء الخالق ووجودها في أسماء المخلوقين.

الفرق الرابع: الفرق في انحصار العدد:

أسماء الخالق غير محصورة بعدد معين، بينما أسماء المخلوقين محصورة.

وبيان هذا الفرق أنّ النصوص الصحيحة لم يرد فيها حصر أسماء الخالق بل دلّت على عدم الحصر، ونقل النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن العلماء قد اتفقوا على ذلك[(٤)]، يقول الإمام ابن القيم: «الأسماء الحسنى لا تدخل تحت حصر ولا تحد بعدد، فإن لله ــ تعالى ــ أسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده، لا يعلمها ملك مقرب ولا نبي مرسل»[(٥)].

ومن الأدلة على عدم حصر أسماء الله:

---

(١) انظر: أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة والجماعة، لعمر الأشقر، ص٨٤، والقواعد الكلية للأسماء والصفات عند السلف، للبريكان، ص٢٢٧، ٢٢٨، ٢٣٠، ٢٣٢.

(٢) انظر: القول المفيد، لابن عثيمين، ج٢، ص٢٥٧.

(٣) انظر: أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة، لمحمود الرضواني، الطبعة الثانية، ج١، ص٢٧٥، ٢٧٥.

(٤) انظر: فتح الباري، لابن حجر، ج١١، ص٢٦٣، أسماء الله الحسنى، لعبد الله الغصن، ص١٣١.

(٥) بدائع الفوائد، لابن القيم، ج١، ص ٢٩٣.

١ ـ حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول ﷺ: «**ما قال عبد قط، إذا أصابه همّ ولا حزن: اللهم إني عبدك بن عبدك بن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور بصري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرحًا**»[(١)].

فظهر لنا من هذا الحديث أنّ أسماء الله على ثلاثة أقسام:

أ ـ ما أنزله الله في كتابه.

ب ـ ما لم ينزّله في الكتاب لكنه علّمه بعض خلقه دون بعض.

ج ـ ما استأثر الله بعلمه في علم الغيب فلم يطلع عليه أحدًا من خلقه.

فالقسم الثاني والثالث لا يمكن الإحاطة به وحصره، فهو دالّ على كثرة أسماء الله، وعدم التمكن من إحصائها[(٢)]، قال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الحديث: «فهذا يدلك على أن لله أسماء لم ينزلها في كتابه، حجبها عن خلقه، ولم يظهرها لهم»[(٣)].

٢ ـ ما ورد في الصحيحين من أن النبي ﷺ كان يقول في سجوده: «**اللهم! إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**»[(٤)]، فقوله ﷺ: «**لا أحصي ثناءً عليك**» أي: لا يمكنني أن أحيط

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب الرقائق، باب الأدعية، ذكر الأمر لمن أصابه حزن أن يسأل الله ذهابه عنه وإبداله إياه فرحًا، رقم الحديث٩٧٢، ج٣، ص٩٧٢، ورواه أحمد وأبو يعلى والبزار إلا أنه قال: «وذهاب غمي". مكان "همي". والطبراني ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني وقد وثقه ابن حبان.

(٢) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم، ج١، ص ٢٩٣، وأسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة والجماعة، لعمر الاشقر، ص ٤٤.

(٣) شأن الدعاء، للخطابي، ص٢٥.

(٤) سبق تخريجه، ص٩١.

معرفة بالثناء عليك[1]، وهذا دليل على عدم إحصاء أحد لأسماء الله ـ عزّ وجلّ ـ إذ لو كان النبي ﷺ يحصي أسماء الله لأحصىٰ صفاته، ولو أحصىٰ صفاته لأحصىٰ الثناء عليه؛ لأنّ الصفات يعبّر عنها بالأسماء[2].

٣ ـ كذلك ما جاء في حديث الشفاعة من قوله ﷺ: «**ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه علىٰ أحد قبلي**»[3]، والمحامد هذه إنّما هي من أسمائه وصفاته[4]، وهذا يعني عدم معرفته ﷺ بهاقبل هذا الوقت، لا هو ولا غيره، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإذا كان أفضل الخلق لا يحصي ثناء عليه، ولا يعرف الآن محامده التي يحمده بها عند السجود للشفاعة؛ فكيف يكون غيره عارفًا بجميع محامد الله والثناء عليه وكل ما له من الأسماء الحسنىٰ، فإنه داخل في محامده وفيما يثني عليه به»[5].

وأما قوله ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم: «**إن لله تسعة وتسعون اسمًا مائة إلا واحدة من أحصاها دخل الجنة**»[6]، فإنّ هذا الحديث لا يدل علىٰ الإحصاء فهو لم يقل إن أسماء الله تسعة وتسعون اسمًا، لكنّه أخبر أنّ له من الأسماء تسعة وتسعين اسمًا لو أحصاها العبد، فإنّه يدخل الجنة، فالتقييد بالعدد ليس لجميع أسمائه، وإنّما لأسماء صفتها أنّ من أحصاها دخل الجنة، كما تقول: لي أو عندي مئة ريال أعددتها للصدقة فلا ينفي أنّ عندك غيرها[7].

---

(١) انظر: سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي، ج ١، ص ١١١.

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد، ج ٣، ص ٣٣٢، ٣٣٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه من حديث أبو هريرة، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾، رقم الحديث٤٧١٢،ص٩٠٦.

(٤) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم، ج١، ص ٢٩٤.

(٥) مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج ٧، ص٥٧٣، ٥٧٤.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة، كتاب التوحيد، باب إن لله مائة اسم إلا واحدًا. رقم الحديث٧٣٩٢، ص١٤٠٩.

(٧) انظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج٦، شص ٣٨١.

وكذلك فإنّ الأسماء الموجودة في الكتاب والسنة أكثر من تسع وتسعين اسمًا، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وإن قيل: لا تدعوا إلا باسم له ذكر في الكتاب والسنة. قيل: هذا أكثر من تسعة وتسعين»[(١)]، فظهر من خلال ما سبق أن أسماء الخالق غير محصورة بعدد معين.

وأما المخلوق فإنّ أسماءه محصورة بعدد معيّن، فقد يكون له اسم واحد وقد يزيد إلا أنّها معدودة محدودة، بل حتى النبي ﷺ مع تعدد أسمائه إلا أنّها محصورة، جاء في صحيح البخاري عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب**»[(٢)]، فحصرها في خمسة.

وذلك أن الأصل في تسمية المخلوق هو التعريف به، ويكفي في ذلك اسم واحد يميّزه عن غيره، أما الخالق ــ جلّ وعلا ــ فأسماؤه تتضمن صفات دالة على الجمال والجلال والمدح والثناء، فكانت الكثرة والتعدد فيها هي الأصل؛ لكثرة أوصاف الكمال والجمال له سبحانه وتعالى[(٣)].

فاجتمع في حق المخلوق حصر الأسماء وتجردها من كمال الصفات، وأمّا الخالق فلا حصر لأسمائه، بل هي متضمنة لكمال الصفات وتمامها.

الفرق الخامس: الفرق في مصدرية الأفعال:

أفعال الربّ صادرة عن أسمائه وصفاته، بينما أسماء المخلوقين[(٤)] صادرة عن أفعالهم.

---

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ج٢٢، ص٤٨٢.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ رقم الحديث٣٥٣٢، ص٦٧٩.

(٣) انظر: تحفة المودود بأحكام المولود، لابن القيم، ص١٣٤.

(٤) ويقصد بالاسم: ما يعين مسماه ويعرف به، وهو نوعان: اسم معين لذات مسماه، وهذا هو المسمى بالعَلَم، واسم يطلق على مسماه إذا كان معروفًا، وهذا يشمل الضمائر والأوصاف، فكل صفة هي اسم بالمعنى الأخير وهو المقصود هنا، أي الأسماء التي تطلق عليهم كالصديق، لكن ينبغي ملاحظة عدم جواز التسمي =

وبيان هذا الفرق كما يقول الإمام ابن القيم: «أفعال الرب ـ تعالىٰ ـ صادرة عن أسمائه وصفاته، وأسماء المخلوقين صادرة عن أفعالهم، فالرب ـ تعالىٰ ـ فعاله عن كماله. والمخلوق كماله عن فعاله، فاشتقت له الأسماء بعد أن كمل بالفعل. فالرب ـ تعالىٰ ـ لم يزل كاملاً، فحصلت أفعاله عن كماله؛ لأنه كامل بذاته وصفاته، فأفعاله صادرة عن كماله كمل ففعل، والمخلوق فعل فكمل الكمال اللائق به»[1]، واستدل علىٰ ذلك رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله تعالىٰ: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢١– ٢٣]، فقال: «فإن الآية إنما سيقت لبيان توحيده سبحانه وبطلان إلهية ما سواه، وأن كل من عداه مربوب مأمور منهي مسؤول عن فعله، وهو سبحانه ليس فوقه من يسأله عما يفعله، قال تعالىٰ: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾، فلم تكن الآية مسوقة لبيان أنه لا يفعل بحكمة ولا لغاية محمودة مطلوبة بالفعل، وأنه يفعل ما يفعله بلا حكمة ولا سبب ولا غاية، بل الآية دلت علىٰ نقيض ذلك، وأنه لا يسأل عما يفعل لكمال حكمته وحمده وأن أفعاله صادرة عن تمام الحكمة والرحمة والمصلحة، فكمال علمه وحكمته وربوبيته ينافي اعتراض المعترضين عليه وسؤال السائلين له»[2].

والإمام البغوي بيّن ذلك أيضًا، فذكر أنّ هناك فرقًا بين أسماء الخالق وأسماء المخلوق، فأفعال الخالق ـ عز وجل ـ اشتقت من أسمائه، لكنّ المخلوقين أسماؤهم اشتقت من أفعالهم.

=

بأسماء الله عند ملاحظة الصفة.

(١) بدائع الفوائد، لابن القيم، ج١، ص ٢٨٦.

(٢) جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير توحيد الأسماء والصفات، لوليد العلي، ج٢، ص ٨٨٧.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأسماء الله تعالىٰ لا تشبه أسماء العباد، لأن أفعال الله تعالىٰ مشتقة من أسمائه، وأسماء العباد مشتقة من أفعالهم، قال ــ النبي ﷺ: «**يقول الله سبحانه وتعالىٰ: أنا الرحمن خلقت الرّحم وشققت لها من اسمي**»(١)، فبيّن أن أفعاله مشتقة من أسمائه، فلا يجوز أن يحدث له اسم بحدوث فعله»(٢).

والمعنىٰ: أن أفعال الله تتبع أسماءه وصفاته في الكمال، فلمّا كانت أسماؤه وصفاته كلّها كمالًا وجمالًا وجلالًا تبعتها الأفعال فكانت كمالاً ومدحًا وإحسانًا وحكمة وعدلاً ليس فيها سفه ولا جور، فطابقت أسماؤه أفعاله، فيُستدل بكمال أسمائه وصفاته علىٰ ما يصدر عنه من الأفعال، وعلىٰ ما يأمرنا به وينهانا عنه، وما يكون محبوبًا له مبغوضًا عنده، فالخالق ــ عز وجل ــ كماله في الأسماء والصفات أزليّ، فجاء كمال الأفعال منها، فهو سبحانه كَمُل ففعل(٣)، فللعبد أن يستدل من اسم الله الحكيم علىٰ «ثبوت الغايات المحمودة المقصودة له بأفعاله، ووضعه الأشياء في مواضعها، وإيقاعها علىٰ أحسن الوجوه»(٤).

فأسماؤه ــ سبحانه وتعالىٰ ــ كمال لا نقص فيها، وأفعاله صادرة عنها، فهي أفعال محكمة لا شرّ فيها، بخلاف المخلوقين الذين تصدر عنهم أفعال محكمة وأفعال فيها سفه وعبث وشرّ(٥)، فنجد في أفعالهم العبث والسّفه والتعدي والجور مع أن أسماءهم من

(١) أخرجه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب قطيعة الرحم، رقم الحديث١٩٠٧، ص٤٣٦، وقال: حديث سفيان حديث صحيح، وصححه الألباني.

(٢) شرح السنة، للبغوي، ج١، ص١٧٩، ١٨٠.

(٣) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم، ج١، ص ٢٨٦، بدائع التفسير، لابن القيم، ج١، ص ٤٨٢، القواعد الكلية للأسماء والصفات عند السلف، للبريكان، ص١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٦.

(٤) مدارج السالكين، لابن القيم، ج١، ص ٨٨، ٨٩.

(٥) انظر: جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير توحيد الأسماء والصفات، لوليد العلي، ج٢، ص ٨٨٥، ٨٨٨، ٨٨٩.

أحسن الأسماء، فيسمىٰ صالحًا وهو طالح، ويسمىٰ جوادًا وهو بخيل، ويسمىٰ عادلًا وهو ظالم، والعكس صحيح؛لأن أفعالهم ليست صادرة عن كمال، بل أصلهم النقص.

فالخلق استحقوا الأسماء الممدوحة المناسبة لأفعالهم؛ لأنّهم لمّا كمُلوا بفعل الأفعال الحسنة والخصال الشريفة اشتقّ لهم الاسم من هذه الأفعال فهم فعلوا فكمُلوا الكمال اللائق بهم.

والعلّة في صدور الأسماء عن الأفعال في حق المخلوق أن أصل خلقه النقص والعجز والضعف فهذه صفات ملازمة لهم، لكنّ إذا كمُلوا الكمال اللائق بهم بسبب أفعالهم الحسنة اشتقّ لهم الاسم الحسن الموافق لهذا الكمال النسبي(١).

فلا يمكن لأحد أن يستدل من اسم الشخص علىٰ أفعاله الحسنة؛ فأفعالهم قد تخالف أسماءهم، فلا مطابقة بين أسمائهم وصفاتهم وبين أفعالهم، فيسمون بأسماء ممدوحة وأفعالهم سيئة، ويسمون بالأسماء القبيحة وأفعالهم حسنة كما ذكرنا.

ولا يستحقون الأسماء الحسنة والصفات الرفيعة إلا من أفعالهم(٢).

فلا يستحق اسم "الصّديق" إلاّ من تحرّىٰ الصدق، كما قال ـ عليه الصلاة والسلام: «**وما يزال الرجل يصدق ويتحرىٰ الصدق حتىٰ يكتب عند الله صديقًا**»(٣)، فما أتىٰ هذا اللقب إلا بالمجاهدة والمواظبة(٤)، ولا يُقال عالمًا إلا بعد اكتساب العلم، ولا حكيمًا إلا بعد ظهور العقل والحكمة منه، ولا يسمّىٰ رحيمًا إلا من اتصف بالرحمة وتحققت فيه.

---

(١) انظر: القواعد الكلية للأسماء والصفات عند السلف، للبريكان، ص١١٣.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص ١١٦.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في كتاب البر والصلة والأدب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، رقم الحديث ٦٦٣٩، ص١١٣٨.

(٤) انظر: عبد الرزاق البدر، مادة صوتية بعنوان "فائدة جليلة في قواعد الأسماء الحسنىٰ"، الشريط الثالث.

أمّا من كان فيه أدنىٰ رحمة فلا يسمّىٰ بذلك(١)، كما لا يسمّىٰ كريمًا إلا من تحققت فيه هذه الصفة، وغلبت علىٰ طبعه.

وخلاصة القول: أنّ أسماء الخالق تصدر عنها أفعاله وصفاته، والمخلوق لا تصدر عن أسمائه أفعال ولا صفات، فالخالق كَمُل ففعل، والمخلوق فعل فكَمُل؛ لذا فإن الخالق لا يسأل عمّا يفعل؛ لأنّه لا يصدر عنه إلا الأفعال المحكمة، والمخلوق يسأل عمّا يفعل؛ لأنّه قد يصدر عنه السّفه والعبث.

ومما يبنىٰ علىٰ هذا الفرق:

إنّ «المدح متعلق بأسماء الله نفسها بينما المدح متعلق بأفعال المخلوقين»(٢)، والمقصود أن أسماء الخالق تتضمن صفات يمدح بها الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ لِما يصدر عنها من الأفعال الممدوحة؛ فالمدح متعلق بالاسم نفسه(٣)، وأمّا المخلوق فلا يتعلق باسمه مدح ولاذم، وحين يُثني عليه فهو متعلق بفعله، وليس باسمه، قال الإمام ابن القيم في أسماء المخلوقين: «الاسم من حيث كان جوهرا لا يتعلق به المدح والذم، والإعجاب والحب والبغض، إنما متعلق ذلك ونحوه صفات وأعراض قائمة به، فإذا قلت: نفعني "عبد الله" عُلم أن الذي نفعك منه صفة وفعل من صفاته وأفعاله لا ذاته»(٤).

وهذا فرق آخر بين اسم الخالق واسم المخلوق، فاسم الخالق يتعلق به المدح، واسم المخلوق لا يتعلق به مدح ولا ذم.

فتبين من خلال هذا المبحث بعضًا من الفروقات بين الخالق والمخلوق فيما يتعلق

(١) انظر: فتح الباري، لابن حجر، ج٣، ص٢٠٢، وأسماء الله الحسنىٰ الثابتة في الكتاب والسنة، لمحمود الرضواني، ص ٩٩.

(٢) الأسماء الحسنىٰ، معانيها وآثارها والرد علىٰ المبتدعة فيها، لرفيع الأجيبويّ، ص ٣٦٣.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص ٣٦٤.

(٤) بدائع الفوائد، لابن القيم، ج٢، ص ٤٥٤.

بالاسم، فأسماء الخالق غير مخلوقة وأسماء المخلوق مخلوقة، وأسماؤه سبحانه حسنىٰ بلغت في الحسن غايته والمخلوق في أسمائه الحسن وفيها القبيح، وأسماء الخالق لاتنافي الوصفية فيها العلمية بينما أسماء المخلوق يحصل فيها التنافي، وأسماء الخالق غير محصورة بعدد والمخلوق أسماؤه محصورة، والخالق أفعاله صادرة عن أسمائه والمخلوق أسماؤه صادرة عن أفعاله، واسم الخالق يتعلق به المدح، واسم المخلوق لا يتعلق به مدح ولا ذم.

وما هذا إلا نوع من الاجتهاد والمسألة أعظم بكثير، لكن العباد علمهم محدود، وفهمهم قاصر، فلن نحيط بحقيقة هذا الفرق وكنهه.

المبحث الثالث

الفرق في الوصف

وفيه مطلبان:

المطلـــــب الأول: معنى «الصفة»، وثبوتها في حق الخالق والمخلوق.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولىٰ: معنىٰ "الصفة".

المسألة الثانية: ثبوت لفظ "الصفة" في حق الخالق والمخلوق.

المطلــب الثـــاني: الفرق بين صفات الخالق وصفات المخلوق.

المطلب الأول

معنى «الصفة»، وثبوتها في حق الخالق والمخلوق

المسألة الأولى: معنى «الصفة»:

• معنى "الصفة" لغة:

«الواو والصاد والفاء: أصل واحد، هو تحلية الشيء. ووصفته أصفه وصفًا. والصفة: الأمارة اللازمة للشيء»(١)، و«وَصَفَ الشيءَ له وعليه وصْفًا وصِفةً: حَلاَّه، والهاء عوض من الواو، وقيل: الوصْف المصدر والصِّفةُ الحِلْية»(٢).

• معنى "الصفة" في حق الخالق:

هي ما ورد في نصوص الكتاب والسنة من صفات الكمال القائمة بالذات بحيث تميّزه عن غيره، سواء من الصفات الذاتية، كالعلم، والحكمة، والسمع، والبصر، أو الفعلية كالخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة(٣).

• معنى "الصفة" في حق المخلوق:

قال الجرجاني(٤): «هي الاسم الدّال على بعض أحوال الذّات، وذلك نحو طَويل وقَصير، وعاقل وأحْمق وغيرها»(٥).

---

(١) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، ج٢، ص ٦٣٤.

(٢) لسان العرب، لابن منظور، ج ١٥، ص ٣١٥.

(٣) انظر: الصفات الإلهية تعريفها وأقسامها، محمد التميمي، ص١٢، وفتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، ج٣، ص١٦٠.

(٤) أبو الحسن علي بن محمد بن علي، المعروف بالشريف الجرجاني، الحنفي، فيلسوف. أقام في شيراز إلى أن توفي سنة ٨١٦هـ، له نحو خمسين مصنفًا، منها " التعريفات " و " شرح مواقف الإيجي". المرجع: الأعلام للزركلي، ج٥، ص٧، ومعجم المؤلفين، ج٧، ص٢١٦.

(٥) التعريفات، للجرجاني، ص ١١٤.

المسألة الثانية: ثبوت لفظ "الصفة" في حق الخالق والمخلوق:

- **ثبوت لفظ "الصفة" في حق الخالق:**

أولاً: جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أن اليهود جاءت النبي ﷺ منهم كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب، فقالوا: يا محمد صف لنا ربك الذي بعثك. فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ﴾ فيخرج منه، ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ فيخرج من شيء، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ ولا شبه. فقال: «**هذه صفة ربي عز وجل وتقدس علوًا كبيرًا**»[1]، وهذا تصريح من النبي ﷺ بأن الله له صفات، ويطلق عليه لفظ "صفة".

ثانيًا: جاء في صحيح البخاري من حديث عائشة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أن النبي ﷺ بعث رجلاً على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاته، فيختم: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص]. فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: «**سلوه لأي شيء يصنع ذلك**». فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي ﷺ: «**أخبروه أن الله يحبه**»[2].

و«إنما قال إنها صفة الرحمن لأن فيها أسماءه وصفاته، وأسماؤه مشتقة من صفاته، وقال غيره: يحتمل أن يكون الصحابي المذكور قال ذلك مستندًا لشيء سمعه من النبي ﷺ إما بطريق النصوصية وإما بطريق الاستنباط»[3]، فقول الصحابي: «لأنها صفة الرحمن» وإقرار النبي ﷺ له دليل على ثبوت اللفظ حيث قال: «**أخبروه أن الله يحبه**»[4]، وهذا ما

---

(١) الأسماء والصفات، للبيهقي، باب: جماع أبواب ما يجوز تسمية الله سبحانه ووصفه به سوى ما مضى في الأبواب قبلها وما لا يجوز وتأويل ما يحتاج فيه إلى التأويل وحكاية قول الأئمة فيه، رقم الحديث ٦٠٦، ج٢، ص٣٨، وصححه الحاكم، وحسنه بن حجر.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى، رقم الحديث٧٣٧٥، ص١٤٠٥.

(٣) فتح الباري، لابن حجر، ج١٣، ص٤٣٥.

(٤) انظر: شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، للغنيمان، ج١، ص٥٤-٥٨.

فهمه السلف وصرّحوا به من ثبوت لفظ "الصفة" وإطلاقها علىٰ الله تعالىٰ:

- قال ابن الماجشون[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا نجحد ما وصف، ولا نتكلف معرفة ما لم يصف»[2].

- وقال الدارمي[3] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولن يدخل الإيمان قلب رجل حتىٰ يعلم أن الله تعالىٰ لم يزل إلهًا واحدًا بجميع أسمائه وجميع صفاته. لم يحدث له منها شيء، كما لم تزل وحدانيته»[4].

- وقال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أحد أبوابه من صحيح البخاري «باب الحلف بعزة الله وصفاته وكلماته»[5]، وغيرها من أقوال السلف الدالة علىٰ إثبات لفظ الصفة لله[6].

هذا من جهة ثبوت لفظ " الصفة " للخالق، أما الصفات الثابتة له فهي كثيرة جدًا، وقد دلّ الكتاب والسنة علىٰ إثبات الصفات للخالق ـ عز وجل ـ من ثلاثة أوجه:

أولًا: التصريح بالصفة، كالعزّة والقوة والرحمة.

ثانيًا: تضمن الأسماء للصفات، فالغفور متضمن لصفة المغفرة، والسميع متضمن

---

(١) أبو مروان عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون التيمي، المالكي، تلميذ الإمام مالك. دارت عليه الفتيا في زمانه، اختلف في وفاته وتوفي علىٰ الأشهر سنة ٢١٢ هـ. من آثاره: كتاب كبير في الفقه. المرجع: سير أعلام النبلاء، ج١٠، ص٣٥٩، والأعلام للزركلي، ج٤، ص١٦٠، معجم المؤلفين، ج٦، ص١٨٤.

(٢) الفتوىٰ الحموية الكبرىٰ، لابن تيمية، ص ٣١٦.

(٣) أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد الدارمي، الشافعي، قذىٰ في أعين المبتدعة، قيّما بالسّنّة، ثقة، حجّة، ثبتًا. له تصانيف في الرد علىٰ الجهمية، منها " النقض علىٰ بشر المريسي"، توفي في ذي الحجة، سنة ثمانين ومائتين. المرجع: سير أعلام النبلاء، ج١٣، ص٣١٩،، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٣، ص٣٣٠، والأعلام للزركلي، ج٤، ص٢٠٥، ومعجم المؤلفين، ج٦، ص٢٥٤.

(٤) رد الدارمي عثمان بن سعيد علىٰ بشر المريسي، ص١٣.

(٥) كتاب الأيمان والنذور، باب الحلف بعزة الله وصفاته وكلماته، رقم الباب١٢، ص١٢٧٢.

(٦) انظر: الأسماء الحسنىٰ معانيها وآثارها والرد علىٰ المبتدعة فيها، لرفيع الأجيبويّ، ص ٤٠٣.

لصفة السمع، وهكذا.

ثالثًا: التصريح بفعل أو وصف يدلّ على الصفة(١).

فقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، الفعل استوى دلّ على صفة الاستواء، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢]، وصف منتقمون دل على صفة الانتقام من المجرمين(٢).

- **ثبوت لفظ "الصفة" في حق المخلوق:**

من الظاهر والثابت أن المخلوق يطلق عليه لفظ "الصفة"، وقد ثبت عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: «أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥]»(٣)، وعن عائشة ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم**»(٤)، وغيرها من الأدلة على أن المخلوق له صفات ويطلق عليه هذا اللفظ.

---

(١) قيل: إن الصفة والوصف مترادفان، وقيل: بينهما تغاير والظاهر أن المراد هنا بالوصف أي اسم الفاعل فيكون التصريح بالفعل أو اسم الفاعل دالة على الصفة، المرجع: المجلّى، لكاملة الكواري، ج٢، ص١٧.

(٢) انظر: القواعد المثلى، لابن عثيمين، ص٦٨.

(٣) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب: كراهية السخب في السّوق، رقم الحديث٢١٢٥، ص٤٠٠.

(٤) صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقة، رقم الحديث ٧٤٩٥، ص١٢٩٥.

المطلب الثاني

الفرق بين صفات الخالق وصفات المخلوق

الفرق الأول: الفرق في الكمال:

صفات الخالق كاملة وصفات المخلوق ناقصة، والكمال الثابت للخالق هو أقصىٰ ما يمكن من الكمال بحيث لا يمكن وجود كمال أعلىٰ منه أو يماثله.

قال تعالىٰ: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠]، فجعل سبحانه مثل السوء، وهو المتضمن للنقص والعيب التّام والذلّ، والقصور ونفي الكمال، جعلها للمخلوق، وجعل المثل الأعلىٰ للخالق، وهو المتضمن لإثبات صفات الكمال المطلقة من كل وجه دون أن تستلزم نقصًا بوجه من الوجوه، والتنزّه عن صفات المخلوق، فالخالق أحق بصفات الكمال من كل أحد؛ لأن له المثل الأعلىٰ فلا يمكن أن يكون له مشارك ولا مثيل في صفات الكمال، بل هو متفرد بها ـ سبحانه[(١)] ـ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «الكمال ثابت لله، بل الثابت له هو أقصىٰ ما يمكن من الأكملية لا يكون وجود كمال لا نقص فيه إلا وهو ثابت للرب تعالىٰ يستحقه بنفسه المقدسة»[(٢)]، ويقول الإمام ابن القيم: «فصفاته كلها صفات كمال محض، فهو موصوف من الصفات بأكملها وله من الكمال أكمله»[(٣)]، وهذا أمر مُودع في فِطَر الخلق، لا يجحدها إلا من تشوّهت فطرته بشبه التمثيل أو التعطيل[(٤)].

---

(١) انظر: الصواعق المرسلة، لابن القيم، ج٣، ص ١٠٣٠، ١٠٣١، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٢، ص٦٣١، وشرح الطحاوية، لابن أبي العز، ص ٨٧، ٨٨، ومحاسن التأويل، للقاسمي، ج٤، ص٥٢٦، ٥٢٧، وتيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٤٤٣.

(٢) مجموع الفتاوىٰ، لأحمد ابن تيمية، ج٦، ص ٧١.

(٣) بدائع الفوائد، لابن القيم، ج ١، ٢٩٥.

(٤) انظر: شرح الطحاوية، لابن أبي العز، ص ٥٢.

وقد جاء عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في قوله: (الصَّمَدُ) «يقول: السيد الذي قد كمُل في سُؤدَده، والشريف الذي قد كمُل في شرفه، والعظيم الذي قد كمُل في عظمته، والحليم الذي قد كمُل في حلمه، والغني الذي قد كمُل في غناه، والجبَّار الذي قد كمُل في جبروته، والعالم الذي قد كمُل في علمه، والحكيم الذي قد كمُل في حكمته، وهو الذي قد كمُل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه، هذه صفته، لا تنبغي إلا له.»(١)

فالكمال المطلق يثبت للخالق دون المخلوق، وهذا الكمال يظهر في أنواع الصفات التالية:

١ ـ صفات كمال ثابتة في حق الخالق ومفقودة في حق المخلوق، كالخلق والإحياء والإماتة، فهذه يصحّ وصف الخالق بها ولا يصحّ وصف المخلوق بها.

ثبت بالأدلة القاطعة الفرق بين الخالق والمخلوق، وأنه لا يوجد بينهما مماثلة كقوله تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]، وهو يتضمن اتصاف الخالق بصفات كمال لا تثبت للمخلوق، وافتقاد المخلوق لصفات كمال ثابتة للخالق؛ وهذا دليل نقص المخلوق وكمال الخالق، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ونفي المماثلة قد يتضمن إثبات صفات الكمال للخالق، لا يثبت للمخلوق منها شيء، فكما أن في صفات المخلوق ما لا يثبت للخالق، فكذلك في صفات الخالق ما لا يثبت للمخلوق»(٢)، ومن أخصّها القدرة علىٰ الخلق والاختراع فهذا لا يمكن أن يثبت لغير الخالق أبدًا؛(٣) ولذا فإنه تعالىٰ لمّا ذكر عظمة خلقه، واتساع نعمه ورزقه ذكر أنه ليس له مثيل ولا نظير في ذلك فقال: «﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ﴾ جميع المخلوقات، وهو الفعال لما يريد ﴿كَمَن لَّا يَخۡلُقُ﴾ شيئًا، لا قليلًا ولا

(١) أخرجه الطبري في تفسيره، ج ٢٤، ص٧٣٦، وأخرجه البيهقي من طريق آخر في كتابه الأسماء والصفات ج١، ص١٥٦.

(٢) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية، ج١٠، ص٢٤٦.

(٣) انظر: بغية المرتاد، لابن تيمية، ص ٢٦١.

كثيرًا، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧] فتعرفون أن المنفرد بالخلق أحق بالعبادة كلها، فكما أنه واحد في خلقه وتدبيره، فإنه واحد في إلهيته وتوحيده وعبادته. وكما أنه ليس له مشارك إذ أنشأكم وأنشأ غيركم، فلا تجعلوا له أندادا في عبادته بل أخلصوا له الدين»[1].

والمقصود بالخلق هنا إيجاد الشيء على غير مثال سابق كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ [يس: ٧١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] وقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢، ٣]، وليس المقصود به التقدير، فإن هذا يوصف به المخلوق أيضًا كقوله تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧] أي: تقدِّرونه وتهيئونه، أما الخلق الذي هو إبداع الشيء وإيجاده على غير مثال سابق، فقد تفرّد به الخالق ـ عز وجل ـ قال الله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣] وتحدّى المخلوق أن يوصف بهذا الوصف، وأثبت عجزه فقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ۝٧٣ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣]، فلا يمكنه حتى أن يخلق أضعف المخلوقات وأحقرها فغيرها من باب أولى[2].

وأما الإحياء والإماتة فهي أيضًا من الصفات المختصة بالخالق، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠]، قال الإمام ابن كثير: «لا يقدر أحد منهم على فعل شيء من ذلك، بل الله سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق والرزق والإحياء والإماتة، ثم يبعث الخلائق يوم القيامة ولهذا قال بعد هذا كله: ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٤٣٧.

(٢) انظر: فقه الأسماء الحسنى، لعبد الرزاق البدر، ص١٠٨-١٠٩.

31] أي تعالىٰ وتقدس وتنزه وتعاظم وجل وعَزّ عن أن يكون له شريك أو نظير أو مساوٍ أو ولد أو والد، بل هو الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد»(1).

وهكذا بقية الصفات المختصة بربوبية الخالق وألوهيته، هي صفات كمال في الخالق مختصة به لا توجد في المخلوق، وهذا دليل علىٰ الفارق العظيم بينهما.

٢ ـ صفات في حق الخالق كمال، وفي حق المخلوق نقص، مثل: العظمة والكبرياء والجبروت، وهذه الصفات لا يصحّ وصف المخلوق بها(2)، ويصحّ وصف الخالق بها.

من الأدلة علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الجاثية: ٣٧]، وجاء في صحيح مسلم عن أبىٰ سعيد الخدري وأبىٰ هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قالا: قال رسول الله ﷺ: «**العز إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعنى عذبته**»(3).

فالخالق ربّ ومن صفاته الكبرياء، فهو سبحانه المتكبر، وقد انفرد بهذه الصفة، والمخلوق عبد، ومن صفاته الخشوع والتذلل؛ فلا ينبغي أن يتكبر علىٰ أحد، بل يتواضع لغيره؛ ولهذا فلو نازع الخالق في هذه الصّفات عذّبه.

والعظمة كذلك قد اختص بها الخالق؛ لأن المخلوق يُعظّم لماله أو سلطانه أو علمه أو غير ذلك، وأما الخالق فإنه العظيم علىٰ الحقيقة ومن كل وجه(4).

قال الغزالي(5) في سبب انفراد الخالق بهذه الصّفات: «المتكبر هو الذي يرىٰ الكل

---

(١) تفسير القران العظيم، لابن كثير، ج٣، ص ٤٧٨، ٤٧٩.

(٢) ويصح وصف المخلوق بها " لتحكي واقعا ولإثبات وجود لا إثبات استحقاق ".

(٣) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الكبر، رقم الحديث٦٦٨٠، ص١١٤٤.

(٤) انظر: الأسماء والصفات، البيهقي، ج١، ص١٨٣، والحجة في بيان المحجة، للأصبهاني، ج١، ص١٣٠.

(٥) أبو حامد محمد بن محمد الطوسي، الشافعي، الغزالي، وتلمذ لإمام الحرمين ابي المعالي الجويني، له نحو مئتي مصنف.منها "احياء علوم الدين" "الحصن الحصين في التجريد والتوحيد" "تهافت الفلاسفة"، توفي يوم الاثنين جماد الآخرة ٥٠٥هـ. سير أعلام النبلاء، ج١٩، ص٣٢٢، وشذرات الذهب في أخبار من =

حقيرًا بالإضافة إلىٰ ذاته، ولا يرىٰ العظمة والكبرياء إلا لنفسه؛ فينظر إلىٰ غيره نظر الملوك إلىٰ العبيد. فإن كانت هذه الرؤية صادقة كان التكبر حقًا، وكان صاحبها متكبرًا حقًا. ولا يتصور ذلك علىٰ الإطلاق إلا لله تعالىٰ. فإن كان ذلك التكبر والاستعظام باطلًا ولم يكن ما يراه من التفرد بالعظمة كما يراه كان التكبر باطلًا ومذمومًا. وكل من رأىٰ العظمة والكبرياء لنفسه علىٰ الخصوص دون غيره ـ كانت رؤيته كاذبة ونظره باطلًا إلا الله سبحانه وتعالىٰ»[(1)].

فالتكبر والجبروت والعظمة في حق المخلوق نقص، كما قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ [غافر:٣٥]، ولا يوصف بها علىٰ سبيل المدح إلا الخالق، لكن يوصف بها المخلوق «لتحكي واقعا ولإثبات وجود لا إثبات استحقاق»[(2)].

والمقصود أن المخلوق لا يستحق هذه الصفات ولا تليق بمقامه، وقد ادّعىٰ لنفسه ما ليس حق له ولا يليق به، وأما في حق الخالق فهي كمال؛ لأنه مستحق لها علىٰ الحقيقة لائقة به سبحانه وهكذا بقية الصفات التي هي نقص في المخلوق، وكمال في الخالق يجب أن يفرق فيها بين الخالق والمخلوق فنثبتها له سبحانه وننفيها عن غيره من المخلوقين.

٣ ـ صفات في حق الخالق والمخلوق كمال، كالحياة والعلم والقدرة، وهذه يصحّ وصف الخالق بكمالها المطلق، ووصف المخلوق بكمالها النسبي.

ومن هذه الصّفات العلم والقدرة والحياة، فهذه الصفات وغيرها نلاحظ أن المخلوق المتصف بها أكمل ممن لم يتصف بها، وكلما قويت هذه الصفة في المخلوق ارتقىٰ في الكمال؛ فمن هو عالم ليس كمن هو جاهل، والناس يتفاوتون في منازلهم وكمالهم حسب علمهم، ومن هو قادر ليس كمن هو عاجز، والخلق يتفاوتون في منازلهم وكمالهم حسب

=

ذهب، ج٦، ص١٨، والأعلام للزركلي، ج٧، ص٢٢.

(١) المقصد الأسنىٰ، للغزالي، ص ٧٢.

(٢) القدر المشترك في معاني الصفات بين أهل السنة ومخالفيهم، لعبد الرحمن القصير، ١٤٢٧هـ، ص٢٧.

قدرتهم، وهكذا بقية صفات الكمال، وهذه الصفات هي صفات كمال في الخالق أيضًا، وقد أثبتها لنفسه ـ عز وجل ـ فأثبت له الحياة والعلم والقدرة فحياته ـ تعالىٰ ـ حياة كاملة مستلزمة لكل صفات الكمال، لم يسبقها عدم، ولا يلحقها فناء، كما قال تعالىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقال: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [الحديد: ٣]، وقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وعلمه كذلك يشمل كل صغيرة وكبيرة لا يعزب عنه مثقال ذرّة، لم يُسبق بجهل، ولا يلحقه نسيان، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ [الأنفال: ٧٥]، وقال عن موسىٰ حين سأله فرعون: ما بال القرون الأولىٰ ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

وقدرته قد كملت فلا العجز يسبقها ولا التعب يلحقها، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، وقال: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢]، وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٢]، وهكذا سائر الصفات التي أثبتها الخالق لنفسه، فهي صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه، ولا يماثله فيها مخلوق(١).

وأما المخلوق فهو وإن كان يشترك مع الخالق في بعض صفات الكمال إلا أن بينهما فرقًا كبيرًا وبونًا شاسعًا؛ فليست الحياة كالحياة، فحياة المخلوق يسبقها العدم ويلحقها الفناء، قال تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، وقال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية، ج١٠، ص٢٤٥، وتقريب التدمرية ضمن مجموع فتاوىٰ ورسائل الشيخ، لابن عثيمين، ج٤، ص ١٤٦، ١٤٧.

وكذلك صفة العلم فهي صفة كمال يشترك الخالق والمخلوق فيها، لكن الفرق بين علم الخالق وعلم المخلوق ظاهر، جاء في صحيح البخاري قول الخضر لموسىٰ ـ عليهما السلام: «**ووقع عصفور علىٰ حرف السفينة، فغمس منقاره في البحر، فقال الخضر لموسىٰ: ما علمك وعلمي وعلم الخلائق في علم الله، إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره**»[(١)]، فهذا مثل ضربه الخضر في نسبة علمه وعلم موسىٰ ـ عليهما السلام ـ إلىٰ علم الله فمثّل علمهما بما أنقصه العصفور من البحر حين نقر فيه.

والحقيقة أنّه لم ينقص منه شيء؛ لأن البحر لا تزال المياه تمدّه فيكون علمهما لا شيء بالنسبة إلىٰ علم الله[(٢)].

وللمخلوق قدرة يوصف بها ويشترك مع الخالق فيها إلا أن قدرته مغايرة مباينة لقدرة الخالق فيولد المخلوق ضعيفًا، ثم تنمو قدرته وتزيد إلا أنها في نهاية حياته تعود إلىٰ النقص والزوال، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

وبهذا يظهر أن الكمال المطلق إنما هو للخالق دون المخلوق، فيجب أن يفرّق بين الخالق والمخلوق حتىٰ في صفات الكمال التي تطلق عليهما فيوصف الخالق بما يليق بعظمته وجلاله، ويوصف المخلوق بما يليق بضعفه وعجزه.

٤ ـ صفات في حق الخالق نقص وفي حق المخلوق كمال، مثل النوم والأكل والولد ونحو هذه الصفات فلا يصحّ وصف الخالق بها، ويصحّ وصف المخلوق بها؛ لأنها كمال بالنسبة للمخلوق، لكنها ليست كمالًا مطلقًا.

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ إلىٰ آخره [٦٣]، رقم الحديث٤٧٢٧، ص٩١٣.

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم، لابن رجب، ص ٢٩٢، ٢٩٣.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «من الكمالات ما هو كمال للمخلوق وهو نقص بالنسبة إلىٰ الخالق وهو كل ما كان مستلزمًا لإمكان العدم عليه المنافي لوجوبه وقيوميته أو مستلزمًا للحدوث المنافي لقدمه أو مستلزمًا لفقره المنافي لغناه»(١).

فالنوم والأكل والشرب والولد ونحوها، صفات كمال تناسب المخلوق لكنها لا تناسب الخالق، بل هي في حقه نقص؛ لأنها تستلزم الفقر المنافي للغنىٰ والعدم المنافي للقيّوميّة، ولذا فقد نفاها الخالق عن نفسه فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥٥].

والمقصود بالسّنَة النعاس، وهو النوم الخفيف، فالسّنَة أول النوم، وأما النوم فهو يزيل قوة البدن والعقل فحياة النائم تكون ضعيفة؛ لأنه لا يعلم ما يجري حوله ولا يدّبر شؤونه ولا يسمع ولا يقدر، فالنوم بالنسبة للمخلوق حاجة يحتاج إليها وغذاء يتغذىٰ به؛ إذ جُعل النوم سباتًا يستريح به بدنه من الحركة والتعب طوال اليوم، فإذا قام من نومه فكأنه خلق من جديد؛ ولهذا كان ﷺ إذا استيقظ من نومه يقول: «**الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا، وإليه النشور**»(٢)، وأما الخالق فقد نفىٰ عن نفسه النوم والسّنَة لإثبات كمال حياته وعلمه ودوام تدبيره(٣)، فهو سبحانه «لا تحله الآفات ولا تناله العاهات...لا يغيره ما يغير غيره، ولا يزيله عما لم يزل عليه تنقل الأحوال وتصريف الليالي والأيام، بل هو الدائم علىٰ حال، والقيوم علىٰ جميع الأنام. لو نام كان مغلوبًا مقهوراً؛ لأن النوم غالب النائم قاهره. ولو وسن لكانت

(١) مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج٦، ٨٧.

(٢) أخرجه البخاري عن حذيفة بن اليمان، في كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا نام، رقم الحديث٦٣١٢، ص١٢١٤.

(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ج١، ص٢٦٨، وتفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج٣، ص ١٩.

السموات والأرض وما فيهما دكًا، لأن قيام جميع ذلك بتدبيره وقدرته. والنوم شاغل المدبر عن التدبير، والنعاس مانع المقدر عن التقدير بوسنه»(١).

وفي مسلم عن أبي موسىٰ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: قام فينا رسول الله ﷺ بأربع: «**إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، ويرفع القسط ويخفضه، ويُرفع إليه عمل النهار بالليل، وعمل الليل بالنهار**»(٢)، فالخالق؛ لأنه كامل الصفات، لا ينام والمخلوق ناقص الصفات فيحتاج إلىٰ النوم، ولو لم ينم يختل أمره فيكون في حالة يرثىٰ لها ولذهب يبحث عن علاج لهذا المرض الذي حلّ به، وربما أصابه الجنون لو استمر به هذا الأمر، فالنوم في حقه صفة كمال.

وكذلك الأكل والشرب فإن من يأكل ويشرب ويشتهيهما أكمل ممن لا يأكل ولا يشرب بل يعدونه الناس مريضًا، فإذا لم يأكل ويشرب اختل أمره وضعف ومرض، حتىٰ يصل به الحال إلىٰ الموت المحقق؛ فالأكل والشرب في حقه كمال، لكنه يستلزم حاجة الآكل والشارب إلىٰ الطعام والشراب، ومستلزم كذلك لخروج شيء منه كالفضلات، والذي لا يحتاج إلىٰ دخول شيء إلىٰ جوفه أكمل ممن يحتاج إلىٰ دخول شيء فيه، فأكله وشربه دليل فقره ونقصه حيث يظهر فيها الاحتياج إلىٰ الغير، وكل من يحتاج إلىٰ غيره فهو مفتقر إليه، ليس مستغنيًا عنه بنفسه(٣).

ولذا فقد سمىٰ الله نفسه الصمد أي: ليس بأجوف، ولا يأكل ولا يشرب، ولا يخرج منه شيء فهو غنيّ عن كل شيء، ونفىٰ استحقاق ألوهية بعض مخلوقاته بأنهم يأكلون ويشربون؛ لأن هذا دليل عجزه، ولا يكون العاجز خالقًا بل لا بد أن يكون مخلوقًا، كما في قوله تعالىٰ:

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري، ج٣، ص ٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي موسىٰ، كتاب الإيمان، باب في قوله عليه السلام «إن الله لا ينام». وفي قوله «حجابه النور لو كشفه لأحرق سبحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه»، رقم الحديث ٤٤٥، ص٩١.

(٣) انظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج٦، ص٨٧، وانظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج٣، ص٨٥، ٨٦، والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لابن تيمية ج٢، ص١٧١.

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥](١).

ومن الصفات التي هي نقص في حق الخالق وكمال في حق المخلوق، صفة إنجاب الولد وقد نفاها عن نفسه سبحانه فقال تعالىٰ: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣]، وذلك لكمال غناه وعدم افتقاره أو حاجته إلىٰ من يُعينه أو يخلفه(٢)، وأمّا المخلوق فهو محتاج لمن يُعينه في كِبَره ومن يبقي ذكره بين الناس؛ فمن ينجب أكمل ممن لا ينجب، وهكذا بقية الصفات التي هي كمال في المخلوق ونقص في الخالق يجب أن يفرق فيها بين الخالق والمخلوق فننفيها عنه سبحانه؛ لأن له الكمال المطلق، ونثبتها للمخلوق؛ لأن النقص ملازم له.

٥ ـ صفات في حق الخالق والمخلوق نقص كالجهل والضعف والفقر، وهذه الصفات لا يصحّ وصف الخالق بها، ويجوز وصف المخلوق بها.

الخالق سبحانه نفىٰ عن نفسه كل صفات النقص والتي منها: الموت، والجهل، والنسيان، والعجز، والظلم.

- فقال تعالىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].
- وقال عن موسىٰ: ﴿فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].
- وقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[فاطر: ٤٤].

---

(١) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري، ج٨، ص٥٨٣، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٤، ص٦٠٧، وتحفة الأحوذي، للمباركفوري، ج٩، ص ٢١١.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، لأبو السعود، ج٩، ص٣١٣، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٩٣٧.

- وقال: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

فالصفات التي تكون نقصًا محضًا ليس فيها كمال ممتنعة في حق الخالق عز وجل[(١)] ولو تعدىٰ المخلوق الناقص حدّه فوصف الخالق بشيء من هذه الصفات ـ كاليهود الذين يصفون الخالق بالفقر والبخل والتعب من خلق السموات والأرض ـ فإنه قد عرّض نفسه للعقوبة والعذاب[(٢)].

وأما المخلوق فهي جائزة في حقه، فالموت مثلًا صفة ملازمة لكل نفس، قال تعالىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٧].

وأما الجهل والظلم فقد أخبرنا الله ـ تعالىٰ ـ أن هذا وصف الإنسان، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [لأحزاب: ٧٢]، وكذلك وَصْفه الضعف، قال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، ووَصْفه الفقر، قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، وهو موصوف بالنسيان أيضًا، كما جاء في حديث أبي هريرة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ عن النبي ﷺ في الحديث الطويل قال عن آدم ـ عليه السلام ـ: «**فجحد آدم فجحدت ذريته، ونسي آدم فنسيت ذريته**»[(٣)].

وهكذا كل صفات النقص المحضة فإنّ الخالق ينزّه عنها ويتعالىٰ، وأما المخلوق فإنه لا ينزّه عنها، بل توجد فيه ولابد، فيُفرّق فيها بين الخالق والمخلوق.

وبالجملة فالفرق بين كمال صفات الخالق ونقص صفات المخلوق أوسع وأعظم مما

---

(١) انظر: القواعد المثلىٰ، لابن عثيمين، ص ٥٤.

(٢) انظر: منهاج السنة النبوية، لابن تيمية، ج٢، ص ٥٢٩.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه في كتاب تفسير القرآن، باب " ومن سورة الأعراف "، رقم الحديث ٣٠٧٦، ص٦٨٩، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

بيّنا ولن يحيط بذلك أحد، لكنّا نعتقد ونعلم علمًا يقينيًا أن الخالق له الكمال المطلق الذي لا يعتريه النقص أبدًا، والمخلوق كماله مشوب بالنقص والعيب.

الفرق الثاني: الفرق في التلازم:

صفات الخالق متلازمة، بينما صفات المخلوق غير متلازمة(١).

والمقصود بالتلازم عدة أمور:

أولًا: التلازم بين الذات وصفات الكمال:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية عن الخالق سبحانه: «لا يكون موجودًا إلا أن يكون قديمًا واجبًا بنفسه، ولا يكون عالمًا قادرًا إلا أن يكون حيًّا، فإذا كانت صفاته متلازمة كان ذلك أبلغ في الكمال من جواز التفريق بينهما فإنه لو جاز وجوده بدون صفات الكمال: لم يكن الكمال واجبًا له بل ممكنًا له، وحينئذ، فكان يفتقر في ثبوتها له إلى غيره وذلك نقص ممتنع عليه كما تقدم بيانه، فعلم أن التلازم بين الذات وصفات الكمال هو كمال الكمال»(٢).

ثانيًا: التلازم بين صفات الكمال:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «صفات الله تعالى، لا يتحقق شيء منها إلا مع الأخرى. فحياته لازمة لعلمه وقدرته ومشيئته، وكذلك قدرته ملازمة لعلمه وحياته. فهي كلها متلازمة»(٣).

ثالثًا: التلازم بين معاني الكمال في الصفة الواحدة:

يقول حافظ الحكمي: «يتضمن اسمه العلي الأعلى الصفة المشتق منها، وهو ثبوت العلو له عز وجل بجميع معانيه. علو فوقيته تعالى على عرشه، عال على جميع خلقه، بائن

---

(١) انظر: الوافي في اختصار شرح الطحاوية، لمهدي الشّمري، ص ٢٧.

(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج٦، ص١٠١.

(٣) الرد على المنطقيين، لابن تيمية، ص ٣٣٥.

منهم رقيب عليهم، يعلم ما هم عليه، قد أحاط بكل شيء علمًا، لا تخفىٰ عليه منهم خافية. وعلو قهره، فلا مغالب له ولا منازع ولا مضاد ولا ممانع، بل كل شيء خاضع لعظمته، ذليل لعزته، مستكين لكبريائه، تحت تصرفه وقهره، لا خروج له من قبضته. وعلو شأنه، فجميع صفات الكمال له ثابتة، وجميع النقائص عنه منتفية عز وجل وتبارك وتعالىٰ. وجميع هذه المعاني للعلو متلازمة لا ينفك معنىٰ منها عن الآخر»(١).

فالخالق ـ عز وجل ـ كل صفاته صفات كمال، وهي لا تنفكّ عنه بحال من الأحوال، ولا يوجد صفة كمال إلا وهي له سبحانه فاستكملت صفات الكمال له، وانتفت صفات النقص عنه؛ ولذلك حصل التلازم بين صفات الكمال وبين الذّات، وبين صفات الكمال بعضها مع بعض، وبين معاني الكمال في الصفة الواحدة.

وأما المخلوق فإن صفات الكمال ليست ملازمة لذاته، بل ما من مخلوق إلا وفيه صفات نقص، ويجوز وجوده بدون صفات الكمال، وكذلك صفات الكمال في حقه غير متلازمة؛ لأنه قد يتصف بصفات كمال وصفات نقص، فلا يجتمع في مخلوق صفات الكمال كلها، فيمكن أن يتصف بالحياة لكن لا يلزم أن يتصف بالسمع والبصر.

وقد يكون غنيًا حتىٰ يبلغ وصفًا عظيمًا من الغنىٰ إلا أنّه جاهل أو مريض أو عقيم، أو غير ذلك من أنواع النقص(٢).

وكذلك الحال في معاني الصفة الواحدة فتوجد فيه صفة كمال لكن لا تجتمع وتتلازم كل معاني هذه الصفة فيه، فيكون فيه من صفات العلو علوّ الفوقية مثلًا، بما يناسب فوقية المخلوق، لكن لا يلزم علو الشأن فليس كل من علا علىٰ شخص بذاته كان عاليًا عليه بصفاته، وقد يوصف بجمال الذّات ولكنّه يفتقد لجمال الأخلاق، وبهذا يُعلم الفرق بين الخالق والمخلوق في تلازم الصفات.

---

(١) أعلام السنة المنشورة، للحكمي، ص٦٨، ٦٩.

(٢) انظر: أسماء الله الحسنىٰ الثابتة في الكتاب والسنة، لمحمود الرضواني، الطبعة الثانية، ج١، ص٢٧٩.

الفرق الثالث: الفرق في الحاجة:

صفات الخالق متصف بها لا على وجه الحاجة، بينما صفات المخلوق متصف بها على وجه الحاجة إليها(١).

لما كان الخالق كاملًا منزهًا عن كل نقص وعيب فإنه ينزّه عن الحاجة والافتقار؛ لأنها من صفات الضعف والنقص، وهذه قاعدة لا تنفك عنه أبدًا ـ سبحانه وتعالى ـ فلا يمكن، بحال من الأحوال، أن يفعل فعلًا أو يتصف بصفة لأنه محتاج إليها، بل هو الغني عما سواه، قيوم بنفسه، قائم على غيره، قال الإمام ابن كثير في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]: «أي الحي في نفسه الذي لا يموت أبدًا، القيم لغيره. وكان عمر يقرأ القَيَّام، فجميع الموجودات مفتقرة إليه، وهو غني عنها، ولا قوام لها بدون أمره»(٢).

فصفة الخلق مثلًا ثابتة لله ــ جل وعلا ــ لكنه لم يتصف بها ولم يخلق الخلق؛ لأنه محتاج إليهم في رزق أو إطعام أو نحوه، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذريات: ٥٦-٥٨]، يقول الشيخ السعدي: «هذه الغاية التي خلق الله الجن والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته المتضمنة لمعرفته ومحبته، والإنابة إليه والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، وذلك يتضمن معرفته الله تعالى، فإن تمام العبادة، متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفة لربه، كانت عبادته أكمل، فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله، فما خلقهم لحاجة منه إليهم.

فما يريد منهم من رزق وما يريد أن يطعموه، تعالى الله الغني المغني عن الحاجة إلى أحد بوجه من الوجوه، وإنما جميع الخلق فقراء إليه، في جميع حوائجهم ومطالبهم، الضرورية وغيرها؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ أي: كثير الرزق، الذي ما من دابة في

(١) انظر: الوافي في اختصار شرح عقيدة أبي جعفر الطحاوي، لمهدي الشّمري، ص ٢٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج١، ص ٣٣٠.

الأرض ولا في السماء إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها، ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ أي: الذي له القوة والقدرة كلها»(١)، فالخالق لما يخلق الأشياء إنما ينشأ هذا عن كمال قوته وغناه، وليس لأنه محتاج لخلقه(٢).

وأما المخلوق فإنه لمّا يصنع الشيء فإنه يصنعه لحاجته إليه وافتقاره له، فإذا احتاج المخلوق لشيء صنعه كما لو احتاج إلى قلم فإنه يصنعه، أو إلى بيت فإنه يبنيه، أو إلى مركب فإنه يسوّيه ويركبه، وهلمّ جرًا.

ومن كمال غناه وعدم حاجته وصف نفسه سبحانه بأنه ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣]، بعد أن سمّى نفسه بـ(الصمد) دلالة على استغنائه بذاته عمن سواه واحتياج المخلوقات وافتقارها إليه فمما يندرج تحت معنى الصمدية انتفاء وصف الولد عنه سبحانه وكيف يوصف بأن له ولدًا وهو غني عما سواه لا يفتقر إلى أحد يعينه أو يخلفه، فهو قد استحال عليه الفناء أو الحاجة، فلكمال غناه سبحانه استغنى عن الولد(٣).

وجاء بيان هذا الأمر بالتفصيل في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٦، ١١٧]، فردّ على من نسب إليه الولد بأن ذلك أمر منتف لعلّة مانعة، وهي قوله: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ﴾، والمعنى أنه إذا كان الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ له كل ما في السموات والأرض وهم قانتون ممتثلون له، طوعًا أو كرهًا فما حاجته إلى اتخاذ الولد وهذا يدل دلالة واضحة على نفي الحاجة والافتقار في صفاته(٤).

---

(١) تفسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٨١٣.

(٢) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، لخالد المصلح، الدرس الثالث، ص ٣٥.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، لأبو السعود، ج٩، ص٣١٣، وتفسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٩٣٧.

(٤) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي، ج٩، ص٣٣٢، ٣٣٣.

وأما المخلوق فإنما يتخذ الولد ويرغب فيه لما يطمع من برّه له وانتفاعه به، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]، أو لأجل أن يرثه كما في قوله تعالىٰ عن نبي الله تعالىٰ زكريا عليه السلام: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٥، ٦]، والخالق حيّ سبحانه باق يَرِث ولا يُورَث كما قال تعالىٰ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

الفرق الرابع: الفرق في الأولية والآخرية:

صفات الخالق أولية آخرية، وصفات المخلوق مسبوقة بعدم فهي محدثة، ويلحقها الضعف والفناء(١).

ومن الأدلة علىٰ ذلك اقتران الحي بالقيوم في قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فهو يدل علىٰ أن الخالق:

- له كل صفات الكمال فهو قائم بنفسه بلغ مطلق الكمال.
- ويدل أيضًا علىٰ دوام هذا الكمال وبقائه دوامًا أزليًا أبديًا.
- وعلىٰ انتفاء النقص والعدم عنه، أزلًا وأبدًا، فلا يتغير ولا يتأثر بعد كماله.

ولهذا كانت أعظم آية في القرآن، هي آية الكرسي كما ثبت ذلك في "الصحيح" عن النبي ﷺ فاسم الحي، واسم القيوم، تدور عليها الأسماء الحسنىٰ كلّها، وترجع إليها معانيها.

أما المخلوق فإن صفات الكمال فيه لا تدوم ولا تبقىٰ، بل تتغير وتفنىٰ، ويحدث فيها

(١) انظر: شرح الطحاوية، لابن أبي العز، ص٩٦، ومحاسن التأويل، للقاسمي، والمجلىٰ في شرح القواعد المثلىٰ، لكاملة الكواري، ص ٢٠٦.

النقص، فقد يكون حيًا سميعًا لكن سمعه يتأثر، فيحتاج إلىٰ ما يقوي سمعه، والخالق قيّوم في سمعه له البقاء والكمال علىٰ الدوام، وقد يكون حيًا بصيرًا لكن بصره يتغير فيحتاج إلىٰ ما يقوي بصره، والخالق قيوم في بصره له البقاء والكمال فيه علىٰ الدوام، وهكذا بقية صفات المخلوق؛ فلو كان قائمًا دائمًا لكملت حياته وبقيت صفاته، ولكنّه فانٍ وهالك(١).

والمقصود أن المخلوق قد يتصف بصفة كمال؛ لكنّه مع الزمن ينقلب حاله فيتصف بعكسها من النقص أو تضعف هذه الصفة فيه، وهذا لا ينفك عن الإنسان، فكماله إلىٰ اضمحلال وزوال، والخالق صفات الكمال فيه آخرية لا تزول ولا تضعف.

وكما أن الخالق آخر في صفاته فهو أول في صفاته، قال الامام الطحاوي: «ما زال بصفاته قديما قبل خلقه، لم يزدد بكونهم شيئًا لم يكن قبلهم من صفته، كما كان بصفاته أزليًا، كذلك لا يزال عليها أبديًا»، وقال ابن أبي العز رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الخالق عز وجل: «لم يزل متصفًا بصفات الكمال: صفات الذات، وصفات الفعل، ولا يجوز أن يعتقد أن الله وصف بصفة بعد أن لم يكن متصفا بها، لأن صفاته سبحانه صفات كمال، وفقدها صفة نقص، ولا يجوز أن يكون قد حصل له الكمال بعد أن كان متصفًا بضده»(٢).

فتبيّن أن صفة الأولية والآخرية في الصفات إنما هي للخالق دون المخلوق؛ فسبحانه لم يزل ولا يزال متصفًا بصفات الكمال، سواء صفات الذات، أو صفات الفعل، فعلمه أول، ورحمته أولىٰ، وخلقه كذلك أول، فاتصف بصفات الكمال قبل أن يخلق الخلق، وهو آخر في صفاته فلا تفنىٰ ولا تبيد، ولا يمكن أن يأتي زمن فينتهي شيء من صفاته مطلقًا، لم يكن في زمن ولن يأتي زمن وهو معطّل عن الصفات، فكما أن ذاته أولية أزلية أبدية لا تفنىٰ، فكذلك

(١) انظر: جامع المسائل، لابن تيمية، ج١، ص٥٥، وشرح الطحاوية، لابن أبي العز، ص ٨٩، ٩٠، وأسماء الله الحسنىٰ الثابتة في الكتاب والسنة، للرضواني، ص ١٢٢.

(٢) شرح الطحاوية، ابن أبي العز، ص٩٦.

صفاته أولية أزلية أبدية لا تفنىٰ[1].

وأما المخلوق فلا نقول عنه عالمًا إلا بعد أن يتعلم العلم ويزول عنه الجهل، ولا نقول عنه خبيرًا إلا بعد أن تتكون لديه الخبرة، ولا نقول عنه ملكًا إلا بعد أن يتمكن من الملك وتظهر عزته، ولا نقول عنه حكيمًا إلا بعد أن تظهر منه أفعال حكيمة، قد توجد فيه صفة نقص ثم يرتقي ويتخلىٰ عنها إلىٰ صفة كمال، هذا في المخلوق؛ لكن الخالق لا يمكن أن يعتريه نقص ثم يكمل؛ بل صفات الكمال فيه أولية[2].

فظهر مما سبق أن الخالق يفارق المخلوق في الصفات، من جهة أن صفات الخالق لها الكمال المطلق وقد تنزهت عن النقص بوجه من الوجوه، وأما المخلوق فصفاته ناقصة وما فيه من الكمال هو نسبي ومحدود، وكذلك فإن صفات الخالق متلازمة فكل صفاته كمال وهي ملازمة لصفات كمال أيضًا، وأما المخلوق فلا يلزم من وصفه بصفة كمال أن يتصف بغيرها من صفات الكمال، بل يلزم من صفاته النقص، وصفات الخالق يتصف بها من غير حاجة، والمخلوق صفاته علىٰ وجه الحاجة، وصفات الخالق أولية آخرية، وصفات المخلوق مسبوقة بعدم فهي محدثة، ويلحقها الضعف والفناء، إلىٰ غير ذلك من أوجه الفروقات، وما ذكرنا هو جزء يسير وإلا فالفارق عظيم، وما قدر العباد خالقهم حق قدره.

وبعد أن بينّا أنواع الفارق بين الخالق والمخلوق وأنه شامل للفرق في الذات والصفات والأسماء، وذكرنا أمثلة علىٰ ذلك قد يسأل أحدهم، إذا كان الفارق بين الخالق والمخلوق عظيم، وأوجهه كثيرة، ولا حصر لهذا الفرق، فهل أتت النصوص تبين وتقرر هذا المعنىٰ العظيم، وهل حذّر الخالق عباده من تعظيم المخلوق ومساواته بالخالق في صفاته؟

هذا ما سيظهر بإذن الله في الفصل التالي، والذي سنتكلم فيه عن الأدلة النقلية والعقلية الدالة علىٰ الفارق بين الخالق والمخلوق.

---

(١) انظر: الصفات الإلهية، للجامي، ص ٢٠٦، والوافي في اختصار شرح الطحاوية، لمهدي الشّمري، ص٣٣،

(٢) انظر: أسماء الله الحسنىٰ الثابتة في الكتاب والسنة، لمحمود الرضواني، ص ٩٩.

الفصل الثاني

أنواع الأدلة على الفارق بين الخالق والمخلوق

وفيه تمهيد ومبحثان:

التمهيـــــــد:

المبحـــث الأول: **الأدلة النقلية على الفارق بين الخالق والمخلوق.**

المبحـث الثــاني: **الأدلة العقلية على الفارق بين الخالق والمخلوق.**

تمهيد

الخالق سبحانه وتعالىٰ كما قال الإمام أبو حنيفة في الفقه الأكبر: «صفاته كلها في الأزل بخلاف صفات المخلوقين، يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرىٰ لا كرؤيتنا، ويتكلم لا ككلامنا»[(١)]، وكما قال نعيم بن حماد[(٢)] رَحِمَهُ اللَّهُ: «من شبه الله بشيء من خلقه، فقد كفر، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه، فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه»[(٣)]، فالفارق بين الخالق والمخلوق عظيم.

ولا يحصل هذا التفريق بين الأمور المختلفة والمتباينة إلا بنور يقذفه الله في قلب العبد يمكنه به أن يرىٰ حقائق الأمور، ويميّز بين الحق والباطل والصحيح والسقيم،[(٤)] وإن أعظم ما يُستجلب به هذا النور هو التدّبر في كتاب الله، واتباع ما جاء فيه؛ وكلما عَظُم اتباع العبد لكتاب الله استطاع أن يرىٰ هذا الفرق ويقرره بسهولة ويسر، وكلما بعد عن الاتباع لكتاب الله اشتبه عليه الحق بالباطل حتىٰ يشتبه عليه الخالق بالمخلوق، تعالىٰ الله عن ذلك علوًا كبيرًا[(٥)].

وقد تعددت الأدلة من كتاب الله لتقرير الفارق بين الخالق والمخلوق، وكذلك الأدلة العقليّة، وربما نقول الفطرية والحسيّة أيضًا.

وفي هذا الفصل سنذكر طرفًا منها للدلالة علىٰ الفرق بين الخالق والمخلوق بصورة

---

(١) شرح كتاب الفقه الأكبر لأبي حنيفة، القاري، ص ٣٠، ٣١.

(٢) أبو عبد الله نعيم بن حماد بن معاوية الخزاعي، المروزي، منهم من وثقه، والأكثر منهم ضعفه، أول من جمع " المسند " في الحديث. كان من أعلم الناس بالفرائض، من كتبه "الفتن والملاحم"، وله كتب في الرد علىٰ الجهمية، مات سنة ثمان وعشرين ومائتين، المرجع: سير أعلام النبلاء، ج١٠، ص٥٩٥، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٣، ص١٣٣، والأعلام للزركلي، ج٨، ص٤٠.

(٣) شرح الطحاوية، ابن أبي العز، ص ٨٥.

(٤) انظر: الروح، ابن القيم، ص٥٧٥.

(٥) انظر: مجموع الفتاوىٰ، ابن تيمية، ج١٣، ص٦.

إجمالية، وأما الأدلة التي تدل على الفرق في صفة بعينها كالعلم، والغنى، والقدرة، ونحو ذلك فمثل هذا أدلته كثيرة جدًا وموطن ذكرها في الباب الثاني ـ إن شاء الله.

المبحث الأول

الأدلة النقلية على الفارق بين الخالق والمخلوق

جاءت أدلة عديدة تقرر الفارق بين الخالق والمخلوق، ولها صور متنوعة:

ـ فقد يُقَرر الفارق بإثبات انتفاء المثيل والندّ والعدل والسّمي والكفؤ ونحو هذه المعاني عن الخالق، وانتفاء المثيل يكون في الذات أو الأسماء أو الصفات أو الأفعال، فانتفاؤه دليل علىٰ ثبوت الفارق بين الخالق والمخلوق؛ لأن الشيئين المتماثلين هما ما قد انتفىٰ بينهما الفارق، فإذا ثبت فارق بينهما لم يتساويا ولم يتماثلا.

- وقد يُقَرر الفارق بإثبات صفات الكمال المطلق للخالق وانفراده بها، سواء كان الكمال في الذات أو الأسماء أو الصفات أو الأفعال، فثبوتها وانفراده بها دليل علىٰ ثبوت الفارق بين الخالق والمخلوق؛ لأنه لو انتفىٰ الفارق بين شيئين لم يكن لأحدهما الانفراد بالكمال، وإنما يكون التفرد لوجود الفارق.

- وقد يُقَرر الفارق بإثبات انتفاء النقص مطلقًا عن الخالق، سواء كان في الذات أو الصفات أو الأسماء أو الأفعال، فانتفاؤها دليل علىٰ ثبوت الفارق بين الخالق والمخلوق؛ لأن المخلوق قد عُلم بالضرورة نقصه، فمتىٰ أثبتنا للخالق انتفاء النقص مطلقًا عنه، ثبت وجود الفارق بينه وبين المخلوق.

- وقد يُقرر بإبطال التسوية بين الخالق والمخلوق في العبادة، والمتضمن لإثبات الفارق في الصفات؛ لأن كمال الصفات هي الموجبة لاستحقاق العبادة، فإذا ثبت بطلان مساواة الخالق بالمخلوق في استحقاق العبادة لم يكن هذا إلا لوجود فرق بينهما في الصفات.

وقد يُقَرر بطرق أخرىٰ، والمقصود واحد وهو إثبات الفارق بين الخالق والمخلوق، سواء كان في الذات أو الأسماء أو الصفات أو الأفعال، ومن الأدلة التي قررت ذلك:

١ ــ قوله تعالىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في هذه الآية: «هل تعلم للرب مثلًا أو شبهًا»[1]، فانتفاء المثيل والشبيه دلّ عليه العقل[2]؛ لأنه الرب وغيره مربوب، وهو الخالق سبحانه وغيره مخلوق، وهو الغني بالذات ومن جميع الوجوه وغيره فقير بالذات من كل وجه، وأما المخلوق فهو ناقص ليس فيه من الكمال إلا ما وهبه له خالقه[3]، ذكر الشيخ السعدي: في هذه الآية أنها قد دلت «علىٰ أن الله تعالىٰ كامل الأسماء والصفات، عظيم النعوت، جليل القدر وليس له في ذلك شبيه ولا نظير ولا سمي بل قد تفرد بالكمال المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات»[4]، فانتفاء السّمي للخالق وهو المثيل والشبيه كما قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وثبوت تفرده سبحانه بالكمال المطلق دليل علىٰ ثبوت الفارق بين الخالق والمخلوق.

وقوله: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ أبلغ من أن يقول: لا سمي له؛ لأن النفي بصيغة الاستفهام مشرب معنىٰ التحدي كأني أقول لو كنت صادقًا فأت بمثيل للخالق[5]، وإذا لم يكن له مثيل فهذا يدل علىٰ الفارق بينه وبين المخلوق.

٢ ــ قوله تعالىٰ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

أثنىٰ الخالق سبحانه وتعالىٰ علىٰ نفسه بصفات الكمال والجلال عامة، وعلىٰ خلقه السموات والأرض والظلمات والنّور خاصة، وفي هذا دلالة علىٰ استحقاقه للعبادة

(١) أخرجه السيوطي، في الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ج١٠، ص١٠٨، وابن جرير الطبري، في جامع البيان في تأويل القرآن، ج١٥، ص٥٨٥.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، لابن عطية، ج٩، ص٥٠٤، وفتح القدير، للشوكاني،، ج ٣، ص٤١٩، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٤٩٨.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٤٩٨.

(٤) المواهب الربانية من الآيات القرآنية، للسعدي، ص ٦٠.

(٥) انظر: شرح الواسطية، لابن عثيمين، ج١، ص١٢٨.

وإخلاص الدين له سبحانه؛ لكن مع وضوح هذا الأمر، إلا أن الذين كفروا يعدلون بالخالق غيره من المخلوقين، فيسوّن بينهما في العبادة والتعظيم، مع أن هذه المعبودات لا تساوي الخالق في شيء من الكمال فهو كامل من كل وجه وهم ناقصون من كل وجه[1]، قال الإمام ابن القيم: «أي يعدلون به غيره، فيجعلون له من خلقه عدلًا وشبهًا... يقال: عدَل الشيء بالشيء، إذا سوّاه به، ومعنىٰ يعدلون به: يشركون به غيره.

قال مجاهد: قال الأحمر[2]: يقال: عدل الكافر بربه عدلًا. وعدولًا، إذا سوّىٰ به غيره فعبده. وقال الكسائي[3]: عدلت الشيء بالشيء أعدِله عدولًا إذا ساويته به»[4].

فأنكر الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ هذه المساواة بينه وبين المخلوق وعدم التفريق بينهما حتىٰ جُعل ندًا له وعدلًا له يُعبد كما يُعبد الخالق، وهو أصل عبادة الأصنام[5]، فإنكاره ـ تعالىٰ ـ علىٰ أهل الكفر تسويتهم بين الخالق والمخلوق في العبادة، متضمن لإنكار التسوية في الصفات؛ لأنه أصل عبادتهم فما سوّوا بين الخالق والمخلوق في العبادة إلا لاعتقادهم المساواة في بعض الصفات، وهذا دليل علىٰ ثبوت الفارق بين الخالق والمخلوق.

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٢٥٠.

(٢) أبو الحسن علي بن المبارك، وقيل: علي بن الحسين، تلميذ الكسائي، قال ثعلب: كان الاحمر يحفظ سوىٰ ما يحفظ أربعين ألف بيت شاهدا في النحو، وقيل: كان شابًا من رجالة باب الخلافة، وكان يتوقد ذكاء، فرأىٰ الكسائي يدخل ويخرج، فلزمه إلىٰ أن برع، فندبه لتعليم أولاد الرشيد نيابة عن نفسه. قيل: مات سنة أربع وتسعين ومئة. المرجع: سير أعلام النبلاء، ج٩، ص٩٢.

(٣) أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله بن فيروز الأسدي مولاهم، الكوفي، الملقب: بالكسائي؛ لكساء أحرم فيه، قال الشافعي: من أراد أن يتبحر في النحو، فهو عيال علىٰ الكسائي، له عدة تصانيف، منها: (معاني القرآن)، وكتاب (النوادر الكبير)، كان الكسائي ذا منزلة رفيعة عند الرشيد، وأدب ولده الأمين، مات سنة تسع وثمانين ومائة. المرجع: سير أعلام النبلاء، ج٩، ص١٣١، والأعلام للزركلي، ج٤، ص٢٨٣.

(٤) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لابن القيم، ج٢، ٣٢٦، ٣٢٧، "بتصرّف".

(٥) انظر: المرجع السابق، ج٢، ص٣٢٦.

٣ ـ قوله تعالىٰ: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

الآية صريحة في نفي المثل عن الخالق، قال الدارمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ونحن نقول كما قال ابن عباس ليس لله مثل ولا شبه ولا كمثله شيء، ولا كصفاته صفة»(١).

وقال الإمام الذهبي(٢): «اعلم أن الله تعالىٰ لا مثيل له بوجه من الوجوه، فمن شبه الله بخلقه فقد كفر، وخاب، وخسر، ولا يلزم من ذلك ان ننفي عنه صفاته المقدسة؛ فهو الإله العظيم المنعوت بما وصف به نفسه علىٰ ألسنة رسله عليهم السلام»(٣).

فدلت الآية علىٰ أن الخالق لا أحد يشبهه أو يماثله من الخلق، سواء في ذاته أو أسمائه أو صفاته أو أفعاله، أما أسماؤه فهي حسنىٰ بالغة في الحسن منتهاه، وأما صفاته فهي صفات كمال وعظمة، وأما أفعاله فلا يوجد من يشاركه فيها؛ ولذا فالخالق يفارق المخلوق ويباينه من كل وجه لتفرده وتوحده سبحانه بالكمال المطلق(٤)، ولانتفاء المثيل والنظير له ـ سبحانه.

٤ ـ قوله تعالىٰ ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧].

في الآيات ذكر لعدد من صفات الخالق وأفعاله ونعمه، قال تعالىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) رد الدارمي عثمان بن سعيد علىٰ بشر المريسي، ص ٢٠٨.

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن الذهبي، الشافعي، لقي العديد من الشيوخ والشيخات، وأصيب بالشّره في سماعه وقراءته، تصانيفه كبيرة كثيرة تقارب المئة، منها "ميزان الاعتدال" " طبقات الحفاظ" " سير اعلام النبلاء"، وتوفي يوم الاثنين الثالث من ذي القعدة سنة ثمان وأربعين وسبعمائة بدمشق، المرجع: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج١، ص٦١، وطبقات الشافعية الكبرىٰ للسبكي، ج٩، ص١٠٢، والأعلام للزركلي، ج٥، ص٣٢٦، ومعجم المؤلفين، ج٨، ص٢٨٩.

(٣) الأربعين في صفات رب العالمين، للذهبي، ص ١٦٥.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٧٥٤.

وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾، إلىٰ آخر الآيات ثم ختم ذلك بقوله: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل:٣- ١٧]، فأنكر الله علىٰ المشركين الذين يشركون به غيره من الخلق، فلم يفرّقوا بين من خلق كل شيء، ومنها هذه المخلوقات العجيبة، وتوالت نعمه العظيمة، وهو الخالق سبحانه وبين من لا يخلق شيئًا ولا ينعم بصغير ولا كبير، وهو المخلوق مع أن التفريق بينهما أمر مستقر في الفطر والعقول، وفي هذا تبكيت لأهل الشرك وإبطال لشركهم به سبحانه وبيان لعظم جهلهم وقليل شكرهم(١).

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والآيات: في مثل ذلك كثيرة، ومعلوم أن تسوية ما لا يضر ولا ينفع ولا يقدر علىٰ شيء، مع من بيده الخير كله المتصرف بكل ما شاء، لا تصدر إلا ممن لا عقل له، كما قال تعالىٰ عن أصحاب ذلك: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الملك: ١٠]»(٢).

والمعنىٰ أنه إذا كان هذا خالقًا وهذا مخلوق فلا بد أن يكونا غير متساويين ولا متماثلين، وهذا يقتضي أن يكون بينهما فرق في الذات والصفات والأفعال إذ أحدهما كامل، والآخر ناقص؛ فمن لم يفرق بينهما فقد خالف العقل والفطرة.

٥ ــ وقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص: ١ـ ٤].

---

(١) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري، ج١٤، ص ١٩٤، وشفاء العليل، لابن القيم، ص ٤٥٨، ٤٥٩، ومحاسن التأويل، للقاسمي، ج١٠، ص٥١٠.

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي، ج٢، ص٣٦٠.

هذه السورة دلّت علىٰ ثبوت الفارق بين الخالق والمخلوق في ثلاثة مواطن:

١ ـ في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، أي: الواحد الذي لا شبيه ولا نظير ولا مثيل ولا عديل له ـ سبحانه؛ فالأحدية منحصرة فيه، قد انفرد بالكمال في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله[١]، فهو أحد متفرد في كماله، وهو أحد لا مثيل له ولا شبيه، وهذا دليل علىٰ ثبوت الفارق بين الخالق والمخلوق في كل شيء.

٢ ـ في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، قال أبي بن كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، «لم يكن له شبيه ولا عدل وليس كمثله شيء»[٢]، أي: لا يوجد من المخلوقين من هو كفء للخالق أو يساوي الخالق، لا في أسمائه، ولا صفاته ولا أفعاله سبحانه ولا ذاته[٣]، فانتفاء الكفء وهو المثيل والشبيه، دليل علىٰ ثبوت الفارق بين الخالق والمخلوق في كل شيء.

٣ ـ في قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾، وهذا يتضمن ثبوت جميع صفات الكمال للخالق، وانتفاء جميع النقائص عنه، كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية[٤]، وهذا دليل علىٰ ثبوت الفارق بين الخالق والمخلوق في كل شيء، فنزه نفسه عن النقائص، وأثبت تفرده بالكمال المطلق، ونفىٰ عن نفسه المثيل والنظير، وكل هذه الدلائل تثبت الفارق العظيم بين الخالق والمخلوق.

---

(١) انظر: تفسير البحر المحيط، لأبو حيان، ج٨، ص ٥٢٩، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٤، ص ٦٠٧، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج٢٠، ص٢٢٥، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٩٣٧.

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب التفسير، سورة الإخلاص، رقم الحديث٣٣٦٤، ص٧٦٣، وحسنه الألباني دون قوله (والصمد الذي...).

(٣) انظر: اللباب في علوم الكتاب، لعمر بن علي الدمشقي، ج٢٠، ص ٥٦٥، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٩٣٧.

(٤) انظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج١٧، ص٣٢٥.

٦ ــ قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

في هذه الآية ينهىٰ الله ــ سبحانه وتعالىٰ ــ عن عدم التفريق بين الخالق والمخلوق، فيُجعل المخلوق ندًا للخالق، والندّ: هو العِدل والمِثل، ومن كان نظيرًا لشيء وشبيهًا له فهو ندّ له[(١)].

ثم قال: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أي: تعلمون بعقولكم بطلان ذلك، وتعلمون الفارق بين الخالق والمخلوق، وتعلمون أن هذه المخلوقات لا يمكن أن تكون أندادًا للخالق، وأنه وحده الخالق لجميع الأشياء، وأنه لا يوجد له مثيل ولا نظير في صفاته وأفعاله؛ فكيف تعبدون غيره، فهذا من أسفه السفه، وأعجب العجب[(٢)]، فانتفاء النّد للخالق، وهو المثيل والشبيه، دليل علىٰ ثبوت الفارق بين الخالق والمخلوق.

٧ ـ قوله تعالىٰ: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠]، وكذا قوله تعالىٰ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

بينت الآيات أن النقص والعيب التام والوصف السيئ إنما ينسب لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة، وأما الخالق فله المثل الأعلىٰ المقدس وهو الأفضل والأطيب والأحسن والأجمل، حيث يوصف بالكمال المطلق من كل وجه، فكل صفات الجلال والكمال منسوبة إليه، فلا يوصف بمثيل أو نظير، وليس كمثله شيء فلا إله إلا هو وحده لا شريك له[(٣)]، فالمثل

(١) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري، ج١، ص٣٩١.

(٢) انظر: فتح البيان في مقاصد القرآن، للقنوجي، ج١، ص ٧٨، وارشاد العقل السليم، لأبو السعود، ج١، ص ٦٢، ٦٣، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٤٥.

(٣) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري، ج١٨، ص ٤٨٨، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج ٢، ص٦٣١، ومعالم التنزيل، للبغوي، ج٢، ص٦٢٠، واللباب في علوم الكتاب، لعمر بن علي الدمشقي، =

الأعلىٰ هو الوصف الأعلىٰ والأرفع من العزة والحكمة، وكل صفات الكمال والجلال والجمال التي لا يكون لغيره من المخلوقين ما يساويها ولا ما يقاربها[1]، فلا شبيه ولا ندّ ولا مثيل له[2]، كما قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أنه ليس كمثله شيء»[3].

والمقصود أنه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ فرّق بينه وبين المخلوقين في الصفات بإثبات المثل الأعلىٰ له حيث إن من له المثل الأعلىٰ لا يمكن لمخلوق أن يماثله، بل لا بد أن يكون هناك فرق بينه وبين غيره، ومن لم يثبت له المثل الأعلىٰ جاز أن يماثل غيره وانتفىٰ الفارق بينهما، قال الإمام ابن القيم: «يستحيل أن يشترك في المثل الأعلىٰ اثنان، لأنهما إن تكافآ لم يكن أحدهما أعلىٰ من الآخر، وإن لم يتكافآ فالموصوف بالمثل الأعلىٰ أحدهما وحده، يستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلىٰ، مثل، أو نظير، وهذا برهان قاطع من إثبات صفات الكمال علىٰ استحالة التمثيل والتشبيه، فتأمله، فإنه في غاية الظهور، والقوة، ونظير هذا القهر المطلق، مع الوحدة، فإنهما متلازمان فلا يكون القهار إلا واحدًا، إذ لو كان معه كفء له، فإن لم يقهره لم يكن قهارًا علىٰ الإطلاق، وإن قهره لم يكن كفؤا، وكان القهار واحدًا»[4]، فإثبات انفراد الخالق بالمثل الأعلىٰ وهو الوصف الأعلىٰ في كل صفات الكمال، دليل علىٰ ثبوت الفارق بين الخالق والمخلوق.

وكما تعبد الخالق عباده ألا يضربوا له الأمثال، تعبّدهم كذلك أن يجعلوا له المثل الأعلىٰ، وهو الصفة العليا[5]، فوجب علىٰ العباد إثبات الفارق بين الخالق والمخلوق.

=

ج١٢، ص٩٢، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٤٤٣.

(١) انظر: تفسير البحر المحيط، لأبو حيان، ج٧، ص١٦٥، وفتح البيان في مقاصد القرآن، للقنوجي، ج ٥، ص٢٧١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العزيز، لابن أبي زمنين، ج٣، ص٣٦٠.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان في تأويل القرآن، ج١٨، ص ٤٨٨.

(٤) الصواعق المرسلة، لابن القيم، ج ٣، ص ١٠٣٢.

(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٦٤٠، وإخلاص العبودية للعزيز الحكيم، لسيد سعيد

=

ثم ختم الآية بقوله ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤] أي من لا يغلبه أحد ولا يضره أن ينسبوا إليه النقص وهو أيضًا ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في كل أفعاله وأقواله(١)، فلو لم يثبتوا الفارق بين الخالق والمخلوق، فسووه بغيره ونسبوا له النقص، لم يضره ذلك.

٩ ــ وقال تعالىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٣، ٧٤].

في هذه الآية أيضًا يثبت الخالق الفرق بينه وبين المخلوقين؛ وذلك بوصف المخلوق بالنقص والعجز والضعف، ثم ينهىٰ عن ضرب الأمثال له، والتي تؤدي إلىٰ تشبيه الخالق الكامل بالمخلوق الناقص، فكل مثل يقتضي تشبيهًا بالمخلوق أو نقصًا للخالق، لا يصح أن يضرب له سبحانه فهو لا ندّ له ولا مثيل له(٢).

فتعظيم الخالق والتفريق بينه وبين المخلوق من أعلىٰ مقامات التوحيد والعبودية حيث نهانا أن نضرب له الأمثال الموجبة للتشبيه والتنقص(٣)، والعلّة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾ قبح وجرم ما تفعلون حين تضربون له هذه الأمثال، وأما أنتم فلا تعلمون ذلك(٤)، فهل هناك أشدّ جرمًا من تشبيه الخالق الكامل بالمخلوق الناقص، وعدم التفريق بينهما؟ ولذا وجب الامتناع عن ضرب هذه الأمثال علىٰ الخالق، والتي تقتضي عدم التفريق بين الخالق والمخلوق.

والمقصود من الدليل النهي عن ضرب الأمثال المؤدية للتشبيه بالمخلوق أو التنقص في حق الخالق؛ لأنه متفرد بالكمال منتفىٰ عنه المثيل والشبيه، وكلاهما دليل علىٰ ثبوت الفارق

=

عبد الغني، ص٩٣، ٩٦.

(١) انظر: فتح القدير، للشوكاني، ج٤، ص٢٦٦، ج٣، ص٢٠٥.

(٢) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري، ج١٤، ص ٣٠٥، والجامع لأحكام القران، للقرطبي، ج١٠، ص١٣٠.

(٣) انظر: إخلاص العبودية للعزيز الحكيم، لسيد سعيد عبد الغني، ص٩٣.

(٤) انظر: إرشاد العقل السليم، لأبو السعود، ج٥، ص ١٢٩.

بين الخالق والمخلوق.

١٠ ـ قال تعالىٰ: ﴿ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء:٩٧، ٩٨].

يخبر ـ سبحانه وتعالىٰ ـ عن أهل الشرك حين يدخلون النار بسبب شركهم وكيف يختصمون مع آلهتهم التي عبدوها مع الله فيصفون أنفسهم بغاية الجهل والظلم حين شركوا بينهما في المحبة والخضوع والتأله وغير ذلك من معاني العبودية، وهذا من أعظم السفه؛ لأنهم لم يفرقوا بين الخالق والمخلوق «فكيف يسوّىٰ من خلق من التراب برب الأرباب؟ وكيف يسوىٰ العبيد بمالك الرقاب؟ وكيف يسوىٰ الفقير بالذات، الضعيف بالذات، العاجز بالذات، المحتاج بالذات، الذي ليس له من ذاته إلا العدم ـ بالغنيّ بالذات، القادر بالذات، الذي غناه وقدرته وملكه وجوده وإحسانه وعلمه ورحمته، وكماله المطلق التام من لوازم ذاته؟ فأيّ ظلم أقبح من هذا؟ وأيّ حكم أشدّ جوراً منه؟ حيث عدل من لا عدل له بخلقه»(١).

فبطلان التسوية بين الخالق والمخلوق في العبادة، متضمن لبطلان التسوية بينهما في الصفات، وهذا يقتضي إثبات الفارق بين الخالق والمخلوق في الصفات.

١١ ـ ومن الأدلة أيضًا علىٰ وجود الفارق بين الخالق والمخلوق الأدلة المتضمنة لفظة "التسبيح"، وقد ورد في كتاب الله في أكثر من ثمانين مرة وبعدة صيغ(٢)، وهذا اللفظ يدل علىٰ البعد والتنزيه(٣)، قال تعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وقال: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ [الحجر: ٩٨]، وقال: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة: ٧٤]، وجاء في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «**كلمتان**

(١) محاسن التأويل، لمحمد القاسمي، ج٢، ص٣٣٥.

(٢) انظر: مقالة التشبيه وموقف أهل السنة منها، لجابر بن إدريس أمير، ص ٤٢٤.

(٣) انظر: تهذيب اللغة، للأزهري، ج٤، ص ٣٣٧، ٣٣٨.

خفيفتان علىٰ اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلىٰ الرحمن: سبحان الله العظيم، سبحان الله وبحمده»[1]، فقرن التسبيح باسمه العظيم ليدل علىٰ تنزيهه عما لا يليق به تعالىٰ وإثبات ما يليق به، حيث العظمة تستلزم نفي المثيل عنه وإثبات الفرق بينه وبين المخلوق، وأما اقتران التسبيح بالحمد فللدلالة علىٰ ثبوت الكمال للخالق[2].

فالتسبيح حين يقترن بالتعظيم يدل علىٰ نفي المثيل والشبيه للخالق، وهذا دليل علىٰ ثبوت الفارق بين الخالق والمخلوق، وكذلك حين يقترن بالحمد، يدل علىٰ ثبوت الكمال للخالق وتفرده به، وهذا دليل علىٰ ثبوت الفارق بين الخالق والمخلوق.

١٢ ـ ومن الأدلة علىٰ ثبوت الفارق بين الخالق والمخلوق أسماء الله الحسنىٰ، فقد سمّىٰ الله نفسه المقدّسة بأسماء كثيرة تدلّ علىٰ تفرّده المطلق بما ثبت له من الخصائص والصّفات، وانتفاء المثيل والشبيه له وهذا يقتضي ثبوت الفارق بين الخالق والمخلوق، ومنها:

أ ـ «الواحد، والأحد»: وهي تعني تفرده بمعاني الكمال؛ فليس له مثيل في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، والفرق بين الواحد والأحد عند الاقتران، أن الواحد تدل علىٰ نفي النظير والشبيه في الذات، وأما الأحد فتدل علىٰ نفي النظير والشبيه في المعاني، وعند الانفراد فإن كل اسم يشمل المعنيين جميعًا[3]، فاسم الواحد والأحد، دلت علىٰ نفي الشبيه والنظير للخالق في كل شيء، وعلىٰ تفرده بمعاني الكمال، وهو دليل علىٰ ثبوت الفارق بين الخالق والمخلوق.

ب ـ «العزيز»: أي الّذي لا مثيل له ولا نظير، فالعزيز هو النادر الذي لا يوجد له مِثْل، يقال: عزّ الشيء إذا قلّ فلا يكاد يوجد، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت:

(١) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح، رقم الحديث٦٤٠٦، ص١٢٣٠.

(٢) انظر: فتح الباري، لابن حجر، ج١٣، ص ٦٧٥.

(٣) انظر: دلالة الأسماء الحسنىٰ علىٰ التنزيه، لعيسىٰ السعدي، ص ١٦٣

٤١]؛ أي كتاب يستحيل وجود مثيل له[١]، فدلّ الاسم علىٰ انتفاء المثيل والشبيه وهذا دليل علىٰ ثبوت الفارق بين الخالق والمخلوق.

ج ـ «**القهّار**»: أي الواحد الَّذي لا ندّ له ولا مثيل ولا شبيه، فالقهر ملازم للوحدة، فلا يمكن لغيره أن يساويه في القهر أبدًا، بل هو القهّار لغيره علىٰ الإطلاق، ولذا كان واحدًا لا نظير ولا شبيه له[٢]، وهذا يقتضي ثبوت الفارق بين الخالق والمخلوق.

د ـ «**المتكبّر**»: ومعناه العظيم الذي قد تعالىٰ عن صفات الخلق، والتاء في اسم المتكبّر دالة علىٰ التفرّد، والاختصاص، وقد يفسر علىٰ وجه العموم فيعمّ جميع النّقائص والعيوب؛ أي: المتعالي عن مشابهة ومماثلة الخلق في ذواتهم وصفاتهم، ومتعالي عن جميع النّقائص والعيوب[٣]، وحين يثبت هذا المعنىٰ في اسمه المتكبر فإنه يدل علىٰ ثبوت الفارق العظيم بين الخالق والمخلوق.

هـ ـ «**اللّطيف**»: «فقد فسّر بالَّذي لطف عن أن يدرك بالكيفيّة، وهذا التّفسير يتضمّن التّنزيه عن وجود المثل؛ لأنّ إدراك الكيفيّة إنّما يكون بمعرفة الذات، أو بمعرفة النّظير المماثل؛ فإذا تعذّر إدراك الكيفيّة علىٰ الخلق جميعًا كان ذلك دليلاً علىٰ انتفاء معرفتهم بحقيقة الذات، وعلىٰ عدم النّظير المماثل الَّذي تعتبر ذات الخالق بذاته، وصفاته بصفاته»[٤]، وثبوت انتفاء المثيل دليل علىٰ ثبوت الفارق بين الخالق والمخلوق.

«وإلىٰ جانب هذه الأسماء فإنّ هناك نوعان آخران من الأسماء الحسنىٰ يدلاّن علىٰ بطلان التّمثيل، وعلىٰ تفرّد الربّ المطلق بماله من الصّفات؛ أحدهما: أسماء التّقديس الدالّة علىٰ التّنزيه المطلق؛ كالقدّوس، والسّلام، والسبوّح؛ فإنها تدلّ علىٰ سلامة الربّ، وطهارته،

---

(١) انظر: دلالة الأسماء الحسنىٰ علىٰ التنزيه، لعيسىٰ السعدي، ص ١٦٣

(٢) انظر المرجع السابق.

(٣) انظر المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق.

ومباعدته عن كلّ عيب، أو نقص، وعن أن يكون له كفء في ذاته، أو صفاته، أو أفعاله.

والثّاني: أسماء التّمجيد، الَّتي تدلّ علىٰ جميع صفات الكمال؛ كالصّمد، والمجيد، والعظيم، والواسع، والأعلىٰ؛ فإنّ هذه الأسماء تنافي جميع النّقائص؛ لأنّ ثبوت الكمال يستلزم نفي ضدّه، وما يستلزم ضدّه؛ وتنافي أيضًا وجود المثل والكفء؛ لأنّ اتّصاف الربّ بأعلىٰ صفات الكمال يستحيل معه وجود المثل؛ لأنهما إن تماثلا ارتفع الكمال عنهما معًا، وإن لم يتماثلا فالكمال الأعلىٰ لأحدهما وحده»(١)، فإذا ثبت من هذين النوعين انتفاء المثيل عن الخالق، وتنزيهه عن النقص من كل وجه، وثبوت تفرد الخالق بصفات الكمال، فإنها تدل حينئذٍ علىٰ ثبوت الفارق بين الخالق والمخلوق.

والأدلة في تقرير الفارق بين الخالق والمخلوق متعددة، وليست قاصرة علىٰ ما ذكرنا، ولكنّا اكتفينا بما سبق من الأدلة النقلية وستتكلم في المبحث التالي عن الأدلة الأخرىٰ.

---

(١) دلالة الأسماء الحسنىٰ علىٰ التنزيه، لعيسىٰ السعدي، ص ١٦٣.

المبحث الثاني

الأدلة العقلية على الفارق بين الخالق والمخلوق

الأدلة العقلية لها مكانتها ومنزلتها في الإسلام، فالقرآن قد أعاد وكرّر من الأدلة العقلية وطلب من بني آدم أن يتفكروا ويتدبروا فيها فيقودهم هذا لأن يحجموا عن الخطأ ويلزموا الصواب، ومنه سُمّي العقل عقلًا؛ لأنه يعقل صاحبه عن الخطأ، ومن ذلك الآيات التي في سورة النّحل حيث دعانا الخالق ـ عز وجل ـ لأن نتفكر ونتدبر في هذا الخلق وهذه النعم التي من حولنا، ثم جعله دليلًا عقليًا على الفارق بين الخالق والمخلوق فقال تعالىٰ: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٧].

وكما ثبت الفارق بين الخالق والمخلوق بالسّمع؛ لأنّه أحد ليس له كفء ولا سميّ ولا ندّ ولا نظير، وليس كمثله شيء؛ ولأنّه قد تفرد بكمال الصفات؛ ولأنّه قد انتفت النقائص في حقه مطلقًا، فقد ثبت بالعقل أيضًا هذا الفارق.

ومن الأدلة العقلية الدالة علىٰ الفارق بين الخالق والمخلوق ما يلي:

١ ـ دلّ العقل الصريح علىٰ أنّه لو لم يكن هناك فرق بين الخالق والمخلوق للزم أن يجوز علىٰ كل منهما ما يجوز علىٰ الآخر، ويمتنع علىٰ كل منهما ما يمتنع علىٰ الآخر، ويجب لكل منهما ما يجب للآخر، لكن الخالق واجب الوجود والقِدَم، والمخلوق غير واجب الوجود والقِدَم بل يستحيل عليه ذلك، والواجب له الحدوث والإمكان، ومن المعلوم كذلك أن أحدهما خالق غني، والآخر مخلوق فقير، ولو لم يكن بينهما فرق لكان كلاهما واجب الوجود والقدم، واجب الحدوث والإمكان، خالقًا مخلوقًا غني فقير، فيكون كل منهما واجب القدم غير واجب القدم، واجب الوجود غير واجب الوجود، خالقًا غير خالق غني غير غني، وهذا جمع بين النقيضين(١).

(١) انظر: شرح العقيدة الأصبهانية، لابن تيمية، ص٣٥، وشرح الطحاوية، لابن أبي العز، ص ٦١، ٦٢، ٦٣.

٢ ـ أن الاختصاص موجب للفرق بين الخالق والمخلوق فاختصاص الخالق بصفاته مانع من أن يشركه أحد فيها، واختصاص المخلوق بصفاته مانع من أن يشركه أحد فيها؛ إذ إن الخالق والمخلوق لو اشتركا في شيء من الخصائص لجاز على أحدهما ما يجوز على الآخر، ووجب له ما يجب على الآخر، وامتنع عنه ما امتنع عن الآخر، وهذا ممتنع عقلًا؛ لأنه جمع بين النقيضين(١).

٣ ـ من الأدلة العقلية كذلك أن صفات المخلوق كلها صفات نقص، إما نقص محض أو نقص نسبيّ، وأما الخالق فصفاته كلها صفات كمال منزه عن صفات النقص، ولو لم يكن هناك فرق للزم أن يوصف الخالق بصفات النقص فعدم إثبات الفرق بين الكامل والناقص يجعل الكامل ناقصًا، وهذا باطل وما لزم منه الباطل فهو باطل، وهل هناك أشد بطلانًا من أن يشبّه الخالق الكامل في ذاته وصفاته وأفعاله بالمخلوق الناقص من جميع الوجوه؟(٢).

ولهذا فكثير ما يذكر الخالق هذا الفرق في كتابه فيصف المخلوق بالنقص، ويقرنه بوصف الخالق بالكمال، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩١] ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] ويقول: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣]، وكذلك أخبرنا ﷺ بهذا الفرق في دعاء الاستخارة قال ﷺ: «**إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب**»(٣).

---

(١) انظر: منهاج السنة النبوية، لابن تيمية، ج٢، ص ٥٩٦، ومنهج شيخ الإسلام في تقرير عقيدة التوحيد، لإبراهيم البريكان، ج٢، ص ٦٧٨.

(٢) انظر: المرجع السابق، وشرح القواعد المثلىٰ، لابن عثيمين، ص ٦٤، ٦٥.

(٣) رواه البخاري من حديث عبد الله السلمي، كتاب التوحيد، باب: قول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ﴾ [الأنعام: =

ومن أهل العلم الذين سلكوا هذا المنهج في بيان الفارق بين صفات الخالق والمخلوق الإمام ابن منده[1]، في كتابه التوحيد حيث عقد فصلًا عنونه: «ببيان الفرق بين سماع الخالق وسماع المخلوق»[2] وكذلك فصل آخر في «الفرق بين رؤية الخالق الباقي والمخلوق العاجز الفاني»[3]، وذكر شيئًا من الأدلة في وصف الخالق بالكمال ووصف المخلوق بالنقص، وهذا أمر جليّ لمن لديه أدنىٰ مِسْكة من العقل.

٤ ـ من الأدلة كذلك أننا علمنا عدم الفارق بين صفات بعض المخلوقين بالاعتبار والقياس، وإنما تمكنا من ذلك لمعرفتنا بكيفية صفات المخلوقين، وأما الخالق فكيفية صفاته مجهولة بالنسبة لنا، وهذا يقال علىٰ الذات أيضًا فذات الخالق مجهولة الكيفية لنا بخلاف ذوات المخلوقين حيث إنها معلومة الكيفية، فلا يمكنّا إلا أن نقر بالفرق بين صفات وذات الخالق، وصفات وذات المخلوق لجهلنا بكيفيّتها بالنسبة للخالق[4].

قال الإمام أبو يوسف القاضي يعقوب بن إبراهيم الكوفي[5]: «وليس التوحيد بالقياس،

=

٦٥]، رقم الحديث ٧٣٩٠، ص١٤٠٨.

(١) أبو عبد الله إسحاق محمد بن يحيىٰ بن منده، من كبار حفاظ الحديث الراحلين في طلبه، صاحب التصانيف، جمع وكتب ما لا ينحصر، وسمع من ألف وسبعمائة، مات سنة خمس وتسعين وثلاث مائة، ومن تصانيفه: كتاب (الإيمان)، كتاب (التوحيد)، كتاب (الصفات)، المرجع: سير أعلام النبلاء، ج١٧، ص٢٨، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٤، ص٥٠٤، والأعلام للزركلي، ج٦، ص٢٩.

(٢) كتاب التوحيد، ابن منده، ج٣، ص٥١.

(٣) المرجع السابق، ص٧٣.

(٤) انظر: منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في تقرير عقيدة التوحيد، للبريكان، ص ٦٧٨.

(٥) أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، الكوفي. صاحب الإمام أبي حنيفة، وتلميذه، وأول من نشر مذهبه. من حفاظ الحديث، لزم أبا حنيفة، فغلب عليه " الرأي "، علىٰ مذهب أبي حنيفة، من كتبه "الخراج" و " الآثار " وهو مسند أبي حنيفة، توفي سنة اثنتين وثمانين ومائة. المرجع: سير أعلام النبلاء، ج٨، ص٥٣٥، والأعلام للزركلي، ج٨، ص١٩٣.

لأن القياس يكون في شيء له شبه ومثل، فالله تعالىٰ وتقدس لا شبه له ولا مثل له تبارك الله أحسن الخالقين. ثم قال: وكيف يدرك التوحيد بالقياس وهو خالق الخلق بخلاف الخلق ليس كمثله شيء تبارك وتعالىٰ»[1].

٥ ـ ويقال كذلك: إن الفارق بين الخالق والمخلوق في ذاته معلوم علمًا ضروريًا قال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]، وقال: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۖ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقد علم العقل قطعًا أن المخلوق خُلق من مادة وله عناصر مكونة له، وعلم أن الخالق ليس من جنس مخلوقاته لا الملائكة ولا السموات ولا الكواكب ولا الهواء ولا الماء ولا الأرض ولا الآدميون، وكذلك معلوم علما ضروريًا الفرق في الوجود فالخالق وجوده واجب، والمخلوق وجوده جائز؛ لأن كل ما يجوز عليه العدم فقد نشأ من العدم والخالق أزلي أبدي، ومما هو معلوم بالضرورة أيضًا أن مرتبة الخالق مباينة لمرتبة المخلوق فالخالق هو الفاعل، والمخلوق هو المفعول، والفاعل أكمل من المفعول، فإذا ثبت بالعقل الفارق بين الخالق والمخلوق في الذات والوجود والمرتبة فلا بدّ من[2] إثبات الفارق بينهما في الصفات والأفعال، إذ كل ذاتين مختلفتين لابد عقلًا أن يكون هناك فرقًا بين صفاتهما وأفعالهما حيث إن لكل موصوف صفة لائقة به، فلو نظرنا إلىٰ صفات المخلوقات المختلفة ذواتها لوجدنا بينها فرقًا بيّنًا، ففرق كبير بين قوة البعير مثلا وقوة الذرة، فإذا ظهر الفارق بين المخلوقات مع أنهما يشتركان في الإمكان والحدوث فظهوره بين الخالق والمخلوق أجلىٰ وأقوىٰ[3].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «القول في الصفات كالقول في الذات، فإن الله ليس كمثله

(١) كتاب التوحيد، لابن منده، ج٣، ص٣٠٦.

(٢) انظر: العقيدة التدمرية، لابن تيمية، ص ١٤٥، وشرح العقيدة السفارينية، لابن عثيمين، ص٢٤٥، ٢٤٦.

(٣) انظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج٥، ص٣٢٥، وشرح القواعد المثلىٰ، ابن عثيمين، ص٦٥.

شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فإذا كان له ذات حقيقة لا تماثل الذوات، فالذات متصفة بصفات حقيقة لا تماثل صفات سائر الذوات»(١)، وقال: «فكما أن ذات الله ثابتة حقيقة من غير أن تكون من جنس المخلوقات، فصفاته ثابتة حقيقية من غير أن تكون من جنس صفات المخلوقات. فمن قال: لا أعقل علماً ويداً إلا من جنس العلم واليد المعهودين. قيل له: فكيف تعقل ذاتاً من غير جنس ذوات المخلوقين؛ ومن المعلوم أن صفات كل موصوف تناسب ذاته وتلائم حقيقته؛ فمن لم يفهم من صفات الرب ــ الذي ليس كمثله شيء ــ إلا ما يناسب المخلوق فقد ضل في عقله ودينه»(٢).

٦ ــ أننا نرىٰ في المخلوقات نفسها فارقًا بين الصفات، سواء في حقيقتها أو في كيفيتها مع اشتراكها في المسمىٰ، فالإنسان له يد، والفيل له يد، والباب له يد، والحقيبة لها يد، ومع ذلك نجد فارقًا عظيما بينها، فعلم أن الاشتراك في الاسم لا يلزم منه عدم وجود الفارق في الحقيقة والكيفية،(٣) فإذا كان هذا بين المخلوق والمخلوق، فكيف ما بين الخالق والمخلوق؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإن الله ــ سبحانه وتعالىٰ ــ أخبرنا عما في الجنة من المخلوقات، من أصناف المطاعم والمشارب والملابس والمناكح والمساكن، فأخبرنا أن فيها لبنًا وعسلًا وخمرًا وماء ولحمًا وفاكهة وحريرًا وذهبًا وفضة وحورًا وقصورًا. وقد قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء(٤)، فإذا كانت تلك الحقائق التي أخبر الله عنها، هي موافقة في الأسماء للحقائق الموجودة في الدنيا، وليست مماثلة لها، بل بينهما من التباين ما لا يعلمه إلا الله تعالىٰ، فالخالق سبحانه وتعالىٰ أعظم

---

(١) العقيدة التدمرية، لابن تيمية، ص٤٣.

(٢) مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج٥، ص١١٤.

(٣) انظر: شرح القواعد المثلىٰ، لابن عثيمين، ص٦٥.

(٤) أخرجه السيوطي في الدر المنثور، قال: أخرجه مسدد وهناد في الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث، ج١، ص٨٢.

مباينة للمخلوقات من مباينة المخلوق للمخلوق، ومباينته لمخلوقاته أعظم من مباينة موجود الآخرة لموجود الدنيا، إذ المخلوق أقرب إلىٰ المخلوق الموافق له في الاسم من الخالق إلىٰ المخلوق. وهذا بين واضح»[1].

وقال الإمام ابن منده رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ففيما ذكرناه دليل علىٰ جميع الأسماء والصفات التي لم نذكرها وإنما يَنفي التمثيل والتشبيه النية والعلم بمباينة الصفات والمعاني، والفرق بين الخالق والمخلوق وفي جميع الأشياء فيما يؤدي إلىٰ التمثيل والتشبيه عند أهل الجهل والزيغ، ووجوب الإيمان بالله عز وجل وبأسمائه وصفاته التي وصف بها نفسه وأخبر عنه رسوله ﷺ وأن أسامي الخلق وصفاتهم وافقتها في الاسم وباينتها في جميع المعاني، بحدوث خلقه وفنائهم، وأزلية الخالق وبقائه، وبما أظهر من صفاته ومنع استدراك كيفيتها، فقال الله عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]»[2]

٧ ـ من الأدلة كذلك أن نقول إنه لو لم يكن من الفروق بين الخالق والمخلوق إلا الفرق في أصل الوجود لكان هذا كافيًا، فالخالق واجب الوجود فهو أزلي سبحانه، والمخلوق جائز الوجود فهو مسبوق بعدم لاحق به الفناء، فكيف لا يكون بينهما فرق في الذات والصفات والأفعال؟[3]

٨ ـ أننا لو تأملنا في صفات الخالق التي أخبرنا عنها لوجدنا البون الشاسع بينها وبين صفات المخلوقين حتىٰ ولو اشتركت في الاسم، خذ مثلًا صفة السمع فهي ثابتة للخالق والمخلوق لكن بينهما فرقًا عظيمًا لا يمكن حتىٰ تصوره ولا استيعابه، فعن عروة عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المُجادِلة إلىٰ النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى

(١) العقيدة التدمرية، ابن تيمية، ص٤٧.

(٢) كتاب التوحيد، ابن منده، ج٣، ص ٩.

(٣) انظر: شرح العقيدة الواسطية، ابن عثيمين، ج١، ص ١٠٤.

زَوۡجِهَا﴾ [المجادلة: ١] إلىٰ آخر الآية[١]، فالخالق قد سمع هذه المرأة وهو مستو علىٰ عرشه وما بينه وبينها من المسافات لا يعلمها إلا الله، وهذه عائشة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ يخفىٰ عليها شيء من حديث المرأة مع أنها في بيتها[٢]، والأدلة التي تذكر وُصف الخالق لمن تأملها يجد الفرق الجلي بين ما وصف لنا من صفات الخالق وما نجده ونشاهده من وصف المخلوق.

وقد نقول كذلك: إن الفطرة تعتبر دليلًا علىٰ إثبات الفارق فالإنسان بفطرته يعلم هذا الفرق، ولولا علمه به لم يذهب يدعو الخالق[٣] وينزل به حاجته عند الشدائد ويترك المخلوق، وما ذاك إلا لعلمه بكمال الخالق وقدرته وعظمته وبنقص المخلوق وضعفه وعجزه، قال الإمام ابن القيم: «أدلة مباينة الرب لخلقه وعلوه علىٰ جميع مخلوقاته أدلة عقلية فطرية توجب العلم الضروري بمدلولها وأما السمعية فتقارب الف دليل»[٤].

فالناس مفطورون علىٰ إثبات الكمال لله وحده دون سواه، كما هم مفطورون علىٰ توحيد الربوبية، ومن نفىٰ صفات الكمال عن الخالق أو شبهها بالمخلوق فهذا لأن فطرته قد فسدت وتغيرت بسبب الشبهات التي دخلت عليه[٥]، قال ابن أبي العز رَحِمَهُ اللَّهُ: «الله تعالىٰ قد أودع في الفطرة التي لم تتنجس بالجحود والتعطيل، ولا بالتشبيه والتمثيل، أنه سبحانه الكامل في أسمائه وصفاته، وأنه الموصوف بما وصف به نفسه ووصفه به رسله، وما خفي عن الخلق من كماله أعظم وأعظم مما عرفوه منه»[٦]، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾، ص١٤٠٨، بدون قوله (لقد جاءت المجادلة...) وأخرجه أحمد بن حنبل في مسنده، وإسناده صحيح علىٰ شرط مسلم.

(٢) انظر: شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين، ج١، ص ١٠٤.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص ١٠٥.

(٤) الصواعق المرسلة، لابن القيم، ج١، ص٢٩٣، ٢٩٤.

(٥) انظر: مقالة التشبيه وموقف أهل السنة منها، لجابر بن إدريس أمير، ص ١٣٩.

(٦) شرح الطحاوية، لابن أبي العز، ص٥٢.

ساق كلام ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في معنىٰ الصمد(1): «وهذه صفة لا تنبغي إلا له، ليس له كفء ولا كمثله شيء. وهكذا سائر صفات الكمال، ولم يعلم أحد من الأمة نازع في هذا المعنىٰ؛ بل هذا المعنىٰ مستقر في فطر الناس؛ بل هم مفطورون عليه، فإنهم كما أنهم مفطورون علىٰ الإقرار بالخالق؛ فإنهم مفطورون علىٰ أنه أجل وأكبر وأعلىٰ وأعلم وأعظم وأكمل من كل شيء»(2).

فإذا كانت الفطر قد استقر فيها إثبات كمال الخالق في الصفات وتفرده بها، واستقر فيها انتفاء المثيل والشبيه للخالق، فقد استقر كذلك في فطرهم إثبات الفارق بين الخالق والمخلوق.

ولهذا فإن الفطرة إذا تشوهت فلم يفرق العبد بين الخالق والمخلوق؛ وقع في أنواع من الشرك والضلال، قال الإمام ابن القيم: «وقال تعالىٰ عن خليله إبراهيم ـ عليه السلام ـ: إنه قال لقومه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الصافات: ٨٥- ٨٧]، أي فما ظنكم أن يجازيكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره، وما ظننتم به حين عبدتم معه غيره، وما ظننتم بأسمائه وصفاته وربوبيته من النقص حتىٰ أحوجكم ذلك إلىٰ عبودية غيره، فلو ظننتم به ما هو أهله من أنه بكل شيء عليم، وهو علىٰ كل شيء قدير، وأنه غني عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه، وأنه قائم بالقسط علىٰ خلقه، وأنه المنفرد بتدبير خلقه لا يشركه فيه غيره، والعالم بتفاصيل الأمور، فلا يخفىٰ عليه خافية من خلقه، والكافي لهم وحده، فلا يحتاج إلىٰ معين، والرحمن بذاته، فلا يحتاج

---

(١) وهو قوله: (الصَّمَدُ) «يقول: السيد الذي قد كمُل في سُؤدَده، والشريف الذي قد كمُل في شرفه، والعظيم الذي قد كمُل في عظمته، والحليم الذي قد كمُل في حلمه، والغني الذي قد كمُل في غناه، والجبَّار الذي قد كمُل في جبروته، والعالم الذي قد كمُل في علمه، والحكيم الذي قد كمُل في حكمته، وهو الذي قد كمُل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه، هذه صفته، لا تنبغي إلا له»، أخرجه الطبري في تفسيره، ج ٢٤، ص٧٣٦، أخرجه البيهقي من طريق آخر في كتابه الأسماء والصفات ج١، ص١٥٦.

(٢) مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج٦، ص ٧٢.

في رحمته إلىٰ من يستعطفه، وهذا بخلاف الملوك وغيرهم من الرؤساء، فإنهم يحتاجون إلىٰ من يعرفهم أحوال الرعية وحوائجهم، ويعينهم علىٰ قضاء حوائجهم، وإلىٰ من يسترحمهم ويستعطفهم بالشفاعة، فاحتاجوا إلىٰ الوسائط ضرورة لحاجتهم وضعفهم وعجزهم وقصور علمهم، فأما القادر علىٰ كل شيء، الغني بذاته عن كل شيء، العالم بكل شيء، الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، فإدخال الوسائط بينه وبين خلقه تنقص بحق ربوبيته وإلهيته وتوحيده وظن به ظن السوء، وهذا يستحيل أن يشرعه لعباده، ويمتنع في العقول والفطر جوازه، وقبحه مستقر في العقول السليمة فوق كل قبيح»(١).

وكما دلّ النقل والعقل والفطرة علىٰ وجود الفارق بين الخالق والمخلوق، فإنّ الحسّ كذلك شاهد بالفارق فنجد المخلوق يريد أمورًا ويطلبها ويحرص عليها ولا يمكنه تحقيقها، أما الخالق فأمره إذا أراد إنما يقول للشيء كن فيكون، ونشاهد كذلك: أن المخلوق يدعو الخالق بأمور لا يطيقها هو فتتحقق كإنزال المطر مثلًا، فهو لم يفعل هذا الأمر وقد طلبه من الخالق فحصل؛ ألا يدل ذلك علىٰ ما بينهما من الفرق؟(٢).

والمخلوق لو تأمل في نفسه، وتفكر في ضعفه لوجد هذه الحقيقة أوضح من الشمس في رابعة النهار، قال الإمام الدارمي لزنادقة عصره الذين نفوا الصفات بحجة المماثلة مع الخلق فأفهمهم أن الفرق ثابت مع ثبوت الصفات وقال لهم: «هذا واضح بيّن يعقله كثير من ضعفاء الرجال والنساء، وتعقلونه أنتم إن شاء الله»(٣).

وبعد أن ذكرنا الأدلة الدالة علىٰ الفارق بين الخالق والمخلوق، سواء من جهة النقل أو العقل أو الفطرة والحسّ، فقد يسأل أحدهم: هل معنىٰ وجود الفارق بين الخالق والمخلوق أن ننفي أي معنىٰ مشترك بين صفات الخالق والمخلوق؟ هذا ما سيتضح ـ بإذن الله ـ في الفصل التالي بشيء من التفصيل.

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، لابن القيم، ص ٢٠٥، ٢٠٦.

(٢) انظر: شرح العقيدة السفارينية، لابن عثيمين، ص٢٤٦.

(٣) الرد علىٰ الجهمية، لعثمان بن سعيد الدارمي، ص٨٢.

الفصل الثالث

أنواع الأسماء والصفات باعتبار إضافتها إلى الخالق والمخلوق

وفيه تمهيد ومبحثان:

التمهيد:

المبحث الأول: أسماء وصفات مختصة.

المبحث الثاني: أسماء وصفات مشتركة.

تمهيـــــــد

من المعلوم أن الأسماء والصفات منها ما هو مختص بالخالق لا يجوز إطلاقه علىٰ المخلوق، ومنها ما هو مختص بالمخلوق لا يجوز إطلاقه علىٰ الخالق، وهناك أسماء وصفات مشتركة تطلق علىٰ الخالق والمخلوق، وفيها قدر مشترك من المعنىٰ، مع وجود فارق كبير بين ما هو لازم منها للخالق، وما هو لازم للمخلوق، وإن عدم التفريق بين هذه المعاني قد أدىٰ إلىٰ تعطيل أسماء الله وصفاته أو تشبيهها بالمخلوق ونفي الفارق بينهما، وكلا الأمرين ضلال، وقبل أن نبدأ في بيان هذا الأمر بالتفصيل لابد من معرفة أن الألفاظ علىٰ أنواع منها:

١ ـ ما هو مترادف مثل: الليث ـ الأسد ـ أسامة ـ الغضنفر، فهذه ألفاظ مختلفة ولكن المسمّىٰ بها شيء واحد.

٢ ـ ومنها ما هو مشترك مثل لفظ: «العين»: فالعين الباصرة يقال لها عين ـ والعين الجارية ـ والجاسوس ـ والحسد، يقال لها عين أيضًا، فهذه ألفاظ مشتركة، اللفظ فيها واحد لكن المعاني مختلفة.

٣ ـ ومن الألفاظ ما هو متباين كالسماء والأرض ـ والجنة والنار، فهي ألفاظ متباينة، لكل لفظ من هذه الألفاظ معنىٰ يختلف عن الآخر.

٤ ـ ومنها المتواطئ: وهو نوعان:

أ ـ التواطؤ المطلق: مثل: لفظ "الرجل" يقال: زيد رجل وعمر رجل، والمعنىٰ متساو في الجميع.

ب ـ والتواطؤ المشكِّك: والمعنىٰ فيه متفاوت متفاضل، مثل لفظ " النور" فيقال: نور الشمس، ونور السراج، فالمعنىٰ في كليهما واحد، ولكن هناك بون شاسع بين نور الشمس ونور السراج(١).

---

(١) انظر: معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات، لمحمد بن خليفة التميمي، ص ٩١-٩٣.

والسؤال: ما هي الأسماء والصفات المختصة بالخالق والمختصة بالمخلوق؟

ومن أي نوع من الألفاظ تعتبر الأسماء والصفات المشتركة؟ وهل يعني ذلك نفي القدر الفارق بينهما؟هذا ما سنوضحه بإذن الله في هذا الفصل.

المبحث الأول

أسماء وصفات مختصة

من الأسماء والصفات ما لا يجوز إطلاقه علىٰ المخلوق فهو مختص بالخالق سبحانه ومن الأسماء والصفات أيضًا ما لا يجوز إطلاقه علىٰ الخالق فهو مختص بالمخلوق، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن من أسماء الله تعالىٰ وصفاته ما يُحمد العبد علىٰ الاتصاف به كالعلم والرحمة والحكمة وغير ذلك، ومنها ما يذم العبد علىٰ الاتصاف به كالإلهية والتجبر والتكبر، وللعبد من الصفات التي يُحمد عليها ويؤمر بها ما يمنع اتصاف الربّ به كالعبودية والافتقار والحاجة والذل والسؤال ونحو ذلك»(١)، وفيما يلي بيان ذلك:

المطلب الأول: الأسماء والصفات المختصة بالخالق:

١ ـ الأسماء التي يكون مسمّاها معين لا يقبل الشركة فهي عَلَم علىٰ الخالق كالله، وكالرحمن فإنه قد غلب إطلاقها علىٰ الخالق حتىٰ صارت عَلَمًا عليه، أو الأسماء التي تحمل صفات لا تليق إلا بالخالق ولا تتحقق إلا فيه كالرب والبارئ والقدوس والخالق والقيوم والمحيي والمميت، كلّ هذه الأسماء لا تطلق علىٰ المخلوق لا اسمًا ولا صفة بل هي خاصة بالخالق لا يشركه فيها أحد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وكل اسم لا يسمىٰ به غيره: كالله، والقديم الأزلي، ورب العالمين، ومالك يوم الدين، ونحو ذلك ـ فمعناه من خصائصه»(٢).

ويقول النّووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند الكلام حول حكم التسمي بملك الأملاك: «واعلم أنّ التّسمي بهذا الاسم حرام، وكذلك التّسميّ بأسماء الله تعالىٰ المختصّة به؛ كالرّحمن والقدّوس والمهيمن وخالق الخلق ونحوها»(٣).

---

(١) الصفدية، لابن تيمية، ج ٢، ص ٣٣٨.

(٢) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية، ج١٠، ص ٢٧٩.

(٣) شرح النووي علىٰ مسلم، ج١٤، ص٣٤٨.

وجاء في فتاوىٰ اللجنة الدائمة: «ما كان من أسماء الله تعالىٰ علم شخص كلفظ (الله) امتنع تسمية غير الله به؛ لأن مسماه معين لا يقبل الشركة، وكذا ما كان من أسمائه في معناه في عدم قبول الشركة كالخالق والبارئ، فإن الخالق من يوجد الشيء علىٰ غير مثال سابق، والبارئ من يوجد الشيء بريئا من العيب، وذلك لا يكون إلا من الله وحده، فلا يسمىٰ به إلا الله تعالىٰ»(١).

وجاء فيها أيضا «لا يجوز تسمية المخلوق بالقيوم؛ لأن القيوم هو المستغني بنفسه عن غيره، المفتقر إليه كل ما سواه، وذلك مختص بالله لا يشركه فيه غيره... وكذا لا يسمىٰ المخلوق ـ بالرحمن ـ لأنه بكثرة استعماله اسمًا لله تعالىٰ صار علمًا بالغلبة عليه مختصًا به كلفظ الجلالة، فلا يجوز تسمية غيره به»(٢).

لكن في مثل الرب والخالق، وإن كان لا يسمىٰ به إلا الخالق؛ لأن الغالب هو اطلاقه علىٰ الخالق والذهن ينصرف له عند الإطلاق، إلا أن المخلوق يوصف بما يناسبه من معنىٰ هذا الاسم، كما في قوله تعالىٰ عن يوسف: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]، أي: سيدك، وكما يقال للرجل ربّ الدار، أي: صاحب الدار.

ويوصف كذلك المخلوق بأنه يخلق كذا، ويراد به التقدير وليس الإيجاد علىٰ غير مثال سابق(٣)، فيوصف بالرب مضافًا، فلا يقال: الرب وإنما رب الدار، ويوصف بالخلق بمعنىٰ التقدير، فيقال: خلق كذا والمراد قدّره، ولا يقال: الخالق بالإطلاق(٤).

٢ ـ الأسماء التي يسمّىٰ بها الخالق والمخلوق وهي عند الإطلاق تنصرف للخالق، كالعزيز والعظيم والحليم والرؤوف والرحيم:

(١) فتاوىٰ اللجنة الدائمة، المجموعة الثانية، ج٢، ص ٣٦٨.

(٢) المرجع السابق، ص٣٧٠.

(٣) انظر: فقه الأسماء الحسنىٰ، لعبد الرزاق البدر، ص ١١٦.

(٤) وقد سبق ذكر الحكم في مسألة وصف المخلوق بالخلق بمعنىٰ التقدير عند ذكر معنىٰ الخلق في اللغة.

- فأما الوصف بها فلا يختص الخالق بالوصف بها، فيوصف الخالق والمخلوق بأنه عزيز عظيم رحيم، ولكل منهم معنىٰ يليق به فعزة الخالق غير عزة المخلوق، وعظمة الخالق غير عظمة المخلوق.

قال الإمام ابن القيم: «وأما الأسماء التي تطلق عليه وعلىٰ غيره: كالسميع والبصير والرؤوف والرحيم، فيجوز أن يخبر بمعانيها عن المخلوق»(١).

وقال الشيخ ابن عثيمين: «وأما الخبر عن المخلوق بالصفات التي يوصف الله تعالىٰ بها وليست ممنوعة علىٰ المخلوق فلا بأس به كما قال الله تعالىٰ في وصف النبي ﷺ: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] وقال تعالىٰ عن نفسه: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]. ومن هذا قول قوم شعيب له: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] فهو خبر وليس تسمية، علىٰ أن هؤلاء لم يريدوا حقيقة وصفه بذلك، وإنما أرادوا التهكم به، كما قاله ابن عباس ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ـ وجماعة من المفسرين»(٢).

- أما التسمية بها فتكون مختصة بالخالق إذا كانت مطلقة بمعنىٰ أن "ال" المستغرقة دخلت عليها، فلا يجوز للمخلوق التسمي بها علىٰ سبيل الاطلاق، سواء لوحظ المعنىٰ أم لم يلاحظ المعنىٰ، لأن "ال" تدل علىٰ لَمْح الأصل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والاسم الذي يسمىٰ به غيره، وهو عند الإطلاق ينصرف إليه: كالملك، والعزيز، والحليم ـ يختص بكماله وإطلاقه، فلا يشركه في ذلك غيره»(٣).

وقال الإمام ابن القيم: «وأما الأسماء التي تطلق عليه وعلىٰ غيره: كالسميع والبصير والرؤوف والرحيم، فيجوز أن يخبر بمعانيها عن المخلوق، ولا يجوز أن يتسمىٰ بها علىٰ

---

(١) تحفة المودود بأحكام المولود، لابن القيم، ص ١٢١.

(٢) فتاوىٰ نور علىٰ الدرب، لابن عثيمين، ج١، ص١٥٥.

(٣) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية، ج١٠، ص ٢٨٠.

الإطلاق بحيث يطلق عليه كما يطلق علىٰ الرب تعالىٰ»[1].

وقال الشيخ ابن عثيمين عن الاسم من أسماء الله إذا حلّي بـ "ال": «ففي هذه الحال لا يسمىٰ به غير الله، كما لو سميت أحداً بالعزيز والسيد والحكيم وما أشبه ذلك، فإن هذا لا يسمىٰ به غير الله، لأن "ال" هذه تدل علىٰ لمح الأصل، وهو المعنىٰ الذي تضمنه هذا الاسم»[2].

- ولا يجوز للمخلوق التسمي بها أيضًا إذا لو لوحظ فيها معنىٰ الاسم، سواء كانت مطلقة أو غير مطلقة؛ لأنها حينئذٍ مطابقة لأسماء الخالق فأسماؤه ـ تعالىٰ ـ أعلام وأوصاف فهي تدل علىٰ المعنىٰ الذي تضمنه الاسم فإذا سَمّىٰ المخلوق نفسه بهذا الاسم ملاحظًا فيه المعنىٰ تطابق مع اسم الخالق.

قال الشيخ ابن عثيمين: «إذا قصد بالاسم معنىٰ الصفة وليس محلىٰ بـ " ال " فإنه لا يسمىٰ به ولهذا غيَّر النبي ﷺ كنية أبي الحكم التي تكنىٰ بها، لأن أصحابه يتحاكمون إليه فقال النبي ﷺ: «**إن الله هو الحكم، وإليه الحكم**»[3]، ثم كناه بشريح وهو أكبر أولاده فدل ذلك علىٰ أنه إذا تسمىٰ أحد باسم من أسماء الله ملاحظًا بذلك معنىٰ الصفة التي تضمنها هذا الاسم فإنه يمنع، لأن هذه التسمية تكون مطابقة تمامًا لأسماء الله سبحانه وتعالىٰ فإن أسماء الله تعالىٰ أعلام وأوصاف لدلالتها علىٰ المعنىٰ الذي تضمنه الاسم»[4].

فصار هذا النوع من الأسماء يوصف به الخالق والمخلوق، وللخالق ما يليق بعظمته وجلاله، وللمخلوق ما يناسب نقصه وضعفه، ويمنع من تسمية المخلوق به إذا حلّي بـ"ال"

(١) تحفة المودود بأحكام المولود، لابن القيم، ص ١٢١.

(٢) فتاوىٰ نور علىٰ الدرب، لابن عثيمين، ج١، ص١٥٥.

(٣) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في تغيير الاسم القبيح، رقم الحديث٤٩٥٥، ص٨٩٦، صححه ابن حبان وابن الملقن في تحفة المحتاج، وصححه الألباني كذلك.

(٤) فتاوىٰ نور علىٰ الدرب، لابن عثيمين، ج١، ص١٥٥.

أو لوحظ فيه معنىٰ الاسم.

٣ ـ الأسماء التي يسمّىٰ بها الخالق وقد تؤثر في نفس المخلوق بما لا ينبغي إذا سُمّي بها، كالمتكبّر والجبّار، فهذه يختص الخالق بالتسمية بها، ولا يجوز تسمية المخلوق بها، سواء كانت التسمية مطلقة، أو غير مطلقة وسواء لوحظ المعنىٰ أم لم يلاحظ، وأما الوصف فيوصف الخالق بها علىٰ سبيل المدح والثناء والاستحقاق، ويوصف المخلوق بها «لتحكي واقعًا ولإثبات وجود لا إثبات استحقاق»(١).

جاء في صحيح مسلم عن أبىٰ سعيد الخدري وأبىٰ هريرة قالا: قال رسول الله ﷺ: «**العز إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذبته**»(٢).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وصنف أبو حامد " شرح أسماء الله الحسنىٰ" وضمنه التشبه بالله في كل اسم من أسمائه، وسمّاه التخلّق، حتىٰ في اسمه: الجبار والمتكبر والإله، ونحو ذلك من الأسماء التي ثبت بالنص والإجماع أنها مختصة بالله، وأنه ليس للعباد فيها نصيب»(٣).

وقال الإمام ابن القيم: «ومما يمنع تسمية الإنسان به أسماء الرب تبارك وتعالىٰ، فلا يجوز التسمية بالأحد والصمد ولا بالخالق ولا بالرازق، وكذلك سائر الأسماء المختصة بالرب تبارك وتعالىٰ، ولا تجوز تسمية الملوك بالقاهر والظاهر كما لا يجوز تسميتهم بالجبار والمتكبر والأول والآخر والباطن وعلام الغيوب»(٤)، وقال الشيخ ابن عثيمين «لكن في مثل جبار لا ينبغي أن يتسمىٰ به وإن كان لم يلاحظ الصفة، وذلك لأنه قد يؤثر في نفس المسمىٰ فيكون معه جبروت وعلو واستكبار علىٰ الخلق، فمثل هذه الأشياء التي قد

(١) القدر المشترك في معاني الصفات بين أهل السنة ومخالفيهم، لعبد الرحمن بن عايد القصير، ص ٢٧.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الكبر، رقم الحديث٦٦٨٠، ص١١٤٤.

(٣) الرسالة الصفدية، ابن تيمية، ص ٣٦٠، ٣٦١.

(٤) تحفة المودود بأحكام المولود، لابن القيم، ص١٢٠.

تؤثر علىٰ صاحبها ينبغي للإنسان أن يتجنبها»(١).

٤ ـ الوصف بأعلىٰ درجات الوصف مالك الأملاك ـ أحكم الحاكمين ـ خالق الخلق ـ سلطان السلاطين ـ أمير الأمراء ـ فلا يسمىٰ به غيره ولا يوصف بها إلا الخالق فهي مختصة به، اسمًا ووصفًا؛ لأنها لا تصدق إلا علىٰ الخالق(٢).

فهذه لا يسمىٰ بها ولا يوصف بها المخلوق، روىٰ مسلم عن أبىٰ هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إن أخنع اسم عند الله رجل يسمىٰ ملك الأملاك**» ـ زاد ابن أبىٰ شيبة في روايته: «**لا مالك إلا الله عز وجل**»(٣).

وفي رواية لمسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**أغيظ رجل علىٰ الله يوم القيامة، وأخبثه وأغيظه عليه، رجل كان يسمىٰ ملك الأملاك، لا ملك إلا الله**»(٤).

يقول الحافظ ابن حجر: «واستدلّ بهذا الحديث علىٰ تحريم التّسمّي بهذا الاسم لورود الوعيد الشّديد، ويلتحق به ما في معناه مثل خالق الخلق وأحكم الحاكمين وسلطان السّلاطين وأمير الأمراء، وقيل يلتحق به أيضًا من تسمّىٰ بشيء من أسماء الله الخاصّة به كالرّحمن والقدّوس والجبّار. وهل يلتحق به من تسمّىٰ قاضي القضاة أو حاكم الحكّام؟ اختلف العلماء في ذلك»(٥)، فمنهم من منعه لأنه يشبه ملك الأملاك وأحكم الحاكمين، ومنهم من جوّزه لظهور إرادة العهد الزماني في القضاة، أي قاضي القضاة في زمانه أو بلده، وليس المراد أنه أقضىٰ القضاة علىٰ الإطلاق، والظاهر الأول لأن معناه أحكم

---

(١) فتاوىٰ نور علىٰ الدرب، لابن عثيمين، ج١، ص١٥٦.

(٢) انظر: فتح الباري، لابن حجر، ج١٠، ص٧٢٣.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الآداب، باب استحباب تغيير الاسم القبيح إلىٰ حسن، وتغيير اسم برة إلىٰ زينب وجويرية ونحوهما، رقم الحديث ٥٦١٠، ص٩٥٥.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الآداب، باب استحباب تغيير الاسم القبيح إلىٰ حسن، وتغيير اسم برة إلىٰ زينب وجويرية ونحوهما، رقم الحديث٥٦١١، ص٩٥٥.

(٥) فتح الباري، لابن حجر، ج١٠، ص٧٢٣، ٧٢٤.

الحاكمين[1].

وهناك صفات مختصة بالخالق أيضًا غير ما ذكر كهداية التوفيق ووضع الإيمان في القلوب فإنها مختصة بالخالق، فمثل هذه لا يمكن أن يتصف بها المخلوق، بل نفاها الله حتىٰ عن أفضل الخلق وهو نبيه ﷺ قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: ٥٦]، وكذلك صفته "تبارك "، قال الإمام ابن القيم: «وأما صفته " تبارك": فمختصة به تعالىٰ كما أطلقها علىٰ نفسه بقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤]»[2]، وبين الشيخ الشنقيطي العلة من ذلك فقال: «الأظهر في معنىٰ تبارك بحسب اللغة التي نزل بها القرآن أنه تفاعل من البركة، كما جزم به ابن جرير الطبري، وعليه فمعنىٰ تبارك تكاثرت البركات والخيرات من قبله، وذلك يستلزم عظمته وتقدّسه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله، لأن من تأتي من قبله البركات والخيرات ويدرّ الأرزاق علىٰ الناس هو وحده المتفرّد بالعظمة، واستحقاق إخلاص العبادة له، والذي لا تأتي من قبله بركة ولا خير، ولا رزق كالأصنام، وسائر المعبودات من دون الله لا يصحّ أن يعبد، وعبادته كفر مخلّد في نار جهنّم»[3].

وكذلك الوصف بمقلب القلوب فإنها صفة مختصة بالخالق، قال الحافظ ابن حجر في الكلام حول الصفة التي تنعقد بها اليمين «وإنما الخلاف في أي صفة تنعقد بها اليمين، والتحقيق انها مختصة بالتي لا يشاركه فيها غيره كمقلب القلوب»[4] ومن الصفات الخاصة بالخالق أيضا العلم بالغيب المطلق، والاستواء علىٰ العرش، والقدرة علىٰ كلّ شيء ونحو ذلك.

---

(١) انظر: فتح الباري، لابن حجر، ج١٠، ص٧٢٣، ٧٢٤.

(٢) بدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية، ج٢، ص ٦٨٠.

(٣) أضواء البيان، للشنقيطي، ج٦، ص ١٧٧.

(٤) فتح الباري، لابن حجر، ج١١، ص ٦٤٢.

المطلب الثاني: الأسماء والصفات المختصة بالمخلوق:

وهي الأسماء والصفات التي تدلّ على النقص بوجه من الوجوه، فهذه صفات مختصة بالمخلوق ليس للخالق منها شيء ولا يطلق عليه أي صفة منها، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «الله سبحانه منزّه عن أن يوصف بشيء من الصّفات المختصّة بالمخلوقين، وكلّ ما اختص بالمخلوق فهو صفة نقص، والله منزّه عن كلّ نقص، ومستحقّ لغاية الكمال، وليس له مثل في شيء من صفات الكمال، فهو منزّه عن النّقص مطلقًا، ومنزّه في الكمال أن يكون له مثل، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [سورة الأخلاص]؛ فبيّن أنّه أحد صمد، واسمه الأحد يتضمّن نفي المثل، واسمه الصّمد يتضمّن جميع صفات الكمال»[1] ومن الأسماء والصفات المتضمّنة للنقص، الجهل والعجز والفقر والنوم والأكل ونحو ذلك، فالأسماء والصّفات المختصّة بالمخلوق تشمل صفات نقص محض في ذاتها، أو صفات كمال في حقّ المخلوق لكنّها متضمنة لنقص.

(١) دلالة الأسماء الحسنى على التنزيه، لعيسى السعدي، ص١٠٨.

المبحث الثاني

أسماء وصفات تطلق على الخالق والمخلوق

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلـــــب الأول: اعتبارها من حيث هي مطلقًا.

المطلـب الثــاني: اعتبارها مضافة.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولىٰ: مضافة للخالق مختصة به.

المسألة الثانية: مضافة للمخلوق مختصة به.

تمهيـــــــــــد

ذكرنا أن هناك أسماء وصفات يختص بها الخالق، وأسماء وصفات يختص بها المخلوق، وهنا ستتكلم عن الأسماء والصفات التي تطلق على الخالق والمخلوق، وهي كثيرة جدًا وقد تكررت في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ فالخالق سمّىٰ نفسه بأسماء، وسمّىٰ بها بعض خلقه، ووصف نفسه بصفات، ووصف بها بعض خلقه، ومن ذلك أنه ــ جل وعلا ــ أخبرنا عن نفسه فقال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وأخبرنا عن الإنسان فقال: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢].

وأخبرنا أنه يرىٰ فقال: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]، وقال لموسىٰ وهارون ــ عليهما السلام: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] فأثبت لهما الرؤية.

وقال أيضًا عن نفسه ـ سبحانه: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧]، وقال عن الإنسان: ﴿تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ [المائدة: ٨٣] فأثبت أن لنفسه صفة العين ولبعض خلقه هذه الصفة.

وكذلك صفة اليد أثبتها لنفسه فقال لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥]، وأثبت للمخلوق يدًا فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٢].

وقال في صفة الاستواء كذلك: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] وأخبرنا عن خلقه أنهم يستوون علىٰ ظهور الدواب فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ١٢، ١٣].

وقد سمّىٰ الخالق نفسه عزيزًا فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦]، وسمّىٰ بعض خلقه بهذا الاسم فقال: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٣٠].

وكذا سمىٰ نفسه بالملك فقال: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [طه: ١١٤] وسمىٰ بعض خلقه ملكًا فقال: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾ [يوسف: ٥٠]. وأعلمنا ــ جل جلاله ــ أنه العظيم فقال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ووصف بعض خلقه بأنه عظيم فقال: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

والخالق ـ عز وجل ـ الحفيظ العليم، وأخبرنا أن يوسف ـ عليه السلام ـ قال للملك في وصف نفسه: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]، وقد ذكر ابن خزيمة(١) رَحِمَهُ ٱللَّهُ أمثلة كثيرة علىٰ غرار ما سبق(٢).

ومعتقد أهل السنة والجماعة في الأسماء والصفات التي تطلق علىٰ الخالق والمخلوق، أنهم يثبتونها للخالق والمخلوق علىٰ الحقيقة، ولا يعني إثباتها التشبيه بين الخالق والمخلوق وعدم التفريق بينهما، ولا استواء الطرفين في معانيها؛ وإنما المراد منها يكون حسب ما تضاف إليه، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «فهذه الصفات لها ثلاث اعتبارات: تارة تعتبر مضافة إلىٰ الرب. وتارة تعتبر مضافة إلىٰ العبد، وتارة تعتبر مطلقة لا تختص بالرب ولا بالعبد. فإذا قال العبد: حياة الله وعلم الله وقدرة الله وكلام الله ونحو ذلك، فهذا كله غير مخلوق ولا يماثل صفات المخلوقين، وإذا قال علم العبد وقدرة العبد وكلام العبد، فهذا كله مخلوق ولا يماثل صفات الرب. وإذا قال العلم والقدرة والكلام، فهذا مجمل مطلق.»(٣)

---

(١) أبو بكر السلمي النيسابوري، الشافعي، كان فقيهًا مجتهدًا، عالمًا بالحديث، وهو حافظ ثبت إمام، عني في حداثته بالحديث والفقه، من مصنفاته (التوحيد وإثبات صفة الرب)، و(صحيح ابن خزيمة)، وفاته: في ثاني ذي القعدة، سنة إحدىٰ عشرة وثلاث مائة، المرجع: سير أعلام النبلاء، ج١٤، ص٣٦٥، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٤، ص٥٧، والأعلام للزركلي، ج٦، ص٢٩.

(٢) انظر: التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل، لابن خزيمة، ج١، ص ٥٨-٨٠.

(٣) مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج١٢، ص ٦٦.

ويقول الإمام ابن القيم: «الاسم والصفة من هذا النوع له ثلاث اعتبارات:

اعتبار من حيث هو، مع قطع النظر عن تقييده بالرب أو العبد.

الاعتبار الثاني: اعتباره مضافا إلىٰ الرب مختصًا به.

الثالث: اعتباره مضافًا إلىٰ العبد مقيدًا به، فما لزم الاسم لذاته وحقيقته؛ كان ثابتًا للرب والعبد، وللرب منه ما يليق بكماله، وللعبد منه ما يليق به»[1].

ويمكننا من خلال ما سبق أن نقول: إن الأسماء والصفات من هذا النوع لها اعتباران:

١ ـ اعتبارها من حيث هي مطلقًا، دون إضافة للخالق أو المخلوق.

٢ ـ اعتبارها مضافة، وهي نوعان:

- مضافة للخالق مختصة به.
- مضافة للمخلوق مختصة به.

وفيما يلي بيان ذلك.

(١) بدائع الفوائد، لابن القيم، ج١، ص ٢٩٠.

المطلب الأولى

اعتبارها من حيث هي مطلقًا

إذا اعتبرنا هذه الأسماء والصفات من حيث هي مطلقًا، فإن هناك قدرًا مشتركًا من المعنىٰ بين الخالق والمخلوق، وهذا القدر المشترك هو المعنىٰ اللغوي الذي يفهم من كلام العرب، ولكن هذه المعان هي معاني متصورة في الأذهان فقط، وليس لها وجود في خارج الذهن ـ يعني في الواقع ـ فهي معاني عامة كلية تطلق اطلاقًا ذهنيًا فقط؛ فإذا ما أضيفت إلىٰ الخالق أو المخلوق فإنها تكون مختصة به غير قابلة للاشتراك مع غيره[1]، وتكون معانيها دالّة علىٰ الفارق بين الخالق والمخلوق، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «ولكن ليس للمطلق مسمىٰ موجود في الخارج ولكن العقل يفهم من المطلق قدرًا مشتركًا بين المسميين، وعند الاختصاص يقيد ذلك بما يتميز به الخالق عن المخلوق والمخلوق عن الخالق»[2].

ويقول ابن أبي العز: «وإذا اتفقا في مسمىٰ الوجود والعلم والقدرة، فهذا المشترك مطلق كلي يوجد في الأذهان لا في الأعيان، والموجود في الأعيان مختص لا اشتراك فيه»[3].

فاللفظ متىٰ استعمل بدون أن يضاف إلىٰ معين فلم يضف إلىٰ الخالق ولا إلىٰ المخلوق، فإنه يستعمل كاستعمال النكرات وأسماء الأجناس لا تدل علىٰ فرد بعينه، بل تعم جميع أفرادها، فهي أسماء متواطئة في الخالق والمخلوق[4]، أي أن الأسماء والصفات المشتركة بين الخالق والمخلوق عند الإطلاق تعتبر من قبيل المتواطيء المشكك[5]، ومن

---

(١) انظر: القدر المشترك في معاني الصفات بين أهل السنة ومخالفيهم، لعبد الرحمن القصير، ص٣٥.

(٢) الرسالة التدمرية، لابن تيمية، ص٢٢.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز، ص٦٣.

(٤) انظر: القواعد الكلية، لإبراهيم البريكان، ص٢٦٦.

(٥) وهو ما كان معناه متفاوتا متفاضلا مثل لفظ " النور " يقال نور الشمس ونور السراج فالمعنىٰ في الاثنين واحد ولكن هناك تفاوت وتفاضل فشتان بين نور الشمس ونور السراج، يقول ابن تَيْمِيَّة: «هذه الألفاظ كلّها =

ذلك أن الخالق أخبرنا عن الجنة أن فيها لحمًا، ولبنًا، وعسلًا، وماء، وحريرًا، وذهبًا، قال ابن عباس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ليس في الدنيا مما في الجنة شيء إلا الأسماء»[1]، فهذه مشاهدة وتلك غيبية أسماءها متفقة وصفاتها متباينة والفارق بينها عظيم؛ فإذا كان هذا بين المخلوق والمخلوق فالفارق بين الخالق والمخلوق أعظم وأكبر وإن اتفقت الأسماء[2].

قال ابن خزيمة رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكل من فهم عن الله خطابه: يعلم أن هذه الأسامي التي هي لله تعالىٰ أسامي، بين الله ذلك في كتابه وعلىٰ لسان نبيه ﷺ، مما قد أوقع تلك الأسامي علىٰ بعض المخلوقين، ليس علىٰ معنىٰ تشبيه المخلوق بالخالق، لأن الأسامي قد تتفق وتختلف المعاني، فالنور: وإن كان اسما لله، فقد يقع اسم النور علىٰ بعض المخلوقين، فليس معنىٰ النور الذىٰ هو اسم لله في المعنىٰ مثل النور الذىٰ هو خلق الله. قال الله جل وعلا: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥] وأخبر أيضًا أن لأهل الجنة نورًا يسعىٰ بين أيديهم وبأيمانهم، وقد أوقع الله اسم النور علىٰ معان»[3]، إلىٰ أن قال: «فتفهموا ـ يا ذوىٰ الحجا ـ ما بينت في هذا الفصل، تعلموا وتستيقنوا أن لخالقنا ـ عز وجل ـ أسام قد تقع تلك الأسامي علىٰ بعض خلقه في اللفظ ـ لا علىٰ المعنىٰ ـ علىٰ ما قد بينت في هذا الفصل من الكتاب والسنة ولغة العرب»[4]، والمقصود أنه وفي حال إطلاق الاسم والصفة يكون هناك قدر مشترك بين الخالق والمخلوق، وهذا القدر المشترك ليس هو التمثيل الذي ذمته وحذرت منه نصوص الكتاب والسنة، وإنما حذرت مما يستلزم أن يشترك فيه المخلوق مع الخالق فيما هو من

=

متواطئة، وإذا قيل: إنّها مشككة لتفاضل معانيها فالمشكك نوع من المتواطئ العام الَّذي يراعىٰ فيه دلالة اللّفظ علىٰ القدر المشترك سواء كان المعنىٰ متفاضلاً في موارده، أو متماثلاً».

(١) سبق تخريجه، ص١٥٩.

(٢) انظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج٥، ص ٢٥٧، ٢٥٨.

(٣) التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل، لابن خزيمة، ص٧٩، ٨٠.

(٤) المرجع السابق.

خصائص الخالق أو خصائص المخلوق[1]، فإثبات القدر المشترك لا يلزم منه عدم إثبات الفارق.

ومن الأسباب الداعية إلىٰ القول بجواز القول بالقدر المشترك:

«١ ـ أنّ المراد بالقدر المشترك الاشتراك في معنىٰ اللّفظ ولوازمه، وأنّ المعنىٰ العام يطلق علىٰ الربّ والعبد، لا أنّهما يشتركان في كليّات مطلقة في الخارج، أو يشتركان فيما يختصّ به أحدهما.

٢ ـ أنّ القدر المشترك كلّي مطلق، لا يختصّ بأحدهما دون الآخر، فلا يستلزم إثباته الوقوع في التّشبيه الباطل عقلاً ونقلاً؛ إذ لم يقع بينهما اشتراك، لا فيما يختصّ بالممكن المحدث، ولا فيما يختصّ بالواجب القديم.

٣ ـ أنّ القدر المشترك لا يقتضي إثبات ما يمتنع علىٰ الربِّ، ولا نفي ما يستحقّه، وكذلك لازمه؛ فإنّه لا يقتضي حدوثًا، ولا إمكانًا، ولا نقصًا، ولا شيئًا ممّا ينافي صفات الرّبوبيّة.

٤ ـ أنّ القدر المشترك من لوازم الوجود؛ فكلّ موجودين لا بُدّ بينهما من مثل هذا، ومن نفاه لزمه التّعطيل التام؛ ولهذا لمّا اطّلع الأئمة علىٰ أنّ هذا حقيقة قول الجهميّة سمّوهم معطّلة؛ لأنّ رفع القدر المشترك ألزمهم تعطيل وجود كلّ موجود»[2].؛ ولهذا فما لزم هذه الأسماء لذاتها فلا محذور في إثباته للخالق، بل يثبت له بدون مماثلة للمخلوق، فنفيه عن الخالق كونه أُطلق علىٰ المخلوق فيه إلحاد في أسماء الله وجحد لصفاته، وإثباته له سبحانه علىٰ وجه يماثل الخلق، فيه تشبيه للخالق بالمخلوق وهو كفر، وإثباته له علىٰ وجه لا يماثل خلقه، بل يليق بكماله وعظمته، فيه تبرؤ من فرث التشبيه ودم التعطيل، وهذا هو طريق أهل السّنة[3].

(١) انظر: التدمرية، لابن تيمية، ص٣٩، ٤٠.

(٢) دلالة الأسماء الحسنىٰ علىٰ التنزيه، لعيسىٰ السعدي، ص٥٤.

(٣) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم، ج١، ص ٢٩١.

فصار اثبات القدر المشترك بين الخالق والمخلوق حال اطلاق الاسم والصفة، لا محذور فيه، بل هو واجب لفهم معاني الأسماء والصفات.

المطلب الثاني

اعتبارها مضافة

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: مضافة إلى الخالق مختصة به:

إذا أضيفت الأسماء والصفات إلىٰ الخالق فسمّىٰ نفسه بأسماء، ووصف نفسه بصفات، فما يلزم منها فإنه يكون مختص بالخالق، لا يشاركه المخلوق فيها، مهما بلغت منزلته وعلا قدره؛ لأن الاختصاص مانع من المشاركة(١).

قال الإمام ابن القيم: «وما لزم الصفة من جهة اختصاصه ـ تعالىٰ ـ بها؛ فإنه لا يثبت للمخلوق بوجه، كعلمه الذي يلزمه القدم والوجوب والإحاطة بكل معلوم، وقدرته وإرادته وسائر صفاته، فإن ما يختص به منها لا يمكن إثباته للمخلوق»(٢).

فالأسماء والصفات والحال هذه تتبع الذات، فكما أن ذاته لا تماثل ذوات المخلوقين، بل هي مباينة لها، فكذلك الأسماء والصفات المضافة إليه سبحانه لا تماثل أسماء وصفات المخلوقين بل هي مباينة لها(٣).

المسألة الثانية: مضافة للمخلوق مختصة به:

إذا أضيفت الأسماء والصفات إلىٰ المخلوق فسُمي بأسماء أو وصف بصفات، فما يلزم منها فإنه يكون مختص بالمخلوق، لا يشاركه الخالق فيها؛ لأن الاختصاص مانع من المشاركة(٤).

---

(١) انظر: التدمرية، لابن تيمية، ص٢٢، والقواعد الكلية، لإبراهيم البريكان، ص٢٦٩.

(٢) بدائع الفوائد، لابن القيم، ج١، ص ٢٩٢.

(٣) انظر: القواعد الكلية، لإبراهيم البريكان، ص ٢٦٧.

(٤) انظر: التدمرية، لابن تيمية، ص٢٢، والقواعد الكلية، لإبراهيم البريكان، ص٢٦٩.

قال الإمام ابن القيم: «وما لزم الصفة لإضافتها إلىٰ العبد وجب نفيه عن الله، كما يلزم حياة العبد من النوم والسنة والحاجة إلىٰ الغذاء ونحو ذلك. وكذلك ما يلزم إرادته من حركة نفسه في جلب ما ينتفع به ودفع ما يتضرر به. وكذلك ما يلزم علوه من احتياجه إلىٰ ما هو عال عليه، وكونه محمولًا به مفتقرًا إليه محاطًا به، كل هذا يجب نفيه عن القدوس السلام ـ تبارك وتعالىٰ ـ»(١).

فالأسماء والصفات والحال هذه تتبع الذات؛ فكما أن ذات المخلوق مباينة لذات الخالق، فكذلك أسماؤه وصفاته مباينة لأسماء وصفات الخالق مفارقة لها.

فصفة الحياة مثلًا ثابتة للخالق والمخلوق، قال تعالىٰ في حق نفسه: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال في حق المخلوق: ﴿ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ ﴾ [الروم: ١٩]، وليس هذا الحي مثل هذا الحي، فيلزم من وصف الخالق بالحياة ألا تسبق بعدم ولا يلحقها فناء، ويلزم من وصف المخلوق بالحياة أن يسبقها العدم ويلحقها الفناء.

وصفة العلم كذلك تطلق علىٰ الخالق والمخلوق، قال تعالىٰ في وصف نفسه ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقال في حق المخلوق: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [الإسراء: ٨٥] وليس العلم كالعلم، فيلزم من وصف الخالق بالعلم الإحاطة بجميع المعلومات، ويلزم من وصف المخلوق بالعلم القصور والجهل ببعض المعلومات.

وهذا يقال كذلك في صفة القوة فهي مما يوصف بها الخالق والمخلوق، قال عز وجل في وصف نفسه بها ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨] وقال في حق المخلوق: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا

(١) بدائع الفوائد، لابن القيم، ج١، ص ٢٩١.

وَشَيۡبَةٗۚ ﴾ [الروم: ٥٤]، وليست القوة كالقوة فقوة الخالق لا يعتريها النقص ولا الزوال، وقوة المخلوق مسبوقة بضعف لاحقة به(١).

والمقصود أن الخالق لا يمكن أن يشارك المخلوق بحال من الأحوال في خصائصه ولا لوازم أسمائه وصفاته، والمخلوق كذلك لا يمكن أن يشارك الخالق في شيء من خصائصه ولا لوازم أسمائه وصفاته(٢).

وإذا اتضحت هذه القاعدة عُلم أن إثبات الصفات المشتركة لا يعني عدم إثبات الفارق بين الخالق والمخلوق، فهي تُحمل في حق الخالق علىٰ ما يليق بعظمته وكماله بما يكون مفارقًا للمخلوق، وتُحمل في حق المخلوق علىٰ ما يليق بضعفه ونقصه بما يكون مفارقًا للخالق(٣)، وعُلم كذلك أن إثبات هذا الفارق لا يعني نفي القدر المشترك من المعنىٰ بين الخالق والمخلوق حال الإطلاق، وبهذا يستقيم الاعتقاد في أسماء الله وصفاته دون غلو ولا جفاء، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الاتفاق في الاسم لا يوجب مماثلة الخالق بالمخلوق، وإنما يوجب الدلالة علىٰ أن بين المسميين قدرًا مشتركًا فقط؛ مع أن المميز الفارق أعظم من المشترك الجامع»(٤).

وهذا القدر الفارق في هذه الصفات المشتركة هو موضوع بحثي وهو ما سأبينه في الباب الثاني إن شاء الله، بشيء من التفصيل والتأصيل في ستّ صفات، وهي العلم والقوة والملك، والمحبة والرحمة والغضب، فنسأل الله التيسير والسداد.

---

(١) انظر: التدمرية، لابن تيمية، ص٢٤، ٢٥، وشرح الطحاوية، لابن أبي العز، ص٩٠، ٩١.

(٢) انظر: القواعد الكلية، لإبراهيم البريكان، ص٢٦٧، ٢٦٩

(٣) انظر: دعوة التوحيد، لمحمد خليل هراس، ص١٣.

(٤) مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج٥، ص ٢٠٢.

البَابُ الثَّانِي

الفارق بين الخالق والمخلوق وأثره على توحيد العبادة

وفيه تمهيد وثلاثة فصول:

التمهيـــــد: **المراد بالصفات الذاتية والفعلية.**

الفصـــل الأول: **الفارق بين الخالق والمخلوق في الصفات الذاتية.**

الفصـل الثـاني: **الفارق بين الخالق والمخلوق في الصفات الفعلية.**

الفصـل الثالـث: **أثر العلم بالفرق في الصفات على استحقاق الخالق للعبـادة وبطلان استحقاق المخلوق للعبادة.**

التمهيد

المراد بالصفات الذاتية والفعلية

الصفات بالنسبة للخالق من حيث ورودها في النص قسمان: ثبوتية، وسلبية:

١- صفات ثبوتية: وهي ما أثبت الله تعالىٰ لنفسه في كتابه، أو علىٰ لسان رسوله ﷺ وكلها صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه، كالحياة، والعلم، والقدرة، والاستواء علىٰ العرش، والنزول إلىٰ السماء الدنيا، والوجه، واليدين، ونحو ذلك، وهذه يجب أن نثبتها للخالق ـ جل وعلا ـ حقيقة علىٰ ما يليق بجلاله وعظمته، مع انتفاء مماثلة المخلوق فيها(١).

٢- صفات سلبية (أي منفية): وهي ما نفاه الخالق سبحانه عن نفسه في كتابه، أو علىٰ لسان رسوله ﷺ وكلّ هذه الصفات هي صفات نقص في حقه، كالموت، والنوم، والجهل، والنسيان، والعجز، والتعب. فيجب أن ننفيها عن الخالق ـ جل وعلا ـ وننزهه عنها مطلقًا مع إثبات ضدها علىٰ الوجه الأكمل(٢).

و«الصفات الثبوتية صفات مدح وكمال فكلما كثرت وتنوعت دلالاتها ظهر من كمال الموصوف بها ما هو أكثر، ولهذا كانت الصفات الثبوتية التي أخبر الله بها عن نفسه أكثر بكثير من الصفات السلبية كما هو معلوم»(٣).

الصفات الثبوتية تنقسم قسمين باعتبار تعلقها بذات الله:

١- الصفات الذاتية: هي الصفات الملازمة للخالق، فهي صفات لا تنفك عن الذات بحال من الأحوال، وهي صفات لم يزل ولا يزال الخالق متصفًا بها فهي أزلية أبدية،

---

(١) انظر: الصفدية، لابن تيمية، ص٦٠، والقواعد المثلىٰ في صفات الله وأسمائه الحسنىٰ، لابن عثيمين، ص٥٩ ـ ٦١.

(٢) المراجع السابقة.

(٣) المرجع السابق، ص٦٢.

وهي قسمان:

أ ـ صفات ذاتية خبرية: وهي ما ثبتت لنا بطريق الخبر، فالعقل لا يستقل بمعرفتها لكنه لا ينفيها، وضابطها: ما كان مسماها بالنسبة لنا أبعاضًا وأجزاء، كالوجه، واليد، والعين.

ب ـ صفات ذاتية معنوية: وهي التي تدل على معنىٰ، أو مالم يكن مسماها لنا أبعاضًا وأجزاء، كالعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والعزة، والحكمة، والعلو، والعظمة.

٢- الصفات الفعلية(١): وهي المتعلقة بمشيئته، فإن شاء فعلها، وإن شاء لم يفعلها، أو هي التي تنفك عن الذات، ومنها: الاستواء ـ المجيء ـ الإتيان ـ النزول ـ الخلق ـ الرزق، وهذا القسم من الصفات جنسه أزلي أبدي، فالخالق لم يزل ولا يزال فعالًا لما يريد، وأما آحاد هذه الأفعال فهي حادثة، بمعنىٰ أنها تحدث شيئًا فشيئًا، فالرضا والغضب مثلًا يحصل حين يفعل العبد فعلًا يوجب الرضا أو الغضب(٢).

فالصفات الذاتية والفعلية تفترقان في أن الصفات الذاتية لا تنفك عن الذات بحال من الأحوال، أما الصفات الفعلية فيمكن أن تنفك عن الذات(٣)، ويشتركان أن كليهما لم يزل ولا يزال متصفًا بها أزلًا وأبدًا(٤).

---

(١) من أهل العلم من يعتبر تسمية الصفات التابعة للمشيئة بالاختيارية أصح من تسميتها بالفعلية، لأنها لا تختص بالأفعال بل تشمل مع ذلك الأحوال والكلمات والإدراكات، مثال الأحوال: الرضا والغضب، ومثال الكلمات: الأمر والنهي، ومثال الإدراكات: السمع والبصر ـ كسمع التهديد والوعيد وسمع الإجابة ـ ومنهم من يطلق عليها فعلية، والظاهر أن هذا الاطلاق لأنها الغالب عليها، ويمكن اعتبار الرضا والغضب أفعال أيضًا، وكذلك الأمر والنهي والكلام، وممن قسمها هذا التقسيم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وسيأتي مزيد بيان.

(٢) انظر: الصفات الإلهية في الكتاب والسنة النبوية، للجامي، ص٢٠١، وشرح العقيدة السفارينية، لابن عثيمين، ص١٥٥، ١٥٦، والصفات الإلهية، لمحمد التميمي، ٦٥، ٦٦.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص٦٥.

(٤) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز، ج١، ص٢٠٤.

الصفات الفعلية من جهة تعلقها بمتعلقها تنقسم قسمين:

١- الصفات المتعدية: وهي ما كان الفعل منها يتعدىٰ إلىٰ مفعول به ويقتضي مفعولًا، فالخلق مثلًا يقتضي مخلوقًا، والرزق يقتضي مرزوقًا.

٢- الصفات اللازمة: وهي ما كان الفعل منها لازمًا فلا يتعدىٰ إلىٰ مفعول به ولا يقتضي مفعولًا[١]، فالنزول، والاستواء علىٰ العرش لا يقتضي مفعولًا، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المجيء والإتيان والذهاب والهبوط هذه من أنواع الفعل اللازم القائم به، كما أن الخلق، والرزق، والإماتة، والإحياء، والقبض، والبسط أنواع الفعل المتعدي وهو سبحانه موصوف بالنوعين وقد يجمعهما كقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]»[٢].

وقسّم شيخ الإسلام ابن تيمية الصفات الثبوتية إلىٰ قسمين: باعتبار لزومها: صفات لازمة وصفات اختيارية (عارضة):

١- الصفات اللازمة: هي الملازمة للموصوف ولا تفارقه، وهي تنقسم إلىٰ:

أ- ذاتية: لا يتصور الذات مع عدمها، مثل: كون الرب قائمًا بنفسه وموجودًا.

ب- معنوية: ما يمكن تصور الذات مع عدمها، مثل: كونه حيًا وعليمًا وقديرًا[٣]، «وإن كان لازمًا للذات فلا يلزمها إلا إذا تصور معينًا يقوم بالذات»[٤].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج١٦، ص٣٧٢، والصفدية، لابن تيمية، ص١٨٠، والصفات الإلهية، لمحمد التميمي، ص٦٦.

(٢) مختصر الصواعق المرسلة، لابن القيم، ج ٣، ص ١٢٢٧.

(٣) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية، ج٣، ص٣٢٢.

(٤) المرجع السابق.

٢- الصفات العارضة: وهي التي يمكن أن تفارق الموصوف مع بقاء ذاته[١]، وهذه قد تكون:

- من باب الأفعال، مثل: الاستواء والنزول.
- أو من باب الأقوال، مثل: الكلام.
- أو من باب الأحوال، مثل: الفرح والغضب.
- أو من باب العلوم والإدراكات، مثل: السمع والبصر[٢].

وبهذا يكون قد اتضح الفرق بين الصفات الفعلية والصفات الذاتية الواردة في البحث، وقد بحثت في ست صفات، منها ثلاث ذاتية، وهي: الملك، والعلم، والقوة، وهذه صفات ملازمة للخالق لا تنفك عنه بحال من الأحوال؛ فلا يمكن أن يأتي زمن فيخرج شيء عن ملك الخالق، ولا يمكن للخالق أن يجهل شيئًا، أو يعتريه الضعف والعجز، وأما الصفات الفعلية فقد اخترت منها صفة المحبة، والرحمة، والغضب[٣]، وكلها صفات يفعلها الخالق إذا شاء، فقد يشاء أن يرحم فلانًا من الناس، وقد لا يشاء فيعذّبه، وقد يشاء أن يغضب علىٰ فلان، وقد لا يشاء فيحلم عنه، وقد يشاء أن يحب فلانًا وقد لا يشاء فيكرهه، وسيظهر ذلك خلال الفصول القادمة، بإذن الله.

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية، ج٣، ص٣٢١.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٢٣.

(٣) وهي من باب الأحوال علىٰ تقسيم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الفصل الأول

الفارق بين الخالق والمخلوق في الصفات الذاتية

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الفارق بين الخالق والمخلوق في صفة العلم.

المبحث الثاني: الفارق بين الخالق والمخلوق في صفة القوة.

المبحث الثالث: الفارق بين الخالق والمخلوق في صفة الملك.

المبحث الأول

الفارق بين الخالق والمخلوق في صفة العلم

وفيه مطلبان:

المطلـــــب الأول: معنى صفة العلم والأدلة على ثبوتها في حق الخالق والمخلوق.

وفيه أربعة مسائل:

المسألة الأولىٰ: معنىٰ صفة العلم في اللغة.

المسألة الثانية: معنىٰ صفة العلم في حق الخالق.

المسألة الثالثة: معنىٰ صفة العلم في حق المخلوق.

المسألة الرابعة: الأدلة علىٰ ثبوت صفة العلم في حق الخالق والمخلوق.

المطلــب الثــاني: الفارق بين الخالق والمخلوق في صفة العلم.

المطلب الأول

معنى صفة العلم والأدلة على ثبوتها في حق الخالق والمخلوق

المسألة الأولى: معنى صفة العلم في اللغة:

«العين واللام والميم أصل صحيح واحد، يدل علىٰ أثر بالشيء يتميز به عن غيره. من ذلك العلامة، وهي معروفة... والعلم: نقيض الجهل»[(١)].

و«عَلِم عِلْماً وعَلُمَ هو نَفْسُه، ورجل عالمٌ وعَلِيمٌ من قومٍ عُلماءَ...وعَلاّمٌ وعَلاّمةٌ إذا بالغت في وصفه بالعِلْم أي عالم جِداً،...وعلم بالشيء: شعر. يقال: ما علمت بخبر قدومه أي ما شعرت... وعلم الأمر وتعلمه: أتقنه... ويجوز أن تقول علمت الشيء بمعنىٰ عرفته وخبرته»[(٢)]، وعليم علىٰ وزن فعيل من أبنية المبالغة[(٣)].

المسألة الثانية: معنى صفة العلم في حق الخالق:

صفة العلم من الصفات الذاتية:

الخالق ـ سبحانه وتعالىٰ ـ عليم.وصفة العلم في حقه لا يدرك حقيقتها مخلوق، وصفة العلم بالنسبة للخالق صفة ذاتية؛ فهو لم يزل ولا يزال عالمًا، لا ينفك عنه هذا الوصف بحال من الأحوال، ولا يمكن أن يأتي زمن فيجهل شيء من خلقه، قال الحكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن علم الله: «وهو من صفاته الذاتية، وعلمه أزلي بأزليته، وكذلك جميع صفاته»[(٤)].

وقال الشيخ السعدي عند قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]: «وكثيرا ما يقرن بين

(١) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، ج٢، ص١٥٩، مادة "علم".

(٢) لسان العرب، لابن منظور، ج٩، ص٣٧١، مادة "علم".

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، ج٣، ص٢٩٢.

(٤) معارج القبول بشرح سلم الوصول، حافظ الحكمي، ج٢، ص٢٣٧.

خلقه للخلق وإثبات علمه كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] لأن خلقه للمخلوقات، أدل دليل علىٰ علمه، وحكمته، وقدرته»[(١)]، فقوله تعالىٰ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾، أي كيف لا يعلم عن الخلق وهو خالقهم وهو الخبير بهم وبأعمالهم؟[(٢)].

معنىٰ صفة العلم:

معنىٰ صفة العلم في حق الخالق أنه قد أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والسّر والعلن، والغيب والشهادة، واختص بمفاتح الغيب فلا يعلمها إلا هو، عليم بالماضي والحاضر والمستقبل، يعلم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، وعلمه شامل للعالم العلوي والسفلي، يعلم ما في السموات وما في الأرض لا يخفىٰ عليه شيء فيها، فيعلم جليل الأمور، وحقيرها، وصغيرها، وكبيرها، وكلياتها، وجزئياتها، علمه وسع كل شيء، وأحاط بكل شيء، بالواجبات، والممكنات والممتنعات[(٣)]، لم يزل عالمًا ولا يزال، لا يسبق علمه جهل، ولا يلحقه نسيان[(٤)].

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٤٨.

(٢) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٢٣، ص١٢٧.

(٣) والمقصود بالواجبات، والممتنعات، والممكنات، ما قال السعدي: «فيعلم تعالىٰ نفسه الكريمة ونعوته المقدسة وأوصافه العظيمة وهىٰ الواجبات التي لا يمكن إلا وجودها، ويعلم الممتنعات حال امتناعها، ويعلم ما يترتب علىٰ وجودها لو وجدت، كما قال تعالىٰ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾. وقال أيضًا في قوله تعالىٰ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾، «فهذا وشبهه من ذكر علمه بالممتنعات التي يعلمها، وإخباره بما ينشأ منها لو وجدت علىٰ وجه الفرض والتقدير، ويعلم تعالىٰ الممكنات، وهىٰ التي يجوز وجودها وعدمها ما وجد منها وما لم يوجد مما لم تقتض الحكمة إيجاده»، الحق الواضح المبين، لعبد الرحمن السعدي، ص٣٦ ـ ٣٨.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٩٤٥، الحق الواضح المبين، لعبد الرحمن السعدي، ص٣٦-٣٨، وتفسير القرآن الكريم، لمحمد العثيمين، سورة البقرة، ج٣، ص٢٥٣، وفقه الأسماء الحسنىٰ، =

المسألة الثالثة: معنى صفة العلم في حق المخلوق:

- **معنىٰ صفة العلم:**

المخلوق لا يخرج حاله عند إدراك مسألة عن خمسة أمور: الجهل، والشك، والظّن، والوهم، والعلم، فأما الجهل: فالجهل منه البسيط: وهو عدم إدراك الشيء والعلم به، ومنه المركب وهو اعتقاد الشيء خلاف ما هو عليه[1]، قال تعالىٰ: ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]، فهذا جهل بسيط.

وأما الشك: فهو التردد بين أمرين، بدون أن يرجح أحدهما علىٰ الآخر[2]، قال تعالىٰ: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ [النساء: ١٥٧].

والظّن: هو أن يرجح أحد طرفي المُتردد فيه[3]، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨].

والوهم: وهو المرجوح من هذا المُتردد فيه[4].

وأما العلم فهو: «الاعتقاد الجازم المطابق للواقع»[5].

=

لعبد الرزاق البدر، ص١٦١، ١٦٢.

(١) انظر: الكليات، لأبىٰ البقاء الكفومىٰ، ص٣٥٠.

(٢) انظر: التعريفات، للجرجاني، ت: المرعشلي، ص٢٠٣.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص ٢١٩.

(٤) انظر: الكليات، لأبىٰ البقاء الكفومي، ص٩٤٣.

(٥) التعريفات، للجرجاني، ت: المرعشلي، ص٢٣٢، ٢٣٣.

أنواع العلم:

والعلم كلمة مطلقة تشمل العلم الشرعي "الديني"، وغير الشرعي "الدنيوي":

- فأما العلم الشرعي: فكل علم أنزله الله على رسوله ﷺ من البيّنات والهدى فهو من علم الشرع[1]، أو ماما استنبطه العلماء من الكتاب والسّنة، والواجب منه ما ذكره الحافظ ابن حجر في تعريفه فقال: «العلم الشرعي الذي يفيد معرفة ما يجب على المكلف من أمر دينه في عباداته ومعاملاته، والعلم بالله وصفاته، وما يجب له من القيام بأمره، وتنزيهه عن النقائص»[2].

- وأما العلم الدنيوي: فهو ما كان مستنده التجربة أو البرهان الكافية في صحة هذا العلم[3]، فصار العلم الشرعي مستنده الشرع، والعلم الدنيوي مستنده التجربة والبرهان.

وقد مُدح العلم في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، قال ابن عاشور[4]رحمه الله: «والمراد بالعلماء: العلماء بالله وبالشريعة، وعلى حسب مقدار العلم في ذلك تقوى الخشية، فأما العلماء بعلوم لا تتعلق بمعرفة الله وثوابه وعقابه معرفة على وجهها فليست علومهم بمقربة لهم من خشية الله، ذلك لأن العالم بالشريعة لا تلتبس عليه حقائق الأسماء الشرعية فهو يفهم مواقعها حق الفهم

(١) انظر: كتاب العلم، لابن عثيمين، ص١٣.

(٢) فتح الباري، ابن حجر، ج١، ص١٨٧.

(٣) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، للحوالي، الإتباع والتسليم، الدرس الثالث، من موقع الشيخ حفظه الله على الشبكة العنكبوتية.

(٤) محمد الطاهر بن عاشور: رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس. توفي سنة ١٣٩٣هـ، وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة. له مصنفات مطبوعة، من أشهرها (مقاصد الشريعة الإسلامية) و (أصول النظام الاجتماعي في الإسلام) و (التحرير والتنوير) في تفسير القرآن، صدر منه عشرة أجزاء. المرجع: الأعلام للزركلي، ج٦، ص١٧٤.

ويرعاها في مواقعها ويعلم عواقبها من خير أو شر، فهو يأتي ويدع من الأعمال ما فيه مراد الله ومقصد شرعه، فإن هو خالف ما دعت إليه الشريعة في بعض الأحوال أو في بعض الأوقات لداعي شهوة أو هوىٰ أو تعجل نفع دنيوي كان في حال المخالفة موقنا أنه مورط فيما لا تحمد عقباه، فذلك الإيقان لا يلبث أن ينصرف به عن الاسترسال في المخالفة بالإقلاع أو الإقلال. وغير العالم إن اهتدىٰ بالعلماء فسعيه مثل سعي العلماء وخشيته متولدة عن خشية العلماء»(١).

وجاء في صحيح البخاري عن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين**»(٢).

وروىٰ أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا إنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر**»(٣).

والعلوم الدنيوية ممدوحة بحسب ما تؤول إليه، فهي إما وسائل للخير أو وسائل إلىٰ الشّر(٤).

صور العلم:

وعلم المخلوق قد يكون في الذهن، أو في اللسان، أو كتابة بالقلم، فهو إما ذهني، أو لفظي، أو رسمي. والأخير يستلزم البقية ولا عكس؛ ولهذا امتن الله به علىٰ عباده فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ٣- ٥]، وجاء عن أنس ــ

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج٢٢، ص٣٠٤، ٣٠٥.

(٢) رواه البخاري، كتاب العلم، باب: من يرد به خيرا يقهه في الدين، رقم الحديث ٧١، ص ٣٩.

(٣) رواه الترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه علىٰ العبادة، رقم الحديث ٢٦٨٢، ص٦٠٤، حسّنه ابن حجر في تخريج مشكاة المصابيح، وصححه الألباني.

(٤) انظر: كتاب العلم، لابن عثيمين، ص١٤.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ أنه قال: (قيدوا العلم بالكتاب)[١]؛ لأن علم المخلوق يحتاج إلىٰ تعاهد وحفظ[٢] وإلا فإنه ينساه ويزول عنه.

المسألة الرابعة: الأدلة على ثبوت صفة العلم في حق الخالق والمخلوق:

- **الأدلة علىٰ صفة العلم في حق الخالق:**

أولًا: الدليل من الكتاب:

١ - وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧].

٢ ـ وقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ثانيًا: الدليل من السنة:

١ ـ حديث الاستخارة: «**اللهم إني أستخيرك بعلمك....**»[٣].

٢ ـ حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وقول الخضر لموسىٰ عليهما السلام: «**إني علىٰ علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت علىٰ علم علمكه لا أعلمه**»[٤].

- **الأدلة علىٰ صفة العلم في حق المخلوق:**

أولًا: الدليل من الكتاب:

١ ـ ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

---

(١) المستدرك علىٰ الصحيحين، للحاكم، كتاب العلم، باب قيدوا العلم بالكتاب، ج١، ص٣٠٣، رقمه ٣٦٧، وإسناده قوي، وذكره ابن كثير في تفسيره، ج٨، ص٤٣٧، وصححه الألباني بمجموع طرقه.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرطبي، ج٣، ص١٤٧.

(٣) رواه البخاري من حديث جابر، كتاب الدعوات، باب: الدعاء عند الاستخارة، رقم الحديث ٦٣٨٢، ص ١٢٢٥-١٢٢٦.

(٤) رواه البخاري، كتاب العلم، باب: ما يستحب للعالم إذا سئل: أي الناس أعلم؟ فيكل العلم إلىٰ الله، رقم الحديث ١٢٢، ص ٤٨-٤٩.

٢ - ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر: ٢٨].

ثانيًا: الدليل من السنة:

١ ـ حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وقول الخضر لموسىٰ عليهما السلام: «**إني علىٰ علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت علىٰ علم علمكه لا أعلمه**»(١).

٢-عن عامر بن واثلة، أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بعُسْفان، وكان عمر يستعمله علىٰ مكة فقال: من استعملت علىٰ أهل الوادي؟ فقال: ابن أبزىٰ؟ قال: ومن ابن أبزىٰ؟ قال: مولىٰ من موالينا قال: فاستخلفت عليهم مولىٰ**!**؟ قال: إنه قارئ لكتاب الله عز وجل، وإنه عالم بالفرائض. قال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: «**إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين**»(٢).

(١) رواه البخاري، كتاب العلم، باب: ما يستحب للعالم إذا سئل: أي الناس أعلم؟ فيكل العلم إلىٰ الله، رقم الحديث ١٢٢، ص ٤٨-٤٩.

(٢) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه، وفضل من تعلم حكمة من فقه أو غيره فعمل بها وعلمها، رقم الحديث ١٨٩٧، ص٣٢٩.

المطلب الثاني

الفارق بين الخالق والمخلوق في صفة العلم

أخبر الخالق سبحانه بالفارق بينه وبين المخلوق في صفة العلم في كثير من الأدلة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقوله: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، فبيّن سبحانه الفرق بين علمه وعلم الإنسان، فهو يعلم من المصالح المشتملة عليها أوامره ونواهيه مالا يعلمه المخلوق(١).

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧]، أي فيعلم من المصالح المتحققة في أقداره ما لا يعلمه المخلوق(٢).

وفرّق بين علمه سبحانه للغيب، وعلمهم القاصر على ما دون ذلك(٣)، قال تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٦].

ومهما كانت منزلة المخلوق وعلمه، ولو كان نبيًا أو مَلَكًا، فلا يزال الفارق موجودًا فهذا الخضر عليه السلام يبيّن لموسى عليه السلام الفارق بين علمهما وعلم الخالق، وذلك

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج١، ص٦٣٢.

(٢) انظر: المرجع السابق، ج٧، ص٣٦٠.

(٣) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٥، ص٤٨٤.

حين جاء عصفور فوقع علىٰ حرف السفينة فنقر نقرة، أو نقرتين في البحر، فقال الخضر عليه السلام[1]: «**ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من البحر**»[2]، فالفرق بين ما أخذ العصفور من البحر وما أبقىٰ هو صورة تقريبيّة للفرق بين علم المخلوق وعلم الخالق، فماذا تساوي النقرة والنقرتين بجانب البحر الخِضم؟ وإذا كانت هذه علوم الأنبياء والموحىٰ لهم من الله لا تساوي شيئًا أمام علم الخالق، فكيف بغيرهم؟! ولهذا نفىٰ الأنبياء عن أنفسهم العلم وأثبتوه للخالق، فقال عيسىٰ ـ عليه السلام ـ عن نفسه: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ١١٦﴾ [المائدة: ١١٦]، ويقول تعالىٰ لنبيه محمد ﷺ مبينًا قصور علمه وكمال علم الله تعالىٰ: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١].

وكلّ الأنبياء تقرّ بالفارق وتنفىٰ العلم عنها، قال تعالىٰ: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: ١٠٩].

لوازم صفة العلم:

العلم صفة مشتركة بين الخالق والمخلوق وفيها قدر مشترك، فقد وصف نفسه سبحانه بأنه عليم، ووصف عباده كذلك بهذا الوصف، ولا يلزم من هذا الاشتراك التماثل فللخالق ما يليق بعظمته وجلاله، وللمخلوق ما يليق بنقصه، فعلوم الخلق مع أنها واسعة ومتنوعة إلا أنها لما تُنسب إلىٰ علم الخالق تضمحلّ وتتلاشىٰ[3].

---

(١) والخضر -عليه السلام- نبي علىٰ الصحيح من أقوال أهل العلم، المرجع: شرح كتاب التوحيد، للغنيمان، ج٢، ص٢٥٥.

(٢) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر ﷺ رقم الحديث ٦١٦٣، ص١٠٤٥.

(٣) انظر: الحق الواضح المبين، عبد الرحمن السعدي، ص٣٧.

وهذا القدر المشترك بين الخالق والمخلوق في صفة العلم ثابت، ولكنه لا يكون إلا في الذهن، وهو المعنىٰ العام لهذه الصفة، ولا يستلزم نقصًا في حق الخالق، أما في خارج الذهن فلكل موصوف ما يليق به من هذا المعنىٰ، فإن وصف به الخالق استلزم كمالًا لا نقص فيه، وإن وصف به المخلوق استلزم نقصًا، فمتىٰ ما أضيف العلم إلىٰ الخالق فهو قطعًا ليس كعلم المخلوق ولا يدخل علم المخلوق فيه، ومتىٰ ما أضيف العلم إلىٰ المخلوق فهو قطعًا ليس كعلم الخالق، ولا يدخل علم الخالق فيه(١).

فصفة العلم من الصفات المشتركة التي يلزم منها لوازم وهي علىٰ ثلاثة أنواع:

١ ـ لوازم بصرف النظر عمن أضيفت إليه صفة العلم: وهو المعنىٰ العام لصفة العلم ويراد به ما هو ضدّ الجهل وهو إدراك الأشياء علىٰ ماهي عليه، وهذا القدر مشترك بين الخالق والمخلوق(٢)، وفي هذا القدر المشترك ثبتت المفاضلة بين الخالق والمخلوق في صفة العلم، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ [آل عمران: ٣٦] أي أعلم من كل الخلق بما وضعت(٣).

٢ ـ لوازم عند إضافة صفة العلم للخالق ومنها: العلم المطلق زمانًا ومكانًا وحالًا.

٣ ـ لوازم عند إضافة صفة العلم للمخلوق ومنها: قصور العلم زمانًا ومكانًا وحالًا.

واللازم عند الإضافة هو الذي يظهر فيه الفرق بين الخالق والمخلوق، ومن الفروقات بين الخالق والمخلوق في صفة العلم ما يلي:

---

(١) انظر: الصفدية، لابن تيمية، ص١٧٢، مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج٥، ص٢٠٠.

(٢) انظر: شرح الرسالة التدمرية، عبد الرحمن البراك، ص١٠٩.

(٣) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٥، ص٣٣٦.

الفرق الأول: الفرق في مصدرية العلم:

الخالق مستغن عما سواه في علمه بالأشياء بل هو من يهب العلم لخلقه، والمخلوق علمه من تعليم الله له، والأصل فيه الجهل فهو غير مستغن عن غيره في علمه بالأشياء.

والمراد بهذا الفرق أنّ الخالق مستغن عمّا سواه في علمه بالأمور، وهو المعلّم لكلّ من عَلِم شيئًا(١)، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الموجود إما عالم بنفسه، وإما محتاج في العلم إلىٰ من يعلمه، وإما أن لا يقبل العلم، ومعلوم أن الإنسان مفتقر في حصول علمه إلىٰ من يعلمه، ليس علمه من لوازم ذاته، فإنه خرج من بطن أمه لا يعلم شيئا، ثم حدث له العلم بعد ذلك، فثبت أن في الموجود ما ليس عالما بنفسه، بل هو مفتقر في حصول العلم له إلىٰ من يعلمه، ومعلوم أن كل ما ليس بعالم بنفسه فلا بد له من عالم يعلمه، وذاك العلم إن كان عالما بنفسه وإلا افتقر إلىٰ عالم بنفسه، فلا بد له من عالم يعلمه وذاك العالم إن كان عالما بنفسه وإلا افتقر إلىٰ عالم بنفسه فلا بد أن ينتهي الأمر إلىٰ عالم بنفسه قطعا للتسلسل الممتنع، فثبت أن في الوجود ما هو عالم بنفسه، وما ليس عالما بنفسه، بل بمن يعلمه»(٢)، فالعالم بنفسه هو الخالق، وما ليس عالمًا بنفسه هو المخلوق، وقال أيضًا: «علمه بالمستقبل قبل ان يكون مستلزم لخلقه له، فإنه سبحانه لا يستفيد العلم من غيره كالملائكة والبشر ولكن علمه من لوازم نفسه»(٣)، وقال الزجاجي(٤): «علم الله عز وجل ليس كعلم الآدميين، وهو يعرف الأشياء علىٰ حقائقها بغير استدلال ولا سبب عز وجل وعلا علوا كبيرا»(٥)، أي

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية، ج١٠، ص١٥.

(٢) المرجع السابق، ج٣، ص١١٦.

(٣) مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج٨، ص٤٩٣.

(٤) يوسف بن عبد الله الزجاجي الجرجاني، أبو القاسم: أديب لغويّ. محدث. نسبته إلىٰ عمل الزجاج وبيعه. توفي سنة ٤١٥هـ، من كتبه " عمدة الكتاب وعدة ذوي الألباب " في جامعة الرياض و " الرياحين " و "اشتقاق الأسماء " المرجع: الأعلام للزركلي، ج٨، ص٢٣٩، ومعجم المؤلفين، ج١٣، ص٣١٢.

(٥) اشتقاق أسماء الله، عبد الرحمن الزجاجي، ص ٥٢.

أن علمه سبق الأشياء وكان سببًا لها، وأما علم المخلوق فقد استفاده من الأشياء[1].

فالخالق سبحانه لا يعلمّه أحد شيئًا من العلم، حتىٰ لو كان ما يخفيه الناس في قلوبهم، بل يعلمها قبل أن تستقر في قلوبهم، قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فنفىٰ أن يعلم أحد شيئًا من علمه إلا بمشيئته ليس إلا أنه منفرد بالتعليم، فهو العالم بالمعلومات، ولا يعلم أحد شيئًا إلا بتعليمه»[2].

وهو من علّم الملائكة، قال تعالىٰ: ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٢]، قال الإمام الطبري: «إنك أنت يا ربنا العليم ـ من غير تعليم ـ بجميع ما قد كان، وما وهو كائن، والعالم للغيوب دون جميع خلقك. وذلك أنهم نفوا عن أنفسهم بقولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ﴾. أن يكون لهم علم إلا ما علمهم ربهم، وأثبتوا ما نفوا عن أنفسهم من ذلك لربهم بقولهم: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾. يعنون بذلك العالم من غير تعليم؛ إذ كان من سواك لا يعلم شيئًا إلا بتعليم غيره إياه»[3].

وهو سبحانه من علّم آدم ـ عليه السلام ــ أبا البشر، قال تعالىٰ: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١].

وهو من علّم أنبياءه ـ عليهم السلام ـ تفضلًا منه وتكرمًا، كما قال تعالىٰ لنبيه داود ــ عليه السلام: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ﴾ [البقرة:٣٥١].

(١) انظر: المنهج الأسنىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ، زين شحاته، ص ٣٧٧.

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لابن تيمية، ج٣، ص٢١٠.

(٣) جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١، ص٥٢٨، ٥٢٩.

وقال على لسان يوسف ـ عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

وقال في حق عيسى عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ﴾ [المائدة: ١١٠].

وقال لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، وهذا شامل لكل علم عَلِمه ﷺ فقد كان قبل النبوة كما قال تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧].

وعلّم الخلق كلهم بلا استثناء ما لم يكونوا يعلمون، قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٩]، بل علّمهم ما لم يعلّمهم آباؤهم، قال تعالى: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ﴾ [الأنعام: ٩١]، وتعليمه لهم بأسباب أوجدها، يكتسبون عن طريقها العلم، كالسمع والبصر والفؤاد، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، وكسؤال أهل العلم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]، وعلمه كذلك بالقلم ليحفظ هذا العلم(١)، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٤، ٥]،

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٩٣٠.

وتعليم الخالق لخلقه لا يقتصر علىٰ تعلميهم العلوم الدينية بل حتىٰ العلوم الدنيوية قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠]، وقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [المائدة: ٤]، وعلّم أحد ابني آدم كيف يدفن أخاه بطريق لطيف، فأرسل الغراب ليريه كيف يواري سوءة أخيه، فله الحمد أولًا وآخرًا.

ولأنه المنفرد بتعليم الخلق فقد ذمّ سبحانه وعاقب من ينسب النعمة لنفسه بسبب علمه وكأن هذا العلم من تلقاء نفسه وليس هبة من الخالق قال تعالىٰ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

والمقصود أن الخالق غني بذاته وعلمه ملازم لذاته فلا يحتاج إلىٰ من يعلمّه ولم يستفد العلم من غيره بل هو من يعلّم خلقه ما يشاء، وهو عالم بدون استدلال ولا سبب، وأما المخلوق فعلمه مكتسب، وهو مفتقر إلىٰ من يعلمّه، خُلِق وهو لا يعلم شيئًا، فهيأ الله له أسباب يتعلم بها.

الفرق الثاني: الفرق في الدوام:

الخالق علمه أزلي أبدي لا يسبقه جهل ولا يلحقه النسيان، والمخلوق علمه زائل فهو مسبوق بالجهل ويلحقه النسيان والذهول(١).

النسيان والجهل صفات نقص يتنزه الخالق عنها، فعلمه دائم أزلي، وحين سأل فرعون موسىٰ عليه السلام فقال له: ما بال القرون الأولىٰ؟ أجابه: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]، أي: لا يجهل شيء ولا يترك فعل شيء إلا لحكمة ومصلحة،

(١) انظر: الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ، عبد الهادي وهبي، ص ٤١.

فالضلال معناه الجهل، والنسيان معناه الترك[(١)]، فنفىٰ موسىٰ عن ربه الجهل والنسيان، وكذلك أعمال العباد محصيّة عنده لا يضلّ الخالق عن شيء منها ولا ينسىٰ ما عَلِمه[(٢)]، قال: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦]، فلا يمكن أن ينسىٰ شيئًا من أعمال الخلق، ولو نسوه هم.

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]، أي لم يكن تأخر نزول الوحي عن نبيه ﷺ في الوقت المعتاد نسيانًا أو إهمالًا له فلا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض؛ ولكنّه يدبّر الأمور ويقضي في خلقه بعلمه[(٣)]، فعلم الخالق لا يزول أبدًا بل هذا أمر مستحيل عليه[(٤)].

قال الإمام ابن القيّم في نونيتّة:

وهو العليم أحاط علمًا بالذي ... في الكون من سرّ ومن إعلان
وبكلّ شيء علمه سبحانه ... فهو المحيط وليس ذا نسيان[(٥)]

وأما ما ورد من إثبات صفة النسيان له سبحانه كقوله تعالىٰ: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الأعراف: ٥١]، وقوله: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٦]، فالمراد أن الله يعاملهم معاملة من

---

(١) انظر: تفسير القرآن، لمحمد العثيمين، سورة الحديد، ص٣٦٢، وجامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٦، ص٨٢.

(٢) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٦، ص٨٢، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٣، ص٤٢٤، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٥٠٧.

(٣) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٥، ص٥٨٤، وتفسير السعدي، ص٤٩٧.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٣، ص٤٢٤، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي، ج٣، ص٢٢١.

(٥) الكافية الشافية، لابن القيم، ط: ٢، ص١٧٦.

ينساهم؛ ولهذا ذكر النسيان من باب المقابلة، والنسيان قد يأتي بمعنىٰ الترك كما في هذه الآيات، وهذا ثابت في حق الخالق وقد يأتي بمعنىٰ زوال العلم كما في قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]، وهذا مستحيل علىٰ الخالق[(١)].

وأما المخلوق فعلمه غير دائم وإنما الجهل صفة ملازمة له، هي من طبعه وجبلته، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، والخطاب هنا للإنسان من حيث طبعه وخلقته، فوصفه خالقه بأنه جهول مبالغة في الجهل ـ وهو انتفاء العلم بأمور يجب العلم بها ـ فهو في الأصل لا علم له نافع، ولا عمل له صالح، ولكن الخالق يهبه له ويرقيه فيه[(٢)]، ومن الأدلّة علىٰ عدم أزليّة علم المخلوق قوله تعالىٰ: ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥]، ففيه دليل علىٰ أن علم المخلوق مسبوق بالجهل[(٣)].

وقد بيّن سبحانه أن كلّ مخلوق يخرج للدنيا جاهلًا خاليًا من العلم، وأن هذا وصف ملازم له، قال تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

وزوال العلم وانتشار الجهل أمر سيعمّ علىٰ البشرية جمعاء، جاء في صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتىٰ إذا لم يبق عالمًا اتخذ**

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٣، ص٤٢٤، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي، ج٣، ص٢٢١.

(٢) انظر: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، لابن القيم، ص٣٦٨، والتحرير والتنوير، لابن عاشور، ج٢١، ص ١٣٠.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج٣٠، ص٤٤٠.

الناس رؤوسا جهالًا، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا»(١).

ولأن المخلوق لا ينفك عنه وصف الجهل، قلّ أو كثر، فقد وصف الله أكثر الناس بأنهم لا يعلمون، وجاء هذا الوصف في آيات كثيرة، قال تعالىٰ ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١]، وقال: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]، وقال: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥٥]، وغيرها كثير.

وإذا كان مبدأ الإنسان ناقصًا جاهلًا فمنتهاه إلىٰ ذلك أيضًا، قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٠]، أي هناك من الخلق من يرجع إلىٰ حالة الطفولة فيذهب علمه الذي تعلمه في شبابه بالكبر وتقدم العمر وينساه، فلا يعلم منه شيئًا، ويصير بعد العقل لا عقل له، ثم وصف نفسه بأنه عليم أزلًا وأبدًا؛ فلا يمكن أن ينسىٰ شيئًا من علمه أو يذهل عنه(٢)، فالخالق علمه أزلي والمخلوق علمه زائل.

وليس التقدم في السّن هو سبب النسيان والذهول فقط، بل هذا أمر من طبع المخلوق ويعتري علمه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، قال الشيخ السعدي: «أي: ولقد وصينا آدم وأمرناه، وعهدنا إليه عهدا ليقوم به، فالتزمه، وأذعن له وانقاد، وعزم علىٰ القيام به، ومع ذلك نسي ما أمر به، وانتقضت عزيمته المحكمة، فجرىٰ عليه ما جرىٰ، فصار عبرة لذريته، وصارت طبائعهم مثل طبيعته، نسي آدم

---

(١) رواه البخاري، كتاب العلم، باب: كيف يقبض العلم، رقم الحديث ١٠٠، ص٤٥.

(٢) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٤، ص٢٩٢.

فنسيت ذريته، وخطئ فخطئوا، ولم يثبت علىٰ العزم المؤكد، وهم كذلك، وبادر بالتوبة من خطيئته، وأقر بها واعترف، فغفرت له، ومن يشابه أباه فما ظلم»(١)، وجاء عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلىٰ يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصًا**(٢) **من نور، ثم عرضهم علىٰ آدم، فقال: أي رب! من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فرأىٰ رجلًا منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه، فقال: أي رب! من هذا؟ فقال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود فقال: رب! كم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة، قال: أي رب! زده من عمري أربعين سنة، فلما قُضِيَ عمر آدم جاءه ملك الموت، فقال: أو لم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: أو لم تعطها ابنك داود؟ قال: فجحد آدم فجحدت ذريته، ونسي آدم فنسيت ذريته، وخطئ آدم فخطئت ذريته**»(٣)، وهذا الوصف ينطبق حتىٰ علىٰ أفضل الخلق، وهم أنبياء الله ـ عليهم السلام ـ ولا يُعصم منه أحد، قال تعالىٰ عن موسىٰ ـ عليه السلام: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ [الكهف: ٦١]، وجاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ انصرف من اثنتين، فقال: له ذو اليدين: أقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أصدق ذو اليدين**».فقال الناس: نعم، فقام رسول الله ﷺ فصلىٰ اثنتين أخريين، ثم سلم، ثم كبر، فسجد مثل سجوده أو أطول(٤). قال ابن عبد البر(٥) رَحِمَهُٱللَّهُ: «وفي هذا الحديث وجوه من الفقه والعلم، منها أن النسيان لا يعصم منه

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٥١٤.

(٢) بريقًا ولمعانًا، المرجع: تحفة الأحوذي، للمباركفوري، ج٧، ص٣٩٩.

(٣) رواه الترمذي، كتاب ثواب القران عن رسول الله ﷺ باب "ومن سورة الأعراف"، رقم الحديث ٣٠٧٦، ص٦٨٩، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب: هل يأخذ الإمام إذا شك بقول الناس رقم الحديث ٧١٤، ص ١٥٠ ـ ١٥١.

(٥) أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري، القرطبي، المالكي، من كبار حفاظ الحديث، من كتبه =

أحد، نبيًا كان أو غير نبي»[1].

فهذه أدلّة صريحة في أن النسيان والذهول يعرض لعلم أفضل الخلق، وليس في هذا نقصًا من دينهم؛ لأنهم بشر يعتريهم ما يعتري البشر مما لا تأثير له على رسالتهم وتبليغهم دين الله.

ولأن هذا من طبع المخلوق فقد أمر الله بكتابة الدَّين لئلا يضيع بالنسيان، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وجاء عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: (قيدوا العلم بالكتاب)[2]، قال المنّاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لأنه يكثر على السمع فتعجز القلوب عن حفظه والحفظ قرين العقل والقلب مستودعهما والنسيان كامن في الآدمي وأول من نسي آدم فسمي إنسانًا فنسيت ذريته فالعلم يعقل ثم يحفظ فإذا كان القلب معلولًا بهذه العلة والنسيان كامن فخيف ذهابه قيد بالكتابة لئلا يفوت ويدرس فنعم المستودع وإن دخله القلب فنعم الكشف له الكتاب»[3]، وشُرِع له أن يطلب المغفرة لغلبة هذا الطبع عليه، قال تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

فإذا كان علم المخلوق معرّضًا للنسيان، ومقدوحًا بالجهل، فالفارق كبير جدًا بينه وبين من جلّ عن النسيان والجهل، وهو الخالق جل وعلا.

=

"الاستيعاب"، في تراجم الصحابة، "التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد"، توفي في سنة ثلاث وستين وأربعمائة. المرجع: سير أعلام النبلاء، ج١٨، ص١٥٣، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٥، ص٢٦٧، والأعلام للزركلي، ج٨، ص٢٤٠، ومعجم المؤلفين، ج١٣، ص٣١٥.

(١) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لابن عبد البر القرطبي، ج١، ص٢٨٧.

(٢) سبق تخريجه، ص١٩٨.

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوي، ج٤، ص٦٩٤.

الفرق الثالث: الفرق في الاطلاق:

١ ـ الخالق علمه مطلق فهو يشمل الظاهر والباطن، والمخلوق علمه محدود فهو مقتصر على الظاهر دون الباطن.

الخالق سبحانه لا يخفى عليه شيء من أمر العباد، الظاهر منه والباطن، السّر والعلن، يستوي في ذلك الإنس والجنّ والملائكة، ويستوي المؤمن والكافر والمنافق، لا يخفى عليه منهم شيء، فهو يعلم حال ملائكته ما يبدونه وما يكتمونه، قال تعالى: ﴿ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [البقرة: ٣٣].

ويعلم حال أهل الإيمان ما يخفونه وما يعلنونه من الأعمال والأقوال، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الممتحنة: ١].

وقال جل وعلا على لسان خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [إبراهيم: ٣٨]، أي تعلم ما نخفيه في قلوبنا حال سؤالك ودعائك، وما نعلنه من ذلك، فأنت أعلم به من أنفسنا، ولا يخفى عليك شيء في الأرض ولا في السماء من أحوالنا وأعمالنا ما نخفيه وما نعلنه؛ فكلّه ظاهر جليّ لك، قد استوى عندك السرّ والعلن؛ لأنك الخالق وحدك(١).

ويعلم حال أهل الكفر وما يسرّونه من علمهم بدعوته ﷺ وأنها حقّ وما يعلنونه بألسنتهم من الجحود بها، ولكن جميع ما أسروه من القول والعمل أو أظهروه لا يخفى على

(١) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٣، ص٧٠١، وفتح القدير للشوكاني، ج٣، ص١٣٤، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٤٢٧.

الله منه شيء وسيجازيهم عليه(١)، قال تعالىٰ: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [يس: ٧٤- ٧٦].

وهو سبحانه يعلم أهل النفاق فيعلم ما يظهرونه من الإيمان أمام المؤمنين، وما يسرّونه من الكفر خلفهم، وسيظهر حالهم للمؤمنين(٢)، قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [البقرة: ٧٦، ٧٧].

ويعلم سرّهم وضمائرهم حين يظهرون رغبتهم في الصدقة وهم كاذبون في ذلك(٣)، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [التوبة: ٧٥- ٧٨].

والظاهر والباطن عنده سواء حتىٰ ما تخفيه القلوب حال الدعاء والمسألة، وما تعلنه وتجهر به، فهو أعلم به منّا، وكلّه ظاهر جليّ بيّن له، وكيف يخفىٰ عليه وهو الخالق المدبّر؟!(٤) قال تعالىٰ عن إبراهيم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [إبراهيم: ٣٨].

---

(١) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٩، ص٤٨٥، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج١٥، ص٥٤.

(٢) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٢، ص١٥١، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٥٦.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٤، ص١٨٥.

(٤) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٣، ص٧٠١، وفتح القدير، للشوكاني، ج٣، ص١٣٤، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٤٢٧.

ويعلم ما توسوس به نفس المخلوق وما يخطر علىٰ باله ويختلج في سرّه من خير أو شرّ وهو أقرب إلىٰ العبد من العرق الذي ينبض عند نحره[1]، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

بل ويعلم سبحانه ما هو أخفىٰ من السّر فيعلم ما تنطوي عليه ضمائر صدور عباده من الطيب والخبيث ومن الصالح والفاسد، فوجب الحذر من أن يسّر العبد غير الذي يعلن ويضمر غير الذي يبديه[2]، قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

ويعلم أدنىٰ حركة من العبد فخائنة الأعين وما يحدّث به المرء نفسه ويضمره في صدره وما ينويه بقلبه حين ينظر لا تخفىٰ عليه سبحانه فلو أبدت العين أمانة وهي خائنة فإنه يعلمها[3]، قال تعالىٰ: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

وإذا كان الخالق كَمُل في علمه سبحانه فالظاهر والباطن قد استويا عنده فإنّ المخلوق علمه مقصور علىٰ جزء يسير من الظاهر فقط، والأدلة شاهدة بذلك، فنوح ـ عليه السلام ـ لمّا عيّره قومه بأن أتباعه من غير ذوي الشرف[4]، ردّ عليهم بقوله: ﴿قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١٢]، أي ليس لي علم بعمل أتباعي فلا أعلم إلا الظاهر منهم، وأما الباطن فلم أكلف بعلمه، وليس لي علم به، فإن أظهروا الحسن فالظّن فيهم حسن، وإن أظهروا السيئ فالظّن فيهم سيئ فحساب باطنهم لخالقهم وليس لي[5].

وقال في موضع آخر عنه ـ عليه السلام: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٧، ص٣٩٨، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٨٠٥، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج١٧، ص١٠.

(٢) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٢٣، ص٧، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٨٦٦.

(٣) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٢٠، ص٣٠٣، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٧، ص١٣٧.

(٤) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٧، ص٦٠٢.

(٥) انظر: المرجع السابق.

أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود: ٣١]، أي: هؤلاء الذين تحتقرونهم لا أعلم بواطنهم وضمائرهم وما يعتقدونه في قلوبهم؛ وإنما هذا لخالقهم هو الذي يعلمهم، وعلمي قاصر على الظاهر منهم، فلا يحل لي أن أطردهم(١).

وهذا سيّد ولد آدم قال تعالىٰ في حقّه: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ [التوبة: ١٠١]، فهؤلاء المنافقون الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر أخبر ـ تعالىٰ ـ أنه ﷺ لا يعلم باطنهم، وكذلك في قصة بني أُبَيْرق لمّا جاء قوم فزكوهم عند النبي ﷺ وأنهم لم يسرقوا طعام جارهم ودرعه، فلم يعلم سوء باطنهم وكذبهم وظنّ صدقهم إلىٰ أن أنزل الله: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ [النساء: ١٠٥]، وفي صحيح البخاري عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن رسول الله ﷺ قال: «**إنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض، فمن قضيت له بحق أخيه شيئًا بقوله، فإنما أقطع له قطعة من النار. فلا يأخذها**»(٢)، وهذا دليل علىٰ عدم إحاطة علمه ﷺ بكلّ شيء(٣)، قال النووي: «معناه: التنبيه علىٰ حالة البشرية، وأن البشر لا يعلمون من الغيب وبواطن الأمور شيئًا إلا أن يطلعهم الله تعالىٰ علىٰ شيء من ذلك»(٤)، وقال رسول الله ﷺ: «**إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم**»(٥)، أي: أمرت أن أحكم بينكم بما يظهر لي، ولم أؤمر أن أحكم بما تسرّونه في أنفسكم فالله

(١) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٢، ص٣٨٧.

(٢) رواه البخاري، كتاب الشهادات، باب: من أقام البينة بعد اليمين، رقم الحديث ٢٦٨٠، ص ٥١٠،

(٣) انظر: جامع المسائل، لابن تيمية، المجموعة الثانية، ص٩٤.

(٤) شرح صحيح مسلم، للنووي، ج ١٢، ص٢٣٢.

(٥) رواه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري، كتاب المغازي، باب: بعث علي بن أبي طالب عليه السلام، وخالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إلىٰ اليمن قبل حجة الوداع. رقم الحديث ٤٣٥١،ص ٨٢٢.

يتولاها[1]، وقد كان ﷺ يحكم في الناس بظواهرهم لقصور علمه عن الباطن، كما قال: «**أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منىٰ دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم علىٰ الله**»[2]، قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فرض الله تعالىٰ علىٰ خلقه طاعة نبيه ولم يجعل لهم من الأمر شيئًا، فأولىٰ ألا يتعاطوا حكمًا علىٰ غيب أحد بدلالة ولا ظن؛ لقصور علمهم عن علوم أنبيائه الذين فرض عليهم الوقوف عما ورد عليهم، حتىٰ يأتيهم أمره، فإنه تعالىٰ ظاهر عليهم الحجج، فما جعل إليهم الحكم في الدنيا إلا بما ظهر من المحكوم عليه، ففرض علىٰ نبيه أن يقاتل أهل الأوثان حتىٰ يسلموا، فتحقن دماؤهم إذا أظهروا الإسلام. وأعلم أنه لا يعلم صدقهم بالإسلام إلا الله»[3].

وفي صحيح مسلم، عن أسامة بن زيد قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية، فصبحنا الحرقات من جهينة فأدركت رجلًا فقال: لا إله إلا الله، فطعنته فوقع في نفسي من ذلك، فذكرته للنبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «**أقال: لا إله إلا الله وقتلته؟**». قال قلت: يا رسول الله**!** إنما قالها خوفًا من السلاح. قال: «**أفلا شققت عن قلبه حتىٰ تعلم: أقالها أم لا**»، فما زال يكررها علي حتىٰ تمنيت أنىٰ أسلمت يومئذ»[4]، قال النووي: «ومعناه أنك إنما كلفت بالعمل بالظاهر وما ينطق به اللسان، وأما القلب فليس لك طريق إلىٰ معرفة ما فيه، فانكر عليه امتناعه من العمل بما ظهر باللسان، وقال: أفلا شققت عن قلبه لتنظر هل قالها القلب واعتقدها وكانت فيه، أم لم تكن فيه بل جرت علىٰ اللسان فحسب، يعنىٰ: وأنت لست بقادر علىٰ هذا، فاقتصر علىٰ اللسان فحسب، يعنىٰ: ولا تطلب غيره»[5]، فإذا كان الملائكة والأنبياء ـ عليهم السلام ـ والصالحين من عباد الله، ليس له علم إلا بجزء من ظواهر الأمور

---

(١) انظر: شرح صحيح مسلم، للنووي، ج٧، ص١٦٣.

(٢) سبق تخريجه، ص٥٧.

(٣) جامع الفقه، لابن القيم، ج٤، ص٢٥٤.

(٤) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد قوله: لا إله إلا الله، رقم الحديث ٢٧٧، ص٥٦.

(٥) شرح صحيح مسلم، للنووي، ج٢، ص٢٨٦.

دون بواطنها، فكيف بغيرهم من المخلوقين؟!

ولأن المخلوق لا علم له ببواطن الأمور فهو يكره شيئًا لظاهره مع أن باطنه خير له، ويحبّ شيئًا لظاهره مع أن باطنه شرّ له، قال تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، ونحن نرىٰ هذا الأمر ونلمسه من أنفسنا ونشاهد الواقع دالًا عليه، فكيف يُسّوىٰ بين من علمه أحاط بظاهر الأمور وبواطنها، مع من قصر علمه علىٰ جزء من الظاهر فقط وأما الباطن فلا سبيل له إليه.

٢ ـ الخالق علمه يشمل كل زمان الماضي والحاضر والمستقبل، والمخلوق علمه محدود فلا علم له بالغيب إلا ما علمّه الله إياه.

الخالق سبحانه يعلم بالشيء حال كونه وتنفيذه(١)، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، فيعلم ما تحمله كل أنثىٰ من الولد، يعلم أحواله وأوضاعه، هل هو ذكر أو أنثىٰ وهل هو حسن أو قبيح وهل هو طويل أو قصير وهل هو شقي أو سعيد(٢)، وهذا كله يعلمه وهو جنين في بطن أمه حال تكوينه.

ويعلم كذلك حين يلج في الأرض شيء أو يخرج منها أو ينزل من السماء أو يصعد إليها يعلمه في وقت حدوثه، قال تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ [سبأ: ٢].

ويعلم بالشيء كذلك بعد كونه وانقضائه، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ

(١) انظر: أسماء الله الحسنىٰ، محمود الرضواني، ص٣٩١، ٣٩٢.

(٢) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي، ج٣، ص٥٩.

﴿تَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠]، فيعلم سبحانه ما فعله العباد من الأعمال في النهار بعد أن عملوها(١).

ويعلم كم نقص من أجسادهم وهم في قبورهم وأين ذهبت وتفرقت وإلىٰ أين صارت(٢)، كما قال تعالىٰ: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ﴾ [ق: ٤].

وعلم الخالق شامل أيضًا لجميع الأمور المستقبلية التي قد غابت عن خلقه فلا يدركوها ولا يعلموها(٣)، فهو يعلم بالشيء قبل أن يكون، قال تعالىٰ: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧]، «ووجه دلالة جعل الكعبة قياما للناس وما عطف عليها، علىٰ كونه تعالىٰ يعلم ما في السّموات وما في الأرض، أنه تعالىٰ أمر ببناء الكعبة في زمن إبراهيم، فلم يدر أحد يومئذ إلا أن إبراهيم اتخذها مسجدًا، ومكة يومئذ قليلة السكان، ثم إن الله أمر بحج الكعبة وبحرمة حرمها وحرمة القاصدين اليها، ووقت للناس أشهرا القصد منها وهدايا يسوقونها إليها فإذا في جميع ذلك صلاح عظيم وحوائل دون مضار كثيرة بالعرب لولا إيجاد الكعبة، كما بيناه آنفا. فكانت الكعبة سبب بقائهم حتىٰ جاء الله بالإسلام. فلا شك أن الذي أمر ببنائها قد علم أن ستكون هنالك أمة كبيرة، وأن ستحمد تلك الأمة عاقبة بناء الكعبة وما معه من آثارها. وكان ذلك تمهيدا لما علمه من بعثة محمد ﷺ فيهم، وجعلهم حملة شريعته إلىٰ الأمم، وما عقب ذلك من عظم سلطان المسلمين وبناء حضارة الإسلام»(٤).

فمن اعتقد خلاف ذلك، وأن الخالق لا يعلم بالشيء قبل وقوعه فقد كفر، جاء في

(١) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٩، ص٢٨٤.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٧، ص٣٩٥، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٨٠٣.

(٣) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٩، ص٢٨٢، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٢٥٩.

(٤) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج٦، ص ٦٠.

صحيح مسلم، عن يحيىٰ بن يعمر قال: كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين فقلنا: لو لقينا أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلًا المسجد، فاكتنفته أنا وصاحبي، أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلي، فقلت: أبا عبد الرحمن! إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرءون القرآن ويتقفرون[1] العلم ـ وذكر من شأنهم ـ وأنهم يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أنف قال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أنىٰ بريء منهم، وأنهم برآء مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر! لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبًا فأنفقه، ما قبل الله منه حتىٰ يؤمن بالقدر»[2]، ومعنىٰ "أُنُف" أي مستأنف لم يعلمه الله إلا بعد أن وقع ولا يعلمه قبل وقوعه، وهذا قول باطل وكفر، ولذلك تبرأ ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من قائله وأخبر بكفر قائله[3].

وأما ما جاء في مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكٍّۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: ٢١]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٍ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٤]، وقوله: ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٌ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٌ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، فلا يُفهم منها أنه لا يعلم بالشيء قبل وقوعه، وأنه لا يعلم الغيب، وإنما يُجاب علىٰ هذا الإشكال من أحد وجهين:

الوجه الأول: أن هناك فرق بين علم الله بالشيء قبل وقوعه فهذا علم بأنّه سيقع، وبين

---

(١) يُخرِجون غامضه ويبحثون عن أسراره.

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالىٰ. وبيان الدليل علىٰ التبري ممن لا يؤمن بالقدر، وإغلاظ القول في حقه، رقم الحديث ٩٣، ص٢٤.

(٣) انظر: شرح صحيح مسلم، للنووي، ج١، ص١١١.

علم الله بعد وقوعه فهو علم به أنّه واقع، ومثل هذا الإرادة فالله يريد كل شيء في هذا الكون لا يقع شيء بدون إرادته، فهناك إرادة سابقة للفعل وهناك إرادة مقارنة للفعل قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فالمقصود بالعلم في الآيات السابقة علم الظهور، ومثل هذا لو قال شخص لآخر: أنه سيفعل كذا فيكون حصل له علم به، فإذا وقع هذا الأمر حصل له علم آخر.

الوجه الثاني: أن المراد بالعلم في الآيات السابقة العلم الذي يترتب عليه الثواب والعقاب، فالثواب والعقاب لا يكون إلا بعد الامتحان، فعلم الله الحاصل قبل وقوع الفعل لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب وإنّما يكون الثواب والعقاب بعد البلاء، وأما القول بأن الله لا يعلم بالشيء إلا بعد وقوعه فهو قول غلاة القدرية وهو كفر به تعالىٰ عن ذلك علوًا كبيرًا[(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وعامة من يستشكل الآيات الواردة في هذا المعنىٰ، كقوله "إلا لنعلم" "حتىٰ نعلم"، يتوهم أن هذا ينفي علمه السابق بأن سيكون. وهذا جهل. فإن القرآن قد أخبر بأنه يعلم ما سيكون في غير موضع. بل أبلغ من ذلك أنه قدر مقادير الخلائق كلها وكتب ذلك قبل أن يخلقها، فقد علم ما سيخلقه علمًا مفصلا، وكتب ذلك، وأخبر بما أخبر به من ذلك قبل أن يكون، وقد أخبر بعلمه المتقدم علىٰ وجوده. ثم لما خلقه علمه كائنًا مع علمه الذي تقدم أنه سيكون. فهذا هو الكمال، وبذلك جاء القران في غير موضع. بل وبإثبات رؤية الرب له بعد وجوده، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥] فأخبر انه سيرىٰ أعمالهم»[(٢)]، فصار علم الخالق شامل للغيب والحاضر والمستقبل.

وقد حصر سبحانه علم الغيب عليه دون غيره، وأعاد وكرّر في كتابه وأمر نبيه ﷺ أن

(١) انظر: شرح الأربعين النووية، محمد العثيمين، ص٧٨، وشرح رياض الصالحين، ج١، ص٩٧.

(٢) الرد علىٰ المنطقيين، ص٣٨٧.

يعلّم الناس بأنّ الغيب لا يعلمه مخلوق من أهل السموات والأرض، ولا يعلمه إلا الخالق وحده قد انفرد به لا شريك له في ذلك(1)، قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

وقد سمّىٰ الله نفسه بعلاّم الغيوب، فيعلم ما غاب عن خلقه وخفي عنهم(2)، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨]، وأخبرنا ـ سبحانه ـ أنّ علمه قد شمل كلّ الغيوب التي قد غابت عن خلقه؛ فليس لهم طريق للاطلاع عليها أو إدراكها، ولكنّه يطلع من شاء من رسله علىٰ بعضها ويطوي كثيرًا منها عنهم، قال تعالىٰ: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦ - ٢٧]، فتمدّح سبحانه باستئثاره لعلم الغيب ليدلّنا علىٰ أن الغيب لا يعلمه إلا هو واستثنىٰ رسله، فإنه يطلعهم علىٰ شيء من الغيب إذا اقتضت الحكمة أن يطلعهم؛ وذلك عن طريق الوحي ليكون برهانًا لهم علىٰ صدقهم، والرسول هنا يشمل الرسول البشري أو الملائكي(3)، فلولا أن الله أَطْلع رسوله علىٰ هذا الغيب المعيّن لم يكن ليعلمه، قال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]، فهذا العلم حصل باطلاع الله لهم به، فرجع إلىٰ علمه هو سبحانه(4).

ومفاتح الغيب من الأمور التي اختص بها الخالق، يقول تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا

(1) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٦، ص٢٠٧.

(2) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج١٠، ص٢٧٤.

(3) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٨، ص٢٤٧، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج١٩، ص٢٨، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٨٩٢.

(4) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٩، ص٢٨٢، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٢٥٩، والتحرير والتنوير، لابن عاشور، ج٢٩، ص٢٤٨.

يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩]، والمفاتح جمع " مَفتح " " بفتح الميم " وهي الخزائن، وقيل جمع " مِفتح " " بكسر الميم" وهو المفتاح(١).

ومفاتح الغيب هي ما أخبر به ﷺ كما جاء في صحيح البخاري عن سالم بن عبد الله، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال: «**مفاتح الغيب خمس: إن الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غدًا، وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير**»(٢)، فهذه العلوم الخمسة لا سبيل لمخلوق أن يعرفها، اختص بها الخالق واستأثر بها؛ ولهذا فإنّ المخلوق علمه محدود ولا يمكنه معرفة الأمور الغيبيّة والاطّلاع عليها، ومن يزعم ذلك فهو كاذب في دعواه، بل كثير من الأمور الحاضرة أو الماضية تغيب عن علمه.

فأمّا الأمور الماضية فقد نفىٰ سبحانه عن نبيه ﷺ أن يكون عالمًا هو أو قومه بقصة نوح وخبره مع قومه والطوفان الذي جرىٰ عليهم، وإنما عَلِمها بعد أن أعلمه الله بها(٣)، قال تعالىٰ: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: ٤٩]، ولا يعلم أمورًا حصلت في الماضي إلا بتعليم الله له، قال تعالىٰ: ﴿ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [ص: ٦٩].

وأما الأمور الحاضرة فمنها حال إبراهيم ولوط ـ عليهما السلام ـ تأتيهما الملائكة فلا يعلمون أنهم ملائكة بل يضيق بهم لوط ويخشىٰ أن يفعل قومه بهم سوءًا، ولم يعلموا حقيقتهم حتىٰ أخبروهم بذلك فقالوا لإبراهيم: ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود: ٧٠]،

---

(١) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي، ج٢، ص١٤٩.

(٢) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ [٥٩]، رقم الحديث ٤٦٢٧، ص ٨٨١.

(٣) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٢، ص٤٤١، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج٩، ص٤٥.

وقالوا للوط: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ [هود: ٨١]، ومنه حال يعقوب ـ عليه السلام ـ يفقد ابنه وهو في مصر ويبقىٰ السنين الطوال لا يعلم مكانه ولا خبره، وكذلك سليمان ـ عليه السلام ـ يفقد الهدهد ولا يعلم مكانه ولا عن قوم سبأ حتىٰ يكون الهدهد هو من يبلغه بذلك حيث قال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢]، بل لمّا رُميت عائشة ـ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا ـ بالإفك لم يكن يعلم ﷺ هل هي بريئة أم لا حتىٰ أنزل الله براءتها فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ [النور: ٢٦]، وكذلك الأمور الغائبة والمستقبليّة لا يعلمها بشر، قال نوح ـ عليه السلام ـ عن نفسه: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ [هود: ٣١](١)، وأمر الله نبيّه محمد ﷺ أن يقول: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨] «أي: لفعلت الأسباب التي أعلم أنها تنتج لي المصالح والمنافع، ولحذرت من كل ما يفضي إلىٰ سوء ومكروه، لعلمي بالأشياء قبل كونها، وعلمي بما تفضي إليه. ولكني ـ لعدم علمي ـ قد ينالني ما ينالني من السوء، وقد يفوتني ما يفوتني من مصالح الدنيا ومنافعها، فهذا أدل دليل علىٰ أني لا علم لي بالغيب»(٢).

وجاء في صحيح مسلم عن عائشة ـ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا ـ قالت: «ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم علىٰ الله الفرية. والله يقول: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النمل: ٦٥]»(٣)، فإذا كان أشرف الخلق وأكرمهم علىٰ الله وهم الأنبياء علمهم محدود فكيف بغيرهم من المخلوقين، وهذا يعمّ الخلق كلهم الإنس والجنّ، فقد أبطل سبحانه ادّعاء الجنّ أنهم يعلمون الغيب حيث مكثوا بعد موته وهم يعملون له ظنّا منهم أن سليمان

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي، ج٢، ص١٤٩، ١٥٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٣١١.

(٣) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب معنىٰ قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ﴾ وهل رأىٰ النبي ﷺ ربه ليلة الإسراء، رقم الحديث ٤٣٩، ص٩٠.

حيّ، ولم يعلموا بموته إلا بعد أن جاءت دابّة الأرض وأكلت من عصاه فخرّ ساقطًا، حينها علم الإنس أن الجنّ كاذبون في دعواهم علم الغيب[1]، قال تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ [سبأ: ١٤].

فظهر مما سبق وضوح الأدلة في انفراد الخالق بعلم الغيب دون المخلوق، وهي دليل علىٰ بطلان من يزعم أن أحدًا من الخلق يعلم الغيب، سواء كان من الكهّان، أو المنجمين، أو غيرهم ممن يدّعي علم الغيب[2].

و«لما جاء القرآن العظيم بأن الغيب لا يعلمه إلا الله كان جميع الطرق التي يراد بها التوصل إلىٰ شيء من علم الغيب غير الوحي من الضلال المبين، وبعض منها يكون كفراً. ولذا ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**من أتىٰ عرافا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة**»[3].

ولا خلاف بين العلماء في منع العيافة والكهانة والعرافة، والطرق والزجر، والنجوم وكل ذلك يدخل في الكهانة ؛ لأنها تشمل جميع أنواع ادعاء الاطلاع علىٰ علم الغيب»[4].

---

(١) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٩، ص٢٣٩، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٦٧٧.

(٢) انظر: محاسن التأويل، محمد القاسمي، ط: دار الحديث، ج٧، ص٦٢١.

(٣) رواه مسلم، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، رقم الحديث٥٨٢١، ص٩٩٠.

(٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي، ج٢، ص١٥٠.

ولأن الخالق هو من يعلم الغيب، والمخلوق لا علم له به كان من الأدعية التي يُشرع للمسلم أن يدعوها حين يريد الإقدام على أمر ولا يعلم مدى نفعه في المستقبل وغاب عنه علم الغيب، أن يقّر بهذا الاعتقاد ويصرح به كما جاء في حديث الاستخارة(١).

قال الإمام ابن القيم: «قوله: «تعلم ولا أعلم» أي حقيقة العلم بعواقب الأمور ومآلها والنافع منها والضار عندك وليس عندي»(٢)، فتضمّن الحديث الإقرار بكمال علم الخالق، وعجز المخلوق عن العلم بمصلحة نفسه(٣).

٣ ــ الخالق علمه شامل لجميع الكليات والجزئيات قد أحاط بكل شيء علمًا، والمخلوق يعلم نوعًا من العلم ولا يعلم آخر، ويكون في حال دون حال(٤).

الخالق سبحانه يعلم جميع أحوال عباده، لحظة بلحظة، وساعة بساعة، لا يغيب عن علمه مثاقيل الذرّ ولا أصغر منها ولا أكبر ولو كانت في سماء أو أرض(٥) قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

(١) سبق تخريجه، ص١٥٦.

(٢) شفاء العليل، لابن القيم، ص٢٥٨.

(٣) انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم، ٢، ص٤٤٤.

(٤) انظر: شأن الدعاء، للخطابي، ص ٥٧.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٤، ص٢٧٧.

فحركات الخلق وسكناتهم وعباداتهم معلومة لدى الخالق[١] قال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٧ - ٢١٩] وظلمهم وخطيئاتهم لو كانت كمثل الخردلة المحصّنة المخفيّة داخل صخرة مصمتة، أو كانت في أي مكان من السماء أو الأرض، فإن الخالق يعلمها وسيجازي عباده عليها[٢]، قال تعالى: ﴿ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [لقمان: ١٦].

قال الإمام أحمد عن شمول علم الخالق للكليّات والجزئيّات: «وهو يعلم ما في السموات والأرضين السبع وما بينهما وما تحت الثرى وما في قعر البحار ومنبت كل شعرة وكل شجرة وكل زرع وكل نبات ومسقط كل ورقة. وعدد ذلك وعدد الحصى والرمل والتراب ومثاقيل الجبال وأعمال العباد وآثارهم وكلامهم وأنفاسهم ويعلم كل شيء. لا يخفى عليه من ذلك شيء وهو على العرش فوق السماء السابعة»[٣]، وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٩] فبين إحاطة علمه بالجزئيّات الظّاهرة المتفاوتة الظهور؛فما في البرّ أظهر مما في البحر، وكلّه تحت علم الخالق، ثم عمّم علمه بالجزئيّات الدقيقة: فالورقة التي تسقط يعلمها، والحبّة التي تنبت في ظلمات الأرض في أبعد عمق ممكن يعلمها، ولا يسقط الرطب واليابس إلا ويعلمه سبحانه، وإذا كان يعلم هذه الأمور فعلمه بأعظم منها أولى[٤].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٤، ص٢٧٧.

(٢) انظر: المرجع السابق، ج٦، ص٣٣٧.

(٣) المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل في العقيدة، لعبد الإله الأحمدي، ج١، ص٢٨٤.

(٤) انظر: محاسن التأويل، للقاسمي، ط: دار الحديث، ج٤، ص٣٨٧، ٣٨٨، والتحرير والتنوير، لابن عاشور، ج٧، ص٢٧٢.

ومما يدل على سعة علمه بالجزئيّات قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧] فهذه الأدلة وغيرها تدل على علم الخالق بكل الجزئيات، ولو كان لا علم له بها لاستلزم عدم علمه سبحانه بشيء في السماء ولا في الأرض؛لأن كل موجود هو جزئي معين(١).

ومن الأدلة العامة على أن علم الخالق محيط بكل شيء قوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ﴾ [الأنعام: ٨٠]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

وأما المخلوق فكما يقول الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والآدميون ـ وإن كانوا يوصفون بالعلم ـ فإن ذلك ينصرف منهم إلى نوع من المعلومات، دون نوع، وقد يوجد ذلك منهم في حال دون حال، وقد تعترضهم الآفات فَيَخلُفُ علمهم الجهل، ويعقُبُ ذكرهم النسيان، وقد نجد الواحد منهم عالمًا بالفقه غير عالم بالنحو وعالمًا بهما غيرَ عالم بالحساب والطب ونحوهما من الأمور، وعلم الله سبحانه علم حقيقة، وكمال ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:١٢]، ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨]»(٢).

والخلق علمهم متفاوت فمن كان صاحب علم لابد أن يكون هناك من هو أعلم منه، إلى أن يصل إلى الخالق فلا أعلم منه سبحانه جاء عن ابن عباس ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ في قوله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] قال: يكون هذا أعلم من هذا، وهذا أعلم من

(١) انظر: شفاء العليل، لابن القيم، ص٤١١، ٤١٢.

(٢) شأن الدعاء، للخطابي، ص ٥٧.

هذا، والله فوق كل عالم(١).

وقال قتادة: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ حتىٰ ينتهي العلم إلىٰ الله، منه بُدئ، وتعلمت العلماء، وإليه يعود، وفي قراءة عبد الله «وَفَوْقَ كُلِّ عالم عليم»(٢).

فعلم المخلوق الذي وهبه الله إيّاه وأطلعه عليه قليل في علم الله، ومن هذا الذي قَصُر علم المخلوق عنه علم الروح فإنها مما استأثر الخالق بعلمه(٣)، قال تعالىٰ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وقد أخبر الله عن عدّة أصحاب الكهف، وأنه لا يعلمها إلا قليل من النّاس، قال تعالىٰ ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٢].

وهذا موسىٰ ـ عليه السلام ـ قد أعطاه الله من العلم والحُكم، قال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤]، ومع ذلك فهناك علم لا يعلمه قد أعطاه الله الخضر ـ عليه السلام ـ وهناك علم أعطاه الله لموسىٰ ولم يعطه الخضر، فعن أبيّ بن كعب قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قام موسىٰ عليه السلام خطيبًا في بني إسرائيل، فسئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم، قال: فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحىٰ الله إليه: أن عبدًا من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسىٰ: أي رب! كيف لي به؟ فقيل له: احمل حوتًا في مكتل، فحيث تفقد الحوت فهو ثم، فانطلق وانطلق معه فتاه، وهو يوشع بن نون،**

(١) أخرجه البيهقي في كتابه الأسماء والصفات، باب ما جاء في إثبات صفة العلم، رقم الأثر ٢٣٦، ص٣١١.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره، ج١٣، ص ٢٧١، دار هجر، وانظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٤، ص٤٠٢.

(٣) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٥، ص٧٣، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٥، ص١١٦.

فحمل موسىٰ عليه السلام، حوتًا في مكتل، وانطلق هو وفتاه يمشيان حتىٰ أتيا الصخرة، فرقد موسىٰ، عليه السلام، وفتاه، فاضطرب الحوت في المكتل، حتىٰ خرج من المكتل، فسقط في البحر، قال: وأمسك الله عنه جرية الماء حتىٰ كان مثل الطاق، فكان للحوت سربًا، وكان لموسىٰ وفتاه عجبًا، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما، ونسىٰ صاحب موسىٰ أن يخبره، فلما أصبح موسىٰ، عليه السلام، قال لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾، قال: ولم ينصب حتىٰ جاوز المكان الذي أمر به، قال: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الكهف: ٦٢، ٦٣] قال موسىٰ: ذلك ما كنا نبغىٰ فارتدا علىٰ آثارهما قصصًا، قال: يقصان آثارهما، حتىٰ أتيا الصخرة فرأىٰ رجلا مسجىٰ عليه بثوب، فسلم عليه موسىٰ، فقال له الخضر: أنىٰ بأرضك السلام؟ قال: أنا موسىٰ، قال: موسىٰ بنىٰ إسرائيل؟ قال: نعم، قال: إنك علىٰ علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه، وأنا علىٰ علم من علم الله علمنيه لا تعلمه»، إلىٰ أن قال راوي الحديث: «**وجاء عصفور حتىٰ وقع علىٰ حرف السفينة، ثم نقر في البحر، فقال له الخضر: ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من البحر**»(١).

ولو انبهر أحدهم بعلم أهل الكفر فيما يتصل بأمر الدنيا، فحقيقة الأمر أن علمهم هذا قاصر علىٰ علم الدنيا الزائلة الفانية، وأما الآخرة الباقية فهم جهلة لا يعلمون منها شيئًا، قال تعالىٰ ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ [النمل: ٦٦]، وصرّح بهذا في آية أخرىٰ فقال ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم: ٧]، قال ابن عباس: يعني: الكفار، يعرفون عمران الدنيا، وهم في أمر الدين جهال(٢).

فأكثر الناس لا علم لهم إلا بالدنيا وما تحويه قد جدّوا في تحصيلها وسعوا خلفها، وأما

(١) سبق تخريجه، ص٢٠١.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره، دار هجر، ج١٨، ص٤٦٢، وانظر: تفسير القرآن العظيم، لان كثير، ج٦، ص٣٠٥.

الآخرة فهم غافلون عنها لا همّ ولا تفكير فيها، قال الحسن البصري: «والله لَبَلَغَ من علم أحدهم من دنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره يخبرك بوزنه، وما يحسن أن يصلي!»(١).

فظهر مما سبق أن علم الخالق شامل لجميع الكليات والجزئيات، وأما المخلوق فإن علمه محدود على بعض الكليات والجزئيات، وهذا فارق عظيم بين علم المخلوق وعلم الخالق.

وبهذا يظهر الفارق بين كمال علم الخالق، ونقص علم المخلوق، وما قيل فيه لا يمكن أن يصل إلى حقيقته بشر، ولا يستطيع أن يدركه أحد.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في كتابه الزهد عن الحسن، رقم الأثر ٦٦، ٢٦٣.

المبحث الثاني
الفارق بين الخالق والمخلوق في صفة القوة

وفيه مطلبان:

المطلـــــب الأول: معنى صفة القوة والأدلة على ثبوتها في حق الخالق والمخلوق.

وفيه أربعة مسائل:

المسألة الأولىٰ: معنىٰ صفة القوة في اللغة.

المسألة الثانية: معنىٰ صفة القوة في حق الخالق.

المسألة الثالثة: معنىٰ صفة القوة في حق المخلوق.

المسألة الرابعة: الأدلة علىٰ ثبوت صفة القوة في حق الخالق والمخلوق.

المطلـــب الثـــاني: الفارق بين الخالق والمخلوق في صفة القوة.

المطلب الأول

معنى صفة القوة والأدلة على ثبوتها في حق الخالق والمخلوق

المسألة الأولى: معنى صفة القوة في اللغة:

«القاف والواو والياء أصلانِ متباينان، يدلُّ أحدُهما علىٰ شِدَّة وخِلافِ ضَعْف، والآخَر علىٰ خلافِ هذا وعلىٰ قِلّة خَيْر. فالأوَّل القُوّة، والقوِيّ: خلاف الضّعيف، وأصل ذلك من القُوَىٰ، وهي جَمْعُ قوةٍ من قُوَىٰ الحبل... والأصل الآخر: القَوَاء: الأرض لا أهلَ بها، ويقال: أقْوَت الدّارُ: خلت... ويقولون: باتَ فلانٌ القَوَاءَ وبات القَفْرَ، إذا بات علىٰ غير طُعْم. والمُقْوِي: الرّجُل الذي لا زَادَ معه. وهو من هذا، كأنَّه قد نزل بأرضٍ قِيٍّ»[1]، "والقِيُّ: المُسْتَوِية المَلْساء، وهي الخَوِيَّةُ أَيضـًا»[2]، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة: ٧٣][3]، وأَقوَىٰ: إذا استغنىٰ. وأقوَىٰ: إذا افتقر[4].

المسألة الثانية: معنى صفة القوة في حق الخالق:

- **القوة من الصفات الذاتية:**

القوة صفة ذاتية للخالق ـ عز وجل ـ فلا يمكن أن يأتي زمن وتنفك عنه هذه الصفة فهي ملازمة لذاته أزلًا وأبدًا، لا يعتريه ضعف أو عجز في زمن ولا حال.

- **معنىٰ صفة القوة:**

القوي هو كامل القدرة علىٰ الشيء، فمن قوي علىٰ شيء فهو قادر عليه، والخالق تامّ القوة[5]، «لا يعجزه شيء، ولا يغلبه غالب، ولا يردّ قضاءه رادّ، ينفذ أمره ويمضي قضاؤه في

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس، ج٢، ص٣٧٦، مادة قوي.

(٢) لسان العرب، لابن منظور، ج١١، ص٣٦٥، مادة قوي.

(٣) المرجع السابق، ص٣٦٦.

(٤) انظر: تهذيب اللغة، ج٩، ص٢٧٤.

(٥) انظر: شأن الدعاء، للخطابي، ص٧٧، وتفسير أسماء الله الحسنىٰ، للزجاج، ص٥٤.

خلقه، يعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء، وينصر من يشاء ويخذل من يشاء، فالقوة لله جميعًا، لا منصور إلا من نصره، ولا عزيز إلا من أعزه، وكذلك المخذول من خذله الله، والذليل من أذلّه»(١)، «والمخلوق وإن وصف بالقوة فإن قوته متناهية. وعن بعض الأمور قاصرة»(٢).

المسألة الثالثة: معنى صفة القوة في حق المخلوق:

- **معنىٰ القوة:**

حقيقة القوة عند المخلوق هي أن يكون الجسم في حالة يمكنه أن يعمل ما يشقّ عليه في العادة، سواء في الأعضاء الظاهرة كقوة اليدين والرجلين والعينين، أو في الأعضاء الباطنة كقوة العقل علىٰ التفكير والحفظ الذي يشقّ علىٰ البعض ولا يستطيعه غالبهم(٣)، وتطلق القوة أيضًا علىٰ الوسائل المعينة للمخلوق المقويّة له مثل السّلاح والعتاد، والمال، والجاه(٤).

فظهر من خلال التعريف أن القوة من حيث مصدرها أنواع:

١ ـ قوة ذاتية وهي قوتان:

– القوة في البدن والجسم، نحو قوله تعالىٰ: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، قال الشوكاني(٥): «وكانوا ذوي أجسام طوال وقوّة شديدة، فاغترّوا بأجسامهم حين تهدّدهم هود بالعذاب»(٦).

---

(١) فقه الأسماء الحسنىٰ، لعبد الرزاق البدر، ص ١٥٥.

(٢) شأن الدعاء، للخطابي، ص٧٧.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج١٠، ص٤٤، وج٩، ص٩٩، ١٠٠.

(٤) انظر: المرجع السابق.

(٥) أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، مفسر، محدث فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن، من أهل صنعاء، له ١١٤ مؤلفًا، منها (نيل الأوطار من أسرار منتقىٰ الأخبار)، و (البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع)، (فتح القدير) في التفسير، المرجع: الأعلام للزركلي، ج٦، ص٢٩٨، ومعجم المؤلفين، ج١١، ص٥٣.

(٦) فتح القدير، للشوكاني، ج٤، ص٦١٣.

ـ القوة في القلب والعقل، نحو قوله تعالىٰ: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾ [مريم: ١٢]، قال الإمام ابن كثير: «أي: تعلم الكتاب ﴿بِقُوَّةٖۖ﴾ أي: بجد وحرص واجتهاد»(١).

٢ ــ قوة خارجية وهي: القوة من الخارج من معين ونحوه(٢)، نحو قوله تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال: ٦٠] قال الإمام الطبري: «ما أطقتم أن تعدوه لهم من الآلات التي تكون قوة لكم عليهم من السلاح والخيل»(٣).

واجتمعت هذه المعاني كلّها في الحديث الذي جاء عن أبىٰ هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلىٰ الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير**»(٤)، فالمراد بالقوة هنا هي قوة القلب بإيمانه، وقوة البدن بطاعاته وعباداته، وقوة العقل برأيه وتدبيره، والقوة الخارجية من مال ونحوه؛ لأن هذه القوىٰ ينتفع بها المخلوق وتنفع غيره(٥).

أنواع القوة من حيث متعلقها:

حين نطلق كلمة القوة فإنها تدلّ علىٰ عدّة معان بحسب متعلقها:

- فالقوة فيما يتعلق بالحروب ونحوها وتعود إلىٰ شجاعة القلب، والخبرة بالخدع الحربيّة والقدرة علىٰ أنواع القتال كالرمي وركوب الخيل ونحو ذلك.

- والقوة فيما يتعلق بالحكم تعود لمعنىٰ العلم بالعدل بين الرعية وقوته علىٰ تنفيذ

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٥، ص٢١٦.

(٢) انظر: الكليات، لأبىٰ البقاء الكفومي، ص٧١٨

(٣) جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١١، ص٢٤٤.

(٤) رواه مسلم، كتاب القدر، باب الإيمان بالقدر والإذعان له، رقم الحديث ٦٧٧٤، ص١١٦١.

(٥) انظر: إكمال إكمال المعلم، للأبي، ج٩، ص٤١، ٤٢، وإعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، للفوزان، ج٢، ص٢٣٢.

الأحكام فيهم(١).

- وحين يكون متعلقها التكاليف الشرعية فتعود إلىٰ الجدّ والعزيمة والحرص والاجتهاد، وهكذا في بقية المتعلقات.

أنواع القوة من حيث مدحها وذمّها:

- إذا استعملها المخلوق فيما ينفعه في دنياه وآخرته صارت قوته محمودة.

- وإن استعملها فيما يضرّه في دنياه وآخرته صارت مذمومة(٢).

المسألة الرابعة: الأدلة على ثبوت صفة القوة في حق الخالق والمخلوق:

- **الأدلة علىٰ صفة القوة في حق الخالق:**

أولًا: الدليل من الكتاب:

١- ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦].

٢- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

ثانيًا: الدليل من السُّنَّة:

١-عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان رسول الله ﷺ يقول في سجود القرآن بالليل، يقول في السجدة مرارًا: «**سجد وجهي للذي خلقه، وشقّ سمعه وبصره بحوله وقوته**»(٣).

---

(١) انظر: السياسة الشرعية، لابن تيمية، ص٢٦، ٢٧.

(٢) انظر: شرح رياض الصالحين، لابن عثيمين، ج١، ص٤٥٩.

(٣) رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب ما يقول إذا سجد، رقم الحديث ١٤١٤، ص ٢٤٤، وقال الترمذي: حسن صحيح، وصححه الألباني، وأخرجه البيهقي في كتابه الأسماء والصفات، باب ما جاء في إثبات القوة وهي القدرة، رقم الأثر ٢٥٤، ج١، ص٣٢٦.

- **الأدلة علىٰ صفة القوة في حق المخلوق:**

أولًا: الدليل من الكتاب:

١ - وقولــــــــــــه ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

٢ - وقولــــــــــــه ﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

ثانيًا: الدليل من السُّنَّة:

١ ـ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلىٰ الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص علىٰ ما ينفعك واستعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله، وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان**»(١).

---

(١) سبق تخريجه، ص٢٣٤.

المطلب الثاني

الفارق بين الخالق والمخلوق في صفة القوة

أخبر تعالىٰ بوجود الفارق في القوة بينه وبين المخلوق في أدلّة عديدة، ومنها قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤]، فالخالق قوي علىٰ خلق ما يشاء، وليس كالمخلوق الذي لا يقوىٰ علىٰ خلق حتىٰ ذبابة، ولا يقوىٰ حتىٰ علىٰ استرداد ما سُلب منه[1]؛ ولهذا بدأ بوصف ضعف المخلوق ثم ختم الآية ببيان قوة الخالق، قال الشيخ السعدي: «فهذا ما قدر الله حق قدره حيث سوىٰ الفقير العاجز من جميع الوجوه، بالغني القوي من جميع الوجوه، سوىٰ من لا يملك لنفسه، ولا لغيره نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، بمن هو النافع الضار، المعطي المانع، مالك الملك، والمتصرف فيه بجميع أنواع التصريف»[2].

والطواغيت والمتكبرين لا بدّ أن يقرّوا بالفرق بين قوتهم وقوة الخالق، وكذلك الأمم المتجبرة لا بدّ لها من هذا الإقرار إمّا في الدنيا أو الآخرة، قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [غافر: ٢١]، فأخبر سبحانه عن الفرق بين قوته وقوتهم وأنه أشدّ قوة منهم، ولكنهم طغوا وبغوا فأراهم قوته وأهلكهم وظهر لهم الفارق حينها، قال تعالىٰ: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر: ٢١- ٢٢]، وكلّ مخلوق منّا لا بدّ له من هذا الإقرار، ففي قولنا: «**لا حول**

(١) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٦، ص٦٣٥.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٥٤٦.

ولا قوة إلا بالله»[1]، أعظم إقرار للفارق بين قوة الخالق والمخلوق، لأنه يتبرأ من حوله وقوته وينسب ذلك لخالقه.

لوازم صفة القوة:

وإذا تقرر وجود الفارق بين قوة الخالق والمخلوق، فلا يعني ذلك نفي القدر المشترك بينهما، فالقوة صفة مشتركة بين الخالق والمخلوق، وقد ذكرنا طرفًا من الأدلة علىٰ ذلك، ولكن كما مرّ معنا لا يلزم من هذا الاشتراك التماثل؛ لأن الخالق لا مثيل له ولا شبيه ولا ندّ، وهذا القدر المشترك يكون في الذهن فقط، أما عند إضافة القوة إلىٰ الخالق أو المخلوق فلكلّ منهما معنىٰ مختلف، فللخالق ما يليق بعظمته وجلاله وللمخلوق ما يليق بنقصه، قال الإمام ابن القيم: «ولو اجتمعت قوىٰ الخلائق علىٰ شخص واحد منهم ثم أعطي كل واحد منهم مثل تلك القوة لكانت نسبتها إلىٰ قوته سبحانه دون نسبة قوة البعوضة إلىٰ حملة العرش»[2].

والقوة من الصفات المشتركة التي يلزم منها لوازم، وهي علىٰ ثلاثة أنواع:

١ ـ لوازم بصرف النظر عمن أضيفت إليه صفة القوة ومنها: الشدّة وخلاف الضعف، وفي هذا القدر المشترك جاءت المفاضلة بين قوة الخالق والمخلوق، كما في قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ [النساء: ٨٤]، فذكر أنه أشدّ قوة من قوم عاد، وأشدّ بأسًا أي قوة وعزة من أهل الكفر[3].

---

(١) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب خفض الصوت بالذكر إلا في المواضع التي ورد الشرع برفعه فيها كالتلبية وغيرها واستحباب الإكثار من قول لا حول ولا قوة إلا بالله، رقم الحديث ٦٨٦٨، ص١١٧٥.

(٢) شفاء العليل، لابن القيم، ص٢٥٣.

(٣) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٧، ص٢٦٧، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص١٩٠.

٢ ـ لوازم عند إضافة صفة القوة للخالق ومنها: القوة المطلقة، وتمام القدرة، والعدل مع القوة.

٣ ـ لوازم عند إضافة صفة القوة للمخلوق ومنها: القوة القاصرة، ونقص القدرة، وإمكان الظلم مع القوة.

واللازم عند الإضافة هو الذي يظهر فيه الفرق بين الخالق والمخلوق، ومن الفروقات بين الخالق والمخلوق في صفة القوة ما يلي:

الفرق الأول: الفرق في المصدرية:

قوة الخالق ذاتية، وقوة المخلوق هبة من الخالق.

الخالق سبحانه قوته ذاتيّة لم يهبها له أحد ولا يطلبها من غيره ولا يحتاج إلىٰ معين ولا لبذل أسباب لتحصيلها، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢]، فنفىٰ أن يكون له سبحانه معاون يعينه علىٰ تدبير الأمور؛ لأنّ قوته ذاتية لا يحتاج إلىٰ أحد(١)، وحين يريد أمرًا فإنما يقول له كن فيكون.

ونفىٰ عن نفسه الولد؛ لأنه لا يحتاج لولد يعينه ويقويه فقوته ذاتية، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٢، ٩٣].

وقد وصف نفسه بأنه صمد، والصمد هو الذي ليس بأجوف، يعني لا يأكل ولا يشرب كما ذكر الإمام الطبري وغيره، فهو لا يحتاج لأسباب تقويه كالأكل والشرب فقوته ذاتية(٢).

ولمّا حثّ سبحانه علىٰ نصرته ونصرة رسوله ﷺ عقّب بوصفه أنه قويّ عزيز ليُعلم أن أمره للعباد بنصرته ونصرة رسوله ليس عن ضعف أو قهر، بل هو القويّ الغالب فلا يحتاج

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٦٧٨.

(٢) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٢٤، ص ٧٣١.

إلىٰ نصرة أحد من خلقه، وإنما أمرهم بهذا ليثيبهم[(١)]، قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

وأمّا المخلوق فقوته هبة من الخالق وليست ذاتيّة، فلا بدّ له من معين وأسباب يبذلها ليقوىٰ علىٰ الأمر، ولولا تقوية الخالق له وتهيئة الأسباب له لما أمكنه فعل شيء، وقد بيّن سبحانه ذلك في كتابه كما في قوله تعالىٰ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤]، فأخبر سبحانه بأنّه هو الذي خلق الضعف والقوة في المخلوق[(٢)]، قال الشيخ السعدي: «﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۖ﴾ بحسب حكمته. ومن حكمته أن يري العبد ضعفه، وأن قوته محفوفة بضعفين وأنه ليس له من نفسه إلا النقص، ولولا تقوية اللّه له، لما وصل إلىٰ قوة وقدرة، ولو استمرت قوته في الزيادة، لطغىٰ وبغىٰ وعتا. وليعلم العباد كمال قدرة اللّه التي لا تزال مستمرة، يخلق بها الأشياء، ويدبر بها الأمور ولا يلحقها إعياء ولا ضعف ولا نقص بوجه من الوجوه»[(٣)].

وأخبر سبحانه عن قوم عاد الذين عُرفوا بالقوة الشديدة وطول الأجسام، أنّه هو الذي خلقهم علىٰ هذه الحال من القوة والعِظم في الخلق ومن شدة البطش[(٤)]، قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥]، ثم زادهم قوة إلىٰ قوتهم، قال تعالىٰ: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا

(١) انظر: فتح القدير، للشوكاني، ج٥، ص٢١٧، تفسير القرآن الكريم، للعثيمين، سورة الحديد، ص٤٢٥.

(٢) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٨، ص٥٢٥.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٦٤٥.

(٤) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٢٠، ٣٩٧، فتح القدير، للشوكاني، ج٤، ص٦١٣.

مُجۡرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

وبيّن سبحانه أنه هو من وهب طالوت البسطة في الجسم، أي: القوة البدنيّة، قال تعالىٰ: ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

وحين يكون المخلوق ضعيفًا فيَقْوىٰ فهو سبحانه من يهبه هذه القوة، قال تعالىٰ: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦]، قال الإمام ابن كثير: «ينبه تعالىٰ عباده المؤمنين علىٰ نعمه عليهم وإحسانه إليهم، حيث كانوا قليلين فكثَّرهم، ومستضعفين خائفين فقوَّاهم ونصرهم، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات، واستشكرهم فأطاعوه، وامتثلوا جميع ما أمرهم»(١).

ومما يدلّ علىٰ عدم ذاتيّة القوة عند المخلوق، شعوره الحسيّ بفقدان القوة وطلبه من الخالق أن يمدّه بها، فإنّ استعانة المخلوق بربّه هي مفتاح قوته، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلىٰ الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص علىٰ ما ينفعك واستعن بالله، ولا تعجز**»(٢)، فمن استعان بالخالق يسّر له أسباب القوة وسخّر له خلقه فَقَوِي علىٰ مصالحه، ومن اعتمد علىٰ نفسه فهي ضعيفة عاجزة لا حيلة لها، روىٰ زيد بن ثابت ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ: أن رسول الله ﷺ علّمه وأمره أن يتعاهد أهله في كل صباح، وذكر دعاء طويل وفيه: «**وإنك إن تكلني إلىٰ نفسي تكلني إلىٰ ضعف و عورة وذنب و خطيئة و إني لا أثق إلا برحمتك فاغفر لي ذنوبي كلها، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت وتب علي إنك أنت التواب الرحيم**»(٣).

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٤، ص٤٠.

(٢) سبق تخريجه، ص٢٣٤.

(٣) المستدرك علىٰ الصحيحين، للحاكم، كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر، باب دعاء قضاء =

ومن ترك الاستعانة بالله واستعان بغيرِه وكَلَهُ الله إلىٰ من استعان به فصار مخذولاً كتب الحسنُ إلىٰ عُمَرَ بن العزيز: لا تستعِنْ بغيرِ الله، فيكِلَكَ الله إليه. ومن كلام بعضِ السَّلف: يا ربِّ عَجبت لمن يعرفُك كيف يرجو غيرك، وعجبتُ لمن يعرفك كيف يستعينُ بغيرك»[(١)].

فلا يمكن المخلوق من الاستقلال بجلب مصالحه أو دفع المضّار عنه، وفي أمرنا بقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله» اعتراف بذلك واستسلام له سبحانه جاء في صحيح مسلم عن أبىٰ موسىٰ الأشعري قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**ألا أدلك علىٰ كلمة من كنوز الجنة ـ** أو قال ـ **علىٰ كنز من كنوز الجنة؟**» فقلت بلىٰ، فقال: «**لا حول ولا قوة إلا بالله**»[(٢)]، فلا قوة لمخلوق، سواء قوة بدنيّة أو ماليّة أو غيرها، إلا من الخالق، والمقصد من هذا القول هو التبرؤ من الحول والقوة وإسنادها إليه سبحانه[(٣)]؛ لأن كلّ شيء في العالم العلوي أو السفلي لا يتحرك ولا يتحول من حال إلىٰ حال إلا بقوة من الخالق، فهذه الكلمة فيها كمال التفويض للخالق، وكمال التبرؤ من الحول والقوة إلا به، وكمال التسليم له[(٤)].

يقول ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما الاستعانة بالله عز وجل دونَ غيره من الخلق، فلأنَّ العبد عاجزٌ عن الاستقلال بجلب مصالحه ودفع مضارّه، ولا معين له علىٰ مصالح دينه ودنياه إلا الله عز وجل، فمن أعانه الله فهو المُعانُ ومن خذله فهو المخذولُ، وهذا تحقيقُ معنىٰ قول لا حول ولا قُوَّةَ إلا بالله، فإنَّ المعنىٰ لا تَحوُّلَ للعبد مِنْ حال إلىٰ حال ولا قُوَّة له علىٰ ذلك إلا بالله، وهذه كلمةٌ عظيمةٌ وهي كنز من كنوز الجنة، فالعبد محتاجٌ إلىٰ الاستعانة بالله في فعل المأمورات وترك المحظورات والصبر علىٰ المقدورات كلِّها في الدنيا وعندَ

=

الدين، رقم الحديث ١٩٤٣، ج٢، ص١٩٩، وحسّنه المنذري في الترغيب والترهيب.

(١) جامع العلوم والحكم، لابن رجب، ص٢٤٨.

(٢) سبق تخريجه، ص٢٣٨.

(٣) انظر: محاسن التأويل، للقاسمي، ط: دار الحديث، ج٧، ص٣٨.

(٤) انظر: الطب النبوي، لابن القيم، ص١٧٣.

الموت وبعده من أهوال البرزخ ويوم القيامة، ولا يقدر علىٰ الإعانة علىٰ ذلك إلا الله عز وجل، فمن حقق الاستعانة عليه في ذلك كله أعانه. وفي الحديث الصحيح عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «**احرصْ علىٰ ما ينفعُكَ واستعن بالله ولا تعجزْ**»(١).

والمقصود أن المخلوق حينما يكون دائم الطلب من خالقه أن يمدّه بالقوة، فهذا دليل أنّ قوته ليست ذاتيّة، وكذلك حين نطلب من الخالق أن يبقيها لنا ونحن أقوياء؛ لأنها هبة من الخالق قد يسلبها منّا في أيّ لحظة فإنّا ندعوه باستمرار أن يمتّعنا بها حتىٰ آخر لحظة من حياتنا، عن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قلّما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتىٰ يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: «**اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات الدنيا، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا**»(٢).

وكما أنه لا بدّ له من الاستعانة بخالقه ليمّده بالقوة كذلك لا يستغني عن معين يعينه علىٰ مصالحه الدينيّة والدنيويّة، وأسباب يبذلها تقويه من مأكل ومشرب وولد وإعداد عدّة للحرب وغير ذلك؛ لأن قوته ليست ذاتيّة.

فهذه الأسباب تقوي المخلوق وتعينه وهي من تسخير الله له، فلا يمكنه الحصول عليها بدون تيسير الله وتقديره، وإذا أراد الله أن يقطعها عنه قطعها، كما قال تعالىٰ في حق الكفّار يوم القيامة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدٗا﴾ [الجن: ٢٤].

ومن أسباب القوة الأكل والشرب، فالمخلوق لو لم يأكل ويشرب لخارت قواه وانهارت؛ جاء في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: سافرنا مع رسول الله ﷺ إلىٰ مكة ونحن صيام، قال: فنزلنا منزلًا، فقال رسول الله ﷺ: «**إنكم قد دنوتم من عدوكم، والفطر أقوىٰ**

(١) سبق تخريجه، ص٢٣٤.

(٢) سبق تخريجه، ص٢٣٦.

لكم»[(١)]، فهذا دليل أن قوته غير ذاتية، بينما الخالق صمد كما ذكرنا فقوته ذاتية.

وهذا لوط لمّا ضعف عن مقاومة قومه ورآهم وقد أبوا إلا أن يعتدوا علىٰ ضيوفه تمنّىٰ لو كان له أعوان وأنصار يعينونه وينصرونه[(٢)]، ومقصده ـ عليه السلام ـ الأسباب الحسيّة المعينة له، وإلا فإن الخالق سبحانه خير معين له، وأقوىٰ ركن يلجأ إليه، لا يقف أمام قوته أحد[(٣)]، قال تعالىٰ: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠].

وذو القرنين علىٰ ما وهُب من قوة إلا أنّه احتاج إلىٰ معين في بناء السّد فقال: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥]، قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثم طلب منهم المعاونة له فقال: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي: برجال منكم يعملون بأيديهم، أو أعينوني بآلات البناء، أو بمجموعهما»[(٤)].

وهذا موسىٰ ـ عليه السلام ـ القويّ الأمين، كما وُصف بيّن حاجته إلىٰ معين في دعوته فطلب من الله ذلك قال تعالىٰ: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي﴾ [طه: ٢٩ ـ ٣١]، فقال الله: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥]، قال الإمام الطبري: «﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾؛ أي: نقويك ونعينك بأخيك»[(٥)].

والمقصود أن المخلوق قوته غير ذاتية، فهو يحتاج إلىٰ خالقه أن يمدّه بالقوة، ويحتاج إلىٰ أسباب يبذلها تقويه من مأكل ومشرب وولد وإعداد عدّة للحرب وغير ذلك، ويحتاج

---

(١) رواه مسلم، كتاب الصيام، باب أجر المفطر في السفر إذا تولىٰ العمل، رقم الحديث ٢٦٢٤، ص٤٥٨.

(٢) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٢، ص٥٠٨.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٣٨٦.

(٤) فتح القدير، للشوكاني، ج٣، ص٣٧٩.

(٥) جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٨، ص٢٥١، ٢٥٢.

إلىٰ معين من الخلق يعينونه علىٰ الأعمال التي تشقّ عليه، وأما الخالق فكل هذا قد انتفىٰ في حقّه؛ لأن قوته ذاتية، فظهر الفرق بين الخالق والمخلوق في مصدرية القوة.

الفرق الثاني: الفرق في الدوام:

الخالق قوته دائمة فلا تضعف ولا تزول، والمخلوق قوته غير دائمة فقد يقوىٰ في وقت ويضعف في وقت وهي زائلة ولا بدّ.

والمراد من هذا الفرق أنّ الخالق سبحانه هو القوي علىٰ الحقيقة وقوته دائمة فلا يستولي عليه الضعف والعجز في حال من الأحوال ولا تزول وتنتهي في يوم من الأيام، والقوة هي الأصل بالنسبة له، والأدلّة علىٰ ذلك متكاثرة، منها قوله تعالىٰ: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥]، فقوله: (وكان الله) أي: الذي له كل صفة كمال دائمًا أزلًا وأبدًا، ومنها القوة والعزة(١).

وقوته تعالىٰ ممتدة إلىٰ يوم القيامة، وإلىٰ أبد الآبدين، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، ففي يوم القيامة يظهر لمن اتخذ مع الله شريكًا أن القوة قد انفرد بها الخالق دون هؤلاء الشركاء والآلهة التي لا تغني عنهم شيئًا، وتضعف عن الدفاع عن نفسها أو غيرها(٢)، فقوتهم في ذلك اليوم تزول وتتلاشىٰ، في حين أن قوة الخالق دائمة باقية لم تزول ولم تضعف.

وقال عن نفسه أيضًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، فقوته عظيمة لا يمكن أن تقارن أو تقاس بقوة المخلوق مهما بلغت قوة المخلوق(٣)؛ ولهذا قال: «ذو القوة»

---

(١) انظر: نظم الدرر، للبقاعي، ج٦، ص٩٤.

(٢) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٣، ص٢٣.

(٣) انظر: شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، للغنيمان، ج١، ص٧١.

يعني أن الخالق قوته خالية من النقص والخلل؛ لأن من خصائص "ذو" أن تضاف إلى مهم[(١)]؛ ولهذا قرنه بوصف "المتين"، أي: شديد القوة لا يعتري قوته العجز أو الضعف[(٢)]، قال ابن الجوزي[(٣)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنى المتين: «الشديد القُوَّة الذي لا تنقطع قُوَّته ولا يَلحقه في أفعاله مَشقَّة»[(٤)]، فلا يمكن أن يأتي زمن فتضعف قوته أو تزول، لأن قوته دائمة.

وهذا النفي لإمكانية أن يلحقه تعب أو ثقل من فعل شيء مهما عظم، جاء في عدّة آيات، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق: ٣٨]، قال الإمام ابن كثير: «أي: من إعياء ولا نصب ولا تعب»[(٥)]، وقد نزلت في اليهود لمّا قالوا إن الله خلق السموات والأرض في ستّة أيام واستراح في اليوم السابع من التعب والنصب والإعياء فردّ الله عليهم بإثبات خلقه للسموات والأرض في ستة أيام، إلا أنه نفى عن نفسه اللغوب وهو النقص في القوة[(٦)]، فجاءت اللفظة بصيغة النكرة في سياق النفي مما يدّل على العموم وكمال القوة ونهايتها، فليس هناك شيء يلحق الخالق بسببه مشقة أو تعب[(٧)]، وعبّر بنفي المسّ لنفي أقل وأضعف إصابة من المشقة والتعب[(٨)].

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج٢٧، ص٢٩.

(٢) انظر: شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، للغنيمان، ج١، ص٧١.

(٣) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي، الحنبلي، الواعظ، توفي في الثالث عشر من رمضان سنة سبع وتسعين وخمس مائة، له نحو ثلاث مئة مصنف، منها (الأذكياء وأخبارهم) و (مناقب عمر بن عبد العزيز) و (روح الأرواح). المرجع: سير أعلام النبلاء، ج١٥، ص٤٥٥، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٦، ص٥٣٧، والأعلام للزركلي، ج٣، ص٣١٦، ومعجم المؤلفين، ج٥، ص١٥٧.

(٤) زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، ج٧، ص٢٥٩.

(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٧، ص٤٠٩.

(٦) انظر: المرجع السابق.

(٧) انظر: شرح الرسالة التدمرية، للبراك، ص١٨٦.

(٨) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٦، ص٣٢٦.

والخالق يمكنه خلقها في لحظة فيقول للشيء كن فيكون إلا أنه سبحانه جرت سنته أن يخلق الشيء بأسباب، وأن يخلقه شيئًا فشيئًا، فالجنين في بطن أمه لا يخلقه مرة واحدة وإنما يكون أطوارًا حتىٰ يكتمل، فكذلك خلقه للسموات والأرض جعله في ستّة أيّام وليس في يوم واحد(١).

وكما نفىٰ عن نفسه اللغوب نفىٰ عن نفسه العيّ في عدّة آيات كما في قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]، فنفىٰ عن نفسه العجز والضعف وأن يكون قد أكرثه أو شقّ عليه خلق السموات والأرض(٢).

وكما لا يشقّ عليه خلق السموات والأرض فكذلك لا يشقّ عليه حفظها، قال تعالىٰ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: لا يثقله ولا يُكْرِثُه حفظ السموات والأرض ومن فيهما ومن بينهما، بل ذلك سهل عليه، يسير لديه»(٣)، فأخبر أنه هو من يحفظ العالم بأجمعه، العلوي منه والسفلي، دون أن يلحقه من جراء ذلك ضعف أو مشقّة أو تعب أو ثقل كما يلحق المخلوق، وهذا دليل علىٰ كمال قوته(٤) ودوامها وأزليتها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «قوله: ﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥] أي لا يكرثه ولا يثقله، وذلك مستلزم لكمال قدرته وتمامها. بخلاف المخلوق القادر إذا كان يقدر علىٰ

(١) انظر: تفسير القرآن الكريم، للعثيمين، سورة ق، ص١١٠.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٧، ص٤٠٩، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج١٦، ص١٨٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج١، ص٦٨١، ٦٨٢.

(٤) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٤، ص٥٤٢، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج١، ص٦٨١، ٦٨٢.

الشيء بنوع كلفة ومشقة، فإن هذا نقص في قدرته، وعيب في قوته»[1]، فالمخلوق قوته ناقصة، قد يكون قويًا لكنّه إذا فعل فعلًا عظيمًا حصل له بسببه المشقّة والإعياء والتعب[2]، قال الإمام ابن القيم: «الْقُوَّة الجسمانية تكلّ بِكَثْرَة الْأَفْعَال، وَلَا تقوىٰ بعد الضعْف، وَسَببه ظَاهر، فَإِن القوىٰ الجسمانية بِسَبَب مزاولة الْأَفْعَال تتعرض موادها للتحلل والذبول وَهُوَ يُوجب الضعْف»[3].

وهذا الأمر مقرر شرعًا وحسًا، فكلّ مخلوق يرىٰ أنّ قوته غير دائمة قد يقوىٰ في وقت ويضعف في وقت، وقوته يسبقها الضعف ويلحقها الفناء. والضعف هو الأصل بالنسبة له، فهو ضعيف من جميع الوجوه: في بنيته، وفي عزمه وإرادته، وفي همته، وفي إيمانه، وفي صبره[4]، وقد تقرر ذلك في أدلة متكاثرة منها قوله تعالىٰ: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٨]، من نطفة ضعيفة رقيقة مستقذرة[5].

ولو تأمل المخلوق في كونه خُلق من العدم فلم يكن شيئًا، ثم صار خلقًا سويًا لما تكبر وطغىٰ وبغىٰ، قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٧]، وقال: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ١ - ٣]، فأخبر أنه جاء زمن طويل قبل وجود الإنسان ليس له ذكر، فلمّا أراد الخالق إيجاده خلق آدم من الطين، وخلق نسله من ماء مستقذر، ووهب له القوىٰ الظاهرة من السمع والبصر،

---

(١) التدمرية، لابن تيمية، ص٥٨.

(٢) انظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لابن تيمية، ج٣، ص٢١١.

(٣) الروح، لابن القيم، ص٤٥٥.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٢، ص٢٦٧، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص١٧٥.

(٥) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٨، ص٦٠٠.

والقوىٰ الباطنة، وجعلها سالمة ليحصل علىٰ مقاصده(1)، وإذا كان أصله الضعف فهذا يعني عدم أزليّة قوته ودوامها.

وكما أن أصله الضعف؛ فإن مآله إلىٰ الضعف، فمن طال عمره فإن قوته تتحول لضعف، ونشاطه إلىٰ عجز(2)، فتنتكس خلقته ويعود لنفس الحال التي ابتدأ بها، وهذا دليل علىٰ نقصه من كل وجه(3)، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ [يس:٦٨]، قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله تعالىٰ: ننكسه في الخلق، أي نقلبه فيه، فنخلقه علىٰ عكس ما خلقناه من قبل، وذلك أنا خلقناه علىٰ ضعف في جسده، وخلو من عقل وعلم، ثم جعلناه يتزايد وينتقل من حال إلىٰ حال، ويرتقي من درجة إلىٰ درجة إلىٰ أن يبلغ أشده، ويستكمل قوته ويعقل ويعلم ما له وما عليه، فإذا انتهىٰ نكسناه في الخلق، فجعلناه يتناقص حتىٰ يرجع في حال شبيهة بحال الصبي في ضعف جسده، وقلة عقله وخلوه من العلم، وأصل معنىٰ التنكيس: جعل أعلا الشيء أسفله»(4).

وقد جمع الله بين المعنيين في قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾ [الروم:٥٤]، قال الشيخ السعدي: «يخبر تعالىٰ عن سعة علمه، وعظيم اقتداره، وكمال حكمته، ابتدأ خلق الآدميين من ضعف، وهو الأطوار الأول من خلقه، من نطفة إلىٰ علقة إلىٰ مضغة إلىٰ أن صار حيوانًا في الأرحام، إلىٰ أن ولد، وهو في سن الطفولية، وهو إذ ذاك في غاية الضعف، وعدم القوة والقدرة. ثم ما زال اللّه يزيد في قوته شيئًا فشيئًا، حتىٰ بلغ سن الشباب واستوت قوته، وكملت قواه الظاهرة والباطنة، ثم انتقل من هذا الطور، ورجع إلىٰ الضعف والشيبة

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٩٠٠.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٦، ص٥٨٨.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٦٩٨.

(٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي، ج٦، ص٤٣٢.

والهرم»(١)، فهذا دليل صريح على عدم دوام قوته وأزليتها.

وقال أيضًا في بيان هذا المعنى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]، فيخبر تعالى أن المخلوق يخرج إلى الدنيا ضعيفًا لا قوة له، ثم تتكامل قوته وتزيد حتى يصل لعنفوان الشباب وفيه كمال القوة والعقل، ثم إما أن تضعف قوته حين يصل لأرذل العمر وهو الهرم والتخريف، فتعود كما كانت في صغره فتضعف ويضعف عقله وإدراكه، أو يموت وهو في شبابه وقواه(٢)، وبموته تزول قوته بالكلية، «فقوة الآدمي محفوفة بضعفين، ضعف الطفولية ونقصها، وضعف الهرم ونقصه»(٣)، وأرذل العمر لا يصل له كلّ الخلق، بل يستثنى من هذا أهل الإيمان فإنهم وإن طال بهم العمر فلا يصلون إليه(٤)، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٤ ـ ٦]، يقول الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويكون الاستثناء إلا الذين آمنوا فإنهم لا يصلون إلى حالة الخوف وأرذل العمر، لأن المؤمن مهما طال عمره، فهو في طاعة، وفي ذكر الله فهو كامل العقل، وقد تواتر عند العامة والخاصة أن حافظ كتاب الله المداوم على تلاوته، لا يصاب بالخرف ولا الهذيان»(٥)، فعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: «من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٦٤٤.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٥، ص٣٩٦، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٥٣٤.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٥٣٤.

(٤) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي، ج٩، ص١٨٧.

(٥) المرجع السابق.

العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئًا، وذلك قوله عز وجل: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [التين: ٥، ٦]، قال: إلا الذين قرأوا القرآن»[١]، وجاء في صحيح البخاري عن مصعب بن سعد، عن أبيه قال: تعوذوا بكلمات كان النبي ﷺ يتعوذ بهن: «**اللهم إني أعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من أن أرد إلىٰ أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وعذاب القبر**»[٢]، فهذا دليل علىٰ أنه قد ينجو البعض من هذا الوصف، وإلا لم يكن للتعوّذ منه معنىٰ.

وأرذل العمر الذي نقصده هو ما ذكره الإمام العيني[٣] بقوله: «هو الخرف، يعني: يعود كهيئته الأولىٰ في أوان الطفولية، ضعيف البنية سخيف العقل قليل الفهم، ويقال: أرذل العمر: أردؤه، وهو حالة الهرم والضعف عن أداء الفرائض، وعن خدمة نفسه فيما يتنظف فيه فيكون كلًا علىٰ أهله ثقيلًا بينهم، يتمنون موته فإن لم يكن له أهل فالمصيبة أعظم»[٤].

وأما التغيّر في القوة الجسديّة بحيث تضعف، وفي الهيئة الجسديّة بحيث تتراجع فهو من طبيعة المخلوق[٥]، ولا يمكن أن يعيش المرء ويطول به العمر دون أن يتغير شيء من قوته ودون أن يصيبه الضعف، والناس متفاوتون في ذلك، وهذا المقصود بالفرق فالخالق لا

---

(١) المستدرك علىٰ الصحيحين، للحاكم، كتاب التفسير، تفسير سورة "والتين"، رقم الحديث ٤٠٠٦، ج٣، ص٣٨٢، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي في التلخيص: صحيح.

(٢) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب الاستعاذة من أرذل العمر، ومن فتنة الدنيا،وفتنة النار، رقم الحديث ٦٣٧٤، ص١٢٢٤.

(٣) أبو الثناء، وأبو محمد، محمود أحمد موسىٰ العيني، الحنفي، مؤرخ، علامة، وتوفي في سنة أربع وثمانين وسبعمائة. من كتبه (عمدة القاري في شرح البخاري)، و (مغاني الأخيار في رجال معاني الآثار)، و(العلم الهيب في شرح الكلم الطيب) لابن تيمية. المرجع: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٩، ص٤١٨، والأعلام للزركلي، ج٧، ص١٦٣، ومعجم المؤلفين، ج١٢، ص١٥٠.

(٤) عمدة القاري، للعيني، ج١٤، ص١٦٧، ١٦٨.

(٥) انظر: تفسير القرآن الكريم، للعثيمين، سورة التين، ص٢٥٧.

يمكن أن تتناقص قوته أو تزول بينما المخلوق قوته بين ضعفين، فهي إلىٰ زوال وفناء.

هذا حال المخلوق في الدنيا أما في الآخرة، فقد قال تعالىٰ عنه في ذلك اليوم: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠]، فليس له قوة في نفسه، ولا ناصر من خارج نفسه فلا شيء يمنعه مما سيحلّ به(١)، فانقطعت أسباب القوة سواء الذاتيّة أو الخارجيّة، وقال تعالىٰ: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ [الكهف: ٤٨].

وزوال قوة المخلوق ليس مقتصرًا علىٰ الأفراد بل حتىٰ الأمم القوية يمن أن تزول قوتها وتتلاشىٰ، ومن هؤلاء قوم عاد وثمود وفرعون كانوا من الأمم التي وهبها الخالق القوة العظيمة، إلا أنهم لمّا تكبروا وبغوا وطغوا أزال الخالق هذه القوىٰ عنهم فلم تنفعهم ولم تدفع عنهم، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦ ـ ١٤].

والأنبياء الذين هم أكرم الخلق علىٰ الله، يعرض لهم الضعف فقوتهم غير دائمة، قال تعالىٰ عن نبيه زكريا عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤]، «أي: ضعفت وخارت القوىٰ»(٢)، وكان اعترافهم بعجزهم وضعفهم من أعظم ما يقربهم من خالقهم ويستجلبون به رحمته؛ لأن هذا دليل علىٰ التبرؤ من الحول والقوة والتعلق بحول الله وقوته(٣).

بل إن أفضل الأنبياء وأحب الخلق إلىٰ الله نبينا ﷺ عند موته زالت قوته وأصابه الضعف حتىٰ لم يعد قادرًا علىٰ أن يستاك، ففي صحيح البخاري عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا: توفي

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٨، ص٣٧٦.

(٢) المرجع السابق، ج٥، ص٢١١.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٤٨٩.

النبي ﷺ في بيتي، وفي نوبتي، وبين سحري ونحري، وجمع الله بين ريقي وريقه. قالت: دخل عبد الرحمن بسواك، فضعف النبي ﷺ عنه، فأخذته فمضغته، ثم سننته به[1].

وبهذا ظهر الفرق بين الخالق والمخلوق في دوام القوة، فالخالق قوته دائمة لا تزول ولا تتغير، والمخلوق قوته مسبوقة بضعف ويلحقها الزوال.

الفرق الثالث: الفرق في الإطلاق:

الفرق في الإطلاق: قوة الخالق مطلقة لا حدّ لها فهو يقوىٰ علىٰ كلّ شيء من الموجودات أو المعدومات[2]، وقوة المخلوق قاصرة يقوىٰ علىٰ أمور ولا يقوىٰ علىٰ

---

(١) رواه البخاري، كتاب فرض الخُمس، باب: ما جاء في بيوت أزواج النبي ﷺ وما نسب من البيوت إليهن، رقم الحديث ٣١٠٠،ص ٥٩٣.

(٢) جاء في موقع الإسلام سؤال وجواب للشيخ المنجد هذا السؤال وهذه الإجابة «هذا السؤال قد يُطرح من قبل أحد دعاة التنصير: «هل يستطيع الله أن يخلق صخرة لا يمكنه رفعها؟» كيف نرد علىٰ ذلك؟

الحمد لله: هذا السؤال ـ وأمثاله ـ فيه مغالطة كبيرة، ويحاول كثير من الملحدين أن يستعمله في حواراته مع المسلمين، وهم يريدون الإلزام للمجيب فإن قال: لا يستطيع. قالوا: كيف يكون إلها وهو عاجز عن الخلق؟! وإن قال: يستطيع. قالوا: كيف يكون إلهـًا وهو عاجز عن الحمل والرفع لهذه الصخرة؟!

والجواب: أن هذا السؤال غير صحيح في الأصل، فقدرة الله تعالىٰ لا تتعلق بالمستحيلات؛ فكيف يكون إلهـًا وهو عاجز عن رفع " صخرتهم " ومن صفات الله تعالىٰ القدرة؟! وهل سيوجد في صفات المخلوقات ما هو أعظم من صفات خالقها؟! وقد أجاب الأستاذ سعد رستم عن هذا السؤال بجواب علمي رصين نتقله بنصه، إذ قال:

قدرة الله – التي هي بلا شك مطلقة وغير محدودة – إنما تتعلق بالممكنات العقلية لا بالمستحيلات العقلية، فالقدرة مهما كانت مطلقة ولا حدود لها تبقىٰ في دائرة ممكنات الوجود، ولا تتعلق بالمستحيلات، وليس هذا بتحديد لها، ولتوضيح هذه النقطة نضرب بعض الأمثلة:

نسأل جميع هؤلاء الأساقفة واللاهوتيين: هل يستطيع الله تعالىٰ أن يخلق إلـهـًا آخر مثله؟ إن قالوا: نعم. قلنا لهم: هذا المخلوق كيف يكون إلـهـًا وهو مخلوق؟ وكيف يكون مثل الله مع أنه حادث في حين أن الله أزلي قديم؟ في الحقيقة إن عبارة "خلق إله" سفسطة وتناقض عقلي لأن الشيء بمجرد أن يُخلَق فهو ليس بإله، فسؤالنا هذا بمثابة سؤالنا هل يستطيع الله تعالىٰ أن يخلق "إلها غير إله"؟! وبديهي أن الجواب لا بد =

أخرىٰ.

الخالق سبحانه قويّ وقوته مطلقة لا يعجزه شيء البتة، ولا يمكن لمخلوق أن يقوىٰ علىٰ ما يقوىٰ عليه الخالق، ومن ذلك أنه يقوىٰ علىٰ خلق كل شيء، سواء كان كبيرًا أو صغيرًا، والمخلوق لا يقوىٰ حتىٰ علىٰ خلق ذبابة، بل لو سلبه الذّباب شيئًا لا يمكنه أن يستنقذه منه، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤].

=

أن يكون: إن قدرة الله لا تتعلق بذلك؛ لأن كون الشيء إلهـًا وغير إله تناقض عقلي مستحيل الوجود، وقدرة الله لا تتعلق بالمستحيلات.

مثال آخر: نسألهم أيضـًا: هل يستطيع الله تعالىٰ أن يخرِج أحداً حقيقة من تحت سلطانه؟

إن أجابوا بالإيجاب حددوا نفوذ الله تعالىٰ وسلطانه، وإن أجابوا بالنفي - وهو الصحيح - وافقونا بأن قدرة الله المطلقة لا تتعلق بالمستحيلات؛ لأنه مستحيل عقلاً أن يخرج أي مخلوق من سلطان ونفوذ خالقه وموجِده».

مثال ثالث: سألني مرة أحد الملحدين فقال: «هل يستطيع ربكم أن يخلق صخرة هائلة تكون من الضخامة بحيث يعجز هو نفسه عن تحريكها؟» وأضاف متهكّمـًا: «إن قلت لي نعم يستطيع: فقد أثبت لربك العجز عن تحريك صخرة، وهذا دليل علىٰ أنه ليس بإلهٍ، وإن قلت لي: كلا، لا يستطيع، اعترفت بأنه لا يقدر علىٰ كل شيء، و بالتالي فهو ليس بإلهٍ!». فأجبت هذا الملحد بكل بساطة: نعم، لا يدخل ضمن قدرة الله أن يخلق صخرة يعجز عن تحريكها؛ لأن كل ما يخلقه الله يقدر علىٰ تحريكه، ولكن عدم إمكان تعلق قدرة الله تعالىٰ بخلق مثل هذه الصخرة المفترضة ليس دليلا علىٰ عجزه بل - علىٰ العكس تمامـًا - هو دليل علىٰ كمال قدرته! لأن سؤالك هذا بمثابة من يسأل: هل يستطيع الله تعالىٰ أن يكون عاجزاً عن شيء ممكن عقلا؟ وبديهي أن الإجابة بالنفي لا تفيد تحديد قدرة الله بل تفيد تأكيد كمال قدرته تعالىٰ وتمامها؛ لأن عدم العجز عين القدرة وليس عجزاً، تمامـًا كما أنه لو قلنا إن الله لا يمكن أن يجهل أو ينسىٰ شيئـًا، لا يكون في قولنا هذا إثباتٌ لعجز فيه تعالىٰ أو نقص، بل يكون تأكيداً علىٰ كماله تعالىٰ وكلية قدرته وعلمه.

"الأناجيل الأربعة ورسائل بولس ويوحنا تنفي ألوهية المسيح كما ينفيها القرآن" للأستاذ سعد رستم. والله أعلم، ٤/ ٦/ ١٤٣٧هـ، ١٣مارس/ ٢٠١٦م.

قال الإمام الطبري: «يقول: إن الله لقوي على خلق ما يشاء؛ من صغير ما يشاء خَلْقَه، وكبيره. ﴿عَزِيزٌ﴾ يقول: منيع في ملكه، لا يقدر شيء دونه أن يسلبه من ملكه شيئًا، وليس كآلهتكم أيها المشركون الذين تدعون من دونه، الذين لا يقدرون على خلق ذباب، ولا على الامتناع من الذباب إذا استلبها شيئًا ضعفًا ومهانةً»(١).

ويقوى أيضًا على بناء السماء وجعلها سقفًا محفوظًا ورفعها بغير عمد(٢)، وأنّى لمخلوق فعل هذا، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧].

قال ابن عباس: « أي وإنا لذو سعة، وبخلقها وخلق غيرها لا يضيق علينا شيء نريده(٣)»

وهو من خلق الإنسان وشقّ له السمع والبصر بحوله وقوته، فعن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا قالت: كان رسول الله ﷺ يقول في سجود القرآن بالليل، يقول في السجدة مراراً: «**سجد وجهي للذي خلقه، وشق سمعه وبصره بحوله وقوته**»(٤)، وهذه لا يقوى عليها مخلوق.

ويقوى على إعادته بعد موته وهو شيء يسير بالنسبة لخلق السموات والأرض والملائكة والجنّ وغيرها من المخلوقات العظيمة(٥) التي تدلّ على قوة الخالق وعظمته، قال تعالى: ﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ﴾ [الصافات: ١١]، وقال أيضًا: ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج: ١٢- ١٣]، فذكر صورتين

---

(١) جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٦، ص٦٣٥، ٦٣٦.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٧، ص٤٢٤.

(٣) أخرجه البيهقي، باب ما جاء في إثبات القوة وهي القدرة، رقم الأثر ٢٥٣، ج١، ص٣٢٩.

(٤) سبق تخريجه، ص٢٣٦.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٧، ص٧.

من صور قوته سبحانه الأولىٰ: شدّة بطشه بأعدائه وانتقامه منهم، والثانية: بدؤه للخلق، ثم إعادته له كما بدأ، بلا ممانع ولا مدافع، وهذه لا يقوىٰ عليها إلا هو سبحانه[1].

ويقوىٰ علىٰ الإحاطة بخلقه يوم القيامة فلا يمكن لأحد منهم أن ينفذ خارج ملكه سبحانه قال تعالىٰ: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴾ [الرحمن: ٣٣]، قال الشيخ السعدي: «أي: إذا جمعهم الله في موقف القيامة، أخبرهم بعجزهم وضعفهم، وكمال سلطانه، ونفوذ مشيئته وقدرته، فقال معجزاً لهم: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي: تجدون منفذا مسلكا تخرجون به عن ملك الله وسلطانه، ﴿فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴾ أي: لا تخرجون عنه إلا بقوة وتسلط منكم، وكمال قدرة، وأنىٰ لهم ذلك، وهم لا يملكون لأنفسهم نفعـًا ولا ضراً، ولا موتـًا ولا حياة ولا نشوراً؟! ففي ذلك الموقف لا يتكلم أحد إلا بإذنه، ولا تسمع إلا همسـًا، وفي ذلك الموقف يستوي الملوك والمماليك، والرؤساء والمرءوسون، والأغنياء والفقراء»[2]، فلا يمكن لمن هم في ملك الخالق وتحت سلطانه أن يخرجوا عنه، وأمّا المخلوق فمهما بلغت قوته فلا يقوىٰ علىٰ الإحاطة بمن هم في ملكه، ويمكن الكثير منهم الخروج عن سلطانه ولا ينتفع بقوته؛ فهذا الأمر خارج قوة العبد ليس له استطاعة عليه.

والخالق يقوىٰ أيضًا علىٰ أن يرزق الخلق كلهم في آن واحد، لو وقفوا كلهم في صعيد واحد فسألوه لقوي علىٰ إعطاء كل واحد منهم مسألته لا يشغله حال عن حال، والمخلوق لا قدرة له علىٰ ذلك، عن أبىٰ ذر عن النبي ﷺ فيما روىٰ عن الله تبارك وتعالىٰ أنه قال: «**يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر**»[3].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٨، ص٣٧٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٣٨٥.

(٣) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب تحريم الظلم، رقم ٦٥٧٢، ص١١٢٨.

ويقوىٰ علىٰ نصرة رسله وأتباعهم وإهلاك أعدائهم[1]، والمخلوق مهما بلغت قوته فلا قوة له علىٰ الانتصار لنفسه أو لغيره إذا أراد الخالق هلاكه، قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر: ٢١، ٢٢].

ووصف نفسه أيضًا بأنه «شديد المحال»، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ [الرعد: ١٣- ١٤]، «أي: شديد الحول والقوة، فلا يريد شيئًا إلا فعله، ولا يتعاصىٰ عليه شيء ولا يفوته هارب»[2]؛ لأن قوته مطلقة لا حدّ لها.

وأمّا المخلوق فمهما بلغت قوته فهي محدودة، وهو يقدر علىٰ أمور ولا يقدر علىٰ أخرىٰ، والواقع شاهد بذلك وكلّ مخلوق يدرك هذا من نفسه، وهو وصف عام يشمل الملائكة والجنّ والإنس، فأما الملائكة فمع ثبوت قوتهم وقدرتهم التي تفوق قوة وقدرة البشر، إلا أن هذه القوة غير مطلقة فما يمكن أن يفعله مَلَك، قد لا يقوىٰ المَلَك الآخر علىٰ فعله؛ ولهذا كان لكلّ ملائكة وظائف معينّة تقوم بها لا يقوم بها غيرها.

ومع ما عُرف من وصف جبريل بالقوة كما في قوله تعالىٰ: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾ [النجم: ٥- ٦]، وقال: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠- ٢١]، فإنه حين يسمع ـ هو والملائكة ـ الأمر من الخالق يُغشىٰ عليها، وهذا دليل علىٰ محدوديّة قوتها، فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إذا قضىٰ الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله، كالسلسلة علىٰ صفوان** ـ قال علي: وقال غيره: صفوان، ينفذهم ذلك ـ **فإذا فزع عن قلوبهم، قالوا: ماذا قال ربكم، قالوا للذي قال: الحق، وهو العلي**

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٣٨٥.

(٢) المرجع السابق، ص٤١٤.

الكبير»[1].

وكذلك الحال بالنسبة للإنسان فلا يقوىٰ علىٰ كلّ شيء مطلقًا وقد كان من أعظم ما دحض تكبّر النمروذ وأذلّه هو شعوره بمحدودية قوته.

فلمّا ادعىٰ مطلق القوة وأنه يقوىٰ علىٰ ما يقوىٰ عليه الخالق من الإحياء والإماتة وغيره، أبطل إبراهيم ـ عليه السلام ـ دعواه بأن الخالق يقوىٰ علىٰ الإتيان بالشمس كل يوم من المشرق فهل تقوىٰ علىٰ الإتيان بها من المغرب فحينئذ بطلت دعواه في أنّ قوته مطلقة ومساواتها مع قوة الخالق، وظهر ضعفه وعجزه، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وقال تعالىٰ في حقّ قارون: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]،

فعلىٰ أنها جماعة قويّة إلا أنه يلحقها المشقة من حمل مفاتيح هذه الخزائن[2]، فقوله: ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾، «أي تنهض بها بمشقة وجهد لكثرتها وثقلها»[3].

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٨]، رقم الحديث ٤٧٠١، ص٩٠٢.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٦٢٣.

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي، ج٧، ص٢٥٥.

وأخبر الخالق عن قوة المؤمنين في القتال أنها محدودة وليست مطلقة؛ فالمؤمن الصابر يمكنه أن يغلب اثنين من الأعداء؛ ولهذا لا يجوز له أن يفرّ إذا كان أهل الكفر مثلي أهل الإيمان؛ لأن في مقدورهم أن يغلبوهم، ولكن يجوز لهم الفرار إذا كانوا أكثر من هذا العدد؛ لأن قوتهم محدودة وليست مطلقة، فعلم ضعفهم وخفف عنهم، قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ٦٥ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٥- ٦٦].

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فقوله: ﴿مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم﴾ دليل علىٰ محدودية قوة المخلوق حيث لم يكلفهم إلا بإعداد ما يستطيعون من القوة ولم يقل: وأعدوا لهم القوة.

وقد عُرف عن موسىٰ قوته، وجاءت الأدلة واصفة له بقوة الجسد، فمنها ما ذكره تعالىٰ عن الحادثة التي وقعت له مع الرجل من بني إسرائيل حيث استغاثه علىٰ عدوّه فوكزه موسىٰ فخرّ ميتًا، وهذا من شدة قوته ـ عليه السلام ــ حيث أن ضربة واحدة كانت كفيلة بإسقاط الرجل ميتًا قال تعالىٰ: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾ [القصص: ١٥].

ورأت ابنتا شعيب هذه القوة منه أيضًا حين هبّ لمساعدتهما والسقي لهما فأخبرتا

أباهما بذلك، قال تعالىٰ: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

ومع ذلك فقوته ليست مطلقة، فقد أخبرنا الله أنّه خرّ صعقًا حين تجلّىٰ الخالق للجبل ولم يتمكن من الثبات لرؤيته، «فأعلمه أن الجبل مع قوته و صلابته لا يثبت لتجليه له في هذه الدار، فكيف بالبشر الضعيف الذي خلق من ضعف»(١)، قال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فضعف قوة البشر في الدنيا تمنعهم من تحمّل رؤية الخالق والثبوت لذلك، إلا أنهم يوم القيامة يوهبون قوة تمنحهم الثبوت لتجلي الخالق ورؤيته دون إحاطة به(٢).

وقد اعتراه ـ عليه السلام ـ التعب والمشقة بعد أن وصل مدين وسقىٰ للمرأتين فما كان منه إلا أن توجه إلىٰ الظل يستريح من العناء الذي لحق به(٣)، قال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣، ٢٤]، والمقصود أن موسىٰ ـ عليه السلام ـ وإن كان قد وُهب قوة يقدر بها علىٰ كثير من الأمور إلا أن هذه القوة محدودة فهو عاجز عن أمور أخرىٰ؛ لأن الذي قوته مطلقة هو الخالق.

وكذلك الحال مع نبينا ﷺ حين طلب الكفار منه أمورًا هي ليست في مقدوره ولا قوة له بها؛ أخبرهم بأنه حقًا رسول إلا أنه بشر، والبشر لهم قوة وقدرة محدودة لا يتجاوزونها، قال

(١) حادي الأرواح إلىٰ بلاد الأفراح، لابن القيم، ج٢، ص٦٠٧.

(٢) انظر: الصفات الإلهية في الكتاب والسنة النبوية، لمحمد الجامي، ص٣٢٧.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٦١٤.

تعالىٰ: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٠- ٩٣]، قال الإمام الطبري: «يقول: هل أنا إلا عبد من عبيده من بني آدم، فكيف أقدر أن أفعل ما سألتموني من هذه الأمور؟ وإنما يقدر عليها خالقي وخالقكم، وإنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به إليكم، والذي سألتموني أن أفعله بيد الله الذي أنا وأنتم عبيد له، لا يقدر علىٰ ذلك غيره»[١].

والمقصود أن الخالق هو المختص المنفرد بالقوة الكاملة من جميع الوجوه، وأما المخلوق وإن ثبتت له القوة إلا أنها لا تماثل قوة الخالق ولا تدانيها[٢]، فالخالق قوته مطلقة لا حدود لها، والمخلوق قوته محدودة بأمور معينة، فيقوىٰ علىٰ بعض الأمور، لكنّه لا يقوىٰ علىٰ كل شيء.

الفرق الرابع: الفرق في صفات الكمال اللازمة:

١ ـ الفرق في الغلبة والقهر: الخالق قوته مقرونة بالغلبة والقهر لغيره، فقوته لا يغالبها غالب، ولا يمكن لأحد أن يفرّ منه، والمخلوق قوته مغلوبة مقهورة بقوة غيره، ومهما بلغت قوته فالفرار منه أمر ممكن.

والمراد بهذا الفارق أنّ الخالق لا يوجد أحد يمكن أن يغلبه أو يقهره، ولو أراد الانتقام من مخلوق فلا يمكنه بحال من الأحوال أن يفرّ منه مهما بلغت قوته؛ ولهذا اقترن اسم القوي بالعزيز في مواطن عديدة، قال الإمام الطبري في قوله تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾

(١) جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٥، ص٨٧.

(٢) انظر: تفسير القرآن الكريم، للعثيمين، سورة البقرة، ج٢، ص٢٢٥، ٢٢٦.

[هود: ٦٦] ، "أنه القوي: «في بطشه، إذا بطش بشيء أهلكه، كما أهلك ثمود حين بطش بها ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ فلا يغلبه غالب، ولا يقهره قاهر، بل يغلب كل شيء ويقهره»[(١)].

وقد غلب الخالق وقهر كل الأمم والأشخاص الذين كذّبوا وطغوا واعتدّوا بقوتهم، ولم يمكنهم أن يغلبوا قوته ولا يقهروا من هو في صفّه، فقوم عاد وثمود وغيرهم جاؤوا بالخاطئة، وهي تكذيب رسل الخالق وعصيانهم لهم، فغَلب هذه الأمم وانتقم منها، ولم يمكنهم أن يفرّوا من عذابه، فأما نوح فأغرقهم بالطوفان، وأما ثمود فأخذتهم الصيحة، وأما عاد فالريح دمّرتهم، وأما قوم لوط فقلب قُراهم عليهم، وأما فرعون فأغرقه الله ومن معه[(٢)].

بل إن قوم عاد بلغ بهم الحال من القوة والإعجاب بالنفس أن رأوا في أنفسهم القوة المطلقة، وأنه لا يوجد أحد أقوىٰ منهم، ولن يغلبهم غالب فأراهم الله حقيقة حالهم حيث أرسل عليهم الريح التي دمّرتهم وأبادتهم؛ هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فينتظرهم العذاب الأخزىٰ والأقوىٰ، ولو تأمّلوا لعلموا أن الخالق لهذه القوة لا بد أن يكون أقوىٰ منهم، وأن قوته لا يغلبها غالب، قال تعالىٰ: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [فصلت: ١٥ - ١٦]، قال الشيخ ابن عاشور: «قوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ زيادة تشنيع لاستكبارهم، فإن الاستكبار لا يكون بحق إذ لا مبرر للكبر بوجه من الوجوه لأن جميع الأمور المغريات بالكبر من العلم والمال والسلطان والقوة وغير ذلك لا تبلغ الإنسان مبلغ الخلو عن النقص وليس للضعيف الناقص حق في الكبر ولذلك كان الكبر من خصائص الله تعالىٰ. وهم قد اغتروا بقوة أجسامهم وعزة أمتهم وادعوا أنهم لا يغلبهم أحد، وهو معنىٰ قولهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ

(١) جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٢، ص٤٥٨.

(٢) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي، ج٨، ص٢٧٠، ٢٧١.

مِّنَّا قُوَّةً﴾ فقولهم ذلك هو سبب استكبارهم لأنه أورثهم الاستخفاف بمن عداهم، فلما جاءهم هود بإنكار ما هم عليه من الشرك والطغيان عظم عليهم ذلك لأنهم اعتادوا العجب بأنفسهم وأحوالهم فكذبوا رسولهم»(١).

فقوم عاد وغيرهم ممن كانوا يرون أنفسهم في الدنيا أقوى الخلق، وأن لهم من المنعة والغلبة ما يحميهم، كانت عاقبتهم الدمار والهلاك فلم يمكنهم الفرار من أمر الله لمّا جاءهم ولم يغن عنهم ما كسبوه في الدنيا ولا القوة التي كانت لهم، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [غافر: ٨٢]، قال الإمام الطبري: «كان أولئك الذين من قبل هؤلاء المكذبين من قريش أكثر عددًا من هؤلاء، وأشد بطشًا، وأقوى قوة، وأبقى في الأرض آثارا؛ لأنهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتًا ويتخذون مصانع... ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ يقول: فلما جاءهم بأسنا، وسطوتنا لم يغن عنهم الذي كانوا يعملون من البيوت في الجبال، ولم يدفع عنهم ذلك شيئا، ولكنهم بادوا جميعا فهلكوا»(٢).

وقال أيضًا: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلْبِلَـٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ [ق: ٣٦]، فهذه الأقوام المعروفة بالقوة ساروا في الأرض يبحثون عن الرزق والمكسب وبنوا لهم حصونًا منيعة ومنازل عالية؛ ومع ذلك لمّا جاءهم أمر الله وأراد إهلاكهم لم يكن لهم مفرّ من عذاب الله حين نزل بهم ولا محيد لهم عنه ولا مُنقذ(٣).

وفي غزوة الأحزاب أظهر الخالق غلبته وقوته حيث أرسل على أهل الكفر ريحًا وجنودًا من عنده، فتفرقوا وعادوا خائبين خاسرين فكانت الغلبة لأنصاره على أعدائه دون قتال؛ لأنه

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج٢٤، ص٢٥٦.

(٢) جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٢٠، ص٣٧١.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٧، ص٤٠٩، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٨٠٧.

هو القوي الغالب لكل من سواه(١)، قال تعالىٰ: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا﴾ [الأحزاب: ٢٥]، قال الشيخ السعدي: «﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ﴾ بما صنع لهم من الأسباب العادية والقدرية، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا﴾ لا يغالبه أحد إلا غُلِبَ، ولا يستنصره أحد إلا غَلَبَ، ولا يعجزه أمر أراده، ولا ينفع أهل القوة والعزة قوتهم وعزتهم، إن لم يعنهم بقوته وعزته»(٢)، فكتب الخالق وقدّر أن النصر والغلبة له ولرسله علىٰ كل من غالبهم(٣)؛ فهو القوي العزيز، قال تعالىٰ: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [المجادلة: ٢١]، فقرن صفة القوة بصفة الغلبة، للدلالة علىٰ أن قوته لا يغلبها غالب بل هو الغالب لكل شيء، قال الإمام ابن كثير: «أي: كتب القوي العزيز أنه الغالب لأعدائه. وهذا قدر محكم وأمر مبرم، أن العاقبة والنصرة للمؤمنين في الدنيا والآخرة»(٤).

وأما المخلوق فقد يوصف بأنّه قوي لكنّه قد يقابل من هو أقوىٰ منه فيَغلبه ويذّله، وقد يطلب عدّوه فيفرّ منه ولا يمكنه الانتقام منه فيكون هذا نقصًا في قوته؛ فقوته مغلوبة بقوة غيره، والله سبحانه جعل قوىٰ المخلوق متفاوتة فما من قوي إلا وهناك من هو غالب لقوته، والخالق قوته غالبة علىٰ الجميع.

فقوة القوم الذين وجدهم ذو القرنين بين السدّين معلومة، وقد طلب منهم المعونة بما يملكون من القوة لبناء السدّ، ومع قوتهم إلا أن يأجوج ومأجوج كانوا أقوىٰ منهم فلحقهم الأذىٰ بسببهم، وقوة ذي القرنين غلبت قوة يأجوج ومأجوج، حيث تمكن من بناء السدّ

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٦، ص٣٩٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٦٦٢.

(٣) انظر: فتح القدير، للشوكاني، ج٥، ص٢٣٥، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي، ج٧، ص٥٣٩.

(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٨، ص٥٤.

الذي لا يمكنهم عبوره وارتاح النّاس من شرّهم.

وهذه ملكة سبأ عندها من القوة والجند والأموال ما اعتمدوا عليه في عدم قبول رسالة سليمان ـ عليه السلام ـ؛ إلا أنّ سليمان أُعطي من القوة ما غلب به قوتها، قال تعالىٰ عنهم: ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٣- ٣٥] فتوعدهم سليمان ـ عليه السلام ـ بما خشيت منه ملكة سبأ وهو أن تكون قوته غالبة لقوتهم فيتحولوا من العزّ إلىٰ الذلّ، قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٦- ٣٧].

وأخبرنا الخالق عن بني إسرائيل أنّه سيأتي عليهم زمان يُفسدون في الأرض بالمعاصي وكفر النعم والكبر علىٰ الخلق؛ فإذا حصل منهم هذا الأمر سلّط الله عليهم من أهل الكفر من هم أصحاب قوة وشجاعة فغلبوهم وهزموهم، ثم سيأتي زمان ويعود بنو إسرائيل إلىٰ ربّهم ويخضعون له ويحسنون، فحينها ستغلب قوتهم قوة أهل الكفر(١)، قال تعالىٰ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤ ـ ٧]، وهكذا تكون الأيام دولًا بين الخلق فيغلب القوي من هو أقوىٰ منه، ويسلّط علىٰ الأقوىٰ غيره.

وهذا جالوت الذي عُرف بقوته حتىٰ قال جنود طالوت: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٤٥٣، ٤٥٤.

وَجُنُودِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، إلا أنّ داوود ـ عليه السلام ـ غلبه، قال تعالىٰ: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وهذا فرعون، علىٰ قوته وجبروته وملكه وجنوده، تمكّن موسىٰ أن يهرب منه ويفرّ من بطشه، قال تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٠ – ٢١]، ولمّا أرسل الله موسىٰ ـ عليه السلام ـ إلىٰ فرعون وعده الله بأن تكون الغلبة له عليه، قال تعالىٰ: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥].

وقد تمكنّ ﷺ من الفرار من قريش لمّا اجتمعوا ليقتلوه، وكانوا في حال قوة، وهو في حال ضعف، ومع ذلك فقد تخلص منهم وفرّ إلىٰ المدينة.

فلا يظنّ أحد أنّ قوته لا يغلبها غالب ولا يقهرها قاهر، فمهما بلغت قوة المخلوق واختراعاته فهي من أقدار الخالق وتعليمه لهم، وهو من وهبهم هذه القوة؛ ولهذا فلو أراد الخالق بقوته أن يأخذهم ويهلكهم فلن تقف هذه المخترعات أمام قوته فأمره غالب وقدرته وقوته تنقاد لها كلّ عناصر العالم، سواء منها العلوي أو السفلي(١)، قال تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ [البلد: ٥]، قال الإمام الطبري: «أيحسب هذا القوي لجلده وقوته، أن لن يقهره أحد فيغلبه، فالله غالبه وقاهره»(٢).

٢ ـ الفرق في العطاء: الخالق قوته مقرونة بالعطاء والرزق فما من مخلوق إلا والخالق قادر علىٰ عطائه ورزقه، والمخلوق قد يكون قويًا إلا أنه يعجز عن العطاء والرزق لكل أحد.

الخالق سبحانه ـ يقوىٰ علىٰ العطاء لكل الخلق اطلاقًا بلا استثناء، لا يعجزه ولا يشقّ

(١) انظر: الحق الواضح المبين، عبد الرحمن السعدي، ص٤٥، ٤٦.

(٢) جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٢٤، ص٤١٢.

عليه هذا الأمر.

والخلق كلهم لو وقفوا في صعيد واحد وسألوه لقوي علىٰ إعطاء كل واحد منهم مسألته لا يشغله حال عن حال، ولا يضعفه كثرة السؤال.

ومن المعلوم أن الرزق يحتاج إلىٰ قوة، والخالق وحده الذي يقوىٰ علىٰ رزق جميع الخلائق، وعلىٰ تهيئة أسباب الرزق لهم(١)؛ ولهذا اقترن اسم القويّ بصفة الرزق في موطنين.

الموطن الأول: في قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ [الشورىٰ: ١٩]، ففي الإخبار باسمه "القوي" بالمسند المعرّف باللام دلالة علىٰ قصر القوة عليه كأن قوة غيره عدم(٢)، وأنّه القويّ علىٰ رزق جميع الخلق الرزق الواسع(٣)، وختم باسم القويّ عند وصفه بالرزق لمن يشاء؛ ليُعلم أنه عندما يختص البعض بالرزق دون بعض ليس من شحّ أو قلّة(٤)، وإنما اختص بعضهم لحكمة يعلمها، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾ [الإسراء: ٣٠].

والموطن الثاني: في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، ومعنىٰ "الرزّاق" أي: صاحب العطاء، و"الرزّاق" صيغة مبالغة تدلّ علىٰ أن الخالق رزقه كثير، ومستمر، وأن من يرزقهم كُثُر أيضًا، فكل دابّة تدّب علىٰ الأرض أو في السماء في البّر أو في البحر، صغيرة كانت أو كبيرة، إنسانًا كان أو حيوانًا، طائر أو زاحف، فالخالق سبحانه

(١) انظر: القوة في القرآن، رائد عاصي، ص ٢٩.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج٢٥، ص٧٣.

(٣) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي، ج٨، ص٢٥٥.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج٢٥، ص٧٣.

قد تكفلّ برزقها، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، فالمرزوقون لا أحد يحصيهم، وكذلك لا أحد يحصي عطايا الخالق ونعمه عليه، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨]، فرزق المخلوق لا يُحصىٰ، والخلق لا يُحصون[1]؛ ولهذا قرن بين اسمه الرزّاق واسم القوي للدلالة علىٰ أن قوة الخالق تظهر في كثرة من يُعْطِي وما يُعْطِي.

فهو قوي؛ لأنه أوصل رزقه إلىٰ العالم كلّه، لا يُستثنىٰ من ذلك أحد، فله القوة والقدرة الحقيقيّة[2]، فلا رازق علىٰ الحقيقة إلا هو، ولا صاحب قوة حقيقيّة إلا هو، ولا متين إلا إياه، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، فقوله: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ فيه قَصْر وهو هنا إضافيّ، أي: أنّ هذا الوصف قاصر علىٰ الخالق دون غيره من المخلوقات التي تُعبد من دونه[3].

قال الخطابيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في اسم الرزّاق: «هو المتكفل بالرزق، والقائم علىٰ كل نفس بما يقيمها من قوتها، وسع الخلق كلهم رزقه ورحمته، فلم يختص بذلك مؤمنًا دون كافر، ولا وليًا دون عدو، يسوقه إلىٰ الضعيف الذي لا حيلة له ولا متكسب فيه، كما يسوقه إلىٰ الجلد القوي ذي المرة السوي»[4].

ففي الآيات السابقة بيان رزق الخالق للمخلوق علىٰ سبيل العموم، وأنه وحده القوي علىٰ ذلك، وجاء في آيات أخرىٰ بيان رزقه للعباد علىٰ سبيل التفصيل مما لا يقوىٰ عليه

---

(١) انظر: تفسير القرآن الكريم، للعثيمين، سورة الذاريات، ص١٦٩.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٨١٣.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج٢٧، ص٢٩.

(٤) شأن الدعاء، الخطابي، ص٥٤.

مخلوق[1]، كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٣٢].

هذا حال الخالق وأما المخلوق فهو لا يقوىٰ علىٰ العطاء لكل الخلق فهذا أمر يَضْعف عنه، ولا يمكنه القيام به، بل ولا يمكنه أن يعطي من حوله ولا كلّ من يطلبه، ويعجز ويضعف حين يُكثر الناس عليه الطلب، وحين يُكثر هو من العطاء، بل قد تنهار قواه ويسقط.

وحين يعطي فليس هو المعطي علىٰ الحقيقة؛ فهذا الرزق الذي أعطاه لغيره هو رزق الخالق ساقه علىٰ يده، فالرزق ليس بيد فلان ولا بيده، وإنما هو يبذل أسبابًا يستجلب بها الرزق من الخالق؛ ولهذا نفىٰ الله عن المخلوق امتلاك الرزق، وأثبته لنفسه؛ لأنه هو الرزّاق علىٰ الحقيقة، قال تعالىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ٧٣]، وقال تعالىٰ: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ٢١]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠].

والمقصود أن المخلوق قد يكون قويًا إلا أنه يعجز عن العطاء والرزق لغيره، فضلًا عن نفسه، وسواء كان قويًا أو ضعيفًا فهو مأمور بأن يُقرّ ويعترف أن هذا الرزق والعطاء الذي حازه ليس بحوله ولا قوته، وإنما هو من الخالق، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «**من أكل طعامًا فقال: الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول مني، ولا قوة؛ غفر له ما تقدم من ذنبه**»[2]، وعن ابن زغب الإيادي، قال: نزل علي

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي، ج٨، ص٢٥٥.

(٢) رواه ابن ماجه، كتاب الأطعمة، باب ما يقال إذا فرغ من الطعام، رقم الحديث ٣٢٨٥، ص٥٥٣، وحسنه ابن حجر والترمذي والألباني.

عبد الله بن حوالة الأزدي، فقال لي: بعثنا رسول الله ﷺ لنغنم على أقدامنا، فرجعنا فلم نغنم شيئًا، وعرف الجَهْد في وجوهنا، فقام فينا فقال: «**اللهم لا تكلهم إلي فأضعف عنهم، ولا تكلهم إلى أنفسهم فيعجزوا عنها، ولا تكلهم إلى الناس فيستأثروا عليهم**»(١)، و«المعنى: لا تفوض أمورهم إلي فأضعف عن كفاية مؤنتهم، ولا تفوضهم إلى أنفسهم فيعجزوا عن أنفسهم لكثرة شهواتها وشرورها، ولا تفوضهم إلى الناس فيختاروا أنفسهم على هؤلاء فيضيعوا، بل هم عبادك فافعل بهم ما يفعل السادة بالعبيد»(٢).

فالخلق مهما بلغوا من الشأن والقوة فهم ضعفاء في جلب الرزق لأنفسهم أو لغيرهم، وعطاؤهم محدود لا قوة لهم على أن يسعوا الناس بالعطاء والرزق، ووحده الخالق من يقوى على هذا فشتان بين القوتين.

٣ ـ الفرق في نفوذ الإرادة: الخالق إذا أراد أمرًا فلا رادّ لأمره، والمخلوق مهما كان قويًا قد يريد أمورًا ويعجز عنها.

والمراد بهذا الفارق أن من شواهد قوة الخالق والفروقات بينها وبين قوة المخلوق أنه حين يريد سبحانه أمرًا فلا يمكن لأحد أن يردّ أمره فهو نافذ ولا بدّ، فلا يوجد ممانع يمنعه من تحقيق مراده، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٧٧ ـ ٨٢]، فبيّن سبحانه ضعف المخلوق، وأنه خُلق من نطفة، ثم بيّن قوة الخالق، وأنه لا يعجز عن إعادة خلقه بعد موته، وأن هذا أمر يسير

(١) رواه أبو داود، كتاب الجهاد، باب في الرجل يغزو يلتمس الأجر والغنيمة، رقم الحديث ٢٥٣٥، ص٤٤٦، حسّنه ابن حجر في فتح الباري، وصححه الألباني.

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود، لشرف الحق العظيم آبادي، ج٧، ص١٢٢.

عليه، فهو حين يريد فعل أي شيء لا يوجد من يمنعه منه أو يردّه، بل لا يحتاج إلىٰ أكثر من كلمة "كن" فيكون هذا الشيء، فسبحانه القوي علىٰ كل ما أراد.

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، أي فليس هناك ما هو شاق عليه يصعب أن يفعله، وحين يريد أمرًا فإنما يقول: كن فيكون دون وجود منازع له أو ممانع، بل يفعله علىٰ وفق ما أراد ودون تأخير ولا تكرار لكلمة "كن" بل مجرد أن يقول هذه الكلمة يكون في لمح البصر، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠][(١)].

وقال تعالىٰ: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥]، فأخبر أنه قضىٰ ألا ينال الكفار خيرًا وأن يكفي المؤمنين شرّهم، فلم يتمكنوا من ردّ هذا القضاء؛ لأنه القوي، قال الشوكاني: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾، «علىٰ كل ما يريده إذا قال له: كن، كان»[(٢)].

وقال تعالىٰ في آية أخرىٰ: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، قال الشيخ السعدي: «أي: مهما أراد شيئًا فعله، إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون، وليس أحد فعالًا لما يريد إلا الله، فإن المخلوقات، ولو أرادت شيئًا، فإنه لا بد لإرادتها من معاون وممانع، والله لا معاون لإرادته، ولا ممانع له مما أراد»[(٣)]؛ لأنه وحده القوي علىٰ الحقيقة.

وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤] فنفىٰ

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٤٤٠، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي، ج٣، ص٢٠٥.

(٢) فتح القدير، للشوكاني، ج٤، ص٣٢٩.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٩١٩.

سبحانه عن نفسه العجز، والعجز له أسباب منها أن يريد أمرًا، لكنّه يضعف عنه، وهذا ما لا يكون في حق الخالق(١)، فيقول: لو كنتم أقوىٰ ممن سبقكم وأكثر أنصارًا منهم فلن يعجز عن تحقيق مراده فيكم(٢).

وأما المخلوق فقد يكون قويًا ويريد أمرًا لكنّه يضعف ويعجز عن تحقيق مراده مع حرصه واستنفاد وسعه وقوته في تحصيله.

فهذا فرعون المعروف بقوته وشدّة بطشه، استنفد وسعه في قتل أبناء بني إسرائيل مريدًا بذلك القضاء علىٰ من قيل له: إنه سيُزيل ملكه، ولكنّ مراده لم يتمكن من تحقيقه، فتربىٰ موسىٰ في بيته وتحت كنفه، ورعاه رعاية الأب لابنه، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٤]، قال الإمام ابن كثير: «أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسىٰ، فما نفعه ذلك مع قَدَر الملك العظيم الذي لا يخالف أمره القدري، بل نفذ حكمه وجرىٰ قلمه في القِدَم بأن يكون إهلاك فرعون علىٰ يديه، بل يكون هذا الغلام الذي احترزت من وجوده، وقتلت بسببه ألوفا من الولدان إنما منشؤه ومرباه علىٰ فراشك، وفي دارك، وغذاؤه من طعامك، وأنت تربيه وتدلله وتتفداه، وحتفك، وهلاكك وهلاك جنودك علىٰ يديه، لتعلم أن رب السموات العلا هو القادر الغالب العظيم، العزيز القوي الشديد المحال، الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن»(٣).

فالمخلوق مهما بلغت قوته حين يريد أمرًا قد يجد من الممانعات والمعارضات والمنازعات ما لا يمكنه من تحصيل مراده معها؛ ولهذا فقد أُمر إذا أراد أمرًا يفعله مستقبلًا وعزم عليه أن يعلّقه بمشيئة الخالق قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾

(١) انظر: شرح الطحاوية، لابن أبي العز، ج١، ص١٨٢.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج٢٢، ص٣٣٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٦، ص٢٢١.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣]؛ لأنه ولو كان جازمًا وعازمًا علىٰ تحصيله فلن يحصل إلا بإرادة الخالق له فإنه سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وليس كالمخلوق الذي يريد أمورًا لا تكون، وتكون أمورًا لا يريدها(١).

ولهذا «قد قضت العقول بأن قصور الإرادة، وعدم نفوذ المشيئة من أصدق الأمارات الدالة علىٰ سمات النقص والاتصاف بالعجز، والقصور»(٢).

والمقصود أن قوة المخلوق يعتريها النقص، والخالق قوته كاملة لا نقص فيها. ومن شواهد ذلك القدرة علىٰ تحقيق المراد؛ فالقوي علىٰ الحقيقة هو من إذا أراد أمرًا أمكنه تحصيله، وهذا لا يتحقق إلا في حقّ الخالق، وأما المخلوق فكثيرًا ما يريد أمورًا، ثم يعجز عن تحقيقها.

٤ ـ الفرق في العزة: الخالق قوته مقرونة بالعزة فلا يمكن أن يعتريه الذّل، والمخلوق قد يكون قويًا وذليلًا.

الخالق سبحانه قوته مقرونة بعزة فلا يمكن بحال من الأحوال أن يعتريه ذلّ أو ضعف؛ ولذلك فقد اقترن وصف القوة بالعزة في آيات كثيرة.

كما في قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ

(١) انظر: الإيمان، لابن تيمية، ص٣٥٦.

(٢) لمع الأدلة في قواعد أهل السنة والجماعة، للجويني، ص١١١.

قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، فيخبر الخالق أن قوته مقترنة بعزة فلو أراد من عباده أن ينصروا دينه فليس هذا بسبب ضعف أو قهر بل هو القوي العزيز فلا يُتوهم أنه يحتاج إلىٰ أحد[(١)]، قال الإمام ابن كثير: «أي: هو قوي عزيز، ينصر من نصره من غير احتياج منه إلىٰ الناس، وإنما شرع الجهاد ليبلو بعضكم ببعض»[(٢)]، فمن يطلب النصرة من غيره قد يطلبها لذلّ لحقه، أما والطالب هو الخالق فلا يتصور هذا الأمر، وكذلك حين يلطف بالعباد فإن لطفه لا يكون بسبب ضعف أو مصانعة لأحد[(٣)]؛ لأن التلطف بالغير قد يتصور البعض أنه تذلل له، وهذا قد يكون في حقّ المخلوق، أما الخالق فهو القوي العزيز الذي لا يذل لأحد؛ ولهذا قرن لطفه بقوته وعزته في قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ [الشورىٰ: ١٩].

ولا يمكن أن يغلبه أحد فيذلّ له، قال تعالىٰ: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [المجادلة: ٢١].

ولا يمكن أن يسلب منه أحد شيئًا فيقف عاجزًا ذليلًا لا يسترده كما الحال في المخلوق قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤].

وأما المخلوق فقد يكون قويًا إلا أنه لا يسلم من ذلّ يلحقه؛ فقوم سبأ كانوا أقوياء ذوي بأس شديد، كما وصفوا أنفسهم، إلا أن سليمان توعّد أن يأتي بهم أذلّة لو لم يسلموا ولن

(١) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٦، ص٥٨٧، وتفسير القرآن الكريم، للعثيمين، سورة الحديد، ص ٤٢٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٨، ص٢٨.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج٢٥، ص٧٣.

تنفعهم قوتهم، قال تعالىٰ: ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ٣٣ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٣٤ وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٣٥ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ٣٦ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٣ ـ ٣٧].

والجنّ الذين كانوا عند سليمان كانوا ذوي قوة وبأس حتىٰ إن العفريت الذي كان عند سليمان تكفّل بإحضار عرش بلقيس مع عظمته وثقله قبل أن يقوم من مجلسه، ومن المعتاد أن تمتد المجالس في أقصىٰ حدّ لها إلىٰ ثلث اليوم، فتكفل بإحضاره في هذا الوقت القصير مع بعد المسافة بينهما، إذ كان سليمان في الشام وعرش بلقيس في اليمن وهذه المسافة تقطع في أربعة أشهر، وأخبر أنه يقوىٰ علىٰ ذلك(١)، قال تعالىٰ: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣٨ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ٣٩ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ﴾ [النمل: ٣٨ ـ ٤٠].

إلا أنهم ومع ما بلغوه من القوة كانوا أذلاء صاغرين عند سليمان ـ عليه السلام ـ فقد سخّرهم الله لخدمته والعمل عنده عملًا شاقًا، قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤].

ولحكمة بالغة جعل الله بعض الخلق أقوياء وأذلاء، قال تعالىٰ: ﴿وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ﴾ [الزخرف: ٣٢]، «ومعنىٰ تسخير بعضهم لبعض، خدمة بعضهم البعض، وعمل بعضهم لبعض؛ لأن نظام العالم في الدنيا، يتوقف قيامه علىٰ

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٦٠٥.

ذلك، فمن حكمته جل وعلا، أن يجعل هذا فقيرًا مع كونه قويًا قادرًا على العمل، ويجعل هذا ضعيفًا لا يقدر على العمل بنفسه، ولكنه تعالى يهيئ له دراهم، يؤجر بها ذلك الفقير القوي فينتفع القوي بدراهم الضعيف، والضعيف بعمل القوي فتنتظم المعيشة، لكل منهما وهكذا»[(١)]، ونحن نشاهد من الخدم من يملك من القوة الشيء المبهر، إلا أنهم قد يكونون أذلاء عند من يعملون لديه، فاجتمع في حقهم القوة والذلّ، أما الخالق فهو سبحانه القوي على الحقيقة وقوته مقرونة بالعزة مستلزمة لها، وهذا فارق عظيم في القوة.

الفرق الخامس: الفرق في الأثر:

قوة الخالق آثارها خير على الإطلاق، لا شرّ فيها البتة، وقوة المخلوق قد تقترن بالخير وقد تقترن بالشّر.

الخالق قوته موجبة للخير لا شرّ فيها البتة، والشرّ لا ينسب إليه، ولا لفعله، ولا لصفة من صفاته، ولا لاسم من أسمائه، وإنما قد يكون الشّر في بعض مفعولاته، إلا أنه ليس شرّا محضًا، بل فيه شرّ من وجه وخير من وجه آخر، جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة يقول: «**لبيك، وسعديك والخير كله في يديك، والشر ليس إليك**»[(٢)]، أي من المحال أن يضاف الشّر إلى الخالق بوجه من الوجوه، فلا يضاف الشّر الى ذاته وصفاته ولا إلى أسمائه وأفعاله، فذاته منزهة عن كلّ شرّ، وصفاته صفات كاملة لا نقص فيها فلا يضاف لها الشّر، وأسماؤه حسنى ليس فيها اسم مذموم أو فيه عيب، وأفعاله كلها حكمة ورحمة وعدل وإحسان لا تخرج عن هذا الوصف أبدًا[(٣)]؛ ولهذا فلو نظرنا إلى آثار قوته لوجدناها كلّها خير.

ومن ذلك أنه يُعِيذ ويُجِير من استعاذ بقوته وقدرته ويعطيه مطلبه، فعن عثمان بن أبي

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي، ج٧، ص١٥٨.

(٢) وراه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة النبي ﷺ ودعائه بالليل، رقم الحديث ١٨١٢، ص٣١٥.

(٣) انظر: تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، لسليمان آل الشيخ، ج٢، ص١٢١٥.

العاصي أنه قال: «أتاني رسول الله ﷺ وبي وجع قد كان يهلكني، فقال رسول الله ﷺ: «**أمسح بيمينك سبع مرات وقل: أعوذ بعزة الله وقدرته وسلطانه، من شر ما أجد**». قال: ففعلت فأذهب الله ما كان بي، فلم أزل آمر به أهلي وغيرهم»(١).

وهو بقوته الركن الشديد الذي يأوي إليه المخلوق، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن النبي ﷺ قال: «**يغفر الله للوط، إن كان ليأوي إلىٰ ركن شديد**»(٢).

وهو سبحانه وإن كان قويًا إلا أنه عدل لا يظلم أحدًا مثقال ذرّة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]، وقال: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

ومن آثار قوته أنه ينجّي رسله وعباده المؤمنين من العذاب، قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦].

وأما كونه سبحانه يعاقب المكذبين المعاندين المفسدين؛ فلأنهم يستحقون هذا، والمصلحة والخير هي في إنزال العقوبة بهم، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٥١]، فلمّا دأبوا علىٰ الكفر والعناد كان سنة الله فيهم أن أنزل بهم عقوبته؛ لأنهم تجرؤوا علىٰ معصيته بسبب ما معهم من القوة، فأراهم الله ضعفهم،

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الطب، رقم الحديث ٢٠٨٠، ص٥٠٢، وقال: هذا حديث حسن صحيح، ط: دار الكتب العلمية.

(٢) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [النمل: ٥٥- ٥٨]، رقم الحديث ٣٣٧٥، ص ٦٤٧.

وأظهر قوته وبأسه بهم، مع أنه سبحانه أمهلهم ولم يعاقبهم أول أمرهم، وإنما حلم عليهم ورحمهم، ولكن لمّا اشتد عنادهم لم يستحقوا الرحمة(١)، فحتىٰ عقوبته للظالمين التي هي أثر من آثار قوته، هي خير ولا بدّ.

أما المخلوق فقد ينتفع بقوته وينفع بها، فتكون خيرًا له ولغيره، وقد يضرّ بها نفسه أو غيره فتكون شرًا عليه وعلىٰ غيره.

ومن النماذج علىٰ القوة المصلحة، قوة ذي القرنين فقد وصل إلىٰ ما بين السدّين فوجد قومًا اشتكوا إليه من يأجوج ومأجوج، وهم أمّتان عظيمتان من بني آدم، وأنّهم أفسدوا في الأرض بالقتل ونهب الأموال ولم يكن لهم قوة في صدّهم، فنفع الله بقوة ذي القرنين حيث بنىٰ بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدًّا عظيمًا اكتفوا به من شرّهم، قال تعالىٰ ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥].

وكذلك أعطىٰ الله سليمان قوة عظيمة ملك بها الجنّ والإنس فانتفع بها ونفع حيث كانت سببًا في إسلام ملكة سبأ وقومها، قال تعالىٰ: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

وكذلك داوود حين أعطاه الله القوة كانت سببًا في التخلص من شرّ أهل الكفر، قال تعالىٰ: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وموسىٰ ـ عليه السلام ـ كانت قوته نافعة حيث أعان بها المرأتين اللّتين وجدهما تذودان عن الماء لتسقيا، فلمّا رآهما سقىٰ لهما وتولىٰ إلىٰ الظلّ.

(١) انظر: محاسن التأويل، للقاسمي، ط: دار الحديث، ج٥، ص٣١٩، ٣٢٠.

ومن النماذج على القوة المفسدة قوم عاد فقد أخبرنا تعالى أنهم أصحاب قوة وبأس شديد إلا أنهم طغوا وكفروا وغرّتهم قوتهم، قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [فصلت: ١٥].

وقوم ثمود كذلك أعطاهم الله القوة والأموال والنعم، قال تعالى: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴾ [الشعراء: ١٤٦ ـ ١٣٩]، فقوله فارهين، أي: أقوياء[١]، ولكنهم لم يشكروا الخالق عليها، بل كذبوا رسوله وعقروا الناقة فكانت قوتهم وبالًا عليهم، قال تعالى: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ١٥٧ ـ ١٥٩].

ومن النماذج كذلك فرعون فقد أعطاه الله قوة وملكًا وجنودًا إلا أنه طغى وتكبر وبغى حتى صار يستذّل بني إسرائيل ويستضعفهم فيستعملهم في أسوأ الأعمال، ويجعلهم يعملون الليل والنهار له ولرعيته، ويقتل أبناءهم ويستبقي نساءهم[٢]، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص: ٤، ٥]، فكانت قوة فرعون مثالًا يُضرب به في الظلم والاستبداد.

وقارون نموذج آخر للقوة المفسدة فقد أخبرنا تعالى بأنه أوتي قوة ومالًا وأعوانًا إلا أنه كان من المفسدين حيث تكبر وعمل بالمعاصي واشتغل بما أُعطي عن خالقه والمنعم عليه[٣]، قال

(١) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٧، ص٦٢٣.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٦، ص٢٢٠.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٦٢٣.

تعالىٰ: ﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةً وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ [القصص: ٧٦ ـ ٧٨]، والمقصود أنّ قوة الخالق آثارها خير وبركة، والمخلوق إذا قوي فقد تكون قوته خير وقد تكون شرّ ووبال علىٰ نفسه وعلىٰ غيره.

وبهذا يظهر الفارق بين قوة الخالق وقوة المخلوق، فكل ما يلزم منها في حق الخالق كمال وجمال، ولا يلزم ذلك في حق المخلوق، بل يوجد فيها النقص والعيب.

المبحث الثالث

الفارق بين الخالق والمخلوق في صفة الملك

وفيه مطلبان:

المطلـــــب الأول: معنى صفة الملك والأدلة على ثبوتها في حق الخالق والمخلوق.

وفيه أربعة مسائل:

المسألة الأولىٰ: معنىٰ صفة الملك في اللغة.

المسألة الثانية: معنىٰ صفة الملك في حق الخالق.

المسألة الثالثة: معنىٰ صفة الملك في حق المخلوق.

المسألة الرابعة: الأدلة علىٰ ثبوت صفة الملك في حق الخالق والمخلوق.

المطلــب الثـــاني: الفارق بين الخالق والمخلوق في صفة الملك.

المطلب الأول

معنى صفة الملك والأدلة على ثبوتها في حق الخالق والمخلوق

المسألة الأولى: معنى صفة الملك في اللغة:

«الميم واللام والكاف أصل صحيح يدلّ علىٰ قوة في الشيء وصحّة. يقال: أملك عجينه: قوىٰ عجنه وشده... ثم قيل مَلَك الإنسان الشيء يملِكه مَلكا. والاسم المُلك؛ لأن يده فيه قوية صحيحة»(١).

«والمُلك: معروف وهو يذكر ويؤنث كالسلطان؛ وملك الله تعالىٰ وملكوته: سلطانه وعظمته... والْمَلْكُ والمَلِكُ والمَلِيكُ والمالِكُ: ذو المُلْكِ... وتَمَلَّكه أي مَلَكه قهراً... قال ابن سيّده: المَلْكُ والمُلْكُ والمِلْك احتواء الشيء والقدرة علىٰ الاستبداد به... وأَمْلَكه الشيءَ ومَلَّكه إياه تَمْليكـًا جعله مِلْكـًا له يَمْلِكُه»(٢).

«والمَلَكُوتُ: مختصّ بملك اللّه تعالىٰ، وهو مصدر مَلَكَ أدخلت فيه التاء. نحو: رحموت ورهبوت، قال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ٧٥]»(٣).

المسألة الثانية: معنى صفة الملك في حق الخالق:

صفة الملك من الصفات الذاتية:

صفة الملك من الصفات الثابتة للخالق بالكتاب والسنة، وهي صفة لازمة له سبحانه لا تنفك عنه بحال من الأحوال، ولا يمكن أن يأتي زمن ويزول هذا الوصف عنه، فهو الملك في الدنيا والآخرة، ولا يأتي زمن فيخرج عن ملكه شيء.

---

(١) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، ج٢، ص٥٢٣، مادة: ملك.

(٢) لسان العرب، لابن منظور، ج١٣، ص١٨٢، ١٨٣، مادة: ملك، مادة: ملك.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، ص٧٧٥، مادة: ملك.

- **معنىٰ صفة الملك:**

ومعنىٰ صفة الملك في حق الخالق هو ثبوت صفات الملك، وهي صفات العظمة كالقوة، والقدرة، والعزة، والعلم، والحكمة، ونفوذ الأمر، ومطلق التصرف، وصفات الرأفة والرحمة، والحكم المطلق في الدنيا والآخرة علىٰ جميع المخلوقات وغير ذلك من الصفات العائدة إلىٰ الملك(١).

وتعني كذلك ثبوت الملك له، سبحانه، علىٰ جميع الخلق، سواء كانوا من العالم العلوي أو السفلي، لا خروج لهم عن ملكه، فكلّ الخلق مملوكون للخالق، فقراء له، عبيد له، مضطرون له، لا غنىٰ لهم عن نفعه وعطائه ومنّه وكرمه، وهو غنيّ في ذاته وصفاته عن كل مخلوق(٢).

ومن معاني الملك أيضًا ثبوت التصرف والتدبير المطلق في ملكه يقضي فيه بما يشاء ولا راد لقضائه، ويحكم فيه بما يريد ولا معقب لحكمه، ويتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة، فله السلطان التام(٣).

---

(١) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم، ج٢، ص٧٨٢، وفقه الأسماء الحسنىٰ، لعبد الرزاق البدر، ص١١٨، ١١٩.

(٢) انظر: المقصد الأسنىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ، لأبي حامد الغزالي، ص٦٨، وفقه الأسماء الحسنىٰ، لعبد الرزاق البدر، ص١١٩.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٨، ص٧٩، وفقه الأسماء الحسنىٰ، لعبد الرزاق البدر، ص١١٩، ومنهج ابن القيم في شرح أسماء الله، لمشرف الغامدي، ص٢٥٤.

وسواء كان هذا في الأحكام القدرية فجميع ما يحدث في الكون وينشأ إنما هو جارٍ علىٰ وفق ما قضاه وقدره، أو في الأحكام الشرعية؛ فقد أرسل رسله وأنزل كتبه ليبيّن لعباده مراده الشرعي وأحكامه التي يجب ألا يخرجوا عنها، بل يمتثلوها في عقائدهم، وأقوالهم وأفعالهم، وأخلاقهم، وظاهرهم وباطنهم، أو في أحكامه الجزائية فيجازيهم علىٰ أعمالهم الحسنة والسيئة بعدله وحكمته، سواء كان هذا في الدنيا أو الآخرة(١).

المسألة الثالثة: معنى صفة الملك في حق المخلوق:

المُلْك صفة من صفات المخلوق، ويوصف بها إما لكونه "مَلِك" أو "مَالك":

- **معنىٰ "المَلِك":**

قال ابن سيده: «فالمَلِك ــ الذي يَمْلِك الكثِيرَ من الأشياء ويُشَارِك غيْرَه من الناس بأنه يُشارِكه في مُلْكِهِ بالحُكْم عليه فيه وأنه لا يَتَصرَّف فيه إلا بما يُطْلِقُه له المَلِك ويَسُوسه به»(٢).

وقال الراغب الأصبهاني(٣): «المُلْكُ: هو التصرف بالأمر والنّهي في الجمهور، وذلك يختصّ بسياسة الناطقين، ولهذا يقال: مَلِكُ الناسِ، ولا يقال: مَلِك الأشياءِ»(٤).

وقال ابن عاشور عن معنىٰ الملك: «التصرف في جماعة عظيمة، أو أمة عديدة تصرف

---

(١) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ج١، ص١٥٢، وفقه الأسماء الحسنىٰ لعبد الرزاق البدر، ص١١٩.

(٢) المخصص، لابن سيده، ج١، ص٣٢٢

(٣) أبو القاسم الأصفهاني (أو الأصبهاني) الحسين بن محمد بن المفضل، المعروف بالراغب: أديب، من الحكماء العلماء، من كتبه (محاضرات الأدباء) مجلدان، و (الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة و (جامع التفاسير) كبير، طبعت مقدمته، أخذ عنه البيضاوي في تفسيره، و(المفردات في غريب القرآن)، توفي سنة ٥٠٢هـ. الأعلام للزركلي، ج٢، ص٢٥٥، ومعجم المؤلفين، ج٤، ص٥٩.

(٤) مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، ص ٧٧٤.

التدبير للشؤون، وإقامة الحقوق، ورعاية المصالح، ودفع العدوان عنها، وتوجيهها إلىٰ ما فيه خيرها، بالرغبة والرهبة»[1].

فصار وصف "المَلِك" يجمع عدّة أمور:

١ ـ ملكه لجماعة كبيرة من الناس، فمن ملك فئة قليلة لا يسمىٰ ملك.

٢ ـ يملك الكثير من الأشياء، ويشارك غيره في ملكه بالحكم عليه، فملوك الدنيا يملكون ملك سياسة ورعاية، وليس ملك تملك[2]، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾ [البقرة: ٢٤٧] فطالوت جعله الله ملكًا عليهم، لا مالكا لأموالهم[3] فضلًا عن أشخاصهم.

٣ ـ يتصرف فيهم ويدير شؤونهم ويقيم الحقوق بينهم ويرعىٰ مصالحهم ويدفع العدو عنهم[4]، قال تعالىٰ: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ ﴾ [يوسف: ١٠١]، «وذلك أنه كان علىٰ خزائن الأرض وتدبيرها ووزيرا كبيرا للملك»[5].

٤ ـ قد نفذ أمره في ملكه وفيمَنْ تحت ولايته، يَأمر فيطاع، ويَنهىٰ فيطاع، وكل هذا بمشيئته وقدرته[6]؛ ولهذا لا يقال لصاحب الجمادات "مَلِك " بل يقال له " مَالِك "

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج٣، ص٢١٣.

(٢) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي، ج٩، ص٣٥٧.

(٣) انظر: المرجع السابق.

(٤) انظر: جامع الرسائل، لابن تيمية، ج٢، ص٦٢، ٦٣، وشأن الدعاء، للخطابي، ص٤٠، والتحرير والتنوير، لابن عاشور، ج٣، ص٢١٣.

(٥) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٤٠٦.

(٦) انظر: جامع الرسائل، لابن تيمية، ج٢، ص٦٢، ٦٣، وشأن الدعاء، للخطابي، ص٤٠، والتحرير والتنوير، =

فيعسوب النحل إنما يقال له "ملك النحل"؛ لأنه ينفذ أمره ويتصرف فيهم كما يشاء، ومن لم ينفذ أمره ويتصرف بمشيئته وقدرته فلا يقال له "مَلِك"(١).

- **معنىٰ "المالك":**

وأما "المَالِك" فيراد به «المختص بالتصرف في شيء بجميع ما يتصرف في أمثاله مما يقصد من ذواتها، ومنافعها، وثمراتها، بما يشاء فقد يكون ذلك بالانفراد، وهو الأكثر، وقد يكون بمشاركة: واسعة، أو ضيقة»(٢)، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥]، «لما كان قادرًا علىٰ التصرف في أخيه؛ لطاعته له جعل ذلك ملكًا له»(٣).

وقال الإمام الطبري في قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ [يس: ٧١]، ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ «يقول: فهم لها مصرفون كيف شاؤوا بالقهر منهم لها، والضبط»(٤).

وهذا هو الأصل، لكن أحيانًا قد يحصل له ما يُعيقه عن التصرف في ملكه، ومع ذلك يسمّىٰ مالكًا له، كالصبيّ والمجنون يكونا مالكين للإرث إلا أنّهما لا يملكان التصرف فيه، والوليّ يتصرف فيه ولا يكون مالكًا(٥).

=

لابن عاشور، ج٣، ص٢١٣.

(١) انظر: جامع الرسائل، لابن تيمية، ج٢، ص٦١.

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج٣، ص٢١٣.

(٣) مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج٨، ص١٦.

(٤) جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج١٩، ص٤٨٢.

(٥) انظر: النهج الأسمىٰ، لمحمد الحمود النجدي، ص ٧٢.

المسألة الرابعة: الأدلة على ثبوت صفة الملك في حق الخالق والمخلوق:

- **الأدلة علىٰ صفة الملك في حق الخالق:**

أولًا: الدليل من الكتاب:

١ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ﴾ [الحشر: ٢٣].

٢ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾ [آل عمران: ٢٦].

ثانيًا: الدليل من السُّنَّة:

١ ـ حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «**يقبض الله الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك،أين ملوك الأرض**»(١).

٢ ـ حديث عوف بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «... **سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة**»(٢).

- **الأدلة علىٰ صفة الملك في حق المخلوق:**

أولًا: الدليل من الكتاب:

١ ـ ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾ [يوسف: ٤٣]

---

(١) رواه البخاري،كتاب التوحيد، باب: قول الله تعالىٰ: ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾ [الناس: ٢] رقم الحديث٧٣٨٢، ص ١٤٠٧.

(٢) رواه أبو داود، في كتاب الصلاة، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، رقم الحديث ٨٧٣، ص١٥٤، ط: مكتبة المعارف، حسّنه ابن حجر وصححه الألباني.

٢ ــــــ ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٥٤].

ثانيًا: الدليل من السُّنَّة:

١ ـ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ـ قال أبو معاوية: ولا ينظر إليهم ـ ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر**»(١).

٢ ـ حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: عن النبي ﷺ قال: «**يقبض الله الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك،أين ملوك الأرض**»(٢).

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية، وتنفيق السلعة بالحلف، وبيان الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، رقم الحديث ٢٩٥، ص٥٩، ط: دار السلام.

(٢) سبق تخريجه، ص٢٨٧.

المطلب الثاني

الفارق بين الخالق والمخلوق في صفة الملك

وصف الخالق نفسه في غير موضع بأنه المَلك الحق، كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٤]، وهذا فيه إشارة منه سبحانه إلىٰ أن مُلك غيره ممن يسمّون ملوكًا هو ملك ناقص وزائف، وأما ملكه فليس فيه شائبة نقص أو عجز، بل هو الملك الحقيقي(١).

ولتحقق هذا الفرق بين الخالق والمخلوق في صفة الملك مُنع من التسمي بملك الأملاك فعن أبىٰ هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**إن أخنع اسم عند الله رجل يسمىٰ ملك الأملاك**» ـ **زاد ابن أبي شيبة في روايته «لا مالك إلا الله عز وجل»**(٢)، فكان هذا الاسم أبغض الأسماء إليه، وغضب علىٰ صاحبه، وألقىٰ عليه ذلًا وصغارًا(٣)؛ فهو صفة الله، وصفاته وأسماؤه لا تليق بالمخلوق، فملك الأملاك ليس إلا الخالق؛لأنه المالك الحقيقي، ومالكية غيره مستردة إليه(٤).

قال المنّاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وحاصل الحديث أن من تسمىٰ بهذا الاسم انتهىٰ من الكبر إلىٰ الغاية التي لا تنبغي لمخلوق وأنه قد تعاطىٰ ما هو خاص بالإله الحق لما ثبت في الفطرة أنه (لا مالك) لجميع الخلائق (إلا الله) فلا يصدق هذا الاسم بالحقيقة إلا عليه سبحانه وتعالىٰ فعوقب علىٰ ذلك من الاذلال والاسترذال بما لم يعاقب به مخلوق»(٥).

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج١٦، ص٣١٦.

(٢) سبق تخريجه، ص١٧٢.

(٣) انظر: فتح الباري، لابن حجر، ج١٠، ص٧٢٢.

(٤) انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوي، ج١، ص٢٨٥.

(٥) المرجع السابق، ص٢٨٤.

لوازم صفة الملك:

ومع ثبوت الفارق بينه وبين المخلوق في صفة الملك، فقد أثبت للمخلوق هذه الصفة في عدّة آيات، ولا يلزم من كونه أثبت له سبحانه صفة الملك وللمخلوق هذه الصفة أن يتماثلا فيها، بل للخالق ما يليق بعظمته وجلاله، وللمخلوق ما يليق بنقصه وضعفه؛ ولذا كرّر في كتابه وأعاد، بيانًا منه وإيضاحًا، أن المخلوق يباين الخالق ويفارقه في هذه الصفة.

وقد مرّ معنا أن هناك قدرًا مشتركًا بين الخالق والمخلوق في الصفات المشتركة، ومنها صفة الملك، وهذا القدر المشترك هو المعنىٰ اللغوي وما يفهم من كلام العرب، وهو موجود في الأذهان فقط، ولا وجود له خارج الذهن، والموجود خارج الذهن هو ما يضاف إلىٰ الخالق من صفة الملك، وما يضاف إلىٰ المخلوق من هذه الصفة، وهنا يحصل التمييز والاختلاف، وحينئذٍ فإثبات القدر المشترك لا محذور فيه، وليس هو التمثيل الذي حذّرت منه النصوص؛لأنا نعتقد أن الصّفة لمّا تضاف إلىٰ الخالق أو المخلوق فإنها تتباين وتختلف.

وبعبارة أخرىٰ فالمُلك من الصفات المشتركة التي يلزم منها لوازم وهي علىٰ ثلاثة أنواع:

١ ـ لوازم بصرف النظر عمن أضيفت إليه صفة الملك ومنها: الاختصاص والتصرف والتدبير والقوة والغنىٰ ونحو ذلك، وفي هذا المعنىٰ جاءت المفاضلة بين الخالق والمخلوق كما في الدعاء المأثور: «**اللهم أنت أحق من ذكر..، وأرأف من ملك..**»(١).

٢ ـ لوازم عند إضافة صفة الملك للخالق ومنها: الملك التام، والقدرة التامة، والتصرف المطلق، والاستغناء عن كل شيء.

٢ ـ لوازم عند إضافة صفة الملك للمخلوق ومنها: قصور الملك، ومحدودية القدرة والتصرف، والاستغناء عن شيء دون شيء.

---

(١) أخرجه الطبراني، كتاب الدعاء، باب القول عند الصباح والمساء، رقم الحديث٣١٨، ص١٢٠، وانظر: صفة الملك بين الخالق والمخلوق، المفهوم والفروق واللوازم، لسعود العريفي، ص٢٢.

واللازم عند الإضافة هو الذي يظهر فيه الفرق بين الخالق والمخلوق، ومن الفروقات بين الخالق والمخلوق في صفة الملك ما يلي:

الفرق الأول: الفرق في مصدرية الملك:

والمراد بمصدرية المُلك أمرين: مصدرية الاتصاف بصفة الملك، ومصدرية الملك نفسه من حيث الإيجاد والخلق.

أما الأمر الأول: وهو مصدرية الاتصاف بصفة الملك: فالخالق متصف بالملك أزلًا وأبدًا لم يهبه الملك أحد؛ فملكه ذاتي، أي: من الصّفات الملازمة لذاته لا يمكن أن يكون موجودًا إلا وهو ملك؛ فهو ملك قبل أن يخلق الخلق، ولما خلقهم، وبعد أن يفنيهم(١).

وأما المخلوق فملكه هِبَة من الخالق لم يكن له هذا الوصف، فلم يوجد وهو ملك، بل اتصف بهذا الوصف بعد أن لم يكن متصفًا به، ولا يملك أن يتصف به إلا أن يشاء الله، فهو يؤتي من يشاء من عباده الملك، وينزعه عمن يشاء، كما أخبر تعالىٰ بقوله: ﴿ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]، ففي هذه الآية يأمر الله نبيه ﷺ بأن يعظّمه بوصف عظيم، وهو أنه المَلِك مَالك العباد وما ملَكوا فالمُلك كلّه له، ملكًا مطلقًا حقيقيًا يتصرف فيه كما يشاء، ومن هذا أنه يؤتي الملك من يشاء من عباده، وينزع الملك عمّن يشاء، ويعزّ من يشاء إذا أطاعوه، ويذلّ من يشاء إذا عصوه، وعبّر بلفظ الإيتاء الذي يدلّ علىٰ أن ملكية المخلوق عطاء من الخالق وهبة منه(٢).

وانظر كم من مَلِك ذهب مُلكه بين عشيّة وضحاها، وكم من شخص وهبه الله الملك

(١) انظر: النور الأسنىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ، لأمين الأنصاري، ص٨٠.

(٢) انظر: معالم التنزيل، للبغوي، ج١، ص٣٣٧، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٢، ص٢٩، ومحاسن التأويل، للقاسمي، دار الحديث، ج٢، ص٣٤٧.

بين عشيّة وضحاها[(١)]، فهذا طالوت وهبه الله الملك وقد كان سقّاء وقيل دباغًا[(٢)]؛ لأن المُلك إنما هو بيد الله وحده يهبه لمن يشاء، لعلمه بمن هو أهل لملكه[(٣)]، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

وقد طلب سليمان من ربه أن يهبه الملك هبة من عنده وفضلًا وامتنانًا[(٤)]، لعلمه أن الملك بيد الخالق يهبه لمن يشاء، قال تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥].

ونحن نرىٰ كم من مخلوق يتصارع علىٰ الملك، ثم يأخذه من لا يُظنّ أن يكون له الملك، لا لشيء إلا لأن الخالق هو من أذن بأن يهبه الملك.

أما الأمر الثاني فهو: من جهة مصدرية الملك نفسه من حيث الإيجاد والخلق: فالخالق هو من خلق ملكه وأوجده؛فملكه ملك خلق وإيجاد، وملوك الخلق لم يخلقوا ملكهم ولم يوجدوه بل ملكهم هبة وهبهم الله إياها، وكلّ من ملك شيئًا فإن ملكه هبة وهبه الله إيّاه.

فالملك التّام المطلق أثر من آثار انفراد الخالق بالخلق فمن يخلق هو من يملك علىٰ الحقيقة[(٥)]؛ ولهذا نجده سبحانه قد جمع بين الملك والخلق ليدلل علىٰ أن من يخلق هو من يملك حقيقة[(٦)] كما في قوله: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ

(١) انظر: شرح رياض الصالحين، لابن عثيمين، ج١، ص٢٩٨.

(٢) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٤، ص٤٤٨.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص٤٥٦، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص١٠٧.

(٤) انظر: محاسن التأويل، للقاسمي، ط: دار الحديث، ج٨، ص١٤٥.

(٥) انظر: صفة الملك بين الخالق والمخلوق، المفهوم والفروق واللوازم، لسعود العريفي، ص٦٦.

(٦) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج٨، ص٧٨.

شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

فاستحق وصف الملك الحقيقي؛ لأنه هو من أنشأ ملكه، وأوجده واخترعه، وحين أوجد هذا الملك لم يكن معه معين يعينه، ولا ظهير ينصره، قال تعالىٰ: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١]، وعند البخاري من حديث عمران بن حصين أن النبيّ ﷺ قال: «**كان اللهَ ولم يكن شيء قبلهُ، وكان عرشه علىٰ الماء، ثم خلقَ السماواتِ والأرضَ، وكتب في الذكر كل شيء**»(١).

وعن حذيفة بن اليمان: أتىٰ النبي ﷺ فقال: بينما أنا أصلي إذ سمعت متكلمًا يقول: «**اللهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، وَلَكَ الْمُلْكُ كُلُّهُ**..»(٢)، قال شيخ الإسلام ابن تيمية معلقًا علىٰ هذا الدعاء: «فله الحمد حمد مستقل، وله الملك ملك مستقل، ولكن هو سبحانه يُؤتي الملك من يشاء، والذي يُؤتيه هو من ملكه، وكلُّ ما تصرَّف فيه العبد فهو من ملك الربّ، وهو مستقل بالملك، ليس هذا لغيره، كذلك الحمد هو مستقل بالحمد كلِّه، فله الحمد كلُّه وله الملك كلُّه»(٣).

وأما ملوك الدنيا فلا يملكون كل ما تحت أيديهم، وأموال الرعية ليست ملكًا لهم؛ لأنهم لم يوجدوها ويخلقوها؛ فطالوت كان ملكًا عليهم لا مالكًا لأموالهم(٤)؛ لأن ملكه هبة من الخالق لم يتحصل عليه بحوله وقوته، بل هو وما يملك مُلك للخالق.

وملوك الدنيا لا يمكن أحد منهم أن يؤسّس ملكه بمفرده، بل لا بد له من أعوان يعينوه علىٰ ذلك(٥)، وإذا لم يمكنه تأسيسه إلا بأعوان فهو لا يمكنه إيجاده من العدم ولو اجتمع

(١) سبق تخريجه، ص٧٩.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ج٣٨، رقم الحديث، ٢٣٣٥٥، ص٣٧٨، تعليق شعيب الأرناؤوط: إسناده ضعيف لإبهام الراوي عن حذيفة.

(٣) جامع المسائل، لابن تيمية، ج٣، ص٢٨٣.

(٤) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي، ج٩، ص٣٥٧.

(٥) انظر: أسماء الله الحسنىٰ الثابتة في الكتاب والسنة، لمحمود الرضواني، ص٥٣٢.

معه أهل الأرض، فلا يقال لمن هذا وصف ملكه أنه ملك حقيقي، وإنما الملك الحقيقي هو للخالق وحده.

فظهر مما سبق أن هناك فارقًا بين الخالق والمخلوق في مصدرية الملك من جهتين: من جهة مصدرية الاتصاف بالملك، ومن جهة مصدرية الملك نفسه إيجادًا وخلقًا.

الفرق الثاني: الفرق في الدوام:

الخالق ملكه دائم لا ينقطع ولا يزول، وهو شامل للدنيا والآخرة، والمخلوق ملكه مؤقت ومحدود.

المُلْك الحقيقي هو الملك الدائم الذي لا ينقطع ولا يزول، وأما المُلك الذي يبلىٰ ويندثر فليس بملك علىٰ الحقيقة[1]، ومن هنا غرّ الشيطان آدم ـ عليه السلام ـ بقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]، فظنّ أنّ مخلوقًا يمكن أن يبقىٰ ملكه ولا يزول، والحقيقة أنّ ملك الخالق هو الملك الحقيقي؛ لأنّه دائم لا ينقطع بحال من الأحوال، لا في الدنيا ولا في الآخرة، فسلطانه لا يعتريه الضعف، ولا يمكن لأحد أن يعزله عنه، وهو سبحانه لا يموت ولا يغلبه أحد، فحاله لا تتغير أبدًا، وملكه دائم لا ينتقل إلىٰ غيره، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وهو المَلك الحقّ سواء في الدّنيا أو الآخرة، وقد ذكر الخالق ـ جلّ وعلا ـ دوام ملكه وامتداده إلىٰ يوم القيامة، في أدلة كثيرة كقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، وقوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾﴾ [الحج: ٥٦]، فالخالق وإن كان ملكه في الدنيا حاصلًا إلا أنه خُصّص الخبر عن ملكه يوم

(١) انظر: صفة الملك بين الخالق والمخلوق، المفهوم والفروق واللوازم، لسعود العريفي، ص٦٨.

القيامة؛ لأنه في ذلك اليوم لا يوجد أحد ينازع الخالق في ملكه، ولا يدّعي مُلكًا؛ ولأن ملوك الدنيا مع ما فيهم من النقص والعجز إلا أن العقول تبهرها عطايا الملوك فلا تلتفت للحقيقة، وأما في ذلك اليوم فالحقائق مكشوفة ولا يوجد أحد يدّعي الملك وقد كانوا يسمّون ملوكًا في الدنيا أمّا في هذا اليوم فلا يسمّىٰ ملكًا إلا الخالق(١)، فيعلم الخلق أن دعواهم الملك دعوىٰ باطلة(٢)، وأن الملك الحقيقي هو للخالق وحده.

والحاصل أن ملك الخالق ملك دائم لا يزول ولا يتحول، وأمّا ملك المخلوق فهو ملك مؤقت وغير دائم؛ لأنه إما أن يزول عنه ملكه، أو يزول هو عن ملكه، وملكه محدود في الدنيا فقط، وملوك الدنيا ملكهم إلىٰ زوال ولابد، فقد يملك أحدهم برهة من الزمن، ويكون له سلطان وطاعة ويخافه الناس، إلا أنّه قد يُعزل أو يغلبه أحد علىٰ ملكه فيذل بعد عز، ولا يبقىٰ له سلطان ولا طاعة، وهذا المعنىٰ أشار إليه سبحانه في مواطن عديدة كقوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ﴾ [الواقعة: ٣]؛ لأنها ترفع أقوامًا كانوا أذلة، وتخفض أقوامًا كانوا ملوكًا في الدنيا أعزة فيها(٣)، وإذا لم يحصل له هذا، فهو ميت لا محالة، قال تعالىٰ: ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تسبوا الدّهر، فان الله عز وجل قال: أنا الدهر، الأيام والليالي لي، أجددها وأبليها، وآتي بملوك بعد ملوك**»(٤)، فإذا كان كلّ ملوك الدّنيا يزولون ويفنون فإن ملكهم سيزول وينتقل لغيرهم، فملك المخلوق زائل ولا بد، إما أن يفنىٰ ملكه وينقرض،

---

(١) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٦، ص٦١٨، والتحرير والتنوير، لابن عاشور، ج١٩، ص١١.

(٢) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٩، ص٣٣٩.

(٣) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي، ج٣، ص٢١١.

(٤) مسند أحمد، ج١٦، رقم الحديث١٠٤٣٩، ص٢٧٢، قال الهيثمي رجاله رجال الصحيح، وقال الأرناؤوط: حديث صحيح، وهذا إسناد حسن.

وإما أن يموت هو عنه ويتركه لورثته[1].

هذا في الدنيا وأما في الآخرة فإنّ ملوك الخلق ينقطع ملكهم في يوم القيامة فلا يبقىٰ لهم في ذلك اليوم ملك ولا شُبْهة ملك، تَسَاوىٰ الملوك مع رعاياهم وزال ملكهم الذي كان لهم[2]، جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «**يقبض الله الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض**»[3].

ففي ذلك اليوم يتيقن المخلوق ضُعْف ملكه وهوانه وزواله؛ ولهذا يقول: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ [الحاقة: ٢٨، ٢٩]، قال ابن زيد: «زال عنّي ملكي وقوتي»[4]، فلم ينتفع بملكه ولا ماله ولا جاهه في دفع العذاب عن نفسه[5]، وزال ملكه وسلطانه وجنود وعُدَدَه ذهبت كلّها أدراج الرياح[6]، فظهر الفارق بين ملك الخالق وملك المخلوق، فملك المخلوق زائل ولا بدّ، وملك الخالق باق دائم لا يفنىٰ ولا يبيد، وملك الخالق مطلق غير محدود بزمن، وملك المخلوق محصور بزمن معين.

الفرق الثالث: الفرق في مطلق الملك:

وهو مطلق من جهة الاتساع ومن جهة القدرة والتصرف.

١ -أما من جهة الاتساع: فالخالق ملكه مطلق؛ قد عمّ كل شيء، والمخلوق ملكه محدود وقاصر؛ خاص بشيء دون آخر.

والمراد بهذا الفارق أن الخالق سبحانه ملكه واسع عظيم لا يحيط به مخلوق ولا

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، لعبد الكريم الخطيب، ج٩، ص١٢٩٨.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٣٩.

(٣) سبق تخريجه، ص٢٨٧.

(٤) معالم التنزيل، للبغوي، ج٤، ٤٦٤.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٨، ص٢١٥.

(٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٨٨٤.

يتصوره عقل أو إدراك، قد عمّ كل شيء، ووسع كل مخلوق؛ ولهذا قرن وصف البركة بوصف الملك؛ ليقرر اتساع ملكه، قال تعالىٰ: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف: ٨٥]، فمن معاني البركة اتساع صفاته سبحانه ومن هذه الصّفات العظيمة الواسعة صفة الملك، فقوله تعالىٰ: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، إشارة إلىٰ سعة ملكه، وأنّه قد وسع السموات والأرض(١)، ووسع الدنيا والآخرة؛ فملكه الملك التّام المطلق(٢)، وقد وسع المشرق والمغرب أيضًا، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥]، ووسع كل العالم، غيبه وحاضره، كلّه مُلك له، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣]، أي «ملك كل ما غاب عنك في السّموات والأرض، فلم تطلع، ولم تعلمه، كل ذلك بيده وبعلمه، لا يخفىٰ عليه منه شيء، وهو عالم بما يعمله مشركو قومك، وما إليه مصير أمرهم؛ من إقامة علىٰ الشرك، أو إقلاعٍ عنه وتوبة»(٣)، فانظر كيف عبّر سبحانه عن سعة ملكه بهذه الوصوفات، وهي أن له ملك السموات والأرض وما بينهما، والغيب والشهادة، والمشرق والمغرب، والدنيا والآخرة، فهل هناك ملك يشابهه أو يقاربه؟

وبالجملة فكلّ شيء هو ملك له سبحانه قال تعالىٰ: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣].

ومما يبين سعة ملك الخالق وعظمته، وقصور ملك المخلوق ونقصه أن الخالق لمّا يعطي لا يُنْقص هذا العطاء والإحسان من ملكه شيء، فخزائن الجود دائمة لا تنقص من

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٧٧١.

(٢) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٢٠، ص١٦٧.

(٣) المرجع السابق، ج ١٢، ص٦٤٨.

العطاء، ولا تفنىٰ من الإحسان ولو جلّ وعَظُم هذا العطاء[1]، جاء في الصحيحين: عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: «**قال الله عز وجل أنفق أنفق عليك، وقال: يد الله ملأىٰ لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار. وقال: أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض فإنه لم يغض ما في يده،، وكان عرشه علىٰ الماء، وبيده الميزان يخفض ويرفع**»[2].

وأما ما ورد من تقييد ملك الخالق لبعض خلقه في قوله تعالىٰ: ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾ [الناس: ٢]، فهذا لمناسبة السياق؛ لأنهم هم الذين يستعيذون بالله ولإشعارهم بمزيد اختصاص[3]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في سبب تخصيص النّاس بالذكر: «لأنهم المستعيذون، فيستعيذون بربّهم الذي يصونهم، وبملكهم الذي أمرهم ونهاهم، وبإلههم الذي يعبدونه من شر الذي يحول بينهم وبين عبادته، ويستعيذون أيضًا من شر الوسواس الذي يحصل في نفوس الناس منهم ومن الجنة، فإنه أصل الشر الذي يصدر منهم والذي يرد عليهم»[4].

وأما المخلوق فهو وإن ملك فإنما يملك ملكًا قاصرًا محدودًا علىٰ بعض الأشياء دون بعض، وملوك الدنيا كذلك ملكهم محدود خاص بشيء دون شيء[5]، ولو كان معظمًا عند الخلق يدعونه ويرجونه ولو كان أعظم ملوك أهل الأرض فإن حقيقته أنه لا يملك الملك المستقل ولا بمقدار قطمير، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن

---

(١) انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوي، ج١، ٤١١.

(٢) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: [قوله:] ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ [٧]، رقم الحديث ٤٦٨٤، ص٨٩٦.

(٣) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي، ج٩، ص٣٥٦، وصفة الملك بين الخالق والمخلوق، المفهوم والفروق واللوازم، لسعود العريفي، ص٢١.

(٤) مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج١٧، ٥١٨.

(٥) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٢٠، ص١٦٧، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٥١٤.

دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣]، وعبّر بالقطمير وهو القشرة الرقيقة التي توجد بين التّمرة ونواتها الذي هو أحقر الأشياء للدلالة علىٰ انتفاء أي ملك قليل أو كثير[(١)]، فهذه حقيقة ملك المخلوق لا يملك ملكًا حقيقيًا بل ملكه ناقص محدود حيث أنّه لا يشمل كلّ شيء بل هو محدود بأشياء يسيرة فيملك ما تحت يده ولا يملك ما تحت يد غيره، ولو كان مَلِكًا فملكه ناقص أيضًا، فهو إنما يملك أو يحكم طائفة معيّنة من النّاس، ولا يوجد مخلوق قد حكم أهل الأرض كلّهم، بل حتىٰ ما يكون تحت يده ويملكه فإنّ ملكه له ملك ناقص، وذلك أنه يُمنع أحيانًا من التصرف فيه بما يريد، فالشرع مثلًا يمنعه من بعض أنواع التصرف في الملك، وهذا وصف عام في كل مخلوق[(٢)].

ففرعون تكبّر وأُعجب بنفسه وتعالىٰ علىٰ بني قومه؛ لأن له ملك مصر، فكان يراه ملكًا واسعًا كبيرًا[(٣)]، مع أنه محدود فلا يملك إلا جزءًا بسيطًا من الأرض، قال تعالىٰ عن فرعون: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١]، ولهذا فإنّ موسىٰ ـ عليه السلام ـ حين حاجّه فرعون أخبر قومه ألّا يغتروا بهذا القول لفرعون، وأن يحكّموا عقولهم ففرعون وكل ملوك مصر لا يتجاوز ملكهم عريش مصر، وأن الخالق الذي أدعوكم إليه هو ملك الملوك[(٤)]، قد وسع ملكه السموات والأرض، والأولين والآخرين، والمشرق والمغرب، قال تعالىٰ: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٣ ـ ٢٨].

---

(١) انظر: فتح القدير، للشوكاني، ج٤، ص٤١٤، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٦٨٦.

(٢) انظر: القول المفيد علىٰ كتاب التوحيد، لمحمد العثيمين، ج١، ص١٠، ١١، ٢٨٥، ٢٨٦.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٧، ٢١٣.

(٤) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٧، ص٥٦٤.

ومن دلائل نقص ملك الخلق أنه ينقص بالعطاء وتقلّ خزائنهم بالنفقة[1]، ويقع منهم الشحّ والبخل حتىٰ ولو كانوا ملوكًا أو كانوا يملكون التصرف في خزائن الخالق التي لا تنفذ ولا تبيد[2]، قال تعالىٰ: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ٥٣]، وقال تعالىٰ: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠] قال الطبري: «إن الله جل ثناؤه وصف هؤلاء الفرْقة من أهل الكتاب بالبخل باليسير من الشيء الذي لا خطر له، ولو كانوا ملوكًا وأهلَ قدرة علىٰ الأشياء الجليلة الأقدار»[3].

وبالجملة فالخالق ملكه مطلق قد وسع الأولين والآخرين، والسموات والأرض، والمشرق والمغرب، والدنيا والآخرة، والغيب والشهادة ملكًا تامًا مستقلًا، والمخلوق يملك ملكًا ناقصًا محدودًا وهذا الملك القاصر المحدود ليس ملكًا تامًا مستقلًا، فهو لا يملك علىٰ الحقيقة ولا بمقدار القطمير.

ب ـ من جهة القدرة والتصرف: الخالق ملكه مع قدرة، ومشيئته نافذة في ملكه، والمخلوق ملكه مع عجز، ومشيئته غير نافذة.

ذكرنا أن الخالق سبحانه ملكه مطلق قد وسع كلّ شيء، وكما أن ملكه مطلق فقدرته في هذا الملك مطلقة أيضًا، فهو قدير علىٰ كل شيء، لا يعجزه أمر، ولا يمنعه مانع؛ فما شاء كان ومالم يشأ لم يكن لا يجري في ملكه شيء إلا بإذنه؛ ولهذا اقترن وصف الملك بالقدرة في آيات كثيرة جدًا، قال تعالىٰ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١]، فأخبر عن نفسه سبحانه أن الملك بيده وأنه قدير علىٰ كلّ شيء في هذا الملك، وقال تعالىٰ: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [القمر: ٥٥]، أي عند الملك القادر علىٰ كلّ شيء يطلبونه أو

(١) انظر: مفاتيح الغيب، للرازي، ج١، ص٢٤٣.

(٢) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٧، ص١٥٢، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٥، ص١٢٤.

(٣) جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٧، ص١٥٢.

يريدونه وعلىٰ جميع ما تحت ملكه لا يعجزه شيء[1].

فالخالق سبحانه إذا أراد أن يقدّر أمرًا فإنما يقول له: كن فإذا هو كائن؛ لأن ملكوت كل شيء يعود إليه فهو المتصرف فيه بلا منازع[2]، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [يس: ٨٢، ٨٣]، فقرن بين ملكه وقدرته؛ لأن القدرة علىٰ إنفاذ كل أمر يشاؤه الخالق أثر لعموم ملكه، وكما في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٠٦ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٠٦، ١٠٧]، قال البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هو متنزل من الجملة التي قبله منزلة الدليل لأن الذي يكون له ملك السّموات والأرض لا جرم أن يكون قديرا علىٰ كل شيء ولذا فصلت هذه الجملة عن التي قبلها»[3].

وكان ﷺ يقول في دبر كل صلاة مكتوبة: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد**»[4]، قال الإمام العيني: «لأن الله تعالىٰ، لما كانت الوحدانية له والملك له والحمد له، فبالضرورة يكون قادرًا علىٰ كل شيء، وذكره يكون للتتميم والتكميل»[5]، فالملك المطلق التّام مستلزم للقدرة المطلقة التّامة المنافية للعجز من أي وجه[6].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٧، ص٤٨٧، ومحاسن التأويل، للقاسمي، دار الحديث، ج٨، ص٥٥٥.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٧٨.

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج١، ص ٦٦٥.

(٤) رواه البخاري من حديث المغيرة بن شعبة، كتاب القدر، باب: لا مانع لما أعطىٰ الله، رقم الحديث ٦٦١٥، ص ١٢٦٤.

(٥) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، للعيني، ج٦، ص١٩٢.

(٦) انظر: صفة الملك بين الخالق والمخلوق، المفهوم والفروق واللوازم، لسعود العريفي، ص٧٢-٧٤.

وكما أن قدرته مطلقة في ملكه فمشيئته سبحانه نافذة فيه، فيقضي في ملكه بما شاء ولا راد لقضائه، له السلطان التام علىٰ خلقه لا يمتنع عنه أحد، ويحكم فيهم بما يريد ولا معقب لحكمه، حكمه مطلق في الدنيا والآخرة وعلىٰ جميع الخلق(1).

وأحكامه شاملة للأحكام القضائية والشرعية والجزائية:

- فالخالق أحكامه القضائية نافذة فقد بين سبحانه أنّها من آثار ملكه كما في قوله تعالىٰ: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة: ١٧]، قال الإمام الطبري: «يعني تبارك وتعالىٰ بذلك: والله له تصريف ما في السّموات والأرض ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ﴾. يعني: وما بين السماء والأرض، يهلك من يشاء من ذلك، ويبقي ما يشاء منه، ويوجد ما أراد، ويعدم ما أحبّ، لا يمنعه من شيء أراد من ذلك مانع، ولا يدفعه عنه دافع، يُنْفِذ فيهم حكمه، ويُمضي فيهم قضاءه لا المسيح الذي إن أراد إهلاكه ربُّه، وإهلاكَ أمّه، لم يملك دفع ما أراد به ربُّه من ذلك»(2).

- وأمّا أحكامه الشرعية فقال تعالىٰ: ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١٠٦، ١٠٧]، قال الشيخ السعدي: «فإذا كان مالكًا لكم، متصرفا فيكم تصرف المالك البر الرحيم في أقداره وأوامره ونواهيه، فكما أنه لا حجر عليه في تقدير ما يقدره علىٰ عباده من أنواع التقادير، كذلك لا يعترض عليه فيما

---

(١) انظر: فقه الأسماء الحسنىٰ، لعبد الرزاق البدر، ص١١٩، ومنهج ابن القيم في شرح أسماء الله، لمشرف الغامدي، ص٢٥٤.

(٢) جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج٨، ص٢٦٧.

يشرعه لعباده من الأحكام. فالعبد مدبر مسخر تحت أوامر ربه الدينية والقدرية، فما له والاعتراض؟»(١).

- وأمّا الأحكام الجزائية، فقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفتح: ١٤]، قال الإمام الطبري: «يقول تعالىٰ ذكره: ولله سلطان السموات والأرض، فلا أحد يقدر أيها المنافقون علىٰ دفعه عما أراد بكم من تعذيب علىٰ نفاقكم إن أصررتم عليه، أو منعه من عفوه عنكم إن عفا، إن أنتم تبتم من نفاقكم وكفركم»(٢).

وصور عظيم قدرته ونفاذ أمره كثيرة جدًا لمن تأملها، ومن ذلك:

أنه يحيي ويميت لا ينازعه في ذلك منازع فله ملك السموات والأرض وملك ما فيها من المخلوقات وسلطانهما يتصرف فيهم بقدرته فلا يعجزه شيء، نافذ فيهم أمره ماض فيهم حكمه فهو القدير ولا أقدر منه(٣)، قال تعالىٰ: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحديد: ٢].

ومن ذلك أنه يهب الذكور لمن يشاء من خلقه، ويهب الإناث لمن يشاء، ويهب ذكورًا وإناثًا لآخرين، ويجعل البعض الآخر عقيمًا، فهو سبحانه عليم بما يستحقه كل شخص، وقدير لا يعجزه شيء، قال تعالىٰ: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورىٰ: ٤٩، ٥٠].

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٦٢.

(٢) جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج٢١، ص٢٦٠.

(٣) انظر: المرجع السابق، ج ٢٢، ص٣٨٤، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٢، ص١٨٣، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص١٦١.

ومن تمام قدرته المطلقة في ملكه سبحانه أنّه لا يملك أحد يوم القيامة أن يشفع عنده إلا بإذنه[1]، قال تعالىٰ: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٥، ٨٦].

ولا يملكون من الله شيئًا حتىٰ الخطاب في ذلك اليوم، فلا يتكلمون إلا بإذنه[2]، قال تعالىٰ: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ [النبأ: ٣٧ ـ ٣٩].

ولأن له تمام القدرة في الملك وبيده الحكم وحده وصف نفسه بالتعالي عن المساءلة عقب وصف نفسه بعموم ملكه[3]؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩ ـ ٢٣].

وأما المخلوق فقدرته محدودة قد يشاء أمرًا فيجري عكس مشيئته، وقد يريد فعلًا ولا قدرة له علىٰ تنفيذه، يستوي في ذلك صغار الأمور وكبارها، ويستوي في ذلك الملك العظيم، ومن يملك أدنىٰ ملك، قال تعالىٰ عن النمروذ ومحاجته لإبراهيم ـ عليه السلام ـ في كونه له القدرة المطلقة في الملك، وإبطال إبراهيم ـ عليه السلام ـ هذه الدعوىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٧٧١.

(٢) انظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية ج١٤، ص٣٩٧.

(٣) انظر: صفة الملك بين الخالق والمخلوق، المفهوم والفروق واللوازم، لسعود العريفي، ص٧٤-٧٧.

قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فكمال ملك الخالق أثبته إبراهيم ـ عليه السلام ـ ببيان كمال قدرته، ونقص ملك النمروذ ومحدوديته أثبته ببيان عجزه وعدم قدرته، فالخالق؛ لأن له الملك التّام فهو قادر علىٰ الإتيان بالشمس من المشرق، والنمروذ؛ لأن ملكه ناقص لا يقدر علىٰ مخالفة أمر الله فلا يقدر علىٰ الإتيان بها من المغرب.

وهذا ملك الروم مع عظم ملكه إلا أنه لم يقدر علىٰ مخالفة قومه وعجز عن اتباع النبي ﷺ مع تصديقه له وذلك لخوفه من زوال ملكه، فحين جاءه رسول رسول الله ﷺ وقرأ عليه الكتاب، قال الأسقف: هو والله الذي بشرنا به موسىٰ وعيسىٰ الذي كنا ننتظر، قال قيصر: فما تأمرني؟ قال: أما أنا فإني مصدقه ومتبعه، فقال قيصر: أعرف أنه كذلك، ولكن لا أستطيع أن أفعل، إن فعلت ذهب ملكي وقتلني الروم(١).

وإذا كان سيّد البشر ليس له من الأمر شيء، وليس له القدرة المطلقة علىٰ إنفاذ مشيئته فغيره من باب أولىٰ، قال تعالىٰ: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٨، ١٢٩]، فأخبر سبحانه أن النبي ﷺ ليس له من الأمر شيء، وإنّما الخالق هو من يملك ما في السموات والأرض من مشرقها إلىٰ مغربها، إنسهم وجنهم، وحيهم وميتهم، والخلق كلهم مماليكه وعبيده يتصرف فيهم بما يشاء، وليس لهم مثقال ذرة من الملك، وإذا كان ذلك فمشيئة الله هي النافذة؛ من شاء عذبه، ومن شاء غفر له(٢).

---

(١) رواه الطبراني من حديث دحية الكلبي في المعجم الكبير، رقم الحديث ٤١٩٩، ج٤، ص٢٢٥، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: فيه يحيىٰ بن عبد الحميد الحماني ضعيف.

(٢) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٦، ص٤٩، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص١٤٧.

الفرق الرابع: الفرق في صفات الكمال اللازمة:

١ ـ الفرق في الغنىٰ: الخالق ملكه مع غنىٰ ذاتي، والمخلوق ملكه مع فقر ذاتي.

والمراد أن الخالق مستغني عن ملكه، لا يحتاج ولا يفتقر إليه، ولهذا اقترنت صفة الملك للخالق مع صفة الغنىٰ في آيات كثيرة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ١٣١]، وقوله: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الحج: ٦٤]، فيخبر الله أن له ملك كلّ ما في السموات والأرض، وأنه غنيّ عنها، لا تحل به حاجة لأحد، ولا يفتقر إلىٰ غيره أبدًا؛ فهو الغنيّ بذاته، ليس له معاون أو شريك أو وزير، حتىٰ جنوده لا يحتاج إليهم بل هم من يحتاجون إليه[١]، قال الإمام ابن كثير: «أي: ملكه جميع الأشياء، وهو غني عما سواه، وكل شيء فقير إليه، عبد لديه»[٢]، وقال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هو الذي يستغني في ذاته وصفاته عن كل موجود، بل لا يستغني عنه شيء في شيء: لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في وجوده، ولا في بقائه. بل كل شيء فوجوده منه أو مما هو منه. وكل شيء سواه فهو له مملوك في ذاته وصفاته. وهو مستغن عن كل شيء. فهذا هو الملك المطلق»[٣].

وجاء في صحيح مسلم، عن أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ فيما يروىٰ عن الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ أنّه قال: «... **يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا علىٰ أتقىٰ قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا علىٰ أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئًا، يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل إنسان**

---

(١) جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج١٦، ص٦٢٣، وج٧، ص٥٧٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٥، ص٤٥٠.

(٣) المقصد الأسنىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ، لأبي حامد الغزالي، ص٦٨.

مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر»(١)، قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هو إشارةٌ إلىٰ أنَّ مُلكه لا يزيدُ بطاعة الخلق ولو كانوا كلُّهم بررةً أتقياءَ قلوبُهم علىٰ قلب أتقىٰ رجلٍ منهم، ولا يَنْقُصُ مُلكُهُ بمعصية العاصين، ولو كان الجنُّ والإنسُ كلُّهم عصاةً فجرةً قلوبُهم علىٰ قلبِ أفجرِ رجلٍ منهم، فإنَّه سبحانه الغنيُّ بذاته عمَّن سواه، وله الكمالُ المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله، فَمُلكُهُ ملكٌ كاملٌ لا نقص فيه بوجه من الوجوه علىٰ أيِّ وجهٍ كان»(٢).

فاستغناؤه عن غيره دليل علىٰ كمال ملكه وتمامه، يقول ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦]: «تفرع علىٰ ما تقدم بيانه من دلائل الوحدانية والقدرة والحكمة ظهور أن الله هو الملك الذي ليس في اتصافه بالملك شائبة من معنىٰ الملك، فملكه الملك الكامل في حقيقته، الشامل في نفاذه... والحق: ما قابل الباطل، ومفهوم الصفة يقتضي أن ملك غيره باطل، أي فيه شائبة الباطل لا من وجهة الجور والظلم لأنه قد يوجد ملك لا جور فيه ولا ظلم كملك الأنبياء والخلفاء الراشدين وأصحاب رسول الله ﷺ من الخلفاء والأمراء(٣)، بل من جهة أنه ملك غير مستكمل حقيقة المالكية فإن كلّ من ينسب إليه الملك عدا الله تعالىٰ هو مالك من جهة

---

(١) سبق تخريجه، ص٢٥٧.

(٢) جامع العلوم والحكم، لابن رجب، ص٢٩١.

(٣) الملك التام الخالي من أي شائبة ظلم هو فقط للخالق، فوجود ملك يماثله في خلوّه من الظلم ليس بصحيح، إذ قد يكون هناك ملك عادل كما ذكر ابن عاشور إلا أن الظلم قد يشوبه من جهة عدم القصد وعدم إرادته ولكن طبيعة البشر توقعهم فيه، جاء في رواية في مسلم عن عائشة قالت دخل علىٰ رسول الله ﷺ رجلان فكلماه بشيء لا أدري ما هو فأغضباه فلعنهما وسبهما فلما خرجا قلت يا رسول الله من أصاب من الخير شيئا ما أصابه هذان قال «وما ذاك». قالت قلت لعنتهما وسببتهما قال «أو ما علمت ما شارطت عليه ربي قلت اللهم إنما أنا بشر فأي المسلمين لعنته أو سببته فاجعله له زكاة وأجرا»، فإذا كان السبّ واللعن وقع منه ﷺ فجواز وقوع الظلم من غيره وارد.

ومملوك من جهة لما فيه من نقص واحتياج؛ فهو مملوك لما يتطلبه من تسديد نقصه بقدر الحاجة ومن استعانة بالغير لجبر احتياجه فذلك ملك باطل لأنه ادعاء ملك غير تام»(١).

ونفىٰ سبحانه في آيات عديدة أن يكون له معين أو شريك في الملك؛ لأنه غني لا يحتاج إلىٰ أحد، قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣]، فنفىٰ الله سبحانه في هذه الآيات أربعة أمور، نفىٰ أن يكون هناك أحد يملك الملك الاستقلالي ولو بمقدار الذّرة، ونفىٰ أن يكون له شريك في ملكه، ونفىٰ أن يكون له وزير أو معين أو مشير يساعده علىٰ الملك وعلىٰ تدبير الأمور وتصريفها؛ لأنّه ليس فقيرًا إلىٰ غيره فيحتاج إلىٰ معونته، والملك كلّه له علويّه وسفليّه، فهو الغنيّ عن كل أحد بذاته، ونفىٰ أخيرًا أن يشفع أحد عنده إلا بإذنه؛ لأن ملوك الدنيا لهم أعوان فلمّا يشفع عندهم أحد من أعوانهم فإنه يُضّطر إلىٰ قبول شفاعته؛ لحاجته إليهم، والخالق لا يحتاج لأحد ولا إلىٰ استصناعه كما يفعل الملوك لجنودهم ووزرائهم لكي يكتسبوا حبهم وإخلاصهم له، فهو سبحانه غنيّ عن كل أحد؛ ولهذا فلا يملك الشفاعة إلا هو، ولا يمكن لأحد أن يشفع إلا بإذنه(٢)، فكلّ هذه الأربعة منتفية عنه؛ لأنها علامات الفقر والاحتياج، والخالق التّام الملك مالك الملوك لا يمكن أن يوصف بهذا الوصوفات.

ومن صور استغناء الخالق عن ملكه استغناؤه عن خلّة أحد من خلقه، قال تعالىٰ:

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج١٨، ص١٣٥، "بتصرّف".

(٢) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، (ج١٥، ص١٣٨)، و(ج ١٩، ص٢٧٢، ٢٧٣)، والجامع لكلام ابن تيمية في التفسير، لابن تيمية، ج٥، ص٢٨٣، والصواعق المرسلة، لابن القيم، ج٢، ص٤٦١، ٤٦٢، والتحرير والتنوير، لابن عاشور، ج١١، ص٢٣١، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٦٧٨، ٤٦٩، والتمهيد لشرح كتاب التوحيد، لصالح آل الشيخ، ص٢١٧، ٢١٨.

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴾ [النساء: ١٢٥، ١٢٦]، فأخبر سبحانه بأنه اتخذ إبراهيم خليلًا، ثم عقّب بأنّ له ملك السموات والأرض، ليبيّن أنّه إنما اتخذه خليلًا لطاعته لله، وكونه مخلصًا له، مسارعًا لمحبته ورضاه، وليس لحاجته إليه ولا للاستعانة به من ضعف، ولا إلىٰ التّكثر به من قلّة، فملك السموات والأرض له سبحانه والمملوك هو المحتاج إلىٰ مالكه، ليس المالك من يحتاج إلىٰ مملوكه(١)، قال أبو السعود(٢) رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اتخاذه عز وجل لإبراهيم عليه السلام خليلا ليس لاحتياجه سبحانه إلىٰ ذلك في شأن من شئونه كما هو دأب الآدميين فإن مدار خلتهم افتقار بعضهم إلىٰ بعض في مصالحهم بل لمجرد تكرمته وتشريفه عليه السلام»(٣).

ومن صور استغناء الخالق عن ملكه استغناؤه عن الولد فقد قرن في آيات عديدة بين انتفاء الولد عنه سبحانه وبين كمال ملكه، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٦٨]، وقوله: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ [البقرة: ١١٥، ١١٦]، فكلّ ما في السموات وما في الأرض هو مُلك له، فلا يحتاج إلىٰ ولد(٤)، ذلك أن اقتناء الولد دليل الفقر، فالمخلوق يفتقر إلىٰ مخلوق

---

(١) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٧، ص٥٣٠، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج٥، ص٣٨٢.

(٢) أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفىٰ العمادي الحنفي الإمام العلّامة، توفي في أوائل جمادىٰ الأولىٰ سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة. من كتبه (تحفة الطلاب) في المناظرة، و (رسالة في المسح علىٰ الخفين).المرجع: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج١٠، ص٥٨٤، والأعلام للزركلي، ج٧، ص٥٩، ومعجم المؤلفين، ج١١، ص٣٠٢.

(٣) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود، ج٢، ص٢٣٧.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج١١، ص٢٣١.

يخلفه؛ لأنّه غير كامل وأمّا الخالق فهو غنيّ لا يفتقر لولد البتة؛ لأنّ له كلّ ما في السموات والأرض، فلا يتوهم أحد أنه مفتقر لولد[1]، قال الشيخ السعدي: «﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [البقرة: ١١٦]، أي: جميعهم ملكه وعبيده، يتصرف فيهم تصرف المالك بالمماليك، وهم قانتون له مسخرون تحت تدبيره، فإذا كانوا كلهم عبيده، مفتقرين إليه، وهو غنيّ عنهم، فكيف يكون منهم أحد، يكون له ولدًا، والولد لا بد أن يكون من جنس والده، لأنه جزء منه. والله تعالىٰ المالك القاهر، وأنتم المملوكون المقهورون، وهو الغني وأنتم الفقراء، فكيف مع هذا، يكون له ولد؟ هذا من أبطل الباطل وأسمجه»[2].

هذا في حقّ الخالق فهو ملك غنيّ كامل الملك تامّ الغنىٰ، وأمّا ملوك الخلق فملكهم ناقص وهم فقراء بالذّات، فإذا أراد الخالق أن يهبهم المُلك هيّأ لهم أسباب الملك، فهيأ لهم طائفة من الناس يملكون شؤونهم، ووهب لهم الأعوان والوزراء والجنود ونحو ذلك مما يحتاج إليه المَلك لملكه، إذ إنه لا يمكن أن يقوم ملكه بدون هذه الأسباب فهو مفتقر إليها[3]، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٧ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ١٨ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ١٩ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ [ص: ١٧ ـ ٢٠]، فقوىٰ الله ملكه بأسباب عديدة ومنها كثرة الْعَدَد والْعُدَد[4].

وقال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العبد لا يتصور أن يكون ملكًا مطلقًا؛ فإنه لا يستغني عن كل شيء؛ فإنه أبدًا فقير إلىٰ الله تعالىٰ وإن استغنىٰ عمن سواه. ولا يتصور أن يحتاج إليه كل شيء، بل يستغني عنه أكثر الموجودات. ولكن لما تصور أن يستغني عن بعض الأشياء، ولا

---

(١) انظر: محاسن التأويل، للقاسمي، دار الحديث، ج١، ص٤٢٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٦٤.

(٣) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، (ج ٧، ص٥٧٨)، و(ج١٦، ص٦٢٣)، والنور الأسنىٰ شرح أسماء الله الحسنىٰ، للأنصاري، ص٨٠.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٧١١.

يستغني عن بعض الأشياء ـ كان له شوب في الملك»[1]، فحقيقة حال ملوك الخلق أنهم غناهم ناقص وأنهم يفتقرون لغيرهم ويحتاجون لهم، ومن ذلك ما جاء في صحيح البخاري أن أنس بن مالك: قال لامرأة من أهله: تعرفين فلانة؟ قالت: نعم، قال: فإن النبي ﷺ مرّ بها وهي تبكي عند قبر، فقال: «**اتقي الله واصبري**». فقالت: إليك عني، فإنك خلو من مصيبتي. قال: فجاوزها ومضىٰ، فمرّ بها رجل فقال: ما قال لك رسول الله ﷺ؟ قالت: ما عرفته، قال: إنه لرسول الله ﷺ قال: فجاءت إلىٰ بابه فلم تجد عليه بوابًا، فقالت: يا رسول الله، والله ما عرفتك، فقال النبي ﷺ: «**إن الصبر عند أول صدمة**»[2]، قال ابن بطال[3] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فدل حديث أنس أنه ﷺ إذا لم يكن علىٰ شغل من أهله ولا انفراد لشيء من أمره أنه كان يرفع حجابه بينه وبين الناس ويبرز لطالبيه وذوىٰ الحاجة إليه؛ لأن الله قد كان أمّنه أن يغتال أو يهاج أو تطلب غرته فيقتل، قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقد أراد عمر بن عبد العزيز أن يسلك هذه الطريقة تواضعًا لله فمنع الشرط والبوابين فتكاثر الناس تكاثرًا اضطره إلىٰ الشرط فقال: لابد للسلطان من وزعة[4]»[5]، فملوك الخلق لا غنىٰ لهم عن هذه الأمور من الأعوان والوزراء والشرط والبوابين؛ لأنّهم فقراء بالطبع محتاجين إليهم، لا يمكنهم القيام بمصالحهم دونهم، ففقرهم ذاتيّ حتىٰ ولو كانوا ملوكًا.

(١) المقصد الأسنىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ، لأبي حامد الغزالي، ص٦٨.

(٢) رواه البخاري كتاب الأحكام، باب: ما ذكر أن النبي ﷺ لم يكن له بواب، رقم الحديث ٧١٥٤، ص١٣٦٤.

(٣) أبو الحسن علي بن خلف بن بطال البكري، القرطبي، المالكي، قال ابن بشكوال: كان من أهل العلم والمعرفة، عني بالحديث العناية التامة؛ شرح (الصحيح) في عدة أسفار. توفي: في صفر، سنة تسع وأربعين وأربع مائة. المرجع: سير أعلام النبلاء، ج١٨، ص٤٧، والأعلام للزركلي، ج٤، ص٢٨٥، ومعجم المؤلفين، ج٧، ص٨٧.

(٤) أي أعوان.

(٥) شرح صحيح البخاري، لابن بطال، ج٨، ص١٧٤، ١٧٥.

ومن صور فقر المخلوق فقره إلىٰ الولد ولو كان ملكًا، فهذا فرعون ملك مصر إنما رغب في موسىٰ ـ عليه السلام ـ ولم يقتله لحاجته وفقره إلىٰ الولد، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [القصص: ٩]، وهذا عزيز مصر رغب في شراء يوسف رغبة أن يكون ولدًا له؛ قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾ [يوسف: ٢١].

ومن صور فقره أيضًا فقره إلىٰ الخالق في إمداده بالقوة للقيام علىٰ ما في ملكه؛ ولهذا قال الرجل المؤمن لصاحب الجنّتين لمّا رآه معتدًا بقوته: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [الكهف: ٣٩]، قال القاسمي[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إقراراً بأن ما قويت به علىٰ عمامتها[2] وتدبير أمرها، إنما هو بمعونته وتأييده. إذ لا يقوىٰ أحد في بدنه ولا في ملك يده إلا بالله تعالىٰ. والقصد من الجملتين التبرؤ من الحول والقوة، إسناد ما أوتيه إلىٰ مشيئة الله وقوته وحده»[3].

وقد قال تعالىٰ في حقّ جميع الناس ملوكهم ومملوكيهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، ففي هذه الآيات يخبر الله بحقيقة المخلوق يستوي في ذلك الملك وغيره وأنهم فقراء من جميع الوجوه: «فقراء في إيجادهم، فلولا إيجاده إياهم، لم يوجدوا.

---

(١) جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق، من سلالة الحسين السبط: إمام الشام في عصره، علمًا بالدين، وتضلعا من فنون الأدب، انتدبته الحكومة للرحلة وإلقاء الدروس العامة في القرىٰ والبلاد السورية، من مؤلفاته: ديوان خطب، الفتوىٰ في الإسلام، التأويل. المرجع: الأعلام للزركلي، ج٢، ص١٣٥، ومعجم المؤلفين، ج٣، ص١٥٨.

(٢) أي كمالها وتمامها.

(٣) محاسن التأويل، للقاسمي، ط: دار الحديث، ج٧، ص٣٨.

فقراء في إعدادهم بالقوىٰ والأعضاء والجوارح، التي لولا إعداده إياهم بها، لما استعدوا لأي: عمل كان.

فقراء في إمدادهم بالأقوات والأرزاق والنعم الظاهرة والباطنة، فلولا فضله وإحسانه وتيسيره الأمور، لما حصل لهم من الرزق والنعم شيء.

فقراء في صرف النقم عنهم، ودفع المكاره، وإزالة الكروب والشدائد. فلولا دفعه عنهم، وتفريجه لكرباتهم، وإزالته لعسرهم، لاستمرت عليهم المكاره والشدائد.

فقراء إليه في تربيتهم بأنواع التربية، وأجناس التدبير.

فقراء إليه، في تألههم له، وحبهم له، وتعبدهم، وإخلاص العبادة له تعالىٰ، فلو لم يوفقهم لذلك، لهلكوا، وفسدت أرواحهم، وقلوبهم وأحوالهم.

فقراء إليه، في تعليمهم ما لا يعلمون، وعملهم بما يصلحهم، فلولا تعليمه، لم يتعلموا، ولولا توفيقه، لم يصلحوا.

فهم فقراء بالذّات إليه، بكلّ معنىٰ، وبكلّ اعتبار، سواء شعروا ببعض أنواع الفقر أم لم يشعروا، ولكن الموفق منهم، الذي لا يزال يشاهد فقره في كل حال من أمور دينه ودنياه، ويتضرع له، ويسأله ألا يكله إلىٰ نفسه طرفة عين، وأن يعينه علىٰ جميع أموره، ويستصحب هذا المعنىٰ في كل وقت، فهذا أحرىٰ بالإعانة التامة من ربه وإلهه، الذي هو أرحم به من الوالدة بولدها.

﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]أي: الذي له الغنىٰ التام من جميع الوجوه، فلا يحتاج إلىٰ ما يحتاج إليه خلقه، ولا يفتقر إلىٰ شيء مما يفتقر إليه الخلق، وذلك لكمال صفاته، وكونها كلها، صفات كمال، ونعوت جلال»(١).

فظهر مما سبق أن الخالق مفارق للمخلوق في صفة الملك من جهة غناه سبحانه عن

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٦٨٧.

كلّ ما تحت يده لا يتكثر بهم من قلّة، ولا ينتصر بهم من عزّة، ولا يحتاج إليهم في شيء، ملكه قائم بدونهم وملوك الخلق لا غنىٰ لهم عمّا تحت أيديهم، يحتاجون إلىٰ أعوان ووزراء وجنود ليستقيم ملكهم ويمكنهم سياسة رعيتهم، ومتىٰ تخلوا عنهم زال ملكهم وذهب سلطانهم، وهم فقراء في كلّ أمورهم في إيجادهم وإعدادهم وإمدادهم، فالافتقار صفة ملازمة لهم ولو وصفوا بالملوك.

٢ ـ الفرق في العلم: الخالق يعلم ما في ملكه لا يخفىٰ عليه شيء فيه، والمخلوق لا يحيط علمًا بملكه.

الخالق ـ جل وعلا ـ له جميع ما في السموات والأرض كلهم ملكه وعبيده، وعلمه نافذ فيهم محيط بهم، أحاط علمه بكل معلوم، لا يخفىٰ عليه شيء من ذلك، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، سواء في ذلك ما ظهر للناس وما خفي عنهم(١)؛ ولهذا قَرَن الله سبحانه بين عموم ملكه وعموم علمه في آيات كثيرة، منها قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النساء: ١٢٦]، وكذلك يخبرنا في آيات أخرىٰ عن بعض ما يحيط به علمه في معرض تقرير ملكه، كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [النور: ٤١، ٤٢]، وهو يعلم ما يبديه العباد وما يخفونه في أنفسهم، يعلم ظواهرهم وسرائرهم وضمائرهم، ولو دقّت وخفيت، فلا يخفىٰ عليه شيء من ذلك، مطّلع علىٰ جميع ما فيها، كيف لا يعلم وهو من خلقهم وهو مالكهم(٢)، قال تعالىٰ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٢، ص٤٢٤، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٢٠٦.

(٢) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٥، ص١٢٧، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج١، ص٧٢٨، والتفسير القرآني للقرآن، لعبد الكريم الخطيب، ج٩، ص١٢٩٨.

يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، قال ابن تيمية: «فهذا متضمن لكمال علمه سبحانه وتعالىٰ بسرائر عباده وظواهرهم، وأنه لا يخرج شيء من ذلك عن علمه، كما لم يخرج شيء ممن في السموات والأرض عن ملكه، فعلمه عام وملكه عام»(١).

فالخالق الملك لا بد أن يكون عالمًا بخلقه ولو كان لا علم له بملكه فلا هيمنة له عليه، وبهذا يحصل الجلال والكمال وليس هذا إلا للملك الجبّار لا شريك له في ذلك(٢).

أما المخلوق فقد يملك شيئًا، ولا يعلم عنه شيئًا، وملوك الدنيا يجهلون ما يجري في ملكهم؛ ولهذا احتاجوا إلىٰ من يبلّغهم به، فهذا فرعون يقتل كل من يولد من بني إسرائيل خوفًا علىٰ ملكه من الزوال، ثم يأخذ موسىٰ ويربيه في بيته وهو لا يعلم أنّه سيكون سببًا في زوال ملكه وحياته، وأنه سيكون حزنًا وعدوًا له وظنّ أنه سينفعه، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص: ٩]، قال السعدي: «﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ما جرىٰ به القلم، ومضىٰ به القدر، من وصوله إلىٰ ما وصل إليه، وهذا من لطفه تعالىٰ، فإنهم لو شعروا، لكان لهم وله، شأن آخر»(٣).

وهذا سليمان ـ عليه السلام ـ قد طلب الله ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه الله، ومع ذلك لما غاب عنه الطير لم يعلم أين مكانه، ولماذا غاب، قال تعالىٰ: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴾ [النمل: ٢٠، ٢١]. وحين أخبر ـ تعالىٰ ـ أنه أعطىٰ داود الملك أخبر أنه علّمه مما يشاء فلم يعطه العلم المطلق وإنما جزء منه، قال تعالىٰ: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ

(١) مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج١٤، ص١٣٢.

(٢) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي، ج٨، ص٨٤.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٦١٣.

جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وهذا مَلِك مصر يبحث الليالي والأيام عمّن يعبّر له الرؤيا التي رآها، ولم يعلم عن السّنين شيئًا لولا تعليم الله له بذلك عن طريق تعبير يوسف الرؤيا، بل حتىٰ الملأ من قومه لم يتمكنوا من تعبيرها، قال تعالىٰ: ﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ [يوسف: ٤٤]، فإذا كان هذا حال ملوك الدنيا يجهلون ما يجري في ملكهم، فلا يمكن أن يشابه أحد ملك الخالق بحال من الأحوال.

٣ ـ الفرق في العدل والرحمة: الخالق ملكه مع عدل ورحمة، فلا يظلم أحدًا مثقال ذرة، وملوك الخلق يوجد فيهم الظلم والقسوة.

الخالق ـ سبحانه ـ عدل، لا يظلم عباده مثقال ذرة، ومُلكه العظيم لم يكن سببًا للظلم والجور، بل هو مُلك رحمة وعدل، وقد قرن الله بين عدله وملكه في قوله تعالىٰ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، فلم يقل مالك يوم الحساب، وإنّما وصف نفسه بأنه مالك يوم الدّين، أي الجزاء، وفي ذلك إشارة أن معاملته تكون بالعدل، وهو المشار له في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ﴾ [غافر: ١٧]، فكونه وصف نفسه بأنّه ملك يوم العدل، فهو وصف بأشرف ما يوصف به الملوك، فإن الملوك تُحمد بمقدار قيامها بالعدل(١).

وأخبرنا أنّ الملك يوم القيامة للخالق الذي وصفه الرحمة، قال تعالىٰ: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٦]، قال الشيخ السعدي: «أي: يوم القيامة ﴿ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ﴾ لا يبقىٰ لأحد من المخلوقين ملك ولا صورة ملك، كما كانوا في الدنيا، بل قد تساوت الملوك ورعاياهم والأحرار والعبيد والأشراف وغيرهم، ومما يرتاح له القلب، وتطمئن به النفس وينشرح له الصدر أن أضاف الملك في يوم القيامة لاسمه "الرحمن " الذي وسعت رحمته

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج١، ص١٧٧.

كل شيء وعمت كل حي وملأت الكائنات وعمرت بها الدنيا والآخرة، وتم بها كل ناقص وزال بها كل نقص، وغلبت الأسماء الدالة عليه الأسماء الدالة علىٰ الغضب وسبقت رحمته غضبه وغلبته، فلها السبق والغلبة، وخلق هذا الآدمي الضعيف وشرفه وكرمه ليتم عليه نعمته، وليتغمده برحمته، وقد حضروا في موقف الذل والخضوع والاستكانة بين يديه ينتظرون ما يحكم فيهم وما يجري عليهم وهو أرحم بهم من أنفسهم ووالديهم فما ظنك بما يعاملهم به، ولا يهلك علىٰ الله إلا هالك ولا يخرج من رحمته إلا من غلبت عليه الشقاوة وحقت عليه كلمة العذاب»(١)، فالخالق هو الملك التّام الملك، فهو العدل، الرحيم بعباده، سواء في الدنيا أو الآخرة.

وأما ملوك الخلق فهم وإن كان فيهم الملوك العادلين، كأمثال داود، وسليمان، وطالوت، وذي القرنين ـ عليهم السلام ـ إلا أنّه يكثر فيهم الملوك الظالمين، وقد أخبرت ملكة سبأ عن هذه الحقيقة بقولها: ﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [النمل: ٣٤، ٣٥].

ومن أوائلهم فرعون الذي أخبرنا الله عن ظلمه وقسوته بقوله: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٤]، وبسبب ظلم الملك اضطر الخضر ـ عليه السلام ـ لخرق السفينة حتىٰ يراها هذا الملك ـ الظالم الذي نزعت من قلبه الرحمة ـ مَعِيبة فيتركها للمساكين الذين يبحثون عن رزق الله بالعمل عليها، قال تعالىٰ: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [الكهف: ٧٩].

والملك الذي قتل الغلام، وتسلّط علىٰ المؤمنين حتىٰ شقّ لهم الأخدود العظيم المشتعل بالنّار، فكلّ من يؤمن بالله يلقيه فيها، هو نموذج آخر للملك الظالم(٢)؛ ولهذا

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٥٨١، ٥٨٢.

(٢) وما نراه ونشاهده اليوم من تسلّط بعض الملوك الظالمين علىٰ رعيتهم لهو دليل جليّ علىٰ نقص ملك =

جاءت النصوص بالحثّ علىٰ العدل مع الرّعيّة والرحمة بهم، وحذّرت من ظلمهم، ومنها وعد الله الملك العادل أن يكون في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه، كما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «**سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله**»، وذكر منهم «**الإمام العادل**»[1].

ومنها نهيه ﷺ عن القسوة مع الرعية، جاء في صحيح مسلم، عن عبد الرحمن بن شماسة قال: أتيت عائشة أسألها عن شيء، فقالت: ممن أنت؟ فقلت: رجل من أهل مصر، فقالت: كيف كان صاحبكم[2] لكم في غزاتكم هذه؟ فقال: ما نقمنا منه شيئًا، إن كان ليموت للرجل منا البعير، فيعطيه البعير، والعبد، فيعطيه العبد، ويحتاج إلىٰ النفقة، فيعطيه النفقة، فقالت: أما إنه لا يمنعني الذىٰ فعل في محمد بن أبىٰ بكر[3]، أخي، أن أخبرك ما سمعت من رسول الله ﷺ يقول في بيتىٰ هذا: «**اللهم! من ولي من أمر أمتي شيئًا فشق عليهم، فاشقق عليه، ومن ولىٰ من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم، فارفق به**»[4]، ولو ظلم وبغىٰ وتعدىٰ ولم يُقتصّ منه في الدنيا فإنّ هناك يومًا ينفرد الخالق بالملك فلا منازع له ولا معترض عليه، ويصبح الكلّ في قبضته وتحت سلطانه، وينادي الملوك الظلمة المتكبرين المتجبرين، الذين

= المخلوق وفساده، فنحمد الله ونثني عليه أن هيّأ لهذا البلد المبارك ولاة أمر مباركين، ساعين بالخير والأمن لرعيتهم.

(١) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب: من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، وفضل المساجد، رقم الحديث ٦٦٠، ص١٤١.

(٢) «اختُلِفَ في اسم هذا الصاحب، من هو؟ فقيل: كان عمروبن العاصي. قاله خليفةُ بن خَيَّاط. وقيل: معاويةُ بن حُدَيْج التَّجيبي، فيما قاله الهمداني» المرجع: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، ج١٢، ص٧٩.

(٣) تعني قتله لأخيها.

(٤) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، والحث علىٰ الرفق بالرعية، والنهىٰ عن إدخال المشقة عليهم، رقم الحديث ٤٧٢١، ص٨١٩.

نازعوا وتعدّوا: أين ملوك الدنيا؟ فلا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلًا[1]، فشتان بين الخالق الملك، الرحيم، العادل، وبين ملوك الخلق القساة، الظالمين.

وبهذا يظهر الفارق العظيم بين ملك الخالق التامّ الكامل وبين ملك المخلوق الناقص المعيب، وما ذكرناه هو جزء يسير مما تمّكن العقل الضعيف من بيانه، وإلا فالفارق أعظم بكثير.

(١) انظر: شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، للغنيمان، ط: ٣، ج١، ص١٠٧.

الفَصْلُ الثَّانِي

الفارق بين الخالق والمخلوق في الصفات الفعلية

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الفارق بين الخالق والمخلوق في صفة المحبة.

المبحث الثاني: الفارق بين الخالق والمخلوق في صفة الرحمة.

المبحث الثالث: الفارق بين الخالق والمخلوق في صفة الغضب.

المبحث الأول
الفارق بين الخالق والمخلوق في صفة المحبة

وفيه مطلبان:

المطلـــــب الأول: معنى صفة المحبة والأدلة على ثبوتها في حق الخالق والمخلوق.

وفيه أربعة مسائل:

المسألة الأولىٰ: معنىٰ صفة المحبة في اللغة.

المسألة الثانية: معنىٰ صفة المحبة في حق الخالق.

المسألة الثالثة: معنىٰ صفة المحبة في حق المخلوق.

المسألة الرابعة: الأدلة علىٰ ثبوت صفة المحبة في حق الخالق والمخلوق.

المطلــب الثـــاني: الفارق بين الخالق والمخلوق في صفة المحبة.

المطلب الأول

معنى صفة المحبة والأدلة على ثبوتها في حق الخالق والمخلوق

المسألة الأولى: معنى صفة المحبة في اللغة:

«الحاء والباء أصول ثلاثة، أحدها اللزوم والثَّبات»(١)، وهي كلمة مشتقة من قولنا: أحبّه إذا لزمه؛لأن المحب يلزم حبيبه ما أمكن(٢)، و«الحُبُّ نَقِيضُ البُغْضِ. والحُبُّ الودادُ والمَحَبَّةُ»(٣).

وتَحَبَّبَ إِليه بمعنىٰ تَودَّدَ(٤)، وحَبَبْتُ فلانًا بمعنىٰ: أصبت حبّة قلبه، كقولنا: شغفته وكبدته وفأدته(٥).

والحِبُّ أي المَحْبُوبُ وكانوا يسمّون زَيْد بن حارِثةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ حِبَّ رَسولِ اللّه ﷺ(٦).

المسألة الثانية: معنى صفة المحبة في حق الخالق:

- صفة المحبة من الصفات الفعلية:

المحبة من الصفات الفعلية للخالق، فمن شاء أحبه ومن لم يشأ لم يحبه، فهو يحبّ التوابين، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وإنما يحبّهم بعد أن يتوبوا

(١) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، ج١، ص٢٧٥، مادة: حب.

(٢) انظر: البحر المحيط، لأبي حيان، ج١، ص٦٤٤، مادة: حب.

(٣) لسان العرب، لابن منظور، ج٣، ص٧، مادة: حب.

(٤) انظر: المرجع السابق.

(٥) انظر: مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، ص٢١٤، مادة: حب.

(٦) انظر: لسان العرب، لابن منظور، ج٣، ص٧، ٨.

والتوبة تكون بعد الذنب[1]، فليست المحبة صفة لازمة له ـ سبحانه.

- **معنى صفة المحبة:**

وقد ذكر العلماء تعريفات كثيرة للمحبة، بيّنها الإمام ابن القيم في كتابه "مدارج السالكين" ولكن كما ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنّ كلّ هذه التعريفات والحدود لا تزيدها إلا خفاءً وجفاءً، ولا يوجد حدّ لها أوضح من نفس كلمة المحبة، وكلّ ما ذكروه في تعريفاتهم يعود لأسبابها، وموجباتها، وعلاماتها، وشواهدها، وثمراتها، وأحكامها[2].

وهو نفس ما ذهب إليه الحافظ ابن حجر حيث قال: «وحقيقة المحبة عند أهل المعرفة من المعلومات التي لا تحد وإنما يعرفها من قامت به وجدانًا لا يمكن التعبير عنه[3]»[4].

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير**»[5]، فدلّ الحديث أن الخالق يوصف بالمحبة وأن محبته حقيقيّة، وأنه يحبّ مقتضى أسمائه وصفاته، فهو القوي ويحبّ من عباده الأقوياء، وهو العليم ويحب من عباده العلماء، ومحسن ويحب المحسنين وهكذا، ودلّ الحديث أيضًا على أن محبته للمؤمنين تتفاضل فيحب بعضهم أكثر من بعض[6].

---

(١) انظر: النبوات، لابن تيمية، ج١، ص٣٥٧.

(٢) انظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيم، ج٣، ص٤٣٦.

(٣) مع أنّ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يأوّل صفة المحبة للإرادة، إلا أنه هنا جعل حقيقتها لا يمكن أنّ نعبّر عنها، وقد يكون مراده محبة المخلوق لخالقه، وسياق الكلام يحتمل الأمرين، والله أعلم.

(٤) فتح الباري، لابن حجر، ج١٠، ص٥٦٨.

(٥) سبق تخريجه، ص٢٣٤.

(٦) انظر: شفاء العليل، لابن القيم، ص٤٨.

اعتقاد أهل السنة والجماعة في صفة المحبة واعتقاد المخالفين:

المحبة إما أن تكون من الخالق للمخلوق أو العكس، وأهل السنة والجماعة يثبتون الأمرين، فهو يُحِبّ ويُحَبّ، وهذا معنىٰ اسم الله الودود، فهو متضمن لصفة المودة، والمودّة هي خالص المحبة(١)، قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في قوله: (الودود)، قال: الحبيب(٢)، وقد يُراد به المعنيان؛ أنّه يُحِبُّ، ويُحَبُّ؛ فإنّ الخالق يُحب الذين يحبونه، وأولياؤه يُحبهم ويُحبُّونه(٣).

ويثبتون صفة المحبة كما جاءت، من غير تحريف، ولا تعطيل، ومن غير تكييف، ولا تمثيل، فيثبتون له محبة حقيقية تليق بعظمته وجلاله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهذه المحبة حق كما نطق بها الكتاب والسنة، والذي عليه سلف الأمة وأئمتها وأهل السنة والحديث وجميع مشايخ الدين المتّبعون، وأئمة التصوف أن الله سبحانه محبوب لذاته محبة حقيقية؛ بل هي أكمل محبة فإنها كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ﴾ [البقرة: ١٦٥] وكذلك هو سبحانه يحب عباده المؤمنين محبة حقيقية»(٤).

ويعتقدون أن المحبة صفة زائدة علىٰ الرحمة والإحسان والعطاء، فإن هذه الصفات هي أثر لمحبة الخالق فمن يحبّه يرحمه ويحسن إليه ويبرّه، قال الإمام ابن القيم: «محبة العبد لربه فوق كل محبة تقدر؛ ولا نسبة لسائر المحاب إليها، وهي حقيقة "لا إله إلا الله" وكذلك عندهم محبة الرب لأوليائه وأنبيائه ورسله، صفة زائدة علىٰ رحمته، وإحسانه وعطائه، فإن ذلك أثر المحبة وموجبها، فإنه لما أحبهم كان نصيبهم من رحمته وإحسانه وبره أتم نصيب»(٥).

---

(١) انظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيم، ج٣، ص٤٦٦.

(٢) رواه البخاري، كتاب التفسير، سورة البروج، رقم الباب٨٥، ص٩٧٨.

(٣) انظر: النبوات، لابن تيمية، ج١، ص٣٦١.

(٤) مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج١٠، ص٦٦.

(٥) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيم، ج٣، ص٤٥٠.

وأما أهل الكلام فينفون محبة الخالق للمخلوق، ومحبة المخلوق للخالق، أو ينفون أحدهما[1]؛ ولهذا فهم يؤولون محبة الخالق للمخلوق بالإرادة، أي: ارادة أن ينفعهم ويكرمهم ويحسن إليهم، أو يؤولونها بنفس التنعيم والإكرام والإحسان، ويؤلون محبة المخلوق للخالق بمحبة الاستقامة على الطاعة[2]، وقولهم مخالف للأدلة العقلية والنقلية والفطرية[3].

ومما يستدلون به على وجوب التأويل أن المحبة تقتضي أن يكون هناك مناسبة بين الطرفين وهذا منتفي بين الخالق والمخلوق، والحقيقة أن هذا كلام مجمل، فإذا كان المقصود بالمناسبة أن يكون مماثلًا أو ولدًا له فهذا مما ينزّه عنه الخالق، وإذا كان المقصود أن يكون المحبوب فيه صفات يُحبها المحِبّ فهذا من لوازم المحبة، والخالق فيه كلّ صفةٍ تُحَبّ وكلّ ما يُحبّ فإنّما هو منه، فهو الجواد، المحسن، العزيز، الرحيم، الغفور، الودود، المجيد، وكلها صفات تستلزم أن نحبه وأن نقدم محبته على جميع المحابّ[4]، فأهل السنة والجماعة وسط لا غلو ولا جفاء، فلا يغلون في إثبات المحبة حتى يشبهونها بمحبة المخلوق للمخلوق من العشق والوله ونحو ذلك، ولا جفاء فيها بحيث ينفونها عن الخالق ويؤولونها.

المسألة الثالثة: معنى صفة المحبة في حق المخلوق:

- **معنى صفة المحبة:**

الحبّ عند المخلوق عبارة عن قوة محلّها القلب، وهذه القوة تحرّك إرادة المخلوق

(١) انظر: النبوات، لابن تيمية، ج١، ص٣٦٥، ٣٦٦.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٣٥٨، ٣٥٩، وفتح الباري، لابن حجر، ج١٣، ص٤٣٧.

(٣) وقد ردّ أهل العلم عليهم، وليس المقام هنا مقام الردّ على شبههم وإبطال قولهم فمن أراده يمكنه الرجوع لمواطنه، وممن بيّن ذلك، ابن تيمية، في كتابه قاعدة في المحبة، وابن قيم الجوزية، في كتابه روضة المحبين.

(٤) انظر: النبوات، لابن تيمية، ج١، ص٣٢٥.

لكي يحصّل ما يحبّ ويدفع ما يكره؛ فإن كان محبوبًا مالت نفسه إليه وإن كان مكروهًا نفرت نفسه عنه(١)، وهذا يتوقف على الإدراك الفطري أو المكتسب؛ فلا يحبّ شيئًا إلا نتيجة لمعرفته به، وكلّما كان أكثر علمًا به كان أشد حبًا له، وكذلك العكس(٢).

ولهذا كانت محبة المخلوق لخالقه نتيجة لِمَا يعلمه من إحسانه إليه وكثرة عطاياه وإنعامه عليه(٣)، ولِمَا يعلمه من صفات كماله ونعوت جلاله وجماله، ومحبته له أحلى وألذّ له من غيرها من المحبوبات؛ فلا صلاح ولا فلاح له إلا بمحبة خالقه، والتي هي روح العبودية(٤).

والمحبة في حقّ المخلوق تكون من المخلوق لخالقه، وهي أعظم المحابّ وأعلاها وأسماها، وتكون من المخلوق للمخلوق، وأقسام النوعين كما يلي:

أولًا: المحبة الشرعية وهي أنواع منها:

- المحبّة التعبدية وهذه لا تكون إلا من المخلوق إلى الخالق، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ١٦٥].

- محبّة من يحبّه الخالق، كحبّ المؤمنين للرسول ﷺ ولعباده الصالحين، جاء في صحيح البخاري عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار**»(٥).

- محبّة ما يحبه الخالق كمحبة مغفرة الله لعبده، قال تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج١٠، ص١٩٢.

(٢) انظر: محبة الرسول بين الاتباع والابتداع، عبد الرءوف محمد عثمان، ص٣٧.

(٣) انظر: شأن الدعاء، للخطابي، ص ٧٤.

(٤) انظر: توضيح الكافية الشافية، للسعدي، ص ١٩٤.

(٥) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب: حلاوة الإيمان، رقم الحديث ١٦، ص٢٦-٢٧.

وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، والجهاد في سبيله، قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

ثانيًا: المحبّة الطبيعية: كمحبة الأزواج بعضهم لبعض، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً﴾ [الروم: ٢١]، وحبّ الأب لابنه، وحبّ الأموال، وحبّ شهوات وملذّات الحياة الدنيا عمومًا، قال تعالىٰ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

ثالثًا: المحبة المحرمّة: كمحبة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [يوسف: ٣٠]، ومحبة المؤمنين لأهل الكفر كقوله تعالىٰ: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ﴾ [آل عمران: ١١٩]، ومحبة الكفر علىٰ الإيمان، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣]، ونحو ذلك من المحابّ المحرمة.

رابعًا: المحبة الشركية للأنداد من أصنام أو رؤساء وغيرهم، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فهذه تقريبًا أنواع المحابّ المذكورة في القرآن، وكما يظهر لي فإنها لا تخرج عنها.

المسألة الرابعة: الأدلة على ثبوت صفة المحبة في حق الخالق والمخلوق:

- **الأدلة على صفة المحبة في حق الخالق:**

أولًا: الدليل من الكتاب:

١-قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٤].

٢-وقوله: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

ثانيًا: الدليل من السُّنَّة:

١ ـ حديث سهل بن سعد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: قال: قال النبي ﷺ يوم خيبر: «**لأعطين الراية غدًا رجلًا يفتح علىٰ يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله**»(١).

٢ ـ حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الله يحب العبد التقيّ، الغنيّ، الخفيّ**»(٢).

- **الأدلة علىٰ صفة المحبة في حق المخلوق:**

أولًا: الدليل من الكتاب:

١ ـ قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

٢ ـ وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

ثانيًا: الدليل من السُّنَّة:

١ ـ جاء في صحيح البخاري عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «**ثلاث من كن فيه**

(١) رواه: البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب: فضل من أسلم علىٰ يديه رجل، رقم الحديث٣٠٠٩، ص٥٧٦.

(٢) رواه مسلم، كتاب الزهد، باب الدنيا سجن للمؤمن وجنة للكافر، رقم الحديث ٧٤٣٢، ص١٢٨٥.

وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»[١].

٢ ـ وعن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله**»[٢].

(١) سبق تخريجه، ص٣٢٧.

(٢) رواه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب: حب الأنصار، رقم الحديث ٣٧٨٣،ص٧٢٠.

المطلب الثاني

الفارق بين الخالق والمخلوق في صفة المحبة

صفة المحبة من الصفات المشتركة بين الخالق والمخلوق، وقد ذكرنا طرفًا من الأدلة في ذلك، وأقوال أهل العلم في تقرير ثبوتها علىٰ الحقيقة في حق الخالق والمخلوق، وكما سبق وذكرنا أن هذا الاشتراك لا يلزم منه التماثل؛ فلكلّ ما يليق به، فللخالق محبة تليق بكمال صفاته وجلالها وجمالها، وللمخلوق محبة تليق بنقصه وضعفه.

وهذا القدر المشترك في صفة المحبة إنما هو ثابت في الذهن فقط، وهذا المعنىٰ يفهمه كلّ شخص دون لازم لتعريفه، وقد مرّ معنا أن كلّ التعريفات المذكورة ليست إلا بيانًا لموجبات المحبة ومقتضياتها، والمعنىٰ العام لهذه الصفة معلومة بالضرورة عند كلّ أحد، وهذا القدر المشترك من المعنىٰ إنما يُقصد به المعنىٰ العام للمحبة دون إضافة إلىٰ معين، أما حين نضيفها إلىٰ الخالق أو إلىٰ المخلوق فهنا يحصل التباين والمفارقة فمحبة الخالق تفترق عن محبة المخلوق، ولكل منها لازم يخصّه.

والمقصود أن صفة المحبة من الصفات المشتركة التي يلزم منها لوازم، وهي علىٰ ثلاثة أنواع:

١ ـ لوازم بصرف النظر عمّن أضيفت إليه صفة المحبة: وهو المعنىٰ العام لهذه الصفة مما يضاد الكره والبغض، وهذا القدر مشترك بين الخالق والمخلوق وهو ثابت في الأذهان فقط كما ذكرنا؛ ولهذا جاء ثبوت هذه الصفة في حق الخالق والمخلوق في سياق واحد مما يُشعر بهذا القدر المشترك، كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

٢ ـ لوازم عند إضافة صفة المحبة للخالق ومنها: أنه يُحب مع الاستغناء عمّن أحبه، وأنّه يُحب من يستحق أن يُحب وهو أهل لهذه المحبة.

٣ ـ لوازم عند إضافة صفة المحبة للمخلوق ومنها: أنه يُحب لأنه محتاج لغيره، وأنّه قد

يمنح محبته لمن لا يستحقها.

واللازم عند الإضافة هو الذي يظهر فيه الفرق بين الخالق والمخلوق في صفة المحبة، ومن الفروقات بين الخالق والمخلوق ما يلي:

الفرق الأول: الفرق في المصدرية:

الخالق يوجد محبته ومحبة غيره من الأشخاص والأشياء في قلوب عباده، والمخلوق لا يمكنه ذلك.

والمراد أن الخالق سبحانه هو من خلق الخلق وخلق لهم هذه القلوب التي تسكنها المحبة فهي ملك له وتحت تصرفه، والمخلوق بكليته تحت تصرف الخالق ومشيئته؛ ولهذا فإن الخالق هو من يلقي المحبة في قلوب العباد، فيجعل بعض الخلق محبين له مقبلين عليه، ويمنع البعض عن هذه المحبة فيقدّمون محبة غيره عليه، وكذلك هو من يُحبّب لهم بعض عباده ويبغّض لهم آخرين، ويحبّب لهم بعض الأماكن ويبغّض لهم غيرها، ويحبّب لهم بعض الأفعال ويبغّض لهم غيرها، وهكذا كل ما تعلق بالمحبة والبغض، فإنه بيده وتحت تصرفه وفق علمه وحكمته، وقد دلّت الأدلة الشرعية على هذه المسألة، وهي كثيرة جدًا، منها قوله تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ٣٩﴾ [طه: ٣٩]، فيخبر الله ـ جل وعلا ـ أنه قد حبّب موسى إلى عباده فجعلهم يحبونه بحيث لا يراه أحد إلا أحبه(١)، مع حرص فرعون على عدم محبة الناس لموسى وتنفيرهم منه واتهامه له بالتهم العديدة؛ إلا أن المخلوق لا يملك قلوب الناس، فقد اتبع بنو إسرائيل نبي الله موسى وآمن معه خلق كثير حتى أخبر ﷺ أنه رأى يوم القيامة من آمن معه فرأى سوادًا عظيمًا لكثرة أتباعه، جاء في صحيح البخاري، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال رسول الله ﷺ: «**عُرضت علي**

(١) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٦، ص٥٨، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (ج٥، ص٢٨٤)، و(ج٦، ص٢٢٢).

الأمم جعل النبي والنبيان يمرون معهم الرهط، والنبي ليس معه أحد، حتىٰ رفع لي سواد عظيم، قلت: ما هذا؟ أمتي هذه؟ قيل: هذا موسىٰ»(١).

وكذلك الحال مع نبينا محمد ﷺ فقد كانت القلوب تقبل عليه وتهفو لسماع حديثه، حتىٰ أن من يبغضه ويتمنىٰ موته ينقلب بغضه حبًا حين يراه، جاء في صحيح البخاري عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: جاءت هند بنت عتبة، قالت: «يا رسول الله، ما كان علىٰ ظهر الأرض من أهل خباء أحب إلي أن يُذلّوا من أهل خبائك، ثم ما أصبح اليوم علىٰ ظهر الأرض أهل خباء أحب إلي أن يُعزّوا من أهل خبائك»(٢)، هذا مع حرص قريش علىٰ تنفير النّاس منه وتبغيضه في قلوبهم.

وليس الأمر قاصرًا علىٰ الأنبياء، بل وعد الخالق عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن يغرس لهم محبة في قلوب عباده الصالحين من أهل السماء والأرض في الدنيا، وهو وعد لا محيد عنه، وبه يحصل لهم الخير الكثير(٣)، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم: ٩٦]، قال هرم بن حيان: «ما أقبل عبد بقلبه إلىٰ الله، إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه، حتىٰ يرزقه مودتهم ورحمتهم»(٤)، فيحمدونه ويثنون عليه دون أن يكون له سعي في ذلك، وهذا من عاجل بشرىٰ المؤمن(٥)، كما أخبر بذلك ﷺ فعن أبىٰ ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قيل لرسول الله ﷺ: أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير،

(١) رواه البخاري، كتاب الطب، باب من اكتوىٰ أو كوىٰ غيره، وفضل من لم يكتو، رقم الحديث ٥٧٠٥، ص١١١٩.

(٢) رواه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب: ذكر هند بنت عتبة بن ربيعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، رقم الحديث ٣٨٢٥، ص٧٢٦.

(٣) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٥، ص٦٤٢، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٥، ص٢٦٧، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٥٠١.

(٤) جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٥، ص٦٤٣، ٦٤٤.

(٥) انظر: شرح صحيح مسلم، للنووي، ج١٦، ص٤٠٥.

ويحمده الناس عليه؟ قال: «**تلك عاجل بشرىٰ المؤمن**»[1].

فمن أحبّه الخالق فلا بدّ أن يلقي محبته في قلوب عباده، ويجعل له قبولًا عندهم فيميلون له ويرضون عنه[2]، ويبقىٰ ذكره في الناس يمدحونه ويثنون عليه[3]، جاء في صحيح مسلم، عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله إذا أحب عبدًا، دعا جبريل عليه السلام فقال: إني أحب فلانًا فأحبه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، قال: ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبدًا دعا جبرئيل فيقول: إني أبغض فلانًا فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلانًا فأبغضوه، قال: فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض**»[4]. فالمحبة والبغض من عنده تعالىٰ[5].

وقد عنون البخاري رَحِمَهُٱللَّهُ في صحيحه (باب المِقَة من الله تعالىٰ)، والمِقَة هي المحبة[6]، وعن أبي أمامة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن المِقَة من الله**» ـ قال شريك: هي المحبة والصّيت من السماء[7].

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب إذا أثني علىٰ الصالح فهي بشرىٰ ولا تضره، رقم الحديث ٦٧٢١، ص١١٥١.

(٢) انظر: فتح الباري، لابن حجر، ج١٠، ص٥٦٨.

(٣) انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، للعيني، ج١٥، ص١٨١.

(٤) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب إذا أحب الله عبدًا، أمر جبرئيل فأحبه وأحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، رقم الحديث ٦٧٠٥، ص١١٤٨.

(٥) انظر: شرح صحيح البخارىٰ، لابن بطال، ج٣، ٣٥٠.

(٦) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، للعيني، ج٢٢، ص١٩٠، والنهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، ج٤، ص٣٤٨.

(٧) رواه أحمد في مسنده، رقم الحديث ٢٢٢٧٠، ج٣٦، ص٦٠٣، وصححه ابن حبان، وقال الهيثمي: رجاله وثقوا، وقال الأرناؤوط: صحيح لغيره.

وقال رسول الله ﷺ: «**إذا أراد الله بعبد خيراً، عَسَلَه**»، قيل: وما عَسْلُه؟ قال: «**يفتح الله له عملاً صالحًا قبل موته، ثم يقبضه عليه**»(١)، ولفظ " عسّله " مأخوذ من العسل فشبّه ما رزقه الله من العمل الصالح بالعسل الذي في الطعام(٢)، وقيل معنىٰ عسّله: أي جعل له ثناءً طيبًا بين الناس(٣)، فيرضون عنه، وكلا المعنيين صحيح، فإنّه إذا رزقه العمل الصالح أقبل النّاس عليه بالثناء.

بل هو قادر سبحانه علىٰ قلب العداوة في القلوب إلىٰ محبة ومودة، فهو من يلقي المحبة في القلوب ويؤلف بينها؛ ولهذا امتن الله علىٰ الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ بذلك فقال تعالىٰ: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، فأخبر أنّه هو وحده الذي ألّف بين قلوب المؤمنين، فجعل القلوب متحابة متآلفة، بعد العداوة والبغضاء.

بل وفعل ذلك مع أشد منهم عداوة ونفرة، فقال تعالىٰ: ﴿۞ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَاللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ٧]، فأخبر سبحانه أنه سيجعل بين المؤمنين وبين أعدائهم من كفار قريش محبة بعد البغض، ومودة بعد النفور، وألفة بعد الفرقة، وتحقق هذا الوعد بأن أسلموا فصاروا أحبابًا لهم، قال: ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ أي وهو قدير علىٰ ذلك من جمع المتنافرين والمتباينين والمختلفين، قادر علىٰ تقليب القلوب في أي وقت(٤).

(١) رواه أحمد في مسنده من حديث أبي عنبة، رقم الحديث ١٧٧٨٤، ج ٢٩، ص٣٢٣، قال الهيثمي: فيه بقية وقد صرح بالسماع في المسند وبقية رجاله ثقات، وصححه الألباني، وقال الأرناؤوط: صحيح لغيره.

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، ج٣، ص٢٣٧.

(٣) انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير، ج١، ص٣٣٠.

(٤) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٢، ص٥٧٠، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٨، ص٨٩، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٨٥٦.

وليس الأمر قاصرًا على الأشخاص، بل حتى الأعمال، فهو من حبّب الإيمان وحسّنه في بعض قلوب عباده المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧]، فحبّب الإيمان للمؤمنين بما أودعه في قلوبهم من حبّ للحق وإيثاره على ما سواه، وبما وضعه من شواهد دالّة على الحق وعلى صحته، وبما جعل من قبول القلوب والفطر لهذا الحق، وبما يضعه في القلوب من توفيق للإنابة[1]، ولهذا كان ﷺ يدعو بهذا الأمر فكان يقول: «**اللهم حبب إلينا الإيمان، وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين**»[2]، لعلمه أنّ المحبّة بيد الخالق وحده.

وكذلك الأمر بالنسبة لمحبة الأماكن، فقد كانت مكة أحب البقاع إلى النبي ﷺ وصحابته الذين هاجروا معه إلا أنه دعا ربه أن ينزل في قلوبهم حبّ المدينة، وقد استجاب الله دعاءه فكانت أحبّ إليه من مكة[3]، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال النبي ﷺ: «**اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة أو أشد، وانقل حماها[4] إلى الجحفة، اللهم بارك لنا في مدنا وصاعنا**»[5].

وأعظم من هذا كلّه أنه يلقي محبته في قلوب عباده، فمن أراد الله به الخير ألقى في قلبه محبته فهي هبة منه وبيده؛ ولذا كان ﷺ يدعو الله أن يرزقه حبه، وحبّ من يحبّه، وحبّ كل عمل يقرّب إلى حبه، فشمل الدعاء كل محبة، سواء لله أو للناس أو للأشياء، عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**كان من دعاء داود يقول: اللهم إني أسألك حبك، وحب**

(١) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج٢١، ص٣٥٦، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٨٠٠.

(٢) رواه أحمد في مسنده، رقم الحديث ١٥٤٩٢، ج٢٤، ص٢٤٧، قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، وقال الأرناؤوط: رجاله ثقات، وصححه الحاكم.

(٣) انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، للقاري، ج٥، ص٦٢٧.

(٤) أي الحمى.

(٥) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب: الدعاء برفع الوباء والوجع، رقم الحديث ٦٣٧٢، ص١٢٢٤.

من يحبك، والعمل الذي يبلغني حبك، اللهم اجعل حبك أحب إلي من نفسي وأهلي، ومن الماء البارد»(١).

قال الإمام ابن القيّم في نونيته:

وهــو الــودود يحــبهم ويحبــه	أحبابـــه والفضـــل للمنـــان
وهـذا الـذي جعـل المحبـة في قلـو	بهــم وجــازاهم بحــب ثـــان
هــذا هــو الإحســان حقًــا لا معــا	وضـــة ولا لتوقـــع الشـــكران(٢)

فهـو لا ينتظـر العـوض مـنهم ولا الشـكر، وإنمـا يلقـي المحبـة في قلـوبهم تفضـلًا(٣)، فسبحان من أودع في قلوب المؤمنين محبتـه، ثـم نمّاهـا وقواهـا في قلـوبهم حتىٰ باتـت جميع المحابّ حقيرة عندها، وتسلّوا بها عن أحبابهم الذين فقدوهم، وعمّـا يصيبهم مـن مصائب، وتلذّذوا بالطاعات ولـو شـقّت عليهم، وأثمرت لهـم جميع الكرامـات، وأفضـلها محبـة الله والفوز برضاه ودخول جنته(٤).

وأما المخلوق فالمحبـة ليست بيده ولا يملكهـا، ولا يمكـن لشـخص أن يجلـب محبـة الآخرين له لو لم يرد الخالق ذلك، ولو فعل ما فعل، ولو بذل من أسباب المحبة والمـودة مـا بذل، ولو كانت المحبة بيد المخلوق لكانت امرأة العزيز قد جعلتها في قلـب يوسـف ـ عليـه السلام ـ لكنها كما وصـفها القـرآن: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: ٣٠]، أي أن حـبّ يوسـف عليه السلام قـد وصـل إلىٰ شـغاف قلبهـا حتىٰ غلـب عليهـا(٥)، ومـع ذلـك فلـم تـتمكن مـن استمالة قلبـه، قـال تعـالىٰ عنـه: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الدعوات، رقم الحديث ٣٤٩٠، ص٧٩٢، وقال: حديث حسن غريب.

(٢) الكافية الشافية، لابن القيم، ط: ٢، ص١٧٩.

(٣) شرح الكافية الشافية، لابن عثيمين، ج٣، ص١٧١.

(٤) الحق الواضح المبين، للسعدي، ص ٦٩ – ٧٠.

(٥) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٣، ص١١٥.

﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]، فاستعاذ بربه أن يميل إليهن لعلمه أن القلوب بيد الخالق لا المخلوق، وقد استجاب له ربه، قال تعالىٰ: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٤]، فهذا دليل علىٰ عدم محبته لها مع حرصها علىٰ حصول ذلك.

وحين أراد أبو هريرة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ أن يكون له محبة في قلوب الناس ـ هو وأمه ـ طلب من الرسول ﷺ أن يدعو الله بذلك ولم يطلبه منه ﷺ؛ لعلمه أن هذه المحبة إنما هي بيد الخالق وحده ليست في يده ولا يد رسوله ﷺ جاء في صحيح مسلم عن أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «قلت: يا رسول الله! ادع الله أن يحببني أنا وأمي إلىٰ عباده المؤمنين، ويحببهم إلينا، قال: فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم! حبب عُبَيدك هذا ـ يعني أبا هريرة وأمه ـ إلىٰ عبادك المؤمنين، وحبب إليهم المؤمنين**» فما خُلق مؤمن يسمع بي، ولا يراني إلا أحبني»(١)

وفي قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣] دلالة علىٰ أن المحبة ليست بيده ﷺ فلو أنفق ما في الأرض لإيجاد هذه المحبة والألفة في القلوب لما أمكنه ذلك، فكيف بغير رسول الله ﷺ.

وكان ﷺ يعدل بين نسائه إلا أنه كان يقرّ بأن المحبة القلبية أمر لا يملكه ولا يد له فيه، وإنما هو بيد الخالق وحده روت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم فيعدل، ويقول: «**اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك**». قال أبو داود: يعنىٰ القلب»(٢)،

---

(١) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي هريرة الدوسي، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم الحديث ٦٣٩٦، ص١٠٩٧.

(٢) رواه أبو داود، كتاب النكاح، باب في القَسْم بين النساء، رقم الحديث ٢١٣٤، ص٣٧٠، قال ابن حجر في تخريج أحاديث الهداية: قال: الترمذي أرسله حماد بن زيد وهو أصح، وقال الدارقطنىٰ: أرسله أيضا عبد الوهاب وابن علية وهو أولىٰ، وصححه أحمد شاكر، وضعفه الألباني.

فالمراد به المحبة والمودة كما فسّرها العلماء[1]، قال ابن بطال في شرحه للحديث: «والذى سأل ربه ألا يلومه فيه ما كان لا يملكه من نفسه، هو ما جبلت عليه القلوب من الميل بالمحبة إلىٰ من هويته. وذلك مما لا سبيل للعباد إلىٰ خلافه ودفعه عنه، وهو المعنىٰ الذى أخبر عنه تعالىٰ أنهم لا يطيقونه من معانىٰ العدل بين النساء، فعلم بذلك أن كل ما كان عارضًا لقلب ابن آدم من شيء مال إليه بالمحبة والهوىٰ مما لم يجتلبه المرء إليه باكتساب ولم يتجاوز به العارض منه في قلبه إلىٰ ما يكرهه الله ولا يرضاه من العمل بجوارحه، فلا حرج عليه فيه ولا تبعة تلحقه فيه فيما بينه وبين الله بسبب ما عرض له من فرط هوىٰ وصبابة نفس. قال ابن حبيب: ولما كان القلب لا يملك ولا يستطاع العدل فيه وضع الله عن عباده الحرج في ذلك، قال تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]»[2].

والمقصود من هذا كلّه بيان الفارق في صفة المحبة بين الخالق والمخلوق، حيث تقرر الفرق العظيم بين من يزرع محبته في القلوب وهي بيده، وبين من لا يملك من أمر قلبه فضلًا عن غيره شيئًا.

الفرق الثاني: الفرق في الدوام:

الخالق حبّه للمؤمن المقبل علىٰ خالقه دائم لا يتبدّل، والمخلوق حبّه متقلب.

العبد المقبل علىٰ خالقه والمستقيم علىٰ طاعته يحبه الخالق، ولا يمكن أن تتغير محبته له ولا تنقص بل تزيد بزيادة الإقبال، جاء في الحديث القدسي الذي رواه البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله قال: من عادىٰ لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه،**

(١) فتح الباري، لابن حجر، ج٩، ص٣٨٩.

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال، ج٧، ص٢٧٩.

وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته»(1).

فالخالق سبحانه كامل الصفات له من صفات الجمال والكمال الموجبة لمحبته لعباده المؤمنين؛ فلا يمكن أن يبغض عبده المقبل عليه والمحبّ له دونما سبب موجب، بل وكما هو معلوم فالمخلوق خطاء بطبعه وجبلته، فيخطئ في حق خالقه، إما بتعد لحدوده أو بتقصير في حقه؛ فإذا تاب وندم فرح الخالق بتوبته، وتاب عليه، وأعاد له محبته، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فصرّح بمحبته لمن يتوب من ذنوبه ويرجع عن معصيته، وأن هذا ديدنه مهما تكرر غشيان العبد للذنب، فأتىٰ بصيغة المبالغة «التوابين» التي تعني كثرة التوبة(2)، وكما في قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٤]، قال السعدي: «وفي هذا سر لطيف، حيث قرن «الودود» بالغفور، ليدل ذلك علىٰ أن أهل الذنوب إذا تابوا إلىٰ الله وأنابوا، غفر لهم ذنوبهم وأحبهم، فلا يقال: بل تغفر ذنوبهم، ولا يرجع إليهم الود، كما قاله بعض الغالطين.

بل الله أفرح بتوبة عبده حين يتوب، من رجل له راحلة، عليها طعامه وشرابه وما يصلحه، فأضلها في أرض فلاة مهلكة، فأيس منها، فاضطجع في ظل شجرة ينتظر الموت، فبينما هو علىٰ تلك الحال، إذا راحلته علىٰ رأسه، فأخذ بخطامها، فالله أعظم فرحًا بتوبة العبد من هذا براحلته، وهذا أعظم فرح يقدر. فلله الحمد والثناء، وصفو الوداد، ما أعظم بره، وأكثر خيره، وأغزر إحسانه، وأوسع امتنانه»(3).

بل قد تعود محبته له أكثر من ذي قبل لو عاد أفضل حالًا وامتثالًا، فالودّ والمحبة تكون حسب قرب العبد من خالقه بعد التوبة، فإن كان أقرب إلىٰ خالقه بعد التوبة وأطوع له منه

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب: التواضع، رقم الحديث ٦٥٠٢،ص١٢٤٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج١، ص٥٨٨، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص١٠٠، وتفسير القرآن العظيم، للعثيمين، ج٣، ص٨٢.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٩١٩.

قبل التوبة كانت محبة الخالق له أعظم، وإن كان أبعد كانت محبة الخالق أنقص فالجزاء من جنس العمل، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الكتاب والسنة يدل على أن الله يحب التوابين، ويفرح بتوبة التائبين، سواء كانوا عالمين بأن ما أتوه ذنباً أو لم يكونوا عالمين بذلك. ومن علم أن ما أتاه ذنباً ثم تاب فلا بد أن يبدل وصفه المذموم بالمحمود؛ فإذا كان يبغض الحق فلا بد أن يحبه، وإذا كان يحب الباطل فلا بد أن يبغضه. فما يأتي به التائب من معرفة الحق ومحبته والعمل به، ومن بغض الباطل واجتنابه هو من الأمور التي يحبها الله تعالىٰ ويرضاها، ومحبة الله كذلك بحسب ما يأتي به العبد من محابه، فكل من كان أعظم فعلا لمحبوب الحق كان الحق أعظم محبة له، وانتقاله من مكروه الحق إلىٰ محبوبه مع قوة بغض ما كان عليه من الباطل، وقوة حب ما انتقل إليه من حب الحق، فوجب زيادة محبة الحق له ومودته إياه ؛ بل يبدل الله سيئاته حسنات لأنه بدل صفاته المذمومة بالمحمودة فيبدل الله سيئاته حسنات، فإن الجزاء من جنس العمل. وحينئذ فإذا كان إتيان التائب بما يحبه الحق أعظم من إتيان غيره كانت محبة الحق له أعظم وإذا كان فعله لما يوده الله منه أعظم من فعله له قبل التوبة كانت مودة الله له بعد التوبة أعظم من مودته له قبل التوبة، فكيف يقال الودّ لا يعود»(1).

ومن المعلوم أن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا علىٰ الكفر والشرك والعصيان، ثم تابوا منها، وصاروا هم أفضل الأولياء بعد الأنبياء، فهو يحبهم محبة عظيمة، وتزيد هذه المحبة كلمّا تقربوا له(2)، وكذلك كلّ من تاب من ذنبه وأناب.

فإذا كان الخالق يعيد محبته لمن تعدّىٰ حدوده وارتكب نواهيه ثم تاب منها وأقبل عليه، فلا بدّ أن محبته لعبده المقبل عليه دائمة لا تتغير، وأما من لم يتب من ذنبه فهؤلاء حسب ذنوبهم.

---

(1) مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج١٠، ص٣٠٨، ٣٠٩.

(2) المرجع السابق، ص٣٠٥.

فلو كانت عن نفاق وكفر، فمثل هؤلاء لا يستحقون محبته أصلًا، ولو كانت هذه الذنوب دون ذلك فمحبته لهم لا تزول بالكلية وإنما تنقص، فإن عادوا وتابوا عادت لهم المحبة كما كانت، وقد أخبر ﷺ عن أحد الصحابة الذين كانوا يشربون الخمر أنه يحب الله ورسوله، وإذا كان يحبّ الله ورسوله فإن الله يحبّه، جاء في صحيح البخاري عن عمر بن الخطّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنّ رجلًا كان على عهد النّبي ﷺ كان اسمه عبد الله، وكان يلقّب حمارًا، وكان يضحك رسول الله ﷺ وكان النّبيّ ﷺ قد جلده في الشّراب، فأتي به يومًا فأمر به فجلد، فقال رجل من القوم: اللهمّ العنه، ما أكثر ما يؤتى به؟! فقال النّبيّ ﷺ: «**لا تلعنوه، فو الله ما علمت أنّه يحبّ الله ورسوله**»[(١)] قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والذنوب تنقص من محبة الله تعالى بقدر ذلك، لكن لا تزيل المحبة لله ورسوله إذا كانت ثابتة في القلب، ولم تكن الذنوب عن نفاق»[(٢)]، فإذا كانت الذنوب لا تُزيل محبة العبد لخالقه وإنما تنقص منها، فكذلك محبة الخالق لعبده لا تزول وإنما تنقص منها.

وأما المخلوق فمحبته إما أن تكون بسبب المشاكلة والمناسبة، وإما لحصول غرض من الأغراض، وكلاهما عرضة للزوال والتحول، فالأولى قد يعرض لصاحبها مانع أقوى من السبب فتزول، والثانية تزول عند انقضاء غرضه[(٣)]، قال الإمام ابن القيم: «فداعي المحبة وباعثها إن كان غرضا للمحبِّ؛ لم يكن لمحبته بقاء، وإن كان أمرًا قائمًا بالمحبوب سريع الزوال والانتقال؛ زالت محبته بزواله، وإن كان صفة لازمة؛ فمحبته باقية ببقاء داعيها، مالم يعارضه ما يوجب زوالها، وهو إما تغير حال في المحب، أو أذى من المحبوب، فإن الأذى إما أن يضعف المحبة، أو يزيلها»[(٤)].

(١) رواه البخاري، كتاب الحدود، باب: ما يكره من لعن شارب الخمر، وإنه ليس بخارج من الملة، رقم الحديث٦٧٨٠، ص١٢٩٤.

(٢) قاعدة في المحبة، لابن تيمية، ص١٤٠.

(٣) روضة المحبين، لابن قيم الجوزية، ص١٠٧.

(٤) المرجع السابق.

والواقع شاهد بذلك، فنحن نرىٰ كثيرًا ممن بينهم محبة ومودة يجري من أحدهم خطأ فيغضب الآخر لذلك ويهجره ويقاطعه، وقد يعتذر المخطئ ويحاول أن يعيد العلاقة بينهما فيرفض صاحبه، ومع مرور الوقت تنقلب هذه المحبة إلىٰ بغض والمودّة إلىٰ عداوة، بل قد تنقلب المحبة بغضًا دون خطأ اقترفه ولا جرم فعله؛ ولهذا ورد عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعًا قال: «أحبب حبيبك هونًا ما عسىٰ أن يكون بغيضك يومًا ما، وأبغض بغيضك هونًا ما عسىٰ أن يكون حبيبك يوما ما»(١).

وقد أخبرنا تعالىٰ أنه جعل بين الزوجين مودة ورحمة، قال تعالىٰ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١]، فنجد الزوجين بينهما من المحبة والمودة الشيء الكثير؛ لكن بعضًا منهم تعتري حياته شيء من المشكلات والمواقف فينقلب ذلك الحب بغضًا ويحصل الطلاق وكأن تلك المودة لم تكن بينهما يومًا من الأيام، وقد يحاول أحد الطرفين الاعتذار والرجوع إلا أن الطرف الآخر يأبىٰ ويمتنع.

ولو نظرنا إلىٰ بعض الأبناء كيف يحبون آباءهم وأمهاتهم وهم صغار ويتعلقون بهم أشدّ التعلق، ثم لمّا يكبرون يعقّونهم فتنقلب محبتهم لهم بغضًا وتعلقّهم بهم عقوقًا، دونما سبب موجب من الآباء، نسأل الله العافية والسلامة.

وانظر إلىٰ الأخلاء الأحباء الذين كانوا علىٰ الكفر والضلال في الدنيا كيف تنقلب محبتهم بغضًا وعداوة؛ لأنها لم تكن محبة لله(٢)، قال تعالىٰ: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ

---

(١) رواه الترمذي، كتاب البر والصلة عن رسول الله ﷺ باب ما جاء في الاقتصاد في الحب والبغض، رقم الحديث ١٩٩٧، ص٤٥٣، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه بهذا الإسناد إلا من هذا الوجه. وقد روي هذا الحديث عن أيوب بإسناد غير هذا ورواه الحسن بن أبي جعفر وهو حديث ضعيف أيضا بإسناده له عن النبي صلىٰ الله عليه و سلم والصحيح عن علي موقوف قوله، وقال الشيخ الألباني: صحيح.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٧٩٦.

عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧]، بل يتقطع حسرة وندامة علىٰ تلك المحبة التي صرفها له، قال تعالىٰ: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ [الفرقان: ٢٧، ٢٨]، قال الشيخ السعدي: «حبيبًا مصافيًا، عاديت أنصح الناس لي، وأبرهم بي، وأرفقهم بي، وواليت أعدىٰ عدو لي، الذي لم تفدني ولايته، إلا الشقاء والخسار والخزي والبوار»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، فانظر كيف انقلبت المحبة إلىٰ لعن وكفر.

ففرق كبير بين محبة المخلوق التي يكون فيها الهجر والقطيعة دونما سبب، والصدود دونما ذنب، وإبعاد لمن يتقرب ويُحب(٢)، فلا قرار لها ولا اطمئنان وقد تنقلب في أي وقت، وبين محبة الخالق التي تتنزه عن هذا كلّه.

الفرق الثالث: الفرق في صفات الكمال اللازمة:

١ ـ الفرق في الغنىٰ: الخالق يُحِبّ وليس له حاجة أو نفع بهذه المحبة، والمخلوق يُحِبّ لحاجة أو نفع(٣).

حين يحب الخالق المخلوق فهو ليس بحاجة إلىٰ هذه المحبة ولا تنفعه بصورة من الصور، بل هو لا يحتاج إلىٰ المخلوق نفسه فضلًا عن محبته.

قال ابن أبي العز رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن ولاية الخالق للمخلوق والمتضمنة محبته: «وهذه الولاية

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٥٨٢.

(٢) انظر: مجموع الفتاوىٰ، ج١٠، ص٨٦.

(٣) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم، ج٢، ص٦٠٥.

من رحمته وإحسانه، ليست كولاية المخلوق للمخلوق لحاجته إليه»(١)، قال تعالىٰ: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ [الإسراء: ١١١]؛ ولهذا كان من العجب أن يتودد الخالق لعبيده ويحبهم، فلا يزال يتحبب إليهم بالنعم ويتمقّتون إليه بالمعاصي(٢)، مع أنه غني عنهم وعن محبتهم.

ومن أسماء الخالق الدالّة علىٰ أنه لا حاجة له ولا نفع له من هذه المحبة اسم " الغني " ومعنىٰ الغني: هو الذي لا يحتاج إلىٰ أحد وكل أحد يحتاج إليه(٣)، فهو لا يحتاج محبة أحد، والمخلوق يحتاج إلىٰ محبة غيره.

قال الإمام الطبري في معنىٰ الغني أنه «الغني عن عبادتكم إياه، وعن خدمتكم، وعن غير ذلك من الأشياء منكم ومن غيركم»(٤)، ومنها المحبة.

فالخالق هو الغني الغنىٰ المطلق فلا حاجة له بغيره، وكل مخلوق مفتقر إلىٰ خالقه لا يستغني عنه طرفة عين؛ فللخالق مطلق الغنىٰ وكماله، وللمخلوق مطلق الفقر إلىٰ الله، وهو لم يخلق الخلق لحاجة، ولو شاء لما خلقهم، فهم كلهم فقراء إليه(٥).

وفقر المخلوق للخالق أمر ذاتي له لا انفكاك له عنه ولا علّة له أوجبت هذا الفقر، وكل ما يذكر من أسباب الفقر فهي أدلة علىٰ فقره وليست عللًا لذلك الفقر فما بالذات لا يعلل، وكذلك غنىٰ الخالق عن المخلوق أمر ذاتي له لا لأمر أوجب غناه(٦).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالفقر المطلق من كل وجه ثابت لذواتهم وحقائقهم من حيث

---

(١) شرح الطحاوية، لابن أبي العزّ، ج٢، ص١٤٨.

(٢) انظر: النبوات، لابن تيمية، ج١، ص٣٥٦٤.

(٣) انظر: لسان العرب، لابن منظور، ج٣، ص١٣٤.

(٤) جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٩، ص٣٥٢.

(٥) انظر: معارج القبول بشرح سلم الوصول، لابن القيم، ج١، ص٢٤٥.

(٦) انظر: طريق الهجرتين، لابن القيم، ص٢٨.

هي، والغنىٰ المطلق من كل وجه ثابت لذاته تعالىٰ وحقيقته من حيث هي، فيستحيل أن يكون العبد إلا فقيرًا، ويستحيل أن يكون الرب سبحانه إلا غنيًا، كما أنه يستحيل أن يكون العبد إلا عبدًا والرب إلا ربًا»(١).

وقال الشيخ السعدي: «فهو الغني بذاته، الذي له الغنىٰ التام المطلق، من جميع الوجوه والاعتبارات لكماله، وكمال صفاته، فلا يتطرق إليها نقص بوجه من الوجوه، ولا يمكن أن يكون إلا غنيًا»(٢).

فالخالق وإن كان يحبّ المخلوق حين يتقرب إليه بالطاعة، إلا أن المنتفع من هذه الطاعة هو المخلوق، فالخالق سيسدّده في أقواله وأفعاله وسيعطيه مسألته وسيعيذه من أعدائه، فليس بحاجة لهذه المحبة.

ومتىٰ ما أعرض المخلوق عن خالقه وتخلّىٰ عن محبته فهو غني عنه، وسوف يستبدله بخير منه، ممن يحبّهم ويحبّونه، قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: ٥٤].

والمقصود من هذا كلّه بيان غنىٰ الخالق فهو حين يحب المخلوق لا يحبه لحاجة أو لأنه ينتفع به؛ فهو الغني الذي لا يحتاج إلىٰ أحد وكل أحد يحتاج إليه.

---

(١) طريق الهجرتين، لابن القيم، ص٢٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٩٤٨.

وأما المخلوق فلا يحب أحدًا أو شيئًا إلا لحاجته إليه وللنفع الحاصل من ورائه، فقد فُطر على حبّ المال، كما قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]؛ لأنه يحتاج إليه وينتفع به، ويحب الرجل النساء والأبناء والذهب والفضة وغير ذلك من متاع الدنيا؛ لأنه يحتاج إلى هذه الأمور وينتفع بها، كما قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقد تكون المنافع والمصالح غير ماديّة بل معنويّة، فيحبّ من وافق هواه ورأيه، قال تعالى: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٣]، أي أنك لو وافقتهم في هواهم ورأيهم لأحبوك.

بل حتى المحبة في الله، وهي من أعظم أنواع المحابّ، لا تخلو من منفعة وحاجة؛ لأن المتحابّين في الله وإن كانا لا يريدان نفعًا دنيويًا، كما جاء عن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن من الإيمان أن يحب الرجل رجلاً لا يحبه إلا لله، من غير مال أعطاه، فذلك الإيمان**»[1]، إلا أن مرادهما النفع الأخروي، كما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «**سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله**»، وذكر منهم: «**ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه**»[2]، وغيرها من النصوص التي حثّت على الحب في الله بترتيب أجر أخروي.

وكذلك حين يحب المخلوق خالقه فهو ينتفع بمحبته في الدنيا والآخرة، وقد حذّر الخالق من تقديم محبة غيره عليه، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم الحديث ٧٢١٤، ج٧، ص١٨٠، حديث حسن، وقال الهيثمي: رجاله ثقات.

(٢) سبق تخريجه، ص٣١٩.

إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤]، فهذه الأجور المترتبة يستحضرها ويطلبها المخلوق، فالمحبة لله وفي الله مع كونها أعظم أنواع المحاب، إلا أنه يطلب من ورائها نفعًا؛ لأن المخلوق كما ذكرنا فقره ذاتي.

فهذا فرق واضح وجليّ بين من يُحب وهو محتاج مفتقر للمحبة منتظر للعوض وبين من يُحب وهو غني عنها لا ينتظر جزاء ولا شكورًا، قال الإمام ابن القيّم في نونيته:

وهــو الــودود يحــبهم ويحبـه	أحبابـــه والفضـــل للمنـــان
وهـذا الـذي جعـل المحبـة في قلو	بهــم وجــازاهم بحــب ثــان
هــذا هــو الإحســان حقًــا لا معــا	وضــة ولا لتوقــع الشــكران(١)

٢ ـ الفرق في الكمال: الخالق استحق المحبة لذاته ولكمال صفاته ولجميل إحسانه، والمخلوق أحبّه الخالق علىٰ نقص ذاته وصفاته.

الخالق له صفات الكمال وجميل الإحسان؛ فمحبته واجبة علىٰ كلّ أحد ولا يُحب لذاته إلا هو فهو مستحق للمحبة الخالصة الخاصة، والمخلوق ذاته وصفاته صفات ناقصة لا ينفك النقص عنه ولو بلغ ما بلغ، ومع ذلك فقد أحبّه الخالق تكرمًا منه وفضلًا.

وبيان ذلك أن أصل المحبة أي منشأها وسببها أمران: أولها: المحبة بسبب الإحسان، والنفوس مجبولة علىٰ محبة من أحسن إليها، والله هو المحسن علىٰ الحقيقة، المتفضل

(١) الكافية الشافية، لابن القيم، ط: ٢، ص١٧٩.

بكل أنواع النعم، والمخلوق مجرد واسطة وسبب يوصل هذه النعم لنا، والأمر الآخر: المحبة للذات ولكمال الصفات. والخالق سبحانه أسماؤه كلّها حسنىٰ، وصفاته كلّها صفات كمال، وأفعاله لا تخرج عن الحكمة والعدل، وذاته لا يدرك كمالها إلا هو، فكمال أفعاله يدل علىٰ كمال صفاته، وكمال صفاته، يدل علىٰ كمال ذاته وبهذا استحق أن يحب لذاته ويحب لصفاته وأفعاله ويحب لإحسانه. وهذه هي أسباب المحبة، وكلما كانت هذه الأسباب أكمل كانت المحبة أتم، فإذا علم العبد ذلك وأنه لا محسن علىٰ الحقيقة إلا الخالق، ولا منعم بأصناف النعم الظاهرة منها والباطنة إلا هو، ولا كامل الذات والصفات والأفعال إلا هو، أحبه محبة خاصة لا يشبهها محبة فيحبه من وجهين: لذاته من جهة، ولكمال صفاته ونعوت جلاله وإحسانه من جهة[1]، عن ابن عباس رَضِوَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه، وأحبوني بحب الله، وأحبوا أهل بيتي لحبي**»[2]، ويقول الإمام ابن القيم: «وهذا الثناء، والحب تبع للأسباب المقتضية له، وهو ما عليه المحمود من صفات الكمال، ونعوت الجلال والإحسان إلىٰ الغير؛ فإن هذه هي أسباب المحبة، وكلما كانت هذه الصفات أجمع وأكمل؛ كان الحمد والحب أتم وأعظم، والله ـ سبحانه ـ له الكمال المطلق الذي لا نقص فيه بوجه ما، والإحسان كله له ومنه، فهو سبحانه وتعالىٰ أحق بكل حمد، وبكل حب من كل جهة، فهو أهل أن يحب لذاته، ولصفاته، ولأفعاله، ولأسمائه، ولإحسانه، ولكل ما صدر منه سبحانه»[3].

---

(١) انظر: جلاء الأفهام في فضل الصلاة علىٰ محمد خير الأنام، لابن القيم، ص٣٧٦، والفوائد، لابن القيم، ص٢٦٥، ٢٦٦، وشرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، للغنيمان، ج١، ص٢٧٧، ومجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج١٠، ص٨٤.

(٢) رواه الترمذي، كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ باب مناقب أهل بيت النبي ﷺ رقم ٣٧٨٩، ص٨٥٥، وقال: وهذا حديث حسن غريب إنما نعرفه من هذا الوجه.

(٣) جلاء الأفهام، لابن القيم، ص٣٧٦.

وأما المخلوق فذاته ناقصة، وما فيه من صفات الكمال إنما هي هبة من الخالق له، فيحبه تكرمًا منه وفضلًا، فهو سبحانه حين يحبّ المتقين فهو من رزقهم التقوىٰ، وحين يحب الصابرين فهو من ألقىٰ الصبر في قلوبهم، وحين يحب المؤمن القوي فهو من قواه، وحين يحب من يحب الله فهو من ألقىٰ محبته في قلوبهم، فجميع ما للمخلوق من صفات كمال فالخالق هو من وهبه هذا الكمال، وقد جاء أن رسول الله ﷺ قال للأشج عبد القيس: «**إن فيك خلتين يحبهما الله: الحلم والأناة**»، قال: يا رسول الله! أنا أتخلق بهما أم الله جبلني عليهما؟ قال: «**بل الله جبلك عليهما**»، قال: الحمد لله الذي جبلني علىٰ خلتين يحبهما الله ورسوله[(١)]، فبيّن أن هذه الطباع الحسنة والصفات الكريمة إنما هي محض منّة وليست بحوله وقوته فقد خلقه الله وجبله عليها.

وهذا الكمال ليس كمالًا مطلقًا، بل هو كمال يناسب بشريته، يعتريه من النقص والعيب ما يعتريه، وكذلك بالنسبة للإحسان والإنعام فالمخلوق ليس محسنًا للخالق بصورة من الصور ولم يكن له نعمة علىٰ الخالق يومًا من الأيام، وإنما خيره إلينا نازل وشرنا إليه صاعد، لو اجتمعوا علىٰ أتقىٰ قلب رجل ما زادوا في ملك الخالق شيئًا، وكلّ ما يقدموه من أعمال صالحة فهم المنتفعون بها، في الدنيا والآخرة.

والمقصود أنا لو نظرنا إلىٰ سبب المحبة وهو الإحسان وكمال الذات والصفات لوجدنا الفارق العظيم بين الخالق والمخلوق فيها، وهذا موجب لأن نفرقّ في المحبة فتكون محبة الخالق قد استحقها لكمال صفاته وجميل إحسانه، والمخلوق صفاته صفات نقص وضعف وعجز، ولكن الخالق أحبّه تكرمًا منه وفضلًا، ويزيد الخالق أمرًا آخر وهو أنه يُحبّ لذاته ولا يمكن لغيره أن يحب لذاته فتكون محبته واجبة علىٰ كلّ أحد.

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب قبلة الرجل، رقم الحديث٥٢٢٥، ص٧٣٣، قال ابن حجر: سنده جيد، وحسّنه الهيثمي، وصححه الألباني.

الفرق الرابع: الفرق في الأسباب الموجبة للمحبة:

الخالق إذا أحب شيئًا فهو مستحق للمحبة، والمخلوق قد يحب أحدًا ويكون غير مستحق للمحبة.

كلّ إنسان يتمنىٰ محبّة الخالق ويرجوها، ولكنّ الخالق حكيم عليم، فلا يهب محبته إلا لمن يستحقها، فمحبته عظيمة وجليلة، قال بعض الحكماء العلماء: «ليس الشأن أن تُحِبّ، إنما الشأن أن تُحَبّ»(١)، فلا ينالها إلا من أحبّ خالقه وسعىٰ وبرهن علىٰ صدق محبّته، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، قال الشيخ السعدي: «وهذه الآية فيها وجوب محبة الله، وعلاماتها، ونتيجتها، وثمراتها، فقال ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ أي: ادعيتم هذه المرتبة العالية، والرتبة التي ليس فوقها رتبة فلا يكفي فيها مجرد الدعوىٰ، بل لا بد من الصدق فيها، وعلامة الصدق اتباع رسوله ﷺ في جميع أحواله، في أقواله وأفعاله، في أصول الدين وفروعه، في الظاهر والباطن، فمن اتبع الرسول دل علىٰ صدق دعواه محبة الله تعالىٰ، وأحبه الله وغفر له ذنبه، ورحمه وسدده في جميع حركاته وسكناته، ومن لم يتبع الرسول فليس محبًا لله تعالىٰ، لأن محبته لله توجب له اتباع رسوله، فما لم يوجد ذلك دل علىٰ عدمها وأنه كاذب إن ادعاها، مع أنها علىٰ تقدير وجودها غير نافعة بدون شرطها، وبهذه الآية يوزن جميع الخلق، فعلىٰ حسب حظهم من اتباع الرسول يكون إيمانهم وحبهم لله، وما نقص من ذلك نقص»(٢)، والمقصود أن الخالق حين يُحب الأشخاص أو الأعمال أو أي شيء فإنه يحبّه لكونه مستحقًا للمحبة، وهذا من كمال صفاته فهو يحبّ من الأشخاص من يستحقّ أن يُحبّ، وذلك لأعماله الصالحة، فيحبّ المتقين، قال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

ويحب الصابرين، قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٢، ص٣٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص١٢٨.

ويحبّ المحسنين، قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

ويحبّ المتوكلين، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ويحبّ التوابين والمتطهرين، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

ويحبّ المقسطين، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

ويحبّ الذين يقاتلون في سبيله صفًا، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

ويحبّ الأذلّة علىٰ المؤمنين الأعزة علىٰ الكافرين المجاهدين في سبيل الله، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

ويحب المؤمن القوي، عن أبىٰ هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلىٰ الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير**»(١).

ويُحِبُّ الْعبد التَّقِيَّ، الْغَنِيَّ، الْخَفِيَّ، عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الله يحب العبد التقيّ، الغنيّ، الخفيّ**»(٢).

وهو سبحانه يحبّ من الأعمال والصفات ما يستحقّ أن يُحب؛ لأنها أعمال برّ وخير، وصفات كمال وجمال، فيحبّ أن تؤتىٰ رخصه، عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله

(١) سبق تخريجه، ص٢٣٤.

(٢) رواه مسلم، كتاب الزهد، باب الدنيا سجن للمؤمن وجنة للكافر، رقم الحديث ٧٤٣٢، ص١٢٨٥.

ﷺ: «**إن الله يحب أن تؤتىٰ رخصه، كما يكره أن تؤتىٰ معصيته**»(١).

ويحب العطاس كذلك، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «**إن الله يحب العطاس، ويكره التثاؤب**»(٢).

ويحب الكرم ومعالي الأخلاق، عن سهل بن سعد الساعدي، أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**إن الله عز وجل كريم يحب الكرم ومعالي الأخلاق ويبغض سفسافها**»(٣).

ويحب الرفق في كل الأمور، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زوج النبي ﷺ قالت: دخل رهط من اليهود علىٰ رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليكم، قالت عائشة: ففهمتها فقلت: وعليكم السام واللعنة، قالت: فقال رسول الله ﷺ: «**مهلا يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله**». فقلت: يا رسول الله، أو لم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله ﷺ: «**قد قلت وعليكم**»(٤).

ويحب الجمال، عن عبدالله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**» قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا، ونعله حسنة، قال: «**إن الله جميل يحب الجمال، الكبر: بَطَر الحق وغَمْط الناس**»(٥).

ويحب أن يرىٰ أثر النعمة علىٰ العبد، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يحب أن يُرَىٰ أثر نعمته علىٰ عبده**»(٦).

---

(١) رواه أحمد في مسنده، رقم الحديث ٥٨٦٦، ج١٠، ص١٠٧، صححه ابن خزيمة وابن حبان، وقال الأرناؤوط: حديث صحيح.

(٢) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب: ما يستحب من العطاس وما يكره من التثاؤب، رقم الحديث٦٢٢٣، ص١١٩٨.

(٣) اخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب الإيمان، باب إن الله كريم يحب الكرم ومعالي الأخلاق و يبغض سفسافها، رقم الحديث ١٥٧، ص٢١٦، وقال: حديث صحيح،.

(٤) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب: الرفق في الأمر كله، رقم الحديث٦٠٢٤، ص١١٦٦.

(٥) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم الحديث٢٦٥، ص٥٤.

(٦) رواه الترمذي، كتاب الأدب عن رسول الله ﷺ باب ما جاء إن الله تعالىٰ يحب أن يرىٰ أثر نعمته علىٰ عبده، =

ويحب العذر، والمدح عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل، من أجل ذلك مدح نفسه، وليس أحد أَغْيَر من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش، وليس أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل**»(١).

ويحب من الكلام التسبيح والحمد، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «**كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله العظيم، سبحان الله وبحمده**»(٢)، وغير ذلك من الأماكن أو الأشياء المستحقّة للمحبة، فأحبّ البقاع إليه المساجد، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**أحب البلاد إلى الله مساجدها، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها**»(٣).

وأحب الأسماء له عبد الله وعبد الرحمن، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أحب أسمائكم إلى الله عبد الله وعبد الرحمن**»(٤).

وغير ذلك الكثير من الأمور التي أُخبرنا بمحبة الله لها، وكلّها فضائل وكمالات مستحقة للمحبة ليس فيها خلق ذميم ولا أمر مستقبح؛ لأن الخالق كامل الصفات حكيم عليم لا يمكن أن يحب من لا يستحق أو ما لا يستحقّ، وأما المخلوق فقد يحبّ من لا يستحق وما لا يستحق، فقد يحبّ أشخاصًا لا يستحقون أو أفعالًا وصفات سيئة، كمن

=

رقم الحديث ٢٨١٩، ص٦٣١، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ.

(١) رواه مسلم، كتاب التوبة، باب غيرة الله تعالى، وتحريم الفواحش، رقم الحديث ٦٩٩٤، ص١١٩٦.

(٢) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب: فضل التسبيح، رقم الحديث ٦٤٠٦، ص ١٢٣٠.

(٣) رواه مسلم، كتاب المساجد، باب فضل الجلوس في مصلاه بعد الصبح، وفضل المساجد، رقم الحديث ١٥٢٨، ص٢٧١.

(٤) رواه مسلم، كتاب الآداب، باب النهي عن التكني بأبي القاسم، وبيان ما يستحب من الأسماء، رقم الحديث ٥٥٨٧، ص٩٥٢.

يحبون مع الخالق أندادًا يعبدونهم، قال تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وكمن يحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا، قال تعالىٰ: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

ويحبون الدنيا الزائلة أكثر من الآخرة الباقية، قال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [إبراهيم: ٣]، وقال: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ [القيامة: ٢٠].

ويحبون إشاعة الفاحشة، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النور: ١٩].

وقد تكون هذه المحابّ ليست سيئة إلا أنها لا تستحق التعلق بها كما قال تعالىٰ: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران: ١٤]، وأما التمتع بها علىٰ سبيل الاستعانة بها لنيل رضا الله فلا بأس به، فيصاحبها المخلوق ببدنه ويفارقها عن قلبه[1]؛ ولهذا جاء في الحديث الذي رواه أبو موسىٰ الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أحب دنياه، أضر بآخرته، ومن أحب آخرته، أضر بدنياه، فآثروا ما يبقىٰ علىٰ ما يفنىٰ**»[2].

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص١٢٤.

(٢) رواه أحمد في مسنده، رقم الحديث ١٩٦٩٨، ج٣٢، ص٤٧٢، حسنه ابن حجر في تخريجه لمشكاة المصابيح، وقال الأرناؤوط: حسن لغيره.

والمقصود أن محبة الخالق مفارقة لمحبة المخلوق من كلّ وجه؛ وعلىٰ هذا فوصف الخالق بالمحبة لا ضير فيه ولا نقص، فهي صفة كاملة في حق الخالق لا نقص فيها بوجه من الوجوه لا احتمالًا ولا تقديرًا.

الفرق الخامس: الفرق في الأثر:

الخالق إذا أحب المخلوق نال المخلوق كلّ خير، واندفع عنه كلّ شر، والمخلوق إذا أحب المخلوق قد يفوته الخير، ولا يندفع عنه الشّر.

وبيان ذلك أن الخالق إذا أحب المخلوق جلب له كلّ خير، ودفع عنه كلّ ضرّ، فيرحم محبوبه ويعطيه ويكرمه ويلقي محبته في قلوب الخلق فيحبّونه، بل ويلقىٰ أيضًا محبته في قلب عبده فتكون نعيمًا علىٰ صاحبها وعزًا له، قال الشيخ السعدي: «والله تعالىٰ له الكمال التام المطلق، فكلُّ وصف من صفاته له خاصية في العبودية، وانجذاب القلوب إلىٰ مولاها، ثم تودَّد لهم بآلائه ونعمه العظيمة التي بها أوجدهم، وبها أبقاهم وأحياهم، وبها أصلحهم، وبها أتم لهم الأمور، وبها كَمَّلَ لهم الضروريات والحاجيات والكماليات، وبها هداهم للإيمان والإسلام، وبها هداهم لحقائق الإحسان، وبها يسّر لهم الأمور، وبها فرّج عنهم الكربات وأزال المشقات، وبها شرع لهم الشرائع ويسّرها ونفىٰ عنهم الحرج، وبها بيّن لهم الصراط المستقيم وأعماله وأقواله، وبها يسّر لهم سلوكه وأعانهم علىٰ ذلك شرعـًا وقدراً، وبها دفع عنهم المكاره والمضار كما جلب لهم المنافع والمسارّ، وبها لطف بهم ألطافـًا شاهدوا بعضها وما خفي عليهم منها أعظم»[1].

وقد اتخذ الله إبراهيم خليلًا، فكان من السعداء في الدنيا والآخرة، فنصره علىٰ من أراد به السوء كما فعل مع من أراد إحراقه فكانت النار بردًا وسلامًا عليه، وأعلىٰ حجته علىٰ من حاجّه، وصيّره إمامًا لمن بعده[2]، وخصّه بكراماته واصطفاه لنفسه[3]، وكذلك كان مع نبينا

(١) فتح الرحيم الملك العلام، للسعدي، ص٥٥.

(٢) جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٧، ص٥٢٩.

(٣) فتح القدير، للشوكاني، ج١، ص٦٦٥.

محمد ﷺ ومع كلّ من أحبّهم.

ومما جاء من الأدلة عن آثار محبة الخالق ما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله قال: من عادىٰ لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته**»(١)، فبلغت محبة الخالق له أن أعانه وأيّده ونصره في جميع شؤونه وسدّده فيها، وأن حفظ له جوارحه عمّا لا يرضاه له(٢)، فيمكنّه من أن يطيعه، ويوفقه لكلّ خير ويلطف به ويفيض عليه من رحمته(٣)، ثمّ هو لو سأل خالقه مسألة لأجاب مسألته، ولو استعاذ به مما يخشاه ويضرّه فإنه يعيذه ويحميه.

ومن آثار محبة الخالق للمخلوق أن يلقي محبته في قلوب العباد في العالم العلوي والسفلي، جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «**إذا أحب الله العبد نادىٰ جبريل: إن الله يحب فلانا فأحببه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض**»(٤)، وإذا أُلقيت محبته في قلب عبده نال الخير الكثير وتيسرت أموره.

وهو يحميه من كلّ ما يضرّه ممّا يظنّه خيرًا، فعن قتادة بن النعمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا أحب الله عبدًا حماه الدنيا، كما يظل أحدكم يحمي سقيمه الماء**»(٥)، بل

(١) سبق تخريجه، ص٣٤٠.

(٢) انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير، ج٢، ص٣٠٥.

(٣) انظر: شرح صحيح مسلم، للنووي، ج١٥، ص١٤٧.

(٤) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة، رقم الحديث ٣٢٠٩، ص٦١٨.

(٥) رواه الترمذي، كتاب الطب، باب ما جاء في الحمية، رقم الحديث ٢٠٣٦، ص٤٦٠، وقال: حسن صحيح.

قد يبتليه بما يكرهه لما فيه من الخير محبّة له؛ فعن محمود بن لبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن صبر، فله الصبر، ومن جزع، فله الجزع**»[(١)]، فيكون في هذا البلاء تمحيصًا لذنوبه وتفريغًا لقلبه من الدنيا[(٢)]، ثم هو كفارة لخطاياه، جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «**ما يصيب المسلم، من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذىٰ ولا غم، حتىٰ الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياه**»[(٣)]، ويكفي من هذا البلاء أن يقرب العبد من خالقه، فإذا ذكره وناجاه حصل له النعيم والطمأنينة، وكلّما ازداد المخلوق محبّة لخالقه ازداد نعيمه بهذه الأمور[(٤)].

وأما آثارها يوم القيامة، ففوق ما يتصوره عقل أو يخطر بقلب، فهو يعطي أحبابه يوم القيامة من النعيم والخير الوفير ما يرون أنه لا نعيم فوق ما هم فيه؛ إلا أنه يزيدهم علىٰ ذلك النظر إلىٰ وجهه الكريم فيكون هذا العطاء أحب إليهم من كلّ ما سواه، جاء في صحيح مسلم عن صهيب، عن النبي ﷺ قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال يقول الله تبارك وتعالىٰ: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلىٰ ربهم عز وجل**»[(٥)].

ونجاة العبد من النار أثر لمحبته، فحين قال اليهود والنصارىٰ: إنهم أحباء الخالق ردّ الله عليهم بأنهم لو كانوا أحباءه لما عذّبهم؛ لأن الخالق لا يعذّب من يحبّ، وهو لا يحبّ إلا من

---

(١) رواه أحمد في مسنده، رقم الحديث ٢٣٦٣٣، ج٣٩، ص٤١، قال ابن حجر في فتح الباري: رواته ثقات، وكذا قال الهيثمي، وقال الأرناؤوط: إسناده جيد.

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوي، ج١، ص٣١٧.

(٣) رواه البخاري، كتاب المرضىٰ، باب: باب ما جاء في كفارة المرض، رقم الحديث ٥٦٤١، ص٥٦٤٧.

(٤) انظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج٨، ص١٤٣.

(٥) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالىٰ، رقم الحديث ٤٤٨، ص٩٢.

أطاعه وامتثل أمره فكيف يعذّبه[(١)]، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].

وجاء عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كان صبي علىٰ ظهر الطريق، فمرّ النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم ومعه ناس، فلما رأت أم الصبي القوم خشيت أن يوطأ ابنها، فسعت فحملته، فقالت: ابني ابني، قال القوم: يا رسول الله ما كانت هذه لتلقي ابنها في النار؟ فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «**ولا الله يلقي حبيبه في النار**»[(٢)]، فالخالق حين يحبّ المخلوق يرحمه ويدفع عنه كلّ ما يضره فكيف يعذّبه!

وبالجملة فمن أحبّه الخالق نال خيري الدنيا والآخرة، وأمّا المخلوق فإنه إذا أحبّ مخلوقًا مثله لم يملك له جلب الخير ولا دفع الضرّ، فإذا كان ﷺ لم يتمكن من هداية عمّه أبي طالب الذي كان يحبه، فغيره من باب أولىٰ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]، قال الشيخ السعدي: «يخبر تعالىٰ أنك يا محمد ـ وغيرك من باب أولىٰ ـ لا تقدر علىٰ هداية أحد، ولو كان من أحب الناس إليك، فإن هذا أمر غير مقدور للخلق هداية للتوفيق، وخلق الإيمان في القلب، وإنما ذلك بيد اللّه سبحانه تعالىٰ، يهدي من يشاء، وهو أعلم بمن يصلح للهداية فيهديه، ممن لا يصلح لها فيبقيه علىٰ ضلاله»[(٣)].

ثم إن هذا المحبوب قد لا يبادله المحبة وقد يبغضه فتكون محبته لا نفع فيها قال تعالىٰ: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟

(١) جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٨، ص٢٧١، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٢٢٧.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الإيمان، باب الله يلقي حبيبه في النار، رقم الحديث ٢٠١، ص٢٣٢، وقال: هذا حديث صحيح، ووافقه الذهبي.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٦٢٠.

عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

فأخبر أنكم أيها المؤمنون تحبون هؤلاء المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر وتودونهم وتواصلونهم مع عدم محبتهم لكم، لا في الباطن، ولا في الظاهر، وتشفقون عليهم، ومع ذلك فهم لا يكافئونكم على أقل القليل من هذا(١).

وقد يقسو على من يحب بل ويظلمه؛ فهذه امرأة العزيز، على أنها كانت تحبّ يوسف عليه السلام حبًّا شديدًا، إلا أنها تسببت في سجنه فقال: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢]، فتضرر من محبتها له أيما ضرر.

وكذلك الحال مع إسماعيل ـ عليه السّلام ـ فقد كان أبوه يحبه محبة شديدة فكانت سببًا في امتحانه بالذبح، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

قال الإمام ابن القيم: «وهذا هو السر الذي لأجله ـ والله أعلم ـ أُمر الخليل بذبح ولده، وثمرة فؤاده وفِلْذة كبده؛ لأنه لما سأل الولد فأعطيه، تعلقت به شعبة من قلبه.

و"الخلة" منصب لا يقبل الشركة والقسمة، فغار الخليل على خليله أن يكون في قلبه موضع لغيره، فأمره بذبح الولد، ليخرج المزاحم من قلبه، فلما وطن نفسه على ذلك، وعزم

(١) جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٥، ص٧١٦، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٢، ص١٠٨، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٩٧٣.

عليه عزمًا جازمًا حصل مقصود الأمر، فلم يبق في إزهاق نفس الولد مصلحة، فحال بينه وبينه، وفداه بالذبح العظيم. وقيل له: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ أي عملت عمل الصدق، ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥﴾ نجزي من بادر إلى طاعتنا، فنقر عينه كما أقررنا عينك بامتثال أوامرنا، وإبقاء الولد وسلامته ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦﴾ [الصافات: ١٠٤ – ١٠٦] وهو اختبار المحبوب لمحبه، وامتحانه إياه ليؤثر مرضاته، فيتم عليه نعمه، فهو بلاء محنة ومنحة عليه معًا»(١).

وهذا أمر نشاهده في كثير من الأحيان حين تتعلق المرأة بزوجها تعلقًا شديدًا فيلحق الزوج جراء هذه المحبة الكدر والهمّ حتى يتمنى زوال هذه المحبة، إلا أنّ العبد الصالح حينما يُبتلى بمن يحبّه ويكون أثر هذه المحبّة شرًا عليه فهي في حقيقتها تمحيص لهذا العبد المؤمن وزيادة في حسناته، فهي مِنْحة ومِحْنة.

وكما أن هناك فرق بين محبة الخالق للمخلوق ومحبة المخلوق للمخلوق في الأثر، فكذلك هناك فرق بين محبة المخلوق للخالق والتي تورث الطمأنينة والانشراح والأنس، وبين محبة المخلوق لمخلوق مثله، والتي قد تكون مورثة للندم والحسرة والعذاب.

فأمّا محبّة المخلوق لخالقه، فقد جاء في صحيح البخاري عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار**»(٢).

وأما محبة المخلوق للمخلوق فالذين أحبّوا أندادهم كحبّ الخالق سيأتي يوم القيامة ويظهر ضعفهم وعجزهم ولن تدفع عنهم ضرًا ولن تجلب لهم نفعًا ولا بمثقال ذرّة، وسيتبرأ

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيم، ج٣، ص٤٧٠، ٤٧١.

(٢) سبق تخريجه، ص٣٢٧.

المتبوعون من تابعيهم والمحبّون ممن أحبّهم(١)، فتحصل لهم الحسرة والندامة علىٰ حبّهم لمن أحبّوهم، وتنقلب محبتهم عداوة، قال تعالىٰ: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾ [الفرقان: ٢٨] وقال تعالىٰ: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

فليس كلّ ما أحبّه المخلوق يكون خيرًا له، بل قد يكون شرًا عليه، قال تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

قال الإمام ابن كثير: «وهذا عام في الأمور كلّها، قد يُحِبّ المرءُ شيئًا، وليس له فيه خيرة ولا مصلحة»(٢).

وضابط هذا الأمر أن المحبة للمخلوق إذا لم تكن تابعة لمحبة الخالق كانت عذابًا علىٰ أهلها، قال الشيخ السعدي: «(الْوَدُودُ) الذي يحبه أحبابه محبة لا يشبهها شيء فكما أنه لا يشابهه شيء في صفات الجلال والجمال، والمعاني والأفعال، فمحبته في قلوب خواص خلقه، التابعة لذلك، لا يشبهها شيء من أنواع المحاب، ولهذا كانت محبته أصل العبودية، وهي المحبة التي تتقدم جميع المحاب وتغلبها، وإن لم يكن غيرها تبعًا لها، كانت عذابًا علىٰ أهلها»(٣).

ومن المعلوم أنه لا يختار ما يضرّه بإرادته، لكنه يجهل أنه يضرّه، فيحب الشيء ويهواه دون علم منه بما في محبته له من المضرة(٤).

وبالجملة فالمحبة بين المخلوق والمخلوق ليست كالمحبة بين الخالق والمخلوق؛

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٨٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج١، ص٥٧٣.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٩١٩.

(٤) انظر: قاعدة في المحبة، لابن تيمية، ص٧٨.

فمن أحبه الخالق نال كلّ خير، وانصرف عنه كل شرّ، ومن أحبه المخلوق لم يتحصل له ذلك.

الفرق السادس: الفرق في المراتب:

الخالق لا تثبت له كلّ مراتب المحبة الثابتة للمخلوق.

مراتب المحبة كما ذكرها الإمام ابن القيم عشر:

أولاها: العلاقة، وسميت بذلك لتعلق القلب بمن يحب.

الثانية: الإرادة، وفيها يميل القلب إلىٰ المحبوب ويطلبه.

الثالثة: الصبابة، وسميت بذلك لانصباب القلب إلىٰ المحبوب كما ينصب الماء في المكان المنحدر؛ فالصبابة هي الميل اللازم، وانصباب القلب بكليته إلىٰ المحبوب.

الرابعة: الغرام وفيه يلازم الحب قلب المحب ولا يفارقه وسميت بذلك تشبيهًا بالغريم الذي يلازم غريمه، ومنه سمي عذاب النار غرامًا؛ لأنه يلازم أهل النار ولا يفارقهم.

الخامسة: الوداد، وهو صفو المحبة وخالصها ولبّها.

السادسة: الشغف، وسمي بذلك لأن الحب قد وصل إلىٰ شغاف القلب كما وُصف حب امرأة العزيز ليوسف بذلك في قوله تعالىٰ علىٰ لسان النسوة: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: ٣٠].

السابعة: العشق، وهو الحب المفرط الذي يصل بصاحبه إلىٰ مرحلة يُخشىٰ عليه منه.

الثامنة: التَّتيُّم وهو التعبد والتذلل فيقال تيّمه الحب، أي أذلّه وجعله عبدًا له، وفيه من معنىٰ اليتم الذي بمعنىٰ الانفراد فكما أن اليتيم منفرد عن أبيه فالمحب منفرد بحبه، وكلاهما ذليل مكسور.

التاسعة: التعبد وهو أعلىٰ من التَّتيُّم فإن المحبوب إذا ملك حبيبه ظاهرًا وباطنًا فلم يبق له شيء من نفسه سمّي عبدًا له.

العاشرة: الخلّة، وهي المحبة التي تخللت روح المحب وقلبه حتىٰ لم يبق فيه موضع لغير المحبوب[1].

فهذه هي أسماء المحبة أو مراتبها، وهناك من ذكر غيرها لكنّا اكتفينا بهذا الترتيب؛ لأنه كما قال شارح الطحاوية ابن عبد العزّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا الترتيب تقريب حسن، يعرف حسنه بالتأمل في معانيه»[2]، وذكر أن ما ثبت منها في حق الخالق أربعة: الإرادة والخلّة والمودّة والمحبّة،[3] وكلها صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه، فأمّا صفة الخلة فقد ثبتت لنبينا محمد ولإبراهيم ـ عليهما الصلاة والسلام، قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، وقال ﷺ: «**ولو كنت متخذا خليلًا من أمتي لاتخذت أبا بكر ولكن أخوة الإسلام ومودته**»[4]، فالخلة لا تقبل أن يكون هناك مزاحم في المحبة.

وكذلك المحبة والمودة وقد سبق وذكرنا الأدلة علىٰ ثبوتها في حق الخالق، والإرادة أيضًا ثابتة في حق الخالق قال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وأما بقية المراتب فلم يثبت منها شيء في حق الخالق فلا يجوز استعمال شيء منها في حقه ـ جل وعلا ـ وفي بعضها ما يتضمن وصفه بها نقصًا كما في مرتبة العشق مثلًا فهذا الوصف لا يطلق علىٰ الخالق ولا يقال عشقني وعشقته[5]، فإن العشق وصف نقص في حق الخالق [6].

---

(١) انظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيم، ج٣، ص٤٦٥ ـ ٤٧٠.

(٢) شرح الطحاوية، لابن أبي العز، ج١، ص٢٦٦.

(٣) المرجع السابق.

(٤) رواه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري، كتاب الصلاة، باب الخوخة والممر في المسجد، رقم الحديث ٤٦٦، ص١١٠.

(٥) انظر: روضة المحبين، لابن القيم، ص٦١.

(٦) انظر: قاعدة في المحبة، لابن تيمية، ١١٩، ١٢٠.

فالخالق لا تثبت في حقه إلا الأربعة المراتب السابق ذكرها، وأما المخلوق فيوصف بكل ما سبق من المراتب إلا أن مرتبة العبودية وصف يطلق علىٰ حب المخلوق لخالقه، ولا يصح أن يطلق علىٰ حب مخلوق لغيره من الخلق أنه عبد له أو أن محبته عبودية، ذلك أن حقيقة العبودية تمام الحب مع تمام الذّل والخضوع وهذه لا تكون إلا للخالق.

والمقصود من هذا أن المحبة لها أسماء أو مراتب منها ما يصح أن يوصف به الخالق، ومنها ما لا يصحّ؛ فالخالق كامل الصفات ولا يوصف إلا بما هو كمال، وهذا يفارق المخلوق الذي يصحّ وصفه بجميع هذه المراتب، فالمخلوق طبعه النقص فلو وصف بما فيه نقص جاز ذلك.

المبحث الثاني
الفارق بين الخالق والمخلوق في صفة الرحمة

وفيه مطلبان:

المطلـــــب الأول: معنى صفة الرحمة والأدلة على ثبوتها في حق الخالق والمخلوق.

وفيه أربعة مسائل:

المسألة الأولىٰ: معنىٰ صفة الرحمة في اللغة.

المسألة الثانية: معنىٰ صفة الرحمة في حق الخالق.

المسألة الثالثة: معنىٰ صفة الرحمة في حق المخلوق.

المسألة الرابعة: الأدلة علىٰ ثبوت صفة الرحمة في حق الخالق والمخلوق.

المطلــب الثـــاني: الفارق بين الخالق والمخلوق في صفة الرحمة.

المطلب الأول

معنى صفة الرحمة والأدلة على ثبوتها في حق الخالق والمخلوق

المسألة الأولى: معنى صفة الرحمة في اللغة:

«الراء والحاء والميم أصل واحد يدل على الرقة والعطف والرأفة. يقال من ذلك رحمه يرحمه، إذا رقّ له وتعطف عليه. والرُّحْمُ والمَرْحَمة والرَّحْمة بمعنىً»(١).

قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ٧]، «أي أوصى بعضُهم بعضًا بِرَحْمَة الضعيف والتَّعَطُّف عليه»(٢).

والرُّحْم: العطف والرحمة، قال تعالى: ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨١] أي أقرب عطفًا وأَمَسَّ بالقرابة(٣).

والرحمة عكسها القسوة والغلظة(٤)، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فجعل الفظاظة وغلظ القلب الدالة على القسوة والغلظة مقابل الرحمة واللين.

وعكسها أيضًا العذاب، عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنه ﷺ قال: «**ألا تسمعون، إن الله لا يعذب بدمع العين، ولا بحزن القلب، ولكن يعذب بهذا ــ وأشار إلى لسانه ــ أو يرحم**»(٥).

---

(١) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، ج١، ص٥١٦.

(٢) لسان العرب، لابن منظور، ج٥، ص١٧٣.

(٣) المرجع السابق، ص١٧٤.

(٤) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، للقرطبي، ج٢، ص٥٧٦.

(٥) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب البكاء على المريض، رقم الحديث ١٣٠٤، ص ٢٥٤.

المسألة الثانية: معنى صفة الرحمة في حق الخالق:

صفة الرحمة المضافة للخالق علىٰ قسمين:

رحمة هي صفة من صفاته، ورحمة مخلوقة.

- **أما الرحمة التي هي من صفات الخالق:**

فهي من باب إضافة الصفة إلىٰ الموصوف بها، ومن هذا ما جاء عن أنس بن مالك، قال: كان النبي ﷺ إذا كربه أمر قال: «**يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث**»[(١)]، فهذه الرحمة التي يستغاث بها هي صفة من صفات الخالق، وليست مخلوقة، فالمخلوق لا يستغاث به[(٢)]، وقد مرّ بنا أن صفات الله تشارك أسماءه في جواز الاستعاذة والاستغاثة بها.

وهذه الرحمة والتي هي من صفاته قسمان:

رحمة ذاتية وهي الرحمة العامة، ورحمة فعلية وهي الرحمة الخاصة:

- فأما الرحمة العامة فهي شاملة للخلق كلهم للمؤمن والكافر، ومتعلقها الأمور الدنيوية[(٣)]، قال تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، فقرن بين علمه ورحمته فكل ما بلغه علمه بلغته رحمته؛ وعلىٰ هذا فهي تبلغ كل مخلوق؛ لأن علمه يبلغ كل مخلوق[(٤)]، وهي رحمة ذاتية لم يزل ولا يزال متصفًا بها[(٥)]، فهو تعالىٰ لا يكون إلا رحيمًا، وقد كتب علىٰ نفسه الرحمة[(٦)]، وهذه الرحمة أزلية فلا يأتي زمن وينفك عنه وصف

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الدعوات، رقم الحديث ٣٥٢٤، ص٨٠٠، وقال: هذا حديث غريب، وحسنه الألباني.

(٢) بدائع الفوائد، ج٢، ج٦٧٨.

(٣) وهذه الرحمة العامة ذاتية من جهة تعلقها بالخالق، فلا يمكن للخالق إلا أن يكون رحيمًا، وفعلية من جهة تعلقها بالمخلوق، فالأمور الدنيوية يرحم بها من شاء من عباده ويمسكها عمن يشاء.

(٤) شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين، ج١، ص٢٤٩، والصفات الإلهية، لمحمد الجامي، ص٢٨١، ٢٨٢.

(٥) الصفات الإلهية، لمحمد الجامي، ص٢٨١، ٢٨٢.

(٦) مختصر الصواعق المرسلة، للموصلي، ج٢، ص٦٤٣.

الرحمة.

- رحمة خاصة وهي التي يرحم بها من شاء من عباده ويمنعها عن آخرين، وهي للمؤمنين دون غيرهم، ومتعلقها الأمور الدينية سواء في الدنيا أو الآخرة(١)، قال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] أي رحمته خاصة بهم، قال الإمام الطبري: «وأما ما خصّ به المؤمنين في عاجل الدنيا من رحمته الذي كان به رحيمًا لهم فيها، كما قال جل ذكره: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ فما وصفنا من اللطف لهم في دينهم، فخصهم به دون من خذله من أهل الكفر به. وأما ما خصهم به في الآخرة، فكان به رحيمًا لهم دون الكافرين. فما وصفنا آنفا مما أعد لهم دون غيرهم من النعيم والكرامة التي تقصر عنها الأماني»(٢).

وقد تتعلق كذلك بالأمور الدنيوية، فالمؤمن وعده الله بالحياة الطيبة قال تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧](٣)، وهذه الرحمة من جهة آحادها متجددة، ومن جهة جنسها أزلية.

وبهذا تكون الرحمة والتي هي من صفات الخالق نوعان: رحمة ذاتية، ورحمة فعلية، وهذا هو الصحيح(٤)؛ لأن بعض أهل العلم عدّ الرحمة من الصفات الذاتية، وبعضهم عدّها من الصفات الفعلية، والصحيح أنها قسمان: رحمة هي من صفات الذات لم يزل متصفًا بها، ورحمة هي من صفات الفعل يرحم بها من شاء من عباده(٥).

---

(١) شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين، ج١، ص٢٤٩، والصفات الإلهية، لمحمد الجامي، ص٢٨١، ٢٨٢.

(٢) جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١، ص١٢٨.

(٣) انظر: شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين، ج١، ص٢٤٩.

(٤) وقد يُقال أنها من جهة تعلقها بالخالق ذاتية، ومن جهة تعلقها بالمخلوق فعلية، فهذه التقسيمات اصطلاحية ولا مشاحّة في الاصطلاح.

(٥) انظر: الصفات الإلهية، لمحمد الجامي، ص٢٨١، ٢٨٢.

- **الرحمة المخلوقة:**

وهي رحمة مخلوقة تضاف إلىٰ الخالق لكنها ليست من صفاته، بل هي كإضافة المخلوق إلىٰ خالقه، والمفعول إلىٰ فاعله، ومنها ما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «**تحاجت الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم. قال الله تبارك وتعالىٰ للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي**»(١).

فسمىٰ الجنة رحمة وهي مخلوقة، وإنما سمّيت رحمة؛ لأن الله خلقها برحمته وهي لأهل الرحمة خاصة دون غيرهم، ولا يدخلها إلا من استحق الرحمة، ومن ذلك أيضًا تسميته تعالىٰ للمطر رحمة، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٧](٢).

والمقصود في بحثنا هو النوع الأول أي الرحمة التي هي صفة من صفاته وفيها يظهر الفارق بين رحمة الخالق ورحمة المخلوق.

معنىٰ صفة الرحمة:

الرحمة في حق الخالق صفة قائمة بذاته سبحانه تجمع معاني الرأفة، والشفقة، والحنان، واللطف، والعطف، وهي تقتضي الإنعام والتفضيل(٣)، فكلّ ما في العالم العلويّ والسّفليّ من حصول المنافع ودفع المضارّ فإنّها من رحمته، وبالعموم فهي اسم جامع لكل خير،

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: قوله: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [٣٠] رقم الحديث ٤٨٥٠،ص ٩٥٢.

(٢) انظر: بدائع الفوائد، ج٢، ص٦٧٨.

(٣) انظر: التوحيد، لابن منده، ج٢، ص٤٧، لوامع الأنوار البهية، للسفاريني، ط: المكتب الإسلامي، ج١، ص٣٢، ٣٣.

واندفاع كل شرّ(١).

ومظاهر رحمته كثيرة وجليّة فقد «ظهرت في خلقه ظهورًا لا ينكر، حتىٰ ملأت أقطار السموات والأرض، وامتلأت منها القلوب حتىٰ حنّت المخلوقات بعضها علىٰ بعض بهذه الرحمة التي نشرها عليهم وأودعها في قلوبهم، وحتىٰ حنّت البهائم التي لا ترجوا نفعًا ولا عاقبة ولا جزاءً علىٰ أولادها، وشوهد من رأفتها بهم وشفقتها العظيمة ما يشهد بعناية باريها ورحمته الواسعة، وكذلك ظهرت رحمته في أمره وشرعه ظهورًا تشهده البصائر والأبصار، ويعترف به أولوا الألباب، فشرعه نور ورحمة وهداية، وقد شرعه محتويًا علىٰ الرحمة، وموصلًا إلىٰ أجل رحمة وكرامة وسعادة وفلاح. شرع فيه من التسهيلات والتيسيرات ونفي الحرج والمشقات ما يدلّ أكبر دلالة علىٰ سعة رحمته وجوده وكرمه، ومناهيه كلّها رحمة؛ لأنها لحفظ أديان العباد، وحفظ عقولهم وأعراضهم وأبدانهم وأخلاقهم وأموالهم من الشرور والأضرار»(٢).

اعتقاد أهل السنة والجماعة في صفة الرحمة واعتقاد المخالفين:

يعتقد أهل السنة والجماعة أن رحمته تعالىٰ رحمة حقيقية وليست مجازًا؛ ولهذا وصف نفسه سبحانه بأنه "ذو الرحمة"، قال تعالىٰ: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وقال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ﴾ [الكهف: ٥٨]، أي: صاحب الرحمة الحقيقية العظيمة الواسعة(٣)، فهي صفة ثابتة له من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، وأما مخالفيهم فقد سلكوا طريق التأويل فأولوها بالإرادة أو بمقتضاها من الإنعام والإحسان(٤).

(١) انظر: التوحيد، لابن منده، ج٢، ص٤٧، ومجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج١٠، ص٦٢، وفتح الرحيم الملك العلام، للسعدي، ص٢٩، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص١٩٥.

(٢) فقه الأسماء الحسنىٰ، لعبد الرزاق البدر، ص ١٠٠.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٣٩، وتفسير القرآن للعثيمين، ج١، ص٦.

(٤) وممن سلك طريق التأويل فيها ابن حجر، قال في الفتح، ج١٣، ص٣٥٨: «واما الرحمة التي جعلها في قلوب عباده فهي من صفات الفعل وصفها بأنه خلقها في قلوب عباده وهي رقة علىٰ المرحوم وهو سبحانه =

فنحن إذا عبّرنا عن الرحمة في حق المخلوق بأنها رقّة في القلب فهي ليست كذلك بالنسبة للخالق؛ لأنه تعالىٰ ليس كمثله شيء[1]، فما يلزم من صفات المخلوق مغاير تمامًا لما يلزم من صفات الخالق، والقول في الصفات كالقول في الذات؛ فكما أن ذاته لا تقاس علىٰ ذات المخلوق، فكذلك رحمته لا تقاس برحمة المخلوق، فالرحمة عند المخلوق يمكننا أن ندرك حقيقتها ونشعر بها لإحاطتنا بحقيقة ذات المخلوق، وأما من لا ندرك حقيقته ذاته فلا يمكننا إدراك حقيقة رحمته[2].

الأسباب الجالبة لرحمة الخالق:

بيّنت الأدلة موجبات الرحمة وبيّنت الأسباب التي يَسْترحم بها المخلوق خالقه، سواء كانت من جهة معاملة الخالق أو معاملة الخلق. فأما معاملة الخالق فهناك أسباب للرحمة، منها: الإيمان، والهجرة، والجهاد[3]، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٨].

ومنها تعظيم القرآن عند سماعه بالاستماع له والإنصات تدبرًا واعتبارًا بمواعظه[4] قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، ومنها

=

وتعالىٰ منزه عن الوصف بذلك فتتأول بما يليق به وقال بن التين الرحمن والرحيم مشتقان من الرحمة وقيل هما اسمان من غير اشتقاق وقيل يرجعان إلىٰ معنىٰ الإرادة فرحمته ارادته تنعيم من يرحمه وقيل راجعان إلىٰ تركه عقاب من يستحق العقوبة «وقال الزمخشري في كتابه الكشاف قال: «فإن قلت: ما معنىٰ وصف الله تعالىٰ بالرحمة ومعناها العطف والحنوّ ومنها الرحم لانعطافها علىٰ ما فيها؟ قلت: هو مجاز عن إنعامه علىٰ عباده».

(١) انظر: القول المفيد علىٰ كتاب التوحيد، لمحمد العثيمين، ج١، ص٤٤٠.

(٢) انظر: لوامع الأنوار البهية، للسفاريني، ط: المكتب الإسلامي، ج١، ص٣٣، والصفات الإلهية، لمحمد الجامي، ص٢٨٤.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٩٨.

(٤) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٠، ص٦٥٧، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٣، ص٥٣٦.

الاجتماع لتلاوته وتدارسه فهو موجب لغشيان الرحمة على صاحبها، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطّأ به عمله لم يسرع به نسبه**»(١).

ومنها الصلاة قبل العصر أربعًا عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «**رحم الله امرأ صلى قبل العصر أربعًا**»(٢).

وأما معاملة الخلق: فمن أعظمها الرحمة بهم فإنها موجبة لرحمة الخالق، كما جاء في صحيح البخاري عن أسامة بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، أن النبي ﷺ قال: «**وإنما يرحم الله من عباده الرحماء**»(٣)، وفي رواية أخرى عن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يرحم الله من لا يرحم الناس**»(٤).

وعيادة المريض كذلك، فعن جابر بن عبد الله قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**من عاد مريضًا خاض في الرحمة، حتى إذا قعد استقر فيها**»(٥).

ومنها السماحة في البيع والشراء، فعن جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أن رسول الله ﷺ

---

(١) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، وعلى الذكر، رقم الحديث ٦٨٥٣، ص١١٧٣.

(٢) رواه الترمذي، كتاب الصلاة، باب ما جاء في الأربع قبل العصر، رقم الحديث ٤٣٠، ص١١٧، وقال: هذا حديث غريب حسن.

(٣) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب: قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، رقم الحديث ٧٣٧٧، ص ١٤٠٦.

(٤) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، رقم الحديث ٧٣٧٦، ص ١٤٠٥ ـ ١٤٠٦.

(٥) الأدب المفرد بأحكام الألباني، ص١٩٩، وصححه الألباني.

قال: «**رحم الله رجلًا، سمحًا إذا باع، وإذا اشترىٰ، وإذا اقتضىٰ**»(١).

وكما أن الأعمال الصالحة من أسباب الرحمة فإن المعاصي مانعة من الرحمة، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾ [مريم: ٤٤]، قال الشيخ السعدي: «وفي ذكر إضافة العصيان إلىٰ اسم الرحمن، إشارة إلىٰ أن المعاصي تمنع العبد من رحمة الله، وتغلق عليه أبوابها، كما أن الطاعة أكبر الأسباب لنيل رحمته»(٢)، فالخالق سبحانه رحيم، ورحمته واسعة، من طلبها بفعل أسبابها شملته.

المسألة الثالثة: معنى صفة الرحمة في حق المخلوق:

- **معنىٰ الرحمة:**

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنىٰ الرحمة عند المخلوق: «هي رقَّة وحُنُوّ يجده الإنسان في نفسه عند مشاهدة مبتلىٰ، أو ضعيف، أو صغير، يحمله علىٰ الإحسان إليه، واللطف به، والرفق، والسعي في كشف ما به. وقد جعل الله تعالىٰ هذه حق الرحمة في الحيوان كله ـ عاقله وغير عاقله ـ فبها تعطف الحيوانات علىٰ نوعها، وأولادها، فتحنو عليها، وتلطف بها في حال ضعفها وصغرها. وحكمة هذه الرحمة تسخير القوي للضعيف، والكبير للصغير حتىٰ ينحفظ نوعه، وتتم مصلحته، وذلك تدبير اللطيف الخبير. وهذه الرحمة التي جعلها الله في القلوب في هذه الدار، وتحصل عنها هذه المصلحة العظيمة هي رحمة واحدة من مائة رحمة ادَّخرها الله تعالىٰ ليوم القيامة؛ فيرحم بها عباده المؤمنين وقت أهوالها، وشدائدها حتىٰ يخلصَّهم منها، ويدخلهم في جنته، وكرامته»(٣).

---

(١) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع، ومن طلب حقا فليطلبه في عفاف، رقم الحديث ٢٠٧٦، ص ٣٩٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٤٩٤.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، للقرطبي، ج٦، ص١٠٨، ١٠٩.

فرحمة المخلوق هي رقة في القلب وعطف وتحنن على المرحوم مقتضية للتفضيل(١)، وضدها القسوة وهي تؤدي إلى الإعراض عن ذكر الله، وعن أفعال البّر، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢](٢).

والرحمة في حق المخلوق نوعان:

- رحمة تتضمن إيصال كل ما هو مصلحة ونفع للمخلوق، وجلب الخير له ودفع الضّر عنه ولو كرهتها نفس المرحوم وكان فيها مشقة عليه، وهذه هي الرحمة الحقيقية الممدوحة في كتاب الله والمندوب لها(٣).

- رحمة تتضمن ضعف وخور أو إهمال وضرر، فليست هي الرحمة الحقيقية الممدوحة في كتاب الله والمندوب لها(٤).

الرحمة المندوب لها شاملة لجميع الخلق:

والرحمة مندوب إليها في حق جميع الخلق فنرحم المؤمن منهم والكافر(٥)، والإنسان

(١) انظر: لسان العرب، لابن منظور، ج٥، ص١٧٤، واشتقاق أسماء الله، للزجاجي، ص ٤١، لوامع الأنوار البهية، للسفاريني، ط: المكتب الإسلامي، ج١، ص٣٢.

(٢) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، للقرطبي، ج٢، ص٥٧٦.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج٦، ص١١٧، ٤٤١، وإغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لابن القيم، ج٢، ص٢٥٢، والقول المفيد على كتاب التوحيد، لمحمد العثيمين، ج١، ص٤٤٠.

(٤) انظر: المراجع السابقة.

(٥) الكفار الحربيون لا يرحمون بل يقتلون لأن الله تعالى قال في وصف النبي وأصحابه ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ وقال تعالى للنبي ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، ذكر الله تعالى هذه الآية في سورتين من القرآن الكريم بهذا اللفظ نفسه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، ذكرها الله في سورة التوبة وفي سورة =

والحيوان، والمملوك وغير المملوك، والصغار والكبار، ويدخل في الرحمة إطعام الطعام، وتخفيف الأحمال، وعدم التعدي بالضرب، وغير ذلك من صور الرحمة(١).

قال ابن بطّال معلقًا علىٰ الأحاديث المتعلقة بالرحمة التي ساقها البخاري: «في هذه الأحاديث الحض علىٰ استعمال الرحمة للخلق كلهم كافرهم ومؤمنهم ولجميع البهائم والرفق بها. وأن ذلك مما يغفر الله به الذنوب ويكفر به الخطايا، فينبغي لكل مؤمن عاقل أن يرغب في الأخذ بحظه من الرحمة، ويستعملها في أبناء جنسه وفي كل حيوان، فلم يخلقه الله عبثا، وكل أحد مسئول عما استرعاه وملكه من إنسان أو بهيمة لا تقدر علىٰ النطق وتبيين ما بها من الضر، وكذلك ينبغي أن يرحم كل بهيمة وإن كانت في غير ملكه، ألا ترىٰ أن الذىٰ سقىٰ الكلب الذىٰ وجده بالفلاة لم يكن له ملكًا فغفر الله له بتكلفة النزول في البئر وإخراجه الماء في خفه وسقيه إياه، وكذلك كل ما في معنىٰ السقي من الإطعام، ألا ترىٰ قوله عليه السلام: «ما من مسلم غرس غرسًا فأكل منه إنسان أو دابة إلا كان له صدقة»(٢). ومما يدخل في معنىٰ سقىٰ البهائم وإطعامها التخفيف عنها في أحمالها وتكليفها ما تطيق حمله، فذلك من رحمتها والإحسان اليها، ومن ذلك ترك التعدي في ضربها وأذاها وتسخيرها في الليل وفي غير أوقات السخرة، وقد نهينا في العبيد أن نكلفهم الخدمة في الليل فإن لهم الليل

=

التحريم وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ﴾. شرح رياض الصالحين، لابن عثيمين، ج١، ص٧٩٣، ولكن لا يخلو حتىٰ قتالهم عن الرحمة فلا يقتل الصغير منهم والنساء والشيخ الكبير ولا يمثّل بهم، وغير ذلك من الأحكام التي تدل علىٰ الرحمة بهم من بعض الأوجه.

(١) انظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، للمباركفوري، ج٦، ص٤٢، وشرح صحيح مسلم، للنووي، ج١٦، ص٧٦.

(٢) أخرجه البخاري، من رواية أنس بن مالك، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، رقم الحديث٦٠١٢، ص١١٦٤.

ولمواليهم النهار، والدواب وجميع البهائم داخلون في هذا المعنىٰ»[1].

المسألة الرابعة: الأدلة على ثبوت صفة الرحمة في حق الخالق والمخلوق:

- **الأدلة علىٰ صفة الرحمة في حق الخالق:**

أولًا: الدليل من الكتاب:

١ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٢، ٣].

٢ ـ قوله تعالىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

ثانيًا: الدليل من السُّنَّة:

١ ـ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما قضىٰ الله الخلق كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي**»[2].

٢ ـ جاء في صحيح البخاري عن أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن النبي ﷺ قال: «**وإنما يرحم الله من عباده الرحماء**»[3].

- **الأدلة علىٰ صفة الرحمة في حق المخلوق:**

أولًا: الدليل من الكتاب:

١ ـ ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

٢ ـ ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾ [الفتح: ٢٩].

---

(١) شرح ابن بطال علىٰ صحيح البخاري، ج٩، ص٢٣٢.

(٢) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾ [الروم: ٢٧]، رقم الحديث ٣١٩٤، ص ٦١٣.

(٣) سبق تخريجه، ص٣٧٣.

ثانيًا: الدليل من السُّنَّة:

١ ـ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءًا، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق، حتىٰ ترفع الفرس حافرها عن ولدها، خشية أن تصيبه**»(١).

٢ ـ عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «**الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، الرّحم شجنة من الرحمن، فمن وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله**»(٢).

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب: جعل الله الرحمة مائة جزء، رقم الحديث ٦٠٠٠، ص ١١٦٣.

(٢) رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة الناس، رقم الحديث ١٩٢٤، ص٤٣٩، وقال حديث حسن صحيح.

المطلب الثاني

الفارق بين الخالق والمخلوق في صفة الرحمة

الخالق سبحانه يوصف بالرحمة والمخلوق يوصف بها أيضًا، ولكن شتان ما بين رحمة الخالق ورحمة المخلوق، فإذا كان من آثار وصف الخالق بالرحمة ما نشاهده في الدنيا من رحمة المخلوقات بعضها ببعض حتىٰ بين البهائم التي لا تعقل، وكل هذا التراحم بينهم إنما هو جزء من مئة جزء من رحمة الخالق التي يدّخرها لعباده يوم القيامة، فكيف ببقية الأجزاء من رحمة الخالق؟! وإذا كانت هذه الأجزاء من الرحمة هي من آثار رحمة الخالق فكيف بالرحمة نفسها؟!

جاء في صحيح مسلم عن سلمان قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله خلق، يوم خلق السموات والأرض، مائة رحمة، كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض، فجعل منها في الأرض رحمة، فبها تعطف الوالدة علىٰ ولدها، والوحش والطير بعضها علىٰ بعض، فإذا كان يوم القيامة، أكملها بهذه الرحمة**»(١)، فكل من علمت أيها العبد أنه راحم فالله خير له، فرحمته خير من رحمة الأم بابنها وخير من رحمة المخلوق بنفسه(٢).

ولأنه أرحم بالأبناء من والديهم، فقد وصّاهم بهم حال الإرث(٣)، قال تعالىٰ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ﴾ [النساء: ١١].

ولأنه أرحم بالمؤمنين من بعضهم لبعض، وأرحم بهم من أنفسهم فقد وصّاهم وحذّرهم من قتل أنفسهم أو قتل بعضهم لبعض، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩].

---

(١) رواه مسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالىٰ وأنها سبقت غضبه، رقم الحديث ٦٩٧٧، ص١١٩٣.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٥٦١.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص١٦٦.

ولعلم يعقوب بأن رحمة الخالق خير من رحمة المخلوق، وأنه أرحم بابنه من إخوته، اعتمد على هذا الوصف للخالق ورضي بإرسال ابنه مع خوفه عليه، قال تعالى: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

فرحمته سبحانه لا يشابهه فيها أحد وهو الرحيم بهم على الحقيقة، فكان لزامًا على العبد أن يدعوه وحده ويتوجه له بالرغبة والرجاء وحده، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨]، وجاء في صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: قدم على النبي ﷺ سبي، فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسقي، إذا وجدت صبيًا في السبي أخذته، فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ: «**أترون هذه طارحةً ولدها في النار**». قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال: «**لله أرحم بعباده من هذه بولدها**»(١) قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفيه إشارة إلى أنه ينبغي للمرء أن يجعل تعلقه في جميع أموره بالله وحده، وأن كل من فرض أن فيه رحمة ما حتى يقصد لأجلها فالله سبحانه وتعالى أرحم منه، فليقصد العاقل لحاجته من هو أشد له رحمة»(٢).

لوازم صفة الرحمة:

ومع وجود هذا الفارق العظيم بين رحمة الخالق ورحمة المخلوق إلا أن هناك قدرًا مشتركًا بينهما يجب إثباته وبهذا نتوسط في الاعتقاد، فنحن نثبت له سبحانه صفة الرحمة المستلزمة في حقه للمدح والثناء والكمال، وننفي عنه ما تستلزمه هذه الصفة من النقص في حق المخلوق، فكل صفة يشترك فيها الخالق والمخلوق، يجب أن نصف بها الخالق على أتمّ وصف وأكمله مجردًا عن كل نقص ونوصف بها المخلوق مستلزمة للنقص(٣).

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، رقم الحديث ٥٩٩٩، ص ١١٦٢.

(٢) فتح الباري، لابن حجر، ج١٠، ص٥٣٠.

(٣) انظر: إيثار الحق على الخلق، للمرتضى اليماني، ص١٢٠.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في اثبات صفة الرحمة: «لما كانت الرحمة تقارن في حق كثير من الناس الضعف والخور ـ كما في رحمة النساء ونحو ذلك ـ ظن الغالط أنها كذلك مطلقًا. وأيضًا: فلو قدر أنها في حق المخلوقين مستلزمة لذلك لم يجب أن تكون في حق الله تعالىٰ مستلزمة لذلك، كما أن العلم والقدرة؛ والسمع والبصر والكلام فينا يستلزم من النقص والحاجة ما يجب تنزيه الله عنه... فكذلك " الرحمة " وغيرها إذا قدر أنها في حقنا ملازمة للحاجة والضعف؛ لم يجب أن تكون في حق الله ملازمة لذلك. وأيضًا: فنحن نعلم بالاضطرار أنا إذا فرضنا موجودين أحدهما يرحم غيره، فيجلب له المنفعة ويدفع عنه المضرة؛ والآخر قد استوىٰ عنده هذا وهذا، وليس عنده ما يقتضي جلب منفعة، ولا دفع مضرة: كان الأول أكمل»[(١)].

فصفة الرحمة تكون في كل موصوف بحسبه، فرحمة الحيوان تناسب ذاته، ورحمة المَلَك تناسب ذاته أيضًا، ورحمة الخالق رحمة حقيقية تناسب ذاته العلية، ولا يلزم أن تكون رحمته من جنس رحمة المخلوق[(٢)].

والمقصود أن الرحمة من الصفات المشتركة التي يلزم منها لوازم وهي علىٰ ثلاثة أنواع:

١ ـ لوازم بصرف النظر عمن أضيفت إليه صفة الرحمة: وهو المعنىٰ العام لهذه اللفظة والتي «تقتضي الإحسان إلىٰ المرحوم»[(٣)]، وفي هذا القدر المشترك جاءت المفاضلة بين رحمة الخالق ورحمة المخلوق، قال تعالىٰ علىٰ لسان موسىٰ عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥١]، وقال ﷺ في الحديث الذي رواه عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**لله أرحم بعباده من هذه بولدها**»[(٤)] فالنبي

---

(١) مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج٦، ص١١٧، ١١٨.

(٢) انظر: مختصر الصواعق المرسلة، للموصلي، ص٢٩٩.

(٣) القول المفيد علىٰ كتاب التوحيد، لابن عثيمين، ج١، ص٤٤١.

(٤) سبق تخريجه، ص٣٨٠.

ﷺ مثّل عِظَم رحمة الخالق برحمة الأم بولدها والله له المثل الأعلىٰ، فدّل علىٰ أن هناك معنىً مشترك بين صفة الرحمة عند الخالق والمخلوق وهي الرحمة المعهودة التي يعرفها المخلوق من نفسه(١).

٢ ـ لوازم عند إضافة صفة الرحمة للخالق ومنها: العزة التامة، والقدرة التامة.

٣ ـ لوازم عند إضافة صفة الرحمة للمخلوق ومنها: الضعف، والذّل، والعجز.

واللازم عند الإضافة هو الذي يظهر فيه الفرق بين الخالق والمخلوق، ومن الفروقات بين الخالق والمخلوق في صفة الرحمة (٢)ما يلي:

الفرق الأول: الفرق في الدوام:

رحمة الخالق دائمة لا تنقطع عن الخلق، ورحمة المخلوق مؤقتة فتكون في وقت دون وقت(٣).

الخالق سبحانه رحمته دائمة فلا يكون رحيمًا في وقت دون وقت، بل رحمته تكون مع العبد في الدنيا، وفي البرزخ، وفي يوم القيامة(٤)، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفتح: ١٤]، قال الشيخ السعدي: «أي: وصفه اللازم الذي لا ينفك عنه المغفرة والرحمة، فلا يزال في جميع الأوقات يغفر للمذنبين، ويتجاوز عن الخطائين، ويتقبل توبة التائبين، وينزل خيره المدرار، آناء الليل

(١) انظر: شرح أصول الإيمان، صالح آل الشيخ، ص٥٢.

(٢) الفروقات التي سأذكرها في الرحمة هي شاملة للرحمة عمومًا سواء العامة أو الخاصة.

(٣) الفرق هنا في صفة الرحمة عمومًا فتشمل العامة والخاصة، ففي الدنيا يرحم المؤمن والكافر المستحق وغير المستحق، وفي الآخرة يختص برحمته من شاء من عباده المستحقين لها؛ ولذلك فإن رحمته لا تنقطع فلا يأتي وقت لا يرحم أحد، وكما ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مختصر الصواعق المرسلة أن الخالق لا يكون إلا رحيمًا.

(٤) أما في الدنيا فكما ذكرنا أنها للمؤمن وغير المؤمن وأما في البرزخ والآخرة فهي للمؤمن فقط.

والنهار»[١]، ولمّا عدد الخالق النعم التي وهبها لعباده في سورة النّحل أخبر بأنهم لن يحصوا هذه النعم، ثم عقّب ذلك بأنه غفور رحيم، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨]، والمراد أن الخالق رحيم بكم فلن يؤاخذكم بغفلتكم عن شكر هذه النعم، وعجزكم عن أداء حقّها، وكذلك رحيم بكم حين أدام عليكم هذه النعم في كل وقت[٢]، فرحمته لم تنقطع عنكم بطول حاجتكم، ولا بكثرة طلبكم، ولا باستمرار ضعفكم، بل هي باقية مستمرة إلىٰ أن تدخلوا جنة ربكم.

ولا يُتصور في رحمة الخالق أنها قد تنقطع عن العبد ولو كان الظاهر انقطاعها، فحال البلاء الطويل والحاجة الملحّة هو صورة من الرحمة لا يعقلها إلا أهل اليقين، فيعلمون أنّه ما منعهم إلا ليعطيهم، ولكن في الوقت الذي يصلح فيه العطاء، ثمّ إنّهم يحصل لهم حال البلاء من معاني الرحمة الشيء العظيم، منها أن الحاجة التي كان يُكثر فيها العبد من طرق باب خالقه، ستكون مباركة حين تأتي، قال بعض السلف: «يا ابن آدم لقد بورك لك في حاجة أكثرت فيها من قرع باب سيدك»[٣]، ومنها أن إقبال قلبه وتلذذه بمناجاته له هي نوع من الرحمة، قال بعضهم: «إنه ليكون لي إلىٰ الله حاجة فأدعوه فيفتح لي من لذيذ معرفته وحلاوة مناجاته ما لا أحب معه أن يعجل قضاء حاجتي خشية أن تنصرف نفسي عن ذلك؛ لأن النفس لا تريد إلا حظها فإذا قضي انصرفت»[٤].

وهذا زكريا ـ عليه السلام ـ يبقىٰ حتىٰ يشيب ولم يُرزق الولد، وحرمان الذرية نقص في المخلوق، وحال تستدعي الرحمة، لكنّ حقيقتها رحمة قال تعالىٰ: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٧٩٣.

(٢) انظر: فتح القدير، للشوكاني، ج٣، ص١٨٧.

(٣) مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج١٠، ص٣٣٣.

(٤) المرجع السابق، ص٣٣٣، ٣٣٤.

أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا﴾ [مريم: ٢ - ٦]، فابتدأ القصة بوصف الخالق بالرحمة ليُعلم أن البلاء الذي وقع علىٰ يعقوب ـ عليه السلام ـ إنما هو أثر من آثار رحمته، وانظر إلىٰ حال التملق وإظهار الضعف والحاجة الموجبة لنزول الرحمة؛ ولهذا رحمه الخالق وأعطاه الولد، بل شملت الرحمة حتىٰ هذا الولد، قال تعالىٰ: ﴿وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا﴾ [مريم: ١٣]، أي وأعطينا يحيىٰ الرحمة التي تتيسر بها أموره وتصلح بها أحواله وتستقيم بها أفعاله(١)، فلم تنقطع رحمة الخالق بزكريا ـ عليه السلام ـ لا حال البلاء ولا حال العطاء.

وأما قصة يعقوب ويوسف ـ عليهما السلام ـ فلا يخفىٰ ما فيها من الرحمة؛ ولأنها من القصص التي توقع عند كثير من الناس الرحمة عند سماعها وقد يُظنّ أن هذا البلاء أو مثله خارجًا عن رحمة الخالق، تكرر وصف الخالق بالرحمة في عدّة مواضع من السورة(٢)، منها قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]، «يقول: والله أرحم راحم بخلقه، يرحم ضعفي علىٰ كبر سني، ووحدتي بفقد ولدي ولا يضيعه، ولكنه يحفظه، حتىٰ يرده علي برحمته»(٣).

ولمّا زال الكرب عن يوسف وتمكن في الأرض، أخبرنا ـ تعالىٰ ـ أن هذا من رحمته

---

(١) انظر: تيسر الكريم الرحمن، للسعدي، ص٤٩٠.

(٢) ومنها قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٣] وقال: ﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]، وقال: ﴿قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨]، وقال: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

(٣) جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٣، ص٢٣١.

التي يصيب بها من يشاء من عباده، قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦]، فلم يكن لينال التمكين لولا ما أصابه من البلاء الذي كان في حقيقته أثر من آثار الرحمة.

فهذه الرحمة الدنيوية المطلقة ظاهرة لنا في الحياة الدنيا في كلّ ما نراه وما نشاهده، وأما رحمته مع العبد في قبره(١) فإنه حين ينقطع عنه الناس ويكون وحيدًا ويحثون عليه التراب تشمله رحمة الخالق فتخرجه من الضيق إلىٰ السعة، فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قال: «**إن المؤمن إذا وضع في قبره أتاه ملك فيقول له: ما كنت تعبد؟ فإن الله تعالىٰ هداه قال: كنت أعبد الله، فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: هو عبد الله ورسوله، فما يسأل عن شيء غيرها، فينطلق به إلىٰ بيت كان له في النار فيقال له: هذا بيتك كان لك في النار، ولكن الله عصمك ورحمك، فأبدلك به بيتًا في الجنة**»(٢)، فهو يخرج من كدر الدنيا ونصبها إلىٰ رحمة الخالق ورأفته.

وأعظم زمن تظهر فيه الرحمة هو يوم القيامة، جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عن النبي ﷺ قال: «**إن لله مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش علىٰ ولدها، وأخّر الله تسعًا وتسعين رحمة، يرحم بها عباده يوم القيامة**»(٣)؛ ولذا فقد تكرر اسم الرحمن عند ذكر يوم القيامة في آيات عديدة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ٣٧ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ:

---

(١) وقد ذكرنا أن الكافر يخرج من هذه الرحمة التي تكون في الآخرة.

(٢) رواه أبو داود، كتاب السنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر، رقم الحديث ٤٧٥١، ص٨٥٩، وصححه الألباني.

(٣) رواه مسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالىٰ وأنها سبقت غضبه، رقم الحديث ٦٩٧٤، ص١١٩٣.

٣٧، ٣٨]، فمناسبة ذكر اسم الرحمن عند ذكر يوم القيامة إشارة إلىٰ أن العباد في ذلك اليوم سيجدون من رحمة الخالق ما لا يظنون ولا يتصورون[١]، يقول الشيخ السعدي: «ومما يرتاح له القلب، وتطمئن به النفس، وينشرح له الصدر، أن أضاف الملك في يوم القيامة لاسمه " الرحمن " الذي وسعت رحمته كل شيء، وعمت كل حي، وملأت الكائنات، وعمرت بها الدنيا والآخرة، وتم بها كل ناقص، وزال بها كل نقص، وغلبت الأسماء الدالة عليه الأسماء الدالة علىٰ الغضب، وسبقت رحمته غضبه وغلبته، فلها السبق والغلبة، وخلق هذا الآدمي الضعيف وشرفه وكرمه، ليتم عليه نعمته، وليتغمده برحمته، وقد حضروا في موقف الذل والخضوع والاستكانة بين يديه، ينتظرون ما يحكم فيهم، وما يجري عليهم، وهو أرحم بهم من أنفسهم ووالديهم، فما ظنك بما يعاملهم به، ولا يهلك علىٰ الله إلا هالك، ولا يخرج من رحمته إلا من غلبت عليه الشقاوة، وحقت عليه كلمة العذاب»[٢].

وعبّر باسم "الرحمن" حين ذكر وفادة المؤمنين إلىٰ ربهم للدلالة علىٰ أنهم يرجون رحمته ذلك اليوم، وجوده وكرمه والفوز بجناته بسبب أعمالهم التي قدموها حيث علموا ذلك مما أخبرهم الرسل به، فقدموا علىٰ ربهم واثقين من رحمته[٣]، قال تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا﴾ [مريم: ٨٥].

وأضاف الوعد بالجنة إلىٰ اسمه "الرحمن"؛ لأن فيها الرحمة التي لم ترها عين، ولم تسمع بها أذن، ولم تخطر علىٰ قلب بشر، وتدل من جهة أخرىٰ علىٰ بقاء نعيمها ودوام سرورها؛ لأنها أثر لرحمته الباقية الدائمة[٤]، وقال: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا﴾ [مريم: ٦١].

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٦٩٧.

(٢) المرجع السابق، ص٥٨٢.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص٥٠٠.

(٤) انظر: المرجع السابق، ص٤٩٧.

حتىٰ الذين اعتدوا وبغوا وتجبروا وظلموا، ولكنهم من أهل التوحيد، تدركهم الرحمة في ذلك اليوم فيخرجون من النار، ويدخلون الجنة فلهم نصيب منها، ولولاها لبقوا في النار خالدين، عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يعذب ناس من أهل التوحيد في النار حتىٰ يكونوا فيها حممًا ثم تدركهم الرحمة فيخرجون ويطرحون علىٰ أبواب الجنة، قال: فيرش عليهم أهل الجنة الماء فينبتون كما ينبت الغثاء في حمالة السيل ثم يدخلون الجنة**»(١).

فرحمة الخالق كما ظهر دائمة لا تنقطع عن الخلق، رحمة في الدنيا إن كان كافرًا، أو في الدنيا والآخرة إن كان مؤمنًا، فليس للعباد قيام ولا وجود دون هذه الرحمة؛ ولهذا لم تنقطع عنهم.

وأما المخلوق فإنه وإن كان يوصف بالرحمة إلا أن رحمته ليست دائمة، بل هي منقطعة، فنجده في أوقات يكون رحيمًا عطوفًا علىٰ هذا الشخص، وفي أوقات تزول هذه الرحمة عنه فيقسو عليه ويعرض عنه، والمخلوق لمّا يرىٰ من يستحق الرحمة فإن الرحمة تقع في قلبه أول الأمر، ويحاول جاهدًا أن ينفعه بما يمكنه؛ لكنه مع مرور الزمن واستمرار حال المرحوم تزول الرحمة من قلبه، وقد يعقبها قسوة عليه خاصة لو كان المرحوم يطلب منه الإحسان، ويكلّفه بما يشقّ عليه، وهذا أمر مشاهد لمن تأمله، فرحمة المخلوق ليست دائمة فهو يرحم في وقت دون وقت، وفي حال دون حال؛ لأن طبعه لا يحتمل ونقصه يمنعه من هذا، فأيوب ـ عليه السلام ـ طال به البلاء وطالت حاله التي تستدعي الرحمة حتىٰ ملّ منه كلّ من حوله وانقطعت رحمتهم به وعافوا الجلوس معه وأُفرد في ناحية من المدينة، لم يبق له راحم من الخلق غير زوجته(٢).

---

(١) رواه الترمذي، كتاب صفة جهنم عن رسول الله ﷺ رقم الحديث ٢٥٩٧، ص٥٨٥، وقال هذا حديث حسن صحيح وقد روي من غير وجه عن جابر.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٥، ص٣٥٩.

وهذا يعقوب ـ عليه السلام ـ جرىٰ عليه من الأقدار ما يوقع في القلوب الرحمة به؛ إلا أن من حوله تغيرت رحمتهم به، فصاروا يلومونه علىٰ بكائه علىٰ يوسف وأخيه وحزنه عليهما، قال تعالىٰ: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٤، ٨٥]، ومعلوم ما في هذا القول من الغلظة والقسوة خاصة من الأبناء علىٰ أبيهم، فردّ عليهم قائلًا: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦]، فيقينه من أن رحمة الله دائمة لا تنقطع جعلته لا يفقد رجاؤه بها، ولا ييئس منها؛ فإن اليأس من الرحمة واستبعادها من صفات أهل الكفر، ولهذا قال: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وكذلك الحال مع يوسف ـ عليه السلام ـ فحاله تستدعي الرحمة والرأفة إذ هو طفل وبعيد عن أبويه، وعزيز مصر وقعت الرحمة في قلبه علىٰ يوسف أول ما رآه وعطف وحنّ عليه، إلا أن رحمته لم تدم فانقلب الحال وتبدل، حتىٰ آل به إلىٰ القسوة والظلم وإدخاله السجن.

وأما في يوم القيامة فيظهر انقطاع الرحمة في أبشع صورها، فنجد الأب المجرم يتمنىٰ لو يُلقىٰ بأبنائه في النار ويعذبون علىٰ أن ينجو بنفسه، ولا مانع عنده لو عُذّبت كذلك زوجته وإخوته وعشيرته بل كل من في الأرض، فالمقدم هو نفسه، قال تعالىٰ: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ [المعارج: ١١- ١٤]، والمقصود أن المخلوق مهما بلغ من الكمال إلا أن رحمته غير دائمة، وليست في كل زمن، والخالق رحمته دائمة، وتشمل الدنيا والآخرة(١).

(١) أما في الآخرة فيخرج منها أهل الكفر فلا تنالهم رحمته؛ لأنهم غير مستحقين لها قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ
=

الفرق الثاني: الفرق في صفات الكمال اللازمة:

١ ـ الفرق في العزة: رحمة الخالق مع قوة وعزة، ورحمة المخلوق مع ضعف وذلّ، وقد تغلب عليه القوة فتنزع منه الرحمة.

الخالق سبحانه ثبتت له صفات الرحمة والرأفة واللطف، وثبتت له صفات العزة والغلبة والقوة؛ فهو سبحانه رحيم بعزة، عزيز برحمة، وهذا غاية الكمال.

ومن الأدلة الدالة على أن رحمته سبحانه مع عزة وقوة اقتران اسم الرحيم مع اسم العزيز في (١٣) موضع في كتاب الله، (٩) مواضع منها ذكرت في سورة الشعراء[1]، وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ٩]، ليبيّن لنا أنه، ومع وضوح الآيات الدالّة على قدرة الخالق لكل شيء، إلا أن أكثر الناس لم يؤمنوا وكذّبوا رسله وعصوه، ولكنّه لم يعاجلهم بالعقوبة؛ لأنه رحيم بعباده، ورحمته ليست عن ضعف وذلّ بل هي مع قوة وعزة، فإن تمادوا أخذهم أخذ عزيز مقتدر[2].

فإنّ «اقتران هذين الاسمين الكريمين يدل على الكمال والعدل والحمد والعزة والرحمة، وذلك ببيان أنه سبحانه مع كونه عزيزًا قويًا غالبًا قاهرًا لكل شيء فلا ينفي أن يكون رحيمًا برًا محسنًا. ولا يعني كونه سبحانه رحيمًا بعباده أن لا يكون قويًا غالبًا. فرحمته سبحانه ناشئة عن قدرة، وقوة، وعزة لا عن ضعف، وعجز»[3].

ومن الآيات التي اقترن فيها وصف العزيز بالرحيم قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ

= كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾، فهؤلاء لا نصيب لهم من رحمة الخالق وقد يئسوا منها حين عاينوا العذاب.

(١) انظر: ولله الأسماء الحسنىٰ فادعوه بها، لعبد العزيز الجليل، ص١٥٠.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٦، ص١٣٦.

(٣) ولله الأسماء الحسنىٰ فادعوه بها، لعبد العزيز الجليل، ص١٥١.

وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [السجدة: ٦].

قال الإمام ابن كثير: «أي: المدبّر لهذه الأمور الذي هو شهيد علىٰ أعمال عباده، يرفع إليه جليلهاوحقيرها، وصغيرها وكبيرها هو ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي قد عَزَّ كلَّ شيء فقهره وغلبه، ودانت له العباد والرقاب، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين. فهو عزيز في رحمته، رحيم في عزته وهذا هو الكمال: العزة مع الرحمة، والرحمة مع العزة، فهو رحيم بلا ذل»[(١)]، فظهرت رحمته مع قوته وعزته في خلقه للخلق وتدبيره لهم.

وتظهر كذلك في نصرته لأهل الإيمان وخذلانه لأهل الكفر، قال تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم: ١- ٥]، فوعد المؤمنين بالنصر علىٰ الأعداء؛ لأنّه الرحيم بهم حيث هيّأ لهم أسباب النصر[(٢)]ورحمته بهم مقترنة مع عزة وقوة وغلبة قهر بها أعداءهم ووهبهم النصر بها.

وتظهر كذلك في يوم القيامة في أجلىٰ صورة وأوضح حال، فتنقطع في ذلك اليوم قوة المخلوق وعزته وتضعف رحمته أو تزول، ويكون العزيز الرحيم هو الخالق وحده، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٤٠ يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلٗى شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٤١ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الدخان: ٤٠- ٤٢]، ففي ذلك اليوم لا يغني أحد عن أحد ولا يشفع له ولا ينصره إلا من نالته الرحمة فإنه ينتفع ويرتفع[(٣)]، فختم بهذين الاسمين

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٦، ص٣٦٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٦٣٦.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص٧٧٤.

للدلالة علىٰ أن الخالق رحمته مع قوة، فيرحم من يشاء ويمنع رحمته عمن يشاء وفق علمه وحكمته لا يكرهه علىٰ ذلك أحد(١).

ومما يدلّ علىٰ هذا المعنىٰ أيضًا اقتران وصفه سبحانه بأنه شديد العقاب، وسريع العقاب، مع وصفه بأنه غفور رحيم، وذلك في مواضع كثيرة كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥] وقوله: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٩٨]، وهذا دليل علىٰ أن رحمته ليست عن ضعف أو عجز، فحين يرحم بعض عباده لا يعني ذلك أنه لا يعاقبهم حين يستوجب الحال عقابهم، وحين تقتضي الحكمة الانتقام منهم، بل هو شديد العقاب وسريع العقاب.

أما المخلوق فقد يعتري رحمته شيء من الضعف والخور والذّل، أو تغلب عليه القوة والعزة والمنعة فتنزع منه الرحمة، وقد قسّم شيخ الإسلام ابن تيمية النّاس في الرحمة مع الصبر إلىٰ أربعة أقسام فقال: «فإن القسمة أيضا رباعية، إذ من الناس من يصبر ولا يرحم كأهل القوة والقسوة، ومنهم من يرحم ولا يصبر كأهل الضعف واللين: مثل كثير من النساء، ومن يشبههن، ومنهم من لا يصبر ولا يرحم كأهل القسوة والهلع. والمحمود هو الذي يصبر ويرحم، كما قال الفقهاء في المتولي: ينبغي أن يكون قويًا من غير عنف، لينًا من غير ضعف، فبصبره يقوىٰ، وبلينه يرحم، وبالصبر ينصر العبد؛ فإن النصر مع الصبر، وبالرحمة يرحمه الله تعالىٰ»(٢).

فالمخلوق قد يكون صاحب عزة وقوة ومنعة إلا أنه قاسي القلب غليظ الطبع عديم الرحمة ككثير من الرؤساء والملوك ومن لهم نوع من القوة والعزّة فقلّ أن تجد منهم أصحاب رحمة، بل القسوة والغلظة طبعهم وسجيتهم، ومن أمثال ذلك فرعون فقد كان عزيزًا في قومه إلا أن الرحمة قد نزعت منه نزعًا، فكان يعذّب بني إسرائيل ويذّبح أبناءهم،

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج٢٥، ص٣١٣.

(٢) انظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج١٠، ص٦٧٧.

وقد أذاقهم أصناف العذاب وألوان الظلم، ومن ذلك فعله مع الماشطة، فعن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما كان الليلة التي أسرىٰ بي فيها، أتت علىٰ رائحة طيبة، فقلت: يا جبريل، ما هذه الرائحة الطيبة؟ فقال: هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها. قال: قلت: وما شأنها؟ قال بينا هي تمشط ابنة فرعون ذات يوم، إذ سقطت المِدْرَىٰ**[(١)] **من يدها، فقالت: بسم الله. فقالت لها ابنة فرعون: أبي؟ قالت: لا، ولكن ربىٰ ورب أبيك الله. قالت: أخبره بذلك! قالت: نعم. فأخبرته فدعاها، فقال: يا فلانة، وإن لك ربًا غيرىٰ؟ قالت: نعم ربي وربك الله. فأمر ببقرة من نحاس فأحميت، ثم أمر بها أن تلقىٰ هي وأولادها فيها، قالت له: إن لي إليك حاجة. قال: وما حاجتك؟ قالت: أحب أن تجمع عظامي وعظام ولدي في ثوب واحد، وتدفننا. قال: ذلك لك علينا من الحق. قال فأمر بأولادها فألقوا بين يديها؛ واحدًا واحدًا، إلىٰ أن انتهىٰ ذلك إلىٰ صبي لها مرضع، كأنها تقاعست من أجله، قال: يا أمه، اقتحمي، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة. فاقتحمت**»[(٢)].

وقصة أصحاب الأخدود معلومة وهي شاهد علىٰ قوة المخلوق ومنعته مع ذهاب الرحمة من قلبه، فقد كان الملك الظالم يعذّب من آمن بالله، حتىٰ أنه كان يضع المنشار في مفرق رأس الرجل فيشقّه نصفين، وحاول قتل الغلام برميه من أعلىٰ الجبل، وإغراقه في البحر، ثم قتله آخر الأمر بصلبه ورميه بالسهم، وحين آمن الناس بربهم بعد أن تيقنوا صدق دعوة الغلام حفر الأخاديد الموقدة بالنار ثم قذف فيها كل من آمن منهم[(٣)]، وهذا وصف

(١) قال النووي: «بكسر الميم وإسكان الدال المهملة وبالقصر، وهي حديدة يسوىٰ بها شعر الرأس، وقيل هو شبه المشط، وقيل: هي أعواد تحدد تجعل شبه المشط، وقيل: هو عود تسوي به المرأة شعرها» شرح صحيح مسلم، ج١٤، ص١٣٧.

(٢) رواه أحمد في مسنده، رقم الحديث ٢٨٢١، ج٥، ص٣٠، ٣١، قال الهيثمي: وفيه عطاء بن السائب، وهو ثقة، ولكنه اختلط، وقال الأرناؤوط: «إسناده حسن، فقد سمع حماد بن سلمة من عطاء قبل الاختلاط عند جمع من الأئمة».

(٣) روىٰ مسلم في صحيحيه القصة كاملة، في كتاب الزهد، باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب =

للمخلوق عمومًا وليس الملوك فقط، فإنه متىٰ شعر بقوته وتسلطه علىٰ من تحت يده ضعفت الرحمة في قلبه وقد تنزع بالكلية، حتىٰ لو كان حيوانًا ضعيفًا لا حيلة له، فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النبي ﷺ قال: «**دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض**»(١)، وقد يقع هذا حتىٰ من أهل الصلاح في لحظة غضب، إلا أنهم سرعان ما يرجعون عن ذلك وتتملكهم الرحمة فعن ابن مسعود ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: كنت أضرب غلامًا لي بالسوط، فسمعت صوتًا من خلفي: «**اعلم أبا مسعود!**» فلم أفهم الصوت من الغضب، قال: فلما دنا مني، إذا هو رسول الله ﷺ فإذا هو يقول: «**اعلم أبا مسعود! اعلم أبا مسعود!**» قال: فألقيت السوط من يدي، فقال: «**اعلم، أبا مسعود! أن الله أقدر عليك منك علىٰ هذا الغلام**» قال: فقلت: لا أضرب مملوكًا بعده أبدًا»(٢)، فهذا الصحابي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حمله الطبع البشريّ من الشعور بالقوة والقدرة علىٰ الغلام مع غضبه عليه، حمله هذا علىٰ ضربه بالسوط؛ ولهذا ذكّره ﷺ بقوة الخالق وقدرته عليه وأنها فوق قوته وقدرته، فسارع إلىٰ اعتاقه.

وقد استعاذ ﷺ من تسليط الظالم الذي لا يرحم علىٰ من لا يقدر علىٰ دفع الأذىٰ عن نفسه فهي من أعظم المحن؛ لأنهم لو سلطوا علىٰ أحد لنكلّوا به(٣)، كما جاء عن ابن عمر في الدعاء الذي يدعو به ﷺ بعد أن يقوم من مجلسه: «**ولا تسلط علينا من لا يرحمنا**»(٤).

والمقصود أن رحمة المخلوق يعتريها النقص فهو حين يكون في موقف العزّة والقوة

= والغلام، رقم الحديث ٧٥١١، ص١٢٩٧.

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب: خمس من الدواب فواسق، يقتلن في الحرم. رقم الحديث ٣٣١٨، ص ٦٣٣.

(٢) رواه مسلم، كتاب الأيمان، باب صحبة المماليك، وكفارة من لطم عبده، رقم الحديث ٤٣٠٦، ص٧٣١.

(٣) انظر: تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين، للشوكاني، ص٣٨٧.

(٤) سبق تخريجه، ص٢٣٧.

كثيرًا ما تغلب عزّته رحمته فيقع منه القسوة والظلم[1]، في مقابل أن بعض الخلق تعتري رحمتهم ضعف وعجز، فتحملهم علىٰ مخالفة أمر الله؛ ولهذا جاء التحذير من الرحمة عند إقامة الحدّ علىٰ الزاني بحيث تمنع من إقامة الحدّ عليه، قال تعالىٰ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢].

ومن الرحمة المقرونة بالضعف والعجز رحمة الوالدين بأبنائهم والتي تمنعهم من تربيتهم التربية الصالحة الموافقة لأمر الله، فلا يوقظونهم لصلاة الفجر رحمة بهم، ولا يأمرونهم بالصيام ولا بالحجّ رحمة بهم، وفي هذا تفريط للأمانة التي استودعها الله إيّاه، فإنّ هذه أوامر شرعيّة متىٰ تركها عوقب في الآخرة بدخول النّار، فكانت رحمة الوالدين به رحمة غير حقيقية.

ومع أنه ﷺ وُصِف بالعزة كما قال تعالىٰ في حقه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، ووصف بالرحمة في آيات أخرىٰ، فاجتمعت فيه ﷺ صفتا العزة والرحمة، ومع ذلك فقد تأتي عليه أوقات تمتزج هذه الرحمة بالضعف ويعتريها ما يعتري البشر من النقص؛ ومن ذلك ما كان من رحمته بقومه وشدّة حرصه علىٰ هدايتهم فيحزن إذا هم لم يستجيبوا له، حتىٰ عاتبه الله علىٰ حزنه عليهم[2]؛ لأنّ هذا الحزن فيه إضعاف للنفس وهدم لقوتها[3]، فقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، فاعترىٰ رحمته شيئًا من الضعف لا الخور والذلّ فإنه منزّه ﷺ عنه.

فالمخلوق إما أنه منزوع الرحمة قاسي القلب، أو رحمته مع ضعف وخور وذلّ، وقلّ أن تجد القوي العزيز صاحب القلب الرحيم، وأما الخالق فرحمته مقرونة بالقوة والعزة،

(١) وقد سبق معنا في صفة القوة أنّ الخالق قوته مقترنة مع العدل فلا يظلم أحد أبدًا، فرحمته شاملة وعدله تام.

(٢) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٥، ص١٤٩.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٤٧٠.

كما ذكرنا فهما صفتان متلازمتان.

٢ ـ الفرق في القدرة: رحمة الخالق مع قدرة، ورحمة المخلوق مع عجز.

الخالق سبحانه إذا رحم عبده فإنه قادر علىٰ رفع الضّر عنه وجلب الخير له، لا يعجزه شيء ولا يمنعه مانع، وقد أخبر ـ جل وعلا ـ في آيات عديدة بذلك، ومنها ما أخبرنا به من رحمته بأنبيائه الذين كُذّبوا، ومن معهم من المؤمنين؛ وأنه نجاهم من العذاب والخزي، فكان قادرًا علىٰ ذلك لم يعجز ولم يضعف؛ لأن رحمته مقترنة بقدرته، قال تعالىٰ في حق هود وقومه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨]، وقال في حق صالح وقومه: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦].

وهذا الذي جعل إبراهيم ـ عليه السلام ـ يستبشر بحصول الولد له مع كِبَره في السنّ وعقم زوجته، ذلك أنه علىٰ علم بربه وأن رحمته الواسعة قد اقترنت بقدرته الكاملة فكيف يقنط منها؟! قال تعالىٰ: ﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٥، ٥٦]، قال الإمام ابن كثير: «فأجابهم بأنه ليس يقنط، ولكن يرجو من الله الولد، وإن كان قد كبر وأسنَّت امرأته، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك»(١)، والشاهد من الآية أن الخالق حين رحم إبراهيم ـ عليه السلام ـ وأراد أن يهبه الولد قدر علىٰ ذلك مع انقطاع الأسباب الظاهرة.

وهذا أيوب ـ عليه السلام ـ لمّا نالته الرحمة من الخالق وأراد رفع ضرّه وكشف كربته قدر علىٰ ذلك، بل ورزقه المال والأولاد والعافية بعد أن زالت عنه، مع أن من الخلق من وقع في قلبه الرحمة علىٰ أيوب، لكن أحدًا منهم لم يمكنه فعل شيء له، فالحمد والشكر للرحيم القادر، قال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٤، ص٥٤١.

ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٤١- ٤٣].

وأخبر نبيه ﷺ أنه لولا رحمته له لاستجاب لمن همّ بإضلاله، ولكنه حين رحمه وأراد دفع الضر عنه كان قادرًا علىٰ ذلك؛ ولهذا فلن يضروه، ولن ينالوا منه فهو في حفظ الرحيم القادر علىٰ كل شيء، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ﴾ [النساء: ١١٣].

وليس هذا قاصرًا علىٰ الأنبياء بل هو كذلك مع المؤمنين فلمّا خاف الفتية علىٰ أنفسهم لجؤوا إلىٰ الخالق طالبين رحمته فبها يثبتون ويُحفظون من الشّر ويُوفقون للخير(١)، فرحمهم سبحانه وقدر علىٰ ما أراد من حفظهم، قال تعالىٰ: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ﴿١٠﴾ فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا﴾ [الكهف: ١٠، ١١].

وأخبر سبحانه أنه رحم بني إسرائيل فجعل لهم الدولة علىٰ عدوهم، وأخرجهم من الذّل إلىٰ العز(٢)؛ وكما أن له القدرة علىٰ نفعهم حين رحمهم فإنه قادر علىٰ ضرّهم حين يسخط عليهم، قال تعالىٰ: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨].

وهو الرحيم القادر علىٰ نصر المؤمنين علىٰ عدوهم، وليس هناك من يرحمهم وله القدرة علىٰ نصرهم غيره سبحانه، قال تعالىٰ: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ [الملك: ٢٠].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٤٧٢.

(٢) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٤، ص٥٠٥، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٤٥٤.

وفي قولـه تعـالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩]، بيان لكمال قدرة الخالق مع رحمته، فحفظها عن السقوط عند الطيران ومن المعلوم أنّ الثقيل يتسفّل بطبعه ولا يعلو، لكنه هيّأ أجسادها وجعلها مستعدة للطيران(١)، فحين رحمها سبحانه وأراد لها أن تطير ولا تسقط هيّأ أجسادها لذلك بقدرته.

فلا بدّ من الثقة بأن الخالق إذا رحم عبده فإنه قادر علىٰ كشف ضرّه وجلب ما ينفعه فيتوكل عليه وحده ويستعين به وحده، ولهذا لمّا جاء الأمر بالتوكل في قوله تعالىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: ٢١٧] قرن بين اسم العزيز والرحيم، فاجتمع وصفان وصف العزة والمتضمن قوّته وقدرته ووصف الرحمة؛ لأن الإنسان يعتمد علىٰ من يعتقد برحمته له ورأفته به مع قوته علىٰ تحقيق مراده أكثر ممن يرحمه ولا قوة له ولا قدرة، أو قوي قادر إلا أنه لا يرحمه، قال الشيخ السعدي: «والتوكل هو اعتماد القلب علىٰ الله تعالىٰ في جلب المنافع ودفع المضار، مع ثقته به، وحسن ظنه بحصول مطلوبه، فإنه عزيز رحيم، بعزته يقدر علىٰ إيصال الخير ودفع الشر عن عبده، وبرحمته به يفعل ذلك»(٢).

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨]، فأخبر تعالىٰ أن كلّ من يدعىٰ من دون الله عاجز لا يمكنه جلب نفع ولا دفع ضرّ، وأن الخالق وحده القادر علىٰ ذلك، ولو أراد أن يرحم المخلوق فرحمته لا يردها أحد؛ ولهذا فالتوكل لا ينبغي أن يكون إلا عليه، هو الكافي لكل ما أهمّ العبد(٣)، وقد جمع سبحانه بين وصف الرحمة وأنه المستعان للعبد للدّلالة

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٨، ص١٨٠، وفتح البيان في مقاصد القرآن، لصديق القنوجي، ج١٤، ص٢٤٢، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٨٧٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٥٩٩.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص٧٢٥.

علىٰ قدرته علىٰ نفع من استعان به ودفع الضرّ عنه؛ فهو الرحمن القادر، قال تعالىٰ: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٢].

فهذا وصف الخالق: رحمة مع قدرة علىٰ جلب الخير ودفع الشّر، وأما المخلوق فيوصف بالرحمة؛ لكن ليس كلّ من رحمه يقدر علىٰ جلب الخير له ودفع الضّر عنه، بل نجده في كثير من الأحيان يقف أمامه راحمًا عاجزًا، فحين يمرض لنا مريض تأخذنا به الرحمة، ونتمنىٰ أن نقدّم له ما يخفف من آلامه، إلا أن شعور العجز مع الرحمة لا يكاد ينفك عنّا في مثل هذه الأحوال، فلا يجد المرء إلا خالقه يلجأ له معتقدًا أنه وحده الرحيم القادر: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠].

وهذا نوح ـ عليه السلام ـ مع شدّة رحمته بابنه إلا أنّه يعجز عن هدايته وعن إقناعه بالركوب في السفينة للنجاة من الغرق، قال تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٤٢ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾ [هود: ٤٢، ٤٣]، فنادىٰ ابنه وأخبره بأنّه لا يمكنه النجاة دون أن تناله الرحمة وأن الذي سينجو هذا اليوم هو من شملته رحمة الخالق فينجي من يشاء ويهلك من يشاء(١)، ولكنّه لم يجب نداءه فغرق، وبقي يعتصر قلبه حزنًا علىٰ ابنه إلا أنّه غير قادر علىٰ جلب خير له أو دفع ضرّ عنه، فعاد بالنداء هذه المرّة لخالقه، قال تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥]، قال الشيخ السعدي: «لعله عليه الصلاة والسلام، حملته الشفقة، وأن الله وعده بنجاة أهله، ظن أن الوعد لعمومهم، من آمن، ومن لم يؤمن، فلذلك دعا ربه بذلك الدعاء، ومع هذا، ففوض الأمر لحكمة الله البالغة»(٢)، فأخبره الله بأنّ هذا الابن عمل غير صالح ونهاه عن الدعاء له فاستجاب ـ عليه السلام ـ لأمر خالقه.

(١) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٢، ص٤١٧.

(٢) تفسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٣٨٢.

وهذا موسىٰ ـ عليه السلام ـ يرىٰ بني إسرائيل وما حلّ بهم من العذاب علىٰ يد فرعون، وتتملكه الرحمة بهم، إلا أنه لا يملك أن يدفع عنهم شيئًا أو يجلب لهم نفعًا؛ ولهذا توسل موسىٰ وقومه برحمة الله أن ينجيهم من فرعون وقومه؛ لأنه الرحيم القادر علىٰ دفع الضّر عنهم، قال تعالىٰ: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يونس: ٨٦].

وهذا نبينا ﷺ يقف عاجزًا عن جلب النفع ودفع الضّر ممن بلغت رحمته به وشفقته عليه الشيء الكثير، فعمّه أبو طالب مات علىٰ الكفر، وقد عجز أن ينفعه في الدنيا بالهداية للحق وفي الآخرة بالنجاة من النار، قال تعالىٰ مخاطبًا إياه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]، ويمرّ علىٰ أصحابه في مكة وهم يعذّبون وتأخذه الرحمة بهم إلا أنه لا يملك لهم من الأمر شيئًا، فكان يمرّ علىٰ آل ياسر وهم يعذّبون فيقول لهم: «**صبرًا يا آل ياسر فإن موعدكم الجنة**»(١).

ويرىٰ ابن ابنته وهو يحتضر فتفيض عيناه بالدمع رحمة به إلا أنه يقف عاجزًا أمامه لا يملك له نفعًا ولا يدفع عنه ضرًا، فيقول له سعد: يا رسول الله، ما هذا؟ فقال: «**هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء**»(٢).

وكذلك الحال حين توفي ابنه إبراهيم، جعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وأنت يا رسول الله؟ فقال: «**يا ابن عوف، إنها رحمة**». ثم أتبعها بأخرىٰ، فقال ﷺ: «**إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضىٰ ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون**»(٣).

---

(١) المستدرك علىٰ الصحيحين، للحاكم، كتاب معرفة الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم، باب إيذاء لكفار آل ياسر، ج٤، ص٤٧٠، وصححه الألباني.

(٢) سبق تخريجه، ص٣٧٣.

(٣) رواه البخاري من حديث عبد الرحمن بن عوف، كتاب الجنائز، باب: قول النبي ﷺ: «إنا بك لمحزونون»، رقم الحديث ١٣٠٣، ص ٢٥٤.

وجاء التصريح بوصف العجز عن جلب الخير ودفع الضّر في حقه ﷺ حيث أمره تعالىٰ أن يقول لقومه: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، فإذا كان هذا في حق الأنبياء وفي حق نبينا ﷺ سيّد الأولين والآخرين وخليل الرحمن، فكيف بغيره من الخلق، فهم وإن رحموا إلا أن قدرتهم علىٰ جلب النفع للمرحوم أو دفع الضر عنه قاصرة، وأمّا الخالق فإنّ رحمته كاملة تامّة، فإذا رحم فإنّه قادر علىٰ جلب الخير ودفع الضّر لمن رحمه، وهذا فارق عظيم بين رحمة الخالق ورحمة المخلوق.

٣ ـ الفرق في الحكمة:

رحمة الخالق مقترنة بالحكمة دائمًا فلا تخرج عنها بحال من الأحوال، ورحمة المخلوق قد لا تقترن بالحكمة.

والمقصود أن الخالق ـ سبحانه ـ حكيم فحين يرحم عباده الرحمة الخاصة فإنّ هذه الرحمة يُنزلها علىٰ المستحقّ لها، وأمّا الذي لا يستحقّ الرحمة وهو غير أهل لها فإنّه يمنع عنه هذه الرحمة، وأمّا المخلوق فصفاته يعتريها النقص فقد يرحم من لا يستحقّ الرحمة، وبالمقابل فقد يمنع رحمته عمّن يستحقها.

فالرحمة إنّما تحسن إذا كانت عن حكمة؛ ولهذا يقرن ـ تعالىٰ ـ بين رحمته وبين وحكمته في عدّة مواضع من كتابه(١)، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [التوبة: ٧١]، فاسم الحكيم هنا تعليل للجزاء بالرحمة وأنه رحمهم لاستحقاقهم لها(٢).

---

(١) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم، ج١، ص١٤٠.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج١٠، ص٢٦٣.

وكما هو معلوم فإن مشيئة الخالق مستلزمة لحكمته، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]، فإذا اقترنت رحمته بمشيئته دلت علىٰ أن رحمته تابعة لحكمته ومن الآيات التي اقترنت فيها الرحمة بالمشيئة، قوله تعالىٰ: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥]، فصرّح بأن رحمته خاصة بخلق دون خلق وأنه يخصّ بها من شاء من عباده وهذا وفق حكمته.

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورىٰ: ٨]، فهو سبحانه لو شاء لرحم الناس كلّهم فكانوا جميعهم علىٰ الهدىٰ وهو قادر علىٰ ذلك؛ لكن رحمته لا ينالها إلا من يستحقها، فلا يدخل فيها إلا من شاء من خواص خلقه المستحقين لها، وأما أهل الظلم فليسوا مستحقين لها ولن يجدوا لهم من دون الله وليًا ولا نصيرًا(١).

وانظر كيف خاطب إبراهيم ــ عليه السلام ــ أباه حين أراد أن يدعوه للتوبة فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٥]، فربط بين الخوف عليه من العذاب باسم الرحمن ليُعلِمه أنه لو أصابه العذاب فإن الخالق اسمه الرحمن؛ فلن يعذب إلا من لا يستحق ذرة من الرحمة، ولو كان فيه سبب موجب للرحمة لوسعته رحمة الخالق(٢).

وقد يظن الظّان أن فلانًا من الناس لا يستحق رحمة الله، ولا عبرة بذلك الظن، بل الخالق هو الذي يعلم من يستحقها ومن لا يستحقها، قال تعالىٰ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍۚ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٧٥٣.

(٢) انظر: ولله الأسماء الحسنىٰ فادعوه بها، لعبد العزيز الجليل، ص١٣٦.

وأمّا المخلوق فإنّه وإن علت منزلته وقدره، فحكمته قاصرة، فقد يرحم أناسًا غير مستحقون لها وقد يقسو علىٰ أناس وهم مستحقين لها، قال تعالىٰ عن نبيه ﷺ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨، ١٢٩]، فظنّ النبي ﷺ يوم أحد أن رؤساء من قريش غير مستحقين للرحمة، فدعا عليهم ولعنهم ـ واللعنة دعاء بالطرد من رحمة الله ـ لكنه تعالىٰ نهاه عن ذلك؛ لأن رحمته سبحانه ليست بيد أحد من البشر حتىٰ ولو كان أكرم الخلق، بل الأمر راجع إلىٰ الخالق إن اقتضت حكمته أن يرحمهم فيمنّ عليهم بالإسلام رحمهم، وإن اقتضت الحكمة أن يبقيهم علىٰ الكفر فهم الذين ظلموا أنفسهم، فهو الذي يعلم المستحقّ من غيره، وقد تاب الله علىٰ أولئك الذين لعنهم ﷺ وأسلموا، فشملتهم الرحمة.

وقد عاتب الله نبيه ﷺ علىٰ الأعمىٰ الذي جاءه يسأله عن أمر من أمور الدين وألحّ عليه، بينما كان ﷺ مشتغلًا مع بعض عظماء قريش يناجيه ويعرض عليه الإسلام طامعًا في إسلامه، فلمّا أكثر عليه ابن أم مكتوم عَبَس في وجهه وأعرض عنه، قال تعالىٰ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ [عبس: ١، ٢]، فوصف ابن أم مكتوم بوصف يستدعي الرحمة والشفقة عليه، بينما قابله ﷺ بالعبوس(١)، فكان ﷺ يكرمه بعد ذلك ويُقبل عليه.

وممن يستحق الرحمة الطفل الصغير، ذلك أنه عاجز بريء عن قبائح الأعمال غافل جاهل فيُرحم ويُعلّم ويُرشد ويُشفق عليه(٢)، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا**»(٣)، ويزداد استحقاقهم لها إذا كانوا أبناءه؛ ولهذا لمّا استنكر الأعرابي تقبيل النبي ﷺ للصغار وأخبره

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٨، ص٣١٩، والتحرير والتنوير، لابن عاشور، ج٢٩، ص١٠٤.

(٢) انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوي، ج٥، ص٤٩٥.

(٣) رواه الترمذي، كتاب البر والصلة عن رسول الله ﷺ باب ما جاء في رحمة الصبيان، رقم الحديث ١٩٢٠، ص٤٣٩، وقال حسن صحيح، وصححه الألباني.

أن لديه عشرة من الأبناء لم يقبّل أحدهم وصفه ﷺ بأنه منزوع الرحمة وأخبره أن من لا يرحم من يستحق الرحمة فلن ينال رحمة الخالق ولن يستحقها هو أيضًا، جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قبل رسول الله ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسًا، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدًا، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: «**من لا يرحم لا يرحم**»[1].

والشيخ الكبير الذي كَبُر في سنّه ورقّ عظمه وضعفت قوته هو من أهل الرحمة، ويزداد استحقاقه لها إذا كان والدًا؛ ولهذا جاءت الوصاية بهما في قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤]، ومع أن الصغار وخاصة الأبناء، والكبار وخاصة الآباء من أهل الرحمة، إلا أننا نجد من لا يرحم أبناءه مع استحقاقهم للرحمة حتىٰ يصل الأمر لقتلهم خشية الفقر وهذا سفه وجهل منهم، وهناك من الأبناء من لا يرحم والديه مع استحقاقهم للرحمة حتىٰ يصل الأمر إلىٰ العقوق والتخلي عنهم مع كبر سنّهم وشدة حاجتهم، أما الخالق سبحانه فلا يمكن أن يمنع رحمته عمن يستحقها، بل المخلوق هو من يسدّ علىٰ نفسه باب الرحمة.

وممن يستحق الرحمة الجاهل فإن جهله مدعاة لرحمته وتعليمه، وقد ذكر أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن أعرابيًا قام إلىٰ ناحية في المسجد، فبال فيها، فصاح به الناس. فقال رسول الله ﷺ: «**دعوه**» فلما فرغ أمر رسول الله ﷺ بذنوب فصب علىٰ بوله[2]، وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: قام رسول الله ﷺ في صلاة وقمنا معه، فقال أعرابي وهو في

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب: رحمة الولد و تقبيله و معانقته، رقم الحديث ٥٩٩٧، ص ١١٢٦.

(٢) رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذ حصلت في المسجد، وأن الأرض تطهر بالماء من غير حاجة إلىٰ حفرها، رقم الحديث ٦٦١، ص١٣٣.

الصلاة: اللهم ارحمني ومحمدا، ولا ترحم معنا أحدا. فلما سلم النبي ﷺ قال للأعرابي: «**لقد حجرت واسعًا**». يريد رحمة الله[1]، فالرجل دعا لنفسه وللرسول ﷺ بالرحمة دون من سواهما لِمِا رأىٰ من رحمته ﷺ به وقسوة غيره عليه، ولهذا كان بعض أهل العلم يبدؤون مصنفاتهم بقولهم: «اعلم رحمك الله» لأن هذا الجاهل مستحق للرحمة، إلا أن كثيرًا من الناس لا يرحمونه فنجدهم يستهزؤون به ويعتدون عليه بالقول أو الفعل مع علمهم بجهله.

فهؤلاء كلهم ممن يستحق الرحمة لكنّ المخلوق قد يغلظ عليهم ويقسو، وبالمقابل هناك من لا يستحق الرحمة، ومع ذلك فقد يرحمهم الناس ويتأولون ذلك، فالكفار الحربيون مثلًا لا يصح الامتناع عن قتلهم بدعوىٰ الرحمة، قال تعالىٰ: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾[الفتح: ٢٩][2]، فلا يستحقون الرحمة؛ لأنهم حاربوا دين الله، ووقفوا في طريقه، واعتدوا علىٰ أهل الإيمان.

وممن لا يستحق الرحمة أيضًا أصحاب الحدود والعقوبات كالزناة فلا تصح رحمتهم بحيث تترك عقوبتهم؛ لأنهم ليسوا أهلًا لها، ومن الناس من يتمنّىٰ عدم إقامة الحدّ عليهم رحمة بهم، ويسوّغ ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام: «**إنما يرحم الله من عباده الرحماء**»[3]، وهذا من وضع الشيء في غير موضعه، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ فهؤلاء يستحقون الرحمة من وجه ويستحقون القسوة من وجه آخر فيغلظ عليهم من جانب فلا يرحمون، وهذا من جهة إقامة الحدّ عليهم، لكن تحسن الرحمة بهم من جانب آخر فيحسن لهم ويدعىٰ لهم[4]، قال الشيخ السعدي في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، رقم الحديث ٦٠١٠، ص١١٦٤.

(٢) انظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج١٥، ص٢٩٤، وشرح رياض الصالحين، لابن عثيمين، ج١، ص٧٩٣.

(٣) سبق تخريجه، ص٣٧٣.

(٤) انظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج١٥، ص٢٩١، ٢٩٤.

جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٢]: «هذا الحكم في الزاني والزانية البكرين، أنهما يجلد كل منهما مئة جلدة، وأما الثيب، فقد دلت السنة الصحيحة المشهورة، أن حدّه الرجم، ونهانا تعالىٰ أن تأخذنا رأفة بهما في دين الله، تمنعنا من إقامة الحدّ عليهم، سواء رأفة طبيعية، أو لأجل قرابة أو صداقة أو غير ذلك، وأن الإيمان موجب لانتفاء هذه الرأفة المانعة من إقامة أمر الله، فرحمته حقيقة، بإقامة حد الله عليه، فنحن وإن رحمناه لجريان القدر عليه، فلا نرحمه من هذا الجانب، وأمر تعالىٰ أن يحضر عذاب الزانيين طائفة، أي: جماعة من المؤمنين، ليشتهر ويحصل بذلك الخزي والارتداع، وليشاهدوا الحد فعلًا فإن مشاهدة أحكام الشرع بالفعل، مما يقوىٰ بها العلم، ويستقر به الفهم، ويكون أقرب لإصابة الصواب، فلا يزاد فيه ولا ينقص»(١).

وهناك من يرحم أصحاب الحدود والعقوبات عند إقامة الحدّ عليهم معتقدًا أن هذه العقوبات قسوة وغلظة وتنافي الإنسانيّة، وهذه علىٰ أنها رحمة في غير محلّها إلا أنها تتضمن معتقدًا فاسدًا قد يصل بصاحبه للكفر إذ هو في حقيقته قدح في الشريعة وفي المشرّع وهو الله.

فالإفراط في الرحمة بأصحاب الحدود والعقوبات بحيث يتمنّىٰ ألا يقتل القاتل، وألا تقطع يد السارق، وألا يرجم الزاني كل هذا من نقص المخلوق ففيه صفة الرحمة لكنها بلا حكمة، بل بجهل وسفه حيث يريد بهذا المرحوم الخير ولكنه يوقعه في الشّر، فهو لا يستحق هذه الرحمة من هذا الوجه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «العقوبات الشَّرعيَّة كلَّها أدوية نافعة، يصلح الله بها مرض القلوب، وهي من رحمة الله بعباده. ورأفته بهم، الدَّاخلة في قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فمن ترك هذه الرَّحمة النَّافعة لرأفة يجدها بالمريض، فهو الَّذي أعان علىٰ عذابه وهلاكه، وإن كان لا يريد إلَّا الخير، إذ هو في ذلك جاهل أحمق»(٢).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٥٦١.

(٢) مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج١٥، ص٢٩٠.

وقد جاء في صحيح البخاري عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن قريشًا أهمتهم المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: من يكلم رسول الله ﷺ ومن يجترئ عليه إلا أسامة، حب رسول الله ﷺ فكلم رسول الله ﷺ فقال: «**أتشفع في حدّ من حدود الله**». ثم قام فخطب، قال: «**يا أيها الناس، إنما ضل من قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحدّ، وايم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها**»(١)، فالرحمة التي وقعت في قلوبهم تجاه المخزومية وطلبهم منع إقامة الحدّ عليها وتشفّع أسامة لها رحمة بها، ليست من الرحمة المحمودة، إذ أن هذا سيتضمن ضررًا أكبر من انتهاك حدود الله من قِبل علية القوم وغير ذلك من المفاسد، لكنّ المخلوق قليل الحكمة فينظر بعين الرحمة لمن لا يستحقها.

والشيطان يدفع الإنسان للإسراف في أموره كلها، فإما أن يجعله يتمادىٰ في الرحمة حتىٰ يرحم من لا يستحقها أو يجعله يتمادىٰ في القسوة حتىٰ يقسو علىٰ من يستحق الرحمة(٢).

هذا فيما يتعلّق بالرحمة الخاصّة، والتي هي في حقّ الخالق موافقة للحكمة، حيث يرحم بها المستحق فقط، بينما المخلوق قد يرحم من لا يستحق ويقسو علىٰ المستحق، أما الرحمة العامّة، ومع أنها مطلقة وشاملة للخلق كلّهم المستحق وغير المستحق، إلا أنها مقترنة بحكمته أيضًا، فلا يُظنّ أنّه حين يعطيها غير المستحق أنّها غير موافقة للحكمة، فنحن نعلم يقينًا أنّ أفعال الخالق كلّها لا تخرج عن الحكمة بحال من الأحوال، ولو ظهر لنا خلاف ذلك، فهو وإن رحم من لا يستحق الرحمة إلا أن من الحكمة أن يرحمهم لوجود مصالح أخرىٰ تتحقق من رحمته تعالىٰ بهم، قال تعالىٰ: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر: ٢]، فالرحمة هنا هي الرحمة العامة

(١) أخرجه البخاري، كتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة في الحدّ إذا رفع إلىٰ السلطان، رقم الحديث٦٧٨٨، ص١٢٩٥.

(٢) انظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج١٥، ص٢٩٢.

بدليل أنه جعلها للنّاس عمومًا، وليس أهل الإيمان فقط، قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهو العزيز في نقمته ممن انتقم منه من خلقه، بحبس رحمته عنه وخيراته، الحكيم في تدبير خلقه، وفتحه لهم الرحمة إذا كان فتح ذلك صلاحًا، وإمساكه إياه عنهم إذا كان إمساكه حكمة»(١).

فهي رحمة عامّة وسعت كل مخلوق، ووصلت إلىٰ كل حيّ، فلا يوجد محروم من هذه الرحمة، سواء كان مستحقًا للرحمة أو غير مستحق لها، قال الغزالي: «والرحمة العامة هي التي تتناول المستحق وغير المستحق. ورحمة الله تامة عامة. أما تمامها: فمن حيث أراد قضاء حاجات المحتاجين قضاها. وأما عمومها: فمن حيث شمولها المستحق وغير المستحق، وعمّ الدنيا والآخرة، وتناول الضرورات والحاجات والمزايا الخارجية عنها، فهو الرحيم المطلق حقًا»(٢)؛ لأنّ هذه الرحمة يحتاجها كلّ النّاس فلا قيام لهم ولا بقاء بدونها، ولولاها لما صلحت الدنيا للعيش عليها.

فهذه الرحمة وسعت الكون كلّه، ودخل فيها العلوي منه والسفلي، فهي واصلة لكل من فيه(٣)، وكل محتاج إلىٰ الرحمة فإنه يدخل فيها وتصله الرحمة(٤)، ومما يدل علىٰ كونها مطلقة:

- اقتران الرحمة بالعلم دليل علىٰ أن رحمته تبلغ ما بلغه علمه، وهذا دليل سعتها وأنها ليست خاصة بخلق دون خلق فإن علم الخالق لا يخرج عنه مخلوق(٥) وكذلك رحمته لا يخرج عنها مخلوق، قال تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].
- واقتران الرحمة بالاستواء علىٰ العرش دليل أيضًا علىٰ سعتها، كما في قوله تعالىٰ:

(١) جامع البيان، للطبري، ج١٩، ص٣٢٨.

(٢) المقصد الأسنىٰ، للغزالي، ص٦١.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٧٣٢.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج٢٤، ص٩١.

(٥) انظر: شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين، ج١، ص٢٤٩.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، قال الشيخ السعدي: «﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ الذي هو سقف المخلوقات، وأعلاها، وأوسعها، وأجملها. ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ استوىٰ علىٰ عرشه، الذي وسع السّموات والأرض باسمه الرحمن، الذي وسعت رحمته كل شيء فاستوىٰ علىٰ أوسع المخلوقات، بأوسع الصفات»(١).

• ومما يدل علىٰ ذلك أيضًا اقتران الربوبية بالرحمة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٢، ٣] يقول الإمام ابن القيم: «واقتران ربوبيته برحمته كاقتران استوائه علىٰ عرشه برحمته. فـ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ مطابق لقوله ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فإن شمول الربوبية وسعتها بحيث لا يخرج شيء عنها أقصىٰ شمول الرحمة وسعتها. فوسع كل شيء برحمته وربوبيته، مع أن في كونه ربًّا للعالمين ما يدل علىٰ علوه علىٰ خلقه وكونه فوق كل شيء»(٢)، فاقترنت الرحمة بالعلم تارة، وبالعرش تارة، وبالربوبية تارة أخرىٰ، وكل هذا دليل علىٰ كونها واسعة مطلقة.

وبهذا عُلم الفارق العظيم بين رحمة الخالق المقرونة بالحكمة وبين رحمة المخلوق المقرونة بعدم الحكمة.

٤ ـ الفرق في العلم: رحمة الخالق مع علم، ورحمة المخلوق مع جهل.

الخالق علمه محيط بكل شيء يعلم ظواهر الأمور وبواطنها، ويعلم ما كان وما سيكون ومالم يكن لو كان كيف يكون، ويعلم مآلات الأمور.

فهو سبحانه أعلم بنا من أنفسنا فلا يريد لنا إلا الخير، ولا يأمرنا إلا بما فيه مصلحه، وأمّا المخلوق فقد يريد شيئًا والخير في عكسه(٣)؛ ولهذا فحين يرحم الخالق أحدًا فإنه يريد

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٥٨٥.

(٢) مدارج السالكين، لابن القيم، ج١، ص٩٤.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٤٦٠.

له الخير حتىٰ لو كان ظاهره الشّر، لعلمه المطلق والمحيط بكلّ شيء، والمخلوق حين يرحم أحدًا فقد يضرّه وهو يظنّ نفعه؛ لنقص علمه ومحدوديّته.

ومن ذلك مَنْع رحمته عن بعض عباده لعلمه بعدم صلاح الرحمة لهم(1)، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٥]، فعلمه للغيب وأنه لو رحمهم وكشف عنهم الضّر لطغوا وبغوا جعله سبحانه يمسك رحمته عنهم.

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١]، فيخبر ـ تعالىٰ ـ أنه برحمته وفضله زكاكم وطهركم، وأنّه عليم بمن يستحق أن يرحمه فيزكيه ومن لا يستحق ذلك فلا يزكيه.

ورحمته للخلق بإنزال الكتب وإرسال الرسل إنما هي لعلمه سبحانه بحاجتهم لذلك، وأن الخير والصلاح في إنزال هذه الرحمة لهم، فرحمهم وتفضل عليهم(2)، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الدخان: ٣- ٦].

ومتىٰ علم سبحانه أن هذا القضاء خير فإنه يقضيه رحمة بالعباد، حتىٰ لو ظهر للمخلوق أنه شرّ، فأم موسىٰ ـ عليه السلام ـ قد أمرها الخالق أن ترمي بابنها في اليمّ، وكان هذا رحمة عظيمة به، إلا أنّ فؤادها أصبح فارغًا رحمة بصغيرها وشفقة عليه، فكان سبحانه يعلم ما سيحصل لموسىٰ من الحفظ وجهلت ذلك؛ ولهذا قال في آخر القصة: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١٣]، فوصف أكثر الناس بعدم العلم، قال الإمام ابن كثير: «أي: حُكْمَ الله في أفعاله وعواقبها المحمودة، التي هو المحمود عليها في الدنيا والآخرة، فربما يقع الأمر كريها إلىٰ النفوس،

(١) انظر: أضواء البيان، للشنقيطي، ج٢، ص١٤٤.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٧٧٢.

وعاقبته محمودة في نفس الأمر»[1].

وكذلك الحال في قضاء الله لمريم أن تلد عيسىٰ ـ عليه السلام ـ من غير أب فوصفه بأنه رحمة من الله، قال تعالىٰ: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢١]، مع أن مريم ـ عليها السلام ـ لمّا جاءها المخاض قالت: ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣]، فهو سبحانه ـ قد علم ما يتضمنه هذا القضاء من الخير وجهلت ذلك، فالخالق يوصل رحمته لعباده وإن ظهر لهم أنها شرّ؛ لأن الخالق يعلم مآلات الأمور فيكون هذا البلاء هو عين الرحمة.

وهكذا العقوبات التي شرعها الخالق هي أثر من آثار رحمته فكما أن الوالد يرحم ولده، لكنّه يعاقبه ليؤدبه؛ فمعاقبته رحمة به، وكما أن الطبيب يرحم مريضه لكنّه يعطيه الدواء المرّ[2]، فإعطاؤه الدواء رحمة له؛ فالعقوبات ظاهرها أنها قسوة، إلا أن الخالق يعلم المصالح التي تحصل من ورائها فشرعها رحمة بالعباد.

أما المخلوق فوصفه الجهل، وعلمه بمآلات الأمور محدود، وعلمه بالغيب معدوم؛ ولهذا فقد يرحم ويعطي مريدًا لإيصال الخير إلىٰ المرحوم، ولا تكون المصلحة في ذلك، بل يكون فيها شرّ عظيم وضرر بالغ، وقد يرحم بلا علم فيقع في مخالفة أمر الله.

وقد أخذت نوح ـ عليه السلام ـ الرحمة بابنه فدعا ربّه أن ينجيه، قال تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ [هود: ٤٥]، وهذه رحمة ينقصها العلم؛ ولهذا عاتبه الله علىٰ ذلك فقال: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]، فأخبره بأنّ هذا الدعاء الذي دعوته رحمة

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٦، ص٢٢٤.

(٢) انظر: جامع المسائل، لابن تيمية، المجموعة السادسة، ص٣٧.

بابنك دعاء «لنجاة كافر، لا يؤمن بالله ولا رسوله»(١)، وسبب هذا الأمر هو قصور علمك، قال الشيخ السعدي في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾: «أي: ما لا تعلم عاقبته، ومآله، وهل يكون خيرًا، أو غير خير»(٢)، والمقصود أن الرحمة عند المخلوق قد تقترن بعدم العلم فتحمل العبد علىٰ مخالفة أمر الله، وأنّ هذا يقع حتىٰ من الكمّل، فرحمة نوح ــ عليه السلام ـ اقترنت بعدم العلم، فسأل مالا يجوز له شرعًا.

ولو تأمّلنا في قصة موسىٰ مع الخضر لظهر الفارق جليًا بين رحمة الخالق والمخلوق؛ فموسىٰ ـ عليه السلام ـ علىٰ علوّ منزلة علمه وحكمته، لمّا رأىٰ الخضر خرق السفينة وقتل الغلام وبنىٰ الجدار ــ وقد فعل ذلك بأمر من الله وتعليم منه ــ أخذته الرحمة بأصحاب السفينة وبالغلام، واعترض علىٰ بناء الجدار، لأنّ علمه قاصر فحكمه علىٰ ما ظهر له، وكان يظّن أن ما فعله الخضر مع أصحاب السفينة والغلام شرّ بهم وقسوة، مع أن فيه الخير والصلاح والرحمة كما هو معلوم، وبالعكس في قصة الجدار فكان تحت الجدار كنز لغلامين يتيمين تقتضي الرحمة بهما ألا يطلع أحد عليه حتىٰ يبلغا ــ وقد علم الخضر ذلك بتعليم الله له ـ فرحمة بالغلامين بنىٰ الجدار، لكن موسىٰ لا علم له بذلك فعارض الخضر عند بناء الجدار معللًا ذلك بأنهم قوم لا يستحقون، ولهذا قال الخضر: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢]، قال الإمام ابن كثير: «أي: هذا الذي فعلته في هذه الأحوال الثلاثة، إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة، ووالدي الغلام، وولدي الرجل الصالح، ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ﴾ لكنني أمرت به ووقفت عليه»(٣)، فإذا ظهر الفارق بين رحمة المخلوق المقترنة بالعلم ورحمة المخلوق المقترنة بالجهل، فكيف بالفارق بين رحمة الخالق الذي هو العليم علىٰ الإطلاق، ورحمة المخلوق

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٣٨٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٣٨٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٥، ص١٨٧.

الذي أصله الجهل؟!.

ومن صور اقتران رحمة المخلوق بالجهل ما يفعله بعض الآباء والأمهات الجهّال مع أبنائهم فيتركون توجيههم أو إلزامهم بما فيه مصلحة وخير لهم رحمة بهم ورأفة؛ لأنه شاقّ عليهم مانع لهم من اللذة والتنعم، أو يتركون معاقبتهم وتأديبهم علىٰ ما يفعلونه مما فيه ضرر عليهم وشرّ، رحمة بهم ورأفة، والحقيقة أن هذه الرحمة ليست رحمة حقيقية بل هي رحمة مقترنة بجهل وسفه ولهذا حذرنا الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ من ذلك فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ [التغابن: ١٤، ١٥]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ما يفعله بعض النِّساء والرِّجال الجهَّال بمرضاهم، وبمن يربُّونه من أولادهم، وغلمانهم وغيرهم في ترك تأديبهم وعقوبتهم علىٰ ما يأتونه من الشَّرِّ، ويتركونه من الخير رأفةً بهم، فيكون ذلك سبب فسادهم، وعداوتهم، وهلاكهم»(١).

وقال الإمام ابن القيم: «الرَّحْمَة صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلىٰ العبد، وإن كرهتها نفسه، وشقَّت عليها. فهذه هي الرَّحْمَة الحقيقية. فأرحم النَّاس بك من شقَّ عليك في إيصال مصالحك، ودفع المضار عنك. فمن رحمة الأب بولده: أن يكرهه علىٰ التأدب بالعلم والعمل، ويشق عليه في ذلك بالضرب وغيره، ويمنعه شهواته التي تعود بضرره، ومتىٰ أهمل ذلك من ولده كان لقلة رحمته به، وإن ظن أنَّه يرحمه ويرفهه ويريحه. فهذه رحمة مقرونة بجهل، كرحمة الأم»(٢).

وقال الشاعر:

(١) مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج١٥، ص٢٩٠.

(٢) انظر: إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لابن القيم، ج٢، ص٢٥٢.

فقسا لتزدجروا ومنْ يكُ حازمًا   فَليَقْسُ أحيانًا وحينًا يَرْحَمُ[1]

٥ ـ الفرق في الجود للمرحوم: الخالق يرحم ويجود بالفضل والإنعام علىٰ المرحوم، والمخلوق قد يرحم مع شحّ علىٰ المرحوم.

حين يرحم الخالق عبده فإنه يكرمه ويجود عليه بالنعم، ويفيض عليه بالخير، فيعطيه ما طلب، وقد يعطيه فوق ما طلب، سواء كان عطاء دنيويًا أو دينيًا، فمن يرحمه يعامله بالعطاء أيًا كان هذا العطاء.

ومن الأدلة علىٰ أن الخالق إذا رحم عبده تفضل عليه بالعطاء الديني ـ وهو أفضل أنواع العطاء وأعلاه ـ وهو للمؤمن فقط، فكما في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [الرحمن: ١، ٢]، فسمّىٰ نفسه بالرحمن ثم أعقبه بأنه علّم القرآن، فمن رحمه علّمه القرآن، ويسّر حفظه وفهمه عليه، وهذا من واسع فضله وجوده لمن رحمه[2].

ومن كرمه وجوده، مع من رحمه، أن من همّ بالحسنة فعملها فإنه يكتبها عشرًا إلىٰ سبعمائة ضعف وأكثر، وإن لم يعملها يكتبها حسنة واحدة، ومن همّ بالسيئة فعملها فإنه يكتبها عليه سيئة واحدة، فإن لم يعملها كُتبت له حسنة، فعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه ـ عز وجل ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن ربكم رحيم: من همّ بحسنة فلم يعملها، كتبت له حسنة فإن عملها، كتبت عشراً إلىٰ سبع مئة إلىٰ أضعاف كثيرة، ومن همّ بسيئة فلم يعملها، كتبت له حسنة، فإن عملها، كتبت واحدة، أو يمحوها. ولا يهلك علىٰ الله إلا هالك**»[3]، فعلل هذا الكرم والجود بوصفه ـ تعالىٰ ـ بالرحمة، فرحمته أوجبت

---

(١) شرح ديوان أبي تمام، للخطيب التبريزي، ج٢، ص٩٩، قافية الميم.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٧، ص٤٨٩، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٨٢٨.

(٣) رواه الدارمي في مسنده، كتاب الرقاق، باب من همّ بحسنة، رقم الحديث ٢٨٢٨، ج٣، ص١٨٣٣، قال الأرناؤوط: إسناده صحيح علىٰ شرط مسلم رجاله ثقات رجال الشيخين غير جعفر بن سليمان فمن رجال مسلم.

محو الذنوب ومضاعفة الحسنات.

ولهذا جاء التعبير عن نزول الرحمة بالغشيان، كما في صحيح مسلم، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطّأ به عمله لم يسرع به نسبه**»(١)، فتكون الرحمة قد استوعبت كل ذنب لهم فمحته(٢)، فهي تحيط بهم من كل الجهات فتكون كالغشاء عليهم لا ينفذهم السوء والشّر، وهذا دليل على فضله وجوده(٣)، الحاصل من رحمته.

وكما أنه يجود بالفضل والإحسان على من رحمه بالنعم الدينية فهو يجود أيضًا بالنعم الدنيوية، فجوده لا ينفك عن المرحوم إما ديني وإما دنيوي، وإما أن يجمع له الأمرين، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥]، فهذا التسخير لما في البر والبحر «من حيوانات، ونبات، وجمادات، فجميع ما في الأرض، مسخر لبني آدم، حيواناتها، لركوبه، وحمله، وأعماله، وأكله، وأنواع انتفاعه، وأشجارها، وثمارها، يقتاتها، وقد سلط على غرسها واستغلالها، ومعادنها، يستخرجها، وينتفع بها»(٤) وتسخير السفن حيث تجري في البحر فتحمل الناس وتوصلهم من مكان إلى مكان، وإمساك السماء أن تقع على الأرض،

(١) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، وعلى الذكر، رقم الحديث ٦٨٥٣، ص١١٧٣.

(٢) انظر: شرح الأربعين، لابن دقيق العيد، ص٩٦.

(٣) انظر: شرح الأربعين النووية، لصالح آل الشيخ، ص٤٩٨.

(٤) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٥٤٤.

كلّ هذا أثر من آثار رحمته يجود بها على المرحوم(١).

وقد ذكر في سورة النحل أنواعًا من النعم والجود والكرم، ثم عقّب باسمي الرأفة والرحمة؛ لأن هذا الجود والفضل من آثار رحمته(٢)، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٣- ٧].

ومن رحمه يجود عليه بالحفظ والحراسة في كل وقت من الليل أو النهار ولا يوجد أحد غير الخالق الرحيم يفعل هذا(٣)، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٢].

ومن جوده وفضله مع من رحمه ما حصل لأيوب ــ عليه السلام ــ حين نزلت عليه الرحمة(٤)، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٤٣].قال الحسن وقتادة: أحياهم الله تعالى له بأعيانهم، وزادهم مثلهم معهم، فأعطاه الغنى والمال(٥)، والولد والأهل، وهذا كلّه من أثر رحمته فلما رحمه جاد عليه بمثل هذا العطاء العظيم.

ومن أعظم العطاء لمن دخل تحت رحمة الخالق، العطاء في الآخرة؛ فمن رحمه فقد نال فضلًا وجودًا لا يماثله فضل وعطاء، قال تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٥٤٥.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٧، ص٥٥٤، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٤٣٦.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٥٢٤.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٧، ص٧٥، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٧١٤.

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره، ج٢٠، ص١١٠، وانظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٧، ص٧٥.

ٱلْـَٔاخِرَةِۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣١، ٣٢]، فقوله: ﴿ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ أي: هو ضيافة لمن يرحم، فمهما يطلب يجده حاضرًا بين يديه، بل لهم ما لاعين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر[١]، وأخبر بذلك أيضًا في قوله تعالى: ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس: ٥٧، ٥٨]، فأخبر بأن أهل الجنة مشتغلون بما فيها من النعم مع أزواجهم، ومهما تمنّوا وطلبوا حصّلوه، بل ومن أفضل النعم مخاطبة الخالق لهم وسلامه عليهم[٢]، وهذا كلّه من الرب الرحيم فاستوجبت رحمته هذا الجود والفضل والكرم.

فاستحق من يرحمه الخالق أن يُبَشّر بها لما سيناله من الرحمة المستلزمة للعطاء العظيم والكرم والجود، قال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢١]، فيبيضّ وجهه حين يبشّر[٣] قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٧].

بل إن هذا الفضل يناله حتى العبد الذي أسرف على نفسه، وفرّط حتى لم يعمل من الخير إلا القليل، جاء في الحديث الذي رواه أبو سعيد الخدري فيما يرويه النبي ﷺ عن يوم القيامة يقول: «**فيقول الله تعالى: شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط، قد عادوا حمما فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة، فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل**»[٤]، فإذا كان هذا العطاء والكرم لمن قصّر في حقّه وتعدى حدوده لكنه في دائرة

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٧، ص١٧٧، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٧٤٩.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٦٩٧، ٦٩٨.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص١٤٣.

(٤) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم الحديث ٤٥٤، ص٩٥.

الإسلام، فكيف بغيرهم ممن تسابقوا لرضاه ومحبته.

ولو يعلم العبد مقدار الرحمة التي اتصف بها الخالق لأيقن أن الخير والجود والكرم سيناله حين يطلب منه الرحمة ويدعوه رافعًا يديه، فإن من رحمه يستحي منه أن يرفع يديه ثم يردهما صفرًا لا خير فيهما[1]، فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله رحيم حيي كريم يستحي من عبده أن يرفع إليه يديه ثم لا يضع فيهما خيرا**»[2]، بل ولن يستبعد العطاء العظيم والفضل الكبير، وهو دخول الجنة، لمن رحمه، جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة، ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة، ما قنط من جنته أحد**»[3].

فمن يخصه الخالق بالرحمة الدينية، سواء في الدنيا أو الآخرة، فسيكرمه الخالق ويجود عليه إلا ولا بد، فهو صاحب الفضل العظيم، قال تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

وأما المخلوق فليس كلّ من رحمه عامله بالعطاء، بل قد يرحم ويعطي، وقد يرحم ويشحّ، وقد يرحم فلانًا ويعطيه أول الأمر، ثمّ يشحّ ويبخل عليه، وخاصة مع طول حال المرحوم فيعتاد النّاس على حاله ولا يعودون ينظرون إليه بعين الشفقة.

وسبب كونه يرحم غيره ويشفق عليه، ثم يبخل ويشح عن أن يعطيه ما يحتاج إليه، هو أن طبع المخلوق الشح والبخل، فقد أخبرنا تعالى بذلك، وهو أعلم بمن خلق، فقال: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠]، أي فلو كانت خزائن الرحمة بيدكم لأمسكتم عن الإنفاق خوفًا من ذهابها، مع أنها في

(١) انظر: فيض القدير، للمناوي ج٢، ص٢٨٩.

(٢) المستدرك على الصحيحين، للحاكم، كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر، رقم الحديث ١٨٧٤، ص١٧٠، صححه الألباني.

(٣) رواه مسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى، وأنها تغلب غضبه، رقم الحديث ٦٩٧٩.

الحقيقة لا تنفذ ولا تنتهي، لكنّ طبع الإنسان هو البخل والمنع، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾(١).

وقال الله تعالىٰ: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ٥٣] «أي: لو أن لهم نصيبًا في ملك الله لما أعطوا أحدًا شيئًا، ولا مقدار نقير، والله تعالىٰ يصف الإنسان من حيث هو، إلا من وفقه الله وهداه؛ فإن البخل والجزع والهلع صفة له، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٢]»(٢).

بل قد يصل الأمر إلىٰ أن يقسو ويجور فتزول الرحمة من قلبه بسبب الشحّ، فعن جابر بن عبد اللّه، أنّ رسول اللّه ﷺ قال: «**اتّقوا الظّلم، فإنّ الظّلم ظلمات يوم القيامة، واتّقوا الشّحّ؛ فإنّ الشّحّ أهلك من كان قبلكم. حملهم علىٰ أن سفكوا دماءهم واستحلّوا محارمهم**»(٣)، فأخبر أن الشّح هو الذي حملهم علىٰ هذه الأفعال المنافية للرحمة.

فإن استطاع المخلوق أن يتخلص من هذا الطبع فقد أفلح، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

وبهذا يظهر الفارق العظيم بين رحمة الخالق المستلزمة لكل كمال، ورحمة المخلوق المستلزمة للنقص.

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٥، ص١٢٤.

(٢) المرجع السابق.

(٣) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم الحديث ٦٥٧٦، ص١١٢٩.

المبحث الثالث
الفارق بين الخالق والمخلوق في صفة الغضب

وفيه مطلبان:

المطلـــــب الأول: معنى صفة الغضب والأدلة على ثبوتها في حق الخالق والمخلوق.

وفيه أربعة مسائل:

المسألة الأولىٰ: معنىٰ صفة الغضب في اللغة.

المسألة الثانية: معنىٰ صفة الغضب في حق الخالق.

المسألة الثالثة: معنىٰ صفة الغضب في حق المخلوق.

المسألة الرابعة: الأدلة علىٰ ثبوت صفة الغضب في حق الخالق والمخلوق.

المطلــب الثـــاني: الفارق بين الخالق والمخلوق في صفة الغضب.

المطلب الأول

معنى صفة الغضب والأدلة على ثبوتها في حق الخالق والمخلوق

المسألة الأولى: معنى صفة الغضب في اللغة:

«الغين والضاد والباء أصل صحيح يدل علىٰ شدة وقوة. يقال: إن الغضبة: الصخرة الصلبة. قالوا: ومنه اشتق الغضب، لأنه اشتداد السخط»(١)، والغَضَبُ نَقِيضُ الرِّضَا(٢).

«وقد أَغْضَبَه، وغاضَبْتُ الرجلَ أَغْضَبْتُه، وأَغْضَبَنِي، وغَاضَبه: راغَمه. وفي التنزيل العزيز: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا ﴾ [الأنبياء: ٨٧]؛ قيل: مُغاضِبًا لربه، وقيل: مُغاضِبًا لقومه»(٣).

و«رجلٌ غَضُوبٌ: شديدُ الغضب... رجلٌ غُضُبَّةٌ وغَضُبَّةٌ بفتح الغين وضمِّها إذا كان يغضب سريعًا، ويقال: غُضُبٌّ بغير هاءٍ مثله»(٤).

والغضبان: هو من امتلأ قلبه وجوارحه غضبًا فاتسع غضبه حتىٰ ملأهما(٥).

المسألة الثانية: معنى صفة الغضب في حق الخالق:

صفة الغضب من الصفات الفعلية:

صفة الغضب في حق الخالق من الصفات الفعلية المتعلقة بمشيئة الخالق وقدرته، قال الإمام ابن القيم: «وأما غضبه تبارك وتعالىٰ وسخطه فليس من صفاته الذاتية التي يستحيل انفكاكه عنها بحيث لم يزل ولا يزال غضبان»(٦).

---

(١) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، ج٢، ص٣١٩، مادة غضب.

(٢) انظر: لسان العرب، لابن منظور، ١٠، ص٧٨، مادة غضب.

(٣) المرجع السابق.

(٤) تهذيب اللغة، للأزهري، ج٨، ص١٦، مادة غضب.

(٥) انظر: بدائع الفوائد، ج١، ص١٨٩.

(٦) حادي الأرواح إلىٰ بلاد الأفراح، لابن القيم، ج٢، ص٧٦٢.

ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨١]، فكونه يحلّ ثم يزول دليل على أنه متعلق بالمشيئة، وأنه من الصفات الفعلية يفعلها وقتما يشاء[١].

وكذلك قوله ﷺ في الحديث الذي رواه أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الصدقة لتطفئ غضب الرب وتدفع عن ميتة السوء**»[٢]، فدلّ الحديث أن غضب الرب يزول بالصدقة، ومعنى ذلك أن الغضب صفة فعلية تحصل في زمن دون زمن.

قال الإمام ابن القيم: «وهذا صريح في أن ذلك الغضب العظيم لا يدوم، ومعلوم أن أهل النار إنما دخلوها بذلك الغضب، فلو دام ذلك الغضب لدام عذابهم، إذ هو موجب ذلك الغضب، فإذا رضي الرب تبارك وتعالى وزال ذلك الغضب زال موجبه، وهذا كما أن عقوبات الدنيا العامة وبلاءها آثار غضبه، فإذا استمر غضبه استمر ذلك البلاء، فإذا رضي وزال غضبه زال البلاء وخلفته الرحمة»[٣].

معنى صفة الغضب:

غضب الخالق هو غضب يليق بعظمة الخالق جلّ وعلا وجبروته، وهو دليل على كمال عظمته، وعلى جليل سلطانه[٤]، وهو يقتضي أن ينتقم الخالق ويعاقب من غضب عليه بأنواع من العقوبات، ويلعنه، ويبعده، ويحقّره[٥]، وأن يكون من الهالكين الخاسرين.

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، صالح آل الشيخ، ج٢، ص٨٢٥، ٨٢٦.

(٢) رواه الترمذي، كتاب الزكاة، باب ما جاء في فضل الصدقة، رقم الحديث ٦٦٤، ص١٦٧، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

(٣) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن القيم، ص٥٦٣.

(٤) انظر: تفسير القرآن، لمحمد العثيمين، سورة البقرة، ج١، ص٢٢٠.

(٥) انظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ج٤، ص٢٨٩، والتحرير والتنوير، لابن عاشور، ج٨، ص٢١٠.

وقد جاء في حديث الشفاعة الطويل أن الأنبياء يعتذرون للناس عندما يطلبون منهم الشفاعة بقولهم: «**إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله**»[(١)]، فدلّ الحديث علىٰ أن صفة الغضب ثابتة للخالق سبحانه من دين جميع الرسل؛ وكما هو معلوم فإن مسائل العقيدة قد اتفقت عليها الشرائع[(٢)]، وسيأتي ذكر مزيد من الأدلة النقلية علىٰ ذلك.

وَوصْف الخالق بصفة الغضب كما هو مقرر في الأدلة النقلية فهو مقرر في الفطر والعقول وأنه صفة كمال للخالق، فيقال: هذا الأمر يكرهه الله ويبغضه وهذا الأمر يحبه الله[(٣)] ويرضاه ولا تأنف منه الفطرة، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في بيان دلالة العقل علىٰ صفة الغضب للخالق: «ونحن نعلم بالاضطرار أنا إذا قدرنا موجودين: أحدهما عنده قوة يدفع بها الفساد. والآخر لا فرق عنده بين الصلاح والفساد كان الذي عنده تلك القوة أكمل»[(٤)]، وقال: «وأما الغضب مع الرضاء والبغض مع الحب: فهو أكمل ممن لا يكون منه إلا الرضىٰ والحب، دون البغض والغضب للأمور المذمومة التي تستحق أن تذم وتبغض. ولهذا كان اتصافه بأنه يعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، ويعز ويذل: أكمل من اتصافه بمجرد الإعطاء والإعزاز والرفع؛ لأن الفعل الآخر ــ حيث تقتضي الحكمة ذلك ــ أكمل مما لا يفعل إلا أحد النوعين ويخل بالآخر في المحل المناسب له»[(٥)].

فمن ظنّ أن وصف الخالق بالغضب صفة نقص فقد أخطأ؛ لأن الغاضب يتصور نفسه

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب: قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [هود: ٢٥] رقم الحديث ٣٣٤٠، ص ٦٣٧ باب: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [٣]، رقم الحديث ٤٧١٢، ص٩٠٦.

(٢) انظر: الصفات الإلهية، لمحمد الجامي، ص٢٩٥.

(٣) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم، ج١، ٤٥٨.

(٤) مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج٦، ص١١٩.

(٥) المرجع السابق، ص٩٤.

قادر علىٰ إنفاذ غضبه أما لو كان لا يقدر علىٰ إنفاذه فإنه لا يغضب بل يحزن والخالق لا يوصف بالحزن وإنما يوصف بالغضب(١)، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «الغضب إما أن يكون صفة كمال أو لا، فإن كان كمالاً فيحمد كل غضبان، وإن كان نقصاً فكيف اتصف الرب به؟ فيقال الغضب علىٰ من يستحق الغضب عليه، من القادر علىٰ عقوبته، صفة كمال. وأما غضب العاجز، أو غضب الظالم، فلا يقال: إنه كمال»(٢).

وإذا كان المخلوق يوصف بالجبن حين يستوجب الحال الغضب ولا يغضب، فكيف بالخالق؟ فالغضب إذا جاوز حدّه تعدّىٰ صاحبه وظلم، وإن نقص وصف بالجُبن وعدم الأنفة من الرذائل، أما إذا لم يتجاوز الحدّ ولم ينقص عنه كان صفة كمال فيه، فهذا حال المخلوق، والخالق من باب أولىٰ(٣).

اعتقاد أهل السنة والجماعة في صفة الغضب واعتقاد المخالفين:

وأهل السنة والجماعة يثبتون صفة الغضب للخالق سبحانه كما يليق به من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، قال الطحاوي: «والله يغضب ويرضىٰ، لا كأحد من الورىٰ»(٤)، وقال الإمام الطبري: «وقال بعضهم: الغضب منه معنىٰ مفهوم، كالذي يعرف من معاني الغضب. غير أنه ـ وإن كان كذلك من جهة الإثبات ـ فمخالف معناه منه معنىٰ ما يكون من غضب الآدميين الذىٰ يزعجهم ويحركهم ويشقّ عليهم ويؤذيهم؛ لأن الله جل ثناؤه لا تحل ذاته الآفات، ولكنه له صفة، كما العلم له صفة، والقدرة له صفة، علىٰ ما يعقل من جهة الإثبات، وإن خالفت معاني ذلك معاني علوم العباد التي هي معارف القلوب، وقواهم التي توجد مع وجود الأفعال وتعدم مع عدمها»(٥).

---

(١) انظر: شرح رياض الصالحين، لابن عثيمين، ج١، ص١٥٨.

(٢) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية، ج٤، ص٩٢.

(٣) انظر: الفوائد، لابن القيم، ص٢٠٣.

(٤) متن العقيدة الطحاوية بيان عقيدة أهل السنة والجماعة، للطحاوي، ص٢٨.

(٥) جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١، ص١٨٩، ١٩٠.

فبيّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن صفة الغضب له معنىٰ مفهوم، سواء فيما يتعلق بغضب الخالق أو المخلوق، ثمّ نبّه أن الغضب الذي يتصف به المخلوق مغاير تمامًا لما يتصف به الخالق، كما أن العلم والقدرة من الصفات المشتركة بين الخالق والمخلوق، إلا أن لكلّ منهما معنىٰ يخصّه.

وتفسير الغضب بأنه العذاب أو اللعنة لا يصح، بل العذاب واللعنة أثر وموجب للغضب، قال الإمام ابن القيم: «والقرآن مملوء بذكر سخطه وغضبه علىٰ أعدائه وذلك صفة قائمة به يترتب عليها العذاب واللعنة، لا أن السخط هو نفس العذاب واللعنة، بل هما أثر السخط والغضب وموجبهما، ولهذا يفرق بينهما كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣]، ففرّق بين عذابه، وغضبه، ولعنته، وجعل كل واحد غير الآخر، وفي الصحيحين أن النبي ﷺ كان يقول في سجوده: «**اللهم! إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصىٰ ثناء عليك، أنت كما أثنيت علىٰ نفسك**»(١)، فتأمل ذكر استعاذته ﷺ بصفة "الرضا" من صفة "السخط" وبفعل "المعافاة" من فعل "العقوبة" فالأول: للصفة، والثاني: لأثرها المترتب عليها. ثم ربط ذلك كله بذاته سبحانه، وأن ذلك كله راجع إليه وحده لا إلىٰ غيره»(٢).

فمن تأول هذه الصفة وصرفها عن معناها الحقيقي وجعل المراد منها اللعنة أو العذاب أو إرادة الانتقام أو الانتقام نفسه فقد جانب مذهب السلف ولم يوفق في العلم بهذه الصفة العظيمة للخالق سبحانه، وقولهم هذا علّلوا له بحجج عقلية باطلة منها أن الغضب هو غليان الدّم عند إرادة الانتقام، وهذا لا يليق بالله، والحقيقة أن هذا المعنىٰ ليس هو معنىٰ غضب المخلوق بل هو مقتضىٰ غضبه ولازمه، قال ابن أبي العز: «ويقال لمن تأول الغضب

(١) سبق تخريجه، ص٩١.

(٢) مدارج السالكين، لابن القيم، ج١، ٤٥٨، ٤٥٩.

والرضىٰ بإرادة الإحسان: لم تأولت ذلك؟ فلا بد أن يقول: لأن الغضب: غليان دم القلب، والرضىٰ: الميل والشهوة، وذلك لا يليق بالله تعالىٰ ! فيقال له: غليان دم القلب في الآدمي أمر ينشأ عن صفة الغضب، لا أنه هو الغضب»(١).

ولوازم صفات المخلوق لا تلزم صفات الخالق؛ فالخالق والمخلوق لا مناسبة بين صفاتهما حتىٰ يقاس هذا علىٰ هذا، فيقال لهم كما أنكم تثبتون للخالق ذاتًا دون أن تقيسوها علىٰ ذات المخلوق فكذلك يلزمكم أن تثبتوا له الصفات ولا تقيسوها علىٰ صفات المخلوق، فالمخلوق إذا غضب تنتفخ أوداجه، ويحمرّ وجهه، ويقف شعره، ويفقد صوابه، وهذه الحال لا يوصف بها الخالق عندما يغضب؛ لأنه سبحانه ليس كمثله شيء، بل يغضب غضبًا يليق به، ويدلّ علىٰ كمال عظمته وسلطانه(٢)،فمن فسره بآثاره، فإن هذه الآثار ظاهرة تُرىٰ، والخالق سبحانه لم يره أحد ولهذا لا يمكن معرفة كيفية غضبه(٣).

المسألة الثالثة: معنى صفة الغضب في حق المخلوق:

معنىٰ الغضب:

جاء في معنىٰ الغضب عند أهل العلم أقوال عديدة:

فقال الجرجاني: «الغضب تغير يحصل عند غليان دم القلب، ليحصل عنه التشفي للصّدر»(٤).

وقال الراغب الأصبهاني: «الغَضَبُ: ثوران دم القلب إرادة الانتقام»(٥).

(١) شرح الطحاوية، لابن أبي العز، ج٢، ص٣٠٦، ٣٠٧.

(٢) انظر: الصفات الإلهية، لمحمد الجامي، ص٢٩٧، وتفسير القرآن، لمحمد العثيمين، سورة البقرة، ج١، ص٢٢٠.

(٣) انظر: شرح الفتوىٰ الحموية، لصالح ال الشيخ، ص٤٠٨، ٤٠٩.

(٤) التعريفات، للجرجاني: ت: المرعشلي، ص٢٤٠.

(٥) مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، ص٦٠٨، مادة: غضب.

وقال البقاعي[١]: «هو غليان القلب بما يتأذىٰ به النفس»[٢].

ويظهر من قول الراغب والجرجاني أنهم يقصُرون الغرض من الغضب علىٰ إرادة الانتقام، وأنه لازم لغضب المخلوق، ولكن هذا غير صحيح؛ لأن من الغضب ما يكون دفعًا للأذىٰ، كما عرّفه البقاعي، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما قول القائل: «الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام " فليس بصحيح في حقنا؛ بل الغضب قد يكون لدفع المنافي قبل وجوده فلا يكون هناك انتقام أصلا»[٣].

وقال الشيخ ابن عاشور: «وحقيقة الغضب المعروف في الناس أنه كيفية تعرض للنفس يتبعها حركة الروح إلىٰ الخارج وثورانها فتطلب الانتقام، فالكيفية سبب لطلب الانتقام وطلب الانتقام سبب لحصول الانتقام. والذي يظهر لي أن إرادة الانتقام ليست من لوازم ماهية الغضب بحيث لا تنفك عنه ولكنها قد تكون من آثاره، وأن الغضب هو كيفية للنفس تعرض من حصول ما لا يلائمها فتترتب عليه كراهية الفعل المغضوب منه وكراهية فاعله، ويلازمه الإعراض عن المغضوب عليه ومعاملته بالعنف وبقطع الإحسان وبالأذىٰ وقد يفضي ذلك إلىٰ طلب الانتقام منه فيختلف الحد الذي يثور عند الغضب في النفس باختلاف مراتب احتمال النفوس للمنافرات واختلاف العادات في اعتبار أسبابه. فلعل الذين جعلوا إرادة الانتقام لازمة للغضب بنوا علىٰ القوانين العربية»[٤].

فبيّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن إرادة الانتقام ليست من لوازم الغضب، أي أنه قد يغضب لكن لا يريد

---

(١) أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي الشافعي المحدّث المفسّر الإمام العلّامة المؤرّخ، توفي سنة خمس وثمانين وثمانمائة، له "نظم الدرر في تناسب الآي والسور" في التفسير، و"الأصل الأصيل في تحريم النقل من التوراة والانجيل" و"القول المألوف في الرد علىٰ منكر المعروف". المرجع: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٩، ص٥٠٩، والأعلام للزركلي، ج١، ص٥٦، ومعجم المؤلفين، ج١، ص٧١.

(٢) نظم الدرر، للبقاعي، ج٣، ص١١٧.

(٣) مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج٦، ص١١٩.

(٤) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج١، ص١٩٧.

الانتقام، وهذا هو الصحيح، قال ابن رجب في معنىٰ الغضب: «هو غليانُ دم القلب طلباً لدفع المؤذي عنه خشية وقوعه أو طلباً للانتقام ممن حصل له منه الأذىٰ بعدَ وقوعه»(١).

إلا أن قول الشيخ ابن عاشور بأن الغضب يترتب عليه كراهية فاعله فيه نظر، فنحن نغضب من أبنائنا ولكن لا يترتب عليه كراهيتنا لهم، نعم نكره أفعالهم التي أغضبتنا لكن لا نكرههم.

ونلاحظ أن المعاني التي ذكروها جميعهم جعلوا الغضب محلّه القلب، وقد صف النبي ﷺ الغضب بأنه جمرة علىٰ قلب ابن آدم، جاء من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «**اتقوا الغضب فإنه جمرة علىٰ قلب ابن آدم ألا ترون إلىٰ انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه، فمن أحس ذلك، فليضطجع، وليتلبد بالأرض**»(٢)، لكنهم لم يذكروا معنىٰ الغضب وإنما ذكروا ما يقارن الغضب وهو غليان الدم، فالحياء يقارن حمرة الوجه، والخوف يقارن صفرة الوجه، وليست هذه الأمور هي الحياء والخوف، فكذلك غليان الدم ليس هو الغضب بل هو مقارن له(٣).

والإشكال في تعريف الغضب أنه من الصفات النفسية للمخلوق، وليس من الصفات الظاهرة التي ترىٰ كاليد والأصابع والسمع والبصر ونحو ذلك، فهذه يمكن تفسيرها وإيجاد معنىٰ كلّي يشملها؛ بينما الصفات النفسية لا يمكن إيجاد المعنىٰ الكلي لها، ولكن كل شخص يعلم معنىٰ الغضب من نفسه ويعلم أنه غضب، أمّا من فسّره فقد فسّره بآثاره كما ذكرنا(٤).

الغضب من الصفات الجبلية:

والغضب من الصفات الجبلية التي خُلق الإنسان عليها فهي صفة مركبة في أصل

---

(١) جامع العلوم والحكم، لابن رجب، ص١٩٥.

(٢) شرح السنة، للبغوي، ج١٤، ص١٤١.

(٣) انظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج٦، ص١١٩.

(٤) انظر: شرح الفتوىٰ الحموية، لصالح ال الشيخ، ص٤٠٨، ٤٠٩.

خلقته، كما قال الإمام ابن القيم: «الحكمة الإلهية اقتضت تركيب الشهوة والغضب في الإنسان أو بعضها، ولو لم يخلق فيه هذه الدواعي لم يكن إنسانًا بل ملكًا، فالذنب من موجبات البَشرية، كما أن النسيان من موجباتها، جاء في صحيح مسلم عن أنس، أن النبي ﷺ قال: «**كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون**»(١)، ولا يتم الابتلاءُ والاختبار إلا بذلك»(٢).

فهو يقع من الناس كلهم حتىٰ أفضل الخلق وهم الرسل ـ عليهم السلام، فهذا موسىٰ ـ عليه السلام ـ أخبر الله عنه أنه غضب حتىٰ ألقىٰ الألواح من يده، وهذا يونس ـ عليه السلام ـ قد تملّكه الغضب حتىٰ خرج من بين قومه مغاضبًا، وأفضل الخلق وسيد ولد آدم ﷺ يغضب، جاء في الحديث الذي روته عائشة قالت: دخل علىٰ رسول الله ﷺ رجلان، فكلماه بشيء لا أدري ما هو. فأغضباه، فلعنهما وسبهما، فلما خرجا قلت: يا رسول الله! لمن أصاب من الخير شيئًا ما أصابه هذان، قال ﷺ: «**وما ذاك؟**» قالت قلت: لعنتهما وسببتهما، قال: «**أو ما علمت ما شارطت عليه ربي؟ قلت: اللهم إنما أنا بشر، فأي المسلمين لعنته أو سببته فاجعله له زكاة وأجرًا**»(٣)، فإذا وقع من سادات الأولياء وأكمل الناس أخلاقًا فغيرهم من باب أولىٰ؛ ولهذا فإن مجرد الغضب لا يلام عليه المخلوق، وإنما يلام علىٰ آثاره السيئة.

أنواع الغضب:

الغضب في مجمله نقص وخلق سيئ، قال الغزاليّ في الدلالة علىٰ أنّ الغضب من أخلاق النّاقصين: «أنّ المريض أسرع غضبًا من الصّحيح، والمرأة أسرع غضبًا من الرّجل، والصّبيّ أسرع غضبًا من الرّجل الكبير، والشّيخ الضّعيف أسرع غضبًا من الكهل، وذو

(١) أخرجه الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، رقم الحديث ٢٤٩٩، ص٥٦٣، وقال الترمذي: هذا حديث غريب، وحسنه الألباني.

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين، لابن القيم، ص٣١٠.

(٣) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب من لعنه النبي ﷺ أو سبّه أو دعا عليه، وليس هو أهلًا لذلك، كان له زكاة وأجرًا ورحمة، رقم الحديث ٦٦١٤، ص١١٣٥.

الخلق السّيّء والرّذائل القبيحة أسرع غضبًا من صاحب الفضائل، فالرّذل يغضب لشهوته إذا فاتته اللّقمة، ولبخله إذا فاتته الحبّة، حتّىٰ إنّه يغضب علىٰ أهله وولده وأصحابه»[(١)].

إلا أن هذا الوصف ليس عامًا في كلّ غضب، بل غضب المخلوق منه المذموم ومنه المحمود.

فالمحمود، ما كان لحماية الدين، ولنصرة الحقّ، وحماية المصالح العامة، كالغضب بسبب التعدي علىٰ رسول الله ﷺ سبًّا وشتمًا، بل هو يغيظ المؤمن ويؤلمه أكثر من إراقة دمه أو نهب ماله، بل المؤمن لا يغضب لشيء كغضبه لهذا ولا يهيج الغيظ في قلبه كما يهيج له[(٢)]، وكلما كان القلب حيًّا كان غضبه لله ولرسوله أقوىٰ[(٣)]، وهو من علامات تعظيم الخالق[(٤)].

ومذموم: وهو ما كان للنفس، ولغير الحقّ، والذي يصدر عنه الظلم والعدوان[(٥)].

وحدّ الغضب المحمود الذي يعدّ كمالًا في المخلوق هو أن يأنف من الرذائل والنقائص، ومتىٰ جاوز هذا الحدّ خرج إلىٰ الجور والظلم، ومتىٰ نقص عنه خرج إلىٰ الجبن والخور[(٦)].

والمقصود أن غضب المخلوق ليس كغضب الخالق يحُمد عليه إطلاقًا، بل إما أن يرفعه غضبه إلىٰ أعلىٰ علّيين وهذا ما إذا كان لله ورسوله، وإما أن يهوي به إلىٰ أسفل سافلين

---

(١) إحياء علوم الدين، للغزالي، ص١٠٦٨.

(٢) انظر: أحكام أهل الذمة، لابن القيم، ص٥٥٧.

(٣) انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم، ج٣، ٤٢٩.

(٤) انظر: الوابل الصيب من الكلم الطيب، لابن القيم، ص٢٦.

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، ج٣، ص٣٧٠، ولسان العرب، لابن منظور، ج١٠، ص٧٨، والتحرير والتنوير، لابن عاشور، ج١، ص١٩٨.

(٦) الفوائد، لابن القيم، ص٢٠٣، والتحرير والتنوير، لابن عاشور، ج١، ص١٩٨.

فيقصُر غضبه علىٰ نفسه فلا يغضب إلا لها ولا همّ له في محارم الله التي تنتهك وحدوده التي تضيّع وشرائعه التي تعطّل(١).

أقسام الناس في الغضب:

الناس في الغضب علىٰ ثلاثة أقسام:

- منهم من يغضب لنفسه ولربه.

- ومنهم من لا يغضب لا لنفسه ولا لربه.

- ومنهم من يغضب لربه ولا يغضب لنفسه، فهو يغضب إذا رأىٰ حرمات الله وقد انتهكت في مقابل أنه يعفو عن حقّه وهذا كما كان عليه أفضل الخلق ﷺ جاء في صحيح مسلم، عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قالت: «**ما ضرب رسول الله ﷺ شيئًا قط بيده، ولا امرأةً، ولا خادمًا، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نِيل منه شيء قط، فينتقم من صاحبه، إلا أن يَنتهِك شيئًا من محارم الله، فينتقم لله عزّ وجلّ**»(٢).

- ومنهم من يغضب لنفسه ولا يغضب لربه وهذا شرّ الخلق، لا ينتفع منهم في دين ولا في دنيا(٣).

درجات الغضب:

والغضب علىٰ درجات كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية:

- فمنه ما يكون في أوله فيكون صاحبه واعيًا يقصد ما يقول، ويتصور ما يحصل، ولا يمنعه من ذلك.

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، لابن القيم، ج٢، ص٢٩٢.

(٢) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب مباعدته ﷺ للآثام، واختياره من المباح أسهله، وانتقامه لله تعالىٰ عند انتهاك حرماته، رقم الحديث ٦٠٤٥، ص١٠٢٦.

(٣) انظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج٢٨، ص٢٩٥، ٢٩٦.

- ومن الغضب ما هو أشدّ من ذلك فيمنع صاحبه من التثبت ويخرجه عن طوره، لكنّه لا يزيل عقله.

ـ ومنه ما هو أشد فيزول معه العقل كحال المسكر(١)، وكلما قوي الغضب بصاحبه أخرجه للظلم والتعدي وعدم الحكمة في تصريف الأمور.

علاج الغضب:

من أعظم ما يعالج هذا الخُلق تذكّر الأجر الأخروي الذي وُعَد به العبد حال كظم غيظه وغضبه، وقد جاءت النصوص ترغّب في كظم الغيظ والعفو عن الناس، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورىٰ: ٣٦، ٣٧]، فرغّبهم في الآخرة وزهدهم في الدنيا، وذكرهم أن هذا الثواب الأخروي هو لمن اتصف بصفات عديدة، منها المغفرة والعفو حال الغضب(٢)، فإذا تعدّىٰ عليهم أحد فإنهم لا يعاقبونه، بل يصفحون عنه، وإلا فإن الغضب يستولي علىٰ الإنسان ويغلب عليه، فيسارع ليشفي غليله وينتقم، ولا يغفر إلا من شرح الله صدره للخير(٣)، ولهذا ذكر الله صنفين من المؤمنين، كما قال ابن زيد: «صنفًا يعفون عن ظالمهم، فبدأ بذكرهم، وصنفا ينتصرون من ظالمهم»(٤)، وهم المذكورون في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورىٰ: ٤١]، ونلاحظ أنه لم يثني عليهم بعدم الغضب، فقال: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾؛ لأنه

(١) انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم، ج٥، ٤٥٦.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٧٦٠.

(٣) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٢٠، ص٥٢٢، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٧، ص٢١٠، فتح القدير، للشوكاني، ج٤، ص٦٤٧.

(٤) المرجع السابق.

طبيعة بشرية، لكنه أثنىٰ علىٰ حلمهم حال الغضب[1].

ووصفهم في آية أخرىٰ بأنهم يكظمون الغيظ ويعفون عن الناس، قال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، أي: أنهم عندما تمتلئ نفوسهم من الغيظ وهم قادرون علىٰ إمضائه والانتقام ممن غاظهم، فإنهم يتجرعونه[2]، ويعفون عمّن آذاهم؛ ولأن المخلوق قد يكظم غيظه فيترك معاقبة من أساء إليه إلا أنه لا يعفو عنه، فجاء الحث علىٰ ترك المؤاخذة مع السماحة عن المسيء[3]، ثمّ ذكر محبته لهم ليرغبوا في هذا الخلق العظيم.

والمقصود أن طبع المخلوق يدعوه إلىٰ إظهار آثار الغضب ونفسه تشتهي الانتقام، فجاءت كلّ هذه النصوص وغيرها تحثّ علىٰ كظم الغيظ والعفو عن الناس والمغفرة لهم[4].

ومن الأدلة التي جاءت بمعالجة الغضب، وحثّ الإنسان علىٰ الأمور التي تمنعه من الانتقام، وتوجب له الحلم وتعينه علىٰ ذلك، ما رواه أبو ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: إن رسول الله ﷺ قال لنا: «**إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب، وإلا فليضطجع**»[5]، قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا لأن القائم متهيء للحركة والبطش، والقاعد دونه في هذا المعنىٰ، والمضطجع ممنوع منهما، وإنما أمره بذلك لئلا يبدر منه في حال قيامه وقعوده ما يندم عليه فيما بعد»[6].

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج٢٥، ص١١١.

(٢) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٦، ص٥٧.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص١٤٨.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج٤، ص٩١.

(٥) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب ما يقال عند الغضب، رقم الحديث ٤٧٨٢، ص٨٦٨، حسنه ابن حجر، وصححه الألباني.

(٦) كشف المشكل علىٰ صحيح البخاري، لابن الجوزي، ج٧، ص٣١٥.

وجاء كذلك عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**علموا، ويسروا، ولا تعسروا، وإذا غضب أحدكم فليسكت**»[1]، فالغضب يدعو الإنسان إلىٰ أن يتكلّم بقبيح القول، فإذا ألزم نفسه بالسكوت هدأت نفسه وسكن غضبه[2].

وقال ابن العربي[3]: «والغضب يهيج الأعضاء: اللسان أولًا ودواؤه السكوت، والجوارح بالإستطالة ثانيًا ودواؤه الاضطجاع»[4].

وأمرنا بالوضوء حال الغضب؛ فعن عطية السعدي، قال رسول الله ﷺ: «**إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ**»[5].

وأمرنا بالاستعاذة من الشيطان كذلك؛ لأنه إذا استعاذ بالله من الشيطان أمكنه أن يستحضر ما يدفع غضبه، ومن أقواها استحضار أن الذي سلّط عليه فلانًا فآذاه هو الله، ولو شاء الله لدفع عنه أذاه[6]، فعن سليمان بن صرد قال: كنت جالسا مع النبي ﷺ ورجلان يستبان، فأحدهما أحمر وجهه، وانتفخت أوداجه، فقال النبي ﷺ: «**إني لأعلم كلمة لو قالها**

---

(١) رواه أحمد في مسنده، ج٤، ص٣٩، صححه الألباني، وقال الأرناؤوط: حسن لغيره.

(٢) انظر: فيض القدير، للمناوي، ج١، ص٥٢٢.

(٣) أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد المعافري المالكي، قاض، من حفاظ الحديث. صنف كتبًا في الحديث والفقه والاصول والتفسير والأدب والتاريخ، قال ابن بشكوال: ختام علماء الأندلس وآخر أئمتها وحفاظها، وتوفي سنة ٣٥٢هـ، من كتبه (العواصم من القواصم)، و (عارضة الاحوذي في شرح الترمذي) و (أحكام القرآن)، و (القبس في شرح موطأ ابن أنس). المرجع: الأعلام للزركلي، ج٦، ص٢٣٠.

(٤) فيض القدير، للمناوي، ج١، ص٥٢٢.

(٥) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب ما يقال عند الغضب، رقم الحديث ٤٧٨٤، ص٨٦٨، حسنه ابن حجر في تخريجه لمشكاة المصابيح، وضعفه الألباني.

(٦) انظر: فتح الباري، ابن حجر، ج١٠، ص٦٤٠.

ذهب عنه ما يجد، لو قالها: أعوذ بالله من الشيطان، ذهب عنه ما يجد» فقالوا له: إن النبي ﷺ قال: تعوذ بالله من الشيطان. فقال: وهل بي جنون؟»(١).

فيكون العلاج بالقلب فيستحضر بقلبه ما يدفع غضبه، ويكون باللسان بأن يستعيذ بالله من الشيطان ويسكت عن غيره، ويكون بالجوارح وذلك بالوضوء والاضطجاع.

المسألة الرابعة: الأدلة على ثبوت صفة الغضب في حق الخالق والمخلوق:

الأدلة علىٰ صفة الغضب في حق الخالق:

أولًا: الدليل من الكتاب:

١ - قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [النور: ٩].

٢ - وقوله: ﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ [طه: ٨١].

ثانيًا: الدليل من السُّنَّة:

١ ـ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما قضىٰ الله الخلق كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي**»(٢).

٢ ـ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اشتد غضب الله علىٰ قوم فعلوا بنبيه ـ يشير إلىٰ رباعيته ـ اشتد غضب الله علىٰ رجل يقتله رسول الله في سبيل الله**»(٣).

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم الحديث ٣٢٨٢، ص٦٢٨.

(٢) سبق تخريجه، ص٣٧٦.

(٣) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب ما أصاب النبي ﷺ من الجراح يوم أحد،رقم الحديث ٤٠٧٣، ص٧٧٤.

الأدلة علىٰ صفة الغضب في حق المخلوق:

أولًا: الدليل من الكتاب:

١ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴾ [الشورىٰ: ٣٧].

٢ ــــ ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٤].

ثانيًا: الدليل من السُّنَّة:

١ ــ ما جاء عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «**أن رجلا قال للنبي ﷺ: أوصني، قال:** «**لا تغضب**». فردد مرارا، قال: «**لا تغضب**»(١).

٢-وعن عبد الرحمن بن أبي بكرة قال: كتب أبو بكرة إلىٰ ابنه، وكان بسجستان، بأن لا تقضي بين اثنين وأنت غضبان، فإني سمعت النبي ﷺ يقول: «**لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان**»(٢).

(١) رواه البخاري،كتاب الأدب، باب: الحذر من الغضب، رقم الحديث٦١١٦،ص١١٨٠.

(٢) رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب: هل يقضي القاضي أو يفتي وهو غضبان، رقم الحديث ٧١٥٨، ص١٣٦٥.

المطلب الثاني

الفارق بين الخالق والمخلوق في صفة الغضب

بين غضب الخالق وغضب المخلوق فرق شاسع وبون عظيم؛ ولهذا جاءت النصوص تحذّر من عدم التفريق بين غضب الخالق والمخلوق، فعن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قالت: قال رسول الله ﷺ: «**من التمس رضىٰ الله بسخط الناس، رضي الله تعالىٰ عنه، وأرضىٰ الناس عنه، ومن التمس رضا الناس بسخط الله، سخط الله عليه، وأسخط عليه الناس**»(١)، فكأن الذي يحرص علىٰ رضا الناس ويخشىٰ غضبهم في مقابل عدم حرصه علىٰ رضا الله وعدم خشيته من غضبه، لم يستشعر الفرق بين غضب الخالق والمخلوق، فاستحق العقوبة.

وأُمرنا بالاستعاذة من غضبه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ فعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم من الفَزَع كلمات: «**أعوذ بكلمات الله التامة، من غضبه وشر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون**»(٢).

وقد أقض الخوف من غضب الخالق وسخطه مضاجع الصالحين، وأهمّ أفئدتهم، فكانوا يسألون رسول الله ﷺ عمّا يباعدهم عن غضبه، فعن عبد الله بن عمرو: أنه سأل رسول الله ﷺ: «**ماذا يباعدني من غضب الله عز وجل؟ قال: لا تغضب**»(٣).

بل وخافوا من غضب المخلوق إذا كان طريقًا لغضب الخالق، كما كان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يخشون من غضبه ﷺ عن أبي قتادة قال: «**رجل أتىٰ النبي ﷺ فقال:**

---

(١) صحيح ابن حبان، كتاب البر والإحسان، ذكر رضاء الله جل وعلا عمّن التمس رضاه بسخط الناس، رقم الحديث ٢٧٦، ج١، ص٥١٠، قال ابن مفلح في الآداب الشرعية: إسناده جيد.

(٢) رواه أبو داود، كتاب الطب، باب كيف الرقىٰ؟، رقم الحديث ٣٨٩٣، ص٦٩٨، حسنه الترمذي وابن حجر، وحسنه الألباني دون قوله: وكان عبدالله...

(٣) مسند الإمام أحمد، رقم الحديث ٦٦٣٥، ج١١، ص٢١١، أخرجه العراقي في الإحياء وقال: إسناده حسن، وقال الأرنؤوط: صحيح لغيره.

كيف تصوم؟ فغضب رسول الله ﷺ من قوله، فلما رأىٰ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غضبه قال: رضينا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًا، نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله، فجعل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يردد هذا الكلام حتىٰ سكن غضبه»(١).

وأُمرنا بعدم تولي من غضب عليه الخالق، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ [الممتحنة: ١٣]، فصرّح بالنهي عن تولي من غضب عليه ـ سبحانه ـ من اليهود والنصارىٰ وسائر أهل الكفر(٢)،

وليس الحامل علىٰ الخوف من غضب الخالق أكثر من الخوف من غضب المخلوق، هو وجود الفارق بينهما في صفة الغضب فقط، بل يضاف إلىٰ ذلك شدّة افتقار المخلوق إلىٰ خالقه وفاقته له وحاجته إليه أكثر من افتقاره وحاجته إلىٰ مخلوق مثله، فمن علم ذلك وتيقّنه كان لزامًا عليه أن يتقي غضب خالقه غاية ما يمكنه، ويجتنب ما يكرهه ويسخطه، فلا ملجأ له إلا إليه، ولا غنىٰ له عن خالقه ومولاه طرفة عين(٣).

لوازم صفة الغضب:

وصفة الغضب من الصفات المشتركة التي تطلق علىٰ الخالق والمخلوق، ومن المعلوم أن كلّ الصفات التي اشترك الخالق والمخلوق فيها للخالق منها غاية الكمال والعلوّ والشرف، وأما المخلوق فصفاته ناقصة وقاصرة، وهذا يجعل الفارق بينهما أمرًا مقطوع به، ويقطع أوهام المشابهة بين صفات الخالق والمخلوق(٤).

وكما ذكرنا في الصفات السابقة وبيّنا من أن هذه الصفات المشتركة بين الخالق

(١) رواه مسلم، كتاب الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وصوم يوم عرفة، وعاشوراء، والاثنين والخميس، رقم الحديث ٢٧٤٦، ص٤٧٧.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٨، ص١٠٣.

(٣) انظر: التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، ص٧١.

(٤) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي، ج٢، ص٢٣٧.

والمخلوق فيها قدر مشترك، وهو لا يمنع المفارقة حال الإضافة، فكذلك الحال في صفة الغضب.

فبين غضب الخالق والمخلوق قدر مشترك، لكنّ هذا القدر المشترك هو في الأذهان فقط، ولا يوجد في الخارج إلا المعنىٰ المختص، فللخالق معنىٰ من الغضب يختص به سبحانه ويليق بعظمته وجلاله، وللمخلوق معنىٰ من الغضب يختص به ويليق بنقصه وضعفه، فإذا كنّا نثبت غضب مالكٍ خازن النّار، وغضب غيره من الملائكة، ومع ذلك نعتقد أنه يفارق غضب الآدميين، فكيف بغضب الخالق وغضب المخلوق؟[1]، وإذا كان غضب المخلوق نفسه في طفولته مختلف عن غضبه في شبابه مختلف عن غضبه في حال كونه كهلًا، فكذلك غضب المخلوق لا بد أنه يختلف عن غضب الخالق، فله المثل الأعلىٰ والصفات العليا[2].

والمقصود أن الغضب من الصفات المشتركة التي يلزم منها لوازم، وهي علىٰ ثلاثة أنواع:

١ ـ لوازم بصرف النظر عمن أضيفت إليه صفة الغضب وهي المعنىٰ العام المعلوم للغضب، والذي يفهم من اللفظ مباشرة.

٢ ـ لوازم عند إضافة صفة الغضب للخالق، ومنها: الحكمة والعدل مع الغضب.

٣ ـ لوازم عند إضافة صفة الغضب للمخلوق، ومنها: عدم الحكمة في التصرف حال الغضب، وإمكان الظلم مع الغضب.

واللازم عند الإضافة هو الذي يظهر فيه الفرق بين الخالق والمخلوق في صفة الغضب، ومن الفروقات بين الخالق والمخلوق ما يلي:

---

(١) انظر: شرح الطحاوية، لابن أبي العز، ج٢، ص٣٠٦، ٣٠٨.

(٢) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، صالح آل الشيخ، ج٢، ص٨٣٦.

الفرق الأول: الفرق في صفات الكمال اللازمة:

١ ـ الفرق في القدرة حال الغضب:

إذا غضب الخالق علىٰ أحد فإنه قادر علىٰ عقوبته ولو عاقبه فإن عقابه أليم، وإذا غضب المخلوق علىٰ المخلوق فقد لا يقدر علىٰ عقوبته، ولو عاقب فليس مثل عقاب الخالق.

ومن الأدلة علىٰ هذا المعنىٰ أن الله قد حذّرنا من جزاء المغضوب عليهم يوم القيامة، وأنه شرّ الجزاء، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

وأخبر أن من يغضب عليه الخالق فقد خاب وخسر وهلك(١)، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨١].

وهو يقرن في آيات كثيرة بين غضبه وبين الوعيد بحلول العذاب علىٰ من غضب عليه، ووعيده حق، فلا يتوعد ـ سبحانه ـ بشيء إلا وهو قادر عليه، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، وقوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٦]، ويغضب ـ سبحانه ـ يوم القيامة غضبًا لم يغضب مثله قط، فيعاقب الكفّار عقوبة لا قِبل لهم بها قال تعالىٰ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٦٨ - ٧٢].

إلىٰ غير ذلك من الأدلة المتكاثرة علىٰ أن من يغضب عليه الخالق فعقابه أليم؛ هذا فيما

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٥١٠.

يتصل بالآخرة، وأما في الدنيا فقد أخبرنا الله أنه أهلك الأمم التي غضب عليها، فالخالق إذا غضب فهو قادر على إنزال العقوبة بمن غضب عليه لا يمنعه من ذلك مانع، فلا رادّ لأمره ولا معقّب لحكمه.

وكلّ الأمم التي غضب الله عليها بسبب تكذيبهم لرسله، أهلكها وأنزل عقابه الشديد بهم، قال تعالىٰ في حق فرعون وقومه: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر: ٤٤]، فالخالق لا يعجزه شيء أراده فهو قادر علىٰ إنزال العقوبة بمن غضب عليهم.

وأخبرنا ﷺ عن عقوبة سبط من بني إسرائيل غضب عليهم الخالق فمسخهم دوابّ، فعن أبي سعيد؛ أن أعرابيًا أتىٰ رسول الله ﷺ فقال: إني في غائط مضبّة، وإنه عامّة طعام أهلي ـ قال ـ: فلم يجبه، فقلنا: عاوده. فعاوده فلم يجبه، ثلاثًا، ثم ناداه رسول الله ﷺ في الثالثة فقال: «**يا أعرابي! إن الله لعن أو غضب علىٰ سبط من بني إسرائيل، فمسخهم دواب يدبون في الأرض، فلا أدري لعل هذا منها، فلست آكلها ولا أنهىٰ عنها**»[(١)].

وأخبرنا عن جزاء من تكبر واختال، وكيف أنه أمر الأرض فبلعته، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**بينا رجل ممن كان قبلكم، يتبختر بين بردين، فغضب الله عليه، فأمر الأرض فبلعته، فوالذي نفسي بيده، إنه ليتجلجل إلىٰ يوم القيامة**»[(٢)].

وكانت الكلمة يتكلم بها العبد من غضب الله تهوي به في النّار سبعين خريفًا، جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، لا يلقي لها بالًا، يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله،**

(١) رواه مسلم، كتاب الصيد والذبائح، باب إباحة أكل لحم الخيل، رقم الحديث ٥٠٤٤، ص٨٧١.

(٢) رواه أحمد في مسنده، رقم الحديث ١٠٤٥٥، ج١٦، ص٢٨٠، قال الأرنؤوط: حديث صحيح، وهذا إسناد منقطع.

لا يلقي لها بالًا، يهوي بها في جهنم»[1].

فهذا غضب الخالق وعقابه علىٰ من غضب عليه، فإذا أراد أن يعاقب عاقب وهو قادر؛ وإذا أراد أن يعفو عفا وهو قادر، ولهذا استحق اسم الحليم؛ لأنه يعفو عمّن غضب عليه، وهو قادر علىٰ إنزال العقوبة عليه[2].

وأما المخلوق فقد يغضب من شخص ويريد عقوبته، لكنّه لا يقدر، والواقع والحسّ شاهد علىٰ ذلك، وكثير من الأنبياء لم يتمكن أعداؤهم من الانتقام منهم وعقوبتهم لمّا غضبوا عليهم، مع حرصهم علىٰ ذلك، وقصة الغلام مع الملك شاهد علىٰ عجز المخلوق وأنه لا يمكنه عقوبة من يغضب عليه إلا بإذن الخالق، فقد حاول الملك بكلّ طريقة أن يقتل الغلام ولم يتمكن حتىٰ أذن الله بذلك؛ ولهذا فإن المؤمن المتوكل علىٰ الخالق لا يخشىٰ من عقاب الخلق ولا أذيتهم؛ لأنه يعلم أنهم لو اجتمعوا كلهم علىٰ إرادة الضرّ به فلن يتمكنوا إلا لو أراد الخالق، ولن ينالوا منه إلا ما أذن الله به.

وقد جاء عن سهل بن معاذ بن أنس، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**من كظم غيظًا وهو قادر أن يُنفِذه؛ دعاه الله علىٰ رؤوس الخلائق يوم القيامة حتىٰ يخيره في أي الحور شاء**»[3]، فليس كل من اغتاظ من أحد يكون قادرًا علىٰ إنفاذه، فإذا كظم غيظه وهو غير قادر علىٰ إنفاذه فليس في هذا مدح لفاعله؛ لأنه لا حيلة له إلا كظم هذا الغيظ، ولكنّ الذي يغضب ويقدر علىٰ إنفاذه، ثم يكظمه ابتغاء وجه الله فهو موعود بالثواب يوم القيامة، فتخصيص الثواب لمن كظم غيظه وهو قادر علىٰ العقوبة دليل علىٰ أن من الخلق من يكظم وهو غير قادر، وحال الناس ظاهر في هذا الأمر.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق،باب: حفظ اللسان، رقم الحديث ٦٤٧٨، ص١٢٤٣.

(٢) انظر: شأن الدعاء، للخطابي، ص٦٣.

(٣) رواه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب الحلم، رقم الحديث ٤١٨٦، ص٦٩٥، وقال الترمذي: حسن غريب، وكذا حسنه الألباني.

والمخلوق لو أنفذ عقابه فأن هذا العقاب غاية ما يصل إليه القتل، فعقابه له أمد ينتهي إليه، أما الخالق فقد يكون عقابه مستمر أبد الآبدين، وهذا في حق أهل الكفر، وقد يجعله إلى أمد، وهذا في حق أهل الكبائر من الموحدين، إلا أن نار الآخرة ليست كنار الدنيا ولا تقارن بها، جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: «**ناركم جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم**». قيل: يا رسول الله، إن كانت لكافية، قال: «**فُضِّلت عليهن بتسعة وستين جزءًا، كلهن مثل حرها**»(١).

فغمسة فيها كفيلة أن تنسي المرء ما ذاقه من أصناف النعيم في الدنيا، فعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بأنعم أهل الدنيا، من أهل النار، يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة: ثم يقال: يا ابن آدم! هل رأيت خيرًا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا، والله! يا رب! ويؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا، من أهل الجنة، فيصبغ صبغة في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم! هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا، والله، يا رب! ما مرّ بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط**»(٢)، فنسأل الله أن يجيرنا من غضبه وعقوبته.

٢-الفرق في الحلم والرحمة والعفو حال الغضب:

الخالق إذا تعدّى أحد على حدوده، يحلُم عليهم، ولا يعاجلهم بالعقوبة، ويعفو عن كثير؛ والمخلوق إذا تعدّى عليه أحد غضب وقليل منهم من يحلم ويعفو(٣)، فرحمة الخالق تسبق غضبه وغضب المخلوق يسبق رحمته.

والمقصود أن الخالق سبحانه حليم بعباده وسع حلمه الكافر والفاسق فلم يعاجلهم بالعقوبة بل أمهلهم، وذلك ليتوبوا ويرجعوا، ولو أراد لأخذهم بذنوبهم بمجرد ارتكابهم

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار، وأنها مخلوقة، رقم الحديث ٣٢٦٥، ص٦٢٥-٦٢٦.

(٢) رواه مسلم، كتاب صفات المنافقين، باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار، وصبغ أشدهم بؤسًا في الجنة، رقم الحديث ٧٠٨٧، ص١٢٢٢.

(٣) انظر: فيض القدير، للمناوي، ج٢، ص١٢.

لها، فإن الذنوب تقتضي العقوبة العاجلة، لكن حِلْمه أوجب الإمهال[(١)]، قال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في وصف الخالق: «ذو الصفح والأناة الذي لا يستفزه غضب، ولا يستخفه جهل جاهل، ولا عصيان عاص»[(٢)].

وقال الإمام ابن القيم في نونيته:

وهو الحليم فلا يعاجل عبده	بعقوبة ليتوب من عصيان
وهو العفو فعفوه وسع الورىٰ	لولاه غار الأرض بالسكان[(٣)]

ومع أن التولي يوم الزحف من الأفعال الموجبة لغضب الخالق كما أخبرنا ـ تعالىٰ ـ في قوله: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال: ١٦]، إلا أنه حلم علىٰ عباده وعفا عنهم لمّا فعلوا ذلك، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

ومع أن التعنت في السؤال وتكلّف مالا حاجة له موجب لغضب النبي ﷺ الدّل علىٰ غضب الخالق[(٤)]، إلا أنه سبحانه حلُم عمّن اقترف ذلك وعفا عنهم، فعن أبي موسىٰ الأشعري قال: سئل رسول الله ﷺ عن أشياء كرهها، فلما أكثروا عليه المسألة غضب، وقال: «**سلوني**». فقام رجل فقال: يا رسول الله، من أبي؟ قال: «**أبوك حذافة**». ثم قام آخر فقال: يا رسول الله، من أبي؟ فقال: «**أبوك سالم مولىٰ شيبة**». فلما رأىٰ عمر ما بوجه رسول الله ﷺ

(١) انظر: الحق الواضح المبين، للسعدي، ص٥٥، ٥٦.

(٢) شأن الدعاء، للخطابي، ص٦٣.

(٣) الكافية الشافية، لابن القيم، ط: ٢، ص١٧٨.

(٤) انظر: عمدة القاري، للعيني، ج٢، ص١٧٠، ١٧١.

من الغضب قال: إنا نتوب إلىٰ الله عز وجل(1)، وفي رواية مسلم(2)، فنزلت: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ١٠١].

فالخالق قد كتب علىٰ نفسه أن رحمته تسبق غضبه وهو وصف ملازم له.

يقول الإمام ابن القيم: «...وأوسع المخلوقات عرشه، وأوسع الصفات رحمته، فاستوىٰ علىٰ عرشه الذي وسع المخلوقات بصفة رحمته التي وسعت كل شيء. ولما استوىٰ علىٰ عرشه بهذا الاسم الذي اشتقه من صفته وتسمىٰ به دون خلقه، كتب مقتضاه علىٰ نفسه يوم استوائه علىٰ عرشه حين قضىٰ الخلق كتابًا فهو عنده وضعه علىٰ عرشه أن رحمته سبقت غضبه، وكان هذا الكتاب العظيم الشأن كالعهد منه سبحانه للخليقة كلها بالرحمة لهم والعفو والصفح عنهم، والمغفرة والتجاوز والستر والإمهال والحلم والأناة، فكان قيام العالم العلوي والسفلي بمضمون هذا الكتاب الذي لولاه لكان للخلق شأن آخر»(3).

فرحمة الخالق سابقة علىٰ غضبه، وكل أثر من آثار صفة الرحمة غالب لكل أثر من آثار صفة الغضب، فالرحمة أحب إليه من العذاب، والعفو أحب إليه من الانتقام، وصفة الرحمة صفة ملازمة لذاته لا تنفك عنه بحال من الأحوال كصفة العلم والقدرة والحياة والسمع والبصر فيستحيل ألا يكون رحيمًا، وأما غضبه فليس ملازمًا لذاته فلا يكون غضبان

---

(١) رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه، رقم الحديث ٧٢٩١-٧٢٩٤، ص ١٣٩٠.

(٢) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه، أو لا يتعلق به تكليف وما لا يقع، ونحو ذلك، رقم الحديث٦١١٩، ص١٠٣٧.

(٣) مختصر الصواعق المرسلة، للموصلي، ج٣، ص٨٨٠، ٨٨١.

دائمًا[1]، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد أن تسبق الرحمة الغضب، وحتىٰ الرحمة الفعلية التي هي بمشيئته فإنها سابقة لغضبه، ومن الأدلة الدالة علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ٤٥ – ٤٧]، أي فلولا أن رحمته سبقت غضبه لعجّل لأهل الكفر والمعاصي ألوانًا من العذاب، فإما أن يأخذهم عذاب من فوقهم أو من أسفلهم بخسف أو في حال انشغالهم وغفلتهم أو في حال تخوفهم من العذاب[2]، لكن رحمته سبقت غضبه فأمهلهم سبحانه وحلُم عليهم.

فكون الخالق يؤخر عقوبة العاصي، مع مجاهرته بها، وعلمه أن الخالق لا تخفىٰ عليه خافية، فتأخيره العقوبة عنه ليس لعجز عنها؛ وإنما لأن الخالق حكم بالسبق لرحمته علىٰ غضبه، فأمهلهم ليتوبوا[3].

وحتىٰ الذين قالوا عن القرآن: إنه أساطير الأولين لم يعاجلهم بالعقوبة، مع كذبهم وفجورهم وكفرهم وعنادهم[4] وتعديهم علىٰ حدوده، فلولا أن رحمته سبقت غضبه وإلا لأهلكهم لقولهم علىٰ رسوله وكتابه ما قالوا، قال تعالىٰ: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٥﴾ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ [الفرقان: ٥، ٦]، ومثلها قوله تعالىٰ: ﴿ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [المائدة: ٧٣، ٧٤]، فهؤلاء الذين قالوا عن الخالق: إنه ثالث ثلاثة تعدّوا عليه أشدّ التعدي، وقد وصف الله

(١) انظر: الفوائد، لابن القيم، ص١٨١.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٤٤١.

(٣) انظر: شرح صحيح البخارئ، لابن بطال، ج٩، ص٢٧٥.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٦، ص٩٤، تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٥٧٨.

قولهم هذا بقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٩- ٩١]، ومع ذلك يدعوهم للتوبة ويخبرهم أنه غفور رحيم قد سبقت رحمته غضبه.

بل حتىٰ المنافقون الذين هم أشّد من يستحق الغضب الموجب للعذاب فهم في الدرك الأسفل، أخبرنا الخالق بأنهم لو أتوا رسوله ﷺ فاستغفروا فإن رحمة الخالق ستسبق غضبه فيتوب عليهم، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

قال الشيخ السعدي في قوله تعالىٰ: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا﴾ [الأحزاب: ٧٣] «فله الحمد تعالىٰ، حيث ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين، الدالين علىٰ تمام مغفرة اللّه، وسعة رحمته، وعموم جوده، مع أن المحكوم عليهم، كثير منهم لم يستحق المغفرة والرحمة، لنفاقه وشركه»(١).

وانظر إلىٰ جبريل ـ عليه السلام ـ الذي هو أعلم الخلق بصفات الخالق يعلم بأن رحمة الخالق تسبق غضبه؛ ولهذا فقد كان يدسّ طين البحر في فم فرعون عندما غرق خشية أن يتلفظ بالشهادة فتسبق رحمة الخالق غضبه فينجو من عذاب الله، جاء عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قال: «**لما أغرق الله فرعون قال:** ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠]، **فقال جبريل: يا محمد! فلو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر(٢) فأدسه**

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٦٧٤.

(٢) أي طينه الأسود، المرجع: تحفة الأحوذي، للمباركفوري، ج٧، ص٤٣١.

في فيه مخافة أن تدركه الرحمة»(١)، فإذا كان هذا مع فرعون الذي تعدّىٰ علىٰ الخالق بادعائه الألوهية في قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، وغير ذلك من أنواع الكفر والشرك والظلم، ثم يخشىٰ جبريل أن يلفظ الشهادة فتسبق رحمة الخالق غضبه فيغفر له ما كان منه، فكيف بغيره؟!

قال المنّاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حدث عن سعة رحمة الله ولا حرج ومن ذا الذي يعرف غايتها أو يحسن وصفها فإنه الذي يهب كفر سبعين سنة بإيمان ساعة ألا ترىٰ إلىٰ سحرة فرعون الذين جاؤوا لحربه وحلفوا بعزة عدوه كيف قبلهم حين آمنوا ووهب لهم جميع ما سلف ثم جعلهم رؤوس الشهداء في الجنة؟ فهذا مع من وحده ساعة بعد كل ذلك الكفر والضلال والفساد فكيف حال من أفنىٰ في توحيده عمره؟ أما ترىٰ أن أصحاب الكهف وما كانوا عليه من الكفر طول أعمارهم إلىٰ أن قالوا ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف: ١٤] كيف قبلهم وكرمهم وأعظم لهم الحرمة وألبسهم المهابة والخشية حيث يقول: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ [الكهف: ١٨]؟ بل كيف أكرم كلبًا تبعهم حتىٰ ذكره في كتابه مرات ثم جعله معهم في الجنة، هذا فضله مع كلب خطا خطوات مع قوم عرفوه ووحدوه أيامًا من غير عبادة فكيف مع عبده المؤمن الذي خدمه ووحده وعبده سبعين سنة؟»(٢).

وإذا كان الخالق تسبق رحمته غضبه فإن المخلوق نجده بمجرد ما يتعدىٰ شخص عليه أو يتعدىٰ أوامره استشاط غضبًا، وأول ما يتبادر إلىٰ ذهنه التشفي والانتقام سواء بالقول أو الفعل، فيقسو وقد يظلم ويجور، فالغضب سابق للرحمة عنده، بل وحتىٰ الرُّحماء من العباد الحلماء، قد تأتي عليهم مواقف يسبق غضبهم رحمتهم وحلمهم، فالنقص حاصل لهم ولا

(١) سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، تفسير سورة يونس، رقم الحديث٣١٠٧، ص٦٩٨، حسنه الترمذي، وصححه الألباني.

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوي، ج٥، ص٤٠١، ٤٠٢.

بدّ مهما بلغوا من الرحمة والحلم، ومهما بلغوا من الكمال.

فهذا صحابيّ جليل يخطئ غلامه فيغضب عليه ولا يحلم بل يسارع بعقابه، فطبعه البشري حمله علىٰ عدم الحلم، لكن إيمانه حمله علىٰ المسارعة إلىٰ إعتاقه بعد ذلك، جاء في صحيح مسلم عن إبراهيم التيمي، عن أبيه قال: قال أبو مسعود البدري: كنت أضرب غلامًا لي بالسوط، فسمعت صوتًا من خلفي «**اعلم أبا مسعود!**» فلم أفهم الصوت من الغضب، قال: فلما دنا مني، إذا هو رسول الله ﷺ فإذا هو يقول: «**اعلم أبا مسعود! اعلم أبا مسعود!**» قال: فألقيت السوط من يدي، فقال: «**اعلم، أبا مسعود! أن الله أقدر عليك منك علىٰ هذا الغلام**» قال: فقلت: لا أضرب مملوكًا بعده أبدًا»(١)، وفي رواية في صحيح مسلم: «فالتفتّ فإذا هو رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله! هو حر لوجه الله، فقال: «**أما لو لم تفعل، للفحتك النار، أو لمستك النار**»(٢).

فالصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ مع أن الإسلام ربّاهم علىٰ الرحمة، وعلىٰ كظم الغيظ، وقد كان هذا الخلق بارزًا وظاهرًا علىٰ أحوالهم، إلا أنه يعتريهم ما يعتري البشر من النقص، وأبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي قال فيه رسول الله ﷺ كما جاء من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أرحم أمتي بأمتي أبو بكر**»(٣)، لمّا قال مِسْطَح بن أثاثة في ابنته عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ما قال ـ وكان أبو بكر ينفق عليه ـ غضب وحلف ألا ينفق عليه فسبق غضبه رحمته، فلمّا نزل قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢]، أرجع له ما كان ينفقه

---

(١) سبق تخريجه، ص٣٩٢.

(٢) رواه مسلم، كتاب الأيمان، باب صحبة المماليك، - وكفارة من لطم عبده، رقم الحديث ٤٣٠٩، ص٧٣١.

(٣) انظر: رواه الترمذي، كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ باب مناقب معاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبي بن كعب، وأبي عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، رقم الحديث ٣٧٩١، ص٨٥٦، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

عليه[1]، فهذا حال المخلوق غضبه يسبق رحمته، أما الخالق فالرحمة سابقة للغضب ولهذا قال بعدها في حقه سبحانه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٤]، أي فلولا أن الرحمة سابقة في حقه للغضب لمسكم العذاب العظيم حين أغضبتم خالقكم بالقدح في زوجة نبيه ﷺ.

وقد حصل بين أبو بكر وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ما يوجب الغضب فاعتذر أبو بكر لعمر إلا أنه لم يقبل منه ولم يعف ويصفح، فحمله الغضب على فعل خلاف الأولى وهو العفو والصفح نتيجة للطبع البشري، جاء في صحيح البخاري عن أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كنت جالسًا عند النبي ﷺ إذ أقبل أبو بكر آخذا بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبته، فقال النبي ﷺ: «**أما صاحبكم فقد غامر**». فسلم وقال: إني كان بيني وبين ابن الخطاب شيء، فأسرعت إليه ثم ندمت، فسألته أن يغفر لي فأبى علي، فأقبلت إليك، فقال: «**يغفر الله لك يا أبا بكر**». ثلاثا، ثم إن عمر ندم فأتى منزل أبي بكر، فسأل: أثم أبو بكر؟ فقالوا: لا، فأتى إلى النبي ﷺ فسلم، فجعل وجه النبي ﷺ يتمعر، حتى أشفق أبو بكر، فجثا على ركبتيه فقال: يا رسول الله، والله أنا كنت أظلم، مرتين، فقال النبي ﷺ: «**إن الله بعثني إليكم فقلتم كذبت، وقال أبو بكر صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي**». مرتين، فما أوذي بعدها[2].

قال الحافظ ابن حجر في فوائد الحديث: «وفيه ما طبع عليه الإنسان من البشرية حتى يحمله الغضب على ارتكاب خلاف الأولى، لكن الفاضل في الدين يسرع الرجوع إلى الأولى كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟﴾ [الأعراف: ٢٠١] وفيه أن غير النبي ولو بلغ من الفضل الغاية ليس بمعصوم»[3].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٦، ص٣١.

(٢) رواه البخاري، كتاب أصحاب النبي ﷺ باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذا خليلا»،رقم الحديث ٣٦٦١، ص ٦٩٩.

(٣) فتح الباري، لابن حجر، ج٧، ص٣٤.

بل إن النبي ﷺ مع أنه أرحم الخلق بالخلق، فكانت رحمته تسبق غضبه، ومن ذلك: ما جاء عن ابن شهاب قال: حدثني عروة: أن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا زوج النبي ﷺ حدثته: أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتىٰ عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: «**لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي علىٰ ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلىٰ ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم علىٰ وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال، لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلم علي، ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟**» فقال النبي ﷺ: «**بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئا**»(١).

إلا أن وصفه بالرحمة يعتريها ما يعتري الوصف البشري من النقص فيسبق الغضب الرحمة في مواقف، ومن ذلك ما جاء عن سلمان الفارسي أن رسول الله ﷺ خطب، فقال: «**أيما رجل من أمتىٰ سببته سبة أو لعنته لعنة في غضبي فإنما أنا من ولد آدم، أغضب كما يغضبون، وإنما بعثني رحمة للعالمين، فاجعلها عليهم صلاة يوم القيامة**»(٢)، وفي رواية في مسلم عن عائشة قالت دخل علىٰ رسول الله ﷺ رجلان فكلماه بشىٰء لا أدرىٰ ما هو فأغضباه فلعنهما وسبهما فلما خرجا قلت يا رسول الله من أصاب من الخير شيئا ما أصابه هذان قال: «**وما ذاك**». قالت قلت لعنتهما وسببتهما قال: «**أو ما علمت ما شارطت عليه ربىٰ قلت اللهم إنما أنا بشر فأي المسلمين لعنته أو سببته فاجعله له زكاة وأجرا**»(٣)، فجعل

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء، فوافقت إحداهما الأخرىٰ، غفر له ما تقدم من ذنبه، رقم الحديث ٣٢٣١، ص ٦٢٠.

(٢) رواه أبو داود، كتاب السنة، باب في النهي عن سب أصحاب رسول الله ﷺ رقم الحديث ٤٦٥٩، ص٨٤٢، سكت عنه أبو داوود، وصححه الألباني.

(٣) سبق تخريجه، ص٤٢٧.

الغضب صفة نقص، كما هي الأصل في بني آدم، وجعل الرحمة صفة كمال وهبها الخالق له، وأخبر أن غضبه يسبق رحمته أحيانًا؛ لأنه مخلوق يعتريه ما يعتري المخلوقين من الغضب، فإذا كان الأخيار والفضلاء والصالحون لم يمكنهم في بعض المواقف من الحلم وكظم غيظهم ـ وهو قليل مغمور بالنسبة لما يقفونه من مواقف الرحمة والإحسان ـ فهو في غيرهم ممن لا يردعهم خلق ولا دين، ومن أهل الظلم والجبروت كثير ويغلب عليهم.

فالغالب علىٰ خلق الأنبياء والصحابة وأهل الإيمان عمومًا هو الحلم والعفو عمّن أساء إليهم، وما يصدر منهم في بعض الأحيان هو مقتضىٰ الطبيعة البشرية التي يعتريها النقص والتي سرعان ما يرجعوا عنها، فقد أبىٰ الخالق إلا أن يكون الكمال له وحده.

والنصوص الدالة علىٰ حلمهم وعفوهم وصفحهم كثيرة جدًا منها ما جاء في صحيح البخاري، عن أبي وائل، عن عبد الله، قال: قسم النبي ﷺ قسمًا، فقال رجل: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله، فأخبرت النبي ﷺ فغضب، حتىٰ رأيت الغضب في وجهه، وقال: «**يرحم الله موسىٰ لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر**»(١)، فأخبر أن خلق موسىٰ ـ عليه السلام ـ هو الصبر، وها هو يُطْعن في أمانته ودينه إلا أنه يكظم غضبه ويَحلم علىٰ من أساء إليه فلا يعاجله بالعقوبة.

٣-الفرق في الحكمة حال الغضب:

الخالق إذا غضب فلا يفعل إلا ما يريد، وفعله موافق للحكمة، والمخلوق إذا غضب فقد يتصرف بما لا يريد، ويكون مجانبًا للحكمة(٢).

والمراد أن الخالق إذا غضب علىٰ أحد فلا يخرجه هذا الغضب عن وصف الحكمة فهي صفة لازمة له ـ سبحانه ـ لا تنفك عنه بحال من الأحوال، وإذا عاقب أحدًا من خلقه

(١) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡ﴾ [التوبة: ١٠٣] ومن خص أخاه بالدعاء دون نفسه، رقم الحديث ٦٣٣٦، ص١٢١٩.

(٢) انظر: القول المفيد علىٰ كتاب التوحيد، لمحمد العثيمين، ج١، ص٤٢٢.

فعقابه هو من الحكمة، فلا يسوّي ـ سبحانه ـ بين من أحسن ومن أساء، سواء كان في الدنيا أو الآخرة، وهذا نوع من الحكمة، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١][1].

ومن خالف أمر الخالق وأغضبه فعذّبه فإن هذا العذاب لا يخرج عن مقتضى الحكمة، فإن من حكمته تعذيب العاصين[2]، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٠٨) فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨، ٢٠٩].

والذين أغضبوا خالقهم بأن أحلّوا ما حرّم الله، أو حرّموا ما أحل الله فأمهلهم، فإن إمهالهم هذا وتمكينهم مما هم فيه من الضلال؛ عن حكمة وليس عبثًا[3]، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٣٩].

والمتخلفين عن الجهاد الذين أغضبوا خالقهم بهذه المعصية سيعاملهم بمقتضى الحكمة، فهو سبحانه يضع الأمور في مواضعها، فإن اقتضت الحكمة أن يعذبهم عذبهم، وإن اقتضت أن يعفو عنهم عفا عنهم[4]، قال تعالى: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٦]، فالخالق حكيم في جميع أقواله وأفعاله، قد وضع كل شيء في موضعه، فلا يقع في أفعاله خلل ولا زلل ولا خطأ[5].

---

(١) انظر: فقه الأسماء الحسنى، عبد الرزاق البدر، ص ٢١١.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٩٤.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص٢٧٦.

(٤) انظر: المرجع السابق، ص٣٥١.

(٥) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٢، ص٥٧٨، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج١، ص٤٤٥، والأسماء والصفات، للبيهقي، ج١، ص٦٧.

والمقصود أن أفعال الخالق لا تخرج عن الحكمة وعمّا يريده، وهذا عامّ في جميع أحواله، فإذا غضب سبحانه علىٰ عباده فعاقبهم فهو مريد لذلك وعقابه لهم هو الصواب والموافق للحكمة، وإن أمهلهم فلم يعاقبهم فهو مريد لذلك، وإمهالهم هو الصواب والموافق للحكمة.

وأما غضب المخلوق فهو علىٰ درجات كما ذكرنا، فمنه ما يمكنه معه أن يتحكم في تصرفاته من أقوال وأفعال، ومنه ما يُخرجه عن طوره فيتصرف بما لا يريده، ويتمنىٰ بعد هدأة الغضب، أن لم يكن قد أقدم علىٰ ذلك التصرف، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «الغضبان ينتهي به الغضب إلىٰ حال يعزب فيها عقله ورأيه وفي الأثر «إذا أراد الله نفاذ قضائه وقدره سلب ذوي العقول عقولهم فإذا أنفذ قضاءه وقدره رد عليهم عقولهم ليعتبروا» فالعقل الذي به يكون التكليف لم يسلب وإنما سلب العقل الذي به يكون صلاح الأمور في الدنيا والآخرة»(١).

فالمخلوق حين يغضب يصل لحال ذميمة فيصير لا رأي له، وهذا مما يستدعي الحرص علىٰ عدم الوقوع في الغضب(٢)، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، فليس كل مخلوق يؤتىٰ حسن التصرف والسّداد في القول والفعل، فكيف به عند الغضب؟

والمقصود أن الغضبان قد يتصرف حال غضبه بما لا يريد ولا يقصد، ومن ذلك أنه قد يحمل الغضب صاحبه أن يدعو علىٰ نفسه من شدّة الغضب، وليس ذلك من الحكمة في شيء كما في قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [يونس: ١١]، قال الإمام ابن القيم: «قال السلف: هو دعاء الإنسان علىٰ نفسه وولده وأهله حال الغضب، لو أستجابه الله

(١) مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج٧، ص٦٧٥.

(٢) انظر: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، للبستي، ١٩٣.

تعالىٰ لأهلكه وأهلك من يدعو عليه، ولكنه لا يستجيب لعلمه بأن الداعي لم يقصده»(١).

وقد منع ﷺ القاضي من أن يقضي وهو غضبان؛ لأنه قد يقضي بما يخالف الحكمة وما لا يريد، فيتجاوز به الغضب إلىٰ أن يقضي بغير الحق، فالغضب يحصل بسببه تغيّر يختل به نظره إلىٰ الأمور(٢)، جاء في صحيح البخاري وعن عبد الرحمن بن أبي بكرة قال: كتب أبو بكرة إلىٰ ابنه، وكان بسجستان، بأن لا تقضي بين اثنين وأنت غضبان، فإني سمعت النبي ﷺ يقول: «**لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان**»(٣).

قال الخطّابي: «الغضب يغير العقل ويحيل الطباع عن الاعتدال فلذلك أمر الحاكم بالتوقف في الحكم ما دام به الغضب»(٤)، وقال الإمام ابن القيم: «فإن الغضب غول العقل يغتاله كما تغتاله الخمر، ولهذا نهىٰ النبي ﷺ أن يقضي القاضي بين اثنين وهو غضبان والغضب نوع من الغلق والإغلاق الذي يغلق علىٰ صاحبه باب حسن التصور والقصد»(٥).

بل قد يحمل الغضب الإنسان علىٰ أن يتألىٰ علىٰ الله ويحكم علىٰ أخيه المسلم بعدم مغفرة الله له، ولا يكون مريدًا.

جاء عن ضمضم بن جوس اليمامي، قال: قال لي أبو هريرة: يا يمامي، لا تقولن لرجل: والله لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك الله الجنة أبدًا. قلت: يا أبا هريرة، إن هذه لكلمة يقولها أحدنا لأخيه وصاحبه إذا غضب. قال: فلا تقلها، فإني سمعت النبي ﷺ يقول: «**كان**

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم، ج٤، ٤٢٩.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر، ج ١٣، ص١٧٠، ١٧١.

(٣) سبق تخريجه، ص٤٣٤.

(٤) معالم السنن، للخطابي، ج٤، ص١٥٣.

(٥) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم، ج٣، ٤٢٦.

في بني إسرائيل رجلان، كان أحدهما مجتهدًا في العبادة، وكان الآخر مسرفًا علىٰ نفسه، فكانا متآخيين، فكان المجتهد لا يزال يرىٰ الآخر علىٰ ذنب، فيقول: يا هذا، أقصر. فيقول: خلني وربي، أبعثت علي رقيبًا؟» قال: «**إلىٰ أن رآه يومًا علىٰ ذنب استعظمه، فقال له: ويحك، أقصر. قال: خلني وربي، أبعثت علي رقيبًا؟!**»

قال: «**فقال: والله لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك الله الجنة أبدًا. قال أحدهما، قال: فبعث الله إليهما ملكًا، فقبض أرواحهما، واجتمعا عنده، فقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي. وقال للآخر: أكنت بي عالمًا، أكنت علىٰ ما في يدي قادرًا، اذهبوا به إلىٰ النار**». قال: «**فوالذي نفس أبي القاسم بيده، لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته**»(١).

وعن سليمان بن صرد قال: كنت جالسًا مع النبي ﷺ ورجلان يستبان، فأحدهما أحمر وجهه، وانتفخت أوداجه، فقال النبي ﷺ: «**إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد، لو قالها: أعوذ بالله من الشيطان، ذهب عنه ما يجد**» فقالوا له: إن النبي ﷺ قال: تعوذ بالله من الشيطان. فقال: وهل بي جنون؟»(٢).

فالغضب يُخرج الإنسان عن حال الاعتدال فيتكلم ويفعل ما لا يليق(٣).

فهذا الرّجل تكلّم بكلام مجانب للحكمة ولا يليق أن يقوله للرسول ﷺ ولكنّ الغضب أخرجه عن طوره.

---

(١) رواه أحمد في مسنده، ج١٤، ص٤٦، ٤٧، صححه ابن حبان، وقال الأرناؤوط: إسناده حسن، ومتنه غريب، تفرد به عكرمة بن عمار، وهو -وإن كان من رجال مسلم- فيه كلام ينزله عن رتبة الصحيح، وقد روىٰ أحاديث غرائب لم يشركه فيها أحد.

(٢) سبق تخريجه، ص٤٣٣.

(٣) انظر: شرح صحيح مسلم، للنووي، ج١٦، ص٣٧٩.

قال الحافظ ابن حجر: «وأخلق بهذا المأمور أن يكون كافراً أو منافقاً، أو كان غلب عليه الغضب حتىٰ أخرجه عن الاعتدال بحيث زجر الناصح الذي دله علىٰ ما يزيل عنه ما كان به من وهج الغضب بهذا الجواب السيء، وقيل: أنه كان من جفاة الأعراب وظن أنه لا يستعيذ من الشيطان إلا من به جنون، ولم يعلم أن الغضب نوع من شر الشيطان ولهذا يخرج به عن صورته ويزين إفساد ما له كتقطيع ثوبه وكسر آنيته أو الأقدام علىٰ من أغضبه ونحو ذلك مما يتعاطاه من يخرج عن الاعتدال»[1].

وأبو بكر ـ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ ـ لمّا علم أن أهله لم يقوموا بواجب الضيافة وأخروا العشاء، غضب حتىٰ إنه صار يسبّ وحلف ألاّ يطعمه وإنما دفعه لذلك كرمه وجوده، ولم يستمر غضبه بل ترك التمادي في الغضب وردع نفسه وأكل مع أضيافه.

جاء في صحيح البخاري عبد الرحمن بن أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا: جاء أبو بكر بضيف له أو بأضياف له، فأمسىٰ عند النبي ﷺ فلما جاء، قالت أمي: احتبست عن ضيفك ـ أو عن أضيافك ـ الليلة، قال: ما عشيتهم؟

فقالت: عرضنا عليه ـ أو: عليهم فأبوا، أو فأبىٰ، فغضب أبو بكر، فسب وجدع، وحلف لا يطعمه، فاختبأت أنا، فقال: يا غنثر، فحلفت المرأة لا تطعمه حتىٰ يطعمه، فحلف الضيف أو الأضياف أن لا يطعمه أو يطعموه حتىٰ يطعمه.

فقال أبو بكر: كأن هذه من الشيطان، فدعا بالطعام، فأكل وأكلوا، فجعلوا لا يرفعون لقمة إلا ربا من أسفلها أكثر منها، فقال: يا أخت بني فراس، ما هذا؟

فقالت: وقرة عيني، إنها الآن لأكثر قبل أن نأكل، فأكلوا، وبعث بها إلىٰ النبي ﷺ فذكر

(١) فتح الباري، لابن حجر، ج١٠، ص٥٧٤.

أنه أكل منها(١).

قال ابن بطال: «وإنما حمله علىٰ الحلف ـ والله أعلم ـ أنه استنقص ابنه وأهله في القيام ببر أضيافه، واشتد عليه تأخير عشائهم إلىٰ ذلك الوقت من الليل، فلحقه ما يلحق البشر من الغضب، ثم لم يسعه مخالفة أضيافه لما أبوا من الأكل دونه، فرأىٰ أن من تمام برهم إسعاف رغبتهم وترك التمادي في الغضب»(٢).

وهذا يونس ـ عليه السلام ـ حين لم يؤمن قومه ويستجيبوا لدعوته غضب، وخرج من قريته قبل أن يأذن الله له بالخروج، وخروجه هذا خلاف الأولىٰ، وسواء قلنا: إنه غضب علىٰ قومه أو علىٰ ربّه فإن هذا الأمر قد يقع من الكمّل من الخلق لكنّه لا يستقر ولا يستمر(٣).

ومن ذلك فعل موسىٰ ـ عليه السلام ـ عندما غضب علىٰ قومه بسبب عبادتهم العجل، وكان غضبه شديد حتىٰ وصفه الله بأنه "أسفًا" والأسَف هو شدّة الغضب والغيظ علىٰ من أغضبه، فالأسف حال أشّد من الغضب(٤).

وإنما كان هذا الغضب لله لما رأىٰ من الشرك والكفر به، ومن شدّة غضبه ألقىٰ الألواح

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب قول الضيف لصاحبه: لا آكل حتىٰ تأكل، رقم الحديث ٦١٤١، ص١١٨٤.

(٢) شرح ابن بطال علىٰ البخاري، لابن بطال، ج٩، ص٣٢٣.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٥٢٩.

(٤) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٠، ص٤٤٩.

التي فيها التوراة من يده، فالخبر ليس كالمعاينة؛ لأن الله أخبر موسىٰ ـ عليه السلام ـ بأنه قد فتن قومه وأنهم عبدوا العجل وهو خبر مُتيقّن عند موسىٰ؛ لكنه لم يلق الألواح، ثمّ لمّا رأىٰ قومه وهم يعبدون العجل، ألقىٰ الألواح لِمَا رأىٰ من تجرئهم علىٰ حرمات الله(١).

فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**يرحم الله موسىٰ ليس المعاين كالمخبر، أخبره ربه أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح، فلما رآهم وعاينهم ألقىٰ الألواح**»(٢).

وهو ـ عليه السلام ـ لم يتقصد إلقاء الألواح التي اشتملت علىٰ كلام الخالق عزّ وجل وإنما دفعه الغضب فخرج فعله عن اختياره ورضاه؛ ولهذا لم يعاتبه الله، بل عذره، ووصف غضب موسىٰ في آية أخرىٰ بأنه سكت، قال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، فكأنّ هذا الغضب له سلطان علىٰ العبد يأمره وينهاه(٣)، فلمّا سكن غضبه وعادت إليه طبيعته أخذ الألواح واشتغل بأهم الأمور عنده(٤)، فالغضب حمله علىٰ إلقاء الألواح وهو خلاف الأولىٰ، إلا أنه وكما ذكرنا كان غضبه لله وسرعان ما يعود الصالحون للحق فخطأهم لا يستقر ولا يستمر.

---

(١) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي، ج٤، ص٣٧٢.

(٢) المستدرك علىٰ الصحيحين، للحاكم، كتاب التفسير، تفسير سورة طه، سؤال موسىٰ عليه السلام عن السامري من صنعه العجل وجوابه، رقم الحديث ٣٤٨٧، ج٣، ص١٣٥، قال الحاكم: هذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين و لم يخرجاه، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله رجال الصحيح.

(٣) انظر: إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان، لابن القيم، ص١٣.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٣٠٤.

وهذا رسول الله ﷺ يغضب فيعتريه ما يعتري البشر من الغضب فيخرجه لفعل لم يكن مريدًا لفعله.

جاء في صحيح مسلم عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: دخل على رسول الله ﷺ رجلان، فكلماه بشيء لا أدري ما هو. فأغضباه، فلعنهما وسبهما، فلما خرجا قلت: يا رسول الله! لمن أصاب من الخير شيئًا ما أصابه هذان، قال ﷺ: «**وما ذاك؟**» قالت قلت: لعنتهما وسببتهما، قال: «**أو ما علمت ما شارطت عليه ربي؟ قلت: اللهم إنما أنا بشر، فأي المسلمين لعنته أو سببته فاجعله له زكاة وأجرًا**»(١).

فلو كان ﷺ يريد ما دعا به في غضبه لما سأل الله أن يجعلها كفارة لمن دعا عليه، هذا والنبي معصوم في غضبه ورضاه فكيف بغيره ممن لم يُعصم والشيطان له أقرب؟(٢).

وإذا كان يقع من أهل الدّيانة والصلاح ـ وهو قليل ورجوعه سريع ـ فمن باب أولى أن يقع من أهل الفسق والفجور وهو فيهم كثير ولا يرون أنفسهم على خطأ، بل يصرّون ويعتذرون لأنفسهم، وأنهم على صواب.

٤- الفرق في العدل حال الغضب:

الخالق إذا غضب لا يمكن أن يجور أو يظلم، والمخلوق إذا غضب فقد يجور ويظلم.

الخالق من صفاته أنه عدل، والظلم وصف نقص نزّه نفسه عنه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠]، قال الشيخ السعدي: «يخبر تعالى عن كمال عدله وفضله، وتنزهه عما يضاد ذلك من الظلم القليل والكثير، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ﴾، أي: ينقصها من حسنات عبده أو يزيدها

(١) سبق تخريجه، ص٤٢٧.

(٢) انظر: إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان، لابن القيم، ص٦٣.

في سيئاته، كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]»[1]، فلا يمكن أن يوجب غضبه علىٰ عبد نقصان حسناته أو زيادة سيئاته ولو بمثقال الذرة، ولا يمكن أن يقطع رزقه عن عباده ولو غضب عليهم، وقد حكي أن بعض الخلفاء أراد أن يكتب جِراية لبعض العلماء، فقال: لا أريده، أنا في جراية من إذا غضب عليّ لم يقطع جرايته عني[2]، فإذا كان لا يمنعهم رزقه ورحمته حال غضبه عليهم فمن باب أولىٰ ألا يظلمهم.

وقال تعالىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ٣٣]، فلمّا غضب عليهم الخالق وعذّبهم بسبب تكذيبهم نفىٰ عن نفسه أن يكون في هذا ظلم لهم، بل الحقيقة أنهم هم من ظلموا أنفسهم، وقال أيضًا: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، فهذه العقوبات التي كانت عليهم بسبب غضب الخالق عليهم، لم تكن ظلمًا؛ بل هم الذين ظلموا أنفسهم فاستحقوا العقوبة.

وبالجملة فكل ما أمر الله به فهو عدل ولا عدل سواه[3]، قال تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ﴾ [الأنعام: ١١٥]، وسواء كان هذا الذي أمر به في حال الرضا أو حال الغضب، وسواء كان عقوبة أم عطاءً فهو العدل الذي لا ظلم فيه، قال الإمام ابن القيم في وصف عدل الله: «فهو علىٰ صراط مستقيم، وهو العدل الذي يتصرف به فيهم؛ فهو علىٰ صراط مستقيم في قوله وفعله وقضائه وقدره وأمره ونهيه وثوابه وعقابه؛ فخبره كله صدق، وقضاؤه كله

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص١٧٩.

(٢) انظر: الحجة في بيان المحجة، للأصبهاني، ج١، ص١٤٨.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٣، ص٣٢٢.

عدل، وأمره كله مصلحة»(١)، فبيّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه عدل حتىٰ في حال عقابه الناتج عن غضبه.

فإن حكم بين عباده أو قضىٰ بأمر ما، سواء كان في الدنيا أو الآخرة، فلن يخرج عن مقتضىٰ عدله، فلا أحد يحمل وزر غيره، ولا يعاقب عبده بأكثر مما يستحق(٢).

ولا أدلّ علىٰ أن غضب الخالق لا يخرجه عن العدل من الجمع بين وصفه يوم القيامة بالرحمة وبالغضب، فحديث الشفاعة دلّ علىٰ وصفه بالغضب، فالرسل عليهم السلام يعتذرون عن الشفاعة لأهل الموقف بقولهم: «**إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، اذهبوا إلىٰ غيري**»(٣)، وأما وصفه بالرحمة فقد جاءت أدلّة كثيرة تصفه بالرحمة في ذلك اليوم كما في قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥]، وقال: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]، وغيرها كثير، فهو موصوف بالغضب وبالرحمة والرحمة تتضمن العدل وزيادة.

وأما المخلوق فالغضب فيه جبلّة وطبيعة وقد يحمله علىٰ الظلم والجور والتعدي؛ ولهذا فإنه مأمور حال الغضب بعدم الظلم والتعدي علىٰ الغير، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]، ومن المعلوم أن الغيظ من أحد يجلب الغضب عليه، فأمرنا مع من نغتاظ منهم أن نعدل، قال بعض السلف: «العادل: هو الذي إذا غضب لم يدخله غضبه في باطل، وإذا رضي لم يُخرجه رضاه عن الحق»(٤).

إلا أن أغلب الخلق إذا غضبوا وقَدِروا يتعدون وينتقمون ولا يقفون في انتقامهم عند

(١) الفوائد، لابن القيم، ص٣٣.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٩٤٨.

(٣) سبق تخريجه، ص٤٢١.

(٤) الرسالة التبوكية، لابن القيم، ص١٠١.

العدل بل يتجاوزن الحدّ[١]؛ ولهذا خاف الصالحون من الغضب، قال عطاءُ بن أبي رباح: «ما أبكىٰ العلماءَ بكاء آخرِ العمرِ من غضبة يغضبُها أحدُهُم فيهدِمُ عملَ خمسين سنة أو ستين سنة أو سبعين سنة، وربَّ غضبة قد أقحمت صاحبها مقحمًا ما استقاله»[٢].

وقال ابن مسكويه[٣] في كون الغضب يجرّ إلىٰ الظلم: «ومن عرف العدالة وتخلق بها... سهل عليه علاج هذا المرض لأنه جور وخروج عن الإعتدال... فإن صاحب هذا الخلق الذي ذممناه تصدر عنه أفعال رديئة كثيرة يجور فيها علىٰ نفسه ثم علىٰ إخوانه ثم علىٰ الأقرب فالأقرب من معامليه حتىٰ ينتهي إلىٰ عبيده وإلىٰ حرمه فيكون عليهم سوط عذاب ولا يقيلهم عثرة ولا يرحم لهم عبرة وإن كانوا برآء من الذنوب غير مجترمين ولا مكتسبين سواء بل يتجرم عليهم ويهيج من أدنىٰ سبب يجد به طريقًا إليهم حتىٰ يبسط لسانه ويده وهم لا يمتنعون منه ولا يتجاسرون علىٰ رده عن أنفسهم بل يذعنون له ويقرون بذنوب لم يقترفوها إستكفافًا لشره وتسكينًا لغضبه وهو مع ذلك مستمر علىٰ طريقته لا يكف يدًا ولا لسانًا وربما تجاوز في هذه المعاملة الناس إلىٰ البهائم التي لا تعقل وإلىٰ الأواني التي لا تحسّ»[٤].

وجاء عن أبي مجلز من دعاء النبي ﷺ: «**اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك علىٰ الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي، أسألك خشيتك في الغيب**

(١) انظر: المستدرك علىٰ مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج٥، ص١٢٨.

(٢) جامع العلوم والحكم، لابن رجب، ص١٩٨.

(٣) أبو علي، أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه، مؤرخ بحاث، أصله من الري وسكن أصفهان وتوفي بها. اشتغل بالفلسفة والكيمياء والمنطق مدة، ثم أولع بالتأريخ والأدب والإنشاء. له تصانيف كثيرة منها "الفوز الاكبر"، "تجارب الامم وتعاقب الهمم" "ترتيب العادات"، "ادب العرب والفرس"، " تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق" المرجع: الأعلام للزركلي، ج١، ص٢١١، ومعجم المؤلفين، ج٢، ص١٦٩.

(٤) تهذيب الأخلاق، لابن مسكويه، ص١٦٧.

والشهادة، وكلمة الحق في الغضب والرضا...»(١)، فسأل النبي ﷺ ربه كلمة الحق في الغضب والرضا؛ لأن طبع الإنسان التعدي وقت الغضب.

ولأن الغضب للنفس يحمل الإنسان علىٰ التعدي والظلم، فقد جاء النهي عن الغضب في أحاديث كثيرة ومنها ما جاء في صحيح البخاري ما جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **أن رجلًا قال للنبي ﷺ: أوصني، قال: «لا تغضب». فردد مرارًا، قال: «لا تغضب»**(٢)، قال النووي: «فردد مراراً. قال: لا تغضب، فلم يزده في الوصية علىٰ لا تغضب مع تكراره الطلب. وهذا دليل ظاهر في عظم مفسدة الغضب، وما ينشأ منه»(٣)، فيفسد كثيرًا من الدين؛ لأنه يجعله يؤذي ويؤذيه غيره، وأن يقول ويفعل ما يوقعه أو يوقع غيره في الإثم ويؤدي إلىٰ البغضة وهي حالقة الدين، وهو مفسد للدنيا أيضًا حيث يمنعه من منافع كثيرة من الدنيا(٤).

وقد يحمل الغضب المرأة أن تتنكر لفضل زوجها عليها وتزعم أنها لم تر خيرًا منه قط، جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «**أريت النار فإذا أكثر أهلها النساء، يكفرن**» قيل: أيكفرن بالله؟ قال: «**يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلىٰ إحداهن الدهر، ثم رأت منك شيئا، قالت: ما رأيت منك خيرا قط**»(٥)، وفي رواية في مسند الإمام أحمد: «**أن هذا يكون منها بسبب الغضبة تغضبها**»(٦)، وهذا من الظلم بمكان فكيف يحسن لها الدهر ثم لأجل زلة أو خطأ تنسىٰ كل ما سلف وتزعم أنها لم تر منه

(١) رواه أحمد في مسنده، ج٣٠، ص٢٦٥، رقم الحديث ١٨٣٢٥، وصححه ابن خزيمة، وقال الأرناؤوط: حديث صحيح.

(٢) سبق تخريجه، ص٤٣٤.

(٣) شرح صحيح مسلم، للنووي، ج١٦، ص٣٧٩.

(٤) انظر: المنتقىٰ، شرح الموطأ، للباجي، ج٩، ص٢٩٤، ٢٩٥.

(٥) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب كفران العشير، وكفر بعد كفر، رقم الحديث ٢٩ ص٢٩.

(٦) رواه أحمد في مسنده، ج٤٥، ص٥٤٢، رقم الحديث ٢٧٥٦١، وصححه الألباني، وقال الأرناؤوط: حديث حسن، شهر بن حوشب وإن كان ضعيفًا قد توبع.

خيرًا قط، فعوقبت بدخول النار، وكل هذا سببه الغضب.

وقد جعل الغضب أحد ابني آدم يقدم علىٰ قتل أخيه حين لم يُقبل قربانه، قال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [المائدة: ٢٧].

وربما وصل الغضب بصاحبه إلىٰ الكفر، كما جرىٰ لجبلة بن الأيهم، فقد كتب رسول الله ـ ﷺ ـ إلىٰ جبلة بن الأيهم ملك غسان يدعوه إلىٰ الإسلام، فأسلم وكتب بإسلامه إلىٰ رسول الله ﷺ وأهدىٰ له هدية، ثم لم يزل مسلمـاً حتىٰ كان زمن عمر بن الخطاب، فبينا هو في سوق دمشق إذ وطيء رجلاً من مزينة، فوثب المزني فلطمه، فأخذ فانطلق به إلىٰ أبي عبيدة بن الجراح، فقالوا: هذا لطم جبلة. قال: فليلطمه. قالوا: أو ما يقتل؟ قال: لا، فقالوا: أفما تقطع يده؟ قال: لا، إنَّما أمر الله بالقود، قال جبلة: أترون أني جاعل وجهي نداً لوجه جدْيٍ جاء من عمق[1]؟ بئس الدين هذا ! ثم ارتد نصرانيـاً، وترحل بقومه حتىٰ دخل أرض الروم[2]، فانظر إلىٰ الغضب كيف جعله يتهم هذا الدّين.

(١) قوله: (لوجه جدي)، قال الجوهري: الجدي من ولد المعز والجادي السائل العافي، وقوله: (جاء من عمق)، قال: العمق الفخ والوادي، والعمق والعمق أيضًا ما بعد من أطراف المفاوز، والعُمَق بضم العين وفتح الميم منزل بطريق مكة، ولعله الذي أراد جبلة. المصباح المضيء، لابن حديدة الأنصاري، ج٢، ص٢٥٣.

(٢) تاريخ دمشق الكبير، لابن عساكر، ج١١، ص١٩، قال ابن كثير في البداية والنهاية، ج٨، ص٧٠: رواه الواقدي عن معمر وغيره عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس، وساق ذلك بأسانيده إلىٰ جماعة من الصحابة، وهذا القول هو أشهر الأقوال .انتهىٰ.

والنقص وارد حتىٰ علىٰ خيرة الخلق وهم الأنبياء فقد أبىٰ الله الكمال إلا له؛ إلا أنهم سرعان ما يرجعوا وينيبوا حين يخطؤوا.

قال تعالىٰ في قصة موسىٰ ـ عليه السلام ـ لمّا حمله الغضب علىٰ فعل لم يكن يتمنىٰ فعله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٤، ١٥]، فأخبر تعالىٰ أن هذه القصة حصلت معه وهو في حال كمال الإحسان وفي حال بلوغه القوة العقلية والشرعية(١)، ومع ذلك أخرجه الغضب للقتل الخطأ، وكما ذكرنا فحال الأنبياء لا تدوم علىٰ هذا النقص بل سرعان ما يتداركون ما فعلوه قال تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦].

فظهر مما سبق أن الغضب ينشأ عنه أنواع من الظلم: إما التعدي بالقلب كإضمار الحقد والحسد، وإما التعدي باللسان كالشتم والقذف، وأما التعدي باليد كالضرب والقتل، وقد لا يتمكن من التعدي علىٰ المغضوب عليه وإشفاء غليله فيتعدّىٰ علىٰ نفسه، فالغضب هو أصل الشرور(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأول الشر الضلال ومنتهاه الغضب، كما أن أول الخير الهدىٰ ومنتهاه الرحمة والرضوان»(٣)؛ لأنه ناتج من نزغات الشيطان(٤)، ولهذا كان من المشروع حال الغضب الاستعاذة بالله من الشيطان.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٦١٣.

(٢) انظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، للمباركفوري، ج٦، ص١٣٩.

(٣) الصواعق المرسلة في الرد علىٰ الجهمية والمعطلة، لابن القيم، ج٣، ص١٠٨٩.

(٤) انظر: مرقاة المفاتيح، للقاري، ج٥، ص٣٢٧.

ووصف النبي ﷺ الذي يملك نفسه عند الغضب بأنه شديد، فعن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب**»(١).

فالذي يملك نفسه عند الغضب هو القويّ على الحقيقة، وهذه هي القوة الحقيقية أن يتغلب المرء على نفسه ويصرعها إذا صارعته(٢)، فالحديث هنا يحثّ على أن يملك الشخص نفسه عند الغضب ليمتنع عن ظلم من يمكنه ظلمه(٣).

الفرق الثاني: الفرق في الأسباب الموجبة للغضب:

الخالق يغضب لأسباب تستحق الغضب فغضبه كله محمود، والمخلوق يغضب لما يستحق وما لا يستحق فغضبه منه المحمود ومنه المذموم.

الخالق إذا غضب إنما يغضب على ما يستحق الغضب فغضبه محمود إطلاقًا؛ لأن صفاته كلّها صفات كمال، وأما المخلوق فليس كلّ ما يغضب له يستحق الغضب، فقد يغضب لسبب تافه لا يستوجب الغضب، وقد يغضب لشيء يستحق أن يغضب لأجله، فغضبه قد يُحمد عليه ويُشكر، وقد يُلام عليه ويُذم.

وقد ظهر من الأدلة أسباب غضب الخالق، ومن ذلك غضبه على من يظن بربّه وخالقه ظنّ السوء فيظنّ أن الله لن ينصر هذا الدين، ولن يعلي كلمته، أو أن أهل الباطل سيظهرون على أهل الحق(٤)، فهذا الظّن موجب لسخط الخالق؛ إذ كيف يظنّ بمن كمُل في أوصافه هذا الظنّ السيئ؟ قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب، وبأي شيء يذهب الغضب، رقم الحديث ٦٦٤٣، ص١١٣٩.

(٢) انظر: شرح رياض الصالحين، لابن عثيمين، ج١، ص١٥٧.

(٣) انظر: المنتقى شرح الموطأ، للباجي، ج٩، ص١٩٥، ٢٩٦.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٧٩١.

بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [الفتح: ٦].

ومن الأسباب الموجبة لغضبه سبحانه الارتداد عن دين الإسلام؛ ذلك أن من أبصر النّور فلا يصح منه أن يعود إلىٰ الظلام، وكيف يرضىٰ بالكفر ويطمئن به من ذاق طعم الإيمان؟ ولكن حبّ الدّنيا والطمع في حطامها والزهد في الآخرة هو الذي جعلهم يختارون الكفر علىٰ الإيمان؛ ولهذا استحقوا وقوع الغضب عليهم(١)، قال تعالىٰ: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النحل: ١٠٦].

ويغضب أيضًا علىٰ من يكفرون بآيات الله مع بيانها ووضوحها وكونها دالّة لهم إلىٰ طريق الحق، ويقتلون أنبياء الله الذين أحسنوا لهم فقابلوا إحسانهم بالقتل؛ فهؤلاء لا يرجعون إلا بغضب الخالق وسخطه، وبئس ما رجعوا به فهو أعظم العقوبات(٢)، قال تعالىٰ: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ٦١].

ويغضب علىٰ من يرىٰ هذا الدّين وقد دخل فيه النّاس أفواجًا ومع ذلك يخاصم ويجادل المؤمنين ويأتي بالحجج الباطلة والواهية ليصدّ النّاس عن دين الله(٣)، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ [الشورىٰ: ١٦].

وطاعة أعداء الله وقبول باطلهم تستوجب غضب الخالق أيضًا، قال تعالىٰ في قوم

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٤٥٠.

(٢) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٢، ص٢٧، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٥٣، ١٤٣.

(٣) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٢٠، ص٤٤٨، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٧، ص١٩٦.

فرعون: ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٤، ٥٥].

ويغضب كذلك على من يتعمد قتل أخيه المؤمن الذي له حق النصرة والولاية والمحبة والإحسان، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣].

ومما يستوجب غضب الخالق سبحانه التولي يوم الزحف؛ لأن هذا التولي يُضعِف المسلمين ويُخذّلهم ويعين العدّو عليهم، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال: ١٦].

ويغضب على من يطغى فيما رزقه الله، فبدل أن يشكر الخالق على رزقه يتبطّر على النعمة فيأخذها من غير حاجة أو يستعملها في المعاصي[(١)]، قال تعالى: ﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ [طه: ٨١].

وقد جاء في السنة أيضًا بيان الأمور التي يغضب منها الخالق، ومن ذلك أنه يغضب على من يحلف كاذبًا ليقتطع مال مسلم؛ ذلك أن من يعظّم الخالق لا يمكن أن يحلف به وهو كاذب، فإن جرّه حبّ الدنيا للحلف كاذبًا استحق غضب الله، جاء في صحيح البخاري عن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «**من حلف على يمين يقتطع بها مال امرئ، مسلم هو عليها فاجر، لقي الله وهو عليه غضبان**»[(٢)].

ومما يستوجب غضب الخالق عدم التوجه إليه بالدعاء والسؤال فيحب من عبده أن

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٥، ص٣٠٨، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٥١١.

(٢) رواه البخاري، كتاب المساقاة، باب: الخصومة في البئر والقضاء فيها، رقم الحديث ٢٣٥٦-٢٣٥٧، ص٤٤٢-٤٤٣.

يسأله ويلحّ في سؤاله ويغضب منه إذا كانت الحاجة قائمة به ولم يسأل خالقه ورازقه، عن أبي هريرة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنه من لم يسأل الله يغضب عليه**»(١)؛ لأن من يترك الدعاء إما قانط من رحمة ربه، وإما مستكبر على مولاه، فكل خير في رضاه سبحانه، وكل بلاء وشرّ في غضبه؛ فمن ترك سؤال الله غضب الله عليه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غافر: ٦٠]، وأما المخلوق فإنه يغضب ممن يسأله ويلحّ عليه في السؤال فشتان بين الخالق والمخلوق؛ ولهذا قال الناظم(٢):

الله يغضب إن تركت سؤاله ... وبُنيّ آدم حين يسأل يغضب(٣)

ومن الناس من غضب عليهم الخالق أضعافًا مضاعفة حتى وُصِموا بالمغضوب عليهم وهم اليهود عليهم من الله ما يستحقون، قال تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، وسبب غضب الرّب عليهم أفعالهم المشينة التي تكررت وتعددت ولم يرعووا عنها، قال تعالى: ﴿فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠].

قال الإمام ابن القيم: «وقَصد التعدد في قوله: ﴿فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ أظهر، ولا ريب أن تعطيلهم ما عطلوه من شرائع التوراة، وتحريفهم وتبديلهم يستدعي غضبًا، وتكذيبهم الأنبياء يستدعي غضبًا آخر، وقتلهم إياهم يستدعي غضبًا آخر، وتكذيبهم المسيح، وطلبهم قتله، ورميهم أمه بالبهتان العظيم يستدعي غضبًا آخر، وتكذيبهم النبي ﷺ يستدعي غضبًا، ومحاربتهم له وأذاهم لأتباعه يقتضي غضبًا، وصدهم من أراد الدخول في

(١) رواه الترمذي، كتاب الدعوات، رقم الحديث ٣٣٧٣، ص٧٦٦، حسنه ابن حجر في تخريجه لمشكاة المصابيح، وحسنه الألباني.

(٢) القائل هو ابن حسّان الخزيمي.

(٣) نقلًا عن الصفات الإلهية، لمحمد الجامي، ص٢٩٥.

دينه عنه يقتضي غضبًا، فهم الأمة الغضبية أعاذنا الله من غضبه، فهي الأمة التي باءت بغضب الله المضاعف المتكرر، فكانوا أحق بهذا الاسم والوصف من النصارى»(١)، ومن غضبه عليهم أنه لم يقبل توبتهم حتى قتّلوا أنفسهم(٢)، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [البقرة: ٥٤]، والآيات كثيرة في ذكر مخالفات اليهود ومعاصيهم التي أغضبوا بها خالقهم، وحُقّ له أن يغضب.

وكل ما سبق من الأمور التي تُغضب الخالق يجب على المسلم اجتنابها لكي لا يتعرض لسخط الله وغضبه فيهلك ويحل عليه الخسران(٣).

وأما المخلوق فقد يغضب على ما يستحق وما لا يستحق، وعلى من يستحق ومن لا يستحق، فغضبه منه المحمود ومنه المذموم، وقد ذكرنا ضابط ذلك في المبحث السابق، فما كان للنفس والدنيا فهو الغضب المذموم، وما كان لأجل الله ورسوله ودينه فهو المحمود، وقد جاءت الأدلة تبيّن الحالين.

فمن الغضب المحمود غضب الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ إذا رأوا حرمات الله وقد انتهكت، جاء في صحيح البخاري أن أم الدرداء، قالت: دخل علي أبو الدرداء وهو مغضب، فقلت: ما أغضبك؟ فقال: والله ما أعرف من أمة محمد ﷺ شيئًا، إلا أنهم يصلون جميعا(٤)، فهذا غضب محمود لأنه إنكار للمنكر، فيغضب إذا رأى تقصيرًا أو تغييرًا(٥).

ومن الغضب المحمود الذي يكون لأجل انتهاك حرمات الله ما وقع من موسى ـ عليه

---

(١) بدائع الفوائد، لابن القيم، ج٢، ص٤٣٧.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٣، ص٤٧٧.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٥١١.

(٤) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب فضل صلاة الفجر في جماعة، حديث رقم ٦٥٠، ص١٣٩-١٤٠.

(٥) انظر: فتح الباري، لابن حجر، ج٢، ص١٨٠.

السلام ـ علىٰ قومه لمّا عاد إليهم فوجدهم قد عبدوا العجل، فغضب غضبًا شديدًا، وألقىٰ الألواح من شدّة الغضب وأخذ برأس أخيه يجرّه إليه، قال تعالىٰ: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ١٥٠]، وهذا أمر يستحق الغضب، فإذا كان فعلهم هذا موجبًا لغضب الخالق، فغضب موسىٰ لأجله غضب محمود، قال تعالىٰ: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾ [طه: ٨٦]، فوصفه بأنه رجع إلىٰ قومه "غضبان" أي: قد امتلأ غضبًا، وهذا من تمام غيرته علىٰ محارم الله إذا انتهكت، ومن كمال شفقته بقومه ونصحه لهم(١)، إلا أن آثار هذا الغضب ليست محمودة ولكن الخالق لم يعاتبه علىٰ ذلك؛ لأن أصل غضبه كان لله، ولمكانة موسىٰ وعلو قدره عند ربه.

وقد كان الغضب يقع من نبينا ﷺ إذا رأىٰ محارم الله قد انتهكت، وأدلة هذا كثيرة جدًا، منها ما رواه أبو موسىٰ الأشعري قال: سئل رسول الله ﷺ عن أشياء كرهها، فلما أكثروا عليه المسألة غضب، وقال: «**سلوني**». فقام رجل فقال: يا رسول الله، من أبي؟ قال: «**أبوك حذافة**». ثم قام آخر فقال: يا رسول الله، من أبي؟ فقال: «**أبوك سالم مولىٰ شيبة**». فلما رأىٰ عمر ما بوجه رسول الله ﷺ من الغضب قال: إنا نتوب إلىٰ الله عز وجل(٢)، وسبب ذلك الغضب أنه ﷺ غضب لمّا رأىٰ القوم يسألون ويتعنتون في سؤاله ويتكلفون ما لا حاجة لهم به، فخشي أن يحرّم علىٰ المسلمين شيئًا لم يكن محرمًا فيشقّ عليهم ذلك، أو ربما يكون سبب غضبه إلحاحهم في السؤال علىٰ النبي ﷺ حتىٰ شقّ عليه، وهذا قد يؤدي إلىٰ هلاكهم(٣)، وكلّها أسباب موجبة للغضب.

وغضب كذلك لمّا رأىٰ أصحابه يختصمون في القَدر اثباتًا ونفيًا، وكل منهم يستدل

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٣٠٣.

(٢) سبق تخريجه، ص٤٤٣.

(٣) انظر: عمدة القاري، للعيني، ج٢، ص١٧٠، ١٧١.

بالآيات بما يناسب قوله[(١)]، فعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: خرج رسول الله ﷺ علىٰ أصحابه وهم يختصمون في القدر، فكأنما يفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب، فقال: «**بهذا أمرتم، أو لهذا خلقتم؟ تضربون القرآن بعضه ببعض! بهذا هلكت الأمم قبلكم**». قال: فقال عبد الله بن عمرو: ما غبطت نفسي بمجلس تخلفت فيه عن رسول الله ﷺ ما غبطت نفسي بذلك المجلس وتخلفي عنه[(٢)]، وسبب غضبه أنه قد يتوهم الشخص أن القرآن فيه تعارض، وهو سبب موجب للغضب.

وقد غضب ﷺ أيضًا بسبب تردد الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ في قبول الحِلّ من الهدي، فعن عائشة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ أنها قالت: قدم رسول الله ﷺ لأربع مضين من ذي الحجة، أو خمس، فدخل علىٰ وهو غضبان، فقلت: من أغضبك يا رسول الله! أدخله الله النار، قال: «**أوما شعرت أنىٰ أمرت الناس بأمر فإذا هم يترددون** ـ قال الحَكَم: كأنهم يترددون أحسب ـ **ولو أنىٰ استقبلت من أمرىٰ ما استدبرت، ما سقت الهدي معي حتىٰ أشتريه، ثم أحل كما حلوا**»[(٣)]، قال النووي: «أما غضبه ﷺ فلانتهاك حرمة الشرع وترددهم في قبول حكمه، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]، فغضب ﷺ لما ذكرناه من انتهاك حرمة الشرع، والحزن عليهم في نقص إيمانهم بتوقفهم، وفيه دلالة لاستحباب الغضب عند انتهاك حرمة الدين»[(٤)].

وإذا كان المخلوق يقع منه الغضب لأسباب مشروعة وتستحق الغضب، فقد يقع منه

---

(١) انظر: حاشية السندي علىٰ ابن ماجه، للسندي، ج١، ص٦٥.

(٢) رواه ابن ماجه، باب في القدر، رقم الحديث ٨٥، ص٣١، قال ابن حجر في تخريج مشكاة المصابيح: حسن.

(٣) رواه مسلم، كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام وأنه يجوز إفراد الحج والتمتع والقران وجواز إدخال الحج علىٰ العمرة ومتىٰ يحل القارن من نسكه، رقم الحديث ٢٩٣١، ص٥١٠.

(٤) شرح صحيح مسلم، للنووي، ج٨، ص٣٨٩، ٣٩٠.

أيضًا لسبب لا يستحق، فيكون غضبه مذمومًا وهو الغالب عليه إلا من رحم ربّي، ومن ذلك ما قصّه الله علينا من خبر أحد ابني آدم حين لم يُقبل منه القربان فحسد أخيه وغضب حتىٰ أدّىٰ به الغضب أن يقتله، فهذا غضب مذموم؛ لأن سببه الحسد والغيرة.

ويصور الإمام ابن القيم عن إبليس قوله: «واعلموا أنه ليس لكم في بني آدم سلاح أبلغ من هذين السلاحين، وإنما أخرجت أبويهم من الجنة بالشهوة، وإنما ألقيت العداوة بين أولادهم بالغضب، فبه قطعت أرحامهم وسفكت دماءهم، وبه قتل أحد ابني آدم أخاه»(١).

ويذكر أحد الثلاثة الذين أطبقت الصخرة عليهم في الغار أنه غضب علىٰ الأجير الذي كان يعمل لديه حين جاءه يطلب أجره، فنهره فذهب هذا الأجير ولم يأخذ أجره، وفعل الأجير لا يستحق الغضب إلا أن النفس البشرية يعتريها هذا الأمر وقد ندم علىٰ ذلك فنمّىٰ مال الأجير حتىٰ أتاه فردّه إليه.

جاء في مسند الإمام أحمد أن الرجل قال: «**اللهم ان كنت تعلم اني استأجرت أجيراً علىٰ عمل يعمله، فأتاني يطلب أجره وأنا غضبان، فزبرته، فانطلق فترك أجره ذلك، فجمعته وثمرته حتىٰ كان منه كل المال، فأتاني يطلب أجره، فدفعت إليه ذلك كله، ولو شئت لم أعطه إلا أجره الأول، اللهم إن كنت تعلم أني إنما فعلت ذلك رجاء رحمتك، ومخافة عذابك، ففرّج عنا. قال: فزال ثلثا الحجر**»(٢).

وقد جاء أن الأنصار لمّا قسّم رسول الله ﷺ الغنائم بين قريش غضبوا، فقد جاء في صحيح البخاري عن أنس قال: لما كان يوم فتح مكة قسم رسول الله ﷺ غنائم بين قريش،

(١) الجواب الكافي، لابن القيم، ص١٥٣.

(٢) رواه أحمد في مسنده، ج١٩، ص ٤٣٨، ٤٣٩، قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح علىٰ شرط الشيخين.

فغضبت الأنصار، قال النبي ﷺ: «**أما ترضون أن يذهب الناس بالدنيا، وتذهبون برسول الله ﷺ**». قالوا: بلىٰ، قال: «**لو سلك الناس واديا أو شعبا، لسلكت وادي الأنصار أو شعبهم**»(١)، وغضب الصحابة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ ليس حبّا في المال وتعلقًا به، لكن الحاجة والفقر والعوز الذي كانوا يعانون منه يدفعهم أحيانًا إلىٰ مثل هذا، وإلا فالأحاديث قد تكاثرت علىٰ زهدهم وإعراضهم عنها ورغبتهم فيما عند الله.

فظهر مما سبق أن غضب الخالق محمود مطلقًا؛ لأنه يغضب لما يستحق أن يغضب لأجله، وأما الخلق فهم:

- إما أن يكون عندهم تفريط فيفقد القوة الغضبية، فلا حميّة عنده ولا غيرة.
- وإما أن يكون عنده إفراط يخرجه عن الحكمة والسياسة، ويقع فيما ينقص دينه.
- وإما معتدل وهذا هو المحمود(٢).

الفرق الثالث: الفرق في حقيقة الغضب:

غضب المخلوق هو غليان دم القلب حتىٰ يخرج عن طوره، وأما غضب الخالق فليس كمثله شيء(٣).

المخلوق إذا غضب تغيّرت ملامحه، وتبدّلت صفاته فتنتفخ أوداجه، ويحمرّ وجهه، ويقفّ شعر رأسه، ويفقد صوابه، ويخرج عن اعتداله، وهذه العوارض طبيعية في المخلوق ولا تكون أبدًا في الخالق(٤).

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب: غزوة الطائف، رقم الحديث ٤٣٣٢،ص٨١٨.

(٢) انظر: فيض القدير، للمناوي، ج١، ص١٩٨.

(٣) القول المفيد علىٰ كتاب التوحيد، لمحمد العثيمين، ج١، ص٤٢٢.

(٤) انظر: تفسير القرآن، لمحمد العثيمين، سورة البقرة، ج١، ص٢٢٠.

وهذا كلّه من آثار الغضب حيث يحصل له «تغير اللون كما مرّ، وشدة رعدة الأطراف، وخروج الأفعال عن الانتظام، واضطراب الحركة والكلام حتىٰ يظهر الزبد علىٰ الأشداق وتشتد حمرة الأحداق وتنقلب المناخر وتستحيل الخلقة، ولو يرىٰ الغضبان في حال غضبه صورة نفسه لسكن غضبه حياء من قبح صورته لاستحالة خلقته، وقبح باطنه أعظم من قبح ظاهره، فإن الظاهر عنوان الباطن إذ قبح ذاك إنما نشأ عن قبح هذا فتغير الظاهر ثمرة تغير الباطن»(١).

ومن ذلك ما جاء عن سليمان بن صرد قال: كنت جالسًا مع النبي ﷺ ورجلان يستبان، فأحدهما أحمر وجهه، وانتفخت أوداجه، فقال النبي ﷺ: «**إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد، لو قالها: أعوذ بالله من الشيطان، ذهب عنه ما يجد**» فقالوا له: إن النبي ﷺ قال: تعوذ بالله من الشيطان. فقال: وهل بي جنون؟»(٢).

وفي رواية أخرىٰ: «فاشتد غضبه حتىٰ انتفخ وجهه وتغير»(٣)، فوصف الرجل أنه تغير وجهه واحمرّ وانتفخت أوداجه وهو أمر طبيعي حال غضب المخلوق.

وجاء في صحيح مسلم عن أبي قتادة حدث قال كنا عند عمران بن حصين في رهط منا وفينا بشير بن كعب فحدثنا عمران يومئذ قال قال رسول الله ﷺ: «**الحياء خير كله**». قال أو قال: «**الحياء كله خير**». فقال بشير بن كعب إنا لنجد في بعض الكتب أو الحكمة أن منه سكينة ووقارًا لله ومنه ضعف. قال فغضب عمران حتىٰ احمرتا عيناه وقال ألا أرانىٰ أحدثك عن رسول الله ﷺ وتعارض فيه. قال فأعاد عمران الحديث قال فأعاد بشير فغضب عمران قال فما زلنا نقول فيه إنه منا يا أبا نجيد إنه لا بأس به(٤).

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر، للهيتمي، ج١، ص١١٨.

(٢) سبق تخريجه، ص٤٣٣.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: ما ينهىٰ من لسباب واللعن، رقم الحديث٦٠٤٨، ص١١٦٩.

(٤) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، رقم الحديث١٥٧، ص٣٩.

وهذا التغير في الحال يحصل حتىٰ لخيرة الخلق، فرسول الله ﷺ يغضب فيوصف بأنه من شدّة الغضب يحمرّ وجهه وكأنّ الرمّان يُفقأ في وجهه(١)، أي: يُعصر في وجهه(٢)، وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: «**خرج رسول الله ﷺ علىٰ أصحابه وهم يختصمون في القدر، فكأنما يفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب**»(٣).

وهذه الصورة الخارجية للغضبان تليق بالمخلوق الضعيف العاجز الذي يزعجه الغضب ويؤذيه ويشقّ عليه، أما الخالق فلا يمكن أن يكون هذا هو وصف غضبه؛ لأنه سبحانه لاتحلّ بذاته النقائص، فغضبه يليق بكمال عظمته وسلطانه(٤)، فهو سبحانه ليس كمثله شيء لا في صفاته الذاتية ولا الفعلية، قال تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]، ولا يمكن لمخلوق أن يُلحق به ضررًا ولا نفعًا، جاء في صحيح مسلم، عن أبىٰ ذر عن النبي ﷺ فيما روىٰ عن الله تبارك وتعالىٰ أنه قال: «... **يا عبادي! إنكم لن تبلغوا ضرّي فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني**»(٥).

وإذا كان هذا هو غضب المخلوق فلا يلزم أن يكون غضب الخالق مثله، فكما أن حقيقة ذات الخالق لا تماثل ذات المخلوق، فكذلك صفاته لا تماثل صفات المخلوق(٦).

وبهذا يظهر الفارق العظيم بين غضب المخلوق وغضب الخالق في بعض الأوجه والأمر أكبر بكثير، فلا يزال هناك أوجه أخرىٰ لا يتسع المقام لبسطها.

---

(١) انظر: حاشية السندي علىٰ ابن ماجه، للسندي، ج١، ص٦٥.

(٢) انظر: مرقاة المصابيح شرح مشكاة المصابيح، ج١، ص٢٧٧.

(٣) سبق تخريجه، ص٤٧١.

(٤) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١، ص١٨٩، تفسير القرآن، لمحمد العثيمين، سورة البقرة، ج١، ص٢٢٠.

(٥) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب تحريم الظلم، رقم ٦٥٧٢، ص١١٢٨.

(٦) انظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج٦، ص١١٩.

الفصل الثالث

أثر العلم بالفارق بين الخالق والمخلوق في الصفات على استحقاق الخالق للعبادة وبطلان استحقاق المخلوق للعبادة

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: أثر العلم بالفارق بين الخالق والمخلوق في الصفات المتعلقة بتوحيد الربوبية.

المبحث الثاني: أثر العلم بالفارق بين الخالق والمخلوق في صفات الكمال المطلق.

التمهيد

تحقيق الفارق بين الخالق والمخلوق في الصفات له أثر عظيم علىٰ توحيد العبادة وبطلان الشرك؛ فإن عدم التفريق بين الخالق والمخلوق في الصفات، سواء صفات الربوبية أو صفات الكمال المطلق، هو حقيقة الشرك، قال الإمام ابن القيم: «وقال تعالىٰ عن خليله إبراهيم: إنه قال لقومه: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٥- ٨٧]، أي فما ظنكم أن يجازيكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره، وما ظننتم به حين عبدتم معه غيره، وما ظننتم بأسمائه وصفاته وربوبيته من النقص حتىٰ أحوجكم ذلك إلىٰ عبودية غيره، فلو ظننتم به ما هو أهله من أنه بكل شيء عليم، وهو علىٰ كل شيء قدير، وأنه غني عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه، وأنه قائم بالقسط علىٰ خلقه، وأنه المنفرد بتدبير خلقه لا يشركه فيه غيره، والعالم بتفاصيل الأمور، فلا يخفىٰ عليه خافية من خلقه، والكافي لهم وحده، فلا يحتاج إلىٰ معين، والرحمن بذاته، فلا يحتاج في رحمته إلىٰ من يستعطفه، وهذا بخلاف الملوك وغيرهم من الرؤساء، فإنهم يحتاجون إلىٰ من يعرفهم أحوال الرعية وحوائجهم، ويعينهم علىٰ قضاء حوائجهم، وإلىٰ من يسترحمهم ويستعطفهم بالشفاعة، فاحتاجوا إلىٰ الوسائط ضرورة لحاجتهم وضعفهم وعجزهم وقصور علمهم، فأما القادر علىٰ كل شيء، الغني بذاته عن كل شيء، العالم بكل شيء، الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، فإدخال الوسائط بينه وبين خلقه تنقص بحق ربوبيته وإلهيته وتوحيده وظن به ظن السوء، وهذا يستحيل أن يشرعه لعباده، ويمتنع في العقول والفطر جوازه، وقبحه مستقر في العقول السليمة فوق كل قبيح»(١).

ويقول المقريزي(٢) رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم أن حقيقة الشرك: تشبيه الخالق بالمخلوق، وتشبيه

---

(١) الجواب الكافي، لابن القيم، ص ٢٠٥، ٢٠٦.

(٢) أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي الحنفي. اختلف في تاريخ ولادة المقريزي، قال ابن العماد: ولد بعد سنة ستين وسبعمائة، وأخرون سنة تسع وستين وسبعمائة، سمع الكثير من البرهان النشاوري، والبرهان الآمدي، وكان علمًا من الأعلام، ضابطًا مؤرّخا، محدّثا. وتوفي يوم الخميس سادس =

المخلوق بالخالق.

أما الأول: فإن المشرك شبه المخلوق بالخالق في خصائص الإلهية، وهي التفرد بملك الضر والنفع والعطاء والمنع، فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق تعالىٰ وسوىٰ بين التراب ورب الأرباب، فأي فجور وذنب أعظم من هذا؟

واعلم أن من خصائص الإلهية الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وذلك يوجب أن تكون العبادة له وحده عقلا وشرعًا وفطرة، فمن جعل ذلك لغيره، فقد شبه الغير بمن لا شبيه له، ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم، أخبر من كتب علىٰ نفسه الرحمة أنه لا يغفره أبداً»[1].

فإذا كان عدم تحقيق الفارق بين الخالق والمخلوق هو حقيقة الشرك، فإنّ تحقيق هذا الفارق تحقيق للتوحيد، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أثر معرفة صفات الربوبية وصفات الآلهية علىٰ أنواع العبادة: «وجماع ذلك أنه سبحانه يتعرف الي العبد بصفات آلهيته تارة وبصفات ربوبيته تارة فيوجب له شهود صفات الآلهية المحبة الخاصة والشوق الىٰ لقائه والانس والفرح به والسرور بخدمته والمنافسة في قربه والتودد اليه بطاعته واللهج بذكره والفرار من الخلق اليه ويصير هو وحده همه دون ما سواه ويوجب له شهود صفات الربوبية التوكل عليه والافتقار اليه والاستعانة به والذل والخضوع والانكسار له»[2].

وقد جاءت الأدلة متكاثرة في بيان أن الخالق هو المتفرد بالربوبية وبكمال الصفات،

=

عشر سنة خمس وأربعين وثمانمائة شهر رمضان بالقاهرة. من تآليفه كتاب (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) و(تجريد التوحيد المفيد) و(السلوك في معرفة دول الملوك) وغيرها. المرجع: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٩، ص٣٧٠، والأعلام للزركلي، ج١، ص١٧٧، ومعجم المؤلفين، ج٢، ص١١.

(١) تجريد التوحيد المفيد، للمقريزي، ص ٦٢، ٦٣.

(٢) الفوائد، لابن القيم، ص٩٨ ـ ١٠١.

وأن هذا دليل علىٰ استحقاقه للعبادة، وأن المخلوق ناقص في هذا الوصف فلا يستحق من العبادة شيئًا.

ومن الأدلة العامة(١) التي جاءت لتقرير هذا الفارق بين الخالق والمخلوق، وكونه دليلًا علىٰ استحقاق الخالق للعبادة، وانتفاء استحقاق المخلوق لها ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف: ٣٩، ٤٠]، فهذه الأرباب العاجزة الضعيفة والتي لا تنفع ولا تضرّ، ولا تعطي ولا تمنع، وهي متفرقة فمنها الشجر ومنها الحجر ومنها الملائكة والأموات، هل هي خير من الخالق الذي قد كمُل في صفاته، وهو واحد في ذاته وصفاته وأفعاله، فلا يوجد له شريك، قد قهر كلّ شيء، ومعلوم أنّ من هذا وصفه هو خير من هذه المخلوقات التي تفرّقت وهي مجرد أسماء ليس فيها من صفات الكمال ولا جميل الأفعال شيء، بل أنتم من أعطيتموها اسم الآلهة، وليس فيها صفات الألوهية، ولم يأمر الله بعبادتها بل بيّن بطلان ذلك، فلا دليل لكم علىٰ عبادتها(٢)، فاستخدم يوسف ـ عليه السلام ـ هذا الأسلوب في الدعوة إلىٰ التوحيد، فاستدل بالفرق بين الخالق والمخلوق، وبيّن أنه دليل علىٰ استحقاق الخالق للعبادة، وبطلان عبادة المخلوق، وأنّ هذا موجب لعبادته وحده تعالىٰ.

وقد قرر سبحانه أن انتفاء المثيل عنه والشبيه به ووجود الفارق بينه وبين غيره دليل علىٰ عدم استحقاق غيره للعبادة، وأنه المستحق لها، فيجب أن تُصرف العبادة له وحده دون سواه، قال تعالىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴿٦٥﴾﴾

---

(١) المقصود بالعموم هنا، كونها جاءت تقرر الفارق بين الخالق والمخلوق في الصفات عمومًا، وليس في صفة بعينها، وفي المباحث القادمة بإذن الله سيأتي التفريق في بعض الصفات علىٰ وجه الخصوص.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٣٩٨.

[مريم: ٦٥]، يقول الشيخ السعدي في الآية: «أي: هل تعلم لله مسامياً ومشابهاً ومماثلًا من المخلوقين. وهذا استفهام بمعنىٰ النفي، المعلوم بالعقل. أي: لا تعلم له مسامياً ولا مشابهًا، لأنه الرب، وغيره مربوب، الخالق، وغيره مخلوق، الغني من جميع الوجوه، وغيره فقير بالذات من كل وجه، الكامل الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وغيره ناقص ليس فيه من الكمال إلا ما أعطاه الله تعالىٰ، فهذا برهان قاطع علىٰ أن الله هو المستحق لإفراده بالعبودية، وأن عبادته حق، وعبادة ما سواه باطل، فلهذا أمر بعبادته وحده، والاصطبار لها، وعلل ذلك بكماله وانفراده بالعظمة والأسماء الحسنىٰ»(١).

وقال تعالىٰ أيضًا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]، فيخبر تعالىٰ أنه الحق، وهذا علىٰ عمومه، فهو حقّ في ذاته، وفي صفاته، وفي عبادته، ويخبر عمّا دونه من المعبودات أنها باطلة في ذاتها وصفاتها، ولهذا فعبادتها باطلة(٢)، فمن كان مستحقًا لكمال الصفات كان هو المستحق للعبادة، ومن بطل استحقاقه للكمال بطل استحقاقه للعبادة.

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ١٢٣ - ١٢٦]، فإلياس ـ عليه السلام ـ يستنكر علىٰ قومه تركهم عبادة أحسن الخالقين الذي رباهم وأحسن تربيتهم، وأدرّ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة، وعبادة صنم لا ينفع، ولا يضرّ، ولا يخلق، ولا يرزق، ولا يتكلم(٣)، وهذا موجب لاستحقاق الخالق للعبادة وبطلان استحقاق المخلوق لها؛ ولذا قال بعدها: ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وتأويل الكلام: ذلك معبودكم أيها الناس الذي يستحق عليكم العبادة: ربكم الذي خلقكم، ورب

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٤٩٨.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٦٥٢.

(٣) انظر: المرجع السابق ، ص٧٠٧.

آبائكم الماضين قبلكم، لا الصنم الذي لا يخلق شيئا، ولا يضر ولا ينفع»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النمل: ٥٩]، قال الشيخ السعدي: «وهذا استفهام قد تقرر وعرف، أي: آلله الرب العظيم، كامل الأوصاف، عظيم الألطاف، خير أم الأصنام والأوثان التي عبدوها معه، وهي ناقصة من كل وجه، لا تنفع ولا تضر، ولا تملك لأنفسها ولا لعابديها مثقال ذرة من الخير، فالله خير مما يشركون»(٢)، وهذا موجب لاستحقاق الخالق للعبادة وبطلان استحقاق المخلوق لها؛ ولهذا ذكر بعدها ما يبيّن تفاصيل هذا الأمر(٣)، فقال تعالىٰ: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النمل: ٦٠] إلىٰ آخر الآيات.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٦- ٩٨]، فيخبر تعالىٰ عن يوم القيامة، وأنه سيظهر للمشركين أن المستحق للعبادة علىٰ الحقيقة هو الخالق، وأن المخلوق لا يستحق من العبادة شيئًا، وأن تسوية الخالق بالمخلوق في العبادة من أعظم الضلال، وإنما تجلت لهم هذه الحقيقة يوم القيامة لِمَا رأوه عيانًا من كمال صفات الخالق، ونقص صفات المخلوق، فشاهدوا قوة الخالق وضعف المخلوق، وقدرته وعجزهم، ونصرته وخذلانهم، وعلمه وجهلهم، وملكه وعبوديتهم، وغناه وفقرهم، فاستبان لهم الأمر، وتكشفت لهم الحقائق.

والاستدلال بالفارق علىٰ استحقاق الخالق للعبادة، وبطلان استحقاق المخلوق لها جاءت به النصوص وله صور، فأمّا بيان الفارق فقد جاء بعدّة صور:

---

(١) جامع البيان، للطبري، ج١٩، ص٦١٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٦٠٧.

(٣) انظر: المرجع السابق.

-فقد يأتي وصف كمال الخالق ونقص المخلوق في سياق واحد مجتمعين.

-وقد يأتي وصف كمال الخالق في سياق منفرد، وهو متضمّن لنقص المخلوق.

-وقد يأتي وصف نقص المخلوق في سياق منفرد، وهو متضمّن لكمال الخالق(١).

وأما بيان استحقاق الخالق للعبادة وبطلان استحقاق المخلوق لها فله عدّة صور أيضًا:

١-الأمر بالعبادة كقوله تعالىٰ: ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

٢-التصريح بأنّ المستحق للعبادة هو الله كقوله تعالىٰ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النحل: ٢٢]، ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٦٠]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الحج: ٦]، ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ [الرعد: ١٤].

٣-تنزيه الخالق عن الشرك، كقوله تعالىٰ: ﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [المؤمنون: ٩٢]، ﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١].

٤-إنكار الشرك كقوله تعالىٰ: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأنعام: ٩٥]، ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يونس: ٣٢]، ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٧٦]، ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٩].

٥-نفي الشريك عنه سبحانه كقوله تعلىٰ: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ﴾ [الكهف: ٢٦]، ﴿يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

٦-الاستدلال العقلي كون العبد يتوجه للخالق ويترك المخلوق حال الشدة.

٧-وأخيرًا فقد يأتي الفارق مجردًا، لكنّه متضمن للمعنىٰ كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ

(١) وضعت لكلّ صورة عنوان مستقلّ وأمثلة عليه.

وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ ﴾ [محمد: ٣٨]، هذا ما ظهر لي ـ بتوفيق الله ومنّته وفضله ـ خلال استقراء النصوص، وقد يأتي بصور أخرىٰ لكن الغالب هو ما ذكرت(١).

(١) ترتيب الصور المذكورة مقصود فهو مرتب علىٰ الأظهر في وجه الدلالة، وقد رتبت الأدلة في هذا الفصل بناءًا عليه.

المبحث الأول

أثر العلم بالفارق بين الخالق والمخلوق في الصفات المتعلقة بتوحيد الربوبية

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: صفة الخلق.

المطلب الثاني: صفة الملك.

المطلب الثالث: صفة الرزق.

المطلب الرابع: صفة النفع والضر.

المطلب الخامس: صفة الهداية والنصرة.

تمهيد

الفارق بين الخالق والمخلوق في صفات الربوبية كصفات الخلق والرزق والملك والنفع والضرّ وغيرها برهان من براهين التوحيد وبطلان الشرك.

والخالق تفرّد بهذه الصفات، فكان هو المستحق للعبادة عقلًا وشرعًا، قال الشيخ السعدي في هذا النوع من الاستدلال: «وإذا كان الله هو الذي خلقك ورزقك وأنعم عليك بالنعم الظاهرة والباطنة لم يشاركه في ذلك مشارك فعليك أن لا تتأله ولا تتعبد لغيره، وعليك أن تخصه بالتوحيد والسؤال واللجا والفزع في أمورك كلها، وهذا من أعظم الأدلة علىٰ توحيد الإلهية، وهو الاستدلال بربوبية الله للعبد بل وللخلق كلهم والتفرد بتدبيرهم وإسداء النعم عليهم علىٰ أنه هو الإله حقًا الذي لا يستحق الألوهية ولا شيئًا من العبودية غيره»[1]، وأمّا المعبودات من دون الله فتجردت من معاني الربوبية فلا تخلق ولا تملك ولا ترزق ولا تنفع ولا تضرّ، فبطل استحقاقها للعبادة[2]، فلا يوجد لنا غير الله يربّينا ويحفظنا ويدبّر أمورنا، فهو ربّ كلّ شيء، والخلق كلّهم تحت ربوبيته؛ ولهذا استحق أن نعبده وحده، وألا نتعلق بغيره[3]، وأما المخلوق الذي لا يملك من صفات الربوبية شيئًا فلا يستحق من العبادة شيء، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وقد كثُرت النصوص الدالة علىٰ الفارق بين الخالق والمخلوق في صفات الربوبية والاستدلال بذلك علىٰ استحقاق الخالق للعبادة، وبطلان عبادة المخلوق، وفيما يلي بيان ذلك:

---

(١) الحق الواضح المبين، للسعدي، ص ١١٣، ١١٤

(٢) انظر: آثار المثل الأعلىٰ، لعيسىٰ السعدي، ص٨٩.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٣، ص٣٨٣، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٢٨٢.

المطلب الأول

صفة الخلــــق

من معاني الخلق: إبداع الشيء على غير مثال سابق، وهذا المعنى قد تفرّد الله به فلا خالق إلا هو، وأما المخلوق فلا يمكنه خلق شيء إطلاقًا، ولو كان من أضعف المخلوقات وأحقرها، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج: ٧٣]، ولهذا فلا يستحق العبادة إلا هو سبحانه وأما غيره فلا يستحق من العبادة شيء، ومع ذلك فقد ضلّ كثير من الناس في هذا الأمر فأقرّوا بأنه الخالق لكل شيء، وعبدوا غيره ممن لا يخلق شيئًا.

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦]، قال: «من إيمانهم، إذا قيل لهم: مَن خلق السماء، ومن خلق الأرض، ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله. وهم مشركون»[(١)]، وهذا من أعظم الضلال، فكيف يعبد المرء غير الذي خلقه وسوّاه وعدله، وكيف يعبد من لا يخلق بل هو مخلوق مثله؟!

وقد جاءت النصوص في أكثر من موطن للاستدلال بكمال صفة "الخلق" للخالق على استحقاقه للعبادة وبانتفاء صفة "الخلق" عن المخلوق على بطلان استحقاق المخلوق لها ومنها:

أولًا: الاستدلال بالفارق بين الخالق والمخلوق في صفة "الخلق":

- قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ

(١) جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٣، ص٣٧٣.

فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [النحل: ١٧ - ٢٢].

لمّا ذكر عددًا من النعم في هذه السورة ذكر أنه لا يشبهه أحد؛ فمن يخلق جميع المخلوقات ليس كمن لا يخلق شيئًا، وفي هذا تنبيه لهم بأن العبادة لا يستحقها إلا من يخلق، وأما من لا يخلق بل هو مخلوق فلا يستحق منها شيئًا، ثم يقرر أن الإله المستحق للعبادة هو إله واحد(١)، وهو الخالق.

- وعن شداد بن أوس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «**سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء لك بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**»(٢).

فتضمن هذا الدعاء الاعتراف بأنه وحده المستحق للعبادة؛ لأنه الخالق وحده ونحن عبيده.

- وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ [الأعراف: ١٨٩ - ١٩١].

في الآية بيان استحقاق الخالق للعبادة وحده دون سواه فهو من خلقنا من نفس واحدة، وفيها بطلان استحقاق المخلوق للعبادة؛ لأنه لا يخلق شيئًا، ولا مثقال ذرّة، بل هي بنفسها مخلوقة فكيف تُعبد مع الخالق؟!(٣)، فجاء الفرق واضحًا في سياق واحد بين من يستحق

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٤، ٥٦٤، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٤٣٧، ٤٣٨.

(٢) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب: أفضل الاستغفار، رقم الحديث ٦٣٠٦، ص١٢١٣.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٣١٢.

العبادة؛ لأنه الخالق ومن لا يستحقها؛ لأنه لا يخلق.

- وقوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠].

في الآية إثبات أن الله هو الخالق وحده، ونفي ذلك عن الشركاء[(١)]، وفي هذا بيان للفارق بين الخالق والمخلوق في صفة الخلق؛ ولهذا نزّه نفسه سبحانه عن الشرك؛ لأنه المستحق للعبادة، وأمّا غيره فعبادته باطلة.

- وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [يونس: ٣٤].

ينفي سبحانه عن الشركاء الذين اتخذهم المشركون آلهة يعبدونها صفة الخلق ويثبتها لله وحده؛ فكيف يتركون عبادة الخالق المستحق للعبادة، وينصرفون لعبادة غيره ممن لا يخلق؟[(٢)]، ولا يستحق من العبادة شيء.

- وقوله تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ١ - ٣].

يخبر تعالىٰ عن استحقاقه وحده للعبادة؛ لأنه الموصوف بصفات الكمال، ومنها أنه الخالق لكل شيء، ثم يخبر تعالىٰ عن جهل المشركين ونقص عقولهم بل وظلمهم أنهم اتخذوا آلهة يعبدونها من دون الله وصفتها علىٰ الضدّ من صفة الله، فهي لا تخلق شيئًا بل هي

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٦٤٣.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٣٦٤.

مخلوقة، وهذا من أعجب العجب[1]، ففيها بيان الفرق بين من يستحق العبادة؛ لأنه الخالق، ومن لا يستحق العبادة؛ لأنه لا يخلق.

- وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾ [الرعد: ١٦].

ينكر الله علىٰ المشركين اتخاذهم شركاء مع الله، ويبطل استحقاقهم للعبادة بكونهم لم يخلقوا كخلق الله، وأن هذا أمر لا يشتبه علىٰ ذي عقل، ثم يقرر أن الله هو خالقهم وخالق أوثانهم التي يعبدونها، وخالق كل شيء فهو وحده من يستحق العبادة[2]، فبيّن الفرق بين من يستحق العبادة؛ لأنه الخالق، ومن لا يستحق العبادة؛ لأنه لا يخلق.

- وقوله تعالىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾ [لقمان: ١٠، ١١].

ذكر في هذه الآية عددًا من المخلوقات العظيمة، ثم أخبر أن هذه المخلوقات الخالق لها هو الله المستحق للعبادة، فماذا خلقت آلهتكم التي تعبدونها من دون الله حتىٰ تستحق أن تعبد؟ ومن المعلوم أنهم لا يمكنهم أن يثبتوا أنها خلقت شيئًا لإقرارهم أن الله خالق لكل شيء، ولكنهم عبدوها جهلًا وضلالًا[3]؛ فتركوا عبادة الخالق المستحق للعبادة، وعبدوا المخلوق الذي لا يستحق من العبادة شيء.

(١) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٧، ص٣٩٧، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٦، ص٩٣، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٥٧٧، ٥٧٨.

(٢) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٣، ص٤٩٥.

(٣) انظر: المرجع السابق، ج ١٨، ص٥٤٤، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٦٤٧، ٦٤٨.

ثانيًا: الاستدلال بكمال صفة "الخلق" للخالق:

- قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنعام: ١٠٠ - ١٠٢].

استدل في هذه الآيات بانفراده بصفة الخلق علىٰ استحقاقه للعبادة في ثلاثة مواطن:

في الآية الأولىٰ: إنكاره علىٰ المشركين اتخاذ شركاء من الجن يعبدونهم مع أن الله خالقهم، فسوّوا بين الخالق والمخلوق، ثم نزه نفسه عن هذا الشرك وهذه التسوية.

قال الإمام ابن كثير: «ومعنىٰ الآية: أنه سبحانه وتعالىٰ هو المستقل بالخلق وحده؛ فلهذا يجب أن يُفْرَد بالعبادة وحده لا شريك له»(١).

في الآية الثانية: ذكر أن الله هو من خلق السموات والأرض وخلق كل شيء، فهو المستحق للعبادة وحده.

في الآية الثالثة: ذكر أن الله الخالق للشركاء وللسموات والأرض والخالق لكل شيء هو المستحق للعبادة وحده دون سواه، وأن هذا موجب لإفراده بالعبادة والتوكل.

قال الشيخ السعدي: «أي: إذا استقر وثبت أنه الله الذي لا إله إلا هو، فاصرفوا له جميع أنواع العبادة، وأخلصوها لله، واقصدوا بها وجهه. فإن هذا هو المقصود من الخلق الذي خلقوا لأجله ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]»(٢).

- وقوله تعالىٰ: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٣، ص٣٠٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٢٦٨.

ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٢ – ٦٧].

يخبر تعالىٰ أنه وحده الخالق لكل شيء فهو وحده المستحق للعبادة، ثم ينكر علىٰ من يأمر بعبادة غيره، وأن هذا من جهله؛ لأنه عدم تفريق بين الخالق المستحق للعبادة وبين غيره من الخلق الذين لا يستحقون العبادة، فمن أشرك بالله حبط عمله وخسر، ثم يأمر بعبادة الله وحده وشكره وحده، فهو المستحق لذلك، فإن من أشرك معه غيره لم يقدر الله حق قدره، فبيّن أولًا أن الله هو المستحق للعبادة وحده دون سواه؛ لأنه الخالق وحده، ثم بيّن أن هذا موجب لإفراده بالعبادة وعدم الشرك به.

– قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢].

أمر الله في هذه الآية بوجوب إفراده بالعبادة وحده دون سواه، ونهىٰ عن الشرك واتخاذ الأنداد معه، واستدل علىٰ ذلك بأنه وحده الخالق للعباد فلا يستحق العبادة إلا هو(١)، قال الشيخ السعدي: «وهذه الآية جمعت بين الأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن عبادة ما سواه، وبيان الدليل الباهر علىٰ وجوب عبادته، وبطلان عبادة من سواه، وهو ذكر توحيد الربوبية، المتضمن لانفراده بالخلق والرزق والتدبير، فإذا كان كل أحد مقرا بأنه ليس له شريك في ذلك، فكذلك فليكن إقراره بأن الله لا شريك له في العبادة، وهذا أوضح دليل عقلي علىٰ وحدانية الباري، وبطلان الشرك.»(٢)

(١) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١، ص٣٩٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٤٥.

- وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [غافر: ٦٢].

أي هو المستحق للعبادة وحده دون سواه؛ لأنه الخالق لكل شيء؛ فكيف يتركون عبادة الخالق ويعبدون المخلوق(١).

- وقوله تعالىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾ [الزمر: ٥، ٦].

الذي خلق السموات والأرض وخلقكم وآباءكم هو معبودكم الذي لا يستحق العبادة إلا هو فكيف تصرفون عن عبادة من هذه صفته إلىٰ من ليس لها من الأمر شيئًا(٢).

- وقال تعالىٰ، علىٰ لسان إبراهيم عندما كان يحاج قومه: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٩].

أي وجهت عبادتي وصرفتها لمن يستحق، وهو الخالق لهذه السموات والأرض، ففيها بيان أن الله هو الخالق، وأن هذا موجب لصرف العبادة له، وعدم الإشراك به.

- وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [يس: ٢٢- ٢٤].

يخبر تعالىٰ عن مؤمن بني إسرائيل وأنه أثبت استحقاق الله للعبادة؛ لأنه هو الخالق

(١) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٢٠، ص٣٥٦.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص١٦٧، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٧، ص٨٦، تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٧١٩.

وحده[1]، وأمّا المخلوقات من دونه فلا تستحق من العبادة شيء، ولو عبدها لكان في ضلال مبين، حيث ترك عبادة من يستحق وعبد من لا يستحق.

- وعن عبد الله قال: سألت النبي ﷺ: أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «**أن تجعل لله ندا وهو خلقك**»[2].

الند هو النظير والمثيل، والمقصود أن أعظم ذنب عند الله أن يدعو الإنسان أو يعبد مع الله أحدًا، مع أن الخالق له هو الله، فانفراده بالخلق دليل على توحيده[3]، ففيه بيان بطلان الشرك، واستحقاق الله للعبادة؛ لأنه الخالق.

ثالثًا: الاستدلال بانتفاء صفة "الخلق" عن المخلوق:

- وقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [فاطر: ٤٠].

يخبر تعالىٰ عن بطلان استحقاق غيره للعبادة بانتفاء صفة الخلق عنهم؛ فالمشركون مقرون بأن الله هو الخالق لكل شيء[4]، وأن آلهتهم لا تخلق شيئًا، فيجب أن يقرّوا أنها لا تستحق من العبادة شيئًا.

- وقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [الأحقاف: ٤].

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٦٩٤.

(٢) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [٢٢]، رقم الحديث ٤٤٧٧، ص٨٤٦.

(٣) انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود، للآبادي، ج٦، ص٢٧٤.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٦٩١.

يخبر تعالىٰ عن عدم استحقاق المخلوق للعبادة؛ لأنه لم يخلق شيئًا فهل يمكن المشركين من إثبات ذلك لآلهتهم التي يعبدونها فيكون لهم حجة في عبادتها؟[1]، ولمّا لم يمكنهم إثبات أنها تخلق بطل استحقاقها للعبادة.

- قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٧٤﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤].

فبيّن أنهم لم يقدروا الله حقّ قدره حين عبدوا المخلوق الضعيف الذي لا يمكنه خلق أتفه المخلوقات فهو لا يستحق من العبادة شيء.

ومما سبق يظهر لنا الأثر من بيان الفرق بين الخالق والمخلوق في صفة الخلق فإن الله مستحق للعبادة؛ لأنه وحده الخالق لكل شيء، وأما المخلوق فعبادته باطلة؛ لأنه لم يخلق شيئًا فيستحق عبادته، وأن هذا موجب لأن يُفرد العباد ربهم في عباداتهم، ويتركوا عبادة ما سواه.

(١) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٢١، ص١١٢.

المطلب الثاني

صفـــــة الملك

الملك صفة ثابتة للخالق والمخلوق، وقد مرّ معنا الكلام عن معنىٰ هذه الصفة، وعن الفرق بين الخالق والمخلوق في هذه الصفة، ولوجود الفرق الشاسع بينهما تأتي النصوص أحيانًا بنفي الملك عن المخلوق؛ لأن ملكه غير حقيقي، وإنما هو بتمليك الله له، ولأنه زائل ومحدود، إلىٰ غير ذلك من النقص الوارد علىٰ صفات المخلوقين، وإذا ثبت هذا الفرق كان موجبًا لأن يستحق الخالق العبادة وحده دون سواه، وأن تبطل عبادة المخلوق، وينتفي استحقاقه لها، وذلك يستوجب إفراد الخالق بالعبادة وأن تصرف له وحده دون سواه، فإنّ من لا يملك مقدار القطمير لا يمكن أن يُدعىٰ ويطلب ويُرجىٰ ويُخشىٰ، ومن ملكه زائل لا يمكن أن يُتعلق به ويُتوكل عليه.

قال الإمام الطبري: «أخبر عباده أن الألوهية خاصة به دون ما سواه من الآلهة والأنداد، وأن العبادة لا تصلح ولا تجوز إلا له، لانفراده بالربوبية وتوحده بالألوهية، وأن كل ما دونه فملكه، وأن كل ما سواه فخلقه، لا شريك له في سلطانه وملكه؛ احتجاجا منه تعالىٰ ذكره عليهم، بأن ذلك إذ كان كذلك، فغير جائزة لهم عبادة غيره، ولا إشراك أحد معه في سلطانه، إذ كان كل معبود سواه فملكه، وكل معظم غيره فخلقه، وعلىٰ المملوك إفراد الطاعة لمالكه، وصرف خدمته إلىٰ مولاه ورازقه، ومعرفا من كان من خلقه ـ يوم أنزل ذلك إلىٰ نبيه محمد ﷺ بتنزيله ذلك إليه، وإرساله به إليهم علىٰ لسانه صلوات الله عليه وسلامه ـ مقيمًا علىٰ عبادة وثن أو صنم، أو شمس أو قمر، أو إنسي أو ملك، أو غير ذلك من الأشياء التي كانت بنو آدم مقيمة علىٰ عبادته وإلاهتها، ومتخذه دون مالكه وخالقه إلهًا وربًا أنه مقيم علىٰ ضلالة، ومنعزل عن المحجة، وراكب غير السبيل المستقيمة، بصرفه العبادة إلىٰ غيره، ولا أحد له الألوهية غيره»(١).

---

(١) جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٥، ص١٧٠، ١٧١.

وقد جاءت النصوص في أكثر من موطن للاستدلال بكمال ملك الخالق علىٰ استحقاقه للعبادة، وبنقص ملك المخلوق علىٰ بطلان استحقاق المخلوق لها ومنها:

أولًا: الاستدلال بالفارق بين الخالق والمخلوق في صفة "الملك":

- قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٣، ١٤].

(ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ) أي أن معبودكم المستحق للعبادة هو الخالق وحده؛ لأنه له وحده الملك التام فكل شيء داخل في ملكه وسلطانه، وأما المعبودات من المخلوقات فصفتها أنها ليس لها من الملك حتىٰ أحقر الأشياء كقشرة النواة فما فوقها؛ فكيف استحقت العبادة، وهذا وصفها، فتضمنت هذه الآيات البرهان علىٰ استحقاق الخالق للعبادة وحده دون سواه، وعلىٰ بطلان عبادة غيره من المخلوقات التي لا تفيد من عبدها شيئًا[(١)]، لوجود الفارق بين ملك الخالق والمخلوق.

- وقال تعالىٰ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر: ٤٣- ٤٥].

ينكر سبحانه علىٰ من اتخذ مخلوقًا يعبده من دون الله رجاء شفاعتهم وهم لا يملكون شيئًا، ثم يذكرهم بمن يستحق العبادة وحده دون سواه، وهو الخالق الذي له ملك السموات

(١) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٩، ص٣٤٨، ٣٤٩، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٦٨٦، ٦٨٧.

والأرض، فهو من له الشفاعة جميعًا، فأخلصوا له العبادة[1]، فالفرق بين الخالق الذي له ملك السموات والأرض، والمخلوق الذي لا يملك شيء، موجب لإفراده -سبحانه- بالشفاعة.

- وقال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [يونس: ٦٦].

يخبر تعالىٰ أن ملك من في السموات والأرض له وحده، وأنه لا يشركه في هذا الملك أحد، وأن هذا موجب لأن يكون المستحق للعبادة الخالق وحده، وأما عبادة غيره فباطلة؛ لأنه من ضمن هذا الملك وليس مالكًا لشيء، فمن اعتقد أن مع الخالق مالكًا فهو مجرد ظن وتخرص باطل[2]، فأثبت لنفسه استحقاق العبادة؛ لأنه المالك لكل شيء، وأبطل استحقاق المخلوق للعبادة؛ لأنه لا يملك شيئًا، ولا شركة له في الملك.

ثانيًا: الاستدلال بإثبات كمال ملك الخالق:

- قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٢- ٢٤].

يخبر تعالىٰ أنه وحده الذي يستحق العبادة؛ لأن له من الأوصاف ما ليس لغيره، والتي منها أنه الملك الذي لا ملك فوق ملكه، ولهذا ينزّه نفسه سبحانه عن شرك المشركين[3].

---

(١) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٢٠، ص٢١٦، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٧٢٦.

(٢) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٢، ص٢٢٧، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٤، ص٢٨٢.

(٣) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٢٢، ص٥٥٠.

- وقوله تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

يخبر تعالىٰ عن نفسه أنه المستحق للعبادة وحده فهو من تتعين له العبادة والطاعة؛ لأنه كامل الصفات، ومنها كمال ملكه فهو المالك لكل ما في السموات والأرض، وكل من عداه فمملوك له لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئًا؛ ولهذا فإن الشفاعة لا تكون إلا بإذن الخالق فلا يستحق هذا المخلوق شيئًا من العبادة(١).

- ومثل هذه الآية كثير من الآيات التي يذكر فيها صفة الملك مقترنة بكلمة التوحيد للدلالة علىٰ أن انفراده بالملك دليل علىٰ استحقاقه للعبادة وحده كقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ٦﴾ [الزمر: ٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ١١٦﴾ [المؤمنون: ١١٦].

وكما جاء في صحيح مسلم عن علي بن أبىٰ طالب عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا قام إلىٰ الصلاة قال: «**وجهت وجهىٰ للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين. اللهم! أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك**»(٢).

فاقترنت صفة الملك لله بكلمة التوحيد لبيان أن كامل الملك هو المستحق وحده للعبادة.

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص١١٠.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة النبي ﷺ ودعائه بالليل، رقم الحديث ١٨١٢، ص٣١٤، ٣١٥.

- قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ [سورة الناس].

يخبر تعالىٰ عن نفسه أنه ملك الناس، وملكه هذا من كمال ربوبيته؛ فلأنه الرب فهو الملك وإذا كان الخالق هو الملك المتصرف في الأمور؛ فإن هذا يستلزم استحقاقه للعبادة وحده لا شريك له، ولهذا قال: (إله الناس)(١)، ومن ثمّ وجب ألا يستعيذوا إلا بالخالق، يقول الإمام ابن القيم: «فهو إلههم الحق، ومعبودهم الذي لا إله لهم سواه، ولا معبود لهم غيره. فكما أنه وحده هو ربهم ومليكهم لم يشركه في ربوبيته ولا في ملكه لهم أحد، فكذلك هو وحده إلههم ومعبودهم، فلا ينبغي أن يجعلوا معه شريكًا في إلهيته، كما لا شريك معه في ربوبيته وملكه. وهذه طريقة القرآن الكريم يحتج عليهم بإقرارهم بهذا التوحيد علىٰ ما أنكروه من توحيد الإلهية والعبادة، وإذا كان وحده هو ربنا وملكنا وإلهنا، فلا مفزع لنا في الشدائد سواه، ولا ملجأ لنا منه إلا إليه. ولا معبود لنا غيره، فلا ينبغي أن يدعىٰ ولا يخاف ولا يرجىٰ ولا يحب سواه، ولا يذلّ لغيره، ولا يخضع لسواه، ولا يتوكّل إلا عليه؛ لأن من ترجوه وتخافه وتدعوه وتتوكل عليه إما أن يكون مربّيك والقيّم بأمورك، ومتولي شأنك، وهو ربك فلا رب سواه؛ أو تكون مملوكه وعبده الحق، فهو ملك الناس حقًا، وكلهم عبيده ومماليكه. أو يكون معبودك وإلهك الذي لا تستغني عنه طرفة عين، بل حاجتك إليه أعظم من حاجتك إلىٰ حياتك وروحك، وهو الإله الحق، إله الناس الذي لا إله لهم سواه، فمن كان ربهم وملكهم وإلههم فهم جديرون أن لا يستعيذوا بغيره، ولا يستنصروا بسواه، ولا يلجأوا إلىٰ غير حماه، فهو كافيهم وحسبهم وناصرهم، ووليهم ومتولي أمورهم جميعًا بربوبيته وملكه وإلاهيته لهم، فكيف لا يلتجئ العبد عند النوازل ونزول عدوه به إلىٰ ربّه

(١) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم، ج٢، ص٧٨٠، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي، ج٩، ص٣٥٣.

ومالكه وإلهه؟!»[1].

- وقال تعالىٰ: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [النساء: ١٣١، ١٣٢].

كرّر سبحانه في هذه الآيات انفراده بالملك، وإحاطته لكل ما في السموات والأرض، وهذا يستلزم التوكل عليه وحده دون سواه[2]، فالمستحق للعبادة وحده هو الخالق صاحب الملك الحقيقي.

- وقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الفاتحة: ٢- ٧].

فوصف نفسه بأنه المالك ليوم الدين، وأعقب هذا الوصف باستحقاقه للعبادة وحده دون سواه.

- وقال تعالىٰ: ﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤- ٩٠].

يقرّر سبحانه انفراده بالملك ليدلّل علىٰ استحقاقه للعبادة وحده حيث يُلزم المشركين الذين يقرون أنه المالك لكل ما في الأرض وبيده الملك؛ أن يقرّوا باستحقاقه وحده

(١) بدائع الفوائد، ابن القيم، ج٢، ص٧٨٠.

(٢) انظر: معالم التنزيل، للبغوي، ج١، ص٦٠٩، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٢٠٧، ٢٠٨.

للعبادة[1]، قال الشيخ السعدي في قوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ «أي: أفلا ترجعون إلىٰ ما ذكركم الله به، مما هو معلوم عندكم، مستقر في فطركم، قد يغيبه الإعراض في بعض الأوقات، والحقيقة أنكم إن رجعتم إلىٰ ذاكرتكم، بمجرد التأمل، علمتم أن مالك ذلك، هو المعبود وحده، وأن إلهية من هو مملوك، أبطل الباطل»[2].

ثالثًا: الاستدلال بانتفاء ملك المخلوق:

- قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

يخبر تعالىٰ عن بطلان عبادة غيره؛ لأنهم لا يملكون شيئًا ولا مثقال الذرة، وإذا لم يملكوا هذا المقدار فلا يمكن أن يكونوا شركاء في الملك فالمعبودات من دون الله لا تملك وزن الذرة، لا مشاعًا ولا مقسومًا، فكيف تستحق العبادة مع مالك الملك [3]؟!

فظهر مما سبق من الأدلة بيان الأثر من الفرق بين الخالق والمخلوق في صفة الملك فإن الخالق مستحق للعبادة؛ لأنه وحده كامل الملك، وأما المخلوق فلا يستحقها لأنه ناقص الملك، وهذا موجب للعباد أن يتوجهوا إلىٰ الخالق وحده بالعبادة دون سواه، وأن يتركوا عبادة غيره.

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٥، ص٤٨٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٥٥٧.

(٣) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٩، ص٢٧٢.

المطلب الثالث

صفـــة الرزق

الخالق وحده هو الرازق للخلق، والمخلوق لا يملك لنفسه فضلًا عن غيره رزقًا، وحين ذكر الله أنه خلق الخلق لعبادته وحده لا شريك، نفىٰ أن تكون هذه العبادة نافعة له، أو أنه محتاج إليها، وأخبر أنه هو من يرزقهم، فحصر الرزق في نفسه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦- ٥٨]، وأخبرنا أنه قد تكفل برزق كل مخلوق في هذا الكون، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود: ٦]، وقد يُوصف المخلوق بالرزق، قال تعالىٰ: ﴿وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [المائدة: ١١٤]، فوصف نفسه وغيره بالرزق إلا أنه تعالىٰ خير من يرزق، وأجود من يتفضّل، فعطاؤه لا يدخله منّ ولا نكد(١)، وأمّا المخلوق فإن أعطىٰ فيتبعه بالمنّ والأذىٰ ولا يعطي إلا بنكد ومشقّة، وعطاء المخلوق لغيره هو من باب السببية، وليس الرزق أو العطاء صادرًا من عنده، فالمعطي الحقيقي هو الخالق صاحب اليد العليا فمن يرد الله أن يرزقه رزقه، ومن يرد أن يمنع عنه رزقه منعه، فلا معطي لما منع ولا مانع لما أعطىٰ، ولأن الخالق هو الرازق علىٰ الحقيقة، ذكر أهل العلم أنه يمنع من تسمية المخلوق بالرازق، قال الإمام ابن القيم: «ومما يمنع تسمية الإنسان به أسماء الرب تبارك وتعالىٰ، فلا يجوز التسمية: بالأحد والصمد، ولا بالخالق ولا بالرازق، وكذلك سائر الأسماء المختصة بالرب تبارك وتعالىٰ»(٢).

وكون الخالق منفرد بالرزق، والمخلوق لا يرزق علىٰ الحقيقة، دليل علىٰ استحقاق الخالق للعبادة وحده، وعلىٰ بطلان استحقاق المخلوق لها؛ لأن من لا يقدر علىٰ العطاء إذا

(١) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٩، ص١٢٥.

(٢) تحفة المودود بأحكام المولود، لابن القيم، ص١٢٠.

أراد، لا يستحقّ أن يُدعىٰ ويُطلب، ومن يتبع عطاؤه المنّ والنكد لا يستحق أن يُرجىٰ، ومن لم يكن صاحب العطاء الحقيقي لم يستحق الشكر والعبادة.

وقد جاءت النصوص في أكثر من موطن للاستدلال بكمال رزق الخالق وعطاؤه علىٰ استحقاقه للعبادة، وبنقص رزق المخلوق وعطاؤه علىٰ بطلان استحقاق المخلوق لها ومنها:

أولًا: الاستدلال بالفارق بين الخالق والمخلوق في صفة "الرزق والعطاء":

- يقول تعالىٰ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [النحل: ٧٥].

ضرب الله مثلًا له ولمن يُعبد من دونه يبيّن الفرق بينهما، فأحدهما عبد مملوك لا يملك شيئًا لا رزق ولا غيره، والثاني حرٌّ غنيٌّ عنده من الرزق الشيء الكثير فهو يعطي من هذا الرزق وينفق منه فالفرق بين الرجلين عظيم(١)، وإذا تقرر هذا الفرق بين مخلوق ومخلوق، فكيف بالفرق بين الخالق الرازق الذي يعطي ويرزق، وبين المخلوق الذي لا قدرة له علىٰ العطاء، بل هو فقير عاجز من كلّ وجه؛ ومن ثمّ فإن المستحق للحمد علىٰ الحقيقة هو الخالق.

والمقصود من المثل اثبات الفارق بين الخالق والمخلوق، وإثبات استحقاق الخالق للعبادة ونفي استحقاق المخلوق لها(٢).

- ويقول تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الروم: ٤٠].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٤، ص٥٨٨، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٤٤٥.

(٢) انظر: فتح القدير، للشوكاني، ج٣، ص٢١٦.

فينكر سبحانه على المشركين قبح صنيعهم حين عبدوا معه غيره من المخلوقين، والعبادة لا تصلح إلا له؛ لأنه وحده الذي يرزقهم فيخرج الإنسان إلى الحياة عريانًا لا علم له ولا سمع ولا بصر ولا قوة، ثم يرزقه اللباس والمال والقوة، وأما شركاؤهم الذين يعبدونهم مع الله فإنهم لا يفعلون شيئًا من ذلك؛ فكيف يشركون من انفرد بالرزق بمن ليس له تصرف فيه؟! ثم برأ نفسه سبحانه أن يكون له شريك أو نظير(١)؛ لأنه وحده المستحق للعبادة، والمخلوق لا يستحق منها شيء.

- ويقول تعالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الرعد: ٣٣].

في هذه الآيات بيان للفرق بين الخالق الذي هو قائم بأرزاق الخلق وحفظها، وبين الشركاء الذين اتخذوهم آلهة، فيقول: هل من هو قائم بحفظ أرزاقكم ضامن لها كهؤلاء الشركاء الذين عبدتموهم من دون الله؟!(٢)، ثم يخبر تعالى أنهم اتخذوا شركاء عبدوهم معه وهم لا حقيقة لهم ولا يستحقون شيئًا من العبادة، والله هو الواحد الأحد الذي لا شريك له ولا نظير(٣)، فأبطل استحقاق العبادة لغيره من الشركاء وأثبتها لنفسه، وذلك بإثبات الفارق بين الخالق والمخلوق في صفة الرزق.

ثانيًا: الاستدلال بإثبات كمال رزق الخالق وعطاؤه:

- يقول تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤].

---

(١) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٨، ص٥٠٨، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٦، ص٣١٩، تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٦٤٣.

(٢) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٣، ص٥٤٥.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٤١٩.

يأمر الله نبيه ﷺ أن يقول للمشركين الذين يدعون غير الله ويتخذونهم أولياء من دونه: أغير الله أتخذ وليًا وهو الذي يرزقني ويرزق غيري ولا يرزقه أحد[(١)]، والمعنىٰ: لن أتخذ وليًا إلا الخالق وحده لا شريك له؛ لأنه هو الذي يرزق الخلق جميعهم ولا يحتاج لهم[(٢)]، وقد أُمرت أن أكون أول من يخضع له بالعبودية، وينقاد له بالتوحيد، ونهيت عن أن أكون من المشركين الذين يتخذون معه شركاء[(٣)]، فاستدل في الآية علىٰ استحقاق الخالق للعبادة وحده بكونه هو الرازق وحده، وأن هذا موجب للاستسلام والتوحيد له بالعبادة.

- وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [غافر: ١٣، ١٤].

يخبر تعالىٰ أنه أقام الأدلة والبراهين علىٰ وحدانيته واستحقاقه للعبادة، والتي منها انفراده بالرزق؛ فالنعم كلّها منه سبحانه، دينية أو دنيوية، وهذا دليل قاطع علىٰ استحقاقه للعبادة دون سواه، ولن يعتبر ويتعظ بهذه الأدلة إلا من يرجع إلىٰ التوحيد، فإذا اتعظتم بهذه الأدلة وتذكرتم أنه المستحق للعبادة لزم من ذلك أن تخلصوا له في جميع عباداتكم، ولو كره أهل الكفر هذا الإخلاص منكم[(٤)].

- وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [غافر: ٦٤- ٦٦].

---

(١) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٩، ص١٧٧.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٣، ص٢٤٣.

(٣) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٩، ص١٧٧.

(٤) انظر: المرجع السابق، ج ٢٠، ٢٩٣، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٧٤٣.

يخبر تعالىٰ أن من رزقكم الرزق الحلال من مأكل ومشرب وملبس ومنكح وغير ذلك من الطيبات هو الله المستحق وحده للعبادة الخالصة؛ وبعد أن بيّن سبحانه استحقاقه للعبادة وحده لما اتصف به من صفات ومنها الرزق، صرّح بالنهي عن عبادة غيره مما يُدعىٰ ويعبد من دون الله، وأن يكون العبد مستسلمًا منقادًا لطاعة الله(١)، فإن هذا لازم لهذا.

- وقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [يونس: ٣١، ٣٢].

يحتج سبحانه علىٰ المشركين بإقرارهم بالربوبية علىٰ إقرارهم بالألوهية فقد أقروا بأنه هو من ينزل الأرزاق من السماء، ويخرج أنواعها من الأرض، وييسر أسباب الرزق فيها، فإذا كانوا مقرين بذلك، أفلا يتقون فيخلصون له العبادة ويتركون عبادة غيره؟ ثم يخبرهم بأن هذا الذي أقررتم أنه يرزقكم هو إلهكم الحق أي الذي يستحق أن يفرد بالعبادة، وأن كل معبود غيره فهو باطل فكيف تصرفون عن عبادته لعبادة غيره مع إقراركم بأنه وحده الرازق لكم(٢)، فظهر من الآية ما سبق تقريره من استحقاق الخالق للعبادة؛ لأنه الرازق وحده، وأضافت معنىٰ آخر وهو إلزام الخلق أن يتقوه فيعبدوه وحده، ويخلصوا له العبادة.

- قال تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [فاطر: ٣].

أي كما أنه المستقلّ بالرزق فلا رازق للخلق سواه، بيده مفاتيح الأرزاق ومغاليقها، فلا تصحّ العبادة إلا له وحده؛ ولهذا عقبّ بقوله: ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾، أي: لا

---

(١) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٢٠، ص٣٥٦، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٧٤١، ٧٤٢.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٤، ص٢٦٧، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٣٦٣.

معبود يستحق العبادة إلا الله فكيف تصرفون عن عبادة الرازق إلىٰ عبادة المرزوق(١).

-وقال تعالىٰ: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل: ٦٤]، أي فإذا لم تأتوا بحجة فاعلموا أنكم علىٰ باطل، ولا حجة لديكم، بل البراهين كلها دالّة علىٰ أن الخالق هو المنفرد بالرزق، فهو المستحق للعبادة وحده(٢)، وأما غيره فعبادته باطلة.

- وقال تعالىٰ: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣].

وصف الله نفسه في الآية بأنه ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ أي: صاحب التفضل والإحسان الشامل، ثم عقّب بأنه لا إِلَـهَ إِلا هُوَ، أي: هذا الذي وصفه أنه المنعم المتفضل هو المستحق للعبادة وحده دون سواه(٣).

- ويقول: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سبأ: ٢٤- ٢٧].

يقرر في هذه الآية أنه المنفرد بالرزق، وهذا باعتراف المشركين؛ فإذا كانوا معترفين بانفراده بالرزق فليقرّوا أنه لا معبود إلا هو؛ لأن أحد الفريقين علىٰ حق، والآخر علىٰ الباطل، وأن الموحدين أقاموا الدليل علىٰ أنهم علىٰ الحق، وأن الخالق هو المستحق للعبادة

(١) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٩، ص٣٢٩، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٦، ص٥٣٣، تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٦٨٤.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٦٠٨.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص٧٣١.

وحده؛ لأنه الرازق وحده، فدل علىٰ بطلان الفريق الآخر المشرك بالله[1]، ثم يقول تعالىٰ: أروني آلهتكم هذه التي عبدتموها من دون الله هل تفعل شيئًا، وأين هم؟ فالخالق أخبرنا أنه الواحد الأحد، وليس له في الوجود شريك ولا نظير ولا نديد ولا يصلح ذلك[2]، وفي هذا دليل علىٰ بطلان عبادة غيره وإثبات استحقاقه لها، فبداية الآيات قرّرت استحقاق الخالق للعبادة لانفراده بالرزق، وآخرها قرّرت انتفاء استحقاق المخلوق للعبادة لانتفاء صفة الرزق عنه.

ثالثًا: الاستدلال بانتفاء رزق المخلوق وعطاؤه:

- وقال تعالىٰ: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت: ١٦، ١٧].

يخبر تعالىٰ عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ أنه دعا قومه إلىٰ عبادة الخالق وحده لا شريك له، ثمّ نهىٰ عن الشرك ببيان أن ما يعبدون من دون الله أوثان يصنعوها بأيديهم ويختلقون الأمر بعبادتها كذبًا، وفي الحقيقة هي غير مستحقة لها؛ لأنها لا تملك أن ترزق أحدًا من الخلق، ولمّا كانت القلوب لا بد أن تطلب معبودها حوائجها حثّها علىٰ أن تطلب رزقها من الخالق ولا تطلبه من غيره، وأن تعبده ولا تعبد غيره، فهو الذي يستحق العبادة وحده دون سواه؛ لأنه الرازق وحده دون سواه[3]، فقرر في الآية نقص المخلوق، وأنه لا يزرق ولهذا فهو غير مستحق للعبادة، ثم جعل هذا موجبًا لتوجه العبد إلىٰ خالقه بطلب الرزق وعبادته

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٦، ص٥١٧.

(٢) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٩، ص٢٨٧، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٦، ص٥١٧، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٦٧٩، ٦٨٠.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص ٦٢٨، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٦، ص٢٦٩.

وحده دون سواه.

- ويقول تعالىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [النحل: ٧٣، ٧٤].

يخبر تعالىٰ أن المشركين يعبدون من دونه آلهة صفتها النقص فلا تملك أن ترزق عابدها شيئًا، ولو أرادت فلا تقدر علىٰ ذلك، وهذا دليل جهلهم وظلمهم؛ فمن هذه صفتها كيف استحقت العبادة وكيف شبهوها بالخالق الرازق المالك القادر؟[١] ولهذا قال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ﴾ أي التي تتضمن عدم التفرقة بين الخالق والمخلوق، فالله يعلم أن لا مستحق للعبادة إلا هو، والمشركون يجهلون ذلك[٢]، وقد يعلمون لكنهم يجحدون.

فظهر مما سبق من الأدلة بيان الأثر من الفرق بين الخالق والمخلوق في صفة الرزق، فإن الخالق مستحق للعبادة؛ لأنه الرازق وحده، وأما المخلوق فلا يستحقها؛ لأنه غير رازق لا لنفسه ولا لغيره، وهذا موجب للعباد أن يتوجهوا إلىٰ الخالق وحده بالعبادة دون سواه وأن يتركوا عبادة غيره ويتبرأوا منها.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٤٤٥.

(٢) انظر: المرجع السابق، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٤، ص٥٨٨.

المطلب الرابع

صفة النفع والضرّ

الله وحده هو خالق الأشياء وما فيها من النفع والضرّ؛ فكلّ ما في هذا الكون من خير ونفع فهو من فضله، وكلّ ما فيه من سوىٰ ذلك فهو من عدله، كلّ شيء بتدبيره وتقديره، والنافع للمخلوق علىٰ الحقيقة هو الخالق، وأما النفع الذي يحصل عليه المخلوق علىٰ يد المخلوق فهو مجرد سبب فالخلق مسخرون لإيصال هذا النفع، لكنّ الناس نظروا إلىٰ الأسباب وتركوا مسبب الأسباب؛ ولو شاء لقلب الضّر نفعًا والنفع ضرًا ليعلم الخلق أن الأسباب لا تنفع ولا تضر إلا إذا أراد الله لها أن تنفع وتضر(١).

فالمخلوق لا يملك نفعًا ولا ضرًا لا لعابديه ولا لغيرهم، وقد أمر نبيه ﷺ أن يخبر الناس أنه لا يملك ضرًا ولا نفعًا قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الأعراف: ١٨٨](٢)، أي لا قدرة لي علىٰ جلب نفع إلىٰ نفسي ولا دفع ضرّ عنها إلا ما شاء لي خالقي به فأعانني وقواني عليه، فالخير والنفع لا يأتي إلا من الخالق، والشر لا يدفعه إلا هو(٣)، وإذا كان هذا في حقّ سيّد الخلق فغيره من باب أولىٰ، وإذا تيقّن العبد بهذا الفرق بين الخالق والمخلوق أوجب ذلك إفراده بالعبادة؛ لعلمه أن المستحق لها علىٰ الحقيقة هو الخالق.

يقول ابن رجب: «فإنَّ العبد إذا علم أنَّه لن يُصيبَه إلا ما كتبَ الله له مِنْ خير وشرٍّ ونفعٍ وضرٍّ وأنَّ اجتهادَ الخلق كلِّهم علىٰ خلاف المقدور غيرُ مفيد البتة علم حينئذٍ أنَّ الله وحده هو الضَّارُّ النَّافعُ المعطي المانع، فأوجبَ ذلك للعبد توحيدَ ربِّه عز وجل وإفرادَه بالطاعة

(١) انظر: الأسنىٰ، للقرطبي، ج١، ص٣٥٣، ٣٥٤، ومجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج٨، ص٩٥، وتفسير الأسماء الحسنىٰ، للزجاج ص٦٣، وشأن الدعاء، للخطابي، ص ٩٤، ٩٥.

(٢) انظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ج١٥، ص٢٧٢.

(٣) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٠، ص٦١٥، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٣١١.

وحفظَ حدوده، فإنَّ المعبود إنَّما يقصد بعبادته جلبَ المنافع ودفع المضار، ولهذا ذمَّ الله من يعبد من لا ينفعُ ولا يضرُّ ولا يُغني عن عابدِهِ شيئًا، فمن علم أنَّه لا ينفعُ ولا يضرُّ ولا يُعطي ولا يمنعُ غيرُ الله أوجبَ له ذلك إفراده بالخوف والرجاء والمحبة والسؤال والتضرُّع والدعاء وتقديم طاعته على طاعةِ الخلق جميعًا، وأنْ يتّقي سخطه ولو كان فيه سخطُ الخلق جميعًا وإفراده بالاستعانة به والسؤال له وإخلاص الدعاء له في حال الشدَّة وحال الرَّخاء، بخلاف ما كان المشركون عليه من إخلاص الدعاء له عندَ الشدائد ونسيانه في الرخاء، ودعاء من يرجون نفعَه مِنْ دُونِه»(١).

فالفرق في هذه الصفة بين الخالق والمخلوق دليل واضح وبيّن على أن المستحق للعبادة هو الخالق وحده، وأن المخلوق لا يستحقها.

وقد جاءت النصوص في أكثر من موطن للاستدلال بإثبات صفة النفع والضّر للخالق على استحقاقه للعبادة، وبانتفاء صفة النفع والضّر للمخلوق على بطلان استحقاق المخلوق لها ومنها:

أولًا: الاستدلال بالفارق بين الخالق والمخلوق في صفة "النفع والضّر":

- قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس: ١٠٤- ١٠٧].

يأمر تعالى نبيه ﷺ أن يقول للمشركين: إن كنتم تشكون في ديني فإني لا أشك فيه، بل لدي الأدلة والبراهين على بطلان ما تدعونه؛ ولهذا فلا أعبد الذي تعبدونه من الآلهة التي لا

(١) جامع العلوم والحكم، لابن رجب، ص٢٤٩، ٢٥٠.

تضر ولا تنفع، وإنما عبادتي للخالق وحده الذي بيده النفع والضرّ، ثمّ أمر تعالىٰ بإخلاص العبادة له وترك الشرك والمشركين، وألا يدعو مخلوقًا فإن وَصْفه أنه لا ينفع ولا يضرّ وأخبره بأنه لو أصابه ضرّ فإن الخالق وحده من يمكنه كشفه وإذا أراده بخير فلا يمكن لأحد أن يردّ فضله فهو –سبحانه– من يصيب العباد بالنفع والضرّ، وهذا دليل عظيم علىٰ استحقاقه وحده للعبادة لا شريك له وبطلان عبادة غيره(١).

– وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: كنت خلفت رسول الله ﷺ يومـًا فقال: «**يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. واعلم أن الأمة لو اجتمعت علىٰ أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا علىٰ أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف**»(٢).

فهذه كلمات في التوحيد علّمها النبي ﷺ لابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فأمره أن يصرف العبادة للخالق وحده دون سواه؛ فالدعاء له وحده والاستعانة به وحده، ثمّ عقّب بوصف الخالق الموجب لهذا الأمر وهو أن النفع والضرّ بيده، فلو أن الأمة كلّها اجتمعت لإيصال نفع له لم يمكنهم ذلك إلا ما أراد الله إيصاله، ولو اجتمعت علىٰ أن يدفعوا عنه ضرًّا لم يمكنهم ذلك أيضًا إلا ما أراد الله دفعه، فكان هو المستحق للعبادة وحده دون سواه، وكان المخلوق لا يستحق من العبادة شيء.

– وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر:

(١) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٢، ص٣٠٣، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٤، ص٣٠٠، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٣٧٥.

(٢) رواه الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ رقم الحديث ٢٥١٦، ص٥٦٧، وقال: حديث حسن صحيح.

٣٨].

يأمر تعالىٰ نبيه ﷺ بأن يسأل المشركين عن الأصنام التي يعبدونها هل إذا أراد الخالق أن يصيب عبده بضرّ يمكنها كشف هذا الضرّ أو تخفيفه؟ أو أراد الخالق أن يصيب عبده بنفع ونعمة هل يمكنها منع ذلك عنه؟ فلا بدّ أن يقولوا: إنها لا يمكنها ذلك وحينها فأخبرهم بعد أن تبيّن لهم الدليل القاطع علىٰ أنه وحده المستحق للعبادة، وأن المخلوق لا يستحق من ذلك شيئًا أنك لا تلجأ إلا إلىٰ الخالق، ولا تعبد إلا إياه، ولا تتوكل إلا عليه؛ لأنه هو من بيده النفع والضر، لا هذا المخلوق الذي تعبدونه[1].

- وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ۝٢٣ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٢٤﴾ [يس: ٢٢- ٢٤].

يخبر تعالىٰ عن دعوة الرجل المؤمن من آل فرعون قومه إلىٰ التوحيد فيقول لهم بأن الخالق هو المستحق للعبادة فإنه إذا أرادني بضرّ فإن هذه المعبودات لا تقدر علىٰ رفع هذا الضرّ، ولو اتخذت هذه المعبودات التي وصفت لكم آلهة من دون الله لكنت في ضلال مبين[2]، قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معناها: «إن العابد يريد من معبوده أن ينفعه وقت حاجته إليه وإنما إذا أرادني الرحمن الذي فطرني بضرٍّ لم يكن لهذه الآلهة من القدرة ما ينقذوني بها من ذلك الضر ولا من الجاه والمكانة عنده ما يشفع لي إليه لأتخلص من ذلك الضر فبأي وجه يستحق العبادة؟ ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ إن عبدت من دون الله مما هذا شأنه»[3]، فبيّن لهم الدليل علىٰ استحقاق الخالق للعبادة، وعلىٰ بطلان عبادة غيره؛ بأن الخالق وحده من يكشف الضرّ، والمعبودات ليس بيدها ذلك.

---

(١) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٢٠، ص٢١٢، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٧٢٥.

(٢) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٩، ص٤٢٢، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٦٩٤.

(٣) الصواعق المرسلة، ابن القيم، ج٢، ص٤٩٧.

- وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الشعراء: ٦٩- ٨٣].

يخبر تعالىٰ عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ أنه دعا قومه لعبادة الخالق وحده وترك عبادة الأصنام، وبيّن لهم الدليل علىٰ ذلك ببيان الفرق بين صفات ما يعبدونه وصفات الخالق - جلّ وعلا- ومن هذه الفروق أن المعبودات التي يعبدونها لا تنفع ولا تضرّ، وأن الخالق هو وحده من يملك النفع والضرّ، فهو من خلق الخلق وأطعمهم وأسقاهم، ويشفيهم ويميتهم ويحييهم، فكان المستحق للعبادة علىٰ الحقيقة هو الخالق لا المخلوق.

قال الإمام الطبري: «فربي هذا الذي بيده نفعي وضري، وله هذه القدرة والسلطان، وله الدنيا والآخرة، لا الذي لا يسمع إذا دعي، ولا ينفع ولا يضر. وإنما كان هذا الكلام من إبراهيم احتجاجًا علىٰ قومه، في أنه لا تصلح الألوهة، ولا ينبغي أن تكون العبودة إلا لمن يفعل هذه الأفعال، لا لمن لا يطيق نفعًا ولا ضرًا.»(١)

- وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ٦٧].

يخبر تعالىٰ عن أحد الدلائل والبراهين الدالة علىٰ أنه وحده المستحق للعبادة، ذلك أنهم إذا مسّهم الضرّ في البحر، بأن خافوا علىٰ أنفسهم من الهلاك، تركوا دعاء المعبودات التي كانوا يعبدونهم سواء من الأحياء أو الأموات؛ لأنهم يعلمون عدم قدرتهم علىٰ كشف

(١) جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٧، ص٥٩٢.

الضرّ عنهم، ولجؤوا إلىٰ الخالق وحده لعلمهم أنه وحده من يكشف الشدائد وينجي من الأهوال، فهو المستحق للعبادة وحده دون سواه(١)، وأمّا المخلوق فلا يستحق من العبادة شيء.

- وقال: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٠، ٤١].

يخبر تعالىٰ عن حال المشركين حين ينزل بهم البلاء أو العذاب، وكيف أنهم يفزعون للخالق وحده لعلمهم أنه القادر وحده علىٰ كشف البلاء، فلا يقدر أحد علىٰ صرف حكمه عن المخلوق، وأما آلهتهم التي يدعونها مع الله فلا يستجيرون بها بل ينسونها لعلمهم أنها غير قادرة علىٰ شيء(٢)، فإذا كانوا لا يفزعون في الشدائد إلا للخالق؛ لأنه القادر علىٰ كشف الضرّ ويتركون آلهتهم؛ لأنها لا تدفع ضرًا؛ فهذا دليل علىٰ أن المستحق للعبادة هو الخالق، وأن المخلوق لا يستحقها.

ثانيًا: الاستدلال بإثبات كمال "النفع والضّر" للخالق:

- قال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [النحل: ٥١- ٥٤].

يأمر تعالىٰ في هذه الآيات بعبادته وحده لا شريك له، ويستدل علىٰ ذلك بأدلة منها أن النفع والنعم كلّها منه وحده لا شريك له في ذلك، وأن العبد إذا أصابه الضرّ فإنه يتوجه بالدعاء إلىٰ خالقه؛ لأنه يعلم أنه وحده من يدفع عنه هذا الضرّ والشّدة(٣)، وهذه حجة قوية

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٤٦٢، ٤٦٣.

(٢) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٩، ص٢٤١، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٣، ص٢٥٦.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٤٤٢.

شاهدها حال العبد فهو حين يمسّه الضر يخلص العبادة لله؛ لعلمه أن المستحق للعبادة هو من يقدر على كشف الضّر.

- وقال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام: ١٧، ١٨].

يخبر تعالى نبيه ﷺ أنه لو أصابك الخالق بضرّ فلن يكشف هذا الضرّ إلا هو، وكذلك لو أصابك بخير فإنه القادر على كل شيء يريده لا يعجزه شيء ولا يمتنع عليه أمر، فكيف لا تخلص له العبادة؟![1] فهذا دليل واضح من أدلة توحيده؛ فإذا كان وحده المنفرد بكشف الضرّ وجلب النفع كان وحده المستحق للعبادة[2].

ثالثًا: الاستدلال بانتفاء صفة "النفع والضّر" عن المخلوق:

- وقال تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾ [طه: ٨٨- ٩٠].

يستدلّ سبحانه على بطلان عبادة العجل الذي اتخذه قوم موسى بكونه لا يقدر على جلب نفع ولا دفع ضرّ؛ فمن كانت هذه صفته لم يستحق أن يكون إلهًا[3]، وأخبرهم أن من يستحق العبادة هو الله وحده، وأتى لهم ببرهان يريهم نقصه وعدم قدرته على جلب نفع أو دفع ضر فحرّقه أمامهم حتى صار رمادًا ثم ذرّ هذا الرماد في البحر، قال تعالى: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾ [طه: ٩٧].

- وقال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ

(١) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٩، ص١٧٩.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٢٥٢.

(٣) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٦، ص١٤٣.

هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٨﴾ [يونس: ١٨].

ينكر تعالىٰ علىٰ المشركين أنهم يعبدون من دون الله آلهة وأصنام لا تضرّهم شيئًا ولا تنفعهم لا في الدنيا ولا في الآخرة، ويزعمون أنهم يعبدونهم ليشفعوا لهم عند الله، والله يعلم أنها لا تشفع ولا تنفع ولا تضرّ، ثم نزّه نفسه عمّا يفعله المشركين من عبادة ما لا ينفع ولا يضرّ(١)، فإذا كانت لا تنفعهم حين يعبدونها فتجلب لهم الخير ولا تضرهم إذا تركوا عبادتها(٢)، فقد بطل استحقاقها للعبادة.

- وقال تعالىٰ: ﴿قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: ٦٦، ٦٧].

ينكر نبي الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ علىٰ قومه، أنهم عبدوا مع الخالق العظيم مخلوقًا مثلهم لا حيلة له في نفعهم أو ضرّهم، ثم يقول لهم: «أف لكم» أي: قبحًا لكم وللآلهة التي تعبدون من دون الله؛ فهلا عقلتم قبح ما تصنعون من عبادة ما لا يضر ولا ينفع؟(٣)فاستدل علىٰ بطلان استحقاقها للعبادة أن ما يعبدونه لا ينفع ولا يضرّ.

- وقال تعالىٰ: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾ [المائدة: ٧٥، ٧٦].

ينكر تعالىٰ علىٰ من اتخذ المسيح إلهًا مع الله، ويبين عدم استحقاقه للعبادة؛ لأنه لا

(١) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٢، ص١٤٢.

(٢) انظر: المرجع السابق، ج ١٧، ص٤٧٦.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص٣٠٣.

يملك لهم ضرًا يدفعه عنهم، ولا يملك نفعًا يجلبه إليهم؛ فمن كانت هذه صفته كيف يستحق العبادة؟[1]، وإنما المستحق لها الخالق وحده.

– وقال تعالىٰ: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ۝٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ۝٥٧ ﴾ [الإسراء: ٦٥، ٥٧].

يقول تعالىٰ للمشركين الذين اتخذوا المخلوق ندًا للخالق في العبادة: ادعوا هؤلاء الذين تزعمون أنهم آلهة فإنهم لا يمكنهم أن يدفعوا عنكم الضرّ، أو حتىٰ يحولونه، فإذا علمتم أن هذه صفتهم فكيف تعبدونهم مع الخالق؟! ثمّ يخبرهم عن هؤلاء الذين يعبدونهم من الأنبياء والصالحين والملائكة أنهم في شغل شاغل عنكم وعن دعاؤكم فإنهم يتنافسون في القرب من خالقهم راجين رحمته خائفين من عذابه[2]، وإذا كان هذا وصف المقربين من الخالق وأصحاب المنزلة الرفيعة عنده أنه لا يستحقون العبادة؛ لأنهم لا يملكون جلب النفع ولا دفع الضرّ فغيرهم من باب أولىٰ.

– وقال تعالىٰ: ﴿ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ۝١٦ ﴾ [الرعد: ١٦].

يأمر تعالىٰ نبيه ﷺ أن يقول للمشركين ـ الذين اتخذوا أندادًا من الخلق يعبدونهم كما يعبدون الله ويبذلون لهم أنواع القربات ـ: كيف اتخذتم هؤلاء المخلوقين الذين لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا آلهة، وتركتم من بيده النفع والضرّ[3]؟ فهذا دليل علىٰ بطلان

(١) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٨، ص٥٨٤.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٤٦٠، ٤٦١.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص٤١٥.

استحقاقهم للعبادة؛ لأنهم لا يملكون نفعًا ولا ضرًا.

- وقال تعالىٰ: ﴿ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحج: ١٢، ١٣].

يخبر تعالىٰ عن المشرك الراجع علىٰ وجهه أن عبادته الأصنام والأنداد لا تنفع ولا تضرّ، بل إن ضررها أقرب من نفعها، وذلك من أعظم الضلال(١)، فاستدل علىٰ بطلان استحقاق المخلوق للعبادة أنها لا تنفع ولا تضرّ.

- وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٣].

يوبخ سبحانه مشركي العرب لاتخاذهم آلهة يعبدونها مع الخالق وهي لا تملك أن تجرّ لنفسها نفعًا أو تدفع عن نفسها ضرًا(٢)، فمن باب أولىٰ ألا تنفع ولا تضرّ غيرها، فكيف استحقت العبادة من دون الله.

- وقال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ [سبأ: ٤٠ – ٤٢].

يخبر تعالىٰ عن حال الملائكة يوم القيامة، وأنهم لا يملكون لمن كانوا يعبدونهم نفعًا في ذلك اليوم ولا ضرًا ولا العكس(٣)، وإذا كان الأمر كذلك بطل استحقاقهم للعبادة.

فظهر مما سبق من الأدلة بيان الأثر من الفرق بين الخالق والمخلوق في صفة النفع والضرّ، فإن الخالق مستحق للعبادة؛ لأنه وحده من بيده النفع والضرّ، وأما المخلوق فلا

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٥٣٥، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٥، ص٤٠١.

(٢) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٧، ص٣٩٧.

(٣) انظر: المرجع السابق، ج ١٩، ص٣٠٠.

يستحقها؛ لأنه لا يملك نفعًا ولا ضرًا، وهذا موجب للعباد أن يتوجهوا إلىٰ الخالق وحده بالعبادة دون سواه، وأن يتركوا عبادة غيره.

المطلب الخامس

صفة الهداية والنصرة

صفة الهداية:

الخالق سبحانه هو الهادي لعباده يرشدهم ويدلّهم لما يسعدهم، سواء في الدنيا أو الآخرة، فكلّ مخلوق اهتدىٰ لمعرفة ما يصلحه وما يضرّه فالخالق من هداه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: ٣٨]، وكلّ من لزم طاعته وانشرح صدره لعبادته ولقبول الحق فالخالق من هداه، قال تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وكلّ من اهتدىٰ يوم القيامة للجنة أو النار فالخالق من هداه، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، والهداية ببيان الحق والدلالة عليه قد أقامها سبحانه علىٰ خلقه، ولا يعذب أحدًا إلا بعدها، قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [فصلت: ١٧][(١)] فهذه أنواع من الهداية قد يشترك المخلوق مع الخالق في شيء منها؛ إلا أن هناك أنواعًا لا يمكن، بحال من الأحوال، أن يتصف بها المخلوق كالهداية بانشراح الصدر للحق واتباعه، فلو بلغ العبد ما بلغ لا يمكنه أن يهدي الناس هذه الهداية، وإذا كان سيّد ولد آدم لم يتمكن من هداية عمّه أبي طالب للإسلام فغيره من باب أولىٰ، قال الله عنه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]، قال الشيخ السعدي: «يخبر تعالىٰ أنك يا محمد ـ وغيرك من باب أولىٰ ـ لا تقدر علىٰ هداية أحد، ولو كان من أحب الناس إليك، فإن هذا أمر غير مقدور للخلق هداية للتوفيق، وخلق الإيمان في القلب، وإنما ذلك بيد اللّه سبحانه تعالىٰ، يهدي من يشاء، وهو أعلم بمن يصلح للهداية

(١) انظر: فقه الأسماء الحسنىٰ، لعبد الرزاق البدر، ص ١١٥، ١١٧.

فيهديه، ممن لا يصلح لها فيبقيه على ضلاله.

وأما إثبات الهداية للرسول في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، فتلك هداية البيان والإرشاد، فالرسول يبين الصراط المستقيم، ويرغب فيه، ويبذل جهده في سلوك الخلق له، وأما كونه يخلق في قلوبهم الإيمان، ويوفقهم بالفعل، فحاشا وكلا.

ولهذا، لو كان قادرا عليها، لهدى من وصل إليه إحسانه، ونصره ومنعه من قومه، عمه أبا طالب، ولكنه أوصل إليه من الإحسان بالدعوة للدين والنصح التام، ما هو أعظم مما فعله معه عمه، ولكن الهداية بيد اللّه تعالى»[١].

فمن يهدي الخلق هو المستحق للعبادة، ومن لا يملك الهداية لا يستحقها، والفرق بين الخالق والمخلوق في صفة الهداية واضحة وجلية؛ ولهذا استدل بها الخالق على أنه المستحق للعبادة وحده دون سواه، وعلى بطلان عبادة غيره.

وقد جاءت النصوص في أكثر من موطن للاستدلال بكمال هداية الخالق على استحقاقه للعبادة، وبنقص هداية المخلوق على بطلان استحقاق المخلوق لها ومنها:

أولًا: الاستدلال بالفارق بين الخالق والمخلوق في صفة "الهداية":

- قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يونس: ٣٥].

ينفي سبحانه عن الآلهة التي يعبدها المشركون صفة الهداية للحق وأنهم يرشدون الضّال إلى قصد السبيل والجائر عن الهدى إلى الطريق المستقيم، والمشركون يعلمون أن هذه المعبودات من دون الله لا تملك ذلك، ثم يخبر أن من يتصف بذلك هو الخالق سبحانه[٢]، قال

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٦٢٠.

(٢) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٢، ص١٧٨.

الإمام الطبري: «وقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥] ألا تعلمون أن من يهدي إلىٰ الحق أحق أن يتبع من الذي لا يهتدي إلىٰ شيء إلا أن يهديه إليه هاد غيره، فتتركوا اتباع من لا يهتدي إلىٰ شيء وعبادته، وتتبعوا من يهديكم في ظلمات البر والبحر، وتخلصوا له العبادة فتفردوه بها وحده، دون ما تشركونه فيها من آلهتكم وأوثانكم؟»(١)، فاستدل سبحانه بالفرق بين الخالق والمخلوق في صفة الهداية علىٰ استحقاق الخالق للعبادة وبطلان عبادة المخلوق.

ثانيًا: الاستدلال بإثبات كمال هداية الخالق:

- قال تعالىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى (١) ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣)﴾ [الأعلىٰ: ١-٣].

يأمر تعالىٰ بتسبيحه، وهذا يتضمن الأمر بعبادته فهو من خلق الخلق، وهداهم لمصالحهم(٢)، فجعل العلّة من الأمر بالعبادة أنه تعالىٰ الهادي للخلق إلىٰ مصالحهم، فكان هو المستحق وحده للعبادة.

- قال تعالىٰ: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥)﴾ [البقرة: ١٨٥].

يأمر تعالىٰ بتعظيمه سبحانه لأنه وحده الهادي(٣)، فاستحق تعالىٰ التعظيم؛ لأنه وحده الذي هدىٰ عباده.

-وقال تعالىٰ: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ ﴾ [الأنعام: ٨٠].

أثبت إبراهيم عليه السلام لقومه الذين يحاجونه في أمره بعبادة الخالق وحده أنه هو المستحق للعبادة، لأنه الذي هداه للتوحيد، وبصرّه بالحقّ، حتىٰ أَلِف أن لا شيء يستحق أن

(١) جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٢، ص١٨١.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٩٢٠.

(٣) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٣، ص٢٢١.

يُعبد سواه[1].

ثالثًا: الاستدلال بنقص هداية المخلوق:

- قال تعالىٰ: ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

ينكر تعالىٰ علىٰ قوم موسىٰ اتخاذهم العجل إلهًا من دون الخالق، ويستدلّ علىٰ عدم استحقاقه للعبادة بأنه لا يهديهم ولا يرشدهم إلىٰ الخير[2].

فظهر مما سبق من الأدلة بيان الأثر من الفرق بين الخالق والمخلوق في صفة الهداية فإن الخالق مستحق للعبادة؛ لأنه وحده الهادي للخلق، وأما المخلوق فلا يستحقها؛ لأنه غير قادر علىٰ هدايتهم، وهذا موجب للعباد أن يتوجهوا للخالق وحده بالعبادة دون سواه، وأن يتركوا عبادة غيره.

صفة النصرة:

الخالق سبحانه هو النصير لعباده فلا ناصر لهم إلا هو، تولىٰ نصرتهم وتكفل بتأييدهم والدفاع عنهم بفضله ومنته، وثبّتهم عند لقاء عدوّهم، وألقىٰ الرعب في قلوب أعدائهم، وهذا كلّه لا يملكه إلا الخالق، فلا يوجد مخلوق يمكن أن يُخذل وقد نصره الخالق، ولا مخلوق يمكن أن يُنصر وقد خذله الخالق؛ ولهذا كان دأب الأنبياء والصالحين ألا يطلبوا النصر إلا من الله، ولا يلجؤوا إلا إليه، فهذا نوح يدعو ربّه: ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ [المؤمنون: ٢٦]، وهذا لوط ينادي ربّه: ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٠]، ونبينا محمد ﷺ والمؤمنون يقولون: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ

(١) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٩، ص٣٦٤.

(٢) انظر: المرجع السابق، ج ١٠، ص٤٤٦، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٣، ص٤٧٦.

ﭐلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٨٦](١).

وأما المخلوق فلو اعتمد عليه العبد قد يخذله في ذلك الموقف، ولو أعطاه العهود والمواثيق على نصرته؛ لأنه مخلوق ضعيف يعتريه الجزع والخوف والضعف، وقد أخبرنا الله عن الشيطان حين وعد أهل الكفر بالنصرة، ولمّا حان اللقاء تغيّر الحال، ولم يملك نصرتهم، قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٨].

ولوجود هذا الفرق بين الخالق والمخلوق في هذه الصفة كان المستحق للعبادة والتوكل والمحبة والرجاء هو الخالق، وأما المخلوق فلا يستحق شيئًا من هذا؛ لنقصه في هذه الصفة.

وقد جاءت النصوص في أكثر من موطن للاستدلال بكمال نصرة الخالق علىٰ استحقاقه للعبادة، وبنقص نصرة المخلوق علىٰ بطلان استحقاق المخلوق لها ومنها:

أولًا: الاستدلال بالفارق بين الخالق والمخلوق في صفة "النصرة":

- قال تعالىٰ: ﴿ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

يخبر تعالىٰ أن النصر بيده وحده، وأنه لو نصركم علىٰ أعدائكم فلن يتمكن أحد من أن يغلبكم ولو اجتمع الخلق كلّهم عليكم، وكذلك لو خذلكم الله بسبب معصيتكم فلن يتمكن مخلوق من نصرتكم فلتيأسوا من نصرة المخلوق، وتوكّلوا علىٰ خالقكم؛ لأنه الناصر علىٰ

(١) انظر: الحجة في بيان المحجة، للأصبهاني، ج١، ص١٦٥، وفقه الأسماء الحسنىٰ، لعبد الرزاق البدر ص ٢٤٢، ٢٤٣.

الحقيقة ولا تتوكلوا علىٰ غيره فهو شرك[1]، فأمرهم بالتوكل علىٰ الخالق لا علىٰ المخلوق، وعلّل ذلك أنه الناصر علىٰ الحقيقة، وأن المخلوق لا يملك نصرتهم، فكان المستحق للعبادة والتوكل هو الخالق، وأما المخلوق فعبادته والتوكل عليه باطلة.

- وقال تعالىٰ: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ ﴾ إلىٰ أن قال: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الأعراف: ١٩١-١٩٧].

ينكر تعالىٰ علىٰ أهل الشرك كونهم عبدوا معه من لا يستطيع نصرتهم لو حلّت بهم عقوبة، والعابد إنما يعبد من يرجو أنه ينصره؛ ولهذا أمر نبيه ﷺ أن يخبرهم أن وليّه وناصره ومعينه هو الخالق وحده، وليس ما يعبده المشركون من هذه المخلوقات التي لا تستطيع نصرة نفسها فضلًا عن عابديها[2]، يقول الإمام الطبري: «فأي هذين أولىٰ بالعبادة، وأحق بالألوهة، أمن ينصر وليه ويمنع نفسه ممن أراده، أم من لا يستطيع نصر وليه ويعجز عن منع نفسه ممن أراده وبغاه بمكروه؟»[3]، فكان هذا دليلًا لعدم استحقاق الأصنام للعبادة؛ لأنها لا قدرة لها علىٰ الانتصار لنفسها ولا لعابديها[4]، وعلىٰ استحقاق الخالق وحده للعبادة؛ لأنه الناصر وحده.

- وقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنبياء: ٤٢، ٤٣].

(١) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٦، ص١٩٢.

(٢) انظر: المرجع السابق، ج ١٠، ص٦٣٦.

(٣) المرجع السابق، ص٦٣٧.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٣١٢.

يخبر تعالىٰ عن نفسه أنه هو من يحفظ ويحرس عباده ليلًا أو نهارًا، وأما المعبودات التي تُعبد مع الله فينفي أن تكون لها قدرة علىٰ نصرة معبوديها من عذاب الله أو من السوء والشّر الذي يحلّ بهم، بل هي غير قادرة حتىٰ علىٰ نصرة نفسها، وإذا لم يعنهم الخالق وينصرهم فهم مخذولون في كلّ أمورهم(١)، ففرق بين من بيده الأمر والحفظ والنصر وبين من لا يملك الانتصار لنفسه فضلًا عن غيره، وهذا دليل واضح علىٰ استحقاق الخالق للعبادة، وبطلان استحقاق المخلوق للعبادة.

- وقال تعالىٰ: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الملك: ٢٠].

ينكر تعالىٰ علىٰ المشركين شركهم، وأن هؤلاء الذين يعبدونهم لا يملكون نصرهم إذا أراد الخالق بهم سوءًا، ولا يوجد لهم نصير ينصرهم علىٰ أعدائهم إلا الخالق؛ فاستمرارهم علىٰ شركهم مع علمهم أنه لا ناصر لهم إلا الخالق سفه وغرور(٢)، وفي ضمن هذا بيان للدليل علىٰ استحقاق الخالق للعبادة، وبطلان استحقاق المخلوق لها.

ثانيًا: الاستدلال بإثبات كمال نصرة الخالق:

- قال تعالىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج: ٧٨].

يأمر تعالىٰ بالاعتصام به والثقة به والتوكل عليه في كلّ الأمور، ويعلّل سبحانه ذلك بأنه نعم الوليّ والناصر لمن اعتمد علىٰ خالقه، لا علىٰ حوله وقوته، فإنه ينصره علىٰ أعدائه، ويدفع عنه كلّ مكروه(٣)، فأوجب عبادته وحده؛ لأنه الناصر وحده، وهذا دليل علىٰ استحقاقه وحده للعبادة.

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٥٢٤.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٨، ص١٨١، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٨٧٧.

(٣) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٦، ص٦٤٨، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٥، ص٤٥٧، والتحرير والتنوير، لابن عاشور، ج١٧، ص٣٥٢، ٣٥٣، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٥٤٧.

- وقال تعالىٰ: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الأنفال: ٣٩، ٤٠].

يخبر تعالىٰ المؤمنين بأنه سيتولاهم وينصرهم علىٰ أعدائهم، وهو نعم النصير الذي ينصر عباده فيدفع عنهم من يكيد بهم(١)، وهذا متضمن لبيان أن المستحقّ للتوكل والاعتماد والعبادة هو الخالق وحده؛ لأنه الناصر وحده، فلا تخشوهم حين يقاتلونكم.

ثالثًا: الاستدلال بانتفاء صفة النصرة للمخلوق:

- قال تعالىٰ: ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ [يس: ٧٥، ٧٥].

ينكر تعالىٰ علىٰ المشركين اتخاذهم الأنداد مع الخالق يطلبون بذلك نصرتهم، والحقيقة أنها لا تقدر علىٰ نصرتهم بل هي ضعيفة وعاجزة فلا تستطيع حتىٰ نصرة نفسها والانتقام ممن أساء لها فكيف ستنصر عابديها؟وفي هذا إبطال لاستحقاقها العبادة(٢).

- وقال تعالىٰ: ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٩٢- ٩٨].

يخبر تعالىٰ عن يوم القيامة، حين تبرز النّار لأهل الشرك، فيقال لهم: أين هؤلاء الذين جعلتموهم أندادًا للخالق؟ هل يمكنهم أن ينصروكم الآن، وينقذوكم من العذاب، أو حتىٰ ينتصرون لأنفسهم فيخلصونها؟، ثم يُرمىٰ بهم جميعًا في النار سواء المشركون أو من جعلوه شريكًا مع الخالق، وإبليس وجنوده كذلك، وحينها يقّر المشركون أنهم ضلوا عن الحقّ حين

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٤، ص٥٧، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٣٢١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٦، ص٥٩٣، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٦٩٩.

جعلوهم مساوين للخالق في العبادة والمحبة والخوف والرجاء والدعاء ونحو ذلك(1).

فإقرارهم بعدم استحقاق هذه المعبودات للعبادة ظهر لهم يوم القيامة حين رأوا عجزهم وعدم قدرتهم علىٰ نصرهم، أو حتىٰ الانتصار لأنفسهم، فبيّن سبحانه هذا الدليل ليرتدع أهل الشرك عن شركهم قبل مجيء ذلك اليوم.

- وقال تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

يوبخ إبراهيم ـ عليه السلام ـ قومه علىٰ عبادتهم الأصنام، وأنهم اتخذوا أندادًا مع الخالق ليجتمعوا علىٰ عبادتها صداقة ومحبة من بعضهم لبعض، فغاية هذا الأمر محبة في الدنيا ستنتهي وتزول يوم القيامة، فهناك لن تنصرهم من دون الله ومن عذابه(2)، فكيف استحقت العبادة وهي بهذا الوصف الناقص؟!

- وقال تعالىٰ: ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

يخبر تعالىٰ عن الآلهة التي يتقرب لها المشركون بالعبادة وأنها لا تملك نصرتهم فتنقذهم من عذاب الله، فكما أنها لم تنصر من قبلهم من الأمم التي أهلكها الله بسبب عبادتهم لهذه الآلهة فلم تشفع لهم عند الله ولم تنقذهم من العذاب؛ فكذلك لن تنصر هؤلاء المشركين من عذاب الله(3)، وإذا كان هذا حالها فلا تستحق أن تُعبد مع الخالق.

---

(١) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٧، ص٥٩٧، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٥٩٣، ٥٩٤.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٦، ص٢٧١، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٦٢٩.

(٣) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٢١، ص١٦١.

- وقال تعالىٰ: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ [الشورىٰ: ٤٥، ٤٦].

يخبر تعالىٰ أن المشركين كانوا يؤملون في الدنيا أن هذه الأنداد ستنصرهم وتنقذهم من عذاب الله إلا أنهم حين جاء يوم القيامة تبيّن لهم ضلالهم وأنها لا تقدر علىٰ نصرتهم[١]، وفي هذا إشارة إلىٰ عدم استحقاقها للعبادة؛ لأنها لا تملك نصرة عابديها.

فظهر مما سبق من الأدلة بيان الأثر من الفرق بين الخالق والمخلوق في صفة النصرة؛ فإن الخالق مستحق للعبادة؛ لأنه وحده من ينصر عابديه، وأما المخلوق فلا يستحقها؛ لأنه لا يملك نصرة أحد ولا نصرة نفسه، وهذا موجب للعباد أن يتوجهوا للخالق وحده بالعبادة دون سواه وأن يتركوا عبادة غيره.

والأدلة في هذا الباب كثيرة جدًا، لكني اكتفيت بذكر طرف منها اختصارًا للبحث، ولو تأملنا في كتاب الله لوجدنا من براهين التوحيد الشيء العظيم، ولا عجب في ذلك فالقرآن إنما أنزل لأجل التوحيد، والرسل ــ عليهم السلام ــ أرسلت لأجله، والجنة والنار خلقتا لأجله، فكان لا بدّ من العناية ببيانه وتوضيحه.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٧٦١.

المبحث الثاني

أثر العلم بالفارق بين الخالق والمخلوق في صفات الكمال المطلق

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: صفة الحياة.

المطلب الثاني: صفة العلم.

المطلب الثالث: صفة الغنى.

المطلب الرابع: صفة السمع والبصر.

المطلب الخامس: صفة القوة والقدرة.

المبحث الثاني

أثر العلم بالفارق بين الخالق والمخلوق في الصفات المتعلقة بالكمال المطلق

تفرّد الخالق بصفات الكمال المطلق دليل واضح علىٰ استحقاقه للعبادة، وثبوت صفات المخلوق المنافية للكمال المطلق دليل واضح أيضًا علىٰ بطلان استحقاقه للعبادة، قال تعالىٰ: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [النحل: ٦٠]، فمثل السّوء المتضمن للنقص والعيب هو وصف للمخلوق المعبود من دون الله، والمثل الأعلىٰ المتضمن لجميع صفات الكمال هو وصف للخالق وحده، وهذا يستلزم استحقاق الخالق للعبادة وبطلان استحقاق المخلوق لها[(١)].

يقول الإمام ابن القيم في بيان استحقاق الخالق للعبادة لما اتصف به من الكمال المطلق، وأن هذا يوجب عبادته وحده لا شريك له: «ولا ريب أن كمال العبودية تابع لكمال المحبة، وكمال المحبة تابع لكمال المحبوب في نفسه، والله سبحانه له الكمال المطلق التام في كل وجه، الذي لا يعتريه توهم نقص أصلًا، ومن هذا شأنه فان القلوب لا يكون شيء أحب إليها منه ما دامت فطرها وعقولها سليمة، وإذا كانت أحب الأشياء إليها، فلا محالة أن محبته توجب عبوديته، وطاعته، وتتبع مرضاته، واستفراغ الجهد في التعبد له والإنابة إليه. وهذا الباعث أكمل بواعث العبودية وأقواها»[(٢)].

ويقول الشيخ السعدي: «معرفة تفرد الرب بالكمال المطلق وأن له كل صفة كمال، وأن المخلوقات كلها كل وصف حميد فيها فإنه من الله تعالىٰ، ليس بها وليس منها وهذا من أعظم البراهين علىٰ أنه هو المخصوص بالتأله والعبودية»[(٣)].

(١) انظر: آثار المثل الأعلىٰ، لعيسىٰ السعدي، ص٨٥.

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، لابن القيم، ج٢، ص٥٠٦.

(٣) الحق الواضح المبين، للسعدي، ص ١١٤.

فالتفرد بصفات الكمال المطلق يستلزم أن يتعلّق القلب بالخالق محبة، وخوفًا ورجاءً وعبودية، ظاهرًا وباطنًا، وهذا البرهان يظهر في جميع أدلة الصفات، سواء صرّح بلازمها وهو استحقاق الخالق للعبادة، أم لم يصرّح؛ لأن هذه النصوص لم تأت لتقرر كمال صفات الخالق، وإنما ليُستدل بها على استحقاقه للعبادة[1]، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «والله سبحانه لم يذكر هذه النّصوص لمجرّد تقرير الكمال له، بل ذكرها لبيان أنّه المستحقّ للعبادة دون ما سواه، فأفاد الاصلين اللذين بهما يتمّ التّوحيد: وهما إثبات الكمال ردًّا على اهل التّعطيل، وبيان أنّه المستحقّ للعبادة لا إله إلاّ هو ردًّا على المشركين»[2]، وكذلك الأمر فيما يخصّ المخلوق فإن بيان صفات النقص المنافية للكمال دليل على بطلان استحقاقه للعبادة وبطلان التعلق به أو دعاؤه[3]، فإن من وصفه النقص والعيب لا يستحق أن يُؤلّه أو يُعبد من دون الله، أو يُتعلّق به أو يُتوكلّ عليه.

وقد كثُرت النصوص الدالة على الفارق بين الخالق والمخلوق في صفات الكمال والاستدلال بذلك على استحقاق الخالق للعبادة وبطلان عبادة المخلوق، وفيما يلي بيان ذلك:

---

(١) انظر: آثار المثل الأعلى، لعيسى السعدي، ص٨٦، ٨٧.

(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج٦، ص٨٣.

(٣) انظر: آثار المثل الأعلى، لعيسى السعدي، ص٨٨.

المطلب الأول

صفـــة الحيـــاة

حياة الله حياة كاملة لا يلحقها الفناء، ولا يسبقها العدم، تدوم فلا تنقطع، وتبقى فلا تفنى، يقول الإمام الطبري في معنى اسم الحي: «الذي له الحياة الدائمة، والبقاء الذي لا أول له بحد، ولا آخر له بأمد، إذ كان كل ما سواه فإنه وإن كان حيًا فلحياته أول محدود، وآخر ممدود، ينقطع بانقطاع أمدها، وينقضي بانقضاء غايتها»(١).

وقال الخطابي: «الحي في صفة الله سبحانه هو الذي لم يزل موجودًا وبالحياة موصوفًا، لم تحدث له الحياة بعد موت، ولا يعترضه الموت بعد الحياة، وسائر الأحياء يعتورهم الموت والعدم في أحد طرفي الحياة أو فيهما معا كل شيء هالك إلا وجهه»(٢).

فحياة الخالق تفارق حياة المخلوق، لا يعتريها سنة ولا نوم ولا موت، ولا يدركها العقل، ولا يحيط بها(٣)، فهو وصف متضمن لكل صفة كمال لا تتم ولا تكمل الحياة إلا بها، كالسمع والبصر، والقدرة والقوة والعظمة، والبقاء والدوام، والعز الذي لا يرام، ومتضمن كذلك لنفي ما يحلّ بحياة المخلوق من الفناء والانقطاع عند وفاته؛ ولهذا كلّه كان هو المستحق للعبادة وحده دون سواه، وأما المخلوق فهو إما حيّ ويموت، أو ميّت لا حياة فيه أو جماد لا حياة فيه أصلًا، وكلّ هؤلاء لا يستحقون من العبادة شيئًا(٤)، فكيف يُعبد من يموت؟ وكيف يتوكل على من تأخذه السّنة والنوم؟ وكيف يُدعى من هو معدوم لم يُخلق بعد.

---

(١) جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٤، ٥٢٧.

(٢) شأن الدعاء، للخطابي، ص ٨٠.

(٣) انظر: التوحيد، لابن منده، ج٢، ص٨٤.

(٤) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٥، ص١٧٧، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص١١٠، ١٢١، وفقه الأسماء الحسنى، لعبد الرزاق البدر، ص ٨٧.

ومن كان كامل الحياة استحق العبادة وحده دون سواه، ومن كان في حياته نقص أو خلل لم يستحق أن تصرف له العبادة.

وقد جاءت النصوص في أكثر من موطن للاستدلال بكمال حياة الخالق علىٰ استحقاقه للعبادة وبنقص حياة المخلوق علىٰ بطلان استحقاق المخلوق لها ومنها:

أولًا: الاستدلال بالفارق بين الخالق والمخلوق في صفة "الحياة":

- قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

يخاطب الله نبيه ﷺ بنهيه عن عبادة أحد معه، ووجوب إخلاص العبادة له سبحانه فالخالق هو المستحق للعبادة وحده؛ لأنه الكامل الذي لا يفنىٰ، والباقي الذي لا يموت، وكلّ ما سواه هالك مضمحل، فلا يستحق أن يُعبد، بل عبادته باطلة فاسدة(١)، ففيها بيان الفارق بين الخالق والمخلوق في صفة الحياة، فكل من سواه زائل ويفنىٰ فلا يستحق أن يُعبد، وهو الباقي الدائم فاستحق العبادة وحده دون سواه.

- وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**اللهم! لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، اللهم! إني أعوذ بعزتك ــ لا إله إلا أنت ــ أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون**»(٢).

فدلّ هذا الحديث علىٰ أن أنواع العبادات العظيمة لا يستحقها إلا الخالق، وأن سبب استحقاقه لها دون سواه أنه حيّ لا يموت، وأما غيره من الخلق فهم يموتون، فيضمحلّ شأنهم ويذهبون(٣)، ولهذا لا يستحقون أن يعبدهم أو يتوكل عليهم أحد.

---

(١) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٨، ص٣٥٣، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٦٢٦.

(٢) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب في الأدعية، رقم الحديث ٦٨٩٩، ص ١١٨٠.

(٣) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، لمحمد الصديقي، ج٢، ص١٤.

- وقد ابتدأت سورة آل عمران بنفي الألوهية عن غير الله لما اتصف به من كمال الحياة وبقية الصفات الموجبة لعبادته وحده، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١، ٢]، وقد ذكر أهل العلم أن ذلك جاء احتجاجًا على بعض النصارى الذين قدموا على رسول الله ﷺ من نجران، فحاجوه في عيسى ـ صلوات الله عليه وسلامه(١)، فعن محمد بن جعفر بن الزبير قال في قوله تعالى ﴿الحي﴾: أي «الذي لا يموت، وقد مات عيسى وصلب في قولهم. يعني في قول الأحبار الذين حاجوا رسول الله ﷺ من نصارى أهل نجران»(٢).

فلمّا أثبت لنفسه في أول السورة كمال الحياة الموجبة لعبادته وحده نفى في آية أخرى في نفس السورة استحقاق عيسى للعبادة لنقص حياته فقال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [المائدة: ١٧].

فأبطل سبحانه ألوهية عيسى ـ عليه السلام ـ واستحقاقه للعبادة؛ لأنه بشر يلحقه ما يلحق البشر من الموت(٣)، فهذا الفارق بين الخالق الحيّ والمخلوق الميّت موجب لاستحقاق الخالق للعبادة وبطلان استحقاق المخلوق لها.

- وقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

يخبر تعالى عن الفارق بينه وبين المخلوق في هذه الصفة العظيمة فيقول: إن كل من

(١) جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٥، ص١٧١.

(٢) المرجع السابق، ص١٧٦.

(٣) انظر: المرجع السابق، ج ٨، ص٢٦٧.

علىٰ وجه الأرض، سواء من الإنس أو الجن أو الدواب ومن سائر الخلق، يموت ويزول، وأما الباقي الذي لا يموت، الدائم الذي لا يزول، فهو الخالق سبحانه[1]، وهذا متضمن للفارق في استحقاق العبادة؛ فمن يفنىٰ لا يستحق من العبادة شيئًا، ومن يبقىٰ ويدوم هو وحده المستحق لأن يُعبد.

ثانيًا: الاستدلال بإثبات كمال حياة الخالق:

- قوله تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَـٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [غافر: ٦٥، ٦٦].

دلت الآية علىٰ ما دلّت عليه النصوص السابقة، حيث يخبر تعالىٰ عن نفسه أنه هو الحي، أي الذي حياته كاملة تامة دائمة، وليس كمن تنقطع حياته؛ ولهذا لا يوجد معبود يستحق العبادة إلا هو، ثم بيّن أنه إذا كان الأمر كذلك وجب علىٰ العبد أن يخلص العبادة له فيعبد الخالق وحده، ويترك عبادة ما سواه، ثم حصر المحامد له سبحانه لكمال صفاته، وبعد أن أمر بإخلاص العبادة له وحده، وبيّن الدليل علىٰ استحقاقه لها صرّح بالنهي عن عبادة ما سواه من الأوثان والأصنام وغيرهم، وهذا أعظم منهي عنه، وأمر بالاستسلام لأمر الله والانقياد لطاعته، وهذا أعظم مأمور[2]، فجمع في هذه الآيات بين بيان استحقاق الخالق للعبادة لكمال حياته، وبيان لازم ذلك، وهو وجوب إفراده بالعبادة وحده دون سواه، والنهي عن عبادة غيره من الخلق.

- وقوله تعالىٰ: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٨].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٣٣٠.

(٢) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٢٠، ص٣٥٧، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٧٤١.

أي كن متوكلًا ـ يا محمد ـ واثقًا مفوضًا أمورك للخالق؛ لأنه الذي له الحياة الدائمة الباقية السرمدية فلا يموت أبدًا، فافزع إليه فإنه ناصرك وكافيك وهكذا في كل عباداتك سبح بحمده أي أخلص له العبادة(١)، قال الشوكاني: «وخصّ صفة الحياة إشارة إلىٰ أن الحيّ هو الذي يوثق به في المصالح، ولا حياة علىٰ الدوام إلاّ لله سبحانه دون الأحياء المنقطعة حياتهم، فإنهم إذا ماتوا ضاع من يتوكل عليهم»(٢)، فالخالق لا يعرض لحياته موت ولا نوم ولا اختلال؛ فالتوكل عليه غير معرض للانخرام، وفي وصف الخالق بالحياة وعدم الموت تعريض بالمشركين الذين يعبدون الأموات(٣)، فالمستحق للتوكل والعبادة حقيقة هو الحيّ الذي لا يموت.

- وقوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

قال الشيخ السعدي: «فأخبر تعالىٰ عن نفسه الكريمة بأن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود بحق سواه، فهو الإله الحق الذي تتعين أن تكون جميع أنواع العبادة والطاعة والتأله له تعالىٰ، لكماله وكمال صفاته وعظيم نعمه، ولكون العبد مستحقا أن يكون عبدا لربه، ممتثلاً أوامره مجتنباً نواهيه، وكل ما سوىٰ الله تعالىٰ باطل، فعبادة ما سواه باطلة، لكون ما سوىٰ الله مخلوقًا ناقصًا مدبراً فقيراً من جميع الوجوه، فلم يستحق شيئًا من أنواع العبادة»(٤)، فقوله ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي هو المستحق للعبادة وحده، وقوله: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ هذا بيان لكمال حياته، فاستدل علىٰ استحقاقه وحده للعبادة أنه وحده المتصف بكمال الحياة.

- ومثلها ما جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «**من قال: استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي**

(١) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٧، ص٤٦٩، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٦، ص١١٨.

(٢) فتح القدير، للشوكاني، ج٤، ص١٠٢.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج١٩، ص٥٩.

(٤) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص١١٠.

القيوم وأتوب إليه، غفر له وإن كان فر من الزحف»(١).

فظهر من الأدلة السابقة بيان استحقاق الخالق للعبادة؛ لأنه كامل الصفات موصوف بصفات الألوهية، ومن صفات كماله الموجبة لاستحقاقه العبادة وحده دون سواه، صفة الحياة.

ثالثًا: الاستدلال بنقص حياة المخلوق:

- قال تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٣- ٧٥]، فنفىٰ الله عن عيسىٰ ـ عليه السلام ـ الألوهية وأتىٰ ببرهان علىٰ ذلك وهو أنه رسول كسائر الرسل الذين يمضون ويذهبون(٢)، فكونه يموت دليل علىٰ عدم استحقاقه للعبادة.

- وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٠- ٢٢].

يخبر تعالىٰ أن ما يدعونه المشركون ويعبدونه مع الله ميت لا حياة فيه؛ ولهذا فلا تستحق أن تعبد، وإنما يستحق ذلك إله واحد فأفردوه بالطاعة، وأخلصوا له العبادة، ولكن المشركين يستنكرون هذا ويستكبرون، والله يعلم ذلك منهم وسيجازيهم عليه(٣).

---

(١) رواه الترمذي من رواية زيد مولىٰ النبي ﷺ، كتاب الدعوات، باب في دعاء الضيف، رقم الحديث ٣٥٧٧، ص٨١٣، وقال هذا حديث غريب، وصححه الألباني.

(٢) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٨، ص٥٨٢.

(٣) انظر: المرجع السابق، ج ١٤، ص١٩٤، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٤، ص٥٦٥.

يقول الشيخ السعدي: «أفتتخذ هذه آلهة من دون رب العالمين، فتبًا لعقول المشركين ما أضلها وأفسدها، حيث ضلت في أظهر الأشياء فساداً، وسووا بين الناقص من جميع الوجوه، فلا أوصاف كمال، ولا شيء من الأفعال، وبين الكامل من جميع الوجوه الذي له كل صفة كمال، وله من تلك الصفة أكملها وأعظمها»(١)، فبيّن سبحانه نقص المخلوق، وأنه ميت، وأن هذا دليل على عدم استحقاقه للعبادة، ثمّ أخبر أن المستحق للعبادة هو الخالق وحده.

- وقوله تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ٧٥- ٨٠].

فاستدل إبراهيم ــ عليه السلام ــ من النظر في هذا الخلق والملك أن المخلوق لا يستحق العبادة، وأظهر من هذه المناظرة بينه وبين قومه أن ما يعبدونه من دون الله مخلوقات ناقصة تفنىٰ ولا تبقىٰ وتزول ولا تدوم؛ فلا تصلح ولا تستحق أن تعبد، وعبادتها باطلة؛ ولهذا تبرأ الخليل ـ عليه السلام ـ مما يعبده المشركون من دون الخالق وتبرأ من المشركين كذلك، فلا يدين بدينهم، ولا يتبع ملتهم، وأخبر أنه توجه بعبادته إلىٰ الخالق وحده فهو من يستحق ذلك(٢)، وحين جادله قومه في التوحيد أخبرهم أنه الله قد هداه لمعرفة أنه هو

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٤٣٨.

(٢) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٩، ص٣٦٣، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٣، ص٢٩٢، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٢٦٢.

المستحق للعبادة [(١)]، فظهر من محاجة إبراهيم لقومه بطلان عبادة غير الله؛ لأنها فانية لا تدوم، وأن هذا موجب لعبادة الله وحده، والتبرؤ من الشرك وأهله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإنها في حال ظهورها على وجه الأرض يظهر نورها وأثرها فإذا أفلت انقطع نورها وأثرها. فلا تبقى حينئذ سببًا ولا جزءاً من السبب، ولهذا قال الخليل ﷺ: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ فإنها في حال أفولها قد انقطع أثرها عنا بالكلية فلم تبق شبهة يستند إليها المتعلق بها، والرب الذي يدعى ويسأل ويرجى ويتوكل عليه لا بد أن يكون قيومًا يقيم العبد في جميع الاوقات والأحوال كما قال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨] وقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ فهذا وغيره من أنواع النظر، والاعتبار يوجب أن العبد لا يرجو إلا الله ولا يتوكل إلا عليه»[(٢)].

ومما سبق يظهر لنا بيان الأثر من الفرق بين الخالق والمخلوق في صفة الحياة فإن الخالق مستحق للعبادة؛ لأنه وحده له الحياة الكاملة التامة، وأما المخلوق فعبادته باطلة؛ لأنه ناقص الحياة يموت ويفنى، وأن هذا موجب لأن يفرد العباد ربهم في عباداتهم وترك عبادة ما سواه.

(١) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٩، ص٣٦٤، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٢٦٢.

(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج٨، ص١٧٣، ١٧٤.

المطلب الثاني

صفـــــة العلم

الخالق علمه واسع محيط بكل شيء ـ يعلم الظاهر والباطن ـ والغائب والحاضر والمستقبل، ويعلم المشاهد لنا والغائب عن أنظارنا، ويعلم ما في السماء والأرض وما في البحار؛ فلا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا تموت نفس إلا بإذنه، فسبحان من وسع علمه كل شيء، ومن كان هذا وصفه استحق العبادة وحده، فإن المعبود إن كان جاهلًا لن يدبر أمورك فلن يتمكن من جلب النفع لك أو دفع الضر عنها، لجهله بها ولو طلبت ودعوت فلن يستجيب لك لجهله بحالك، ولو أخفيت في نفسك خيرًا أو شرًا لن يجازيك به لجهله بباطنك، فالخلق كلهم بلا استثناء لا علم لهم إلا ما علمهم الله وهو علم محدود ضيق لا يساوي شيئًا بجانب علم الخالق، وإذا كان الجن لا يعلمون الغيب قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ: ١٤]، والملائكة تقول: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ [البقرة: ٣٢]، والأنبياء قد أقروا واعترفوا بمحدودية علمهم، قال تعالىٰ علىٰ لسان نوح ـ عليه السلام: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [هود: ٣١]، وقال علىٰ لسان عيسىٰ ـ عليه السلام: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة: ١١٦]، وقال تعالىٰ علىٰ لسان نبينا ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنعام: ٥٠]، فإذا كان هؤلاء علمهم محدود وقاصر فغيرهم من باب أولىٰ فكيف يستحق أن يصرف له شيء من العبادة.

وقد جاءت النصوص في أكثر من موطن للاستدلال بكمال علم الخالق علىٰ استحقاقه للعبادة، وبنقص علم المخلوق علىٰ بطلان استحقاق المخلوق لها ومنها.

أولًا: الاستدلال بالفارق بين الخالق والمخلوق في صفة "العلم":

- قال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

يخبر تعالىٰ في آية الكرسي عن أوصاف عديدة له سبحانه استحق بها العبادة، ومنها كمال علمه، فيعلم ما مضىٰ من الأمور وما يستقبل منها، قد أحاط بالظواهر والبواطن، والغيب والشهادة.

وأما المخلوق فليس له من العلم ولا مثقال ذرّة إلا ما علمه الله إياه(١)، فبيّن في هذه الآية استحقاق الخالق للعبادة، وبطلان استحقاق المخلوق لها لكمال علم الخالق، ونقص علم المخلوق.

- وقال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ١٩ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٢١ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ٢٢ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ٢٣﴾ [النحل: ١٩- ٢٣].

يخبر تعالىٰ عن نفسه تعالىٰ وأنه المستحق للعبادة لكمال صفاته، والتي منها علمه الواسع المحيط بكل شيء في الظاهر والباطن، وأما ما يُدعىٰ من دون الله فإنهم ليس لديهم من أوصاف الكمال شيء فعلمهم قاصر حتىٰ إنهم لا يعلمون متىٰ يبعثون فكيف ترجون منهم شيئًا، وكيف استحقوا العبادة؟ ثم أخبر أن معبودكم الذي يستحق العبادة هو إله واحد لا تصلح العبادة إلا له(٢).

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص١١٠.

(٢) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٤، ص١٩٦، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٤، ص٥٤٦، =

– ومثله قوله تعالىٰ: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٤-٦٦].

أخبر سبحانه أنه لا يوجد إله مع الله يستحق أن يُعبد بل الخالق وحده هو من يستحق العبادة، واستدلّ علىٰ ذلك بالفارق بين علم الخالق والمخلوق، فالخالق هو وحده من يعلم الغيب، والمخلوق لا يعلم متىٰ يبعث، فكيف استحق العبادة مع الله؟ فذكر الخلق والعلم؛ لأن من يخلق لا بد أن يكون عالمًا بما خلق «قيل إن بعض الملحدة قال يومـًا: أنا أخلق، فقيل: فأرنا خلقك فأخذ لحمـًا فشرحه، ثم جعل بينه روثـًا ثم جعله في كوز وختمه ودفعه إلىٰ من حفظه عنده ثلاثة أيام، ثم جاء به إليه فكسر الخاتم، وإذا الكوز ملآن دوداً فقال: هذا خلقي، فقال له بعض من حضر: فكم عدده، فلم يدر، فقال: فكم منه ذكور وكم منه إناث. وهل تقوم برزقه؟ فلم يأت بشيء فقال له: الخالق الذي أحصىٰ كل ما خلق عدداً وعرف الذكر والأنثىٰ ورزق ما خلق، وعلم مدة بقائه وعلم نفاد عمره»(١)، فالخالق المستحق للعبادة لا بد أن يكون عالمًا بكل شيء لا يخفىٰ عليه شيء، والمخلوق علمه ناقص فالجهل صفة لازمة له ولهذا لا يستحق من العبادة شيء.

– وقال تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾ [غافر: ١٩، ٢٠].

قال الإمام الطبري: «وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ﴾ [غافر: ٢٠] يقول: والأوثان والآلهة التي يعبدها هؤلاء المشركون بالله من قومك من دونه لا يقضون

=

وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٤٣٧، ٤٣٨.

(١) انظر: الحجة في بيان المحجة، للأصبهاني، ج١، ص١٤٣.

بشيء؛ لأنها لا تعلم شيئًا، ولا تقدر علىٰ شيء، يقول جلّ ثناؤه لهم: فاعبدوا الذي يقدر علىٰ كل شيء، ولا يخفىٰ عليه شيء من أعمالكم، فيجزي محسنكم بالإحسان، والمسيء بالإساءة، لا ما لا يقدر علىٰ شيء ولا يعلم شيئًا، فيعرف المحسن من المسيء، فيثيب المحسن، ويعاقب المسيء»(١)، فبيّن أن الفارق بين الخالق والمخلوق في العلم موجب لاستحقاق الخالق للعبادة وبطلان استحقاق المخلوق لها.

- وقال تعالىٰ: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٠].

قيل: إن المراد بها الملائكة، والمقصود توبيخ من كان يعبد الملائكة أنهم لا يعلمون ما بين أيديهم وما خلفهم فكيف تعبدونهم وإنما العبادة تصح لمن لا تخفىٰ عليه خافية في الأرض ولا في السماء(٢)، فبيّن بطلان استحقاق الملائكة للعبادة؛ لأن علمها ناقص، واستحقاق الخالق للعبادة؛ لأنه كامل العلم.

ثانيًا: الاستدلال بإثبات كمال علم الخالق:

-قال تعالىٰ: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام: ١٠١، ١٠٢].

أي وحده المتصف بالصفات المستحقة للعبادة، ومنها الإحاطة علمًا بكل شيء، فوجب علىٰ الخلق عبادته وحده(٣).

- قال تعالىٰ: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [هود: ١٢٣].

---

(١) جامع البيان، للطبري، ج٢٠، ص٣٠٤.

(٢) انظر: المرجع السابق، ج ١٦، ص١٧٠.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٣، ص٣٠٨، ومحاسن التأويل، للقاسمي، ج٦، ص٣٩٢.

أخبر تعالىٰ عن كمال علمه وأنه يعلم ما غاب في السماء أو في الأرض مما خفي ويعلم كل الأمور الغيبية، ثم أمر بعبادته وحده والتوكل عليه فهو قد أحاط علمًا بكلّ أعمالكم(1)، قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ختم الله هذه السورة الكريمة بهذه الخاتمة العظيمة، فكأنه يقول: الذي يأمركم وينهاكم جدير بأن يطاع فلا يعصىٰ، وأن يذكر فلا ينسىٰ؛ لأنه متصف بصفات عظيمة تستوجب أن يفرد بالطاعة، وأن لا يعصىٰ له أمر، فإنه يعلم السر وأخفىٰ»(2)، فبيّن وجوب استحقاقه للعبادة؛ لأنه كامل العلم، ومن ثمّ يجب أن تصرف العبادة له وحده.

– وقال تعالىٰ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

فعلّل الاستعاذة بالخالق وحده؛لأنه العليم بمن يستعيذ به، وما هي حاجته فيجيبه لها، فكامل الصفات هو من يستحق العبادة، فيجب أن يستعاذ به وحده.

– وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر: ٢٢، ٢٣].

أي هو الله المعبود الذي لا تصلح العبادة إلا له لكمال صفاته التي منها علمه الشامل لكل ما غاب عن الخلق وكل ما يشاهدونه(3)، ونزّه نفسه عن الشرك؛ لأنه المستحق للعبادة كونه كامل العلم.

– وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٨].

يخبر في الآية عن أنه وحده المعبود الذي لا تصلح العبادة إلا له، فلا يؤله، ولا يحب،

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٤، ص٣٦٤، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٣٩٢.

(٢) جهود الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف، لعبد العزيز الطويان، ج١، ص١٢٩.

(٣) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٢٢، ص٥٥١، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٨٥٤.

ولا يرجىٰ ولا يخاف، ولا يدعىٰ إلا هو؛لأنه قد أحاط علمه بكلّ شيء فلا يخفىٰ عليه علم شيء[1].

وغيرها من الأدلة التي اقترنت فيها صفة العلم مع كلمة التوحيد كما جاء عن أبى هريرة، أن أبا بكر الصديق ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: يا رسول الله مرني بكلمات أقولهن إذا أصبحت وإذا أمسيت، قال: «**قل: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي، وشر الشيطان وشركه**» قال: «**قلها إذا أصبحت، وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعك**»[2]، أي لأنك عالم الغيب والشهادة فأنا اشهد أنك المستحق للعبادة وحدك دون سواك.

– وقال تعالىٰ: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [المؤمنون: ٩٢].

يخبر تعالىٰ عن علمه الواسع وأنه شمل ما غاب عن أبصارنا وما نشاهده، ثم يخبر أن الخالق قد ارتفع وتعالىٰ عن أن يشرك به من لا علم عنده إلا من تعليم الله له[3]، فاستدل علىٰ بطلان الشرك المتضمن استحقاق الخالق للعبادة بانفراده بكمال العلم.

– وقال تعالىٰ عن إبراهيم: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنعام: ٨٠، ٨١].

ينكر إبراهيم ـ عليه السلام ـ علىٰ قومه وينبههم علىٰ الخطأ العظيم الذي يقعون فيه، حيث يتركون عبادة الخالق الذي من كماله أنه وسع كل شيء علمًا، ويعبدون غيره، فهل

---

(١) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٦، ص١٥٧، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٥١٢.

(٢) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح؟ رقم الحديث ٥٠٦٧، ص٩١٦، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٥٥٨.

يتذكرون أنه وحده المستحق للعبادة؟[1] فاستدل إبراهيم ـ عليه السلام ـ علىٰ استحقاق الخالق للعبادة بأنه كامل العلم.

- وقال تعالىٰ: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥].

أي ألا يخضعوا ويذلّوا ويسجدوا لمن يعلم ما خفي وخبئ في السماء أو الأرض من صغار النبات أو الحيوان وكلّ المخلوقات، فالعبادة لا تصلح ولا تنبغي إلا له سبحانه[2]، فعلمه الواسع دليل علىٰ استحقاقه للعبادة، ووجوب إفراده وحده بها.

ثانيًا: الاستدلال بإنتفاء علم المخلوق:

-قوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٣١].

يأمر تعالىٰ نبيه ﷺ أن يقول للمنكرين نبوّته، إنّي لم ادّعي الربوبية وعلم الغيب، فأزعم أني المستحقّ للعبادة؛ لأن الربّ هو الذي لا تخفىٰ عليه خافيه، فهو المستحق للعبادة، وإنّما أتبع ما يوحىٰ إليّ من ربي، فلماذا تنكرون دعوتي؟[3] فأثبت بطلان استحقاقه ﷺ للعبادة بنقص علمه، وغيره من باب أولىٰ.

فظهر مما سبق من الأدلة بيان الأثر من الفرق بين الخالق والمخلوق في صفة العلم فإن الخالق مستحق للعبادة؛ لأنه كامل العلم وحده، وأما المخلوق فلا يستحقها؛ لأنه ناقص

(١) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٩، ص٣٦٥، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٢٦٢.

(٢) المرجع السابق، ص٦٠٤.

(٣) جامع البيان، للطبري، دار هجر، (ج٩، ص٢٥٥)، و(ج١٢، ص٣٨٦).

العلم، وهذا موجب للعباد أن يتوجهوا إلىٰ الخالق وحده بالعبادة دون سواه، وأن يتركوا عبادة غيره ويتبرأؤوا منها.

المطلب الثالث

صفـــة الغنـــى

الغنىٰ ضدّه الفقر، ومعناه عدم الاحتياج إلىٰ شيء ولا إلىٰ أحد فهو في حق الخالق يعني استغناؤه بذاته وصفاته وملكه عن كل أحد فلا يحتاج لشيء البتة فهو غنىٰ مطلق، ويراد به في حق المخلوق قلة الاحتياج أو عدمه ويكون بالمال أو غيره بحيث يسدّ به حاجته فمن كان له مال يحصّل به حاجاته من غير أن يكون لأحد فضل عليه؛ فهو غني، وإن كان يحتاج الأجراء مثلًا إلا أنه يملك أجورهم فكان كغير المحتاج لهم، فغنىٰ المخلوق نسبي مقيد وأما الغنىٰ الكامل المطلق فهو للخالق حيث لا يحتاج لأحد البتة(١)، فكمال الغنىٰ لا يكون إلا للخالق لعمومه ودوامه وأما المخلوق فغناه ناقص لأنه محدود وغير دائم(٢)، بل هو فقير للخالق علىٰ الدوام ففقره ذاتي؛ ولهذا كان من دعاء النبي ﷺ: «**اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلني إلىٰ نفسىٰ طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت**»(٣).

وفقره للخالق من وجهين: من جهة العبادة، ومن جهة الاستعانة والتوكل:

- أما من جهة العبادة، فالمخلوق لا سرور له ولا لذة ولا سكون ولا طمأنينة إلا بعبادة الخالق وحبه والإنابة إليه، ولو حصّل ما حصّل من الملذات؛ لأن فيه فقر ذاتي لخالقه، فبعبادته ومحبته تحصل له اللذة والنعيم.

- وأما من جهة الاستعانة والتوكل، فلا يمكنه أن يتعبد لله ويحبه وينيب إليه إلا إذا أعانه الخالق علىٰ ذلك، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فهو مفتقر إلىٰ حقيقة ﴿إِيَّاكَ

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج٥، ص٢٧٢، وأسماء الله الحسنىٰ الثابتة في الكتاب والسنة، لمحمود الرضواني، ص٤٠٧.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج٢٨، ص١٣٨.

(٣) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، باب رقم الحديث ٥٠٩٠، ص٩٢١، وصححه ابن حبان وابن حجر، وقال الهيثمي: إسناده حسن، وحسنه الألباني.

نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥][(١)]، وهو فقير إلىٰ الخالق في إيجاده وإعداده وإمداده، في دينه ودنياه[(٢)]، فكيف يُعبد من حاله هذه؟ وكيف يستعان بمن يحتاج هو إلىٰ الاستعانة؟ وكيف يُتوكل علىٰ من لا يمكنه اصلاح شأنه طرفة عين؟ وكيف يُدعىٰ ويُطلب من طبعه الشّح والبخل؟ وغناه محدود؟ فالمستحق للعبادة علىٰ الحقيقة هو صاحب الغنىٰ المطلق.

وقد جاءت النصوص في أكثر من موطن للاستدلال بكمال غنىٰ الخالق علىٰ استحقاقه للعبادة، وبنقص غنىٰ المخلوق وفقره علىٰ بطلان استحقاق المخلوق لها ومنها:

أولًا: الاستدلال بالفارق بين الخالق والمخلوق في صفة "الغنىٰ":

- أن النبي ﷺ دعا حين تأخر المطر فقال: «**الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ملك يوم الدين، لا إله إلا الله يفعل ما يريد، اللهم أنت الله لا إله إلا أنت الغنىٰ ونحن الفقراء، أنزل علينا الغيث، واجعل ما أنزلت لنا قوة وبلاغًا إلىٰ حين**»[(٣)].

فقرن بين كلمة التوحيد وبين وصف الخالق بالغنىٰ، والمخلوق بالفقر للدلالة علىٰ استحقاق الخالق للعبادة لكمال غناه، وبطلان استحقاق المخلوق لها لفقره.

- قال تعالىٰ: ﴿ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ١٤ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾ [فاطر: ١٤، ١٥].

بعد أن ذكر ما يتخذه الناس من الأنداد والشركاء وعدم استحقاقهم للعبادة، وأنه وحده المستحق لها، أظهر دليلًا آخر علىٰ استحقاقه وحده للعبادة، فذكر وصف الخلق، وأنهم

(١) شرح العبودية لابن تيمية، للراجحي، ص٩٥، ٩٦.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٥٤٤.

(٣) رواه أبو داود من حديث عائشة، كتاب الصلاة، باب رفع اليدين في الاستسقاء، رقم الحديث ١١٧٣، ص٢٠٠، وقال: حديث غريب إسناده جيد، وقال ابن حجر: إسناده جيد، وحسنه الألباني.

فقراء إلىٰ خالقهم في كل شيء، وفي كل وقت، فقراء إلىٰ رحمته ولطفه وإمداده فهم يلجؤون إليه، ويجدون ذلك من أنفسهم بالاضطرار مما يدل علىٰ غناه المطلق، وفي هذا برهان علىٰ استحقاقه وحده للعبادة(١)، وبطلان استحقاق المخلوق لها، لوجود الفارق العظيم بين الغنيّ بالذات والفقير بالذات.

- وقال تعالىٰ: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨]، فيخبر تعالىٰ أن من ينفق فنفقته لنفسه ومن يبخل فإنما ينقص نفسه من الأجر، فالخالق غني لا يحتاج لأموالكم ولا لنفقاتكم، وأنتم فقراء إليه تحتاجون له في جميع شؤونكم، فوصف الفقر وصف لازم للمخلوق ووصف الغنىٰ وصف لازم للخالق(٢)، فتضمن هذا الفارق في وصف الغنىٰ بين الخالق والمخلوق بيان من يستحق العبادة وحده وهو الخالق ومن لا يستحق من العبادة شيء وهو المخلوق.

ثانيًا: الاستدلال بإثبات كمال غنىٰ الخالق:

- قال تعالىٰ: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٦٨].

يستدل سبحانه علىٰ بطلان نسبة الولد إليه؛ بأنه الغني عن جميع خلقه فلا يحتاج إلىٰ ولد ولا إلىٰ غيره، وإنما يطلب المخلوق الولد ليعينه في حياته، ويكون ذكرًا له بعد وفاته، والله غني عن هذا كلّه، فلا يحتاج إلىٰ من يعينه علىٰ تدبير خلقه، ولا من يخلفه فهو حي لا يموت، فغناه سبحانه غنىٰ تام(٣)؛ ولهذا فلا يستحق العبادة إلا هو.

---

(١) انظر: محاسن التأويل، للقاسمي، ج٨، ص٤١.

(٢) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٢١، ص٢٣٢، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٧، ص٣٢٤، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٧٩٠، ٧٩١.

(٣) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٢، ٢٢٩.

- وقـــال تعـــالىٰ: ﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [الحج: ٦٤].

ذكر في الآيات السابقة براهين علىٰ استحقاقه للعبادة وحده دون سواه، ومنها كمال غناه وسعته غناه سبحانه فلا يحتاج إلىٰ ما يحتاج إليه المخلوق، وقدم المجرور للدلالة علىٰ القصر، وأن هذا الكمال في الغنىٰ لا يتحقق في غيره ممن عبد من دون الله فلا يستحق العبادة إلا هو وحده(١).

ثالثًا: الاستدلال بنقص غنىٰ المخلوق وفقره:

- قال تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائدة: ٧٣- ٧٥].

بعد أن بيّن سبحانه بطلان ألوهية عيسىٰ وأمه ـ عليهما السلام ـ أتىٰ بالدليل والبرهان علىٰ بطلان هذا الأمر فأخبر أنهما كانا يحتاجان إلىٰ ما يحتاج إليه البشر من المأكل والمشرب، وهذا دليل علىٰ كونهما مربوبين لا ربًا؛ لأنهما لو كانا إلهين لاستغنيا عن الطعام والشراب ولم يحتاجا إليه، ثم ينكر علىٰ المشركين توضيحه للأدلة علىٰ عدم ألوهية عيسىٰ وأمّه، ومع ذلك لا يرتدعون عن كذبهم وباطلهم، بل هم باقين عليه(٢)، ففقر المخلوق واحتياجه للطعام والشراب دليل علىٰ بطلان استحقاقه للعبادة.

فظهر مما سبق من الأدلة بيان الأثر من الفرق بين الخالق والمخلوق في صفة الغنىٰ فإن

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج١٦، ص٣٢٠، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٦٥٠.

(٢) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٨، ص٥٨٢، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٢٤٠.

الخالق مستحق للعبادة؛ لأنه كامل الغنىٰ وحده وأما المخلوق فلا يستحقها؛ لأنه ناقص الغنىٰ وهو فقير لخالقه، وهذا موجب للعباد أن يتوجهوا إلىٰ الخالق وحده بالعبادة دون سواه، وأن يتركوا عبادة غيره.

المطلب الرابع

صفة السمع والبصر

الخالق سبحانه له صفات الكمال المطلق، ومنها كمال السمع والبصر، فيسمع - سبحانه- الأصوات على اختلاف اللغات وتفنن الحاجات، ويستوي عنده السرّ من القول والجهر به، قال تعالىٰ: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠]، لو قام الخلق كلهم علىٰ صعيد واحد فسألوه في وقت واحد لم يشغله صوت عن صوت، ولا تختلط عليه لغة بلغة؛ جاء في صحيح مسلم، عن أبىٰ ذر عن النبي ﷺ فيما روىٰ عن الله تبارك وتعالىٰ أنه قال: «**يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر**»(١).

وهو سبحانه يُبصر كذلك جميع المخلوقات، صغيرها وكبيرها، ما كان منها في السماء أو في الأرض، يبصر دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء علىٰ الصخرة الصماء ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩]؛ ولهذا استحق سبحانه العبادة وحده دون سواه(٢)، وأما المخلوق فلا يستحق من العبادة شيء، إذ كيف يُدعىٰ من لا يسمع ولا يُبصر حال المدعو؟ ومن تختلط عليه أصوات المدعوّين؟ فلا يدري ماذا يقُال له؟ وكيف يُتوكل علىٰ من قد يسمع غير الحقيقة ويُبصر غير الواقع؟ وكيف يُخشىٰ ممن يخفىٰ عليه السّر فلا يسمعه ولا يبصره، فسمعه وبصره محدود، لا يُبصر إلا الظاهر، ولا يسمع إلا القريب، وقد يفقد السمع والبصر بالكلية.

وقد جاءت النصوص في أكثر من موطن للاستدلال بكمال سمع الخالق وبصره علىٰ استحقاقه للعبادة، وبكون المخلوق لا يسمع ولا يبصر علىٰ بطلان استحقاق المخلوق لها،

(١) سبق تخريجه، ص٢٥٧.

(٢) انظر: فقه الأسماء الحسنىٰ، لعبد الرزاق البدر، ص ١٢٦ - ١٣٣.

وأن هذا موجب لعبادته وحده لا شريك له وفيما يلي بيان ذلك:

أولًا: الاستدلال بالفارق بين الخالق والمخلوق في صفة "السمع والبصر":

- قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٢، ١٠٣].

بعد أن أخبر تعالىٰ أنه المستحق للعبادة وحده دون سواه؛ لأنه الخالق وحده، وأن هذا موجب لأن يصرف الخلق العبادة له وحده دون سواه، أخبر عن صفة الرؤية له وللمخلوق، فبصره يحيط بكل المخلوقات صغيرها وكبيرها، ويدركها علىٰ ما هي عليه، وأما الخلق فلا يمكن لأبصارهم أن تدركه أو تحيط به لعظمته وجلاله سبحانه وإن كانت تراه وتفرح برؤيته[1]، فالآية فيها إثبات الفرق بين بصر الخالق وبصر المخلوق، فله كمال الرؤية وتمامها يدرك خفايا كل شيء وبواطنه، والمخلوق لا يمكنه إدراك الخالق - وإن كان يراه - ووقوع هذا الفرق بعد إثبات استحقاقه وحده للعبادة ولزوم عبادته وحده بيان للدليل علىٰ هذا الاستحقاق وهذا اللازم، فكأنه يقول: الخالق وحده هو المستحق للعبادة دون المخلوق، ومن أدلة ذلك الفرق في صفة البصر فله كماله وتمامه، وللمخلوق بصر لكنه ناقص وقاصر.

- وقال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦].

فيه بيان لكمال سمعه وبصره وإحاطته بالمسموعات والمبصرات، أي لا أحد أبصر من الله ولا أسمع منه، فلا ولي من دونه ولا شريك له[2]، ففرّق بين سمعه وبصره وسمع غيره

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٣، ص٣١١، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٢٦٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٥، ص١٥١، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي، ج٧، =

وبصره وأنه تعالىٰ لا أحد أسمع منه ولا أبصر، ثمّ نفىٰ الشريك عنه، وفي هذا دلالة علىٰ استحقاقه للعبادة وحده، وبطلان استحقاق غيره لها.

- وقال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [غافر: ٢٠].

فيها تعريض بما يُعبد من دون الله، وأنها لا تسمع ولا تبصر، فكيف يُنسب إليها الألوهية؟(١) وأما الخالق فهو السميع البصير، فمن يستحق العبادة هو الله وحده؛ لأنه وحده كامل السمع والبصر، وغيره لا يستحق من العبادة شيء لانتفاء سمعه وبصره.

ثانيًا: الاستدلال بإثبات كمال سمع الخالق وبصره:

- قال تعالىٰ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

قرن بين الأمر بالاستعاذة وبين صفة السمع والبصر للدلالة علىٰ أن المستحق لهذه العبادة العظيمة هو من كمل في سمعه وبصره.

- وقال تعالىٰ: ﴿۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٧- ٢٢٠].

يأمر تعالىٰ في هذه الأدلة بوجوب إفراده بالتوكل ــ وهو عبادة عظيمة ــ وعلل ذلك بكمال سمعه وبصره، فمن كان كاملًا فيها استحق تمام التوكل والتفويض.

- وقال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ

=

ص١٠٦، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٤٧٤.

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج٢٤، ص١١٨.

سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [الحج: ٦١، ٦٢]، وقال أيضًا: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [لقمان: ٢٨- ٣٠].

أي ذلك الذي له صفات الكمال ومنها كمال سمعه وبصره، هو المستحق للعبادة وحده، وأما غيره فلا توجد فيه هذه الصفات فلا تصلح الألوهة له وعبادته باطلة[(١)].

- وقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ ﴾ [المائدة: ٧٦].

يأمر تعالىٰ نبيه ﷺ أن ينكر علىٰ المشركين عبادتهم للمخلوق، وترك كامل الصفات المستحق للعبادة علىٰ الحقيقة، ومن صفاته أنه كامل السمع فيسمع جميع الأصوات باختلاف اللغات علىٰ تفنن الحاجات، فمن هذا وصفه استحق العبادة علىٰ الحقيقة[(٢)].

ثالثًا: الاستدلال بنقص سمع المخلوق وبصره:

- يقول تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الأحقاف: ٥].

أي لا أحد أضل ممن دعا المخلوق الناقص، ووصفه أنه غافل عن دعاء من يدعوه؛ لأنه لا يسمع ولا يبصر فهي حجارة جامدة[(٣)]، فاستدل علىٰ بطلان استحقاق المخلوق

---

(١) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٨، ص٥٧٧، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي، ج٥، ص٥٠٥، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٦٥١.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٢٤٠.

(٣) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٢١، ص١١٦، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٧، ص٢٧٥.

للعبادة بأنه لا يسمع ولا يبصر.

- وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٦٩ - ٧٧].

في هذه الآيات استدل إبراهيم ـ عليه السلام ـ لقومه علىٰ بطلان عبادة غير الله؛ بأنها لا تسمع من يدعوها، وأخبر أنه قد اتخذها عدوًا له وتبرأ منها(١)، فمن يفقد صفات الكمال ومنها السمع لا يستحق أن يُعبد، ويجب أن يُتبرأ من عبادته.

- ويخاطب أبيه أيضًا بنفس الاستدلال، قال تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢].

فاستدل إبراهيم ـ عليه السلام ـ علىٰ بطلان استحقاق المخلوق للعبادة بالنقص في الصفات فهي لا تسمع ولا تبصر شيئًا، فما تصنع بعبادة من كانت هذه صفته؟ وهذا دليل واضح علىٰ قبح عبادة الناقص في الشرع والعقل(٢).

- وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٤ - ١٩٨].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٦، ص١٤٦، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٥٩٢.

(٢) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٥، ص٥٤٩، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٤٩٤.

يوبخ تعالىٰ المشركين علىٰ عبادتهم غير الله وأنهم مخلوقون مثلكم، ومن دلائل عدم استحقاقهم للعبادة أنهم لا يستجيبون لكم، فهم ليس فيهم من الآلات التي تدل علىٰ الكمال، فلا يسمعون فيخبرونكم بما لم تسمعوه، ولا يبصرون فيخبرونكم بما غاب عنكم[1]، ففقدانها لصفات السمع والبصر وغيرها من الصفات دليل علىٰ بطلان استحقاقها للعبادة، ووجوب تولي الخالق وحده؛ لأنه وحده كامل الصفات.

- وقال تعالىٰ: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٤].

يخبر تعالىٰ عن المعبودات من دون الله وأنها لا تسمع لمن يدعوها؛ لأنها جمادات وأموات لا تفهم ما يقال لها، أو ملائكة منشغلة بما يأمرها به الخالق وبطاعته، وهذا دليل وبرهان ساطع علىٰ بطلان عبادة غير الله[2]، فلا تستحق العبادة؛ لأنها ناقصة السمع.

فظهر مما سبق من الأدلة بيان الأثر من الفرق بين الخالق والمخلوق في صفة السمع والبصر، فإن الخالق مستحق للعبادة؛ لأنه وحده كامل السمع والبصر، وأما المخلوق فلا يستحقها؛ لأنه ناقص السمع والبصر أو عادم لهما، وهذا موجب للعباد أن يتوجهوا إلىٰ الخالق وحده بالعبادة دون سواه، وأن يتركوا عبادة غيره بالكلية.

---

(١) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٠، ص٦٣٥.

(٢) انظر: المرجع السابق، ج ١٩، ص٣٥٠، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٦٨٧.

المطلب الخامس

صفة القوة والقدرة

الخالق سبحانه قوي وقادر، فالخلق كلهم نواصيهم بيده منقادون لإرادته، لا تتحرك ذرة في هذا الكون إلا بحوله وقوته وإذنه، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا به؛ فبقوته وقدرته خلق هذا الكون وما فيه، وبقوته وقدرته يميت الخلق ثم يبعثهم، وبقوته وقدرته أعطىٰ المخلوق هذه القوىٰ الهائلة والمخترعات الباهرة والتي لا يمكنها الوقوف أمام قوته وقدرته، ولو فعلوا ما فعلوا، وبقوته وقدرته يجازي المحسنين علىٰ إحسانهم والمسيئين علىٰ إساءتهم، فله سبحانه كمال القوة وعظيم القدرة[1]، ولو ظن المخلوق في الدنيا أن له أو لمن يعبده من المخلوقات شيئًا من القوىٰ أو القدرة المستقلة ولم يؤمن بأن القوي القادر علىٰ الحقيقة هو الخالق فإنه سيظهر له هذا الأمر جليًا يوم القيامة فيعلم أن القوة لله جميعًا، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فالمخلوق قوته وقدرته مستمدة من خالقه فلا حول له ولا قوة إلا به، وقوته وقدرته يعتريها العجز والضعف والزوال، فكيف يُرجىٰ الضعيف العاجز؟ وكيف يُدعىٰ ويُطلب ممن يستمدّ قوته من غيره؟ وكيف يُتوكل علىٰ من لا يثق بنفاذ مشيئته وإرادته؟ وكيف يُخشىٰ ممن يثق بأن فوقه قوة تُبطل قوته، والمقصود أن الخالق له القدرة التامة والقوة الكاملة، وهذا يدل علىٰ استحقاقه وحده للعبادة، والمخلوق له قوة وقدرة ناقصة، وهذا يدل علىٰ بطلان استحقاق المخلوق لها.

وقد جاءت النصوص في أكثر من موطن للاستدلال بكمال قوة الخالق وقدرته علىٰ استحقاقه للعبادة وبنقص قوة المخلوق وقدرته أو انتفاؤها علىٰ بطلان استحقاق المخلوق لها ومنها:

---

(١) انظر: الحق الواضح المبين، للسعدي، ص ٤٤-٤٦.

أولًا: الاستدلال بالفارق بين الخالق والمخلوق في صفة "القوة والقدرة":

- قال تعالىٰ: ﴿ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل: ٧٥- ٧٦].

ضرب الله مثلًا للفرق بينه وبين من يُعبد من دونه برجلين، أحدهما: عبد مملوك ليس له قدرة ولا استطاعة، والآخر: حرّ وقادر علىٰ الإنفاق والعطاء، فإذا كان الفرق واضحًا بينهما وهما مخلوقان، فكيف بالفرق بين الخالق القادر علىٰ كل شيء، والمخلوق الذي لا قدرة له ولا استطاعة علىٰ الحقيقة؟!، ولمّا كان الفرق واضحًا بينهما أخبر أنه لا يجهله إلا الأغبياء فأكثر الناس لا يعلمون، ولو علموا الفرق لما سوّوا بين الخالق والمخلوق في العبادة، ثمّ ضرب أيضًا مثلًا آخر للفرق بينه وبين من يُعبد من دونه برجلين أحدهما لا يقدر علىٰ شيء البتة، لا قولًا ولا فعلًا، فلا يعتني بنفسه ولا بغيره، والآخر أقواله وأفعاله مستقيمة فهو يأمر بالعدل وعلىٰ صراط مستقيم فهذا كالفرق بين المخلوق الذي لا يقدر علىٰ شيء من مصالحه، وبين الخالق الذي يقوم بمصالح عباده، فأفعاله كلها عدل، وأقواله محمود عليها(١)، والمقصود من هذه الأمثال بيان أن الفرق بين الخالق والمخلوق في القوة والقدرة تدل علىٰ أن المستحق للعبادة هو الخالق، وأن عبادة المخلوق باطلة ولا يستحقها.

- وقال تعالىٰ: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ [الرعد: ١٣، ١٤].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٤، ص٥٨٩، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٤٤٥.

يخبر تعالىٰ عن نفسه أنه "شديد المحال" أي: شديد الحول والقوة، وإذا كان هذا وصفه فهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له؛ ولهذا قال ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ﴾(١)، أي وحده المستحق للعبادة فلا شريك له؛ لأن الألوهية الحق هي له، وأما غيره من الأوثان والأنداد المخلوقين فألوهيتهم باطلة، ومن دلائل بطلانها أنها لا تستجيب لمن يدعوها ويعبدها لا بقليل ولا بكثير، ثم ضرب مثلًا لهذه المعبودات مع عابديها في عدم استجابتهم لهم بمن هو في حال عطش شديد ويبسط كفيه إلىٰ الماء الذي لا يمكنه الوصول إليه ليوصله إلىٰ فمه، فهذا مثله مثل المشركين لا يمكن لآلهتهم التي يدعونها من دون الله أن تنفعهم بشيء حتىٰ في أحلك الظروف وأشد الأوقات حاجة لهم فبطلت عبادتهم(٢)، ففرق في هذه الآيات بين الخالق القوي المستحق للعبادة، والمخلوق الضعيف الذي لا يستحق من العبادة شيء.

- وقال: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨].

أثبت لنفسه سبحانه الاختيار المطلق، ونفىٰ ذلك عن غيره، وهذا دليل قدرته فهو القادر وحده علىٰ كل شيء، وغيره لا قدرة له علىٰ شيء إلا ما أقدره الله عليه، ثم نزه نفسه عن الشرك؛لأنه المستحق للعبادة وحده لكمال قدرته، ومن كان ناقص القدرة والقوة فلا يستحق من العبادة شيء.

- وقال تعالىٰ: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [المائدة: ١٧].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٤١٥.

(٢) انظر: المرجع السابق.

ينفي سبحانه عن المسيح عيسىٰ ـ عليه السلام ـ ألوهيته ويبطلها ببيان كونه ناقص القدرة، فلو أراد الخالق أن يهلكه وأمه، بل وكل من في الأرض، فلا قوة ولا قدرة له علىٰ دفع ذلك، ثم يثبت لنفسه استحقاق العبادة ببيان كمال وصفه، وأنه القادر علىٰ كل شيء الذي لا يعجزه ما يريد فهو المستحق للعبادة علىٰ الحقيقة، وليس المخلوق الضعيف العاجز الذي لا يقدر علىٰ منع شيء عن نفسه ولا عن غيره(١).

- وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤].

يخبر تعالىٰ عن وصف المعبودات من دونه، وأنهم لشدّة ضعفهم لو سلب الذباب منهم شيئًا لن يتمكنوا من استرداده، وفي هذا بيان لبطلان استحقاق المخلوق للعبادة، وتقبيح وتجهيل لعقول المشركين حيث عبدوا وألّهوا من لا قدرة له علىٰ أبسط الأمور، مع أن الألوهية يلزم منها تمام القدرة علىٰ كل شيء(٢)، ثم يخبر عن وصفه وأنه وحده القوي ولكن المشركين لم يقدروا الله حق قدره، فالمخلوق وصفه الضعف فلا يستحق من العبادة شيء، والخالق هو القوي المستحق للعبادة علىٰ الحقيقة، قال الشيخ السعدي في حق المشرك: «فهذا ما قدر الله حق قدره حيث سوىٰ الفقير العاجز من جميع الوجوه، بالغني القوي من جميع الوجوه، سوىٰ من لا يملك لنفسه، ولا لغيره نفعـًا ولا ضراً، ولا موتـًا ولا حياة ولا نشوراً، بمن هو النافع الضار، المعطي المانع، مالك الملك، والمتصرف فيه بجميع أنواع التصريف»(٣)

- وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ

(١) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٨، ص٢٦٧.

(٢) انظر: إعلام الموقعين، لابن القيم، ج٢، ص٣١٢، ٣١٣.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٥٤٦.

ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

يخبر تعالىٰ عن نقص المخلوق، وأنه خُلق من ضعف، ومآله إلىٰ الضعف، ثم يخبر عن كماله سبحانه وأنه وحده القدير، فإذا كان المخلوق ضعيفًا عاجزًا والخالق قويًا قادرًا كان المستحق للعبادة هو الخالق، وبطل استحقاق المخلوق لشيء من العبادة.

- وقال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [غافر: ٢٠].

يخبر تعالىٰ أنه وحده الذي يقضي بالحق لكمال قوته وقدرته ثم ينفي عن الأنداد القدرة علىٰ القضاء بشيء؛ لأنهم عاجزون لا قدرة لهم فاستحق بذلك أن يعبد وحده وبطل استحقاق المخلوق للعبادة.

ثانيًا: الاستدلال بإثبات كمال قوة الخالق وقدرته:

- قال تعالىٰ: ﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾ [هود: ٥٦، ٥٧].

في الآيات حَصْر للتوكل علىٰ الخالق وحده ـ وهو من العبادات العظيمة ـ وتعليل ذلك أن نواصي الخلق كلّهم بيد الخالق وحده؛ فلا قدرة لأحد علىٰ فعل شيء إلا بإذنه، وفي هذا دليل علىٰ استحقاق الخالق وحده للعبادة ووجوب التوكل عليه وحده(١).

- وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

يخبر تعالىٰ عن المشركين به الجاعلين له الأنداد أنهم لم يقدروا الله حق قدره حين

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٤، ص٣٣٠، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٣٨٤.

عبدوا غير خالقهم الذي من قوته وقدرته أن الأرض كلّها في قبضته والسموات كلها تطوىٰ بيمينه، ثم نزّه نفسه عن شرك المشركين، وأمر بإخلاص العبادة لله وحده(1)، فقوته وقدرته الظاهرة دليل علىٰ استحقاقه وحده للعبادة، ومن ثمّ تجب عبادته وحده.

- وقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٨، ٨٩].

يخبر تعالىٰ أن مِنْ وَصْف الخالق سبحانه أنه يجير عباده من الشرور والمكاره، فمن أرادهم بسوء أجارهم وحفظهم منه، ومِنْ وَصْف المخلوق أنه لا يمكنه أن يجير علىٰ الخالق فلا يخالف ولا يمانع خالقه، فمن أراده الخالق بسوء وقدّر عليه شيئًا منه لا يقدر أحد علىٰ إجارته، فكيف يعبد المشركون من علموا أنهم عاجزون من كلّ وجه، ويتركون الإخلاص للقادر علىٰ كلّ شيء(2)، فالمستحق للعبادة هو الخالق؛ لأنه كامل القدرة، والمخلوق لا يستحقها لنقص قدرته وعجزه.

- وقال أيضًا: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

المقصود من الآيات الاستنكار علىٰ المشركين الذين يعبدون غير الله ممن وصفهم العجز والضعف، ويتركون عبادة من بلغت قوته وقدرته أنّ الملائكة حين يتكلم الخالق بشيء من الوحي يصعقون ويغشىٰ عليهم(3)، فمن كان بهذا الوصف من القوة كان هو

(1) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٢٠، ص٢٥٣، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٧، ص١١٢.

(2) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٧، ص١٠٠، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٥، ص٤٩٠، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٥٥٧، ٥٥٨.

(3) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٦، ص٥١٣، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٦٧٨.

المستحق للعبادة وحده.

ثالثًا: الاستدلال بنقص قوة المخلوق وقدرته:

- قال تعالىٰ: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤١].

يخبر تعالىٰ عن سوء اختيار المشركين حين اتخذوا آلهة وأوثانًا يعبدونها مع الخالق، اعتقادًا منهم أنها قوية قادرة وأنهم واهمون في ذلك، فشبّههم بالعنكبوت وقد اتخذت لنفسها بيتًا يؤويها فلم يغن عنها شيئًا لضعفه ووهنه؛ فالعنكبوت من أضعف الحيوانات، وبيتها من أضعف البيوت، فازداد ضعفها ضعفًا، وكذلك المشركون الذين يتخذون مع الخالق أندادًا من المخلوقين، فهم ضعفاء عاجزون وباتخاذهم الأنداد ازدادوا ضعفًا إلىٰ ضعفهم فهم قد اعتمدوا عليها في تحقيق مصالحهم لكنهم لم يحصلوا من ورائهم شيئًا، ولو علموا حقيقة المخلوق لاعتمدوا علىٰ خالقهم وتوكلوا عليه وصرفوا العبادة له فيزدادون قوة إلىٰ قوتهم(١)، فظهر من هذا المثل بطلان استحقاق المخلوق للعبادة؛ لأنه ضعيف عاجز لا قدرة له ولا قوة.

- وقول الله تعالىٰ: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَاۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [القصص: ٦٢- ٦٤].

يخبر تعالىٰ عن عجز المعبودات التي عُبدت من دون الله وضعفهم يوم القيامة، وأن الله ينادي المشركين في ذلك اليوم عن هؤلاء الشركاء: هل لهم قوة أو قدرة يتمكنون بها من نفعكم؟ فيأمرهم أن يدعوهم لينفعوهم، ولكن الشركاء لا يستجيبون لهم فحينئذٍ يعلم

(١) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٨، ص٤٠٣، ٤٠٤، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٦، ص٢٧٩، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٦٣١.

المشركون ضلال ما هم عليه من الشرك[1]، فعجزها وضعفها في ذلك اليوم دليل بطلان استحقاقها للعبادة.

- وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

يخبر تعالىٰ عن المشركين بالخالق الآلهة والأنداد أنهم يأتون يوم القيامة كما خُلقوا أول مرة فلا يملكون شيئًا ولم يأخذوا معهم من حطام الدنيا شيئًا، وحتىٰ من كانوا يعبدونهم مع الله من الأنداد الذين يزعمون أنهم شفعاء لهم عند الله لم يأتوا معهم يوم القيامة فتقطع ما كان بينهم في الدنيا[2]، فعبادتهم للضعفاء من أبطل الباطل فهم لا يستحقونها.

- وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [النحل: ٧٣].

يخبر تعالىٰ عن بطلان عبادة المعبودات من المخلوقات؛ لأنها عاجزة لا تستطيع شيئًا ولا قدرة لها علىٰ شيء، فلا تنزل الأمطار، ولا تنبت الزروع؛ ولهذا فلا تستحق شيئًا من العبادة[3].

فظهر مما سبق من الأدلة بيان الأثر من الفرق بين الخالق والمخلوق في صفة القوة والقدرة، فإن الخالق مستحق للعبادة؛ لأنه وحده كامل القوة، عظيم القدرة، وأما المخلوق فلا يستحقها، لأنه ناقص القوة والقدرة، وهذا موجب للعباد أن يتوجهوا إلىٰ الخالق وحده

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٦٢٢.

(٢) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ٩، ص٤١٣، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج٣، ص٣٠٢، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٢٦٥.

(٣) انظر: جامع البيان، للطبري، دار هجر، ج ١٤، ص٣٠٥.

بالعبادة دون سواه، وأن يتركوا عبادة غيره.

وفي نهاية هذا الفصل نكون قد انتهينا من الكلام عن أحد براهين توحيد العبادة وبطلان الشرك، وهو الاستدلال بالفرق في الصفات بين الخالق والمخلوق سواء الصفات المتعلقة بالربوبية، أو الصفات المتعلقة بكمال الخالق سبحانه- وهي مسألة غاية في الأهمية لما لها من تعلّق بتوحيد العبادة الذي قد بينّا في أول البحث مكانته وأهميته.

الخاتمة

الحمد لله الكريم المنّان، الذي أتم عليّ نعمته بإكمال البحث، وبعد:

من أهم النتائج التي خرجت بها من هذا البحث:

أولًا: إن كثيرًا من الضلالات والانحرافات جاءت من جهة الخلل في تحقيق الفارق بين الخالق والمخلوق، كالشرك في العبادة، وتعطيل صفات الخالق ونفيها، وتشبيه الخالق بالمخلوق، والقول بالحلول والاتحاد، وإيجاب وتحريم أمور علىٰ الخالق، وتجويز أخرىٰ لا تليق به، والاستهانة بالمعاصي والذنوب، فكلّ من وقع في هذه الانحرافات كان عدم تحقيق الفارق سببًا رئيسيًا في انحرافهم.

ثانيًا: إن الأدلة النقلية والعقلية والفطرية والحسيّة دالة علىٰ الفارق بين الخالق والمخلوق، وهذا دليل علىٰ وجوب العناية بهذا العلم.

ثالثًا: إن الاستدلال علىٰ توحيد العبادة تنوعت أساليبه وطرائقه، ومن بينها الاستدلال بالفارق بين الخالق والمخلوق في الصفات.

رابعًا: ثبوت لفظ "الذات" و"الاسم" و"الصفة" للخالق والمخلوق، وثبوت قدر مشترك فيها بين الخالق والمخلوق، وقدر فارق عظيم.

خامسًا: إن الصفات منها ما هو مختص بالخالق لايصح إطلاقه علىٰ المخلوق ومنها ما هو مختص بالمخلوق لايصح إطلاقه علىٰ الخالق، ومنها ما هو مشترك بين الخالق والمخلوق، وهذا هو موضوع البحث.

سادسًا: إن هذه الصفات المشتركة، فيها قدر مشترك بين الخالق والمخلوق، وهو المعنىٰ الكلي الذي يكون في الذهن دون أن يضاف للخالق أو المخلوق، وهذا القدر المشترك يجب إثباته واعتقاده، وفي هذا النوع من الصفات قدر فارق أيضًا أعظم بكثير من القدر المشترك، وهذا القدر الفارق يجب إثباته أيضًا واعتقاده، وبهذا يسلم اعتقاد العبد ويصحّ.

سابعًا: في صفة العلم قدر مشترك وهو إدراك الأشياء علىٰ ما هي عليه، وضدّه الجهل، وفي هذه الصفة قدر فارق عظيم، منه: أن الخالق مستغن عما سواه في علمه بالأشياء، والمخلوق علمه من تعليم الله له، ومنه أن الخالق علمه أزلي أبدي لا يسبقه جهل ولا يلحقه النسيان، والمخلوق علمه زائل فهو مسبوق بالجهل ويلحقه النسيان والذهول.

ثامنًا: في صفة القوة قدر مشترك وهو الشدة وخلاف الضعف، وفيها قدر فارق عظيم، منه: أن قوة الخالق ذاتية، وقوة المخلوق هبة من الخالق، ومنه أن الخالق قوته دائمة فلا تضعف ولا تزول، والمخلوق قوته غير دائمة فقد يقوىٰ في وقت ويضعف في وقت وهي زائلة ولا بدّ، ومنها أن الخالق قوته مقرونة بالعزة فلا يمكن أن يعتريه الذّل، والمخلوق قد يكون قويًا وذليلًا.

تاسعًا: في صفة الملك قدر مشترك منه الاختصاص والتصرف والتدبير والقوة والغنىٰ ونحو ذلك، وفيها قدر فارق عظيم، منه: أن الخالق متصف بالملك أزلًا وأبدًا لم يهبه الملك أحد؛ فملكه ذاتي، وأما المخلوق فملكه هبة من الخالق، ومنه أن الخالق ملكه مطلق؛ لأنه قد عمّ كل شيء، والمخلوق ملكه محدود وقاصر؛ لأنه خاص بشيء دون آخر، ومنه أن الخالق يعلم ما في ملكه لا يخفىٰ عليه شيء فيه، والمخلوق لا يحيط علمًا بملكه.

عاشرًا: صفة المحبة فيها قدر مشترك وهو ما يضادّ الكره والبغض، وفيها قدر فارق عظيم، منه: أن الخالق يوجِد محبته ومحبة غيره من الأشخاص والأشياء في قلوب عباده، والمخلوق لا يمكنه ذلك، ومنه أن الخالق يحبّ وليس له حاجة أو نفع بهذه المحبة، والمخلوق يحبّ لحاجة أو نفع، ومنه أن الخالق استحق المحبة لذاته ولكمال صفاته ولجميل إحسانه، والمخلوق أحبّه الخالق علىٰ نقص ذاته وصفاته.

الحادي عشر: صفة الرحمة فيها قدر مشترك وهو ما يقتضي الإحسان إلىٰ المرحوم، وفيها قدر فارق عظيم، منه: أن رحمة الخالق مع قوة وعزة، ورحمة المخلوق مع ضعف وذلّ، وقد تغلب عليه القوة فتنزع منه الرحمة، ومنه أن رحمة الخالق مع قدرة، ورحمة المخلوق مع عجز، ومنه أن الخالق يرحم ويجود بالفضل والإنعام علىٰ المرحوم، والمخلوق قد يرحم مع شحّ علىٰ المرحوم، ومنه أن رحمة الخالق تسبق غضبه، وغضب المخلوق يسبق رحمته.

الثاني عشر: في صفة الغضب قدر مشترك وهو ضدّ الرضا، وفيها قدر فارق عظيم، منه: أن الخالق إذا غضب علىٰ عباده يحلُم عليهم، ولا يعاجلهم بالعقوبة، والمخلوق إذا غضب علىٰ أحد فقليل منهم من يحلم ويعفو، ومنه أن الخالق إذا غضب لا يمكن أن يجور أو يظلم، والمخلوق إذا غضب فقد يجور ويظلم، ومنه أن الخالق يغضب لأسباب تستحق الغضب فغضبه كله محمود، والمخلوق يغضب لما يستحق وما لا يستحق فغضبه منه المحمود ومنه المذموم.

الثالث عشر: العلم بالفارق بين الخالق والمخلوق له أثر عظيم علىٰ توحيد العبد، فمن تحقق هذا الفرق وتيقّن به، علم علمًا يقينيًا أن المستحق للعبادة هو الخالق وحده، وأن المخلوق لا يستحق شيء من هذه العبادة، وأن هذا يوجب عليه أن يصرف عبادته كلها ظاهرًا وباطنًا لله وحده دون سواه، وقد جاءت النصوص تؤكد هذا المفهوم.

التوصيات:

هذا العلم ـ وهو العلم بالفارق بين الخالق والمخلوق ـ علم واسع وذو أهمية بالغة، ولم أتمكن إلا من البحث في ستّ صفات، فطول البحث وقف عائقًا عن إتمامها، وعلىٰ هذا فمن البحوث المقترحة إتمام بقية الصفات وبيان الفارق فيها بين الخالق والمخلوق.

ومن البحوث المقترحة أيضًا، البحث في أثر الفارق حيث أن بحثي تعلق بالأثر من جهة الاستدلال بالفارق علىٰ توحيد العبادة، بينما الأثر أوسع من هذا فيمكن بيان أنواع من العبادات التي يمكن تحقيقها من خلال العلم بالفارق، كالمحبة والخوف والرجاء والتوكل ونحو ذلك.

ومن البحوث المقترحة أيضًا الردّ علىٰ المخالفين الذين نشأت المخالفة عندهم بسبب عدم تحقيق الفارق، كالقبوريين، ونفاة الصفات، وأهل الحلول والاتحاد.

وفي ختام الأمر أحمد الله وأشكره، وأصلىٰ وأسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

الفهـــــــارس

وهي:

- فهرس الآيات القرآنية.
- فهرس الأحاديث النبوية.
- فهرس الآثار.
- فهرس الأعلام.
- فهرس المراجع.
- فهرس الموضوعات.

فهرس الآيات القرآنية

سورة آل عمران

سورة التوبة

سورة طه

طرف الآية ورقمها	الصفحة
﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [٢]	٣٩٣، ٤٠٤
﴿ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [٩]	٤٣٣
﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [١٤]	٤٤٨
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [١٩]	٣٥٤
﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾ [٢١]	٤٠٨
﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ ﴾ [٢٢]	٤٤٧
﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [٢٢]	٣٢٧
﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾ [٢٦]	٢٢٣
﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [٣٥]	١٨٠
﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [٤١، ٤٢]	٣١٤

سورة الفرقان

طرف الآية ورقمها	الصفحة
﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [١]	٢٥
﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ [١ – ٣]	٤٨٨
﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ [٢]	٢٩٣
﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا ﴾ [٣]	٥١٩
﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا ﴾ [٥، ٦]	٤٤٤
﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ [٢٦]	٣١٦
﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾ [٢٧، ٢٨]	٤٤٣
﴿ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ [٢٨]	٣٦١

طرف الآية ورقمها	الصفحة
﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [٥٨]	١٢٦، ١٣٠، ٥٣٧، ٥٤١
سورة الشعراء	
﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [٩]	٣٨٨
﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [٢٣ ـ ٢٨]	٢٩٩
﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ ﴾ [٦٩ - ٧٧]	٥٥٩
﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ ﴾ [٦٩ - ٨٣]	٥١٤
﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [٨٠]	٣٩٧
﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [٩٢ - ٩٨]	٥٢٨
﴿ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ ﴾ [٩٦ - ٩٨]	٤٨١
﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم ﴾ [٩٧، ٩٨]	١٥١
﴿ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [١١٢]	٢١٤
﴿ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [١٣٩ ـ ١٤٦]	٢٧٩
﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [١٥٧ - ١٥٩]	٢٧٩
﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [٢١٧]	٣٩٦
﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ﴾ [٢١٧ - ٢١٩]	٢٢٦
﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ﴾ [٢١٧ - ٢٢٠]	٥٥٧
سورة النمل	
﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ ﴾ [٢٠، ٢١]	٣١٥

سورة القصص

سورة الزخرف

فهرس الأحاديث

طرف الحديث	الصفحة
- ألا تسمعون، إن الله لا يعذب بدمع العين، ولا بحزن القلب	٣٦٦
- ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله	٥٦
- إلىٰ أن رآه يومًا علىٰ ذنب استعظمه، فقال له: ويحك، أقصر	٤٥٣
- أما ترضون أن يذهب الناس بالدنيا، وتذهبون برسول الله ﷺ	٤٧٣
- أما صاحبكم فقد غامر	٤٤٨
- أما لو لم تفعل، للفحتك النار، أو لمستك النار	٤٤٧
- الإمام العادل	٣١٨
- أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلا الله	٥٣
- أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يقولوا لا إله إلا الله فمن قال	٥٧
- أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها	٢١٦
- أمسح بيمينك سبع مرات وقل: أعوذ بعزة الله وقدرته وسلطانه	٢٧٧
- إن أحب أسمائكم إلىٰ الله عبد الله وعبد الرحمن	٣٥٣
- إن أخنع اسم عند الله رجل يسمىٰ ملك الأملاك	١٧٢، ٢٨٩
- إن الصبر عند أول صدمة	٣١١
- إن الصدقة لتطفئ غضب الرب وتدفع عن ميتة السوء	٤٢٠
- إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، لا يلقي لها بالًا	٤٣٩

طرف الحديث	الصفحة
- إنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض	٢١٥
- إنكم قد دنوتم من عدوكم، والفطر أقوىٰ لكم	٢٤٣
- إنما يرحم الله من عباده الرحماء	٤٠٣
- إنه من لم يسأل الله يغضب عليه	٤٦٨
- إنه وتر، يحب الوتر	٩٢
- إني علىٰ علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت علىٰ علم	١٩٨، ١٩٩
- إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد، لو قالها	٤٣٢، ٤٥٤، ٤٧٤
- إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم	٢١٥
- أو ما علمت ما شارطت عليه ربي؟ قلت: اللهم إنما أنا بشر	٤٢٧، ٤٤٩، ٤٥٩
- أوما شعرت أنىٰ أمرت الناس بأمر فإذا هم يترددون	٤٧١
- أيما رجل من أمتىٰ سببته سبة أو لعنته لعنة في غضبي	٤٤٩
- بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده	٤٤٩
- بل الله جبلك عليهما	٣٤٩
- بهذا أمرتم، أو لهذا خلقتم؟ تضربون القرآن بعضه ببعض	٤٧١
- بينا رجل ممن كان قبلكم، يتبختر بين بردين، فغضب الله عليه	٤٣٩
- تحاجت الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين	٣٦٩

فهرس الآثار

طرف الأثر	الصفحة

فهرس الأعلام

فهرس المراجع

١- القرآن الكريم.

٢- الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة. عبيد الله بن محمد بن بطة. ٣ مجلدات. الطبعة الأولى. تحقيق: محمد نبيه النصر. الرياض: دار الراية، ١٤١٨هـ.

٣- اجتماع الجيوش الاسلامية. ابن القيم. الطبعة الثالثة. تحقيق: عواد المعتق. الرياض: مكتبة الرشد، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

٤- الأحاديث الموضوعة التي تنافي توحيد العبادة. أسامة بن عطايا عثمان. مجلدين. الطبعة الأولى. الرياض:مكتبة الرشد، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

٥- أحكام أهل الذمة. لابن القيم الجوزية. تحقيق: سيد عمران. القاهرة: دار الحديث، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٦- إحياء علوم الدين. محمد بن محمد الغزالي. مجلدين. الطبعة الأولى. تحقيق: أبي الفضل العراقي. بيروت: دار ابن حزم،١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٧- إخلاص العبودية للعزيز الحكيم. سيد سعيد عبد الغني. الطبعة الأولى. "مكان النشر بدون". "الناشر بدون". ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٨- الآداب الشرعية. محمد بن مفلح. ٦مجلدات. الطبعة الأولى. تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وعمر قيام. بيروت: مؤسسة الرسالة. ١٤١٦هـ.

٩- الأدب المفرد الجامع للآداب النبوية. محمد بن إسماعيل البخاري.الطبعة الثانية. تحقيق:محمد ناصر الدين الألباني. "مكان النشر بدون": دار الصديق، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

١٠- الأربعين في صفات رب العالمين. محمد بن عثمان الذهبي. الطبعة الأولى. تحقيق: عبد القادر صوفي. المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ١٤١٣هـ.

١١- إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا القران الكريم. أبو السعود العمادي. ٩مجلدات. الطبعة الثانية. بيروت: مؤسسة التاريخ العربي، ودار إحياء التراث العربي، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

١٢- إرشاد الفحول إلىٰ تحقيق الحق من علم الأصول. محمد علي الشوكاني.مجلدين. الطبعة الأولىٰ. تحقيق: سامي الأثري. قدم له: عبد الله السعدي، وناصر الشثري، الرياض: دار الفضيلة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

١٣- الأسماء الحسنىٰ معانيها وآثارها والرد علىٰ المبتدعة فيها. رفيع الأجيبويّ. رسالة دكتوراة. الجامعة الإسلامية، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم العقيدة،١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.

١٤- الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ. عبد الهادي بن حسن وهبي. الطبعة الأولىٰ. الجبيل: دار الدليل الأثرية، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

١٥- أسماء الله الحسنىٰ الثابتة في الكتاب والسنة. محمود عبد الرزاق الرضواني. الطبعة الأولىٰ. القاهرة: مكتبة سلسبيل، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

١٦- أسماء الله الحسنىٰ الثابتة في الكتاب والسنة. محمود عبد الرزاق الرضواني. ٢مجلد. الطبعة الثانية. القاهرة: شركة البصيرة، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

١٧- أسماء الله الحسنىٰ. عبد الله بن صالح الغصن. الطبعة الأولىٰ. الرياض: دار الوطن،١٤١٧هـ.

١٨- أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة والجماعة. عمر سليمان الأشقر. الطبعة الثانية. عمان: دار النفائس،١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

١٩- الأسماء والصفات. أحمد البيهقي. "الطبعة بدون". تحقيق: عبد الله الحاشدي. جدة:مكتبة السوادي، "تاريخ النشر بدون".

٢٠- اشتقاق أسماء الله.عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي. الطبعة الثانية. تحقيق: عبد الحسين المبارك. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٢١- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. محمد الأمين الشنقيطي. ١٠ مجلدات. الطبعة الثانية. تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٢٢- إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد. صالح الفوزان. مجلدين. الطبعة الثانية. بيروت: مؤسسة الرسالة،١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٢٣- أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة. حافظ بن أحمد الحكمي. الطبعة الثامنة. تحقيق: مصطفىٰ الشلبي. الرياض: دار المؤيد، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٢٤- إعلام الموقعين عن رب العالمين. ابن قيم الجوزية. ٧ مجلدات. الطبعة الأولىٰ. تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان. الدمام: دار ابن الجوزي، ١٤٢٣هـ.

٢٥- الأعلام. خير الدين الزركلي. ٨مجلدات. الطبعة ١٥ . بيروت: دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م.

٢٦- إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان. ابن قيم الجوزية. تحقيق: عبد الرحمن بن حسن بن قائد. إشراف: بكر أبو زيد. مكة المكرمة: دار عالم الفوائد.

٢٧- إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان. ابن قيم الجوزية. الطبعة الثانية. تحقيق: محمد عفيفي. بيروت: المكتب الإسلامي، والرياض: مكتبة الخاني، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

٢٨- اقتضاء الصراط المستقيم. أحمد ابن تيمية. مجلدين. الطبعة السادسة. تحقيق: ناصر بن عبد الكريم العقل. الرياض: دار العاصمة، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٢٩- إكمال إكمال المعلم. محمد بن خليفة الأبّي. ٩ مجلدات. الطبعة الثانية. تحقيق: محمد سالم هاشم. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٣٠- الألفاظ و المصطلحات المتعلقة بتوحيد الربوبية. آمال بنت عبد العزيز العمرو.الطبعة الأولىٰ. ١٤٣٣هـ.

٣١- إيثار الحق علىٰ الخلق في رد الخلافات إلىٰ المذهب الحق من أصول التوحيد. لأبي عبد الله محمد بن المرتضي اليماني. "الطبعة بدون". بيروت: دار الكتب العلمية، مكة: دار الباز، ١٣٩٨هـ.

٣٢- إيثار الحق علىٰ الخلق. محمد بن المرتضىٰ اليماني. الطبعة الأولىٰ. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٣٠هـ/ ١٩٨٣م.

٣٣- الإيمان لابن تيمية. الطبعة الخامسة. تحقيق: محمد الألباني. بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

٣٤- بدائع التفسير. ابن قيم الجوزية. الطبعة الأولىٰ. تحقيق: يسرىٰ السيد. "مكان النشر بدون": دار ابن الجوزي، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

٣٥- بدائع الفوائد. ابن القيم الجوزية. ٥مجلدات. الطبعة الثالثة. تحقيق: علي بن محمد العمران. مكة المكرمة: دارعالم الفوائد، ١٤٣٣هـ.

٣٦- البداية والنهاية. إسماعيل بن كثير الدمشقي. ١٤مجلد. الطبعة الاولىٰ. تحقيق: علي شيري. الناشر: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م.

٣٧- بغية المرتاد. أحمد ابن تيمية. الطبعة الثالثة. تحقيق: موسىٰ الدويش. المدينة: مكتبة العلوم والحكم، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٣٨- بلوغ المرام من أدلة الأحكام. أحمد بن حجر العسقلاني.الطبعة السابعة. تحقيق: سمير بن أمين الزهري.الرياض: دار الفلق، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٣٩- بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخبار في شرح جوامع الأخبار.الطبعة الأولىٰ. عبد الرحمن السعدي. بيروت: دار ابن حزم،١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٤٠- بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية. أحمد ابن تيمية. ١٠مجلدات. تحقيق: أحمد معاذ حقي. المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف، ١٤٢٦هـ.

٤١- تاريخ دمشق الكبير. علي بن الحسن ابن عساكر. ٣٩ مجلد. الطبعة الأولىٰ. جمع علي الجنوبي. بيروت: دار إحياء التراث،١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

٤٢- التبيان في أقسام القرآن. ابن القيم الجوزية. الطبعة الأولىٰ. تحقيق: عصام فارس، محمد الزغلي، بيروت: مؤسسة الرسالة،١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٤٣- تجريد التوحيد المفيد. أحمد بن علي المقريزي. الطبعة الثانية. تحقيق: علي بن محمد العمران. مكة: دار عالم الفوائد، ١٤٢٤هـ.

٤٤- تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي. محمد بن عبد الرحمن المباركفوري. ٩ مجلدات. الطبعة الأولىٰ. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٤٥- تحفة الأحوذي. محمد عبد الرحمن بن المباركفوري. ١٠مجلدات. "الطبعة بدون". بيروت: دار الكتب العلمية، "تاريخ النشر بدون".

٤٦- تحفة المودود بأحكام المولود. ابن قيم الجوزية. الطبعة الثالثة. تحقيق: فوّاز أحمد زمرلي. بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٤٧- تحفةالمحتاجإلىأدلةالمنهاج.ابنالملقن. مجلدين. الطبعة الاولىٰ. تحقيق: عبداللهبنسعافاللحياني. مكةالمكرمة: دارحراء، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٤٨- تخريج أحاديث إحياء علوم الدين. العِراقي،وابن السبكىٰ، والزبيدي. ٧ مجلدات. الطبعة الأولىٰ. تخريج: أبي عبدالله محمود الحداد.الرياض: دار العاصمة للنشر،١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

٤٩- الترغيب والترهيب. عبد العظيم المنذري. ٤ مجلدات. الطبعة الثالثة. تحقيق: محيي الدين مستو، سمير العطار، يوسف بديوي. دمشق: دار ابن كثير،١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٥٠- تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد من الجامع الفريد.محمد بن إسماعيل الصنعاني. الطبعة الثانية. جدة: دار الأصفهاني، " تاريخ النشر بدون".

٥١- التعريفات. علي الجرجاني. "الطبعة بدون". تحقيق: محمد صديق المنشاوي. القاهرة: دار الفضيلة، "تاريخ النشر بدون".

٥٢- التعريفات. علي بن محمد الجرجاني. الطبعة الأولىٰ. تحقيق: محمد المرعشلي. بيروت: دار النفائس، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٥٣- تفسير ابن تيمية. الجامع لكلام ابن تيمية في التفسير.٧ مجلدات. الطبعة الأولىٰ تحقيق: إياد القيس. راجعه: عثمان محمود، أشرف علىٰ طبعه: سعد الصميل. الدمام: دار ابن الجوزي، ١٤٣٢هـ.

٥٤- تفسير أسماء الله الحسنىٰ. إبراهيمالزجاج. الطبعة الخامسة. تحقيق: أحمد يوسف الدقاق. دمشق: دار المأمون للتراث، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٥٥- تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسي. ٩مجلدات. تحقيق: عادل أحمد، علي معوض، زكريا النوتي، أحمد الجمل. بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٧م.

٥٦- تفسير التحرير والتنوير. محمد ابن عاشور. ٣٠مجلد. "الطبعة بدون". تونس: دار سحنون، "تاريخ النشر بدون".

٥٧- تفسير السراج المنير. محمد بن أحمد الشربيني. ٤ مجلدات. "الطبعة بدون". "مكان النشر بدون": "الناشر بدون"، "تاريخ النشر بدون".

٥٨- تفسير القرآن العزيز. محمد بن عبد الله بن أبي زمنين. تحقيق: حسين بن عكاشة. ومحمد الكنز. القاهرة: الفاروق الحديثة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٥٩- تفسير القرآن العظيم. إسماعيل ابن كثير. ٤ مجلدات. الطبعة الأولىٰ. الرياض: مكتبة دار السلام، ودمشق: مكتبة دار الفيحاء، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

٦٠- تفسير القرآن الكريم. تفسير سورة البقرة. محمد العثيمين. ٣ مجلدات. الطبعة الأولىٰ. الدمام: دار ابن الجوزي، ١٤٢٣هـ.

٦١- تفسير القرآن الكريم. جزء عم. محمد العثيمين. الطبعة الثالثة. الرياض: دار الثريا، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٦٢- تفسير القرآن الكريم.سورة الحديد. محمد العثيمين. الطبعة الأولىٰ. الرياض: دار الثريا، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٦٣- التفسير القرآني للقرآن.المؤلف: عبد الكريم الخطيب. ١٦مجلد."الطبعة بدون". القاهرة: دار الفكر العربي، "تاريخ النشر بدون"، المكتبة الشاملة.

٦٤- تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي. محمد لوح. مجلدين. الطبعة الأولىٰ. القاهرة: دار ابن عفان، الدمام: دار ابن القيم، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

٦٥- تقريب التدمرية ضمن مجموع فتاوىٰ ورسائل الشيخ. محمد بن صالح العثيمين. الطبعة الثانية. تحقيق: فهد بن ناصر السليمان. الرياض:دار الثريا، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٦٦- التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير.ابن حجر العسقلاني.٤ مجلدات. الطبعة الأولىٰ. "مكان النشر بدون": دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ/ ١٩٨٩م.

٦٧- التمهيد شرح كتاب التوحيد. صالح عبد العزيز آل الشيخ. الطبعة الأولىٰ. الرياض: دار التوحيد، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٦٨- التمهيد لما في الموطأ من الأسانيد. يوسف بن عبد الله ابن عبد البر القرطبي. ١١ مجلد. الطبعة الثالثة. تحقيق: محمد عطا. بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠١٠م.

٦٩- تهذيب الأخلاق. لابن مسكويه. "الطبعة بدون". مصر: مطبعة الترقي، ١٣١٧هـ.

٧٠- تهذيب الأسماء واللغات. محيي الدين بن شرف النووي. ٤ مجلدات. "الطبعة بدون". بيروت: دار الكتب العلمية، "تاريخ النشر بدون".

٧١- تهذيب اللغة. محمد الأزهري. "الطبعة بدون". تحقيق: عبد الكريم العزباوي. "مكان النشر بدون": الدار المصرية للتأليف والترجمة. " تاريخ النشر بدون".

٧٢- التوحيد وإثبات صفات الرب عزوجل. محمد بن إسحاق ابن خزيمة. مجلدين. الطبعة السادسة. تحقيق: عبد العزيز الشهوان. الرياض: مكتبة الرشد، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٧٣- التوحيد وقرة عيون الموحدين. عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ. " الطبعة بدون". تحقيق: سعيد بن نصر محمد. الرياض: مكتبة الرشد، " تاريخ النشربدون".

٧٤- توضيح الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية. عبد الرحمن السعدي. الطبعة الأولىٰ. تحقيق: أشرف عبد المقصود. الرياض: أضواء السلف، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

٧٥- تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد.سليمان بن عبد الله آل الشيخ. مجلدين. الطبعة الأولىٰ. تحقيق: أسامة بن عطايا العتيبي.الرياض: دار الصميعي، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

٧٦- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. عبد الرحمن السعدي. الطبعة الأولىٰ. تحقيق: عبد الرحمن اللويحق. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٧٧- جامع البيان في تأويل القرآن. ابن جرير الطبري. ١٢مجلد. الطبعة الأولىٰ. بيروت: دار هجر، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٧٨- جامع الرسائل لابن تيمية. أحمد ابن تيمية. مجلدين. " الطبعة بدون" تحقيق: محمد رشاد سالم. جدة: دار المدني، " تاريخ النشر بدون".

٧٩- جامع الرسائل لابن تيمية. أحمد ابن تيمية. مجلدين. الطبعة الأولىٰ. تحقيق: محمد رشاد سالم. الرياض: دار العطاء، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٨٠- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من الجوامع. ابن رجب الحنبلي. "الطبعة بدون". تحقيق: عصام الدين الصبابطي. القاهرة: دار الحديث، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٨١- جامع الفقه. ابن القيم الجوزية. ٧ مجلدات. الطبعة الأولىٰ. تحقيق: يسري السّيد. المنصورة: دار الوفاء، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٩م.

٨٢- جامع المسائل. أحمد بن تيمية. ٨ مجلدات. الطبعة الثالثة. تحقيق: محمد عزيز شمس، إشراف بكر بن عبد الله أبو زيد، مكة: دار عالم الفوائد،١٤٣٢هـ.

٨٣- جامع كرامات الأولياء. يوسف بن إسماعيل النبهاني. مجلدين. الطبعة الأولىٰ. تحقيق: إبراهيم عوض عطوة. "مكان النشر بدون": مركز أهلسنة بركات رضا، ١٣٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٨٤- الجامع لأحكام القرآن. محمد بن أحمد القرطبي. ٢٠ مجلد.الطبعة الخامسة. تحقيق: عبد الرزاق المهدي. بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

٨٥- جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام علىٰ محمد خير الأنام. لابن القيم الجوزية. تحقيق: مشهور آل سلمان. الطبعة الثانية. الرياض: دار ابن الجوزي، ١٤٣١هـ.

٨٦- جمهرة الأمثال. أبي الهلال العسكري، ٢مجلد. الطبعة الثانية. تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، وعبد المجيد قطامش. دار الفكر،١٩٨٨هـ.

٨٧- الجموع البهية للعقيدة السلفية. ذكرها الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تفسيره أضواء البيان. مجلدين. الطبعة الأولىٰ. جمع: محمود بن محمد المنياوي. مصر: مكتبة ابن عباس، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٨٨- جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير توحيد الأسماء والصفات. وليد بن محمد بن العلي. ٣ مجلدات. الطبعة الأولىٰ. الكويت: المبرة الخيرية لعلوم القران والسنة، وبيروت: شركة دار البشائر الإسلامية، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٨٩- جهود الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف. عبد العزيز الطويان. مجلدين. الطبعة الأولىٰ. الرياض: مكتبة العبيكان،١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٩٠- جهود شيخ الاسلام ابن تيمية في توضيح العبادة. أحمد عبد الله الغنيمان. الجامعة الإسلامية بالمدينة، كلية أصول الدين. قسم العقيدة، عام ١٤١٧هـ.

٩١- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح. أحمد ابن تيمية. ٧ مجلدات. الطبعة الثانية. تحقيق: علي بن حسن بن ناصر، عبد العزيز بن إبراهيم العسكر، حمدان بن محمد الحمدان. الرياض: دار العاصمة، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

٩٢- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي. ابن قيم الجوزية. الطبعة الأولىٰ. تحقيق: محمد سعيد اللحام، وبهيج غزاوي. الرياض: مكتبة المعارف،وبيروت: دار إحياء العلوم، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٩٣- الجواهر المضية في طبقات الحنفية. عبد القادر بن محمد بن نصر اللهالقرشي. مجلدان. كراتشي: مير محمد كتب خانه.

٩٤- جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فضل سيدي أبي العباس التيجاني. علي حرازم ابن العربي. مجلدين. الطبعة الأولىٰ. مصر: الطبعة المحمودية، ١٣١٨هـ.

٩٥- حادي الأرواح إلىٰ بلاد الأفراح. ابن القيم الجوزية. مجلدين. الطبعة الثانية. تحقيق: زائد النشيري. مكة: دار عالم الفوائد، ١٤٣٢هـ.

٩٦- حاشية الروض المربع. عبد الرحمن بن قاسم النجدي. ٧ مجلدات. الطبعة السادسة. "مكان النشر بدون": "الناشر بدون"،١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٩٧- حاشية السندي على ابن ماجه.محمد بن عبد الهادي السندي. ٤ مجلدات. الطبعة الأولى. تحقيق: خليل مأمون شيحا. بيروت: دار المعرفة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

٩٨- الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة. إسماعيل ابن محمد التيمي الأصبهاني. مجلدين. الطبعة الأولى. تحقيق: محمد ربيع المدخلي. الرياض: دار الراية، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

٩٩- الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة. لإسماعيل بن الفضل الأصبهاني. مجلدين. الطبعة الثانية. تحقيق: محمد ربيع المدخلي. الرياض: دار الراية، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

١٠٠- الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية. عبد الرحمن بن ناصر السعدي. الطبعة الثانية. الدمام: دار ابن القيم،١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

١٠١- حقيقة المثل الأعلى وآثاره. عيسى بن عبد الله السعدي.الطبعة الأولى. الرياض: دار ابن الجوزي،١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

١٠٢- الدر المنثور في التفسير بالمأثور. جلال الدين السيوطي. الطبعة الأولى.١٧ مجلد. تحقيق: عبد الله التركي. القاهرة: مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

١٠٣- الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور. جلال الدين عبد الرحمن السيوطي. ٧ مجلدات.الطبعة الثالثة. بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠١٠م.

١٠٤- درء تعارض العقل والنقل. أحمد ابن تيمية. "الطبعة بدون". تحقيق: محمد رشاد. ١١مجلد. "مكان النشر بدون": "الناشر بدون"، "تاريخ النشر بدون".

١٠٥- الدراية في تخريج أحاديث الهداية. أحمد بن حجر العسقلاني. مجلدين. "الطبعة بدون". تحقيق: السيد عبد الله هاشم اليماني. بيروت: دار المعرفة، "تاريخ النشر بدون".

١٠٦- الدرر السنية في الأجوبة النجدية. مجموعة من علماء نجد. ١٠ مجلدات. الطبعة السادسة. تحقيق: محمد بن قاسم النجدي. "مكان الناشر بدون": "الناشر بدون"، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

١٠٧- الدعاء للطبراني. سليمان بن أحمد الطبراني. الطبعة الأولىٰ. تحقيق: مصطفىٰ عبد القادر عطا. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ.

١٠٨- دعوة التوحيد. محمد خليل هراس. الطبعة الأولىٰ. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

١٠٩- دفع إيهام التشبيه عن أحاديث الصفات. محمد السمهري. الطبعة الأولىٰ. الرياض: دار بلنسية، ١٤٢٠هـ.

١١٠- دلالة الأسماء الحسنىٰ علىٰ التنزيه، عيسىٰ السعدي، المكتبة الشاملة.

١١١- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين. محمد بن علاء الصديقي. ٨ مجلدات. "الطبعة بدون". تحقيق: جمعية النشر والتأليف الأزهرية. بيروت: دار الكتاب العربي، "تاريخ النشر بدون".

١١٢- رد الدارمي عثمان بن سعيد علىٰ بشر المريسي. تحقيق: محمد حامد الفقي. بيروت: دار الكتب العلمية، "تاريخ النشر بدون".

١١٣- الرد علىٰ الجهمية. عثمان بن سعيد الدارمي. الطبعة الأولىٰ. تحقيق: بدر البدر الكويت: الدار السلفية، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

١١٤- الرد علىٰ المنطقيين. أحمد بن تيمية. الطبعة الأولىٰ. تحقيق: محمد حسن إسماعيل. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

١١٥- الرسالة التبوكية. لابن القيم الجوزية. الطبعة الأولىٰ. تحقيق: سليم الهلالي. جدة: مكتبة الحزاز، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

١١٦- الرسالة التدمرية. أحمد ابن تيمية. تحقيق: محمد بن عودة السعوي. الطبعة السادسة. الرياض: مكتبة العبيكان،١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

١١٧- الرسالة الصفدية.أحمد ابن تيمية. الطبعة الأولىٰ. بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

١١٨- الروح. ابن قيم الجوزية.الطبعة الخامسة. تحقيق: يوسف علي بدوي. دمشق: دار ابن كثير، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

١١٩- روضة العقلاء ونزهة الفضلاء. لأبي حاتم بن حبان البستي. "الطبعة بدون". تحقيق: طارق بن علي. الدمام: دار ابن الجوزي، "تاريخ النشر بدون".

١٢٠- روضة المحبين ونزهة المشتاقين. لابن قيم الجوزية. الطبعة الأولىٰ. تحقيق: يوسف بديوي. دمشق: دار ابن كثير،١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

١٢١- زاد المسير في علم التفسير. لأبي الفرج عبد الرحمن الجوزي. ٨ مجلدات. الطبعة الأولىٰ. بيروت: دار الكتب العلمية،١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

١٢٢- زاد المعاد في هدي خير العباد. ابن القيم الجوزية. ٥ مجلدات. الطبعة الثامنة. تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وعبد القادر الأرناؤوط. بيروت: مؤسسة الرسالة، الكويت: مكتبة المنار الإسلامية، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

١٢٣- الزهد. ابن أبي حاتم. الطبعة الأولىٰ. تحقيق: منذر سليم الدومي. الرياض: دار أطلس، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

١٢٤- الزواجر عن اقتراف الكبائر.أحمد بن محمد الهيتمي. مجلدان. الطبعة الأولىٰ. بيروت: دار المعرفة، ١٤٩هـ/ ١٩٩٨م.

١٢٥- سنن ابن ماجه. لأبي عبد الله محمد بن زيد القزويني.، الطبعة الثانية. تعليق الألباني. تحقيق: مشهور آل سلمان، الرياض: مكتبة المعارف، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

١٢٦- سنن أبي داود. سليمان بن الأشعث السجستاني. الطبعة الثانية. بتعليق الألباني. تحقيق: مشهور آل سلمان. الرياض: مكتبة المعارف، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٧م.

١٢٧- سنن البيهقي. أحمد بن الحسين البيهقي. ١٠ مجلد. تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكة المكرمة: مكتبة دار الباز. ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

١٢٨- سنن الترمذي. لابي عيسىٰ محمد الترمذي. "الطبعة بدون". بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠١١م.

١٢٩- سنن الترمذي. محمد بن عيسىٰ الترمذي. الطبعة الثانية. بتعليق الألباني، تحقيق: مشهور آل سلمان. الرياض: مكتبة المعارف، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

١٣٠- السنن الكبرىٰ. أحمد بن شعيب النسائي. ١٢مجلد. الطبعة الأولىٰ. تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

١٣١- سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي. الطبعة الخامسة. تحقيق: مكتب تحقيق التراث الإسلامي. بيروت: دار المعرفة، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

١٣٢- السياسة الشرعية. أحمد ابن تيمية.الطبعة الأولىٰ. تحقيق: صالح اللحام. عمان: الدار العثمانية، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

١٣٣- سير أعلام النبلاء. شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي. ٢٥ مجلد. الطبعة: الثالثة. تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف شعيب الأرناؤوط. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م.

١٣٤- شأن الدعاء. حمد بن محمد الخطابي. الطبعة الثالثة. تحقيق: أحمد يوسف الدقاق. دمشق: دار الثقافة العربية، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

١٣٥- شذرات الذهب في أخبار من ذهب. ابن العماد العكري. ١١ مجلد. الطبعة الأولىٰ. تحقيق: محمود الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط. بيروت: دار ابن كثير، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

١٣٦- شرح ابن بطال علىٰ صحيح البخاري. لعلي بن خلف ابن بطال البكري. ١٠ مجلدات. الطبعة الأولىٰ. تحقيق: مصطفىٰ عطا. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

١٣٧- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم. أبي القاسم اللالكائي. ٥مجلدات. الطبعة الرابعة. تحقيق: أحمد بن سعد الغامدي. الرياض: دار طيبة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

١٣٨- شرح أصول الإيمان. لصالح بن عبد العزيز آل الشيخ. الطبعة الأولىٰ. تحقيق: عادل بن محمد الرفاعي. الرياض: دار العاصمة، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

١٣٩- شرح الأربعين النووية. ابن دقيق العيد. "الطبعة بدون". مكة: مكتبة الفيصلية، "تاريخ النشر بدون".

١٤٠- شرح الأربعين النووية. صالح آل الشيخ. الطبعة الأولىٰ. تحقيق: عادل رفاعي. الرياض: دار العاصمة،١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

١٤١- شرح الأربعين النووية. محمد بن صالح العثيمين. الطبعة الثالثة، الرياض: دار الثريا، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

١٤٢- شرح الرسالة التدمرية. عبد الرحمن البراك. إعداد: سليمان الغصن. الطبعة الأولىٰ. الرياض: كنوز أشبيليا، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

١٤٣- شرح السنة. الحسين بن مسعود البغوي. ١٦ مجلد. الطبعة الثانية. تحقيق: زهير الشاويش، وشعيب الأرناؤوط. بيروت ودمشق: المكتب الإسلامي، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

١٤٤- شرح الطحاوية. للقاضي علي بن محمد ابن أبي العز. مجلدين. الطبعة الثالثة. تحقيق: عبد الله التركي، وشعيب الأرناؤوط. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

١٤٥- شرح العبودية لابن تيمية. عبد العزيز الراجحي. الطبعة الأولىٰ. الرياض: دار الفضيلة،١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

١٤٦- شرح العقيدة الأصبهانية. أحمد ابن تيمية. الطبعة الأولىٰ. تحقيق: محمد السعوي. الرياض: مكتبة دار المنهاج، ودار جودة، ١٤٣٠هـ.

١٤٧- شرح العقيدة السفارينية الدرة المضية في عقد أهل الفرق المرضية. محمد بن عثيمين الطبعة الأولىٰ. الرياض: دار الوطن، ١٤٢٦هـ.

١٤٨- شرح العقيدة السّفارينيّة. محمد ابن عثيمين. الطبعة الأولىٰ. الرياض: مدار الوطن، ١٤٢٦هـ.

١٤٩- شرح العقيدة الطحاوية. سفرالحوالي. موقع الشيخ علىٰ الشبكة العنكبوتية.

١٥٠- شرح العقيدة الطحاوية. صالح آل الشيخ. مجلدين. الطبعة الأولىٰ. تخريج الأحاديث: سليمان القاطوني. المنصورة: دار المودة، ١٤١٣هـ/ ٢٠١١م.

١٥١- شرح العقيدة الطحاوية، خالد المصلح، الدرس الثالث، ص ٣٥، المكتبة الشاملة.

١٥٢- شرح العقيدة الواسطية محمد العثيمين. مجلدين. الطبعة الثانية. تحقيق: سعد الصميل. الدمام: دار ابن الجوزي،١٤١٥هـ.

١٥٣- شرح العقيدة الواسطية. محمد خليل الهراس. "الطبعة بدون". تحقيق: علوي السقاف. "مكان النشر بدون": دار الهجرة، "تاريخ النشر بدون".

١٥٤- شرح الفتوىٰ الحموية الكبرىٰ. صالح آل الشيخ، و عبد العزيز الراجحي. الطبعة الأولىٰ. القاهرة: دار ابن الجوزي، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٧م.

١٥٥- شرح القصيدة النونية. محمد خليل الهراس. مجلدين. الطبعة الثانية. تحقيق: محمد خليل الهراس. بيروت: دار الكتب العلمية،١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

١٥٦- شرح القواعد المثلىٰ في صفات الله وأسمائه الحسنىٰ. محمد بن عثيمين. "الطبعة بدون". "مكان النشر". "الناشر بدون": "تاريخ النشر بدون".

١٥٧- شرح الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية. ابن عثيمين. ٤مجلدات. الطبعة الأولىٰ. القصيم: مؤسسة الشيخ محمد العثيمين. ١٤٣٥هـ.

١٥٨- شرح ديوان أبي تمام. الخطيب التبريزي. مجلدين. الطبعة الثانية. تحقيق: راجي الأسمر. بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

١٥٩- شرح رياض الصالحين. محمد ابن عثيمين. ٤ مجلدات. الطبعة الثانية. الاسكندرية: دار البصيرة، "تاريخ النشر بدون".

١٦٠- شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري. عبد الله الغنيمان. مجلدين. الطبعة الثالثة. الرياض: دار العاصمة،١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

١٦١- شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري. عبد الله بن محمد الغنيمان. مجلدين. الطبعة الثانية. الرياض: دار العاصمة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

١٦٢- شرح كتاب الفقه الأكبر لأبي حنيفة. ملا علي القاري. "الطبعة بدون". "مكان النشر بدون": دار الكتب العربية الكبرىٰ، "تاريخ النشر بدون".

١٦٣- شفاء العليل. ابن القيم الجوزية. الطبعة الأولىٰ. تحقيق: السيد محمد السيد،وسعيد محمود. القاهرة: دار الحديث، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

١٦٤- الصحاح. إسماعيل الجوهري. الطبعة الأولىٰ. تحقيق: مكتب التحقيق بدار إحياء التراث العربي. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

١٦٥- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان. لعلاء الدين علي بن بلبان الفارسي. ١٨ مجلد. الطبعة الثالثة. تحقيق: شعيب الأرنؤوط. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

١٦٦- صحيح الأدب المفرد. البخاري. الطبعة الرابعة. تحقيق: ناصر الألباني. الجبيل: مكتبة الدليل، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

١٦٧- صحيح البخاري. محمد بن إسماعيل البخاري. "الطبعة بدون". اعتنىٰ به: أبو صهيب الكرمي. "مكان النشر بدون": بيت الأفكار الدولية، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

١٦٨- صحيح الترغيب والترهيب للمنذري. محمد ناصر الألباني. الطبعة الأولىٰ. "مكان النشر بدون": مكتبة المعارف،١٤٢١هـ.

١٦٩- صحيح مسلم. مسلم بن الحجاج النيسابوري. الطبعة الثانية. الرياض: دار السلام، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

١٧٠- الصفات الإلهية في الكتاب والسنة النبوية في ضوء الإثبات والتنزيه. محمد أمان الجامي. الطبعة الأولىٰ. القاهرة: دار المنهاج، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

١٧١- الصفات الإلهية.محمد خليفة التميمي. الطبعة الأولىٰ. الرياض: دار أضواء السلف، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

١٧٢- صفات الله الواردة في الكتاب والسنة. علوي عبد القادرالسقاف. الطبعة الثالثة. الثقبة: دار الهجرة للنشر والتوزيع، الظهران: الدرر السنية، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

١٧٣- صفة الملك بين الخالق والمخلوق المفهوم والفروق واللوازم. سعود العريفي. مجلة الأصول والنوازل. العدد الثامن. رجب ١٤٣٣هـ.

١٧٤- الصواعق المرسلة. ابن قيم الجوزية. اربع مجلدات. الطبعة الثالثة. تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله. الرياض: دار العاصمة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨.

١٧٥- الطب النبوي. ابن القيم الجوزية. الطبعة السابعة. تحقيق: السيد الجميلي. بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

١٧٦- طبقات الشافعية الكبرى. ابي نصر بن عبد الوهاب السبكي. ١٠ مجلدات. الطبعة: الثانية. تحقيق: محمود محمد الطناحي، وعبد الفتاح محمد الحلو. هجر للطباعة والنشر والتوزيع، دار احياء الكتب العربية. ١٤١٣هـ.

١٧٧- طريق الهجرتين وباب السعادتين. ابن القيم الجوزية. الطبعة الثالثة. تحقيق: يوسف علي بديوي. دمشق: دار ابن كثير، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

١٧٨- العبودية. أحمد ابن تيمية. الطبعة الثالثة. تحقيق: علي عبد الحميد. الإسماعيلية. "مكان النشر بدون": دار الأصالة، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

١٧٩- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين. ابن القيم الجوزية. "الطبعة بدون". تحقيق: إسماعيل بن غازي. دار عالم الفوائد، ١٤٢٩هـ.

١٨٠- العزلة. حمد محمد الخطابي. الطبعة الثانية. تحقيق: ياسين محمد السواس. دمشق: دار ابن كثير، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

١٨١- العقيدة التدمرية.أحمد ابن تيمية. الطبعة السابعة. تحقيق: محمد بن عودة السعوي. الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

١٨٢- عقيدة التوحيد وبيان ما يضادها أو ينقصها من الشرك الأكبر والأصغر والتعطيل والبدع وغيرها. صالح الفوزان. الطبعة الأولى. الرياض: دار العاصمة، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

١٨٣- عمدة القاري شرح صحيح البخاري.بدر الدين محمود بن أحمد العيني. ٢٥ مجلد. الطبعة الثانية. تحقيق: عبد الله محمود عمر. بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩م.

١٨٤- العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم. محمد بن إبراهيم بن الوزير اليماني. ٩مجلدات. الطبعة الثالثة. تحقيق: شعيب الأرناؤوط. بيروت: مؤسسةالرسالة،١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

١٨٥- عون المعبود شرح سنن أبي داود. أبي عبد الرحمن شرف الحق محمد أشرف الصديقي العظيم آبادي. ١٤ مجلد. الطبعة الأولىٰ. تحقيق: يوسف الحاج أحمد. دمشق: دار الفيحاء، ودار المنهل، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

١٨٦- فتاوىٰ اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (المجموعة الثانية). ١١مجلد. الطبعة الأولىٰ. تحقيق: أحمد بن عبد الرزاق الدويش. الرياض: دار العاصمة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

١٨٧- فتاوىٰ نور علىٰ الدرب. محمد العثيمين. ١٢ مجلد. الطبعة الثانية. القصيم: مؤسسة الشيخ محمد الخيرية، ١٤٣٤هـ.

١٨٨- فتاوىٰ ورسائل الشيخ عبد الرزاق عفيفي. اعداد: وليد بن إدريس بن منسي. مجلدين. الطبعة الأولىٰ. الرياض: دار الفضيلة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

١٨٩- فتح الباري شرح صحيح البخاري. ابن رجب الحنبلي. ٧ مجلدات. "الطبعة بدون". تحقيق: طارق بن عوض الله. "مكان النشر بدون": دار ابن الجوزي، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

١٩٠- فتح الباري. أحمد بن حجر العسقلاني. الطبعة الثالثة. الرياض: دار السلام، دمشق: دار الفيحاء، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

١٩١- فتح البيان في مقاصد القرآن. صديق حسن القنوجي. ١٥ مجلد. "الطبعة بدون" تحقيق: عبد الله الأنصاري. بيروت: المكتبة العصرية، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

١٩٢- فتح البيان في مقاصد القرآن. صديق بن حسن القنوجي. ٧مجلدات. الطبعة الأولىٰ. تحقيق: إبراهيم شمس الدين. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

١٩٣- فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق والأحكام المستنبطة من القرآن.عبد الرحمن السعدي. الطبعة الثالثة. تحقيق: عبد الرزاق البدر. الرياض: دار ابن الجوزي، ١٤٢٤هـ.

١٩٤- فتح القدير. محمد بن علي الشوكاني. ٦ مجلدات. الطبعة الأولىٰ. تحقيق: عبد الرزاق المهدي. بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

١٩٥- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد. عبد الرحمن بن عبد الوهاب. الطبعة الرابعة. تحقيق:عبد القادر الأرناؤوط. الرياض: دار المؤيد، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

١٩٦- الفتوىٰ الحموية الكبرىٰ. أحمد ابن تيمية. الطبعة الثانية. تحقيق: حمد التويجري. الرياض : دار الصميعي، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

١٩٧- الفرق بين الفرق. عبد القاهر بن طاهر البغدادي. " الطبعة بدون". تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. القاهرة: دار الطلائع، " تاريخ النشر بدون".

١٩٨- فرق معاصرة تنتسب إلىٰ الإسلام وبيان موقف الإسلام منها. غالب بن علي عواجي. ٣مجلدات. الطبعة الرابعة .جدة: المكتبة العصرية الذهبية،١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

١٩٩- الفُروق الأصولية عند الإمام الطُّوفي. ماجد بن صالح عجلان. جامعة أم القرىٰ، كلية الشريعة، قسم أصول الفقه،١٤٣٠هـ.

٢٠٠- الفروق اللغوية. أبو هلال العسكري."الطبعة بدون". تحقيق: محمد إبراهيم سليم. القاهرة: دار العلم والثقافة،"تاريخ النشر بدون".

٢٠١- الفروق في مباحث الكتاب والسنةعند الأصوليين جمعًا وتوثيقًا ودراسة.هشام بن محمد السعيد. رسالة ماجستير. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية،كلية الشريعة،قسم أصول الفقه، ١٤٢٣هـ.

٢٠٢- الفروق. أحمد القرافي. ٤ مجلدات. الطبعة الأولىٰ. تحقيق: خليل المنصور. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

٢٠٣- فقه الأسماء الحسنىٰ. عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر. الطبعة الثانية. الرياض: دار التوحيد، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

٢٠٤- الفوائد. ابن قيم الجوزية. "الطبعة بدون". تحقيق: محمد عزيز شمس. إشراف: بكر أبو زيد."مكان النشر بدون"، دار عالم الفوائد، "تاريخ النشر بدون".

٢٠٥- فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير. محمد عبد الرؤوف المناوي.٦ مجلدات. الطبعة الثالثة. تحقيق: أحمد عبد السلام. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

٢٠٦- قاعدة في المحبة لابن تيمية. تحقيق: فواز زمرلي. الطبعة الأولىٰ. بيروت: المكتب الإسلامي، ودار ابن حزم، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٢٠٧- قاعدة في المعجزات والكرامات وأنواع خوارق العادات. أحمد بن تيمية. ٥ مجلدات. "الطبعة بدون". تحقيق: محمد رشيد رضا. " مكان النشر بدون": " الناشر بدون"، " تاريخ النشر".

٢٠٨- القدر المشترك في معاني الصفات بين أهل السنة ومخالفيهم. عبد الرحمن بن عايد القصير.رسالة ماجستير. جامعة أم القرىٰ، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم العقيدة، ١٤٢٧هـ.

٢٠٩- قطف الجنىٰ الداني شرح مقدمة رسالة القيرواني. عبد المحسن العباد البدر. الطبعة الأولىٰ. الرياض: دار الفضيلة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٢١٠- القواعد الأربعة. مجموعة مؤلفات محمد بن عبد الوهاب. ٦ مجلدات.الطبعة الأولىٰ. الرياض: دار القاسم، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٢١١- القواعد الكلية للأسماء والصفات عند السلف. إبراهيم بن محمد البريكان. الطبعة الأولىٰ. الرياض: دار ابن القيم، والقاهرة: دار ابن عفان، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٢١٢- القواعد المثلىٰ في صفات الله وأسمائه الحسنىٰ. محمد العثيمين."الطبعة بدون". تحقيق: أشرف بن عبد المقصود.الرياض: مكتبة أضواء السلف، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

٢١٣- القوة في القرآن الكريم. رائد عبد الرحيم عاصي. جامعة النجاح الوطنية، كلية الدراسات العليا، أصول الدين، ٢٠٠٩م.

٢١٤- القول المفيد علىٰ كتاب التوحيد. محمد صالح ابن عثيمين.مجلدين. الطبعة الرابعة. الدمام: دار ابن الجوزي،١٤٢١هـ.

٢١٥- الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية. ابن القيم الجوزية. ٣ مجلدات. الطبعة الأولىٰ. تحقيق: محمد العريفي، ناصر الحنيني، عبد الله الهذيل، فهد المساعد. مكة: دار عالم الفوائد، ١٤٢٨هـ.

٢١٦- الكافية الشافية في الانتصارٍ للفرقة الناجية. لابن القيم الجوزية. الطبعة الثانية.إشراف: بكر أبو زيد. مكة: دار عالم الفوائد، ١٤٣٢هـ.

٢١٧- كتاب التوحيد ومعرفة أسماء الله عز وجل وصفاته علىٰ الاتفاق والتفرد. محمد ابن إسحاق ابن منده. ٣مجلدات. تحقيق: علي بن محمد الفقيهي،الطبعة الأولىٰ. المدينة المنورة: مطابع الجامعة الإسلامية،١٤٣١هـ.

٢١٨- كتاب العلم. لابن عثيمين. الطبعة الأولىٰ. تحقيق: فهد بن ناصر السليمان. الرياض: دار الثريا، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٢١٩- كشف المشكل علىٰ صحيح البخاري. لابن الجوزي. ٩مجلدات. الطبعة الأولىٰ. تحقيق: محمد حسن إسماعيل. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

٢٢٠- كشف ما ألقاه إبليس من البهرج والتدليس علىٰ قلب داود بن جرجيس. عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ الطبعة الأولىٰ. تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله آل حمد. الرياض: دار العاصمة، ١٤١٥هـ.

٢٢١- الكليات في معجم المصطلحات والفروق اللغوية. أيوب الكفوي. الطبعة الثانية. تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري. بيروت:مؤسسة الرسالة، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٢٢٢- اللآلئ البهية شرح العقيدة الواسطية. صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.مجلدين. الطبعة الأولىٰ. تحقيق: عادل بن محمد مرسي. الرياض: دار العاصمة، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

٢٢٣- اللباب في علوم الكتاب. عمر بن علي الدمشقي. ٢٠ مجلد. الطبعة الثانية. تحقيق: عادل عبد الموجود،علي معوض،محمدرمضان،محمد الدسوقي. بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠١١م.

٢٢٤- لسان العرب. ابن منظور. ١٨ مجلد. الطبعة الثالثة. تحقيق: أمين عبد الوهاب، محمد العبيدي. بيروت: دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

٢٢٥- لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة.. الطبعة الثانية. عبد الملك الجويني. تحقيق: فوقيه محمود. "مكان النشر بدون": عالم الكتب، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٢٢٦- لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية شرح الدّرة المضيئة في عقيدة الفرقة المرضية. محمد بن أحمد السفاريني. مجلدين. الطبعة الثالثة. بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٢٢٧- لوامع الأنوار البهية. محمد بن أحمد السفاريني. مجلدين. الطبعة الثانية. دمشق: مؤسسة الخافقين ومكتبتها، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٢٢٨- مادة صوتية بعنوان"فائدة جليلة في قواعد الأسماء الحسنىٰ". عبد الرزاق البدر. خمسة أشرطة. من موقع الشيخ علىٰ الشبكة العنكبوتية.

٢٢٩- متن العقيدة الطحاوية بيان عقيدة أهل السنة والجماعة. أبي جعفر الطحاوي. الطبعة الأولىٰ. بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

٢٣٠- المجلىٰ في شرح القواعد المثلىٰ في صفات الله وأسمائه الحسنىٰ لمحمد صالح العثيمين كاملة الكواري. الطبعة الأولىٰ. بيروت: دار ابن حزم،١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

٢٣١- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي.١٠ مجلدات. "الطبعة بدون". تحقيق: حسام الدين القدسي.القاهرة: مكتبة القدسي، ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٤ م.

٢٣٢- مجموع الرسائل. ابن القيم الجوزية. الطبعة الثالثة. تحقيق: عبد الرحمن بن قائد. مكة: دار عالم الفوائد، ١٤٣٣هـ.

٢٣٣- مجموع الفتاوىٰ. أحمد ابن تيمية.٣٧مجلد." الطبعة بدون". جمع وترتيب: عبد الرحمن بن قاسم الحنبلي، وابنه محمد.الرياض: دار عالم الكتب، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

٢٣٤- مجموع فتاوىٰ ورسائل الشيخ محمد بن صالح العثيمين. جمع: فهد بن ناصر السليمان. "الطبعة بدون". "مكان النشر بدون، "الناشر بدون"، "تاريخ النشر بدون".

٢٣٥- مجموع فتاوىٰ ومقالات متنوعة. عبد العزيز بن باز. الطبعة الأولىٰ. جمع وترتيب: محمد الشويعر. "مكان النشر بدون": دار بلنسية، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٢٣٦- مجموعة مؤلفات محمد بن عبد الوهاب. ١٣ مجلد. "الطبعة بدون". تحقيق: عبد العزيز الروحي، ومحمد البلتاجي، وسيد حجاب. "مكان النشر بدون": مكتبة ابن تيمية، "تاريخ النشر بدون".

٢٣٧- محاسن التأويل. محمد القاسمي. ١٧مجلد.الطبعة الثانية. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. بيروت: دار إحياء الفكر، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

٢٣٨- محاسن التأويل. محمد القاسمي. ٩مجلدات. "الطبعة بدون". تحقيق: أحمد بن علي، وحمدي صبح. القاهرة: دار الحديث، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٢٣٩- محبة الرسول بين الاتباع والابتداع. الطبعة الأولىٰ. الرياض: رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد إدارة الطبع والترجمة،١٤١٤هـ. المكتبة الشاملة.

٢٤٠- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. ابن عطية.١٥ مجلد. الطبعة الثانية. تحقيق:عبد الله الأنصاري، السيد عبد العال السيد. "مكان النشر بدون": "الناشر بدون"، "تاريخ النشر بدون".

٢٤١- مختصر الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة. ابن القيم الجوزية. ٤ مجلدات. "الطبعة بدون". اختصار: محمد الموصلي. تحقيق: الحسن العلوي. "مكان النشر بدون": مكتبة أضواء السلف، "تاريخ النشر بدون".

٢٤٢- المخصص. علي بن إسماعيل الأندلسي المعروف بابن سيده. ٥مجلدات. الطبعة الأولىٰ. تحقيق: مكتب التحقيق بدار إحياء التراث العربي. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

٢٤٣- مدارجالسالكين. ابنالقيمالجوزية. ٤مجلدات. الطبعةالأولىٰ.تحقيق: عبدالعزيزناصرالجليل.الرياض : دارطيبة، ١٤٢٣هـ.

٢٤٤- مدخل لدراسة العقيدة. عثمان جمعة ضميرية. الطبعة الرابعة. جدة: مكتبة السوادي، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

٢٤٥- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح. علي بن سلطان القاري.١١ مجلد. تحقيق: جمال عيتاني، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠١٢م.

٢٤٦- المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل، في العقيدة. مجلدين. الطبعة الثانية. جمع وتحقيق: عبد الإله الأحمدي. الرياض: دار طيبة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

٢٤٧- المستدرك علىٰ الصحيحين. لمحمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري. ٦ اجزاء. الطبعة الأولىٰ. تحقيق: عبد السلام علوش. بيروت: دار المعرفة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

٢٤٨- المستدرك علىٰ مجموع الفتاوىٰ. ٥ مجلدات. الطبعة الأولىٰ. جمعه ورتبه: محمد بن عبد الرحمن قاسم. ١٤١٨هـ.

٢٤٩- مسند الإمام أحمد. أحمد بن حنبل.٢٥ مجلد. الطبعة الثانية. المشرف العام: عبد الله التركي. المشرف علىٰ التحقيق: شعيب الأرناؤوط. بيروت: مؤسسة الرسالة،١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٢٥٠- مسند الدارمي. عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي. ٤ مجلدات. الطبعة الثانية. بيروت: دار ابن حزم، الرياض: دار المغني،١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

٢٥١- المستطرف في كل فن مستظرف. شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي. ٢مجلدات. الطبعة الثانية. تحقيق : مفيد محمد قميحة. بيروت: دار الكتب العلمية،١٩٨٦هـ.

٢٥٢- المصباح المضيء في كتاب النبي الأمي ورسله إلىٰ ملوك الأرض من عربي وعجمي. محمد بن حديدة الأنصاري. مجلدان. تحقيق : محمد عظيم الدين. بيروت: عالم الكتب. ١٤٠٥هـ.

٢٥٣- المصباح المنير. أحمد الفيومي الحموي. الطبعة الأولىٰ. تحقيق أحمد جاد. القاهرة، المنصورة: دار الغد الجديد ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

٢٥٤- المصنف. عبد الرزاق الصنعاني. ١١مجلد. الطبعة الثانية. تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي. بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٢٥٥- مصطلحات في كتب العقائد دراسة وتحليل. محمد إبراهيم الحمد. الطبعة الأولىٰ. الرياض: دار ابن خزيمة، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.

٢٥٦- معارج القبول بشرح سلم الوصول. حافظ بن أحمد الحكمي. ٣مجلدات. الطبعة الثالثة. تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر. الدمام: دار ابن القيم، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٢٥٧- معالم التنزيل. الحسين ابن مسعود البغوي. الطبعة الأولىٰ. ٤ مجلدات. تحقيق:محمد النمر،وعثمان ضميرية، وسليمان الحرش. الرياض: دار طيبة،١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٢٥٨- معالم السنن شرح سنن أبي داود.لأبي سليمان حمد بن محمد الخطابي. ٤مجلدات. "الطبعة بدون". تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

٢٥٩- معاني القران واعرابه. إبراهيم الزجاج.٤مجلدات. الطبعة الأولىٰ. تحقيق: عبد العزيز شلبي. بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٢٦٠- معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات. محمد بن خليفة التميمي. الطبعة الأولىٰ. الرياض: مكتبة أضواء السلف، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

٢٦١- معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلىٰ معرفة الأديب. ياقوت الحموي الرومي. ٧ مجلدات. الطبعة: الأولىٰ. تحقيق: إحسان عباس. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٣م.

٢٦٢- المعجم الأوسط. سليمان بن أحمد الطبراني. ١٠ مجلدات. "الطبعة بدون". تحقيق: طارق بن محمد، وعبد المحسن الحسيني. القاهرة: دار الحرمين، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٢٦٣- معجم البلدان. ياقوت بن عبد الله الحموي. ٥مجلدات. بيروت: دار الفكر.

٢٦٤- المعجم الكبير للطبراني. لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبري. ٢٥ مجلد.الطبعة الثانية. تحقيق: حمدي السلفي. الرياض: مكتبة الرشد، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.

٢٦٥- معجم اللغة العربية المعاصرة. أحمد مختار عمر. اربع مجلدات. الطبعة الأولىٰ. القاهرة: عالم الكتب، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٢٦٦- معجم المؤلفين. عمر بن رضا كحالة. ١٣ مجلد. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٢٦٧- معجم المناهي اللفظية ويليه فوائد في الألفاظ. بكر أبو زيد. الطبعة الثالثة. الرياض: دار العاصمة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

٢٦٨- المعجم الوسيط. إبراهيم مصطفىٰ وآخرون."الطبعة بدون".استانبول: المكتبة الإسلامية، "تاريخ النشر بدون".

٢٦٩- معجم مقاييس اللغة. أحمد بن فارس الرازي. مجلدين. الطبعة الثانية. تحقيق: إبراهيم شمس الدين. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨.

٢٧٠- المغنىٰ في أبواب العدل والتوحيد. القاضي أبي الحسن عبد الجبار. ٢٠مجلد. "الطبعة بدون". تحقيق: محمود محمد قاسم. "مكان النشر بدون"، "الناشر"، "تاريخ النشر".

٢٧١- مفاتيح الغيب. محمد الرازي. ٣٢ مجلد. الطبعة الأولىٰ. بيروت: دار الفكر،١٤٠١هـ/ ١٩٨١م،

٢٧٢- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة. ابن القيم الجوزية. ٣مجلدات. الطبعة الأولىٰ. تحقيق: علي بن حسن الحلبي. راجعه: بكر أبو زيد. الخبر: دار عفان، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

٢٧٣- مفردات ألفاظ القرآن. الراغب الأصفهاني. الطبعة الثانية. تحقيق: صفوان عدنان داوودي. دمشق: دار القلم، بيروت: الدار الشامية، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٢٧٤- المفردات في غريب القرآن. الراغب الأصفهاني. مجلدين."الطبعة بدون" تحقيق: مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفىٰ الباز."مكان النشر بدون": مكتبة نزار مصطفىٰ الباز،"تاريخ النشر بدون".

٢٧٥- المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم. لأبي العباس أحمد القرطبي. ٧ مجلدات. الطبعة الأولىٰ. تحقيق: محيي الدين مستو، أحمد السيد، يوسف بديوي محمود بزال. دمشق: دار ابن كثير، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

٢٧٦- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين. علي بن إسماعيل الأشعري أبو الحسن. الطبعة الثالثة. تحقيق : هلموت ريتر. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٢٧٧- مقالة التشبيه وموقف أهل السنة منها. جابر بن إدريس أمير. ٣مجلدات. الطبعة الأولىٰ. الرياض: أضواء السلف، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

٢٧٨- المقصد الأسنىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ. أبي حامد الغزالي. "الطبعة بدون". تحقيق: محمد عثمان. القاهرة: مكتبة القرآن، "تاريخ النشر بدون".

٢٧٩- المنتقىٰ شرح موطأ مالك. لسليمان بن خلف الباجي. ٩ مجلدات. "الطبعة بدون". تحقيق: محمد تامر. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، "تاريخ النشر".

٢٨٠- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية.أحمد بن تيمية. ١١مجلد.الطبعة الأولىٰ. تحقيق: محمد سالم رشاد.١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٢٨١- المنهاج شرح صحيح مسلم. محيي الدين النووي. ١٨ مجلد. الطبعة السابعة عشر. تحقيق: خليل شيحا. بيروت: دار المعرفة،١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

٢٨٢- منهج ابن القيم في شرح أسماء الله.مشرف الغامدي.رسالة ماجستير. جامعة أم القرىٰ، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم العقيدة، ١٤٢٣هـ.

٢٨٣- المنهج الأسنىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ. زين محمد شحاته. الطبعة الأولىٰ. "مكان النشر بدون": الناشر الدولي، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

٢٨٤- منهج شيخ الإسلام في تقرير عقيدة التوحيد. إبراهيم بن محمد البريكان.مجلدين. الطبعة الأولىٰ. الرياض: دار ابن القيم،والقاهرة : دار ابن عفان، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٢٨٥- منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات. محمد الأمين الشنقيطي. الطبعة الأولىٰ. الشارقة: دار الفتح، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٢٨٦- المواهب الربانية من الآيات القرآنية. عبد الرحمن بن ناصر السعدي. الطبعة الثالثة. تحقيق: سمير الماضي. الدمام: دار المعالي، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

٢٨٧- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة . الندوة العالمية للشباب الإسلامي. ٢مجلدات. إشراف وتخطيط ومراجعة: د. مانع بن حماد الجهني. دار الندوة العالمية.

٢٨٨- موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة. سليمان بن صالح الغصن. مجلدين. الطبعة الأولىٰ. الرياض: دار العاصمة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

٢٨٩- ميزان الاعتدال. محمد بن أحمد الذهبي. تحقيق: علي البجاوي. بيروت: دار المعرفة.

٢٩٠- النبوات. لأبي العباس أحمد بن تيمية. مجلدين. الطبعة الأولىٰ. تحقيق: عبد العزيز الطويان. الرياض: دار أضواء السلف، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٢م.

٢٩١- نتائج الفكر في النحو. عبد الرحمن السهيلي. الطبعة الأولىٰ. تحقيق: عادل أحمد، علي معوض. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٢٩٢- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. إبراهيم بن عمر البقاعي. ٨ مجلدات. الطبعة الثالثة. تحقيق: عبد الرزاق غالب المصري. بيروت: دار الكتب العلمية،٢٠٠٦م.

٢٩٣- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. لأبي الحسن إبراهيم البقاعي. ٨ مجلدات.الطبعة الأولىٰ. تحقيق: عبد الرزاق المهدي. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٢٩٤- النفي في باب صفات الله عز وجل بين أهل السنة والجماعة والمعطلة. أرزقي بن محمد سعيداني. الطبعة الأولىٰ. الرياض: مكتبة دار المنهاج، ١٤٢٦هـ.

٢٩٥- النهاية في غريب الحديث والأثر. مجد الدين محمد الجزري ابن الأثير. ٥مجلدات. "الطبعة بدون". تحقيق: محمود الطناجي، وطاهر الزاوي. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، "تاريخ النشر بدون".

٢٩٦- النهج الأسمىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ. محمد محمود النجدي. الطبعة الثالثة. الكويت: مكتبة الإمام الذهبي،١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

٢٩٧- النور الأسنيفي شرح أسماء الله الحسنىٰ. أمين بن الحسن الأنصاري. المكتبة الشاملة.

٢٩٨- هداية الرواة إلىٰ تخريج أحاديث المصابيح والمشكاة.أحمد بن حجر العسقلاني. ٦ مجلدات. الطبعة الأولىٰ. تعليق :محمد ناصر الدين الألباني، علي حسن عبد الحميد الحلبي الأثري. "مكان النشر بدون":دار ابن القيم، دار ابن عفان، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٢٩٩- الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب. ابن القيم الجوزية.الطبعة الثالثة. تحقيق: عبد الرحمن بن قائد.مكة: دار عالم الفوائد، ١٤٣٣هـ.

٣٠٠- الوافي في اختصار شرح عقيدة أبي جعفر الطحاوي. صالح بن عبد العزيز آل الشيخ. الطبعة الأولىٰ. اختصار: مهدي بن عماش الشمري. مصر: دار التأصيل، وأبو ظبي: دار الإمام مالك، والرياض: دار البينة، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٧م.

٣٠١- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. ابن العباس أحمد بن محمد البرمكي الإربلي. ٧ مجلدات. تحقيق: إحسان عباس. بيروت: دار صادر، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

٣٠٢- ولله الأسماء الحسنىٰ فادعوه بها. لعبد العزيز بن ناصر الجليل. الطبعة الثالثة. الرياض: دار طيبة،١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

فهرس الموضوعات